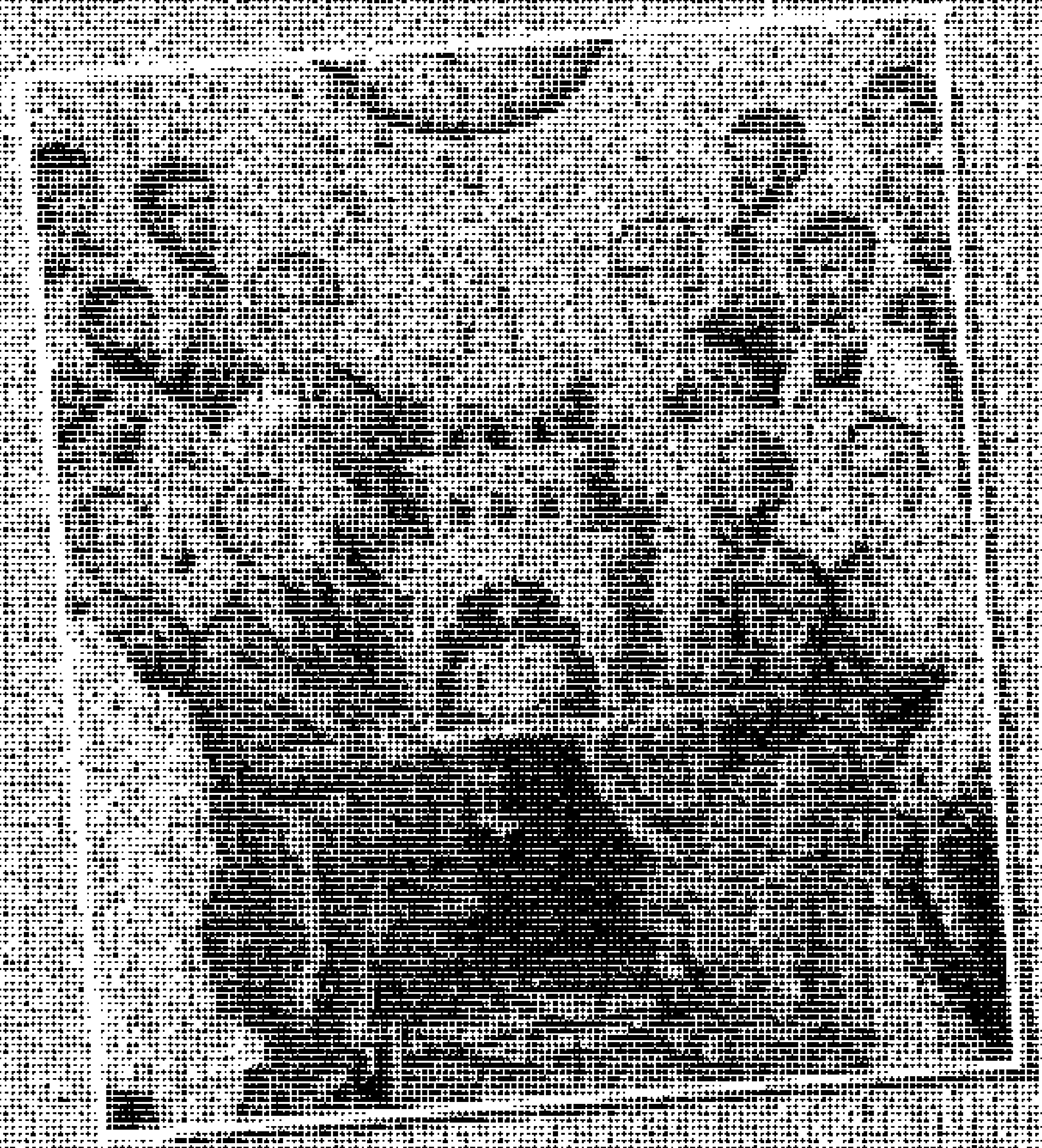

صورة الغلاف:

الرسل أركان الكنيسة.

أيقونة يونانية من أواخر القرن السابع عشر.

دليل إلى قراءة

تاريخ الكنيسة

المجلد الثالث

الكنائس الشرقية الكاثوليكية

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٩٧
دار المشرق – ص. ب. ٩٤٦، بيروت – لبنان

ISBN 2-7214-4818-8

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
ص. ب. ١٩٨٦، بيروت

دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة

المجلّد الثاني

الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة

دار المشرق - بيروت

ساهم في إصدار

«دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة – المجلّد الثاني –: الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة»

لجنة الإشراف	سيادة المطران يوسف ضرغام، المدير الفنّيّ نيافة الأنبا يوحنا قلته، المستشار الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ، الأمين التنفيذيّ
المراجعة العامة	الأب صبحي حموي اليسوعيّ
التأليف	تسبق أسماء المؤلّفين تاريخ كلٍّ من الكنائس

فهرس المحتويات

المقدّمة ٩

كنيسة الأرمن الكاثوليك ١٥

كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك ٤٥

كنيسة السريان الكاثوليك ١٢٣

كنيسة الأقباط الكاثوليك ١٤٣

الكنيسة الكلدانيَّة السريانيَّة الشرقيَّة الكاثوليكيَّة ٢٠٣

الكنيسة اللاتينيَّة: البطريركيَّة اللاتينيَّة الأورشليميَّة ٢٤٧

الكنيسة المارونيَّة ٢٩٧

كنيسة أثيوبيا الكاثوليكيّة ٣٤٣

المقدّمة

صدر الجزء الأول من «دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة» وقد خلا من الحديث عن مسيرة الكنائس الكاثوليكية في الشرق، لأن المؤلِّف الفرنسي، جان كُمبي، اهتمَّ، أوّل ما اهتمّ به، بتاريخ الكنيسة في الغرب. لذا رأت لجنة تعريب الكتاب ضرورة إضافة تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في الشرق، وذلك لدافعين: أولاً ليكوّن الكتاب بجزئيه، الأول والثاني، رؤية متكاملة لمسيرة الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً. ثانياً: لأن للكنائس في الشرق العربي دعوة خاصةً بها. فقد شاءت العناية الإلهية أن تحمل هذه الكنائس رسالة الإيمان بسرّ التجسّد والفداء والقيامة في مناخ إسلامي، فتظلّ شاهدة على الإيمان في بقعة من العالم انطلقت منها الأديان وكأنها منطقة تتسربل بأسرار الروح، عطّرتها حياة نسكية عاشها آباء لنا وشهداء. ولم تزل هذه الكنائس في الشرق العربي، بالرغم من ضآلة حجمها في وطنها الإسلامي، تؤدّي رسالتها الهامّة وكأنّها الاتّصال الدائم في مسيرة الإيمان خلال القرون العابرة.

ولقد طلبنا إلى متخصّصين أن يوجزوا أهمّ ملامح كنيستهم. ولعلّ هذه النظرة الشاملة تساعد القارئ على تكوين فكرة متكاملة واضحة، وإن كانت مقتضبة، عن كل كنيسة من الكنائس الشرقية الكاثوليكية. وقد أتى الترتيب أبجدياً.

كما أننا أضفنا عرضاً للكنيسة الأثيوبيّة لما لها من علاقة وطيدة بالكنائس الشرقية، إذ أسّستها كنيسة الإسكندرية.

لقد أشرق نور العنصرة على الرسل والتلاميذ وهم مجتمعون كلّهم معاً في مكان واحد (رسل ٢/١). فامتلأت أرواحهم بنعمة الروح المتجلّي في ألسنة من نار، رمزاً إلى ان الروح يقود الكنيسة، من خلال رحلتها في تاريخ البشرية. فانطلق شهود سرّ التجسّد والفداء والقيامة إلى جميع أرجاء المسكونة، كما أوصاهم معلّمهم بذلك (مر ١٦/١٥) وكأن شعلة إلهية قد أُشعلت في نبضات قلوبهم، وعليهم أن يُشعلوها في كل قلب وضمير. وسرت النعمة الإلهية لتقيم من الأسرة

البشرية كنيسة واحدة، ملكوت الله في الأرض، وليمتدّ الجسد السرّي الواحد، رأسه المسيح المخلّص الفادي، ليشمل كل إنسان يشاء أن يتّحد به.

وكان من البديهي أن ينطلق الرسل إلى أنحاء فلسطين والبلاد المجاورة، حاملين إلى إخوتهم من أهل الشرق رسالة الإنجيل. ولم يكن الشرق الأدنى، في تلك الحقبة من التاريخ، إلاّ ولاية رومانية، سيطر الرومان على شمال غربها وحكموا الشمال وفلسطين وأقاموا من القبائل العربية حلفاء لهم. وسيطرت فارس على شمال شرق شبه الجزيرة العربية وأرض أشّور وبابل، وظلّت القبائل العربية منقسمة، ينتمي بعضها إلى الحكم الروماني وبعضها الآخر إلى الحكم الفارسي، حتى الفتح العربي.

ذُكر العرب بين الشعوب المختلفة التي استمعت إلى خطبة بطرس الرسول بعد العنصرة (رسل ٢/١١). وتشير التقاليد إلى أن توما الرسول، في طريقه إلى تبشير الهند، أقام في شبه الجزيرة العربية وبشّر أهلها بالإنجيل. فاعتنقت قبائل عربية المسيحية. وتكوّنت الجماعات المسيحية الأولى، متّخذة طابع الحياة القبلية، ورُسم الأساقفة من أبناء كل قبيلة لخدمتها وللقيام بتعليمها وغرس القيم المسيحية فيها. وفي حقيقة الأمر، ظلّت المسيحية ذات أثر ضعيف في الحجاز، أو في شبه الجزيرة، في مكّة أو في المدينة، حيث لم يستطع المسيحيون أن يكوّنوا وحدة حقيقية، كما أعوزهم التماسك الاجتماعي. فظلّوا في قلب شبه الجزيرة أقلّية، من صغار الناس، يسكنون الأحياء المتطرّفة عن مركز المدينة، في حين ظهر اليهود قوّة منظّمة يضمّهم رباط وثيق.

وإلى جانب اليهود والمسيحيين، ظلّت الأغلبية من سكّان شبه الجزيرة ترفض الديانتين، وكثير منهم آمن بالوحدانية أو بالحنيفية، نسبةً إلى إبراهيم الحنيف أبي الآباء، يتطلّعون إلى دين متجرّد من العقائد والمذاهب، بساطةً ويسرًا.

وفي القرن الثالث الميلادي، بدت المسيحية راسخة قويّة في مصر وفلسطين وسورية ولبنان وآسية الصغرى. وكانت الإسكندرية قد توهّجت كمركز ثقافي مسيحي، وكأنها أضحت منارة العالم المسيحي اللاهوتية بمدرستها وعلمائها وقدّيسيها. ولم تتخلّف أنطاكية في سورية، إذ توهّجت مدرستها اللاهوتية بدون صبغة فلسفية غالبة. ونجحت المدرستان في أن تزاوجا بين الثقافة الهلّينية التي سادت قرونًا طويلة والفكر المسيحي، بدون أن تشوّها المبادئ المسيحية أو تخففًا من بهائها.

وفي فلسطين، نمت مسيحية في اللغة الآرامية، ومضت مسيحية الشرق في بلورة إيمانها في مناخ فكري هلّيني وفي وضع أسس طقوسها الرائعة لتعبّر عن العقيدة المسيحية في جلالها الإلهي. وكان اضطهاد ديوقليتيانس (٣٠٣–٣٠٤م) المحاولة الأخيرة لرأب التصدّع وإنقاذ الإمبراطورية التي هزّ جميع تقاليدها وتراثها إيمانٌ يساوي بين البشر كافّة ويعلن محبّة الخالق لكل إنسان.

ولكن النور الإلهي أقوى من جميع ظلمات العنف والجهل، إذ بسطت المسيحية

أشعتها على جميع أنحاء الإمبراطورية، واعترف قسطنطين بالمسيحية ديناً له (٣١٣). وحدث الانقسام الكبير بين الشرق والغرب في أعقاب مجمع خلقيدونيا عام ٥٤١، بعد صراع حاد على المفاهيم الخاصة بشخص المسيح وطبيعته الإلهية وطبيعته الانسانية. وأشعلت التعابير اليونانية المستحدثة للتعبير عن الإيمان خلافاً قوياً عمّقه تنوّع اللغات واللهجات واتّجاه الفكر، وتأثير الفلسفة الأفلاطونية والأرسططالية في المدرسة الإسكندرية. وانتهى الأمر بانقسام خطير بين الكنائس الملكية البيزنطية المتّحدة بكرسي رومة والكنائس الشرقية. وبدا الأمر، منذ نهاية القرن الخامس الميلادي، وكأن المسيحية قد أضحت مذهبين كبيرين، المذهب الأرثوذكسي أو اليعقوبي، والمذهب الملكي أو البيزنطي أو الكاثوليكي. وتفجّرت صراعات واضطهادات مريرة بين الملكيين والكنائس الشرقية. وبدأت رحلة الانقسام والعزلة والانطواء وكأن الأرض أُعدّت خصبة لظهور الإسلام وانتشاره، وهو الدين الجديد الذي حسم الموقف واكتسح الإمبراطورية، وأعاد المنطقة العربية إلى الإيمان بالوحدانية، لا ثالوث فيها ولا تعقيد لفهم الإيمان.

إن تاريخ الكنائس الشرقية هو، بحقّ، تاريخ الفداء والقيامة. لقد طويت صفحات من هذا التاريخ المجيد تحت ضغط عوامل كثيرة. فتوهّجت الانتصارات الإسلامية الساحقة على أكبر إمبراطوريتين في ذلك العصر، وهما إمبراطورية فارس وإمبراطورية بيزنطية، فكان ذلك مثيراً للإعجاب. فقد ورث المسلمون العرب الفاتحون جميع كنوز الإمبراطوريتين، ولم تكن الكنائس العربية بعيدة عن تأثير الفكر الإسلامي، بل عرف العرب الفاتحون المسلمون كيف يتعاملون مع أبناء جنسهم ودمهم، العرب المسيحيين، بروح سمحة، وتركت للكنائس حريّتها في سنوات الفتح الإسلامي الأولى. ولكن لم يدم هذا التسامح الإسلامي طويلاً، بعد أن دخل الإسلام عناصر غير عربية تجهل تماماً التراث المسيحي العربي وأواصر الدم والنسب بين القبائل العربية. ومن ثمّ عانى المسيحيون أشدّ المعاناة من بعض الحكّام ومن ثورات الرعاع، ولا سيّما في زمن الحروب، طيلة قرون الفتح العربي الأولى.

وانطوت تلك الكنائس الشرقية على نفسها من جهة، والتفّت حول بطاركتها من جهة أخرى، وأضحت جماعات صغيرة، لكل كنيسة حياتها وطقوسها ورؤساؤها ورهبانها وكهنتها، تستميت في الدفاع عن جوهر الإيمان في خضمّ بحر متلاطم الأمواج، يضمّ شعوباً وأمماً تحت لواء الإسلام الفاتح الكاسح.

وانتهت تلك الكنائس إلى أن تصبح جماعات شبه مستقلّة في داخل الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف، يتعامل الحاكم المسلم مع كل كنيسة على حدة، وتتوطّد العلاقات حيناً وتتوتّر أحياناً، ويبزغ نجم مسيحي عربي فيصل إلى منصب هام في الدولة، ويتقرب إلى الحاكم، وبالتالي يرفع من شأن كنيسته، أو يغضب الحاكم على أبناء كنيسة، فيسقط عليهم غضبه ويضيّق الخناق عليهم، فيتسلّل بعضهم إلى الإسلام طلباً للنجاة، أو يهاجر بعضهم الآخر هرباً من

بطاركة الشرق الكاثوليك

جحيم التعصّب والاضطهاد. وفي لمحة خاطفة، يمكن القول بأن الكنائس المسيحية في الشرق العربي، منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم، تحيا في إطار يرتكز على أسس أربعة تسمح لكل كنيسة بأن تعتمد عليها كعناصر لا تتغيّر وتمنح المؤمنين الإحساس بالأمان والثبات: النظام البطريركي – النزعة العقائدية – التراث الطقسي ولغته – استقلالية كل كنيسة.

ففي القرن المسيحي الأول، كان الرسل يؤسّسون الكنائس ويقيمون عليها أساقفة. وكان أساقفة المدن الصغرى يخضعون لأسقف العاصمة. هكذا أصبحت عواصم المقاطعات الرومانية المدنية مراكز لرؤساء الأساقفة الذين دعوا، في ما بعد، بطاركة. فالبطريرك هو إذاً أسقف ذو سلطان على سائر الأساقفة المقيمين في حدود إيبارشيته. هكذا نشأت البطريركيات الأولى الكبرى: رومة، أنطاكية، الإسكندرية، وفي ما بعد، بيزنطية وأورشليم، ثمّ بابل وقبرس وموسكو الخ.

إن الغاية من هذا الكتاب هو أن نبيّن أن الكنيسة حيّة في الشرق، بالرغم من الصعوبات التي تعترض مسيرتها أحياناً. هي حيّة في المجالات اللاهوتية والروحية والرعوية، وفي المجالات الثقافية والحضارية والتنموية والاجتماعية والتربوية. هي حيّة في خدمة المؤمنين والمجتمعات العربية على اختلاف أنظمتها.

ونحن لا نتكلّم على الماضي كمن يحاول بعث الأموات، بل لأن الحاضر لا يفهم إلاّ في ضوء الماضي، ولأن من لا تاريخ له لا جذور له، ولأن المسيحي يعرف أن الربّ هو سيّد التاريخ، وإن كان الإنسان هو صانعه. فحياة الإنسان في يد الربّ، وإن «شعرة من رؤوسكم لا تهلك من دون إرادة أبيكم» (متى ١٠/٣٠).

إن الضمير المسيحي الشرقي حيّ لا يتجمّد

ولا يموت ولا ينغلق على نفسه. فهو يعي أنه جزء لا يتجزأ من كنيسة كبرى نصفها الثاني في الغرب، وأنه يحمل رسالة إلى عالمه الشرقي الذي لم يشأ يوماً أن ينفصل عنه. تريد كنائس الشرق الكاثوليكية أن تكون منفتحة، محاورة، متواضعة، محبّة. تريد أن تكون كنيسة من أجل العالم، كما يوضح ذلك المجمع الفاتيكاني الثاني في الدستور الرعوي حول «الكنيسة في عالم اليوم». هذه هي إرادة المسيح المؤسّس. تريد أن تكون كنيسة خادمة، خادمة الكلمة والاسرار، وخادمة الناس. هناك رباط أخوي يشدّها إلى محيطها المشرقي، يشدّ بعضها إلى بعض، كما يشدّها إلى سائر الكنائس المنتشرة في العالم قاطبة.

نتعلّم من التاريخ أنه، في الكنيسة الأولى، كانت عدّة مقاطعات يترأس كلاًّ منها أسقف لا يقوم بعمل إلاّ بالاتّفاق مع إخوته الأساقفة، كما كان جميع هؤلاء الاساقفة يذكرون بعضهم بعضاً في الإفخارستيّا التي هي سرّ المحبة والوحدة. إن معرفة هذه الحقيقة توجّه كنائس اليوم نحو تجديد مستمرّ. ولكن هذا الرباط الأخوي الوثيق لا ينفي ما لكل كنيسة من خصائص ومميّزات. فالحوار بين الكنائس يجب أن يقوم على احترام الفروقات التي تكوّن ثراءً متبادلاً متكاملاً، إذ لا يمكن ان تعبّر كنيسة واحدة عن ملء غنى المسيح وقامته. اننا نحافظ محليّاً على وجود الكنيسة الجامعة التي تجمع البُعدين المحلّي والجامعي. ولكم شدّد الشرق على أهمّية الأسقف والإفخارستيّا، فتتشيّد حولهما الكنيسة المحلّية، والأسقف هو العنصر المرئي، والإفخارستيّا هي العنصر غير المرئي.

وفي نهاية الأمر، هو الروح القدس الذي يجمع مختلف الكنائس في شركة في ما بينها. هو صانع الوحدة وهو الوجه غير المرئي لهذه الوحدة، في حين أن البابا هو وجهها المرئي وخادمها.

إن كنائس الشرق الكاثوليكي ترحّب بالحركة المسكونية وترى فيها عمل الروح، وهي تشارك في الاجتماعات المنظّمة الصادرة عن إرادة الربّ والمرتكزة على المحبّة الصافية النابعة من قلب يسوع المطعون على الصليب، ناسيةً الخلافات القديمة وكل جدل عقيم، وذاكرة دم الشهداء المشترك بين جميع الكنائس، من دم إسطفانس إلى دم شهداء الدياميس، إلى دم شهداء الأنظمة الدكتاتورية الحديثة. وهي تقرّ الاعتراف بأخطاء الماضي وبالتوبة عنها وبقبول الآخر كما هو. كما أنّها تقرّ الاعتراف بكيانه وبعدم النظر إلى الماضي، بل إلى المستقبل: «أنسى ما ورائي وأتمطّى إلى الأمام»(فل ١٣/٣)، وبالتعاون مع سائر الكنائس لبنيان الإنسان المسيحي والمجتمعات العربية، وبالاعتماد على روح الله الذي يجمع ما فرّقه الإنسان، إمّا عن كبرياء وإمّا عن جهل.

والكنائس الشرقية الكاثوليكية تنطلق، في علاقاتها مع الإسلام، من تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني ومن رسائل بطاركة الشرق الكاثوليك، ومن توجيهات مجمع الحوار بين الأديان. فهي، إذ تنظر بعين الاحترام إلى المسلمين، تمدّ لهم يد التعاون في مجالات الحياة اليومية وتتصرف بإخلاص «إلى التفاهم المتبادل وإلى تعزيز العدالة الاجتماعية وصونها والخيور الاخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع

الناس» (تصريح المجمع حول «علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية»، عدد ٣). إن كنائس الشرق الكاثوليكية تريد تشييد علاقات جديدة مع محيطها، مبنيّة على العدالة والمحبة واحترام حقوق الإنسان، كما أنها ترجو أن يأتي هذا الكتاب حجراً في بناء عالم مشرقي أفضل وخمير محبّة شاملة لا يحدّها زمان أو مكان، دين أو طائفة، حضارة أو عقلية.

تلك هي نقاط نبسطها في المقدّمة، تساعد القارئ على تفهّم تاريخ هذه الكنائس التي تعيش دوماً التجسّد والفداء والقيامة.

لجنة الاشراف

كنيسة الأرمن الكاثوليك

بقلم المطران بطرس مراياتي*

* مطران حلب.

إن الكنيسة الأرمنية هي من أقدم الكنائس الشرقية نشأةً وطقساً ولاهوتاً.

لقد بقيت هذه الكنيسة مرتبطة بالأرضِ والشعب واللغة عبر العصور، فأخذت طابعا وطنياً متميزاً. لذا نتفهّم ما صرّح به أحد أساقفة كاراباخ قائلاً: «إنّ الأرمنيّ الذي لا ينتمي إلى المسيحية لا يُعدّ أرمنياً. إيماننا وهويتنا الوطنية ينبعان من مصدر واحد».

بالرغم من الأحداث السياسية والدينية، التي هزّت كيان المسيحيين في الشرق، وغيّرت مجرى تاريخ كنائسهم، فإنّ الأرمن ظلّوا محافظين حتى اليوم على وطنهم ولغتهم وإيمانهم وتقاليدهم، وهذا ما يجعلهم أشدّ التفافاً حول كنيستهم وأكثر تضامناً في ما بينهم وأقوى ارتباطاً بوطنهم الأم أرمينيا.

فلا عجب ان نقول إن الكنيسة الأرمنية قد قامت عبر التاريخ بدور يتخطّى الحدود الطقسية والرعوية والروحية، ويعود الفضل إليها في جمع شمل الأمة الأرمنية، وفي المحافظة على كيانها وهويتها، وفي تطور ثقافتها وعاداتها، إن في الوطن الأصلي أو في بلاد المهجر.

لذلك فإنّ المؤمنين الأرمن، أينما وُجدوا، وبالرغم من خلافاتهم المذهبية أو السياسية، يشعرون بوحدة قوية تجمع في ما بينهم من حيث الحضارة القومية والتاريخ المشترك والايمان المسيحي. وإن الاضطهادات المتتالية التي تعرّضوا لها لم تفصلهم عن جذورهم، بل زادتهم تماسكاً وتعلّقاً بالدين، وجعلت من كنيستهم «كنيسة الشهداء».

ولمّا كان تاريخ الكنيسة الأرمنية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ المدني، لذلك اخترنا في عرضنا هذا تسلسل الأحداث التاريخية الوطنية لنبرز من خلالها دور الكنيسة وتطورها.

لا شك في أننا لا نستطيع أن نفي التاريخ الكنسي الأرمني حقّه في هذه العجالة، لذلك أشرنا في مطلع دراستنا إلى أن ما نسعى إليه هو تقديم «نبذة» عامة وإلقاء نظرة شاملة الى أهمّ الأحداث، تاركين للقارئ حرية الرجوع إلى المراجع الأكثر توسعاً.

١. أرمينيا قبل التاريخ المسيحي

تقع أرمينيا على الهضبة الشمالية الشرقية من الأناضول على ارتفاع يتراوح بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠ متر عن سطح البحر. وهي جزء من سلسلة جبال القوقاز سمّيت «الجزيرة الجبلية». أعلى قممها جبل أرارات (٥١٦٥م)، وفيها بحيرات جبلية (سيفان وفان واورميا).

لقد تغيّرت حدود أرمينيا الجغرافية عبر العصور، وكانت قبل دخول المسيحية تمتد بين ينابيع نهر الفرات غربا وبحر قزوين شرقا.

إن السلسلة الجبلية الأرمنية، التي تبدو لأول وهلة منيعة وحصينة، تخترقها في الواقع وديان ومعابر وثغور، ممّا يجعلها عرضة للتقسيم الجغرافي الطبيعي. وهذا التقسيم ساعد في خلق جماعات اقطاعية عشائرية كان من الصعب توحيدها تحت سلطة واحدة.

هذا وإن المناخ القاري طبع الشعب الأرمني بالخشونة، وحلّت به مصائب التاريخ فزادته صلابة.

وأطلق الأرمن على أنفسهم اسم «هاي» وعلى بلادهم اسم «هايستان» نسبةً إلى الملك البطل الأسطوري «هايك». أما اسم «أرمن» و«أرمينيا» فذلك ينسب إلى «أرمين» بن «هايك»، كما جاء في التقاليد الشعبية الأرمنية.

والأرمن ينتمون إلى العرق الآري، وهم مزيج من شعوب البلقان وجبال الألب الذين نزحوا شرقًا واختلطوا بشعوب القوقاز، أي «الاورارتو» ليكوّنوا أمّة واحدة، وذلك في القرن السادس قبل الميلاد.

وقد سيطرت اللغة الأرمنية التي تنتمي إلى الفرع الشرقي من اللغات الهندو أوروبية. وتأثرت بدورها على مر العصور باللغات اليونانية والسريانية والفارسية.

وبعد أن تولّى الأرمن زمام مملكة أورارتو وصدّوا التوسع الأشوري، واجهوا خطراً جديداً، ألا وهو الغزو الفارسي من الجنوب الشرقي. فخضعوا لسيطرة الشعوب الإيرانية إلى أن تغلّب الاسكندر الكبير على الفرس في العام ٣٣١، فاستعادت المملكة الأرمنية سيادتها وعرفت ازدهاراً كبيراً تحت تأثير الثقافة اليونانية. وكان أوج سلطتها في عهد الملك ديكران الكبير (٩٥–٥٥ ق.م) الذي وصل إلى سورية وأنشأ على حدودها مدينة على اسمه «ديكراناكيرد» المعروفة اليوم باسم «دياربكر» في تركيا.

كانت المعابد الوثنية منتشرة في أرمينيا. أمّا الآلهة التي كانوا يتعبدون لها فكان بعضها من أصل فارسي مثل: أرماسد، الإله الخالق وتمثّله الشمس، وأناهيد، إلهة الحياة وتمثّلها الماء. وفاهاكن، إله القوة وتمثّله النار. وبعضها من أصل أشوري مثل بعلشامين وأسدغيك. وبعضها الآخر من أصل أرمني مثل فانادور ومهير.

إنّ العهد القديم يولي أرمينيا مكانة مرموقة، فقد وضع في حدودها جنّة عدن، وجعل سفينة نوح ترسي على جبل أرارات. وذكر على لسان الانبياء نداءات الاستنجاد بشعوب أرارات أو أورارتو.

لا نجد ذكراً لأرمينيا في العهد الجديد، ولكن ثمّة إنجيل منحول يسمّى «إنجيل الطفولة

الأرمني»، لأن الأصل فُقد، وبقيت الترجمة الأرمنية. وفيه تُذكر أسماء المجوس الذين زاروا المسيح الطفل في مغارة بيت لحم، وهم: كسبار وملكون وبغده صار. وهذه الأسماء لا تزال الأكثر انتشاراً بين الأرمن (كسباريان - ملكونيان - بغده صريان).

٢. بدايات المسيحية في أرمينيا

انهارت مملكة ديكران الكبير أمام زحف الجيش الروماني بقيادة بوميوس في العام ٦٦، وبقيت أرمينيا في حماية الامبراطورية الرومانية من العام ٥٢ ق.م حتى العام ٤٢٨ ب.م يحكمها ملوك أرمن من سلالة الارشاكونيين.

يفيد التقليد الكنسي بأن الرسولين تدّاوس وبرتلماوس بشّرا الأرمن بالدين المسيحي الجديد في منتصف القرن الأول للميلاد(١).

ولكن ما تؤكّده المصادر التاريخية أنه في نهاية القرن الثاني كانت قد تكوّنت جماعة كبيرة من المسيحيين في جنوب أرمينيا بفضل المبشّرين السريان القادمين من مدينة الرها، التي اعتنق ملكها الأبجر التاسع الديانة المسيحية.

أما في القرن الثالث فتشير الوثائق التاريخية إلى وجود أسقف أرمني في شرق قبدوقية اسمه «ميروجان». وهكذا بدأ الأرمن ينفصلون عن الفرس الساسانيين ويميلون إلى الامبراطورية الرومانية، مما جعلهم عرضةً للاضطهادات المجوسية.

٣. الملك درطاد والقديس غريغوريوس المنوّر

لمّا تولّى الملك درطاد الثالث زمام الحكم في أرمينيا (٢٨٤-٣٠٥) تحالف مع الامبراطور ديوقلطيانس، واستطاع إبعاد الفرس الساسانيين عن الحدود الأرمنية.

وجعل الملك في خدمته شاباً أرمنياً اسمه كريكور (غريغوريوس) يتقن اللغة اليونانية. وكان درطاد يجهل أن كريكور هو ابن آناج قاتل والده الملك خوسروف. وكان قد هرب آنذاك إلى قبدوقية حيث تثقّف وتنصّر.

وفي يوم عيد الإلهة أناهيد، رفض كريكور تقديم القرابين للوثن، وأعلن أمام الملك عن إيمانه المسيحي. فاستشاط الملك غيظاً ونكّل به أشدّ التنكيل. ولمّا كشف سرّه أمر بإلقائه في بئر عميقة حيث بقي اثنتي عشرة سنة، بحسب واضعي سيرته(٢).

وعلى غرار الامبراطور ديوقلطيانس، شنّ

---

(١) تولي الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية هذا التبشير أهميّة تاريخية كبرى لتؤكّد كونها كنيسة رسولية. ولكن بعض كبار المؤرّخين لا يجدون لهذا التقليد مصادر تاريخية ثابتة.

(٢) لا تزال هذه البئر (خورفيراب: أي الجب العميقة) قائمة في جمهورية أرمينيا يؤمّها الحجّاج من كل حدب وصوب، وينزلون إليها بواسطة سلالم معدنية. وقد شيّد فوق فوهتها معبد صغير، وأنشئت على مقربة منها كنيسة على اسم القديس غريغوريوس.

وقد جرت العادة في شرقنا أن يأتي المؤمنون بآنية مملوءة بماء بئر المنزل إلى الكنيسة في عيد القديس غريغوريوس، وبعد بركتها يعودون بها إلى منازلهم فيرشونها على البئر («الجب») وفي أرجاء الغرف، طالبين شفاعة القديس لحمايتهم من الأمراض السارية ومن لدغات العقارب والحيوانات الزاحفة.

الملك درطاد حملة اضطهاد على المسيحيين المنتشرين في مملكته. وفي تلك الحقبة استشهدت «هريبسيمه» التي رفضت أن تستسلم للملك، واستشهدت أيضاً رفيقاتها اللواتي كنّ يتنسكن في صوامع رهبانية على سفح جبل «أراكادز» بإرشاد رئيستهن القديسة «كاياني»(٣).

ويذكر واضع سيرة القديس غريغوريوس، كوريون، أنّ الملك درطاد أُصيب بمرض نفسي رهيب غيّر أطباعه وشوّه حتى معالم وجهه، ولم يشف من ذلك المرض إلاّ عندما أمر بإخراج غريغوريوس من البئر، نادماً على ما فعل.

واهتدى الملك إلى الدين المسيحي وتعمّد هو وحاشيته في نهر الفرات عن يد القديس غريغوريوس وكان ذلك في العام ٣٠١(٤). ويفتخر الأرمن بكونهم أول دولة اعتنقت الديانة المسيحية ديانةً رسمية، ولم يسبقها إلى ذلك سوى بعض الإمارات الصغيرة مثل إمارة الرها، علماً بأن منشور ميلانو، الصادر عن الامبراطور قسطنطين، الذي يسمح بنشر الدين المسيحي، لم يعلَن إلاّ في العام ٣١٣. ويجب انتظار العام ٣٨٠ لكي يعلن الامبراطور ثاودوسيوس الديانة المسيحية ديناً رسمياً للدولة.

٤. تنظيم الكنيسة الأرمنية

يُلقّب القديس كريكور بالمنوِّر، لأنّه أدخل نور المسيح إلى أرمينيا وبفضله اعتنق الملك وحاشيته وأركانه وجميع أفراد الشعب الديانة المسيحية.

ولما كان كريكور علمانياً، فإن الملك والشعب أصرّا على إعلانه بطريركاً ورئيساً روحياً عليهم. فذهب إلى قبدوقية حيث نال الرسامة الكهنوتية ثم الأسقفية عن يد أسقف قيصرية وحاز على لقب «كاثوليكس»(٥).

وبالرغم من وجود بعض الجماعات

(٣) لا يزال ضريح القديسة هريبسيمه حتى اليوم بالقرب من اشميادزين، وقد شيِّدت فوقه كنيسة تحمل اسم الشهيدة، وذلك في عهد الكاثوليكس «كوميداس» في العام ٦١٨، وهي من أقدم الكنائس الأرمنية وأجملها هندسة. وبالقرب منها شيِّدت كنيسة أخرى في عهد الكاثوليكس «يزر» في العام ٦٣٠، كُرِّست على اسم الشهيدة «كاياني».

(٤) تستعد الكنيسة الأرمنية للاحتفال بمرور ١٧٠٠ سنة على تنصير أرمينية، وسيتم ذلك في العام ٢٠٠١.

(٥) لا تقر الكنيسة الأرمنية الارثوذكسية بالخضوع لكنيسة قبدوقية في أية حقبة من التاريخ، بل تؤكّد «اوتوسفاليتها»، أي استقلاليتها منذ نشأتها عن يد الرسولين تداوس وبرتلماوس. وما رسامة غريغوريوس في قيصرية قبدوقية سوى رغبة منه في العودة إلى المدينة التي نشأ فيها.

وترفض الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية أن تُلقّب بالكنيسة «الغريغورية»، كما جاء في الميثاق الروسي (Polojnic) نسبة إلى مؤسسها «غريغوريوس المنور». فهي لا تقبل بمؤسّس غير الرسولين تداوس وبرتلماوس. وتشير إلى أن كلمة «غريغورية» قد تؤكّد الالتباس مع «الغريغورية» البابوية الرومانية، كما هو الحال في كلمة التقويم «الغريغوري».

هذا وبالإضافة إلى اسمها الرسمي «الكنيسة الأرمنية الرسولية»، فقد قبلت أيضاً في مطلع القرن العشرين أن تعرف في الأوساط المدنية والمسكونية باسم «الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية».

المسيحية قبل تنصير أرمينيا الرسمي، فإنّ الفضل يعود إلى القديس كريكور في تنظيم الكنيسة الأرمنية من حيث التعليم الديني والطقوس الليترجية التي أخذها عن كنيسة قبدوقية.

ويذكر واضع سيرة القديس أنّ كريكور رأى حلماً يشير فيه المسيح بمطرقة ذهبية إلى موقع إنشاء كنيسة مع تفاصيل البناء. وهكذا أنشأ في العام ٣٠٣ كنيسة جديدة بحسب الرؤية، بالقرب من العاصمة «فاغارشاباد»، على أنقاض معبد وثني، وأطلق عليها اسم «اشتميادزين»، أي «نزول الابن الوحيد».

ولا عجب أن نعلم أنّ كريكور كان متزوّجاً، ولكنه بعد رسامته ترك بيته وتفرّغ للعمل الرسولي وترأس الكنيسة الأرمنية طيلة ربع قرن. ورسم الكهنة والأساقفة، وكان بعضهم من أبناء الكهنة الوثنيين المهتدين إلى الدين المسيحي. وترك لنا قوانين وخطابات وطقوس دينية.

ويعود الفضل إلى الكاثوليكس كريكور المنوّر في تنصير البلاد المجاورة لأرمينيا مثل جورجيا والأغوان، حيث أرسل جماعات من المبشّرين لتهديهم إلى الدين المسيحي.

وتوفي كريكور المنوّر في العام ٣٢٥ وخلفه على السدّة البطريركية ابنه الصغير القديس اريستاكيس (٣٢٥-٣٣٣) الذي شارك في المجمع المسكوني الأول المنعقد في نيقية العام ٣٢٥. ثم خلفه أخوه البكر القديس فرطانيس (٣٣٣-٣٤١) الذي كان متزوّجاً، وبعد وفاته خلفه ابنه القديس هوسيك (٣٤١-٣٤٧). وهذه الخلافة العائلية في الرئاسة الكنسية كانت طبيعية في أرمينيا موروثة

القديس كريكور المنوّر

عن العادات الوثنية وتتلاقى مع النظام الكهنوتي في العهد القديم.

ويعود الفضل إلى القديس نرسيس الكبير (٣٥٣-٣٧٣) في تنظيم شؤون الكنيسة الأرمنية بعد عهد الكاثوليكس كريكور وخلفائه. فبعد أن نال الرسامة الأسقفية عن يد أسقف قيصرية في العام ٣٦٤، عاد إلى أرمينيا وسنّ الشرائع الكنسية، ووضع القوانين الرهبانية، ونظّم حياة الأديرة، وأنشأ الأبرشيات والمياتم ودور العجزة والمستشفيات، ووزّع على الكهنة قطعاً متساوية من الأراضي الزراعية ليضمنوا حياة عائلاتهم. ويقول كاتب سيرته: «في عهد نرسيس، لم تكن لتجد متسوّلاً واحداً في البلاد الأرمنية».

لم تشارك الكنيسة الأرمنية في المجمع

المسكوني الثاني الذي عُقد في القسطنطينية سنة ٣٨١، ولكنها تبنّت جميع قراراته وتعاليمه.

وبعد هذه الحقبة الزاهرة من تاريخ الكنيسة الأرمنية، بدأت الأوضاع تتدهور في أرمينيا، إذ إن الامبراطورية الرومانية المنهارة أمام الجحافل البربرية الجرمانية، تخلّت عن حماية الملوك الأرمن المسيحيين ضد الفرس الساسانيين الزردشتيين.

وهكذا استغل بعض الأمراء الأرمن ضعف الملك فأعلنوا الانشقاق واستمالوا عطف شاه الفرس فوضعوا أنفسهم تحت حمايته وأطاحوا بالملك في العام ٤٢٨، وتقاسموا في ما بينهم المملكة؛ فحوّلوها إلى مقاطعات إقطاعية، وتخلّوا عن قسم كبير من أرمينيا لحلفائهم الفرس.

٥. الكاثوليكس ساهاك والراهب مسروب يضعان الأبجدية الأرمنية

بعد مائة عام من تنصير أرمينيا، لم تترسّخ الديانة المسيحية بعمق في نفوس المؤمنين. فكانت الصلوات والطقوس والقراءات الانجيلية تُقام باللغة اليونانية أو السريانية، وذلك لعدم وجود لغة أرمنية مقروءة. وكان رجال الاكليرس يكتفون بالترجمة الشفوية إلى اللغة الأرمنية، ويقدّمون بعض الشروحات البسيطة للكتاب المقدّس. وكثُر أيضاً عدد الكهنة غير الأرمن القادمين من قبدوقية أو الرها، مما أثّر في استقلالية الكنيسة الأرمنية، التي كانت على علاقة وثيقة مع كرسي القسطنطينية عن طريق قيصرية قبدوقية البيزنطية، ومع كرسي انطاكية عن طريق الرها السريانية.

القديس مسروب
واضع الأبجدية الأرمنية

أضف إلى ذلك أن بعض الأمراء الميّالين إلى الفرس عادوا إلى بعض الطقوس الوثنية، مثل عبادة النار، واستمالوا الكهنة الزردشتيين.

أمام هذا المدّ الفارسي، الذي بدأ يشكّل خطراً على الثقافة المسيحية، راح الراهب «مسروب» يبحث عن أبجدية أرمنية خاصة تساعد الأرمن على الحفاظ على استقلالية كنيستهم من جهة وعلى الحفاظ على ثقافتهم القومية من جهة أخرى.

وتبنّى هذا المشروع الكاثوليكس «ساهاك» وشجّع الراهب «مسروب» على المضي قدماً في أبحاثه واستطاع، في العام ٤٠٦، أن يضع الأبجدية الأرمنية في ٣٦ حرفاً، مرتكزاً على الأبجديتين اليونانية والسريانية.

ويلقّب القديس ساهاك «بمنوّر العقول» بنور الكتابة، كما يلقّب القديس كريكور «بمنوّر النفوس» بنور الايمان، والقديس نرسيس «بمنور القلوب» بنور المحبة والأخلاق.

تحمّس الملك «فرامشابوه» لهذا الاكتشاف فعمّمه على جميع المناطق الأرمنية، وبدأت حملة تدريس الأبجدية الجديدة[٦] خاضها تلامذة القديس ساهاك ومسروب، وانكبّوا على ترجمة الكتاب المقدّس عن النسخة «السبعينية». وتعتبر الترجمة الأرمنية من أمّهات الترجمات.

وبالرغم من تفكّك المملكة سياسياً، فإنّ الازدهار الثقافي وصل إلى أوجه في القرن الخامس، بفضل اكتشاف الأبجدية الجديدة. فدوّنت الطقوس الليترجية والصلوات الجماعية والقوانين الكنسية. ونقلت إلى اللغة الأرمنية، عن يد مجموعة كبيرة من المترجمين، كتابات آباء الكنيسة وكتب الفلاسفة اليونان. وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه الكتب فُقد أصلُها ولم يصل إلينا سوى الترجمة الأرمنية، مثل بعض كتب أفرام وايريناوس والفيلسوف أفلاطون.

كما ظهرت كوكبة من الكتّاب الأرمن أمثال ازنيك الكولبي وكوريون وغازار باربتسي ويغيشي وموسيس الخوريني، الذين وضعوا الكتب الدينية والتاريخية، فحافظوا على التراث الأرمني. وقد دُعي هذا العصر بحق «عصر الثقافة الأرمنية الذهبي».

لم تشارك الكنيسة الأرمنية في المجمع المسكوني الثالث الذي عُقد في أفسس في العام ٤٣١ ولكنّها قبلت جميع تعاليمه وطبّقت جميع توصياته.

٦. القديس وارطان ورفقاؤه الشهداء

لم يكتفِ الملك الساساني شاهنشاه

---

(٦) الأبجدية الأرمنية تُكتب من اليسار إلى اليمين. وتجدر الاشارة إلى أن اللغة الأرمنية في ذلك العهد هي لغة أرمنية كلاسيكية تدعى «كرابار»، أي اللغة الأدبية، وهي تحاكي اللغة اللاتينية في قواعدها وتصريفها. وبقيت هذه اللغة متداولة حتى القرن التاسع عشر، إذ طغت عليها لغة شعبية جديدة. ولكنّها لا تزال تُستخدم في الطقوس الدينية حتى يومنا هذا.

واللغة الأرمنية الحديثة تُقسم بدورها إلى لهجتين متميزتين ولكن قريبتين:

١. لهجة شرقية تُستخدم في أرمينيا والبلاد المجاورة، عدّلت فيها قواعد الاملاء.

٢. لهجة غربية تُستخدم في الشتات، أي بلاد المهجر، وهي تحافظ على قواعد الاملاء الكلاسيكية.

ثمّة لهجات محلية تختلف باختلاف المناطق، نذكر منها: لهجة كسب وأورفا وعنجر.

واللغة الأرمنية غنيّة بمصطلحاتها بسبب التفاعل مع الحضارات المجاورة، فدخلت فيها الكلمات الأجنبية من أصل فارسي ويوناني وسرياني وعربي، وفي وقت لاحق تأثرت أيضاً باللغة الأوروبية الحديثة.

ولا عجب أن نقول إنّ اللغة الأرمنية ليّنة العريكة تستطيع أن تجد المصطلحات اللازمة للتعبير عن المعطيات العلمية واللاهوتية والفلسفية.

والحق يقال إنه بفضل الأبجدية الجديدة حافظت أرمينيا آنذاك على هويتها. لقد فقدت نفوذها السياسي ولكنها أنقذت كيانها القومي واستقلالها الروحي. ولعلّ هذه اللغة الأرمنية العريقة هي التي ساعدت الأرمن خلال تاريخهم على أن يحافظوا على كنيستهم ومصيرهم.

«هازكيرد» بولاء الأرمن له، فأصدر، في العام ٤٤٩، فرماناً يطلب إلى جميع سكان الأمبراطورية، ومن في حكمها، أن يعتنقوا الزردشتية، وأرسل الكهنة المجوس وأعوانهم إلى مختلف المناطق لبناء معابد لآلهة النار، وأمر بقمع كل حركة عصيان.

ما ان وصل الجنود إلى أرمينيا حتى انتفض الشعب بقيادة «وارطان ماميكونيان». فقد عانوا الكثير من الفرس ولكنّ الكيل قد طفح وأصبح الاضطهاد علنياً. واجتمع الأساقفة والأمراء في «اشتيشاد» وبعثوا رسالة إلى الشاه يرفضون فيها اعتناق الديانة الزردشتية ويؤكّدون تمسكهم بالدين المسيحي.

أمام هذا الاصرار، لجأ الملك «هازكيرد» إلى الحيلة، فدعا أمراء الأرمن إلى العاصمة «ديسبون» للتفاوض معهم، ولكن ما أن وصلوا حتى احتجزهم. ولم يجدوا سبيلاً للافلات منه سوى التظاهر بالمروق عن الدين المسيحي، حينئذٍ أطلق سراحهم.

ولكن ما إن عادوا إلى بلادهم حتى بدأوا شنّ حملة معاكسة، فأحرقوا المعابد الوثنية وحطّموا هياكل النار، وقتلوا الكهنة الفرس.

حينذاك جهّز الفرس جيوشهم النظامية وساروا بعدد كبير لإخضاع الشعب الأرمني. وكانت معركة «أفراير» في العام ٤٥١، استبسل فيها الجيش الأرمني بقيادة «فرطان» ورفقائه الأمراء. ولكنّهم لم يستطيعوا مقاومة الجيش الفارسي المتفوّق بالعدد والعتاد، فاستشهدوا على أرض المعركة.

وأعلنت الكنيسة الأرمنية قداسة فارطان ورفقائه، لأنهم ماتوا في سبيل الايمان بالمسيح.

القديس وارطان ماميكونيان

ويحتفل الأرمن في كل عام بذكرى هذه المعركة البطولية المصيرية.

أما الكاثوليكس «هوسيب» والراهب «غيفونت» وسائر الكهنة وكبار الأمّة الذين شاركوا في المعركة أيضاً، فقد سيقوا إلى السجون وماتوا في التعذيب في العام ٤٥٤، وأبوا أن ينكروا إيمانهم المسيحي فطوّبتهم الكنيسة أيضاً.

وبعد معركة «أفراير»، خضعت أرمينيا للحكم الساساني، ولكنّ الشاه تخلّى عن سياسته القمعية وسمح للأرمن بالحفاظ على ديانتهم المسيحية وممارسة شعائرهم الدينية، تحت ولاية أحد أفراد عائلة مميكونيان يحمل لقب «مارزبان».

وشهدت أرمينيا بعد تلك الأحداث

ازدهاراً كبيراً في مجال البناء والآداب والعلوم.

٧. مجمع خلقيدونية والانشقاق الكبير

بينما كان الأرمن، اكليرماً وشعباً، يدافعون عن إيمانهم المسيحي ضد هجمات الفرس، عقد مجمع خلقيدونية في العام ٤٥١، فلم تستطع الكنيسة الأرمنية المشاركة فيه.

ووصلت القرارات المجمعية ورسالة البابا لاون إلى الأرمن منقولة عن اليونانية بلغة غير دقيقة، مما دفعهم للاعتقاد بأن التمييز بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية هو نوع من الفصل في الشخص، وكأنّ مجمع خلقيدونية يقسم المسيح إلى شطرين.

فهم الأرمن أن الكلام عن طبيعتين، بشرية وإلهية في المسيح، هو عودة إلى النسطورية التي حرّمها مجمع أفسس، فتمسكوا بتعليم «كيرلس» القائل: «طبيعة واحدة لكلمة الله المتجسد». وبالتالي رفضوا قرار المجمع الخلقيدوني.

والكنيسة الأرمنية الارثوذكسية التي تلقّب «بالمونوفيزية»، أي الطبيعة الواحدة، ترفض أن تكون هذه المونوفيزية بمعنى «أوطيخا» حيث الناسوت واللاهوت في المسيح ينصهران ويمتزجان. لكنها تقبل بالمونوفيزية أو الميافيزية، بمعنى «كيرلس» ومجمع «أفسس» كي يبقى المسيح واحداً في ناسوته مع لاهوته دون اختلاط ولا امتزاج ولا مزج.

والكنيسة الأرمنية ترشق بالحرم الكنسي كلاً من عقيدتي نسطور وأوطيخا.

ولكن مهما كانت الأسباب من سوء تفاهم في التعابير والمصطلحات اللاهوتية، بالإضافة إلى التنافس على النفوذ بين الكراسي البطريركية والسلطات المدنية، فقد وقع الانشقاق في الكنيسة الواحدة، ووجدت الكنيسة الأرمنية نفسها في طرف الكنائس اللاخلقيدونية، مع شقيقاتها الكنائس القبطية والسريانية اليعقوبية والأثيوبية.

وفي مجمع «دفين» في العام ٥٥٤، ثبتت الكنيسة الأرمنية رفضها لتعاليم مجمع خلقيدونية، فانقطعت الشركة مع الكنيسة البيزنطية وكرسي القسطنطينية وروما.

ولكن بالرغم من ذلك، فقد وجدت مجموعات من الأرمن التي قبلت بمقررات مجمع خلقيدونية، وظلّت على اتصال مع الكنيسة البيزنطية. هذا وإن كنيسة جيورجيا التي رفضت مجمع خلقيدونية في بادئ الأمر، ما لبثت أن انفصلت عن الأرمن وانضمت إلى الكنيسة البيزنطية.

وقد وجد بعض البطاركة والرهبان في الكنيسة الأرمنية الذين اعترفوا بمجمع خلقيدونية وحاولوا إعادة الشركة مع الكنيسة البيزنطية، نذكر من بينهم الكاثوليكس يزر (٦٣٠-٦٤١) والكاثوليكس نرسيس الثالث (٦٤١-٦٦١) والكاثوليكس زكريا (٨٥٥-٨٧٧)[٧].

(٧) يرى بعض المؤرخين في هذا الاعتراف نتيجة لضغط الملوك البيزنطيين ولنفوذهم السياسي فكان التودّد إليهم خير وسيلة لطلب مؤازرتهم ضد العرب والسلاجقة. أمّا البعض الآخر من المؤرخين فيرى في ذلك نية صادقة للبحث عن الحقيقة وإعادة الوحدة مع الكنيسة الجامعة.

٨. الكنيسة الأرمنية والفتوحات العربية

يعلّمنا التاريخ أن الممالك والامبراطوريات تقوم وتزدهر وتصل إلى أوجها، وما تلبث أن تسقط وتنهار، فتظهر على أنقاض عروشها ممالك وقصور جديدة.

وهكذا كان الحال بالنسبة للامبراطورية الساسانية. فبعد أن وصلت إلى أوجها، بدأت تضعف، وما لبثت أن سقطت تحت جحافل الفتوحات العربية القادمة من الجنوب.

ورحّب الأرمن بقدوم المسلمين الذين سينقذونهم من نير الفارسيين. وكان ذلك في العام ٦٤٠. وبالرغم من اختلاف الدين، فإن الفاتحين العرب وفّروا الأمان للأرمن وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينية شريطة أن يدفعوا الجزية ويحاربوا إلى جانبهم ويحفظوا الأمن.

وأقام العرب على مناطق أرمنية واليًا يدير شؤون البلاد باسم الخليفة. وحافظ الولاة على النّظام الاقطاعي، ولكن أولوا الرئاسة في الشمال لعائلة «بقرادوني» عوضًا عن عائلة «ماميكونيان». وفي الجنوب أعطوها لعائلة «أردزروني» عوضًا عن عائلة «رشدوني».

وقد تميّزت العلاقة بين العرب والأرمن بالعنف والشدة أحيانًا، وباللين والتسامح أحيانًا أخرى. ولعلّ أفضل الأيام كانت في عهد العباسيين، إذ منحوا الحاكم «آشود البقرادوني» لقب «أمير الأمراء»، دون الاعتراف باستقلالية الأرمن تمامًا. ولكن الأرمن استطاعوا، في بعض المناطق الغربية، أن يستقلوا بالحكم وأعلنوا «آشود» ملكًا عليهم.

وكانت ظروف المعيشة صعبة فلم تنشط الحياة الثقافية إلّا بعد العام ٩٨٩؛ بقدوم الملك

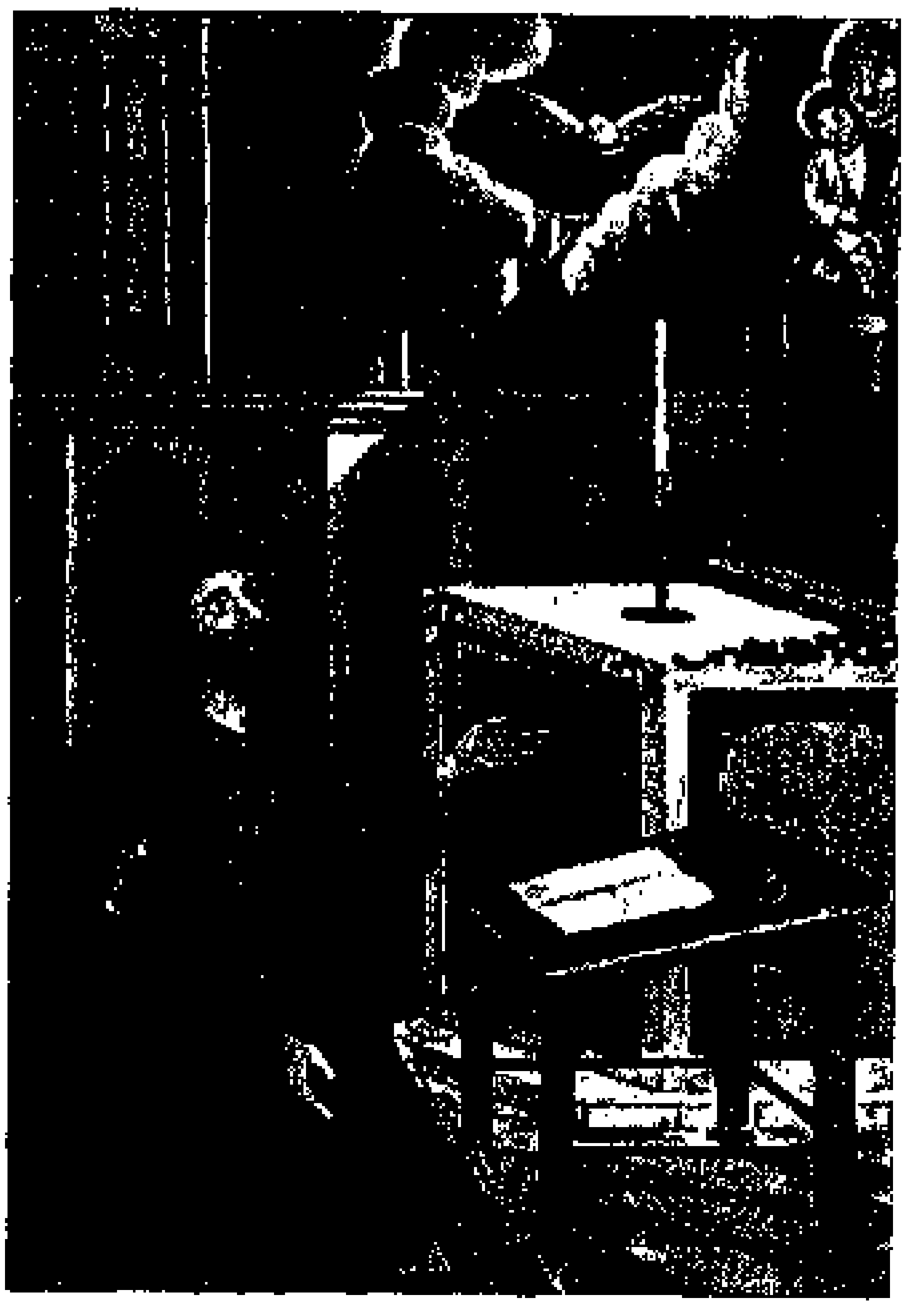

القديس كريكور ناريكاتسي

«كاكيك الأول» الذي مال إلى البيزنطيين فحوّل قصره إلى مدينة «آني» وجعلها عاصمة المملكة. وازدهرت حركة البناء في مدينة «آني» وكثرت فيها الكنائس حتى دعيت «مدينة الألف كنيسة وكنيسة». وما لبث أن نقل إليها أيضًا الكاثوليكس سركيس الأول مقرّه البطريركي قادمًا من «اختامار» في العام ٩٩٢.

ولعلّ كنيسة «أختامار» على بحيرة «فان» هي أهم ما شيّد بين الأعوام ٩١٥ و٩٢١، وقد جاءت آية في الفن المعماري الهندسي. وبقي فيها الكرسي البطريركي من العام ٩٢٨ إلى العام ٩٩٢.

لا شكّ أنّ النفوذ البيزنطي أثّر في ازدهار العلوم الأدبية وفي انتشار تعاليم مجمع

خلقيدونية. وفي تلك الحقبة، عاش الراهب كريكور ناريكاتسي وترك لنا كتاب «الصلوات» الذي يعدّ من روائع الأدب الديني، وله قصائد ومدائح في العذراء مريم.

ونذكر أيضاً «كريكور ماجيستروس» الذي أنشأ جامعة لتعليم الآداب واللغات الشرقية والأوروبية، والبطريرك «أوهانيس» الذي وضع تاريخ الكنيسة الأرمنية وكنيسة الكرج. والبطريرك «مشدودز» الذي جمع الصلوات الطقسية والرتب الدينية في كتاب يحمل اسمه حتى اليوم. والفقيه «مخيتار كوش» الذي جمع القوانين المدنية والشرع الكنسي في كتاب سماه «كتاب المحاكمات».

أما الرهبان الذين رفضوا الرضوخ للتأثير البيزنطي، فقد نزحوا إلى المناطق الشرقية فازدهرت حياة الأديرة في ساناهين وهاغباد وتاديف، وكثر عد الرهبان فيها.

وظهرت في تلك الآونة بدعة دينية جديدة لُقّب أتباعها «بالبولسيين»، وكانوا يرفضون التقاليد الكنسية والطقوس الدينية. وأمام انتشارهم السريع، لجأت الدولة إلى قمع الحركة وإلى القضاء عليها.

لم يكتفِ البيزنطيون بحماية العاصمة «آني»، بل طمعوا في الاستيلاء عليها فلم يقاومهم الأرمن حقناً للدماء. فتخلّى الملك «كاكيك الثاني» عن العرش في العام ١٠٤٥، وسلّم البطريرك «بيدروس الأول» مفاتيح المدينة إلى الامبراطور البيزنطي «قسطنطين مونوماك».

ولكن المملكة البيزنطية لم تصمد أمام زحف السلاجقة الأتراك. فكانت موقعة «منازكيرد» في العام ١٠٧١، انتصر فيها السلاجقة على الروم واستولوا على مدينة آني وجميع المناطق الأرمنية.

٩. مملكة قيليقية والصليبيون

بعد سقوط مدينة آني وتشتت مملكة أرمينيا الكبرى عن يد السلاجقة، نزح الأرمن نحو الجنوب، وشاءت الأقدار أن ينشئوا في منطقة قيليقية ولايات صغيرة ما لبثت أن تحوّلت إلى مملكة دام عهدها من العام ١٠٧٣ إلى العام ١٣٧٥.

كانت قيليقية منطقة فاصلة بين البيزنطيين والعباسيين تقع شمال سورية ولها منفذ على البحر الأبيض المتوسط، تجمّع فيها الأرمن منذ بدايات الفتح العربي. فلما وصل النازحون الجدد رحّبوا بهم وساعدوهم في الاستيطان وأعلنوا قيام دولة جديدة في مواجهة الأتراك السلاجقة بزعامة الأمير «روبين الأول».

ويتزامن إنشاء هذه الدولة الجديدة مع قدوم الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩. فاستفاد الفرنجة من القواعد الأرمنية للانطلاق نحو إنشاء محميات صليبية مثل الرها وأنطاكية والقدس.

واستمرّ التعاون بين الأرمن والفرنجة فازدهرت البلاد اقتصادياً وثقافياً، ووصلت إلى أوجها عندما نُصّبَ ليفون دي لوسينيان» ملكاً على قيليقية بحضور ممثل بابا رومة وممثل الامبراطور، وذلك في العام ١١٩٨ في مدينة طرسوس.

وكثرت الزيجات المختلطة فطغت العادات الغربية وكانت تستخدم في البلاط اللغات الأرمنية واللاتينية والفرنسية.

دامت هذه المملكة ثلاثة قرون، ومع ضعف الصليبيين ضعفت هي أيضاً وبدأت تتقهقر رويداً رويداً تحت ضغوط المغول والتركمان والأتراك، إلى أن وقعت نهائياً تحت حكم المماليك. فسيق الملك «ليفون السادس» وحاشيته إلى مصر، ومن هناك انتقل إلى فرنسة حيث توفّي ودفن في بازيليك سان دونيس (St Denis) الملكية.

وهكذا طُويت صفحة أخرى نيّرة في تاريخ الأرمن ولم تصمد سوى إمارة زيتون في قيليقية ومملكة كاراباغ في أرمينيا الشرقية.

بعد سقوط مدينة آني، انتقل الكرسي البطريركي إلى قيليقية، فكان مقرّه الأول في «سياف لير» ثم في «دزوفك» ثم في «هرومكلا» (قلعة الروم) إلى أن استقرّ نهائيا في مدينة «سيس».

لا شك في أن الكنيسة أيضاً تأثّرت بالوضع العام، فشهدت انفتاحاً نحو الغرب وبدأ عصر من العلاقات المسكونية مع الكنائس اللاتينية والبيزنطية والسريانية بهمة الكاثوليكس «كريكور فكاياسير» الذي زار القدس والاسكندرية والقسطنطينية وروما سعياً وراء التفاهم الكنسي.

وكان رائد هذه الحركة المسكونية الكاثوليكس «نرسيس شنورهالي» (١١٦٦ – ١١٧٣) الذي بدأ حواراً أخوياً مع الكنيسة البيزنطية. وترك لنا أعمالاً رائعة من صلوات وأناشيد وإرشادات ورسائل تعتبر من كنوز الأدب الأرمني القومي والديني.

وتابع عمله أسقف طرسوس القديس «نرسيس لامبروناتسي» ولكن باتجاه الكنيسة

القديس نرسيس شنورهالي

اللاتينية، ونجحت بوادر الوحدة مع رومة، فبدأ الحجاج الأرمن يذهبون إلى رومة لزيارة ضريحي بطرس وبولس. وللقديس «نرسيس لامبروناتسي» أيضاً دراسات رائعة في الليترجية والآداب الأخلاقية.

ونسج على منوالهما الكاثوليكس «كريكور الشاب» ومن خلفه سعياً وراء الوحدة. وتجدر الاشارة إلى الملك «هيتوم الثاني» (١٢٨٩ – ١٣٠٧) الذي تخلّى عن العرش ليترهب عند الآباء البريمونتري «Prémontrés».

ولكن هذا التيار الوحدوي لقي معارضة شديدة من أساقفة أرمينيا الكبرى، فلم يدم طويلاً. وبالرغم من ادخال بعض العادات الغربية في الطقوس الدينية، حافظت الكنيسة الأرمنية على تقاليدها العريقة وعلى طابعها الوطني.

١٠. عصر الانحطاط والحكم العثماني

بعد سقوط مملكة قيليقية تعرّضت البلاد الأرمنية لغزو السلاجقة، ثم المغول، ثم جاء تيمورلنك وشن ثلاث حملات عاثت فساداً وخراباً في البلاد. وعمّت الفوضى حتى القرن السادس عشر عندما تغلّب السلطان «سليم الأول» العثماني على المماليك واستولى على البلاد الأرمنية في العام ١٥١٤. ولما قويت شوكة الدولة الفارسية واستردت «تبريز» و«يريفان» و«كارس» و«وان»، لجأت الدولة العثمانية إلى إبرام معاهدة صلح في العام ١٦٠٤، تدخل بموجبها المنطقة الغربية من أرمينيا تحت الحكم العثماني، والمنطقة الشرقية تحت الحكم الفارسي.

وهكذا عرفت أرمينيا في شرقها وغربها أحلك أيام تاريخها الثقافي والديني فلم تنشأ أي كنيسة. ولحسن الحظ أن كثيرين من الأرمن نزحوا إلى بولونيا هرباً من الحرب وأخذوا معهم عدداً كبيراً من المخطوطات، فأنشأوا جالية هامة في مدينة «لفوف» حافظت على التراث من الضياع.

لا شك أنه، بعد انهيار المملكة الأرمنية السياسية، بقيت المؤسّسة الوحيدة التي ترعى الشعب هي الكنيسة. ولا عجب ان يكون للكاثوليكس دور هام في جمع شمل الأمة في تلك الظروف الصعبة.

ومع سقوط مملكة قيليقية، نشطت الحياة الروحية في أرمينيا الكبرى في أديرة ساناهين وهاغباد وتاديف وكلادسور وكيغراد، لأن الشعب كان يجد فيها ملجأه الأخير للحفاظ على دينه وكيانه.

بعد تخلّي الكاثوليكس «كريكور موسابيغيان» عن كرسيه البطريركي في «سيس» في العام ١٤٤١، طالب أساقفة أرمينيا الكبرى بإعادة الكرسي البطريركي إلى مقرّه السابق في اتشميادزين، بعد أن انهارت مملكة قيليقية ولم يعد هناك أي مبرر لبقاء الكرسي البطريركي خارج أرمينيا الكبرى.

ولكن أساقفة قيليقية رفضوا نقل الكرسي البطريركي، وأصرّوا على بقائه في قيليقية التاريخية، برعاية الحكم الفارسي حيث كانت تقع اتشميادزين.

فكان الانشقاق وتم انتخاب بطريركين فأصبح للأرمن آنذاك كاثوليكس يقيم في «سيس» وله الولاية على أمن قيليقية، وكاثوليكس يقيم في «اتشميادزين» وله الولاية على الأرمن في أرمينية الشرقية.

أضف إلى ذلك أنه، في العام ١١١٣، كانت قد انفصلت كنيسة اختامار عن الكرسي البطريركي وأعلنت كاثوليكسية تمتد سلطتها على الأرمن المقيمين حول بحيرة «فان». وفي العام ١٢٤٠، نال أسقف الاغوان في كاراباخ رتبة كاثوليكس تمتد ولايته على الأرمن المقيمين في منطقة بحيرة القزوين، وجعل من دير كانتساسار مقره البطريركي[٨].

(٨) ألغيت كاثوليكسية كاراباخ في العام ١٨١٥ وأصبحت متروبولية تابعة لكرسي اتشميادزين. أما كاثوليكسية اختامار فقد ألغيت في العام ١٨٩٥ وأحيلت أملاكها إلى الكرسي البطريركي في القسطنطينية.

كاثوليكسية إتشمياذزين

أمّا في القدس فقد أُنشئت بطريركية مستقلة في العام ١٣١١، بعد أن كانت أبرشية منذ القرن الخامس ترعى شؤون الحجّاج الأرمن، دون أن تحصل على لقب كاثوليكسية، بل بالعكس كانت تخضع لكرسي «سيس».

كما أن أبرشية القسطنطينية ما لبثت أن تحوّلت إلى بطريركية في العام ١٤٦١، نظراً الى وجودها في العاصمة العثمانية. وبالرغم من خضوع هذه البطريركية دينياً لكاثوليكس «سيس»، كان نفوذ البطريرك المقيم في إستنبول، أقوى من الكاثوليكس مدنيا وإداريا، وقد أوكلت إليه السلطة العثمانية رعاية شؤون المسيحيين من أرمن وسريان وكلدان.

ونظراً إلى ازدهار الأوضاع في العاصمة استنبول، بدأ الأرمن ينزحون من مدنهم وقراهم إلى استنبول، ويتولّوا الوظائف الهامة في البلاط الملكي، وأنشأوا المدارس والكنائس، وساهموا مساهمة فعالة في نهضة العاصمة العثمانية عمرانيا ومهنياً وتجارياً.

أما في أرمينيا الشرقية الرازحة تحت الحكم الفارسي، فإن الكاثوليكس لم يحظ بهذه الامتيازات وبقي الشعب بعيداً عن كل تطور وازدهار، لا بل استغل شاه عباس هذه الفرصة ليقود إلى إيران عدداً كبيراً من الحرفيين الأرمن مع عائلاتهم، وأنشأ لهم مدينة قرب «أصبهان» معروفة حتى اليوم باسم «تورجوغا». وكان لهؤلاء الأرمن الفضل الكبير في ازدهار الدولة الايرانية.

وهكذا ضعفت أرمينيا الكبرى وشل اقتصادها وانحسرت الحياة الثقافية في الأديرة. ولعل الحدث الأهم هو دخول الطباعة إلى اتشميادزين في القرن السادس عشر. ويعود الفضل في ذلك إلى الكاثوليكس «ميكائيل السيباستي» (١٥٤٢ – ١٥٦٤ – ١٥٧١) الذي أرسل الراهب «أبكار» إلى إيطاليا لتعلّم فن الطباعة، وحمّله رسالة توصية إلى البابا «بيوس الرابع» ليسهّل مهمته، واستطاع هذا الراهب بمؤازرة الرهبان الافرنج أن ينشئ مطابع أرمنية في البندقية وروما والقسطنطينية واتشميادزين وأصفهان وأمستردام؛ حيث طبع الكتاب المقدّس كاملاً في العام ١٦٦٦، بهمّة الأسقف «أوسكان».

١١. حركة الاصلاح الروحية – الراهب مخيتار من سيباست

مع بدايات القرن الثامن عشر، بدأت الأمبراطورية الفارسية بالتدهور، وتقهقرت جيوشها في منطقة القوقاز أمام زحف الجيوش الروسية بقيادة «بطرس الكبير»، الذي احتل مرفأ باكو في العام ١٧٢٢. وهكذا دخلت أرمينيا في حماية الامبراطورية التارية وأصبحت السدّ المنيع في مقدمة الحدود مع الامبراطورية العثمانية.

وفي تلك الفترة ظهر راهب مندفع اسمه مخيتار من موالي سيباست (١٦٧٦ – ١٧٤٩) في المنطقة الغربية من أرمينيا. وكان يبحث عن حياة رهبانية عميقة في الأديرة الأرمنية فلم يجدها. إذ ذاك لجأ إلى الرهبان الكاثوليك ليتتلمذ على أيديهم وينهل من معين الحياة الرهبانية الحقيقية.

ثم عاد إلى بلاده ساعياً وراء إصلاح الحياة الرهبانية وتنشيط الحياة الدينية داخل الكنيسة الأرمنية الوطنية. وأنشأ في استنبول في العام ١٧٠١ جماعة صغيرة من الرهبان المثقفين، ثم أرسلهم لتعليم الناس الإيمان الحق، ثم انكب هو شخصياً على تثقيف الرهبان والكهنة المتزوّجين. وأطلق على رفقائه اسم «مختارين» وكانوا يجوبون المدن والقرى مبشّرين بالمسيح وتعاليم آباء الكنيسة ويحظون باحترام المؤمنين العطاش إلى كلمة الرب.

ولكن البطريرك لم يفهم مأرب مخيتار الصادق واتهمه بالتبشير بالكثلكة، فحاربه ومنعه من التعليم وحصل على قرار من الباب

الأب مخيتار

العالي للقبض عليه. فهرب مخيتار مع تلاميذه المختارين إلى إيطاليا، حيث استقبله أمراء البندقية، ووهبوه ديراً مهجوراً على جزيرة «القديس عازار» على شاطئ البندقية.

وأنشأ «مخيتار» رهبانية من قوانين القديسين بعد الحصول على موافقة قداسة البابا وبركته، واستمد قوانين رهبانيته من قوانين القديسين بندكتس وباسيليوس.

وكان للآباء المختارين الدور الكبير في الحفاظ على التراث الأرمني الروحي والزمني، فأسسوا مطبعة أرمنية، وجمعوا المخطوطات، ونقلوا أمّهات الكتب الروحية إلى الأرمنية، وانكبّوا على الدراسات الدينية واللغوية والعلمية والأدبية.

ولما أُنشئت البطريركية الأرمنية الكاثوليكية في العام ١٧٤٢، انضمت الرهبانية المختارية إليها. ولكن بالرغم من الاعتراف بالإيمان الكاثوليكي فإن الآباء المختارين تحاشوا كل تأثير لاتيني وحافظوا على نقاء الطقوس الأرمنية والتقاليد الدينية.

وفي العام ١٧٧٣، ظهر تيّار جديد متشدد ضمن الرهبانية، فانشطرت إلى قسمين، فأنشأت مجموعةٌ من الرهبان ديراً جديداً في مدينة تريستي الايطالية، ثم انتقلوا في العام ١٨١١ إلى مدينة «فيينا» عاصمة النمسا، الذي أصبح هو أيضاً مركزاً للاشعاع الروحي والعلمي.

ولما حصل الأرمن الكاثوليك على الاعتراف الرسمي من قبل الدولة العثمانية في العام ١٨٣٠، عاد الرهبان المختاريون إلى استنبول وقرى قيليقية ومنطقة القوقاز فأنشأوا المدارس والكنائس واهتموا بتنشئة الشبيبة.

ويعود الفضل إلى الآباء المختارين في تكوين كوكبة من الادباء والعلماء الذين درسوا على أيديهم في فينيسيا أو في فيينا، فأصبحوا النواة المحرّكة في النهضة الثقافية الأرمنية التي شهدها القرن التاسع عشر.

١٢. نشأة البطريركية الأرمنية الكاثوليكية

إن بذور الوحدة التي زرعها «نرسيس شنورهالي» و«نرسيس لامبروناتسي» في العلاقات المسكونية مع الكنيسة البيزنطية والرومانية لم تعط الثمار المرجوة، ولكنها تركت أثراً ايجابياً في نفوس من خلفهم من البطاركة.

هكذا نجد كاثوليكس سيس «كريكور التاسع موسابغيان» يرسل في العام ١٤٤٠ وفداً إلى مجمع فلورنسا لإعادة الوحدة التي لم تستمر طويلاً مع الأسف.

أما بطاركة اتشميادزين فكانوا أكثر انفتاحاً نحو كرسي رومة ورفعوا الحرم عن مجمع خلقيدونية والبابا لاون، ونذكر من بينهم «موسيس الثالث» و«هاكوب الرابع».

وكان بعض الأساقفة، التابعين لاتشميادزين او لسيس، يستقبلون برحابة صدر المرسلين اللاتين، ويرسلون هم أيضاً رهباناً أرمن لمتابعة دروسهم اللاهوتية في المعهد الأورباني في رومة.

ولكن هذا التيار الوحدوي ما لبث أن انقطع في مطلع القرن الثامن عشر بأمر من بطريرك القسطنطينية «أفيديك»، الذي فاق

الكاثوليكس نفوذاً، فحرم كل من يجاهر بمجمع خلقيدونية وطرد الرهبان اليسوعيّين من ارزروم، ومنع الراهب مخيتار وتلاميذه من التعليم، واتّهم كل من يؤمّ الكنائس اللاتينية «بالافرنج».

لا شك أن بعض المرسلين اللاتين، وخاصة «الإخوة الموحِّدين» الأرمن المنتمين إلى الرهبانية الدومنيكانية، قد أدخلوا في القرن الخامس عشر بعض العادات اللاتينية في الطقوس الدينية، لكن معظم الأرمن الخلقيدونيين والرهبان المختارين ظلّوا أمناء للكنيسة الوطنية والتقاليد الطقسية. ولكن أمام اشتداد الاضطهادات وتعثّر المفاوضات في الأعوام ١٧٠١ و١٧٠٣ و١٧٠٤ للوصول إلى حل سلمي، بدأت تتبلور رويداً رويداً فكرة الاستقلالية وإنشاء بطريركية مستقلة.

حينئذ ازدادت الاضطهادات ضد أسقف ماردين «ملكون طازباز» وأسقف حلب «أبراهام اردزيفيان»، فترسخت فكرة إنشاء بطريركية مستقلة في نفوس الموالين إلى الوحدة مع رومة.

وقد تحقق المشروع في العام ١٧٤٠ عندما اجتمع في مدينة حلب في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر)، ثلاثة أساقفة ولفيف من الكهنة والمؤمنين وانتخبوا أسقف حلب «ابراهام أردزيفيان» بطريركاً وأعلنوا شركتهم التامة مع كرسي رومة.

وسافر البطريرك المنتخب إلى رومة في العام ١٧٤١ لينال التثبيت من البابا، فاستقبله البابا بندكتس الرابع عشر في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٤٢، وقبل اعترافه الكاثوليكي ومنحه الباليوم وثبّته بطريركاً - كاثوليكساً على الأرمن في قيليقية.

وقد شاء أبراهام وخلفاؤه أن يضيفوا إلى أسمائهم لقب «بطرس» اعترافاً بولائهم لكرسي رومة البطرسي.

ولكن البطريرك الجديد لم يستطع العودة إلى حلب لأن الحكومة العثمانية وبطريرك استنبول لم يعترفا به، لا بل أحكموا الاضطهاد على كل من يتبع البطريرك الكاثوليكي الجديد.

حينئذ لجأ البطريرك «أردزيفيان» إلى دير «الكريّم» التابع للرهبان الأنطونيين الأرمن، والكائن في جبل كسروان -- لبنان. ويعود الفضل إليه في تأسيس هذه الرهبانية، حين كان أسقفاً على مدينة حلب، فشجّع أربعة إخوة حلبيين من عائلة مراديان للذهاب إلى لبنان والترهب عند الآباء الأنطونيين الموارنة في دير مار أنطونيوس قزحيا.

ثم ساعدهم لينشئوا رهبانية أنطونية(٩)

---

(٩) ازدهرت الرهبانية الأنطونية. فبنوا ديراً آخر لهم في غزير، على اسم مار انطونيوس خشباو في العام ١٧٦٠. وتحوّل الديران إلى ملجأ للمضطهَدين من أجل مذهبهم الكاثوليكي، ونقطة استراحة للحجّاج الأرمن الذاهبين إلى القدس. ثم بنوا الكنيسة الكبرى في العام ١٨٢٠، وهي آية في الفن الهندسي المعماري. ولكن الرهبان ما لبثوا ان انتقلوا إلى استنبول في العام ١٨٧٠ ليتابعوا رسالتهم بين الأرمن المقيمين هناك. ونشأت خلافات بين أعضاء الرهبانية فتقلص عدد الرهبان فيها وشحّت الدعوات فألغيت في العام ١٩٢٣ بأمر من الكرسي الرسولي.

ومنذ ذلك التاريخ بقي دير مار انطونيوس خشباو

أرمنية مستقلة في العام ١٧٢٠، فبنوا لهم ديراً في منطقة «الكريم» في جبل كسروان بمؤازرته أيضاً.

ولا عجب أن يستقبلوه بالترحاب ويضعوا أنفسهم في خدمته، فجعل من ديرهم مقراً للكرسي البطريركي.

ولكن البطريرك أردزيفيان كان يحلم دوماً بإنشاء مقر مستقل للبطريركية وبإنشاء جمعية كهنة مرسلين يكونون في طوع البطريركية يرسلهم إلى الأبرشيات والرعايا الأكثر احتياجاً.

ولهذا الهدف اقتنى قطعة أرض كبيرة من عائلة الياس الخازن، تقع على هضبة عالية من منطقة كسروان تدعى «بزمّار». ولكنه لم يشهد تحقيق هذا الحلم فتوفّاه الله في العام ١٧٤٩ فدفن في كنيسة دير الكريم أمام هيكل القديس أنطونيوس.

وتابع خلفه أسقف حلب المنتخب بطريركاً، يعقوب بطرس الثاني يسفيان، بناء دير بزمّار(١٠)، ونقل إليه المقر البطريركي في العام ١٧٥٠. وتكوّنت حوله جمعية من الكهنة

دير سيّدة بزمّار

المرسلين، لا تزال تُعرف حتى اليوم باسم «جمعية كهنة دير بزمّار البطريركية». وقد أعطت هذه الجمعية بطاركة وكهنة غيورين وشهداء إيمان. ويعود الفضل إليها في تنشئة

مهجوراً، إلى أن بادرت الرهبانية المارونية اللبنانية (البلدية، الكسليك) إلى اقتنائه في العام ١٩٨٦، فرمّمته وأبرزت معالمه الأثرية، وحوّلته إلى مقر الرئاسة العامة، ولكنها حافظت على طابعه القديم وعلى جميع النقوشات المكتوبة باللغة الأرمنية وعلى جميع الأيقونات القديمة.

أما دير الكريم فقد تخلّت عنه الرهبانية الأنطونية الأرمنية لتتمركز في منطقة غزير الواسعة، فباعته للأب حنا حبيب مؤسس رهبانية المرسلين اللبنانيين: وهو اليوم في عهدتهم وقد رمّموه ووسّعوا أرجاءه محافظين على معالمه الأرمنية القديمة.

(١٠) شيّد الدير على إسم «السيدة العذراء» في العام ١٧٤٩. أمّا الكنيسة فشيّدت في العام ١٧٧١ في عهد البطريرك ميكائيل كسباريان الحلبي على اسم العذراء «سيدة الانتقال». هذا وقد تابع البطاركة على مر السنين تشييد أرجاء الدير فتحول إلى مجمّع كبير يحتوي على جناح البطريرك، وجناح كهنة الدير وغرف للزوار، وجناح المتحف والمكتبة، وبناء الاكليريكية وقسم المشاريع الثقافية والاجتماعية، بالإضافة إلى معبد «سيدة بزمار» العجائبية.

الاكليريكيين وخدمة الرعايا في أرمينيا وفي المهجر بروح رسولية متميزة.

ولقد لجأ إلى دير بزمار أيضاً بعض الأساقفة الذين كانوا يديرون أبرشياتهم عن بعد بواسطة النوّاب هرباً من الحكومة العثمانية. وعندما كان يشتد الاضطهاد، كان النواب أيضاً يلجأون إلى الكنيسة المارونية وهي الكنيسة الكاثوليكية الوحيدة المعترف بها آنذاك في سورية ولبنان، أو يلجأون إلى النيابة اللاتينية في استنبول. وانتظر الكاثوليك العام ١٨٣٠ ليحصلوا على فرمان عثماني صدر في ٦ كانون الثاني (يناير) يعترف باستقلالية الطائفة الأرمنية الكاثوليكية. حينئذ توقفت الاضطهادات وعاد المُبعَدون إلى مدنهم وتولّى الأساقفة المقيمون في المنفى زمام الأمور في أبرشياتهم وأنشأوا الكنائس ولمّوا شمل الرعية.

وأصبح من ذلك الوقت للأرمن الكاثوليك «بطريقاً» في استنبول وبطريركاً في دير بزمّار، إلى أن تمّ انتخاب البطريق أنطوان حسون مطران استنبول، بطريركاً على الارمن الكاثوليك في العام ١٨٦٧، فجمع بين المركزين ونقل الكرسي البطريركي من بزمّار إلى استنبول.

ولكن دمج الوظيفتين لم يعط النتائج المرجوة. فنشأ خلاف ضمن الكنيسة الواحدة واشتد نفوذ العلمانيين. فاستقال البطريرك حسّون في العام ١٨٧٧ وذهب إلى رومة حيث منحه البابا لاون الثامن لقب كردينال.

واستطاع خلفه البطريرك عازاريان ان يسكّن القلوب ويعيد الوفاق إلى صفوف أبناء الطائفة، وفضّل خلفه البطريرك بوغوص الحادي عشر عمانوئيليان أن يعيد الكرسي البطريركي إلى مقرّه الأسبق في دير بزمّار، وتمّ ذلك في العام ١٨٩٩، ولا يزال الكرسي البطريركي في دير بزمار حتى اليوم.

وقد ازدهرت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية ازدهاراً كبيراً في تلك الحقبة بفضل تنظيمها وثقافة كهنتها العالية وانضباطهم في رسالتهم. فاهتمّ كهنة الأبرشيات، إلى جانب جمعية دير بزمار البطريركية، بالأمور الرعوية. وكانت البطريركية تشمل ست عشرة أبرشية وتسع نيابات بطريركية وإرسالية في بولونيا وإرسالية في جيورجيا، وأرمينيا الشمالية. أمّا الأمور التربوية والثقافية فكانت تقع على عاتق الآباء المختارين بفرعيهما: البندقية وفيينا، وعلى عاتق

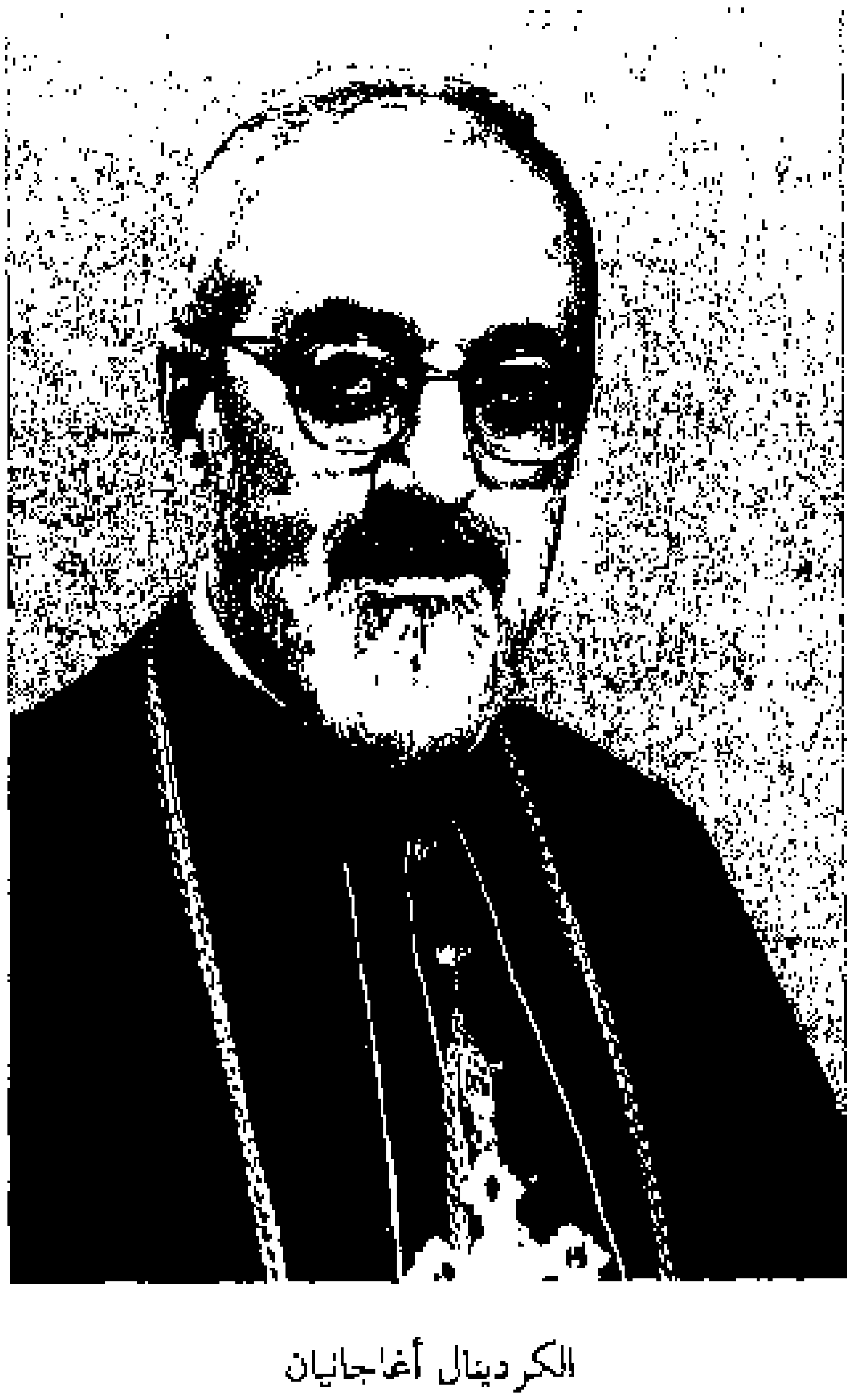

الكردينال أغاجانيان

راهبات الحبل بلا دنس اللواتي أنشأهن البطريرك حسون في العام ١٨٤٧. كما ساهم الآباء اليسوعيون والفرنسسكان في مجال التربية والتعليم الديني والخدمة الاجتماعية. فأصبح للأرمن الكاثوليك مئات المدارس وآلاف الطلاب في المدن والأرياف. ولمّا وصلت البطريركية إلى أوجها حلّت بها مصيبة الحرب العالمية الأولى ومجزرة عام ١٩١٥، فتهدّم كل شيء. وهكذا طويت صفحة مشرقة من تاريخ الكنيسة الأرمنية لتنفتح صفحة جديدة لا تقلّ إشراقًا.

١٣. عقائد الكنيسة الأرمنية

تؤمن الكنيسة الأرمنية بالعقائد المعلنة في المجامع المسكونية الثلاثة الأولى، وتجد في هذه العقائد خلاصة الدين المسيحي: ألوهية السيد المسيح وألوهية الروح القدس، وبذلك حقيقة سر الثالوث الأقدس، واتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص يسوع المسيح من العذراء مريم وبذلك حقيقة سر التجسد، وموت يسوع المسيح ابن الله على الصليب لأجل خلاصنا وبذلك حقيقة سر الفداء.

أما مجمع خلقيدونية وما بعده من المجامع، فإن الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية لا تعترف بها، وتعزو ذلك إلى أن هذه المجامع لم تأتِ بعقائد جديدة، بل كانت محاولة لتفسير عقائد معلنة في المجامع الأولى. والتفسير والتعليم لا يدعوان بالضرورة إلى مجمع مسكوني. ومن هذا المنطلق ترفض العقائد التالية: الطبيعتان في شخص المسيح الواحد — انبثاق الروح من الابن — المطهر — الديونة الخاصة — الغفرانات — العصمة البابوية. . .

أمّا الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فهي تعترف بجميع المجامع المسكونية وعقائدها وتعاليمها.

ا) قانون الإيمان

هذا وإن قانون الإيمان الذي تستخدمه الكنيسة الأرمنية في الليترجية هو قانون الإيمان «النيقاوي» الذي ساهم في وضعه القديس أثناسيوس، والذي يتمحور حول سر التجسد. وثمّة قانون إيمان آخر، أكثر توسُّعًا، يُتلى في أثناء الرسامات الكهنوتية والأسقفية، وفيه رفض معلن لهرطقة أوطيخا، وتأكيد الطبيعة المتّحدة في شخص واحد بدون خلط أو مزج.

والكنيسة الأرمنية الكاثوليكية تستخدم في الليترجية هذين النوعين من «قانون الايمان». وبعد أن أُدخلت في القرن السابع عشر بعض التعديلات على نص القانون «النيقاوي»، عادت قبل ستين وتخلّت عن هذه التعديلات لتحافظ على الأصل.

ب) الأسرار

إن الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية، وإن كانت تقول بسبعة أسرار، فهي لا تعترف بسر مسحة المرضى، وتكتفي بالصلاة على جثة الميت. أما المرضى فتمنحهم سر التوبة أو سر المناولة. هذا وإن سر المعمودية يمنح مع سرّي الميرون والمناولة، فالاسرار الثلاثة الاولى تشكّل وحدة متكاملة يدخل بها الطفل المعمّد في الكنيسة جسد المسيح السرّي.

أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فهي تعترف بالأسرار السبعة ولها طقس خاص بسر مسحة المرضى. وتمنح الميرون فقط للطفل المعمّد، وتترك سر المناولة إلى وقت لاحق تمنحه للأولاد في أثناء احتفال «المناولة الأولى».

ج) الشرع الخاص

تمنع الكنيسة الأرمنية الزواج من الأقرباء حتى الدرجة الرابعة، وتحرّم مباركة الاكليل في أيام الصوم والأعياد السيّدية. أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فهي تمنح التفسيح من القرابة الدموية والأزمنة المحرّمة لظروف خاصة.

تقبل الكنيسة الأرمنية برسامة المتزوجين كهنة. ولكنّ درجة الأسقفية لا تُعطى إلاّ للراهب المتبتل. ولا يجوز للكاهن المتزوّج أن يتزوّج ثانيةً في حال وفاة زوجته الأولى.

وقد عادت الكنيسة الارمنية الكاثوليكية إلى هذا التقليد في السنوات الأخيرة وقبلت برسامة المتزوّجين شمامسة أو كهنة، بعد فترة من الاختبار والدراسة اللاهوتية.

كما أن نظام الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية يولي العلمانيين دوراً هاماً في إدارة المجالس المليّة والأوقاف واللّجان الكنسية، وتخوِّل خاصةً عدداً كبيراً من الممثلين العلمانيين حقّاً للمشاركة في مجمع انتخاب الأساقفة والبطاركة.

أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فلها شرعها الخاص، ضمن مجموعة القوانين الخاصة بالكنائس الكاثوليكية الشرقية.

١٤. الطقوس والرتب الدينية الأرمنية

يعود الفضل إلى البطريرك أوهانيس ماناكوني في تكوين الليترجية الأرمنية، وذلك في أواخر القرن الخامس. وتنسب هذه الليترجية إلى القديس أثناسيوس، ولكنّها قريبة جداً من ليترجية القديس باسيليوس. وفيها أيضاً طقوس مأخوذة عن كنيسة قبدوقية وكنيسة السريان، بالإضافة إلى الطقوس الكنسية الأورشليمية.

وفي مطلع القرن العاشر، أُدخلت أيضاً صلوات من ليترجية القديس يوحنا الذهبي الفم، وفي القرن الثالث عشر، أي في عهد الصليبين، أُدخلت أيضاً صلوات من الطقس اللاتيني، وآخر ما أُضيف كان صلوات للقديس كريكور ناريكاتسي.

هكذا نجد في الكنيسة الأرمنية انفتاحاً مسكونيّاً رائعاً في استقطاب معطيات من مختلف المصادر، ومرونةً كبيرة في إخضاع هذه الأشكال لنموذج واحد من رتبة القدّاس الاحتفالي الذي يجمع بين الأرثوذكس والكاثوليك.

والكنيسة الأرمنية تستخدم في القداس الخبز الفطير والخمر الصافي دون مزجه بالماء. كما أنها تستخدم البرادي لفصل الهيكل عن الشعب تعبيراً عن السرّ الذي لا يقترب منه إلاّ الكاهن وحده.

في أثناء القداس تقام دورتان: واحدة بالانجيل وأخرى بالقرابين. بالإضافة إلى الكلام الجوهري واستدعاء الروح القدس، تعتبر رتبة رفع القرابين قبل المناولة من أهمّ أجزاء

القداس، يوزَّع بعدها القربان على المؤمنين في شكلي الخبز والخمر.

تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بالذبيحة الإلهية فقط في أيام الآحاد والأعياد، ولا يقيم الكهنة أكثر من قداس في الكنيسة الواحدة، وليسوا ملزمين بإقامة القداس اليومي. ويكون القداس احتفاليًا دومًا تسبقه صلاة الفرض.

أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فقد تبنّت عادة الكنيسة اللاتينية في اختصار القداس الاحتفالي، وفي جعله قداسًا بسيطًا قصيرًا (Messe basse)، يقام في جميع أيام الاسبوع، وأكثر من مرّة، لأنّ الكهنة ملزمون بإقامة القداس يوميًا.

وبينما تتمسّك الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية في طقوسها باللغة الأرمنية الكلاسيكية التي لا يفقهها عامة الشعب، فقد بادرت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية إلى استخدام اللغة الأرمنية العامية، بالإضافة إلى بعض اللغات المحلية، لتكون أقرب إلى المؤمنين، محافظةً على اللغة الكلاسيكية الأرمنية في التراتيل والأناشيد الأصيلة.

وجدير بالذكر أنّ رجال الاكليرس وخدّام الهيكل يلبسون أبهى الحلل الطقسية، ولا يخفى تأثير الكنائس السريانية والبيزنطية واللاتينية على الثياب والشارات الطقسية التي يستخدمها المحتفلون.

آ) السنة الطقسية

تدور السنة الطقسية الأرمنية في فلك عيد الفصح. فتتحرّك الأوقات والأعياد وفق تاريخ عيد القيامة الذي يحسب عند الأرثوذكس والكاثوليك وفق التقويم الغريغوري المعدّل.

أما عيد الميلاد، فتحتفل به الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية وفق التقويم اليولياني القديم، في ٦ كانون الثاني، أي بفارق ١٢ يومًا. وتحتفل في اليوم نفسه بعيد الظهور الإلهي المثلّث، أي: الكشف عن ألوهية المسيح في يوم الميلاد وعند قدوم المجوس وفي أثناء العماد على يد يوحنا في نهر الأردن.

أضف إلى ذلك أنّ الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية تحتفل بسائر الأعياد المرتبطة بعيد الميلاد أو التجسد الإلهي بفارق ١٢ أو ١٣ يومًا عن رزنامة الكنيسة الكاثولكية (عيد تقدمة المسيح في ١٤ شباط (فبراير)، عيد البشارة في ٧ نيسان (أبريل).

ب) الأعياد الطقسية

تقسم الأعياد في الطقس الأرمني إلى نوعين:

١. الأعياد السّيدية الكبرى

وتُسمى «سيّدية» لعلاقتها بالسيّد المسيح وسرّي التجسد والفداء. وهذه الأعياد الكبرى خمسة: عيد الظهور الإلهي (٨ أيام) وعيد القيامة (٥٠ يومًا)، عيد التجلي (٣ أيام)، عيد السيدة أو انتقال العذراء إلى السماء (٩ أيام)، عيد الصليب (٧ أيام).

وتتميّز هذه الأعياد السيّدية الكبرى بأنها تقع دومًا في يوم الأحد، ما عدا عيد الظهور الإلهي الثابت في ٦ كانون الثاني. وتتميّز أيضًا بكون ثاني يوم العيد مكرّسًا دومًا لتذكار الموتى، فيزور المؤمنون الأرمن مقابرهم خمس

مرات في السنة، ويقيمون القداديس والصلوات على نية موتاهم (مرة في ٧ كانون الثاني، وأربع مرات في يوم الاثنين الواقع بعد أحد الفصح والتجلي والسيدة والصليب).

وتتميّز هذه الأعياد السيّدية بفترات صيام تسبقها، وأسابيع تذكارية تتبعها، لأنها تشكّل محور الأزمنة الطقسية كما ذكرنا.

٢. الأعياد السيّدية الصغرى

هي أيضاً تذكارات للسيد المسيح ومريّ التجسد والفداء، ولكنها لا تشكّل أزمنة خاصة مثل: جميع أيام الآحاد، وعيد الصعود، وعيد الثالوث الأقدس، وعيد تقدمة المسيح إلى الهيكل، والأعياد المريمية (البشارة، ميلاد العذراء، تقدمة العذراء، الحبل بالعذراء بلا خطيئة) وأعياد الصليب الثلاثة المختلفة عن «ارتفاع الصليب». وأخيراً أعياد «الكنيسة» السبعة وهي أعياد تتميّز بها الكنيسة الأرمنية وتعتبرها رمزاً لسر الفداء.

هذا وإن الأيام التي تسبق الأعياد الكبرى تُعتبر أيضاً أعياداً سيّدية: مثل سبت النور و«بيرمون» أعياد الميلاد والصليب والسيدة والتجلي.

ونخلص إلى القول بأنّ مجموع الأعياد السيّدية الكبرى والصغرى مع أيام الآحاد العادية بلغ ١٣٣ يوماً

ومجموع أيام الصوم يبلغ ١١٧ يوماً

ومجموع أيام تذكار القديسين يبلغ ١١٥ يوماً فيكون جمعها ٣٦٥ يوماً. وهكذا تكتمل اللوحة الطقسية على مدار السنة الليترجية.

ج) الرتب الدينية والتقاليد الشعبية

ما تتميّز به الكنيسة الأرمنية أنها تبنّت بعض الطقوس الوثنية التي كانت منتشرة في أرمينيا قبل دخول المسيحية إليها، فعوضاً عن منعها ومحاربة الناس المتعلقين بها، عمدت إلى «تنصير» و«تعميدها»، هذه العادات الوثنية الشعبية، فأدخلتها في صلب الرتب الدينية وأعطتها معاني جديدة.

مثال على ذلك: **طقس إشعال النار في** وسط الكنيسة، في عيد تقدمة المسيح إلى الهيكل، والالتفاف حولها. لا شك أنّ هذه العادة مرتبطة بعيد النار التي كان يعبدها الأرمن قبل تنصيرهم. ولكنّهم حوّلوا و«قدّموا» هذه الرتبة وجعلوا من النار رمزاً للمسيح «نور العالم»، كما قال سمعان الشيخ «نوراً يتجلّى للوثنيين».

مثال اخر **طقس بركة العنب في** يوم عيد السيدة، وتوزيعه على المؤمنين. لا شك أنّ هذا العيد أيضاً مرتبط بعيد آلهة الخمر والكروم عند الأرمن الوثنيين ويصادف في شهر آب (أغسطس) ويدعى «نفاسارت». فحافظت الكنيسة على هذه العادة الشعبية وأدخلت بركة العنب في صميم الطقس الكنسي، بعد أن أعطته معنًى خلاصياً ابتداءً من نوح الذي زرع الكرمة إلى المسيح الكرمة الحقيقية، ومن عرس قانا الجليل الذي حوّل فيه يسوع الماء خمراً إلى العشاء الأخير حيث جعل من الخمرة رمزاً لدمه الأقدس.

وهكذا أيضاً يصادف عيد التجلي عند الأرمن عيد «أناهيد» إلهة الماء والينابيع، ولذلك

تسمّيه العامة عيد «الرشاشة»، لأنهم يرشّون الماء بعضهم على بعض. وعيد الصعود يصادف عيد الربيع والزهور فيذهب الأرمن في ذلك اليوم إلى البساتين ويحتفلون بالألعاب والمسابقات، مثل «شمّ النسيم». وفي عيد الصليب، يكون عيد الريحان، فيأتي المؤمنون إلى كنائسهم بالرياحين تقدمةً للرب، كما كانوا يقدّمونها في ما مضى لآلهتهم الوثنية.

ونخلص إلى القول بأنّ أسلوب تنصير العادات الوثنية وإدخال قسم منها في الطقوس الدينية، بعد إضفاء الطابع المسيحي الكتابي عليها، هي عملية تربوية ناجحة تبنّتها الكنيسة الأرمنية منذ نشأتها، محققةً بذلك مبدأ «الانثقاف» (Inculturation) قبل قرون.

وفي الطقس الأرمني رتب دينية أخرى من أصل مسيحي، مثل رتبة فتح الأبواب في عيد الشعانين، ورتبة التوبة في يوم الأربعاء من أسبوع الآلام، ورتبة الغسول، ورتبة «السّهر» للتأمل في آلام المسيح يوم الخميس ليلاً، ورتبة دفن المسيح، وصوم مار سركيس الذي يدعى عند بعض الكنائس صوم «نينوى».

أضف إلى ذلك أن رتب المعمودية وبركة الاكليل ودفن الموتى هي مزيج من العادات المسيحية والوثنية يوليها الأرمن أهمية كبرى، ويقوم «الاشبين» بدور هام في حياة العائلة. أما الكنيسة الكاثوليكية فبالإضافة إلى هذه الطقوس تبنّت أيضاً بعض العبادات المأخوذة عن اللاتين مثل «الصلاة الملائكية» وصلاة «السبحة» والشهر المريمي، ورتبة درب الصليب والاحتفال بالمناولة الأولى والتطواف بالأيقونات والسجود للقربان الأقدس واكرام التماثيل الدينية وإنشاء الأخويات التقويّة، وصنع المذود في عيد الميلاد...

١٥. الفن الأرمني الكنسي

لا نستطيع في هذه العجالة أن نتحدث عن الفن الأرمني بشكل كامل، بل نخصّ بالذكر ما له علاقة وثيقة بالكنيسة وطقوسها:

آ) **الفن الهندسي المعماري** الأرمني في بناء الكنائس له طابع متميّز، فتأتي القبّة بشكل مخروط يرتفع نحو السماء، ويكون البناء في معظم الأحيان صغير الحجم وبلا أعمدة في الوسط. أما الهيكل الحجري فيكون على منصّة مرتفعة لا يصعد عليها إلاّ خدمة الهيكل بعد خلع أحذيتهم. ويكون اتجاه الكنيسة دوماً نحو الشرق. هذا ويضع البنّاؤون الجرار الفارغة في القبّة والجدران للحدّ من الصدى.

ب) **«الخاجكار»، أو الصلبان المنقوشة في الحجر**، هي أيضاً من اختصاص الفن الأرمني فهناك النماذج الكثيرة قرب الكنائس القديمة وفي المقابر، وتستخدم كشاهدة مسيحية توضع فوق قبور المتوفين، أو تقدّم تذكاراً لهم.

ج) **تأتي المنمّقات الأرمنية** (Miniatures) في طليعة الفنون التي اختص بها الرهبان في الأديرة، وقد زيّنوا بها الأناجيل المخطوطة وسائر الكتب الدينية. ولا تزال هذه المنمّقات مواد بحث العلماء للكشف عن سر ألوانها والمواد المستخدمة فيها وطريقة حفظها. لقد فُقد الكثير من هذه المخطوطات الرائعة، ولكن ما وصل إلينا

دخول يسوع إلى أورشليم
(منمنمة أرمنية)

يكفي للدلالة على الرقي الذي وصل إليه الفنّ الأرمني منذ القرن الخامس. وتحفظ هذه المنمّقات في المتاحف العالمية والمكتبات الوطنية والأديرة الكبيرة.

د) اشتهر الأرمن أيضاً **بفن تصيع الذهب والفضة والنحاس**، فجاءت الآنية التي تستخدم في الكنائس آيةً في الفن اليدوي مثل المباخر والشمعدانات وغلافات الإنجيل والصلبان... وقد نُقشت على معظمها مشاهد مأخوذة من العهدين القديم والجديد. أضف إلى ذلك أن الأرمن برزوا في الحفر على الخشب وتطعيمه بالفضة. كما اشتهر أرمن كوتاهيا بصنع الخزف الملوّن.

هـ) هذا وقد إزدانت الكنائس أيضاً بأنواع أخرى من **فنون الأشغال اليدوية** التي تجيدها النساء الأرمنيات مثل الحياكة والتطريز وصناعة السجاد... وتختلف النماذج الفنّية باختلاف المناطق التي كان يعيش فيها الأرمن.

و) تُعتبر **الموسيقى الطقسية الأرمنية** من أجمل الألحان الشرقية، وقد هذّبها كبار الموسيقيين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر ودرسوا فن الموسيقى في الغرب. ولمّا عادوا إلى بلادهم وضعوها في أشكال النوطة العالمية، ووزّعوا فيها الأصوات وأدخلوا عليها المرافقة على الأرغن. نذكر منهم الراهب كوميداس، وقره موزا ويكماليان وكناجيان.

بالإضافة إلى هذه الألحان التي تستخدمها جميع الكنائس هناك أيضاً ألحان خاصة تختلف من منطقة إلى منطقة ومن دير إلى دير بحسب التقاليد الموروثة عن الأقدمين. وقد استخدم الأرمن في ما مضى حركات خاصة تُسمّى «خاز» عوضاً عن النوطة، ولم يُكشف سرّها حتى اليوم.

١٦. العلاقات المسكونية

إنّ الحركة المسكونية في الكنائس الأرمنية تتأرجح بين النشاط والفتور، وتخضع لتيارات عديدة تختلف بين كنيسة وكنيسة وبين منطقة ومنطقة، إن لم نقل بين رئيس روحي ورئيس روحي. نسعى في هذه العجالة لتلخيص الوضع المسكوني.

آ) **العلاقات بين الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية**

إنّ العلاقات المسكونية تطوّرت بشكل سريع بعد المجمع الفاتيكاني الثاني. وتجدر الإشارة إلى أن ممثلين عن كرسي أشميادزين وكرسي انطلياس شاركوا كمراقبين في جلسات المجمع الفاتيكاني الثاني. وقد ساهم في هذا التقارب المثلّث الرحمات الكردينال أغاجنيان الذي كان رئيس مجمع انتشار الايمان، وأحد مدراء المجمع الفاتيكاني الثاني.

وقد جاء لزيارة قداسة البابا على رأس وفود رسمية، كلٌّ من كاثوليكس اشميادزين فازكين الأول، وكاثوليكس انطلياس خورين، ومن بعده كاركين الثاني. كما زار رومة بطاركة استنبول والقدس، وقد نتجت عن هذه الزيارات بيانات مشتركة وعلاقات ودّية. وقد كان «للمجلس الحبري البابوي لتعزيز الوحدة بين المسيحيين» الدور الفعال في تنظيم هذه اللقاءات. هذا وان مؤسسة «برو أورينتي» Pro Oriente، التي ترعى التقارب المسكوني بين الكنائس غير الخلقيدونية والكنيسة الكاثوليكية، تسعى إلى تنظيم حوار رسمي بين الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، ولكنّها تصطدم ببعض العقبات أهمّها وجود كرسيين للأرمن وبالتالي سلطتين كنسيّتين. فيجب عليهما أن يوحّدا وجهات النظر المتباينة قبل الدخول في حوار رسمي مع كنيسة أخرى.

أما علاقة الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية بالكنيسة الأرمنية الارثوذكسية، فتقتصر على الاحترام المتبادل والمشاركة في بعض الاحتفالات الدينية والقومية، والزيارات الرسمية والتعاون في الخدمات الانسانية وفي المجالات الثقافية والخيرية. أما الحوار العقائدي فغير قائم. – ولا ننكر فضل الآباء المختاريين في دعم هذه الروح المسكونية، فكانوا ولا يزالون الجسر المتين الذي يربط بين الكنيستين الأرمنيتين الكاثوليكية والارثوذكسية.

هذا وإنّ حرية الدين التي أعلنتها الجمهورية الأرمنية الحديثة، وتواجد الرهبان والراهبات الأرمن الكاثوليك في أرمينيا لرعاية شؤون الكاثوليك، خلق أزمة مع كرسي أشميادزين، ما لبث أن هدأت بعد أن قام وفد من الأساقفة الأرمن الارثوذكس بزيارة قداسة البابا، وقابلهم وفد آخر من أساقفة الأرمن الكاثوليك بزيارة الكاثوليكس فازكين الأول.

وقد ساهم في تطبيع العلاقات الكردينال سلفستريني رئيس مجمع الكنائس الشرقية الذي زار اشميادزين في ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٤ باسم البابا وقدّم للبطريرك فازكين ذخائر القديسين الرسولين برتلماوس وتدّاوس المحفوظة في رومة.

وتجدر الاشارة إلى أن ممثّلين عن كاثوليكسية انطلياس وممثلين عن بطريركية الأرمن الكاثوليك هم أعضاء في مجلس كنائس الشرق الأوسط ويشاركون جنباً إلى جنب في جميع أعماله بروح مسكونية منفتحة.

ب) العلاقات بين الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية والكنيسة الانجيلية الأرمنية هي ودّية، ولكن لا تتعدى حدود الاحترام المتبادل والصلوات المشتركة والتعاون في المجالات

الخيرية. وتجري اللقاءات الرسمية في نطاق مجلس كنائس الشرق الأوسط.

وخير ما نختم به هذا المقال ما جاء في خطاب قداسة البابا يوحنا بولس الثاني الذي وجّهه إلى أساقفة سينودس كنيسة الأرمن الكاثوليك المجتمعين في رومة في ١٩ نيسان (أبريل) ١٩٩٢:

«تغمر قلبي رغبة عارمة في رؤية ذلك اليوم حيث تجتمعون مع إخوتكم أساقفة الكنيسة الأرمنية الارثوذكسية لتصلّوا وتتأملوا وترشدوا وتتخذوا القرارات في شركة تامة. وإني لأكيد أن هذه الرغبة تملأ قلوبكم أيضاً. إنكم جميعاً أولاد شعب واحد منحدرون من المسيح نفسه وكلكم جُعلتم على صورة المسيح رأس الكنيسة وراعيها الأكبر. فإننا نمدّ يدنا ونبادر إلى اللقاء مجتازين الصعاب وذلك بحسب وصية المعلم.

أمّا الآن، فنقدم للرب آلامنا التي تنتابنا بسبب هذا الانقسام. وإننّا على ثقة بأن الله سوف يحوّل آلامنا إلى حقيقة. ولا ننسى أنّ الالتزام الوحدوي المسكوني واجب من واجبات الكنيسة الأساسية.

إن العالم لا ينتظر لأنه بحاجة ماسة لأن يرى المؤمنين بالمسيح متحدين بالمشاركة التي يسعون إليها والمحبة التي يبشرون بها».

المراجع باللغة العربية

- تاريخ الكنيسة الشرقية، المطران ميشيل يتيم والارشمندريت اغناطيوس ديك، المكتبة البولسية، الطبعة الثالثة المنقحة، جونية ١٩٩١.
- أرمينية أرض وشعب، سمير عربش، مؤسسة دار الريحاني، بيروت ١٩٩١.
- الأرمن عبر التاريخ، مروان المدوّر، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٢.
- تاريخ الشعب الأرمني، فؤاد حسن حافظ، دار نوبار للطباعة، القاهرة ١٩٨٦.
- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية، عثمان الترك، مطبعة الأهرام، حلب، ١٩٦٠.
- تاريخ الأمّة الأرمنية، كيفورك استارجيان، ١٩٥٠.
- الشرق المسيحي، الأب اغناطيوس ديك، المكتبة البولسية، ١٩٧٥.
- أرمينية في التاريخ العربي، أديب السيّد، المطبعة الحديثة، حلب، ١٩٧٢.
- مختصر تاريخ الأرمن، القس أنطوان خانجي، دير الآباء الفرنسيسكان، أورشليم ١٨٦٨.
- نبذة تاريخية عن أبرشية حلب للأرمن الكاثوليك، الأب يوسف قوشاقجي، حلب ١٩٩١.
- مجلّة المسرّة، للآباء البولسيين، حريصا، لبنان.
- مجلّة المشرق، للآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان.
- مجلّة المنارة، للمرسلين اللبنانيين، مطبعة الكريم، جونيه، لبنان.
- نشرة أبرشية، الأرمن الكاثوليك، حلب، سورية.

كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك

بقلم د. وسام كبكب*

* أستاذ تاريخ الكنيسة في معهد القديس بولس في حريصا.

مدخل

تنتمي كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك إلى الكرسي الأنطاكي الذي يُعتبر مرجعاً أصيلاً لفروع عدّة. فهي إذن شرقيّة المنبت، ذات جذور عميقة تأصّلت في أنطاكية منذ نشأتها باسم «الكنيسة الملكية».

وتسمية ملكيّين قديمة العهد، تعود إلى القرن الخامس الميلادي الذي شهد الخلاف بين مدرستي الاسكندريّة وأنطاكية اللاهوتيّتين. فالفريقان اتّفقا على أنّ المسيح الواحد هو إله تام وإنسان تام، ولكنهما اختلفا على طريقة التعبير عن الوحدة القائمة بين العنصرين وطريقة شرحها. فمدرسة الاسكندريّة ركّزت على وحدة الطبيعة في المسيح وطابعه الإلهي، معتمدةً في التفسير على التأويل الروحي والرمزي. أما المدرسة الانطاكية فاعتمدت التأويل الحرفي والتاريخي، لذلك ركّزت على حياة المسيح الأرضية وعلى حقيقته البشريّة المتحدة بالألوهة.

هذا الخلاف أدّى إلى انعقاد مجمعين لتوضيح سرّ التجسّد. الأول في أفسس، سنة ٤٣١، برئاسة القديس كيرلّس الاسكندري الذي دان نسطور وأبرز وحدة الأقنوم في السيد المسيح. والثاني في خلقيدونيا، سنة ٤٥١، برئاسة أوطيخا، وقد أوضح حقيقة كل من الناسوت واللاهوت متحدين بلا امتزاج في وحدة المسيح الأقنومية.

وكانت الجماعة الأنطاكية منزعجة ممّا نتج عن مجمع أفسس من مقولات لكيرلّس، ولم يتمّ الاتفاق إلاّ سنة ٤٣٣، بعدما قدّم كيرلّس الإيضاحات اللاهوتية، وبعدما قدّم التنازلات لصالح التعاليم الأنطاكية. هذا الأمر أدّى إلى انقسام في كل من المعسكرين، فأنصار كيرلّس لم يرق لهم تنازله للأنطاكيين، وأنصار يوحنا الأنطاكي انزعجوا من اتّفاقه مع كيرلّس.

ووقع الانقسام مرّة أخرى حول عقيدة أوطيخا الذي أنكر أنّ طبيعة المسيح هي طبيعتنا نفسها. وأطلق موفدو البابا والأنطاكيّون على مجمع أفسس، سنة ٤٤٩، اسم «مجمع اللصوص».

وتبنّى مجمع خلقيدونيا، سنة ٤٥١، وجهة النظر الأنطاكية، بدعم من البابا لأون الكبير (٤٤٠–٤٦١)، وتثبيت من الامبراطور البيزنطي مرقيانس (٤٥٠–٤٥٧)، مما زاد حدّة الخلاف بين الفريقين.

وانطلق أهل المعارضة في تحدّيهم السلطة المركزية البيزنطية، فأطلقوا على أتباع المجمع الخلقيدوني لقب «الملكيّين»، أي أتباع الملك، نسبة إلى الأمبراطور مرقيانس، في حين أطلق أنصار المجمع على المعارضة لقب اليعاقبة، نسبة إلى يعقوب البرادعي.

وما لبث الشرق المسيحي ان انقسم إلى:
- **يعاقبة**، يقولون إنّ في المسيح أقنومًا واحدًا وطبيعة واحدة. وقد أطلق يعاقبة مصر على أنفسهم اسم أقباط، أي مصريّين.
- **نساطرة**، نسبة إلى نسطور، يقولون بأقنومين وطبيعتين في السيد المسيح.
- **ملكيّين**، يقولون بأقنوم واحد وطبيعتين في السيد المسيح.

وهكذا نشأت تسمية «الملكيّين» منذ القرن الخامس الميلادي، إثر مجمع خلقيدونيا، وظهرت للمرة الأولى على لسان اليعاقبة في الاسكندرية.

أما تسمية «الروم» فهي تسمية حديثة، إذ لم تكن معروفة في الدولة الإسلامية. فالاسم الذي كان شائعًا آنذاك هو «الملكية» أو «الملكانية»، وقد استمر معروفًا حتى أوائل القرن الثامن عشر. أما كيف أُطلق لقب «روم» على الكنيسة الملكية فهذا يعود بحسب الأستاذ حبيب زيّات إلى خطأ في الترجمة الأجنبية للاسم. فكلمة «روم» مقتطعة من لفظة «رومانيين» (Romanian) الواردة في التواقيع السلطانية العثمانية نسبةً إلى الاسم الذي أُطلق على القسطنطينية منذ تأسيسها، رومة الجديدة (La Nouvelle Rome). فقد انتسبت الكنيسة الملكية إلى القسطنطينية بتراثها الفكري واللاهوتي والفني واللغوي. لذلك توهّم الكثيرون أن المنتسبين إلى هذه الكنيسة هم من أصل إثني إغريقي أو يوناني. ومما زاد الأمر التباسًا تبنّي الكنيسة الملكية للطقس البيزنطي باللغة اليونانية. فاقتطعوا «روم» من «رومان» للدلالة على الانتساب الاثني لهذه الكنيسة، فوقعوا في خطأ فادح يَصعب معه اليوم إصلاحه نظرًا لشيوعه بشكل واسع.

أما الجزء الأخير من الاسم، وهو «الكاثوليك» فناتج عن اتحاد فريق من الكنيسة الأنطاكية الملكية بروما سنة ١٧٢٤، لذلك عُرف المتّحدون بروما بالروم الملكيين الكاثوليك (Grecs Melkites Catholiques). أما الذين عارضوا الاتّحاد فقد عُرفوا بالروم الأرثوذكس (Grecs Orthodoxes)، مسقطين عنهم لقب الملكيين(١).

(١) لمزيد من التفاصيل حول التسمية، راجع حبيب زيّات: **الروم الملكيون في الإسلام**، الجزء الأول، المطبعة البولسية، حريصا – لبنان، ١٩٥٣، ص ١–٢٩؛ يوسف جرجس وردة الدمشقي: **كتاب الذهب الصحيحة في الكنيسة المسيحية**، المطبعة العمومية بمصر، ١٩٠١، ص ٦٧–١٦٨.

Evangelos Hid: *Etude sur les Origines des Grecs Melchites*, imp. de la sacrée congrégation de la propagande. Rome, 1901, p. 5.

أولاً : مراحل النشأة

نشأت كنيسة الروم الملكيّين من خلال انفتاح فرع من الكنيسة الملكية على الكرسي الروماني. فقد مرّت العلاقة بينهما بمراحل ثلاث.

المرحلة الأولى: كانت مرحلة الشركة الكاملة بين الكرسي الأنطاكي والكرسي الروماني من خلال نظام البطريركيات الذي أخذ يتبلور في الكنيسة منذ القرن الخامس، وكرّسه في ما بعد الدستور اليسطنياني. فالكنيسة توزّعت على كراسٍ خمسة: رومة، القسطنطينية، الاسكندرية، أنطاكية وأورشليم.

هذا النظام، وإن منح القسطنطينية مركزاً سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا مرموقاً، وهذا ما استفاد منه بطريرك العاصمة البيزنطية لتعزيز دوره الديني، فقد حافظ على أولية الكرسي الروماني على الرغم من اختلاف مفهوم الأولية بين الشرق والغرب. كذلك حدّد هذا النظام العلاقة بين الكراسي الخمسة، فالبطريركيات مستقلة في شؤونها الداخلية، يجمع بينها وحدة المعتقد، في الدرجة الأولى، والقوانين التي كانت تسنّها المجامع المسكونية، فضلاً عن الروابط التالية(٢):

- كان كل بطريرك يُرسل، عند انتخابه، رسالة إلى البطاركة يُطلعهم فيها على ارتقائه السدّة البطريركيّة، وعلى صورة إيمانه. وكان على البطاركة الاعتراف به وقبوله في شركتهم الروحية أو رفضه.
- يذكر كل بطريرك إخوته البطاركة في أثناء الذبيحة الإلهية.
- كان لكل بطريرك ممثّل (سفير) لدى سائر البطاركة.

المرحلة الثانية: هي مرحلة القطيعة التي أعقبت خسارة البيزنطيين أمام العرب، واحتلال المسلمين معظم الشرق. فخضعت البطريركيات الثلاث، أنطاكية والاسكندرية وأورشليم، للحكم الإسلامي الذي كان يرى كل اتصال بالغرب عملاً مشوهاً يصنّف في خانة الخيانة. لذلك انقطع الاتصال بالغرب، وتتوّجت قطيعة الأمر الواقع في السنة ١٠٥٤ حين حصلت القطيعة الكبرى بين القسطنطينية وروما، وتعاظمت بعد الحملات الصليبية، حين أصبح أقل اتصال مع الغرب، ومهما كان دافعه، يثير الريبة والشك. وتعمّقت القطيعة بعدما تبنّت الكنيسة الملكية بعض الأفكار التي كان يروّجها اللاهوتيّون اليونان في مساجلاتهم العقائدية مع اللاتين. والجدير بالذكر ان الكنيسة الملكية لم يكن بينها وبين رومة أي خلاف مبدئي، كما أنه لم يتّخذ أي إجراء رسمي لقطع العلاقات بين الكنيستين(٣).

---

(٢) المطران ميشيل يتيم والأرشمندريت إغناطيوس ديك: **تاريخ الكنيسة الشرقية**، منشورات المكتبة البولسية، جونيه – لبنان، طبعة ثالثة منقحة، ١٩٩١، ص ١٠٥.

(٣) المطران حبيب باشا: **الروم الملكيون الكاثوليك، الهوية والرسالة** (مترجم عن النص الفرنسي للأرشمندريت إغناطيوس ديك)، بيروت، ١٩٨٦، ص ٧٠-٧١.

ودليلنا على ذلك هو أن البطريرك الأنطاكي بطرس الثالث كتب إلى ميرولاريوس رسالة، إثر خلافه مع القسطنطينية، امتازت بسموّ العاطفة المسيحية والمحبة الأخوية(٤) حرّضه فيها على الاعتدال في معاملة اللاتين «هؤلاء الإخوة الذين تعدهم البساطة والجهل عن التقيّد باللائق من آداب السلوك، هؤلاء الأعاجم الذين لا يمكن أن يطلب منهم ما يحق طلبه من اليوناني المتمدّن»، ثم أضاف: «إني ألتمس من غبطتك الإلهية أن تساير الأحوال، وأن ترتعد خوفاً عند افتكارك بأنك، وأنت تريد تضميد هذا الجرح، قد تصل إلى ما هو أشد ضرراً، أعني الانشقاق. فإذا كانت ملكتا الأرض في اضطراب فلا بد من أن البكاء يعم المسكونة(٥).

وإثر حصول الانشقاق بين القسطنطينية وروما، عبّر البطريرك بطرس الثالث عن ألمه قائلاً: «ليل نهار، تساءلت عن سبب القطيعة الكنسية، وكيف يمكن أن يستبعد خليفة بطرس الكبير، وينفصل عن جسم الكنائس الإلهي، وألا يسمع صوته في مجامع الأساقفة، وألا يتحمّل قسطه من الاهتمامات الكنسية، على أن يتلقى منهم، هو أيضاً، توجيهاً أخوياً ورسولياً(٦).

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الاستعادة الجزئية للشركة بين الكنيستين، إذ قام فرع من الكنيسة الملكية بوصل العلاقة المقطوعة مع روما. وقد مهّد هذا الاتصال، وإحياء الشركة بين الكنيستين، عاملان مهمان:

- **العامل الأول:** استمرار الحس الكنسي، داخل الكنيسة الملكية، الداعم لفكرة الوحدة في خطها التقليدي. فالكنيسة الملكية، على الرغم من حصول القطيعة، لم تتبنَّ المشاعر العدائية اليونانية تجاه اللاتين(٧).
- **العامل الثاني:** نشاط المرسلين الغربيين المتوافدين إلى الشرق منذ مطلع القرن السادس عشر، مستفيدين من نظام الامتيازات التي كانت فرنسا تتمتّع به في أراضي السلطنة العثمانية.

وكان البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠-١٥٥٥) قد طلب من اليسوعيين في براءته «Cum praesertim» فتح ثلاث مدارس في الشرق: واحدة في القدس، وأخرى في القسطنطينية، وثالثة في قبرص. وبسبب العوائق التي واجهت المشروع، وضعت الرهبانية بتصرّف البابا رهباناً ليقيموا قصادات بابوية في الشرق: عند الأقباط (١٥٦١ - ١٥٦٣)، وعند الموارنة (١٥٧٨ - ١٥٧٩) و(١٥٨٠ - ١٥٨٢) و(١٥٩٦ - ١٥٩٧)، وعند اليعاقبة (١٥٨٣).

وقد اهتم البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥) بالشرق المسيحي فأسّس في روما، سنة ١٥٧٧، المعهد اليوناني، وفي سنة

---

(٤) بتيم - ديك، المرجع المذكور، ص ٢٠٥.

(٥) Dom. ch. POULET, O.S.B., avec le concours de plusieurs collaborateurs: *Histoire du Christianisme*, Beauchesne, Paris, 1935, 9: 399.

(٦) نقلاً عن المطران باشا، المرجع المذكور، ص ٧٠.

(٧) المرجع السابق، ص ٧١.

١٥٨٤، المدرسة المارونية. وأوفد الراهب الدومينيكاني ليونار آبيل إلى حلب حيث رعى انضمام البطريرك المستقيل ميخائيل السابع الصباغ إلى الوحدة(٨)، كما أسّس أوربانس الثامن (١٦٢٣-١٦٤٤)، سنة ١٦٢٢، مجمع انتشار الإيمان الذي أخذ على عاتقه نشر الكثلكة في الشرق، فتحوّل إلى مرجع لكلّ الرهبان العاملين في الشرق الأدنى.

وهكذا توافد الفرنسسكان واليسوعيون والكبوشيون والكرمليون إلى حلب ومنها انتقلوا إلى دمشق وصيدا وطرابلس وجبل لبنان. وقد استقبل مطران حلب ملاتيوس كرمه المرسلين الأولين في دار المطرانية حيث أنشأوا مدرستهم الأولى. وبعدما ترقّى ملاتيوس كرمه السدّة البطريركية (١٦٣٤)، تفاوض مع رومة لإبرام معاهدة وحدة بين الكنيستين الأنطاكية والرومانية، إلاّ أنه توفي في أثناء المفاوضات. ولعلّه دفع حياته ثمناً لخطواته الوحدوية، إذ قد سرت إشاعات مفادها أنه مات مسمّماً(٩).

وحافظ خلفه افتيميوس الثالث الصاقزي (١٦٣٥-١٦٤٧) على علاقات طيبة مع المرسلين وخصوصاً اليسوعيين الذين استدعاهم إلى دمشق سنة ١٦٤٣، إلاّ أنه لم يتابع خطوات ملاتيوس الوحدوية(١٠).

أما مقاريوس الثالث الحلبي (١٦٤٧-١٦٧٢) فقد اعتمد النهج الشرقي التقليدي الذي كان سارياً قبل الانشقاق الكبير. فبعث برسالة إلى رومة مفعمة بمشاعر الود والاحترام، إلاّ أنه لم يطلب الوحدة رسمياً.

وقد اعتمد المرسلون في عملهم على التبشير والتعليم، وحيث تعذّر الوعظ في الكنائس كانوا يستعملون المنازل(١١). وبدأ عمل المرسلين يفعل فعله في حلب ودمشق وصيدا وبيروت منذ أواخر القرن السابع عشر، بعدما أنشأ اليسوعيّون أديرة لهم في حلب (١٦٢٥)، ودمشق (١٦٤٣)، وطرابلس وصيدا (١٦٤٤)، وعينطورة (١٦٥٧)، متوجّهين نحو الطوائف «المنفصلة» عن رومة(١٢). وتمكّنوا من خلق تيار اتحادي في الكنيسة الأنطاكية الملكية، معتمدين على الوعظ والتأليف وتأسيس الأخويات ودعم كل ميل نحو رومة، كما نجحوا في استمالة بعض الأساقفة دون ان يطلبوا إليهم الانفصال عن البطريركية الأنطاكية.

وعلى الرغم من نشاط الإرساليات الغربية الواسع هذا، فإنه لم يحدث أي انضمام

---

(٨) راجع ذلك عند: د. أسد رستم: **كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى**، منشورات المكتبة البولسية، جونيه - لبنان، ١٩٨٨، ٣: ٢٧ وما بعدها.

(٩) الأرشمندريت إغناطيوس ديك: «**طائفة الروم الكاثوليك الملكيين**»، مقال في مجلة المنارة، السنة ٢٧ (١٩٨٦)، العددان الأول والثاني، ص ٧٠.

(١٠) الأب يوسف الشماس المخلصي: **خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية**، الجزء الثاني، المطبعة المخلصية، دير المخلص - صيدا (لبنان) ١٩٤٩، ص ١٧٠.

(١١) Basile Homsy: *Les Capitulations et la protection des chrétiens au Proche-Orient aux XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles*, Harissa, 1956 p. 262.

(١٢) **اليسوعيون في الشرق الأدنى والعالم**، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧١، ص ٦٢.

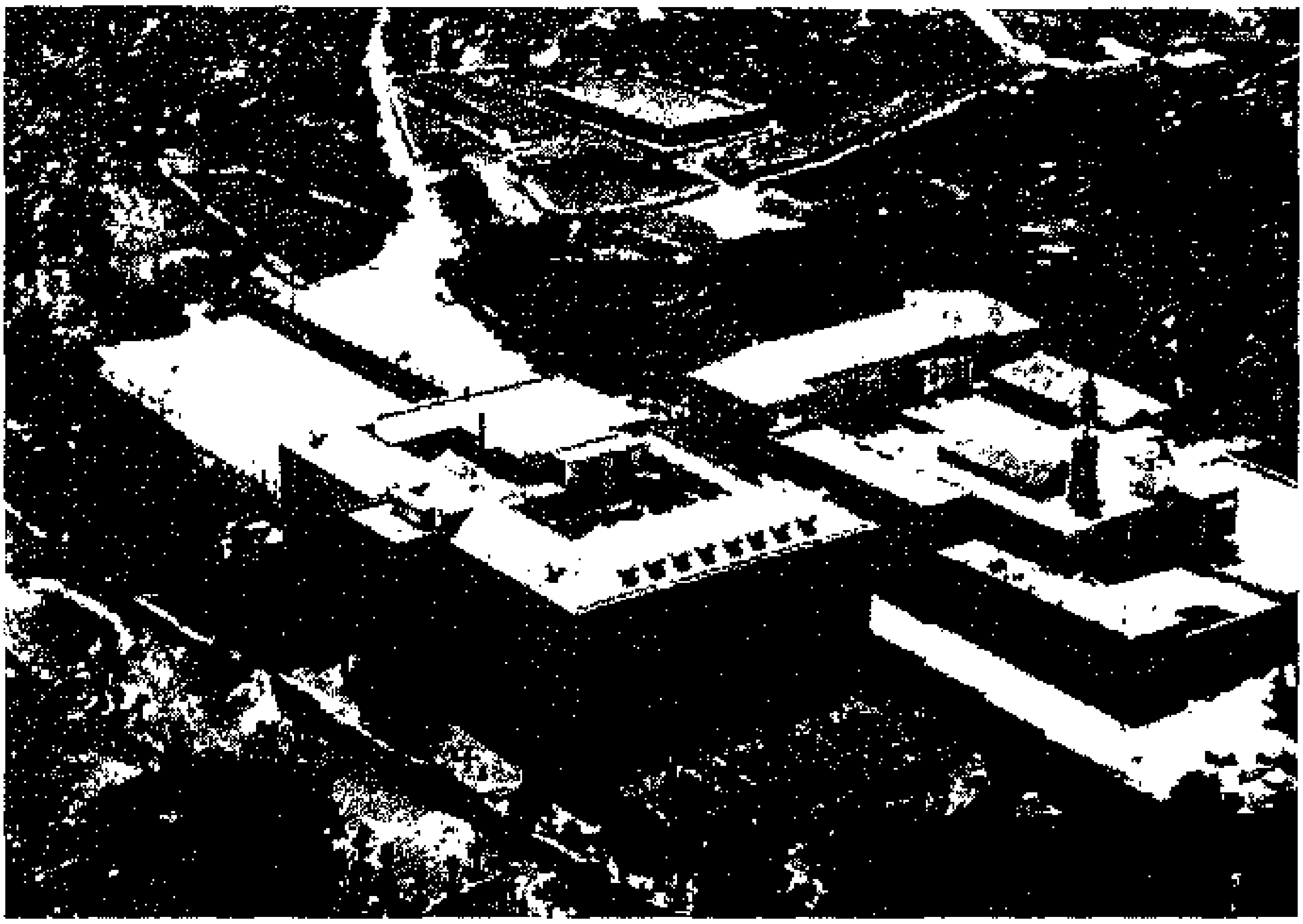

دير المخلّص للرهبان الباسيليين المخلّصيين

جماعي إلى الكثلكة. بل كان هناك خطوات فردية، مثل الايقونومس ميخائيل بجع الذي أعلن إيمانه الكاثوليكي سنة ١٦٧٤، والبطريركين كيرلّس الخامس زعيم (١٦٧٢-١٧٢٠) وأثناسيوس الثالث دباس (١٦٨٥-١٦٩٤ و١٧٢٠-١٧٢٤) اللذين، على الرغم من تنافسهما على البطريركية، أعلنا إيمانهما الكاثوليكي من دون الانفصال عن الكراسي الأرثوذكسية الكبرى(١٣).

وقد تعاظم عمل المرسلين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع تكاثف وسائل الترغيب والإغراء للانضمام إلى الكثلكة. إلاّ أن الحدث الذي شكّل نقطة تحوّل أساسيّة في مسيرة الوحدة مع روما كان رسامة المطران افتيميوس الصيفي (١٦٨٢-١٧٢٣) أسقفاً على صور وصيدا، وهو من التلاميذ اللامعين للمرسلين اللاتين في دمشق. وهو يعتبر من أبرز الدعاة إلى الوحدة، خصوصاً أنه أرسل صورة إيمانه الكاثوليكي إلى روما في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٦٨٣، أي خلال سنة من تولّيه الأسقفيّة. وقد عمد إلى تأسيس دير المخلص، بالقرب من قرية جون، جمع فيه باقة

(١٣) ديك، المقال المذكور، ص ٧١؛ الشماس، المرجع المذكور، ص ١٩٣-١٩٧؛ ٢٠١-٢٠٤.

من الرهبان «تعاونه بشكل ثابت في الرسالة وخدمة المؤمنين»(١٤)، وما لبثت هذه الباقة أن انصهرت في بوتقة رهبانية بحسب قوانين القدّيس أنطونيوس ثم باسيليوس، فدعيت الرهبانية الباسيلية المخلّصية(١٥). ويؤكّد الأب قسطنطين الباشا المخلّصي أن الصيفي كان ينوي إنشاء رهبانية قانونية من أبناء طائفة الروم ومن جميع الأبرشيات، لنشر مبدأ الاتحاد مع رومة، بواسطة الوعظ والتعليم والخدمة الكهنوتية(١٦).

في هذه المرحلة بالذات، انضم بعض الشبان الحلبيّين إلى دير البلمند الأرثوذكسي لممارسة الحياة الرهبانية. وكانوا على اتصال مستمر بمرشدهم الروحي الأب اليسوعي «فيرسو». وبواسطة هذا الاتصال، ظل هؤلاء الشبان على علاقة روحية مع الكنيسة الكاثوليكية. وما لبثوا أن انفصلوا عن البلمند وانتقلوا إلى الخنشارة حيث أسّسوا دير مار يوحنا الصايغ بدعم من رومة ومن مجمع انتشار الإيمان. وفي ما بعد أسّسوا رهبانية جديدة دعيت الرهبانية الباسيلية الحناوية(١٧).

وهكذا بدأ تيار كاثوليكي قوي ينمو ويتّسع داخل الكنيسة الملكيّة بتوجيه ودعم من المرسلين اللاتين وفي طليعتهم اليسوعيّون، ومن خلال عمل الرهبانيتين المخلّصية والحنّاوية. وبدأت مناطق واسعة من لبنان وسورية تشهد انضماماً جماعياً إلى الوحدة، خصوصاً في حلب ودمشق وحوران وجنوب لبنان والجليل وبيروت وجبل لبنان، وبعلبك حيث انضم دير السيدة إلى الرهبانية الحنّاوية، ويبرود وقرى جنوبي حمص(١٨).

وعلى الرغم من ان هذا التيار الوحدوي لم يعمد إلى إقامة سلطة دينية منفصلة، بل استمر في حالة شركة كاملة مع السلطة الملكية القائمة آنذاك، إلاّ أن اعتماد الوسائل القمعيّة من قبل البطريركية الملكية الأنطاكية بدءاً من مطلع القرن الثامن عشر، كنفي المطران الصيفي ووفاته متأثّراً بالعذاب، ونزوح جيراسيمس أسقف حلب والشماس عبد الله الزاخر إلى لبنان، حتّم على الفريق الكاثوليكي إقامة سلطة منفصلة. وعندما سنحت الفرصة بوفاة البطريرك أثناسيوس الثالث، سنة ١٧٢٤، وشغور الكرسي البطريركي الأنطاكي، عمد الفريق الكاثوليكي إلى انتخاب سيرافيم طاناس، ابن أخت الصيفي وتلميذ مجمع انتشار الإيمان في رومة، بطريركاً باسم كيرلّس

---

(١٤) الأب اندراوس حدّاد: **هذا دير المخلص**، مطبعة دير المخلص، ١٩٦٥، ص ٥.

(١٥) أنظر تفاصيل تأسيسه عند: الأب قسطنطين الباشا المخلصي: **تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية المخلصية**، القسم الأول، مطبعة دير المخلص، صيدا - لبنان، ١٩٣٨، ص ٢١٠-٢٤٧؛ الأب قسطنطين الباشا: **لمحة تاريخية في الرهبانية الباسيلية المخلصية**، المطبعة الأدبية، ١٩٠٩، ٦٤ صفحة؛ الشماس، المرجع المذكور، ص ٢٠٤-٢١١.

(١٦) الباشا، **تاريخ طائفة الروم**...، ١: ٢١٦.

(١٧) أنظر ظروف تأسيسها عند: الأب أثناسيوس حاج: **الرهبانية الباسيلية الشويرية (الحلبية - البلدية) في تاريخ الكنيسة والبلاد**، جزءان، مطابع الكريم الحديثة، جونيه - لبنان، ١٩٧٤، ج ١، ص ٧٤-١٢٢.

(١٨) المطران باشا، المرجع المذكور، ص ٧٤-٧٦.

السادس. وجرت الرسامة في دمشق، في ٢٠ أيلول سنة ١٧٢٤. إلاّ أن الأساقفة الأرثوذكس التأموا في سينودس انتخابي في القسطنطينية، في يوم الأحد ٢٧ أيلول (سبتمبر) وانتخبوا سلفسترس القبرصي بطريركاً على الكرسي الأنطاكي الملكي.

صحيح أن هذه الازدواجية في السلطة ليست جديدة على الكنيسة الملكية الأنطاكية، فقد حدثت حالات مماثلة سابقاً، لكن هذه المرة كانت الخطوة أخطر من سابقاتها لأنها تعدّت الأشخاص لتطال المبادئ. وصحيح أن البطريرك كيرلّس السادس كان يصبو إلى أن يكون بطريركاً على جميع الملكيين، ولا على الفرع الكاثوليكي فقط، إلاّ أنّ امتناع السلطة العثمانية عن الاعتراف به، واعترافها بمنافسه سلفسترس، عرقل عمله وجعله بطريركاً لفئة من المؤمنين الملاحقين، وهذا ما دفعه إلى اللجوء إلى دير المخلص هرباً من الملاحقة.

وهكذا شهد خريف أنطاكية في العام ١٧٢٤ ظهور بطريركين على الكرسي الملكي، أحدهما أرثوذكسي تدعمه السلطة العثمانية والكرسي القسطنطيني، والآخر كاثوليكي يدعمه المرسلون اللاتين، ويدعمه الكرسي الروماني بحذر.

وأخذت الكنيسة الرومية الملكية الكاثوليكية تنمو ببطء وحذر، هاجسها الوحدة مع الكرسي الروماني ومجابهة خطر الليتنة والتفريغ، والحفاظ على الشخصية الشرقية المتمثّلة بالتراث الملكي البيزنطي والأنظمة والشرائع الشرقية.

ثانياً: الانطلاقة الأولى

تسلّم كيرلّس السادس السدّة البطريركية في ظل انقسام واسع في الكنيسة الملكية الأنطاكية. وكان عليه، لضمان ثبات موقعه، الحصول على فرمان التثبيت من السلطة العثمانية، ولتأكيد مصداقية حركته كان عليه أيضاً الحصول على اعتراف رومة به. إلاّ أنه لم يحصل على أي من هذين الاعترافين. فعلى الرغم من أنه أُرسل، فور انتخابه، كتاب خضوعه وإخلاصه للكرسي الروماني، فالبابا بندكتس الثالث عشر (١٧٢٤–١٧٣٠) تلكّأ في الاعتراف به طيلة خمس سنوات. أمّا السلطات العثمانية، فلم تعترف به ولا بولايته على الكاثوليك لأنّها اعترفت بالبطريرك سلفسترس القبرصي (١٧٢٤–١٧٦٦) الذي تدعمه البطريركية القسطنطينية والفريق الملكي الأرثوذكسي وكاثوليك حلب. وزوّدت السلطنة سلفسترس بفرمانين: الأول يسمح له بتبوّء الكرسي الأنطاكي وبنفي كيرلّس السادس مع أساقفته ومؤيّديه، والثاني يلزم رعايا الروم بالخضوع له. لذلك بدأ سلفسترس ولايته بسلسلة من الاضطهادات والملاحقات دفعت بالبطريرك كيرلّس إلى الفرار مع أساقفته وبعض مؤيّديه إلى لبنان، وأقام في دير المخلّص الذي تحوّل، على حد تعبير الأب قسطنطين الباشا، إلى «قلعة البطاركة وحصن المطارنة ومدينة الملجأ لكل أبناء الطائفة المضطهدين لأجل الإيمان»(١٩).

---

(١٩) الأب ق. الباشا: **لمحة تاريخية في الرهبانية...**، ص ٥٣.

أمضى الفريق الملكي الكاثوليكي خمس سنوات مليئة بالاضطهادات والملاحقات القانونية، وتمّ إقفال كنائس كاثوليكية كثيرة ومصادرتها، وإبطال أبرشيات متعدّدة، باستثناء حلب التي استقبلت سلفسترس بحفاوة، لكنها تصدّت له عندما حاول فرض آرائه المعادية لرومة. وتمكنت المدينة، بما لها من نفوذ، من التحرّر من سلطة البطريرك الأرثوذكسي ومن الالتحاق مباشرة بالقسطنطينية بواسطة أسقف معيّن من قبلها(٢٠).

أما في لبنان فقد صمد البطريرك كيرلّس السادس مع مؤيّديه على الرغم من الطعن بشرعية انتخابه(٢١)، واتهام الروم الكاثوليك «المنفصلين» مع البعثة اليسوعية بإدخال المنطقة في جو مشحون بالمؤامرات على الباب العالي(٢٢). هذا الصمود أمّنه لهم الأمراء الشهابيون الذين كانوا يحكمون لبنان بانفتاح، بعدما حوّلوه إلى واحة للحرية. وهذا ما جعل الطائفة تنعم في لبنان بفترة هدوء طيلة خمس سنوات، حتى صدور قرار الكرسي الرسولي، في ١٥ آذار (مارس) سنة ١٧٢٩، بتثبيت كيرلّس السادس بطريركاً على أنطاكية الملكية. وقد أُرفق قرار التثبيت بعدّة مراسيم تلزمه بحفظ الأصوام والقطاعات والطقوس والعوائد الشرقية، وتمنع اشتراك الكاثوليك في القدسيات مع غير الكاثوليك. فوافق البطريرك على كل هذه المراسيم، وأبرز قسمه بحفظها والعمل بموجبها، أمام مندوب البابا الأب دوروثاوس الكبوشي، في احتفال كبير في كنيسة دير المخلّص في ١٤ نيسان (أبريل) عام ١٧٣٠(٢٣).

وما يلفت النظر أن كيرلّس طاناس قد غالى في الخضوع التام لرومة، وتعهّد بمنع الكاثوليك من الاشتراك في القدسيات مع الأرثوذكس. وهذا ما أدّى إلى سلخ فريق كبير من المؤمنين عن إخوانهم وعائلاتهم وكنائسهم وطقوسهم، وجعل الكاثوليك عرضة للاضطهادات من قبل بطاركة اليونان والسلطة العثمانية(٢٤). إلاّ أن قسطنطين الباشا يبرّر ذلك بأنه كان ضرورياً، «حرصاً على سلامة الإيمان الصحيح الذي هو الركن الأول والأوحد في الدين»(٢٥).

---

(٢٠) ديك، المقال المذكور، ص ٧٢؛ المطران باشا، المرجع المذكور، ص ٧٨.

(٢١) رستم، المرجع المذكور، ٣:١٤٢.

(٢٢) «لمحة حول تاريخ الكرسي الأنطاكي»، مقال في **الرسالة** (نشرة أبرشية جبيل والبترون للروم الأرثوذكس)، السنة الأولى، العدد الأول، تموز (يوليو) ١٩٨١، ص ١٦. كما يضيف الكاتب (المقال غير موقع): إن الذي ساعد في تثبيت «الانشقاق» هو مصالح الدول الغربية الاقتصادية في الشرق. وإنه دعماً لتلك المصالح قامت الكنيسة الملكية في إدارة كنيسة مستقلة استقلالاً تاماً عن الكرسي الأنطاكي.

(٢٣) راجع الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع عند: ق. الباشا: **تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية المخلصية**، القسم الثاني، المطبعة المخلصية، ١٩٣٩–١٩٤٥، ص ٨٦–١٠٠، ٢٢٥–٢٣٨.

(٢٤) الشماس، المرجع المذكور، ٣:٨–٩.

(٢٥) ق. الباشا: **تاريخ طائفة...**، ٢، ٢٥٢.

وفي أوائل تشرين الثاني (أكتوبر) عام ١٧٣١، عقد البطريرك طاناس مجمعاً في جون حضره أربعة من أساقفته الثمانية لدرس موضوع القطاعات. وقرّروا أن لا سبيل إلى العودة إلى القطاعات التي كان قد ألغاها المطران الصيفي. ووضعوا نظاماً جديداً للصوم قبل الأعياد (البارامون) تشدّد البطريرك في تنفيذه، على الرغم من معارضة الرهبان المخلّصيين والحناويّين. لذلك تدخّلت رومة، في ٢٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٧٣٢، وألغته. وهذا ما أدّى إلى تأخير تسليم الباليوم إلى البطريرك حتى سنة ١٧٤٤.

إلاّ أن موقف رومة لم يثنِ البطريرك عن القيام بواجباته الرعويّة، فاهتمّ بالأبرشيات الشاغرة فرسم مكسيمس حكيم على حلب، سنة ١٧٣٢، وأثناسيوس الدهان على بيروت، سنة ١٧٣٦. وفي هذه السنة عقد كيرلّس السادس مجمعاً في دير المخلص لدرس موضوع توحيد الرهبانيتين المخلّصية والحنّاوية، إلاّ أن الوحدة لم تتمّ(٢٦).

وفي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) العام ١٧٤٣، أصدر البابا بندكتس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨) براءته الرسولية «لما قلّد الرب حقارتنا» Demandatam التي جعلها «سياجاً لكرامة كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك، بل سوراً منيعاً لكرامتها يمنع تعدّي من كانت نفوسهم تسوّل لهم التعدّي عليها وعلى حقوقها لاعتبارهم أنها مستضعفة مضطهدة من سلطان الزمان ورجال دولته ومن بطاركة اليونان ومطارنتهم وأعيانهم»(٢٧).

وتوّجت مساعي الكرسي الرسولي وفرنسا والنمسا، في سنة ١٧٤٥، بصدور فرمان سلطاني يسمح للبطريرك بإدارة شؤون كرسيه(٢٨). فاسترجع كيرلّس كرسي دمشق لمدة شهرين. تمكّن بعدها سلفسترس من تجديد فرمانه وطرد كيرلّس من دمشق ومباشرة فصل جديد من فصول الاضطهاد ضد الكاثوليك.

وعاد كيرلّس السادس إلى لبنان حيث مارس مهامه انطلاقاً من الدار البطريركية في دير المخلّص، وتابع عمله في إدارة شؤون الملكيين الكاثوليك، فعقد عدّة مجامع طائفية التأمت كلها في دير المخلّص بالقرب من قرية جون، تناولت بعض الأمور التهذيبية والطقسية وتجديد أحكام بعض قوانين المجامع القديمة(٢٩).

وقد توفي البطريرك كيرلّس طاناس في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٧٥٩ بعد كفاح طيلة ٣٥ سنة ونيف في سبيل إرساء أسس كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك.

لقد شكّلت وفاة البطريرك كيرلّس السادس خطراً حقيقيّاً على استمرار البطريركية

---

(٢٦) أنظر المرجع السابق، ٢:٢٨٢-٢٩٠؛ Henri Musset: *Histoire du christianisme spécialement en Orient*, T. II, Imp. des PP. Franciscains, Jérusalem, 1948, p. 177.

(٢٧) المرجع السابق، ٢:٢٩١.

(٢٨) P. Cyrille Karalevsku: «Antioche», art. in *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastiques*, T. III, Lib. Letouzey et Ané, Paris, 1924, col 648, 649.

(٢٩) حول المجامع راجع: ق. باشا، المرجع السابق، ٢:٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩-٣٥١؛ **مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين**، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٤، ص ٢٠٢-٢٠٣.

الكاثوليكية. فقد واجهت البطريركية الفتية حملة قوية من الاضطهادات كادت تقضي عليها لولا بطولة الرهبان وشجاعتهم ودعم الأمراء الشهابيين الذين منحوها الأمن والسلام. كما واجهت خطراً داخلياً تجسّد في الخلافات التي نشبت حول الكرسي البطريركي ومعارضة قسم من الأساقفة للبطريرك المنتخب المعيّن أثناسيوس جوهر(٣٠). إلاّ أنّ الكرسي الرسولي بادر، بعد وفاة طاناس، إلى إلغاء انتخاب جوهر وعيّن مكسيمس الثاني حكيم بطريركاً في أول آب (أغسطس) عام ١٧٦٠. غير أن وفاته السريعة، في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٧٦١، أعادت الصراع إلى الواجهة. تنادى أساقفة المعارضة وانتخبوا ثاودوسيوس الخامس دهان بمباركة رومة. إلاّ أن جوهر عمد إلى جمع أنصار طاناس وانتخبوه بطريركاً فوقعت البطريركية الكاثوليكية في فوضى عارمة كادت أن تطيح بكل الانجازات التي تحققت منذ العام ١٧٢٤.

وأدت هذه الأزمة البطريركية إلى تدخل رومة عدة مرات ورشقت بالحرم أثناسيوس جوهر وأنصاره وقطعتهم من الشركة الكاثوليكية، وهذا ما دفع بالكثير من أنصار جوهر إلى الخروج من «الطائفة» في دمشق وبيروت وحمص وطرابلس(٣١). لكن الوئام عاد إلى البطريركية بعدما تصالح الدهان وجوهر سنة ١٧٦٨، فتابع البطريرك دهان ولايته بسلام. وفي عهده صدر قرار عن مجمع انتشار الإيمان، في ١٣ تموز (يوليو) سنة ١٧٧٢، بموافقة البابا اقليمنضس الرابع عشر (١٧٦٩-١٧٧٤)، بضم الاسكندرية وأورشليم إلى ولاية البطريرك الأنطاكي(٣٢). وإثر وفاة البطريرك الدهان، سنة ١٧٨٨، انتخب الأساقفة جوهراً، بطريركاً قانونياً(٣٣) حتى وفاته سنة ١٧٩٤.

وقد تعاقب على السدّة البطريركية، بعد أثناسيوس الرابع جوهر، ستة بطاركة لم تطل ولاية كل واحد منهم باستثناء الأخير، البطريرك إغناطيوس الخامس القطان، الذي دامت ولايته ١٧ سنة. لذلك لم يتمكّنوا من القيام بإنجازات كثيرة.

أما من ناحية المشاكل فقد تركّزت على الاضطهادات المتكرّرة من قبل الأرثوذكس، وتدخّلت فيها السلطنة لصالح الأرثوذكس معظم الأحيان. وقد نتج عن هذه الاضطهادات القضاء على حركة الكثلكة في أبرشيات حمص وطرابلس واللاذقية. وخسر الكاثوليك معظم الكنائس والأوقاف والمدارس في سورية. حلب وحدها صمدت ببسالة، لذلك رسخت فيها الكثلكة وتأصّلت(٣٤). كذلك فعلت دمشق بمساعدة الرهبانية الفرنسيسكانية والرهبان المخلّصيّين الذين خدموا رعية دمشق بشجاعة

(٣٠) حول ظروف انتخاب جوهر، راجع: P. Paul Bacel: «Une période troublée de l'histoire de l'Eglise Melkite (1759-1794)», art. in *Echos d'Orient*, T. XIV (1911), pp. 340-351.

(٣١) مختصر تاريخ...، ص ٢٠٥.

(٣٢) Musset, *op. cit.*, p. 179, Mansi, 46:575.

(٣٣) راجع حول حقبة الأزمة البطريركية: P. Paul Bacel: «L'Eglise Melkite au XVIIe siècle» art. in *Echos d'Orient*, T. X (1912), pp. 49-60, 226-233.

(٣٤) أنظر تفاصيل ذلك عند قسطنطين الباشا: تاريخ طائفة الروم...، ٢: ١٣٦-١٨٩.

متخطين كل الصعوبات والمضايقات والاضطهادات. أما في لبنان فقد صمدت الكثلكة في بعلبك وصيدا، وشكّل جبل لبنان والجليل «السياج الواقي للطائفة»(٣٥) في ظلّ حكم الأمراء الشهابيين.

وبصورة عامة يمكننا القول إن معظم المناطق الواقعة شمالي بيروت، باستثناء حلب، تبعت الروم الأرثوذكس. أما البلاد الواقعة جنوبي بيروت مع دمشق والقلمون وحوران فقد ثبتت فيها الكثلكة ونمت(٣٦). وهكذا توزّعت الرهبانيتان المخلّصية والحنّاوية حقوق خدمة الرعايا. فالأولى اهتمت برعايا صور وصيدا وعكا وحيفا ويافا وبانياس والبقاع ودمشق وحوران وجبل القلمون انطلاقاً من دير المخلّص. والثانية اعتنت برعايا حلب وبيروت وحمص وكسروان انطلاقاً من دير مار يوحنا الصابغ في الشوير.

وقد نتج عن هذه المرحلة من الاضطهاد الديني نتائج ومظالم متعدّدة، أبرزها(٣٧):

١) انقسمت بطريركية أنطاكية انقساماً مستمراً إلى قسمين. وكان لكل قسم بطاركته وإكليرسه وكنائسه وأدياره وأوقافه. ولكنهما تناغما من حيث وحدة الشعب والطقس لفترة طويلة من الزمن قبل أن يبدأ المؤمنون بالتمايز.

٢) ازداد الكاثوليك ضعفاً وتلاشياً بسبب الضغوطات المتنوعة التي أجبرتهم على الهجرة أو على الانضمام إلى طوائف مسيحية أخرى.

٣) كان الشعب الكاثوليكي يدفع رسوماً مضاعفة للكنيسة: رسم التورية والعماد والإكليل والجنّاز، رسوم للإكليرس الكاثوليكي وأخرى للإكليرس الأرثوذكسي، لأن الفريق الأول لم تكن السلطة العثمانية تعترف به، لذلك لم يكن يحق له القيام بالمعاملات الرسمية.

٤) تعرّض الكاثوليك والاكليرس الكاثوليكي لسوء معاملة.

٥) اضطرار البطريرك الكاثوليكي وأساقفته وكهنته إلى مغادرة سورية، وكل المدن والمناطق التي تمتد عليها يد العثمانيين.

٦) اضطرار الكاثوليك إلى دفع رسوم مضاعفة: مال الخراج أو مال الجزية للدولة العثمانية حماية لواقعهم «الانفصالي».

٧) إجبار الكاثوليك على تصفية تركة الميت وحصر إرثه في أقاربه وتوزيع الحصص عليهم قبل دفنه.

هذه المعاناة ظلّت واقعة على الكاثوليك حتى سنة ١٨٣٠، أي طيلة قرن ونيف من الزمن، حين عيّن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)، سنة ١٨٣٠، ناظراً علمانياً من طائفة الأرمن الكاثوليك للاهتمام بشؤون الروم الكاثوليك، بعد نجاح مساعي الحكومتين الفرنسية والنمساوية. وفي العام التالي، تمّ تعيين كاهن من الطائفة نفسها يدعى أغوب تشوكوريان عُرف «بالبطريرك الأرمني لأنه أخضع لسلطته جميع الطوائف الكاثوليكية

---

(٣٥) يتيم - ديك، المرجع المذكور، ص ٣٠٠.

(٣٦) KARALEVSKII, art-cit., col 648

(٣٧) نقلاً عن: الشماس، المرجع المذكور، ٣:١٧-١٩.

العثمانية(٣٨). وهكذا بدأت مسيرة تحرير بطريركية الروم الكاثوليكية من نير اليونان لتصل إلى الاستقلال الناجز في عهد البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم.

ثالثًا: عهد التحرّر والازدهار

يقسم هذا العهد إلى ثلاث مراحل تاريخية بارزة:

- **المرحلة الأولى**: زمن التحرّر والاستقلال في عهد البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم (١٨٣٣–١٨٥٥).
- **المرحلة الثانية**: أزمة الحساب الغريغوري في عهد البطريرك اقليمنضس بحّوث (١٨٥٦–١٨٦٤).
- **المرحلة الثالثة**: الازدهار في عهد البطريرك غريغوريوس يوسف الأول سيّور (١٨٦٤–١٨٩٧).

المرحلة الأولى: مكسيمس مظلوم وتحرّر البطريركية

كانت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك، عشيّة وفاة البطريرك اغناطيوس الخامس القطان (١٨١٦–١٨٣٣)، تعاني أزمة حادة: فالكرسي البطريركي يترنّح عاجزاً بسبب شيخوخة البطريرك ومرضه، والأبرشيات شاغرة، والإكليرس غير كفؤ، والكراسي المهمة كدمشق وحلب معزولة عن لبنان،

البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم

والشعب يتململ من جرّاء تحمّله أعباء الاضطهاد والضغط المادي. في هذه الظروف القاسية توفي القطّان، في ١٣ آذار (مارس) العام ١٨٣٣. فالتأم السينودس المقدس، في ٢٣ آذار (مارس)، في دير القديس جاورجيوس في بمكّين (سوق الغرب) المعروف بدير الشير، وانتخب بالاجماع مكسيمس مظلوم، متروبوليت حلب المستقيل ومدير إكليريكية عين تراز، بطريركًا باسم مكسيمس الثالث.

وأرسل آباء السينودس، على جري العادة،

(٣٨) الأب الياس أندراوس: **الكنائس الشرقية البيزنطية**، مطبعة القديس بولس – حريصا، ١٩٣١، ص ٢٥١.

رسالة إلى رومة يطلعون الكرسي الرسولي فيها على انتخابهم مظلوم بطريركاً ويلتمسون فيها إرسال درع التثبيت والباليوم رمز الشركة الكنسية(٣٩). إلاّ أن التثبيت تأخّر بسبب الدسائس التي كان يحاول بعضهم حبكها مذكّرين رومة بحالة جرمانس آدم ومجمع القرقفة. غير أن البطريرك مظلوم حسم الوضع بإعلانه لرومة عن موافقته المسبقة على أي حكم تصدره بشأن مؤلفات آدم ومجمع القرقفة. لذلك أصدرت رومة قرارها، سنة ١٨٣٥، بإلغاء مقرّرات المجمع المذكور وتحريم مؤلّفات جرمانس آدم. وما لبث البابا غريغوريوس السادس عشر (١٨٣١-١٨٤٦) أن أرسل له صك التثبيت في أول شباط (فبراير) العام ١٨٣٦(٤٠). وفي العام التالي أنعم عليه بلقب «بطريرك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم» إنعاماً شخصياً لا ينتقل إلى خلفائه إلاّ بموجب براءة رسولية(٤١).

وكان البطريرك مكسيمس مظلوم على بيّنة من المهام الشاقّة التي ستلقى على كاهله. فهو كان مطّلعاً على أوضاع الكاثوليك واضطهاد الأرثوذكس لهم يوم كان في أوروبا طيلة ١٨ سنة (١٨١٣-١٨٣١)، إذ إنه سعى، سنة ١٨١٨، مع الكرسي الرسولي، والدول العظمى، النمسا وبروسيا، وبعض الشخصيات الملكية في القسطنطينية، لتحقيق البرنامج التالي(٤٢):

آ) إقناع الباب العالي بوهن التشكيات التي يقوم به لديه الإكليرس الأرثوذكسي اليوناني ضد «الطائفة الملكية الكاثوليكية».

ب) تحرير الكنيسة الملكية الكاثوليكية من سيطرة بطريركية الفنار تحريراً تاماً وذلك:

١. بكفّ الاضطهاد عن الكاثوليك واحترام حرّياتهم، ثم إعادة الكهنة المنفيين إلى مراكزهم.

٢. بالاعتراف للكنيسة الملكية الكاثوليكية باستقلالها الديني والمدني لأنها متميزة تماماً عن الكنيسة الأرثوذكسية.

٣. بضمانة الحرية الداخلية التامة لأساقفة الكنيسة الملكية الكاثوليكية ورعاياهم، في المملكة العثمانية، على مثل ما تتمتّع به الكنيسة الأرثوذكسية، فيقيم الأساقفة في ما بين رعاياهم بدون أي معارضة من الجانب الأرثوذكسي.

٤. بالترخيص «للطائفة الكاثوليكية» أن تحوّل – حيث لا كنائس لها – بعض البيوت الخاصة إلى معابد لإقامة الصلوات والشعائر الدينية.

٥. بالامتناع، أخيراً، عن إثارة أي اضطهاد في المستقبل على «الطائفة

(٣٩) انظر صورة ونص الرسالة السينودسية إلى رومة في: **الذكرى المئوية الأولى لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم ١٨٥٥-١٩٥٥**، هدية مجلة المسرّة السنوية عن سنتي ١٩٥٧ و١٩٥٨، المطبعة البولسية، حريصا (لبنان)، ١٩٥٧، ص ٣٢/٣٣؛ الشماس المرجع المذكور، ٣:١١٥-١١٨.

(٤٠) **الذكرى المئوية**...، ص ١٧.

(٤١) الشماس، المرجع المذكور، ٣:١٢٤؛ Jean Charon: «L'Eglise Grecque Melchite Catholique», art. in *Echos d'Orient*, T. V. (1902), p. 145; Musset, *op. cit.*, III: 138.

(٤٢) **الذكرى المئوية**... ص ١٢.

الملكية»، بعد ان تكون قد استعادت حقوقها وكرامتها وكامل استقلالها.

لكن الظروف حينذاك والأحوال السياسية لم تكن مؤاتية لتحقيق هذا البرنامج، وجلّ ما تمكّن من تحقيقه هو الحصول على أمر سامٍ يكفّ الاضطهاد عن الطائفة. لذلك حمل البطريرك مظلوم على كتفيه عبء هذا البرنامج الضخم منذ اليوم الأول لانتخابه، مضيفاً إليه حملاً جديداً وهو انتشال كنيسته من الأتون الغارقة فيه رعوياً. فنراه منذ الساعة الأولى يخوض حرباً لا هوادة فيها على الظلم والاستبداد لاسترجاع كامل الحقوق المغتصبة والمستباحة في دمشق ومصر وغيرها من المناطق. ويسعى جهده في العناية برعيته إكليروساً وشعباً ومؤسسات.

١) تحرير كنيسة الروم الكاثوليك

كان الجيش المصري، بقيادة إبراهيم باشا، قد اجتاح، منذ العام ١٨٣١، أراضي السلطنة العثمانية واحتلّ فلسطين ولبنان وسورية، ووصل إلى مشارف الأستانة. فتدخلت الدول العظمى وأجبرت الفريقين على توقيع معاهدة كوتاهية، سنة ١٨٣٣، عشية تسلّم مظلوم البطريركية. وقد أقرّت السلطنة العثمانية بسلطة محمد علي باشا على مصر وبلاد الشام. لذلك سعى ولده إبراهيم باشا إلى نشر الأمن والسلام في تلك الربوع. فأقام دواوين للشورى تمثّلت فيها الطوائف المختلفة لتحلّ مشاكل المواطنين. فاستغل البطريرك وجنود أحد الموظفين الملكيين البارزين بين مساعدي إبراهيم باشا، وهو يوحنا البحري، لتسهيل تحرير الطائفة من بعض القيود. وتمكّن بمسعى من رعيته في دمشق من شراء قطعة أرض لبناء كنيسة جديدة بدلاً من التي صادرها الأرثوذكس. ودخل مظلوم إلى دمشق، في ٥ نيسان (أبريل) العام ١٨٣٤، في احتفال مهيب أذهل الأرثوذكس(٤٣). وبدأت نيابة دمشق البطريركية تركّز أسس الكثلكة في دمشق بشكل علني بعدما كانت نشاطات الكاثوليك تتمّ بالسر في البيوت أو في ديورة الرهبان اللاتين وكنائسهم.

وكانت السلطنة قد عيّنت آغوب تشوكوريان بطريركاً مدنيًّا على الطوائف الكاثوليكية كما سبق وذكرنا. إلاّ أن مظلوم لم يكن ليرضى بهذا الحل. بل تابع تحركه وتوجّه إلى مصر حيث كان الاضطهاد قد بلغ ذروته. فسافر برًّا، سنة ١٨٣٦، عبر فلسطين، ووصل القاهرة في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر). هذه الزيارة رفعت من معنويات الكاثوليك ودفعت الإكليروس الملكي المصري لاستبدال العمامة، المفروضة عليهم منذ عام ١٧٢٥، بالقلنسوة التي احتكرها الإكليروس الأرثوذكسي لنفسه(٤٤). فنشب بذلك صراع جديد بين الكاثوليك والأرثوذكس ظاهره القلنسوة، أما باطنه فكان تثبيت كيان «الطائفة».

لذلك سعى البطريرك مع وكيله في الأستانة للحصول على فرمان سلطاني يحصر به حق التكلّم باسم «الطائفة». فصدر الفرمان من السلطان محمود الثاني، في ٣١ تشرين الأول

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٨.

(٤٤) المرجع السابق نفسه.

(أكتوبر) ١٨٣٧ (أول شعبان ١٢٥٣هـ) يمنح البطريرك مظلوم الولاية على المسيحيين الكاثوليك في بطريركيّات أنطاكية والاسكندرية وأورشليم، ويمنحه أيضاً الامتيازات التي لزملائه البطاركة الأرثوذكس، ويعطيه الإذن ببناء الكنائس دون معارضة، وإدارة الأوقاف، ويسمح للمؤمنين بممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة(٤٥).

وعلى الرغم من أن هذا الإنجاز يُعتبر خطوة كبرى إلى الأمام، فإنه لم يكن ليُرضي البطريرك، لأنه، وإن أصبح المرجع الروحي الأعلى والأوحد «للطائفة»، فإنّه ظلّ، في الحقل المدني، خاضعاً لسلطة الناظر الأرمني الكاثوليكي في الاستانة. لذلك قرّر البطريرك مظلوم زيارة الاستانة لحسم كل المشاكل العالقة، وأبرزها الولاية المدنية ومشكلة القلنسوة في مصر.

وصل مظلوم إلى الأستانة في ٢٣ آب (أغسطس) من عام ١٨٤١، في وقت كانت فيه الأمبراطورية العثمانية قد استرجعت سلطتها على سورية ولبنان وفلسطين من محمد علي باشا الذي انسحب إلى مصر. وقد تمّ ذلك بمساعدة الدول الأوروبية العظمى. من هذا المنطلق نرى أن مهمة البطريرك في الأستانة كانت سهلة لأن السلطنة لطالما ربطت بين «الطائفة الملكية الكاثوليكية» والغرب. وإن السلطان كان يُدرك مدى ضعفه، ومدى ارتباط مصيره ومصير أمبراطوريته بالدول العظمى. لذلك كان جاهزاً عملياً لتنفيذ طلبات البطريرك، وإذا حدثت أي مماطلة فهذا يعود إلى النفوذ القوي الذي كان يتمتّع به بطريرك القسطنطينية الأرثوذكسي. والجدير بالذكر أن الزيارة إلى الأستانة تمّت في ظل جولة جديدة من الاضطهاد الأرثوذكسي ضد الكاثوليك في دمشق وحلب وبيروت وطرابلس بتحريض من البطريرك المسكوني أنثيمس.

عرض البطريرك، في الأستانة، معاناة كنيسته مع البطريرك المدني والضغط الأرثوذكسي. والتقى كل الفعاليات السياسية العثمانية طيلة سبع سنوات من الاتصالات والمراجعات المباشرة، وتكلّلت مساعيه بمقابلة السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١م)، مع وكيله المطران ملاتيوس فندي، والحصول على فرمانين: الأول بتاريخ أواخر شوال عام ١٢٦٣هـ يسمح بموجبه للإكليرس الكاثوليكي بلبس القلنسوة(٤٦). والثاني بتاريخ آخر محرم ١٢٦٤هـ (٧ كانون الثاني (ديسمبر) ١٨٤٨) قضى بتحرير «الطائفة» من سلطة الكاهن البطريرك المدني، واعترف بسلطة البطريرك الملكي المطلقة على طائفته ومنحه كل الامتيازات التي يتمتّع بها بطريرك الفنار(٤٧). كما منحه نيشان الشرف المرصّع بحجارة من

---

(٤٥) أنظر نص الفرمان عند: البطريرك مكسيموس مظلوم: نبذة تاريخية فيما جرى لطائفة الروم الكاثوليك منذ سنة ١٨٣٧ فما بعدها، عني بطبعها الخوري قسطنطين الباشا ب. م.، ص ٢٠٣–٢١١.

(٤٦) أنظر نص الفرمان عند: مظلوم، النبذة التاريخية... ص ١٣٥–١٣٧.

(٤٧) أنظر نص الفرمان في المرجع السابق، ص ٣٠٥–٣١٣.

الماس كالذي يحصل عليه بطاركة القسطنطينية. وتزوّد قبل عودته ببراءات شاهانية لأساقفته(٤٨). كما حصل في أواخر عهده على فرمان بتاريخ أوائل شوال ١٢٧٠هـ (١٨٥٤م) يمنحه الامتيازات السلطانية(٤٩).

وهكذا حقّق البطريرك مظلوم هدفه الأول القاضي باستقلال الروم الكاثوليك استقلالاً تامّاً دينياً ومدنياً ومنحهم كياناً خاصاً مميّزاً، وجعل مركز البطريرك الملكي مماثلاً لكل الكراسي البطريركية الأخرى، أرثوذكسية كانت أم كاثوليكية، حتى إنه توصّل إلى الحصول على الامتيازات نفسها التي يتمتّع بها بطريرك الفنار.

٢) إنهاض البطريركية الملكية

الهدف الثاني الذي رسمه البطريرك مظلوم لنفسه، والذي عمل له بشكل موازٍ للهدف الأول، كان إنعاش البطريركية وإنهاضها من كبوتها التي غرقت فيها منذ حوالى نصف قرن. وقد أسهمت القيود المفروضة على «الطائفة» والمظالم التي لحقت بها منذ عام ١٧٢٤ في عرقلة نموها وبعض الأحيان في تعثرها وتراجعها.

لذلك نراه في مطلع عهده يدعو إلى مجمع في عين تراز، في أول كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٣٥، لدرس أوضاع «الطائفة» عموماً. ودامت أعماله ستة أيام سنّ خلالها آباء المجمع قوانين هامّة (٢٥ قانوناً) تتعلق بحياة ونظام الاكليريكيين، وبعض الشؤون الراعوية والرهبانية، والوصايا التي يجب على الملكيين العمل بها كالاشتراك في القدسيات مع غير الكاثوليك، وتوضيح بعض العادات في توزيع الأسرار وقبولها(٥٠). ورفعت هذه المقرّرات إلى الكرسي الروماني الذي أقرّها وطبعها في رومة سنة ١٨٤١.

وقد درس المجمع أيضاً موضوع الرعايا في ديار بكر وآمد وفي الكرسي الإسكندري وتقرّر تعيين أساقفة عليها لدعم المؤمنين وتوجّههم نحو الكثلكة(٥١). فعيّن المطران مقاريوس سمّان، سنة ١٨٧٣ على ديار بكر(٥٢)، واستحدث النيابة البطريركية في القطر المصري، وعيّن عليها أول نائب بطريركي المطران باسيليوس كفوري الذي اعتذر عن قبول المنصب، بادئ الأمر، بحجة أنه غير أهل له(٥٣). وأنشأ الكرسي البطريركي في القدس بعدما حرّرها من وصاية الأرثوذكس ورعاية الفرنسسكان. وعيّن عليها، في ٨ شباط (فبراير) عام ١٨٣٨، المطران ملاتيوس فندي(٥٤). وفي سنة ١٨٤٩ أنشأ أبرشية حمص وحماه ويبرود وتوابعها بعدما فصل القلمون عن بعلبك وألحقها

---

(٤٨) الشماس، المرجع المذكور، ٣: ١٢٥.

(٤٩) أنظر نص الفرمان عند: مظلوم، المرجع المذكور، ص ٣٢٣–٣٢٦.

(٥٠) الذكرى المئوية...، ص ٢٣.

(٥١) MUSSET, *op, cit.*, p. 137.

(٥٢) *Ibid.*

(٥٣) Joseph HAJJAR: *Un Lutteur infatiguable le patriarche Maximos III Mazloum*, imp. St.-Paul, Harissa, 1957, pp. 85, 86.

(٥٤) راجع: الذكرى المئوية...، ص ١١٧–١٢٤.

بالأبرشية الجديدة، وعيّن عليها المطران غريغوريوس عطا. وقد جعل قرية يبرود مركزاً للمطرانية لأنها كانت تضمّ أكبر عدد من الكاثوليك(٥٥).

كانت خطة مظلوم، يوم عقد مجمع عين تراز، وضع دستور كامل المادة تستند إليه البطريركية في تسيير أمورها القانونية والإدارية. فالبطريركية الملكية كانت تفتقر إلى مثل هذا التشريع. ومجمع القرقفة (١٨٠٦) الذي وضع التشريعات المختلفة قد ألغته رومة. لذلك جاء مجمع عين تراز تمهيداً لمجمع آخر يملأ الفراغ القانوني الذي تتخبّط فيه البطريركية. وبالفعل وضع البطريرك مظلوم، خلال إقامته الطويلة في الاستانة (١٨٤١-١٨٤٨)، الخطوط العريضة لأهم المواد التي سيدرسها المجمع المرتقب. وما إن عاد من سفرته الطويلة حتى دعا إلى مجمع يعقد في أورشليم، في محاولة لدعم مركز النيابة البطريركية الجديد، على الرغم من اعتراض أساقفة صور وبيروت وبعلبك، ومطالبتهم بعقده في سورية، وحضور القاصد الرسولي ممثّلاً للبابا. ولكن تأخر وصول الأساقفة أدّى إلى تأجيل المجمع إلى ١٢ أيار (مايو) سنة ١٨٤٩ ودام انعقاده أربعين يوماً حتى ٢٠ حزيران (يونيو)(٥٦).

وقد وقعت خلال جلسات المجمع خلافات حادّة بين البطريرك وميتروبوليت بيروت بسبب قرار غبطته فصل جبيل عن أبرشية بيروت وضمّها لطرابلس، وخلاف متروبوليتي صور وحلب حول الأولية بعد البطريرك.

وبسبب المشاكل التي نشبت بين البطريرك وبعض الأساقفة، تأخر رفع المقرّرات إلى رومة حتى سنة ١٨٥١. وبعد أن استفحل الخلاف بين البطريرك والمطران أغابيوس رياشي، امتنعت رومة عن أخذ قرار حتى تولي اقليمنضس بحوث السدّة البطريركية، سنة ١٨٥٦، فأعرب عن رغبته في إهمال المجمع نظراً إلى أن ذيول الخلافات ما زالت بارزة، فاستجابت رومة لطلبه(٥٧).

لقد تجلّت في البطريرك مظلوم مواهب الراعي الصالح الأمين على مصالح أبنائه الروحية، وليس أدلّ على ذلك من أسفاره المتعدّدة من أبرشية إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى، معانياً مشقّة الأسفار، صابراً على المتاعب، مبشّراً بكلمة الخلاص، مقيماً الرياضات الروحية، معلّماً مبادئ الإيمان ووصايا الله وحتى في بعض الأحيان مبادئ القراءة، بانياً الكنائس قلب الكنيسة النابض ورمز وحدة الشعب مع الرعاة، ومنشئاً المؤسسات الخيرية والروحية(٥٨).

وقد رفع البطريرك اهتمامه بالرعية إلى مستوى متقدّم عندما منح العلمانيين مسؤولية

---

(٥٥) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٥٦) توما مظلوم: **البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم (١٧٧٩ - ١٨٣٣ - ١٨٥٥)؛ سنوه الأخيرة (١٨٤٨ - ١٨٥٥)**، عني بتعليق حواشيها الأب الياس انذراوس البولسي، مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان)، ص ٤٤-٤٤٧.

P. Cyrille CHARON: *Histoire des Patriarcats Melkites*, Rome, Paris, Leipzig, 1910, II: 227.

(٥٧) توما مظلوم، المرجع المذكور، ص ٤٨ (الحاشية).

إدارة شؤون البطريركية المادية. فعيّن منهم وكلاء بطريركيين للشؤون المادية، ودعا المؤمنين للإسهام في عملية البناء فلبّوا النداء بسخاء[٥٩].

لقد ظل البطريرك مظلوم حتى الرمق الأخير يجاهد في سبيل إعلاء شأن كنيسته، فنراه «في سني حياته الأخيرة وهو لا يزال كأنه في سن الفتوة يعاني مشقة الأسفار، ويصبر على المتاعب، ويجول متفقداً أبناءه من بيروت إلى صيدا فصور فعكا فيافا فالقدس الشريف، فدمشق فأورشليم ثانية، ومنها إلى حلب فبيروت أيضاً فصيدا ودير المخلص ودير القمر ودير القديس جاورجيوس في بمكين والقديس أنطونيوس القرقفة في كفرشيما، فالزوق فعينطورة ثم بيروت وزحلة ودمشق ومنها إلى صيدنايا فالمعرة فمعرونة ثم معلولا ويبرود والنبك ودير عطية وقاره، فراس بعلبك فالفاكهة وأخيراً بعلبك. ومنها إلى دمشق فالأقطار المصرية»[٦٠]. حيث توفي في الاسكندرية عن عمر يناهز السادسة والسبعين خلال سعيه لبناء كنيسة.

لقد قدّم البطريرك مظلوم خدمات جلّى للكنيسة الملكية، ومنحها فسحة من الازدهار الكبير الذي ساعدها على النهوض والانتشار. فقد ارتفع عدد المؤمنين الملكيين من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٨٣٣، يوم تسلّمه السدّة البطريركية، إلى ٧٨,١٠٠ سنة ١٨٥٥. وبدأ يتكوّن في «الطائفة» إكليرس من الكهنة العازبين الذين تبوّأوا المراكز الأسقفية، بعدما كان الإكليرس البطريركي والأبرشي يتكوّن في معظمه من كهنة متزوجين[٦١].

لقد كان، مكسيمس مظلوم، في تاريخ كنيستنا الملكية، عملاقاً من عمالقة الشرق المسيحي من حيث إنجازاته الكبيرة. أما بالنسبة إلى الأخطاء التي ارتكبها فمن الحق والعدل أن ننظر إليها بمنظار الواقع البشري.

لقد كان، على حد تعبير الأب جورج فاخوري البولسي، «واحداً من ذلك النفر القليل يمدّ بنظره الثاقب إلى القمم، ويعدو بمطامحه الكبيرة آفاق معاصريه... كان يهدف في عمله البنّاء، ضمن نطاق كنيسته، إلى «تجديد» هذه الكنيسة تجديداً جذرياً شاملاً. وكان له من إرادته الفولاذية ومن تفهّمه النيّر لملابسات الأحوال، ومن معرفته الدقيقة للناس ما يمكّنه من إصابة الأهداف التي كان يصبو إليها»[٦٢].

المرحلة الثانية: اقليمنضس بحوث وأزمة الحساب الغريغوري

إثر وفاة البطريرك مظلوم، التأم السينودس المقدس في دير المخلص، في ٢٠ آذار (مارس) عام ١٨٥٦، بدعوة من القاصد الرسولي بول

---

(٥٨) حول إنشاءاته، رجع: الشماس، المرجع المذكور، ٣:١٢٧؛ الذكرى المئوية...، ص ٢٢، ٢٣، ٢٧، ١٠١، ١١٩، ١٤١، ١٤٢.

(٥٩) الذكرى المئوية...، ص ٢٢.

(٦٠) توما مظلوم، المرجع المذكور، ص ٦، ٧.

(٦١) راجع: CHARON: *Histoire des Patriarcats Melkites*, II: 278-279.

(٦٢) الذكرى المئوية...، ص ٢٨.

برونوني، وانتخب آباء المجمع رئيس أساقفة عكا والجليل المطران اقليمنضس بحوث. وقد حصل على صك التثبيت والباليوم، من البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨)، في ١٦ حزيران (يونيو) من العام نفسه. وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) تسلّم الإنعام البابوي بلقب «بطريرك أنطاكية والإسكندرية وأورشليم» على كنيسة الروم الملكيين[٦٣].

إن الازدهار الكبير الذي عرفته كنيسة الروم الكاثوليك في عهد البطريرك مظلوم تعرّض لنكسة عنيفة في هذا العهد. فقد أصدر البطريرك بحوث منشوراً، في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٧، قرّر بموجبه اعتماد الحساب الغريغوري بدل البولياني دون استشارة معظم الأساقفة[٦٤]، مما أحدث انقساماً في البطريركية. ويظهر أن هذا الموضوع قد طرح قديماً في البطريركية الملكية، لكنه كان يؤجّل دائماً إلى ما يترتّب عليه من انفصال عن التراث البيزنطي الشرقي. وهذا الحساب تعتمده الكنيسة الغربية في حين أن البطريركيات الأرثوذكسية كانت ما زالت تستعمل الحساب اليولياني. وكانت رومة قد طلبت من البطريرك مظلوم بت هذا الموضوع، إلا أنه تمكّن من التحاشي عنه نظراً لانعكاساته السلبية[٦٥].

فبعد صدور المنشور البطريركي بفرض الحساب الغريغوري، انقسمت البطريركية إلى فريقين: الأول موالٍ ويضمّ أساقفة حلب وحمص وحوران وصور وعكا، والثاني معارض ويضمّ أساقفة بيروت وزحلة وبعلبك وصيدا. وكانت حجة المعارضة أن استعمال الحساب الغريغوري قد يؤدي إلى انشقاق في أبرشياتهم، وقد يشجّع حركة اللتينة وتفريغ الكراسي الشرقية من المؤمنين.

كذلك انقسم رجال الاكليرس وشمل الانقسام الأبرشيات المختلفة. وقاد المعارضة الدمشقية الأب يوحنا مساميري، في حين قاد المعارضة الاسكندرية الأب جبرائيل جبارة. وتبع ذلك انقسام في صفوف الشعب في كل من مصر ودمشق وصور وصيدا. وتأسّست من بعض المعارضة كنيسة جديدة أُطلق عليها اسم «كنيسة الشرقيين». ورفعت الشكاوى إلى الكرسي الرسولي والباب العالي والسفراء والقناصل[٦٦].

هذا الأمر خلق بلبلة وفوضى عارمة في البطريركية الملكية صعب حلّها بعد تمسّك الأطراف المختلفة بمواقفها. فلم يجد البطريرك أمامه إلاّ الأساقفة، في تموز (يوليو) عام ١٨٥٨، فوضع كتاب استقالته في دمشق ووقّعه باسم «القس ميخائيل بحوث»، وتوجّه ليلاً إلى دير المخلص[٦٧]. لكن الدمشقيين

(٦٣) «البطريرك الصالح الذكر اقليمنضس بحوث»، مقال في المسرّة، السنة ١ (١٩١٠) ص ١٨٥.

(٦٤) راجع ملابسات هذه القضية عند: حاج: **الرهبانية الباسيلية...**، ٢:١٨٨-٢٠٤؛ Joseph HADAD: *Les Chrétiens Uniates du Proche-Orient*, Ed. du Seuil, Paris, 1962, pp. 288, 289.

(٦٥) الأب الياس كويتر المخلصي: **هؤلاء هم آباؤنا المخلصيون**، منشورات الرهبانية المخلصية، ١٩٨٣، ص ٩١.

(٦٦) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٦٧) **مختصر تاريخ طائفة...**، ص ١٣٠.

والأساقفة الموالين رفضوا هذه الخطوة وكتبوا إلى الكرسي الرسولي طالبين التدخل فأرسل البابا بيوس التاسع رسالته الشهيرة، في ٦ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٠٨، رافضاً الاستقالة وطالباً من البطريرك مزاولة مسؤوليته بروح الغيرة الرسولية والتقوى والنشاط، الصفات التي طالما اتصف بها إلى جانب القداسة والتجرّد(٦٨). وفي الوقت نفسه أجبر المعارضين على الطاعة بعدما ألغى مجمعاً غير قانوني عقدوه في عين الزوق بالقرب من زحلة، في ١٢ آب (أغسطس) عام ١٨٥٩(٦٩).

إن التدخل البابوي الذي حصل لم يكن ليلغي الخلاف الذي ظلّ كامناً في النفوس، إلاّ أن أحداث ١٨٦٠، والمذابح التي تعرّض لها المسيحيون في لبنان وسورية، واستعمال قناصل الدول، وعلى رأسهم فرنسا، الحساب الغريغوري، فضلاً عن استعماله من قبل الطوائف الكاثوليكية الأخرى، جعل الخلاف يضمحل من تلقاء نفسه(٧٠)؛ باستثناء قلة انضمّت إلى الكنيسة الأرثوذكسية. أما الأب جبرائيل جبارة فقد أصرّ على معارضته حتى وفاته سنة ١٨٨٠، في حين انحاز الأب يوحنا مساميري إلى الروم الأرثوذكس، لكنه عاد إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية في عهد البطريرك غريغوريوس يوسف سيّور(٧١).

وبعد ان استتب الوئام في البطريركية،

البطريرك غريغوريوس الثاني يوسف سيّور

وانضبط المعارضون، اجتمع البطريرك بحوث بأساقفته، في ٢٤ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٦٤، في كنيسة دير مار يوحنا الشوير، وأعلن استقالته النهائية، وخرج من الكنيسة لينطلق إلى دير المخلص حيث عاش حتى وفاته سنة ١٨٨٢، مواظباً على الإماتة والتقشف وحياة الزهد والصلاة والتأمل(٧٢).

أما الأساقفة فقد اجتمعوا، في ٢٩ أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، وانتخبوا المطران غريغوريوس يوسف سيّور، مطران عكا، بطريركاً باسم غريغوريوس الأول.

---

(٦٨) «**البطريرك الصالح الذكر...**»، المقال المذكور، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٦٩) **مختصر تاريخ طائفة...**، ص ١٣٠؛ MUSSET, *op. cit.*, p. 142.

(٧٠) Charles de CLERCQ: *Histoire des conciles d'après les documents originaux*, Tome XI, Lib. Letouzey et Ané, Paris, 1952, p. 566.

(٧١) الشماس، المرجع المذكور، ٣: ١٤٤.

(٧٢) المرجع السابق، ص ١٤٤، ١٤٥؛ «**البطريرك الصالح الذكر...**»، ص ١٨٩؛ كويتر، المرجع المذكور، ص ٩٤-٩٦.

المرحلة الثالثة: غريغوريوس يوسف سيّور: نهضة بعد تعثّر

تولّى غريغوريوس يوسف الأول سيّور(٧٣) السدّة البطريركية في ظروف صعبة ورثها من أيام سلفه البطريرك بحوث. ومن غريب الصدف أن ينتمي الاثنان إلى الرهبانية المخلصية، وأن يخلف سيّور البطريرك بحوث على كرسي عكا سنة ١٨٥٦، ومن ثم على السدّة البطريركية سنة ١٨٦٤.

وعلى جري العادة، أبلغ السينودس الانتخابي الكرسي الرسولي انتخاب المطران غريغوريوس بطريركاً، طالبا تثبيته. وقد أرسل البابا بيوس التاسع (١٨٣٦-١٨٧٨) صك التثبيت والباليوم في ٢٧ آذار (مارس) عام ١٨٦٥.

لقد كانت البطريركية عشية انتخاب سيّور بطريركاً، في دير القديس يوحنا الصابغ في الخنشارة، منقسمة على نفسها من جراء اعتماد الحساب الغريغوري، وتعاني الأمرّين من ذيول أحداث ١٨٦٠، التي ألحقت بها أضراراً جسيمة. فالملكيون، مع غيرهم من مسيحيّي دمشق، تعرّضوا لمذبحة كبرى، ليل ٨-٩ تموز (يوليو) عام ١٨٦٠، ذهب ضحيتها عشرة آلاف مسيحي، بحسب مصادر ذلك الزمان. كما تعرّضت أبرشية زحلة لنكبة كبرى إثر تعرّض المدينة للاجتياح. وكذلك تعرّضت أبرشيات جنوبي لبنان وفلسطين لخسائر فادحة أقلّها تحوّل قرى مسيحية بكاملها، في فلسطين، إلى الإسلام لكي تحمي نفسها من الاضطهاد والابادة(٧٤).

وبذلك تكوّنت أمام البطريرك الجديد ورشة عمل مثلّثة للبناء:

أولها: معالجة ذيول الاضطراب الحاصل في البطريركية، من جراء الحساب الغريغوري في

---

(٧٣) يقول الأب يوسف الشماس المخلصي إن اسمه هو غريغوريوس الثاني يوسف، لأن غريغوريوس الأول قد تولى السدة البطريركية من سنة ٥٧٠ إلى ٥٩٣م. ولما راجعنا سلسلة البطاركة الأنطاكيين وجدنا ذلك صحيحاً، لكننا وجدنا أيضاً غريغوريوس الثاني (٦١٠-٦٢٠) وغريغوريوس الثالث (١٤٨٣-١٥١١). فوقعنا في حيرة وراجعنا بعض الوثائق والمستندات التي بحوزتنا فوجدنا أن غبطته كان يصدّر كل مناشيره البطريركية بعبارة: «غريغوريوس الأول برحمته تعالى بطريرك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق». كما وجدنا اسم غريغوريوس يوسف الأول على اللوحة التذكارية الموجودة على مدخل جمعية القدّيس جاورجيوس الخيرية في خورنية باب المصلّى في دمشق، والتي تعود إلى غرة كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨١. وبالتالي فإما أن يكون البطريرك سيور قد تبنى اسم والده يوسف مع اسمه ليصبح غريغوريوس يوسف وبالتالي يكون الأول بهذا الاسم. واما أن يكون قد حسب نفسه الأول بهذا الاسم في السلسلة الأنطاكية الكاثوليكية منذ سنة ١٧٢٤. لذلك فإما أن يلقب بغريغوريوس الرابع نسبة إلى السلسلة الأنطاكية للبطاركة، وإما أن يسمى بغريغوريوس يوسف الأول كما وردت على اللوحة التذكارية في باب المصلى. وقد اعتمدنا الحالة الثانية مؤقتاً ريثما يتم إيجاد حل شامل للسلسلة الأنطاكية. أما المراجع الغربية فتطلق عليه اسم غريغوروس الثاني يوسف، لأن السلسلة الرومانية لبطاركة أنطاكية لا تضم غريغوريوس الأول السينائي (٥٧٠-٥٩٣).

(٧٤) كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، بيروت - لبنان، ١٩٦٩، ص ١٤٥.

عهد البطريرك بحوث سنة ١٨٥٦. ففتح باب الحوار مع المنشقين، واستقبل المطران يوانيكس المساميري، أسقف بالميرا (تدمر) الأرثوذكسي. فأعاده إلى حضن كنيسته، وثبّته في درجته الأسقفية بموجب إعلام بطريركي صادر بتاريخ ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٥(٧٥).

ثانيها: معالجة الاضطراب الحاصل في الرهبانية المخلصية بين الرهبان البلديين والرهبان الدمشقيين. وقد عايش غبطته هذا الخلاف، وعرف كوامن النزاع المرير بين الفريقين يوم كان كاتماً لأسرار الرئيس العام افيمس مشاقة (١٨٣٦-١٨٤٣) الذي اتهم بمعاضدة البلديين. وقد عالج البطريرك الجديد الموضوع بحكمته المعهودة ودرايته الفائقة، فأقنع الدمشقيين بالعودة إلى ديرهم في جون، وأعاد اللحمة إلى الرهبانية(٧٦).

ثالثها: إنهاض الكنيسة الملكية بعد النكبات التي حلّت بها داخلياً، وخارجياً. وهذه الورشة استحوذت على الجزء الأكبر من اهتمام غبطته وجهوده طيلة فترة ولايته.

فقد عالج البطريرك سيّور مسائل كنيسته بروية، وسياسة حكيمة، وبرنامج إصلاحي شامل يشمل البشر والحجر. وكانت الخطوة الأولى العناية بالرعاة الموكولة إليهم أمور الرعية، أي رجال الإكليرس. فبدأ بتعيين أساقفة في الأبرشيات الشاغرة، أو التي شغرت خلال ولايته، وبلغوا ١٦ أسقفاً. وبادر إلى ترميم إكليريكية عين تراز، سنة ١٨٦٦، التي دمّرتها أحداث ١٨٦٠. كما أرسل الطلاب الاكليريكيين إلى رومة وفرنسة لتلقّي العلوم في مدارسها الكبرى، وحضّ الرهبانيات الملكية على العناية بالتثقيف الرهباني وتطويره ليتمكن الرهبان من خدمة الرعايا بشكل كاف وسليم.

واهتم بالمدارس فوضع، في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٦٥، الحجر الأساسي للمدرسة البطريركية في بيروت(٧٧)، بعدما ازداد نشاط البروتستانت في بيروت وشكلوا حظراً على الكثلكة وجبت محاربته(٧٨).

وقد استقبلت المدرسة طلاباً من أنحاء الشرق كافة، فتوافدوا إليها من لبنان ومصر وفلسطين وسورية والعراق. وكانت قادرة على استيعاب ٣٠٠ طالب في مرحلتها التأسيسية بفرعيها الداخلي والخارجي(٧٩). وقد أسهمت في بث إشعاع المعارف والآداب في الشرق، حاضنة «شبان الوطن من كل ملّة وجنس

---

(٧٥) **مختصر تاريخ...**، ص ١٤٠؛ كويتر، المرجع المذكور، ص ١٠٩. والجدير بالذكر ان المطران يوانيكس هو الأب يوحنا المساميري المعارض للحساب الغريغوري، الذي سبق ذكره، وقد انضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية وعيّن مطراناً على بالميرا. وقد توفي في دمشق، في ١٣ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٧٠.

(٧٦) **مختصر تاريخ...**، ص ١٤٠.

(٧٧) أنظر نبذة عنها عند: الشماس، المرجع المذكور، ٣: ١٥٤-١٥٦.

(٧٨) Musset, *op. cit.*, p. 144.

(٧٩) مايا صفا: «المدرسة البطريركية (١٨٦٤ - ١٩٩٤) الفضيلة قبل العلم...» مقال في مجلة الاعتبار، ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤، ص ٣١.

ومذهب، مراعية العواطف الدينية المذهبية حق المراعاة»(٨٠). وسجلها حافل بالأعلام في اللغة والأدب والسياسة والدين، الذين تخرّجوا من صرحها العريق مسهمين في بلورة حركة ثقافية وسياسية كان لها الأثر العميق في حركة النهضة الأدبية والعلمية في لبنان. نذكر من هؤلاء الخريجين، على سبيل المثال لا الحصر، المطران بطرس كامل مدوّر، سليم تقلا، عبد الله البستاني، خليل مطران، رشيد نخله، شبلي ملاّط، حبيب باشا السعد، حبيب أبو شهلا، رياض الصلح، أمين نخله، عبد الله اليافي، وغيرهم... (٨١).

وقد اهتم غبطته ببناء المدارس في كل أنحاء بطريركيته، حتى قيل انه فتح مدرسة للأحداث بجانب كل كنيسة لأنه كان يعتقد أنه «بدون المدرسة لا تعمر الكنائس»(٨٢).

إلاّ أن أهم إنجاز له، في هذا المجال، كان تجديده بناء المدرسة البطريركية في دمشق، والتي كانت قد أُنشئت في عهد البطريرك مظلوم واحترقت في أحداث ١٨٦٠. وكانت الغاية من تجديدها تأمين مدرسة لسكان دمشق تزوّد أبناءهم بالعلوم الصحيحة والمبادئ القويمة وثقافة لائقة «بالطائفة»، والحفاظ على الطقس الشرقي ومحاربة الليتنة بعدما عمد الآباء اللعازريون إلى منع الملكيين الكاثوليك من حضور القداس الإلهي في كنيستهم الملكية(٨٣).

أما على صعيد الكنائس، فقد كان العمل مضنياً لأن البطريركية خسرت الكثير من كنائسها خلال أحداث ١٨٦٠. لذلك قام البطريرك سيّور ببناء وترميم عدد من الكنائس بلغت العشرين(٨٤).

وعلى صعيد الاهتمام الروحي والاجتماعي بالرعية، أسّس الأخويات التقوية في دمشق، والجمعيات الخيرية، كجمعية يوحنا الرحوم في الاسكندرية والقاهرة. وشجّع ودعم جمعية القديس منصور في دمشق. وأقام في كل خورنية بطريركية لجنة خصوصية لإعانة الفقراء كجمعية القديس جاورجيوس في خورنية باب المصلّى بدمشق (١٨٨١).

أما عن حركة الاتحاد في عهد البطريرك سيّور، فقد شهد عهده حركة انضمام إلى الكثلكة كان مسرحها مناطق جديدة مرجعيون وبانياس، وفلسطين، وشمالي لبنان. ففي بانياس والجديدة، رعى الحركة الأب بطرس الجريجيري، من إكليرس زحلة. ولما تكاثر عدد المنضمين قرّر غبطته إحياء كرسي قيصرية فيلبس القديمة، فعيّن عليها الأب المذكور أسقفاً

---

(٨٠) ناصيف جرجي أبي زيد اللبناني: **كتاب الدليل المسعين إلى تاريخ وشرائع الروم الملكيين**، المطبعة العلمية في مصر، ١٩٠٤؛ ص ٣٥٢.

(٨١) مايا صفا، المقال المذكور، ص ٣٥.

(٨٢) الشماس، المرجع المذكور، ص ١٤٩.

(٨٣) المرجع السابق نفسه.

راجع نبذة عن تأسيسها وتاريخها عند: الشماس، المرجع المذكور، ص ١٥٧-١٥٩؛ إغناطيوس قروشان: **«لمحة تاريخية في المدرسة البطريركية بدمشق»**، مقال في المسرّة، السنة ٢ (١٩١١)، ص ٣٢٥-٣٣٥.

(٨٤) راجع أسماء الكنائس التي بناها في: **مختصر تاريخ...**، ص ١٥٤.

في ٢١ شباط (فبراير) عام ١٨٨٦[٨٥]. كما واجه، منذ سنة ١٨٨٦، حركة مماثلة في أبرشية طرابلس بعناية الأب بارنييه اليسوعي (P. Barnier). وكانت هذه الحركة سبباً لإنعاش أبرشية طرابلس وتسليمها إلى المطران يوسف الدوماني (١٨٩٧-١٩٢٢)[٨٦]. وواجه في فلسطين منذ سنة ١٨٨٥، حركة انضمام في نابلس والرملة في عهد النائب البطريركي اغناطيوس معقد (١٨٨٠-١٨٨٦)[٨٧] الذي رعاها بموافقة غبطته ودعمه.

والكنيسة الملكية الكاثوليكية مدينة لهذا البطريرك بمنجزات ثلاث مهمة هي:

١) حرصه على حقوق الكنيسة الشرقية وامتيازاتها

كان المرسلون اللاتين يحاولون تأسيس رعايا تابعة لبطريركية اللاتين في الشرق. وكانوا يستغلون مدارسهم لاستقطاب المؤمنين الذين كانوا ينتمون إلى الكنائس الشرقية المتنوعة. كما كانوا يقدّمون بعض الخدمات في السكن والمعيشة للرعايا الشرقيين في محاولة لجذبهم إلى الطقس الغربي. وكانت محاولاتهم تنجح في معظم الأحيان، نظراً إلى فقر الناس في الأبرشيات الشرقية. ولا مجال لتفصيل كل الحالات التي حصلت في ذلك الزمان. بل نستحضر فقط حادثة رواها دليل المسرّة، لعام ١٩٤٧، نظراً الى أهميتها التاريخية، ويمكن أن تكون مثالاً حيًّا لعملية الليتنة في الشرق. ففي عام ١٨٨٤ علم الأب اغناطيوس معقّد، النائب البطريركي في أورشليم، أنّ سبعاً وعشرين أسرة من أبناء كنيستي الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس قد انضمت حديثاً إلى طائفة اللاتين. فعرض الأمر على السعيد الذكر السيد منصور براكو بطريرك اللاتين (١٨٧٣-١٨٨٩). ولمّا كان جوابه سلبياً، عرض الأمر على الكرسي الرسولي الذي طلب إعادة الأمر إلى طقسها الشرقي مع الإبقاء على ما تتمتّع به من إحسانات وامتيازات (بيوت سكن، توزيع خبز). حينئذ اعترض أحد الرهبان الفرنسسكان، لأن عملهم هذا سيُلزمهم بمثله تجاه الموارنة والأقباط والسريان والأرمن. فتخسر بذلك طائفة اللاتين معظم رعاياها. وهكذا بقيت تلك الأسر على الطقس اللاتيني[٨٨].

هذه المعاناة التي استنزفت رعايا الكنائس الشرقية كانت تقضّ مضاجع الكنيسة الملكية. فلقد كان الروم الكاثوليك يشكّلون أصغر الكنائس الشرقية، وهم لا يتحمّلون خسارة أعداد منهم، خصوصاً إذا كان تحوّل هؤلاء إلى الطقوس الغربية، لا الشرقية. من هنا نفهم مدى حرص غبطة البطريرك سيّور على كنيسته، كما أنّ العلاقة التي نشأت بين الكنائس المتحدة وروما كان يشوبها الكثير من

(٨٥) الشماس، المرجع المذكور، ٣:١٥٢.
(٨٦) المرجع السابق، ٣:١٥٣.
(٨٧) هو نفسه المطران جرمانس معقّد (١٨٨٦-١٩١٢)، مؤسس جمعية المرسلين البولسيين سنة ١٩٠٣.
(٨٨) دليل المسرّة لعام ١٩٤٧، مطبعة القديس بولس، حريصا - لبنان (١٩٤٧)، ص ٩١.

سمات التبعية المباشرة. وهذا لم يكن ليعجب بعضهم.

لذلك ما إن أصدر البابا براءته الرسولية الآب الأزلي (Aeterni Patris)، في ٢٩ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٨، داعياً فيها العالم المسيحي إلى مجمع مسكوني لدرس بعض القضايا الهامة التي تخصّ الكنيسة جمعاء، حتى هاج الشعب الملكي الكاثوليكي. فمسألة الحساب الغريغوري ما زالت ماثلة في الأذهان، وحركة الليتنة ما برحت على أشدّها، مسهمة في تفريغ الكراسي البطريركية الشرقية من المؤمنين. لذلك قرّر غبطة البطريرك سيّور عقد مجمع للأساقفة لدرس الموضوع. والتأم السينودس، من ٧ إلى ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٦٩، في دمشق، وتقرّر فيه ذهاب البطريرك مع ثمانية أساقفة للمشاركة في أعمال المجمع، الذي افتتح أعماله قداسة البابا بيوس التاسع في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٦٩، متمسكين بموقف حازم، وهو المحافظة على حقوق الكنائس الشرقية الكاثوليكية(٨٩).

وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٨٧٠، ألقى البطريرك الكلداني «أودو» خطاباً تكلّم فيه عن العلاقة بين رومة والشرق، وشدد على أنها علاقة دينية، لا تهذيبية. ورفض التنازل عن حقوق الطقوس الشرقية وعوائدها. وقد أحدث الخطاب ضجة كبرى، وأثار الأكثرية المحافظة المتمسكة بأولية البابا وعصمته بحسب المفهوم الروماني. كما اغتاظ البابا واستدعى البطريرك الكلداني، ووجّه إليه كلاماً قاسياً نهراً وتأنيباً، وأجبره على الخضوع لكل ما فرضته البراءة الرسولية Reversurus، الصادرة بتاريخ ١٢ تموز (يوليو) عام ١٨٦٧، الموجهة إلى الأرمن والتي سمحت لكرسي رومة بالتدخل مباشرة بتعيين البطاركة والأساقفة.

أما البطريرك سيّور فكان له موقف واضح من مسألة أولية البابا وعصمته التي، وإن كانت مسألة تنظيمية، فهي تشكّل في تحديدها في ذلك الظرف خطراً كبيراً على عودة «الإخوة المنفصلين» إلى الوحدة الكنسية، فكيف إذا حوّلناها إلى عقيدة إيمانية(٩٠). لكن المجمع طرح المسألة على البحث، بالرغم من كل المحاذير، في ١٣ أيار (مايو). وكان موعد البطريرك سيّور مع الحدث في ١٩ أيار (مايو)، إذ اعتلى المنبر ليلقي خطابه الأول باللاتينية(٩١)، والذي تضمّن عرضاً مناقضاً لتقسيمات فصلي «الإيمان» و«الكنيسة»، وأقرّ بأن الكنيسة الشرقية تعترف بأولية البابا، ولكنها تتمسّك دائماً باستقلالها وحقوقها، وأن اعتراف البابا بهذه الحقوق هو أساس اتحاد كنيستنا مع الكنيسة الرومانية، وأن الكنيسة الشرقية قدّمت أقصى تنازلاتها في مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩، وإذا طلبت رومة اليوم تنازلات أكبر تكون هي التي تهدم أسس الاتحاد. أما في ما يتعلّق بالعقائد فان الكنيسة

---

(٨٩) كويتر، المرجع المذكور، ص ١١٥.

(٩٠) المرجع السابق، ص ١١٨.

(٩١) أنظر ترجمة للخطاب عند الأخ فايز فريجات المخلصي: الكنيسة الملكية والمجمع الفاتيكاني الأول، ظهر هذا البحث في مجلة «الوحدة في الايمان»، ١٩٧٠، ص ٥٥-٦٢.

الشرقية لا ولن تعترف بعقائد غير التي أقرتها المجامع المسكونة الكبرى للكنيسة جمعاء، قبل الانفصال لأنها تحفظ وديعة الإيمان بكل أمانة. وأخيراً دعا آباء المجمع الى رفض التصميم بكامله وخصوصاً عقيدة العصمة البابوية، إنقاذاً لوحدة كنيسة المسيح[92].

كان لخطاب البطريرك سيّور وقع مؤثر، فقد أثار الذعر عند الأكثرية المحافظة، ودفع بالبطريرك الأرمني حسّون والبطريرك اللاتيني فاليرغا إلى الردّ بعنف على البطريرك الملكي واتهامه بالغاليكانية. كما أنّ مجمع التفتيش بدأ بدرس إمكانية رفع دعوى على البطريرك ورشقه بالحرم.

إلاّ أن البطريرك لم يتراجع عن مواقفه، بل دبّج ردّاً على منتقديه ومعارضيه في خطابه الثاني الذي ألقاه أيضاً باللاتينية في جلسة ١٤ حزيران (يونيو)[93]. وقد قدّم في خطابه تصويراً حيّاً لتعديات «الرومانيين على استقلالية الكنائس الشرقية بانتهاكاتها الجسيمة لوثيقة الاتحاد والاضطهادات التي يتعرّض لها الأساقفة «الوحدويون» في أمانتهم على حفظ طقسهم ونظامهم اللذين تعهّدت الكنيسة الرومانية باحترامهما على لسان الدوائر الرومانية والبروبغندا. فإما أن تنتهي تلك التجاوزات وإما أن ينفصم الاتحاد بالكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة الشرقية لا تقبل أبداً بالعقائد الرومانية المطروحة في هذا المشروع»[94].

لم يكن البابا مرتاحاً لهذا الموقف، وهو المعروف بخشونة طبعه وقسوة معاملته وحب السيطرة الذي يمتلكه. لذلك اجتمع بالبطريرك سيّور وزجره قائلاً: Testa Dura Gregorio، أي أيها الرأس العنيد يا غريغوريوس. وتقول بعض المراجع إنه أساء معاملته مما دفع بغبطته إلى مغادرة رومة، مع أساقفته، قبل حصول التصويت على أولية البابا وعصمته. إلاّ أن بيوس التاسع طلب من المعارضين، والأساقفة المتغيبين عن التصويت، إعلان موافقة خطية. وتروّى البطريرك قبل الإجابة، إلاّ أنه بعدما رأى خضوع معظم الأساقفة المعترضين، وبعدما تزايد ضغط مجمع انتشار الإيمان على كاهله، كتب إلى رومة، في ٨ شباط (فبراير) عام ١٨٧١، ما يلي: «إني لا أتردد في إعلان موافقتي التامة وإيماني بالتعاليم التي تعلنها الكنيسة الكاثوليكية في جميع مجامعها بما فيه المجمع الفاتيكاني وجلسته الرابعة. إني أؤمن بجميع العقائد التي حدّدتها هذه الكنيسة بما فيها ما يختصّ بالسلطة التعليمية المعصومة التي يتمتّع بها رئيسها الأول ونائب المسيح المنظور... ولكن في ما يختصّ بالنظام الكنسي مع إذن نيافتكم، واعتباراً لازدهار الدين الكاثوليكي في الشرق، لا سيما في ما يختصّ بالطقس اليوناني، أرى لزاماً على ضميري أن أقوم بالتحفظ الذي عبّر عنه رسمياً المجمع الفلورنتيني بالعبارة: مع الحفاظ على جميع حقوق

---

(٩٢) الأب ميخائيل أبرص: «البطريرك غريغوريوس يوسف والمجمع المسكوني الفاتيكاني الأول»، مقال في المسرّة، السنة ٧٠ (١٩٨٤)، ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٩٣) راجع ترجمة الخطاب عند: فريجات، المرجع المذكور، ص ٦٣-٧١.

(٩٤) أبرص، المرجع المذكو، ص ٣٣٥.

وامتيازات البطاركة»(٩٥).

لقد ظلّ البطريرك سيّور متمسكًا بحقوق الكنيسة الشرقية، وحذرًا من موقف كرسي رومة، حتى أواخر ولايته، على الرغم من عطف لأون الثالث عشر (١٨٧٨-١٩٠٣)، خليفة بيوس التاسع، على الشرقيين. ولكن خوف البطريرك غريغوريوس وحذره بدأا بالتلاشي إثر المؤتمر القرباني الدولي الذي عقد، في أيار (مايو) عام ١٨٩٣، في أورشليم. ففي هذا المؤتمر اجتمع مندوب البابا الكردينال لونجينيو (Langénieux) بغبطة البطريرك وتداولا في أسباب تعثّر عمل الكرسي الرسولي، سواء من قبل المرسلين اللاتين أم من قبل الإكليروس الوطني، وسلّم إلى الكردينال تقريرًا مسهبًا شرح فيه شكواه من الأمور التالية(٩٦):

- حركة الليتنة بواسطة المرسلين اللاتين ومدارسهم، على الرغم من أوامر البابا بندكتس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨)، وبراءتيه Aelatae sunt و Demandatam.
- تدخّل القصاد الرسوليين في شؤون البطريركية الداخلية.
- سهولة استقبال أبناء الروم الملكيين في الكنيسة اللاتينية.
- المعونات التي تتدفق على اللاتين دون الطوائف الشرقية.

كما أن صدور براءة قداسة البابا لأون الثالث عشر «Praeclaram Gratulationis»، في ٢٠ حزيران (يونيو) عام ١٨٩٣، والتي شدد فيها على شرعية التعددية في الكنيسة من ضمن الوحدة في الإيمان والسلطة العليا والاعتراف بالنظام البطريركي، أسهم في انفراج الوضع ومهّد لدعوة من قداسته لصاحب الغبطة بزيارة رومة. فسافر سيّور في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) يرافقه كاتم أسراره الخوري ميخائيل شريم والنائب البطريركي في أورشليم فيليبس ملوك. واستقبل غبطته بحفاوة بالغة، استقبالاً يليق برؤساء الدول(٩٧). وفي ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) بدأت الجلسات الرسمية للقاء الذي شارك فيه بطريرك السريان بهنام (١٨٣٩-١٨٩٧)، والنائب البطريركي الماروني المطران يوسف الحويك وخمسة كرادلة. وفي هذا اللقاء أبدى قداسته حرصه على توحيد الكنائس الشرقية، واستعداده للعمل على توطيد سلطة البطاركة والحفاظ على امتيازاتهم وحقوقهم(٩٨).

وقد أثمر هذا اللقاء براءة رسولية بعنوان «Orientalium dignitas»، في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٣، أمر فيها البابا لأون الثالث عشر باتباع الشرع الشرقي عوضًا عن الحق القانوني الغربي، والعودة إلى روح

---

(٩٥) الأب اغناطيوس ديك: «المجمع الفاتيكاني الأول والأساقفة الشرقيون الكاثوليك»، مقال في نشرة أبرشية حلب للروم الكاثوليك، ١٩٨٣، العددان ٤ و٥، ص ٤٢.

(٩٦) كوبتر، المرجع المذكور، ص ١١٦.

(٩٧) يمكن مراجعة تفاصيل الزيارة عند: ميخائيل شريم: «رحلة البطريرك غريغوريوس الأول إلى رومة سنة ١٨٩٤»، مقال في المسرّة، السنة ٨ (١٩٢٢)، ص ٢٦٠-٢٦٤، ٣٩٢-٣٩٦.

(٩٨) حاج: الرهبانية الباسيلية الشويرية...، ٢:٢٩٢.

مجمع فلورنسا، والحد من صلاحيات الرؤساء الكنسيين المحليين، وتعزيز الكنائس الشرقية وصيانة تراثها الروحي ونظمها وطقوسها وامتيازات بطاركتها(٩٩).

كما كان من نتائج لقاء البطريرك سيّور والبابا لاون الثالث عشر أن منح قداسته البطريرك غريغوريوس الولاية الكنسية على جميع الملكيين الكاثوليك في جميع أنحاء السلطنة العثمانية(١٠٠).

٢) تأسيس إكليريكية القديسة حنة

بنى الصليبيون في النصف الأول من القرن الثاني عشر كنيسة على اسم القديسة حنة في القدس، على أنقاض بيت القديسين يواكيم وحنة والدي العذراء مريم. وقد تحولت هذه الكنيسة، عام ١١٩٢، إلى مدرسة لتعليم الفقه الإسلامي على المذهب الشافعي بأمر من صلاح الدين الأيوبي، فعرفت منذ ذلك الحين «بالصلاحية»(١٠١)، وعندما نشبت حرب القرم (١٨٥٤–١٨٥٥) بين تركيا وروسيا، وقفت فرنسا إلى جانب السلطان عبد المجيد (١٨٣٩–١٨٦١) الذي خرج من الحرب منتصراً. لذلك قدّم السلطان لفرنسا مدرسة الصلاحية، عرفاناً منه بالجميل. وتسلمت فرنسا كنيسة متداعية الجوانب، فباشرت فوراً ترميمها بإشراف المهندس موس (Mauss) الذي أعاد البناء إلى هندسته الأصلية(١٠٢) في سنة ١٨٧٧، وعرضت الحكومة الفرنسية على المطران لافيجري (١٨٢٥–١٨٩٢) والآباء البيض تسلّمها. وبعد مفاوضات طويلة في رومة، وافق مجمع انتشار الإيمان، في ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٨، على إقامة الآباء البيض في «الصلاحية» بصفة حراس وخدام. فأرسل المطران أربعة مرسلين باشروا درس اللغة العربية والاطلاع على أحوال البلاد تمهيداً لدرس فكرة إنشاء مؤسسة للدراسات الإنجيلية والأثرية(١٠٣)، إلى جانب عدد من المشاريع الأخرى.

وبينما هم في حيرة، زارهم البطريرك سيّور في ١٠ حزيران (يونيو) عام ١٨٨٠ فاستقبلوه بترحاب كبير، ولا سيما وأن غبطته كان على معرفة وطيدة بلافيجري من خلال الزيارة التي قام بها إلى الشرق، إثر حوادث عام ١٨٦٠، من قبل جمعية مدارس الشرق، ليوزّع المساعدات على المسيحيين المنكوبين. وكان لافيجري قد اكتشف عن كثب البؤس

---

(٩٩) المرجع السابق نفسه.

(١٠٠) الأب الياس اندراوس: **الكنائس الشرقية البيزنطية**، المرجع المذكور، ص ٢٥٥.

(١٠١) الأب جورج فاخوري البولسي: «مدرسة القديسة حنّة (الصلاحية) **تحتفل بيوبيلها الألماسي**»، مقال في المسرّة، السنة ٤٥ (١٩٥٩)، ص ٦١٢.
Mgr Philippe Gorra: *Sainte-Anne de Jérusalem, Séminaire Grec Melkite dirigé par les Pères Blancs*, Imp. St Paul, Harissa – Liban, 1922, p. 15.

(١٠٢) الخوري مخائيل بدين: «مدرسة القديسة حنة الإكليريكية للروم الكاثوليك»، مقال في **المجلة الكهنوتية**، السنة ٦ (١٩٥٥)، العدد الأول (كانون الثاني)، ص ٢٥.

(١٠٣) Marius-Ary Leblond: *Lavigerie et les Pères Blancs*, Mame, Paris, 1938, p. 70.

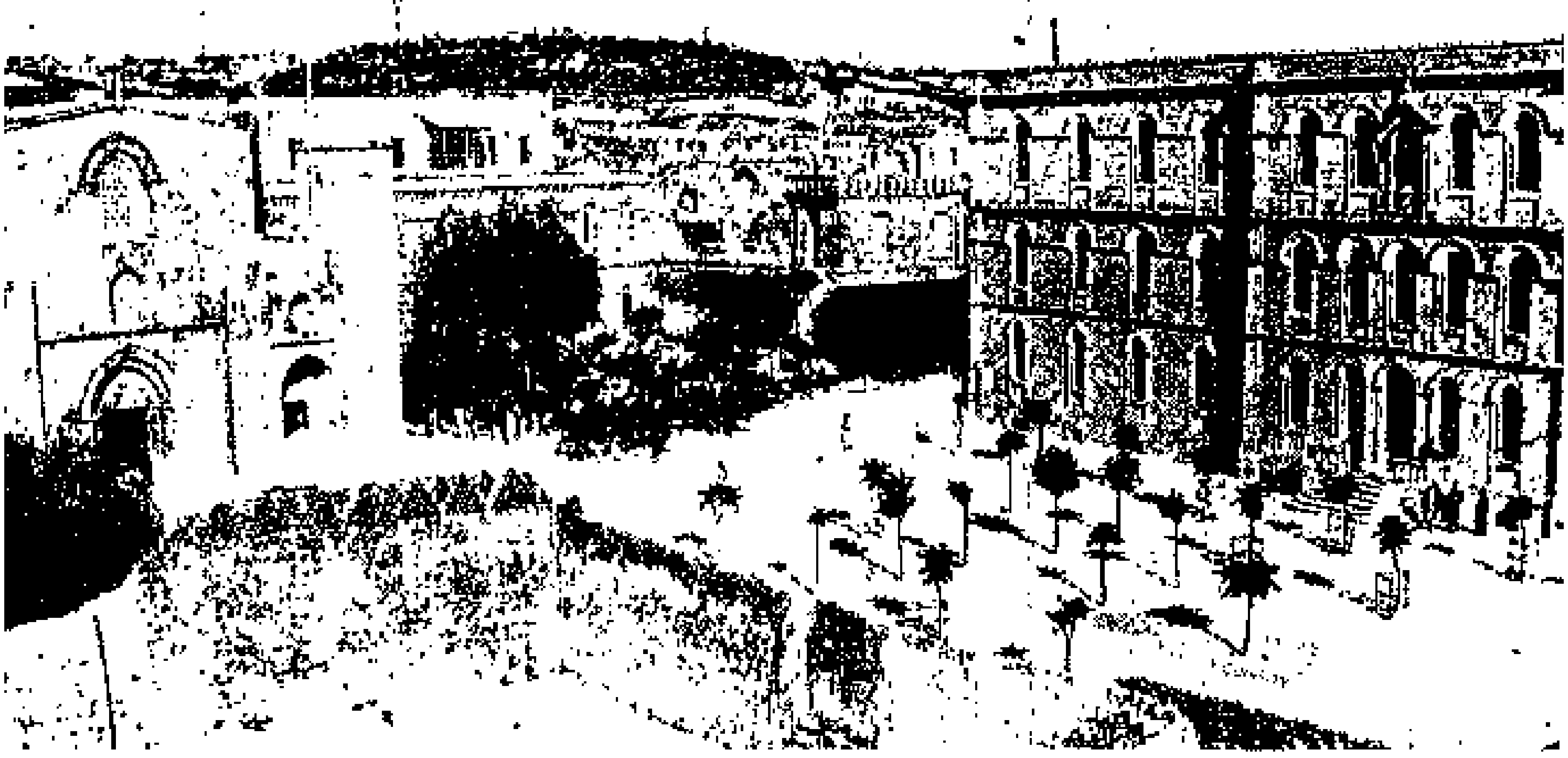

إكليريكية القديسة حنة في أورشليم

العميق الذي يعانيه المسلمون، وحاجة المسيحيين الكبرى إلى المساعدة المادية والروحية(١٠٤).

وكرر البطريرك سيور زيارته في ١٦ حزيران (يونيو)، وأمام حيرتهم قال لهم: «إن جمعيتكم تكون أدّت خدمة عظيمة إن رضيت أن تستقبل في هذا البيت بعض التلامذة من أولادنا الشرقيين لتعليمهم وتثقيفهم حتى يصبحوا يوماً إما معلمين من الكاثوليك وإما كهنة»(١٠٥).

إنّ هذا الاقتراح قُدِّم حين كانت إكليريكية عين تراز قد باشرت عملها، بعد ترميمها، إلى جانب المدرستين البطريركيتين في دمشق وبيروت. لكن غبطته كان يرى أنّ كنيسته بحاجة ماسة إلى إكليريكية كبرى تخرّج إكليروساً علمانيًّا لخدمة الأبرشيات في مختلف مرافقها القائمة، والمشاريع التي كان يؤمل تحقيقها(١٠٦). وكانت الرهبانيات من ناحية أخرى غير قادرة على تلبية حاجات العصر، وقد سبقها في المجال العلمي.

أطلع الآباء البيض رئيسهم الكردينال لافيجري على رغبة البطريرك فأجابهم: «إنني أعلّق على ما كتبتم إليّ بشأن المدرسة الرسولية أهمية كبرى بمقدار ما أعتقد بأن الطائفة الملكية

(١٠٤) Dom. F. Mercenier: «Le Séminaire Melkite de Sainte-Anne», art. in *Irénikon*, Tome IX, N° 6 (nov.-déc.), 1932, pp. 507-508.

(١٠٥) Mgr Baunard: *le Cardinal Lavigerie*, J. de Gigord, Editeur, Paris 1922, 2:117.

(١٠٦) الأرشمندريت فيلبس غزّة: سنة الخمسين لتأسيس إكليريكية القدّيسة حنّة بالقدس (١٨٨٢-١٩٣٢)، مطبعة القديس بولس في حريصا، ص ١٤.

هي الأكثر عدداً في الشرق وأن الروم الملكيين وإكليرسهم في حاجة قصوى إلى أن يساعدوا في هذا الشأن»(١٠٧). وللحال اتصل الكردينال بحكومة غامبيتا (Gambetta)، وبيّن لها أهمية هذا المشروع، فقدم له البرلمان الفرنسي تسعين ألف فرنك لمباشرة العمل(١٠٨). ولما أعلم قداسة الحبر الأعظم لاون الثالث عشر بالمشروع وافق فوراً قائلاً: «إني آذن لك، لا بل آمرك بأن تؤسس في القديسة حنة بأورشليم إكليريكية للروم الملكيين»(١٠٩). ولقد تلقى كذلك رسالة من رئيس مجمع انتشار الإيمان، في ١٨ آذار (مارس) عام ١٨٨٢، يعلمه فيها بأن المجمع المقدس قد وافق على مشروعه الذي ينوي تنفيذه في الشرق، وهو يتضمن أربع نقاط(١١٠):

- أن تكون القديسة حنة مجانية لأحداث الروم الملكيين، يستعدون فيها إما للكهنوت وإما لمهنة التعليم.
- أن ينشأوا على عوائد بلادهم وعلى طقسهم الخاص.
- أن تقام الصلاة في كنيسة المدرسة على الطقس الشرقي.
- أن يقيم المرسلون الحفلات الكنسية على هذا الطقس عينه، لأجل تلامذتهم الشرقيين.

لقد رأى الكردينال لافيجري في الشرق أملاً كبيراً بالعودة إلى تراث المسيحية القديم، حيث نشأ السيد وترعرع وصلى ومات وقام. لذلك بذل جهوداً جبارة لتقريب الشرق من كنيسة رومة، باستغلال كل المناسبات. وكان رده عنيفاً على حركة ليتنة الشرق، وإفراغه من روحانيته الخاصة. فكتب إلى وزارة الخارجية الفرنسية ومجمع انتشار الإيمان، معارضاً هذا المنحى في العمل الرسولي، ومظهراً الخطأ الفادح الذي ارتكبه الفرنسسكان، ويرتكبه الكثيرون من المرسلين الكاثوليك في إبعاد الشرقيين عن طقسهم(١١١).

ومن وحي هذه الروح الشرقية، قبل الكردينال لافيجري أن يتبنى مقدسات القديسة حنة، وأن يحوّل مزارها في ما بعد إلى إكليريكية، هدفها تزويد الطلاب بالفضيلة والعلوم الدينية، ليتحوّلوا في المستقبل إلى كهنة ينذرون أنفسهم للعمل بين مسيحيي الشرق. ولقد حافظت الإكليريكية على روح مؤسسها، لا في الطقس والتعليم فقط، بل في طرق

---

(١٠٧) BAUNARD, *op. cit.*, Tome II, p. 117.

(١٠٨) الخوري نقولا دهان: «نبذة تاريخية في مدرسة القديسة حنة الاكليريكية» مقال في المشرق، السنة ١٠ (١٩٠٧)، ص ٨٦.

(١٠٩) دليل المسرّة، ص ٩٥؛ P. PORTIER, «lettre-rapport à Mgr Lagier», in *Bull. d'O.E.O.* n° 410, (déc. 1932), p. 186.

(١١٠) نقلاً عن الأب الياس اندراوس البولسي: «الكردينال لافيجري وروح الرسالة في الشرق»، مقال في المسرّة، السنة ١٨ (١٩٣٢)، ص ٥٢٨؛ BAUNARD. *op. cit.*, T. II, p. 121; Mgr. Antonios FARAGE: *le Cardinal Lavigerie et l'esprit d'Apostolat en Orient*, imp. Saint-Paul, Harissa (Liban) 1932, p. 35.

(١١١) الأب الياس اندراوس البولسي: «أحد أصدقاء الشرق العظام الكردينال لافيجري (١٨٢٥–١٨٩٢)»، مقال في المسرّة، السنة ١٢ (١٩٢٦)، ص ٤٧٦؛ BAUNARD *op. cit.*, T II, p. 106.

العيش المادية أيضاً(١١٢).

لقد أسهم لافيجري في الحفاظ على شخصية الكنائس الشرقية التي كان يريدها شرقية، ويريد أبناءها شرقيين على مثال أجدادهم، لأنه أدرك بعقله الواسع الحصيف أنّ الشرق لا يرتقي ولا يعود إلى وحدة الإيمان إلاّ عن طريق عوائده وطقوسه(١١٣).

إن المهمة الأساسية التي أخذتها الإكليريكية على عاتقها هي تنشئة كهنة «سوريين وفلسطينيين ومصريين» من حيث التطلع والطقس واللغة والخدمة. ولم تتمّ هذه المهمة من خلال الدروس النظرية وحسب، بل كذلك من خلال الدروس العملية التطبيقية التي قدّمها الآباء البيض إلى طلابهم ومثلهم الصالح وقداستهم الكهنوتية وأفكارهم الكاثوليكية وسيرتهم الرسولية الحقيقية(١١٤). فكان خرّيج الإكليريكية يحمل علامات الآباء البيض من تواضع وتخلّ عن خيرات الدنيا وثقافة واسعة ونفس عالية. فأهّلته هذه الصفات لخدمة النفوس على أكمل وجه.

كما أن البرامج التي أعدّها الآباء البيض لطلابهم كانت كافية لإعداد الكاهن الرصين والنشيط والكامل في آدابه الخاصة، والغيور على خدمة النفوس(١١٥)، حتى إن شهرة «الصلاحية» انتشرت بين صفوف المسيحيين، فأصبحت الأسر الملكية في دمشق وحلب ومدن الشرق الأدنى العربي تفتخر بأن ترسل أولادها ليتلقّنوا العلوم على أيدي الآباء البيض في القدس(١١٦).

وعلى الرغم من المصاعب المادية الخانقة التي عانتها الإكليريكية فقد استطاعت أن تخرّج حتى عام ١٩٣٢ زهاء ٩٤٦ طالباً رُسم منهم ١٣٤ كاهناً وثلاثة شمامسة(١١٧). ومن لم يرتسم منهم بلغ أرقى الوظائف، حتى أصبح ارتقاء الوظائف الرفيعة مرادفاً للتخرّج من «الصلاحية».

٣) شراء مزار القديسة فيرونيكا

كان مقام القديسة فيرونيكا(١١٨) ملكاً لعبد الرحمن حدوثة العلم. وهو يطالب بثمن

---

(١١٢) راجع قوانين GORRA, *op. cit.*, p. 142 الإكليريكية عند الأب نقولا دهبر: «**إكليريكية القديسة حنة المعروفة بالصلاحية**»، مقال في **المسرّة**، السنة ٤٣، (١٩٥٧)، ص ٥٨٤–٥٨٥.

(١١٣) أندراوس: «**أحد أصدقاء الشرق...**»، المقال المذكور، ص ٧٥.

(١١٤) محفوظات جمعية المرسلين البولسيين، **مذكرات الأب بولس سيور** (مخطوط)، ص ٦٥.

(١١٥) دهبر، المقال المذكور، ص ٥٨٥.

(١١٦) *MAXIMOS IV Pasteur et Père*, par les Religieuses de Notre-Dame du Perpétuel Secours, avec le concours de Collaborateurs intimes de Maximos IV, imp. St-Paul, Jounieh – Liban, 1981, p. 15.

(١١٧) وسام كبكب: **جمعية المرسلين البولسيين، تأسيسها، تنظيمها، دورها الرسولي**. الجزء الأول (١٩٠٣ – ١٩٥١)، منشورات المكتبة البولسية، جونيه – لبنان، ١٩٨٧، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(١١٨) يرى التقليد المسيحي أنها المرأة التي مسحت وجه السيد المسيح بمنديل، فيما كان حاملاً صليبه على طريق الجلجلة. ويشكل هذا المقام المرحلة السادسة من مراحل درب الصليب عند الكنائس المسيحية.

عالٍ جداً، ولكنه كان بحاجة إلى بياره[119] بالقرب من يافا تملكها البطريركية [120]. فتمّ الاتفاق على شراء المقام بمبلغ ٣٠٠٠ ليرة فرنسية ذهباً (ل.ف.ذ.)، قبض منها عبد الرحمن ١٨٠٠ في أول نيسان (أبريل) عام ١٨٨٣، وتنازلت له البطريركية عن البيارة المذكورة في ٢٥ أيار (مايو) مقابل المبلغ الباقي وقدره ١٢٠٠ ل. وتمّ عقد البيع باسم اغناطيوس معقّد مجرّداً من صفته الكهنوتية، تسهيلاً للمعاملات. وجرى البيع الرسمي عن يد الحكومة بتاريخ ١٩ نيسان (أبريل) عام ١٨٨٣. وفي ١٧ تموز (يوليو) من العام نفسه كتب إلى البطريرك يطلعه على طلبه المساعدة من أوروبا لتغطية نفقات «حفر وتنظيف تلال التراب الموجود في البيت» وتأسيس «كابّلا لائقة بهذا المكان المقدس».

وكان رأيه، كما عبّر عنه في رسالته إلى البطريرك المؤرّخة في أول آب (أغسطس) عام ١٨٨٣، أنه يمكن الاستفادة من المزار على وجهين: أولاً أن يجعل للقديسة فيرونيكا والوجه المقدس، وثانياً أن يكوّن المرحلة السادسة من درب الصليب. وفي الرسالة نفسها أطلع غبطته على أن مراسلاته مع أوروبا قد أثمرت مئة فرنك من إحدى المحسنات. وفي رسالة أخرى مؤرّخة في ١٢ أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها، أطلعه على مساعدة جمعية كولوني بـ ٦٢٥ فرنكاً.

وسعياً وراء المساعدات المادية، سافر الأب معقّد إلى أوروبا، فزار رومة وفريبورغ وستراسبورغ ومرسيليا. وبعد العودة من أوروبا سعى إلى ترميم المزار. ولما حاول إنشاء الكنيسة، عارضته الدولة العثمانية بحجة أنها تقوم في وسط إسلامي، وأن قلة أفراد «الطائفة» لا تستدعي بناء كنيسة ثانية إلى جانب الكاتدرائية البطريركية. ولكن بعد إلحاح كبير ووساطات متعددة، واستناداً إلى قدم المزار في المسيحية وقربه من أمكنة أخرى تملكها طوائف مسيحية أخرى، وافقت السلطات على بناء الكنيسة سنة ١٨٩٤[121]. وهكذا أصبح لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في أورشليم، بهمة البطريرك سيّور، مدرسة إكليريكية بإدارة الآباء البيض، ومزار وكنيسة على طريق الجلجلة.

هذه الانجازات الكبرى التي حققها البطريرك غريغوريوس يوسف سيّور طيلة ٣٢ سنة، من الكفاح المضني في سبيل إعلاء شأن الكنائس الشرقية، وإنهاض كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك بعد تعثرات كادت أن تشرذمها، أوهنت قوى ذلك الشيخ الذي ناهز الرابعة والسبعين من عمره. وفي ٢ تموز (يوليو)

(١١٩) هي الحديقة التي يزرع فيها البرتقال وتروى من مياه الآبار.

(١٢٠) وهبها للبطريرك الأب جبرائيل دبانه المتوفى سنة ١٨٩٣، وقد دفن فيها.

(١٢١) «أبرشية أورشليم البطريركية»، مقال في المسرّة، السنة ٢٥ (١٩٣٩)، ص ٣٩١. في هذه الأثناء كان الأب معقّد قد ترك النيابة البطريركية فتابع العمل في هذا المشروع الأب فيلب ملّوك. يمكن مراجعة نص الترجمة العربية الرسمية للفرمان السلطاني حول السماح ببناء الكنيسة في المرجع نفسه، ص ٣٩٤.

١٨٩٧ اشتد عليه المرض، وما لبث أن أسلم روحه لرب البرايا في ١٣ تموز (يوليو).

ونشارك المطران جرمانس معقّد بقوله، في أثناء تأبينه لغبطته، إن الكلام المنمق في هذا المقام لا يجدي، بل إن أعماله المبرورة ومآثره المشكورة هي التي توجز شخصيته(١٢٢).

وفي الحقيقة يعتبر هذا البطريرك من أعظم بطاركة كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك إلى جانب مكسيمس مظلوم، ومن بين أبرز بطاركة الشرق على الإطلاق.

رابعًا: البطريركية في القرن العشرين

ما إن بزغ فجر القرن العشرين حتى كانت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك قد انفردت بشخصية مميزة في علاقاتها الزمنية والروحية، وذلك بفضل البطريركين مكسيمس مظلوم وغريغوريوس سيّور. وقد تولى السدّة البطريركية، منذ وفاة سيّور حتى اليوم، ستة بطاركة عملوا على توطيد أمور الكنيسة الملكية ورفع شأنها.

١) عهد البطريرك بطرس الرابع الجريجيري (١٨٩٨-١٩٠٢)

أصدر الكرسي الرسولي، إثر وفاة البطريرك سيّور، إعلامًا عيّن بموجبه المطران كيرلّس جحا، متروبوليت حلب، قائمقامًا بطريركيًا لحين انتخاب بطريرك أصيل، فدعا إلى عقد سينودس انتخابي، في ١٠ شباط (فبراير) عام ١٨٩٨، في دير المخلص للرهبانية الحلبية في صربا (جونيه)، انتخب المطران بطرس الجريجيري بطريركًا(١٢٣).

وقد أصدر غبطته، من ديوانه البطريركي، في دير المخلص بصربا، في ٩ آذار (مارس)، منشوره الأول إلى أبنائه إكليرسًا وشعبًا «ضمنه بأبلغ عبارة وأفصح مقال خلاصة ما في نفسه من صالح النيات وهي توجيه معظم اهتماماته البطريركية إلى مزيد إتقان استعدادات الطغمة الإكليريكية عالمية وقانونية في العلم والفضيلة وإسناد المدارس الكهنوتية والإكليريكية والرهبانية ورفعها إلى المقام الكافل للكنيسة خيرة الفعلة الروحيين. . . والدأب في رعاية زمام جميع الشعوب المحيطة به. . . ومدّ يد الولاء والإخاء إليهم وإعطاء كل ذي حق حقه. . . وتربية الأحداث ذكورًا وإناثًا على مبادئ الدين المسيحي القويمة وأساس حب الوطن العزيز وتعزيز المعاهد العلمية. . . لأن الأحداث هم مستقبل الكنيسة المقدسة ورجاء الوطن المحبوب. ومساعدة الجمعيات الخيرية الملية وإعالة الفقير والبائس. . . وتعزيز أعمال وكلاء الكنائس ومديري

---

(١٢٢) المطران جرمانس معقّد، كتاب سبيل الصلاح، الجزء الأول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٨، ص ٢٤٩-٢٥٦.

(١٢٣) راجع تفاصيل الانتخاب عند: قيصر بويز واسكندر خوري: **التحفة الملية في التهاني البطريركية المرفوعة لغبطة السيد الجليل وراعي الرعاة النبيل كيريوس بطرس الرابع الجريجيري البطريرك الأنطاكي والاسكندري والأورشليمي وسائر المشرق للروم الكاثوليك الكلي الطوبى**، مطبعة الفوائد، بيروت، ص ٣-٦.

الأوقاف. . .»(١٢٤).

إن ولاية البطريرك الجريجيري القصيرة لم تسمح له بالقيام بإنجازات كبيرة وكثيرة، وإن كانت إمكاناته وظروف التأييد الشعبي تبشّر بولاية غزيرة العمل والنتائج. إلاّ أنه من المنصف أن نذكر برنامج عمله الذي كان يتوق إلى تحقيقه، والذي كان مطّلعاً عليه كاتم أسراره الخوري ميخائيل ألوف: «كان ينوي سنناً ومشاريع جليلة كشف عن بعضها الغطاء ومهّد لبعضها السبل ولكن لم يفسح له الأجل في تمهيد سائرها ولا أبقى عليه الزمان ليظهرها إلى حيز النور وعالم الوجود. وأخصّها توحيد الحسابين الغربي والشرقي. وتأسيس مدرسة علمية كلية في القاهرة. ومدرسة صناعية في سورية. ومدرسة علمية كبرى للبنات في بيروت. ومدرسة أخرى للبنات اليتامى. ودير للراهبات على نسق أديار الراهبات الافرنجية. وكنيسة كاتدرائية في بلدة بانياس باسم القديس بطرس الرسول تذكاراً للمحل الذي قال فيه السيد المسيح لبطرس «أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني بيعتي». وإنشاء قوميسونات ملية في جميع الأبرشيات الأسقفية من خصوصياتها النظر في أعمال السادة الأساقفة والسيطرة على دخل الكراسي الأسقفية وخرجها. وتهذيب قوانين الرهبانيات ووضع ريع أوقافه ونفقاته تحت ظل المراقبة. وجمع ما يتوفر من أموال الكراسي الأسقفية وأوقاف الأديار وتخصيصه للشروع في تأسيس معامل وطنية لنسج الأنسجة وصنع الأواني مما يكون سبباً لمنع المهاجرة ولتشغيل العطل من الشبان وتقويم أود المساكين المعوزين وإغناء الوطن وقسم مما يحتاج إليه من البلاد الأجنبية إلى غير ذلك من الأعمال العائدة بالفائدة على الوطن وأهاليه»(١٢٥).

٢) عهد البطريرك كيرلّس الثامن جحا (١٩٠٢-١٩١٦)

إثر وفاة البطريرك الجريجيري، عيّن الكرسي الرسولي المطران كيرلّس جحا، مرة ثانية، مدبّراً رسولياً للكرسي البطريركي. فدعا أساقفة الكنيسة الملكية إلى عقد مجمع انتخابي في عين تراز، وفيه انتخب كيرلّس جحا بطريركاً، في جلسة واحدة، نهار الجمعة ٢٧ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٢. وقد بارك البابا هذا الانتخاب برقياً، ثم أعلن الكرسي الرسولي تثبيته في المجمع المقدس، في ٢٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٣. أما الباب العالي فقد أنعم عليه فوراً بالوسام المجيدي من الدرجة الأولى، وأرسل له فرمان الاعتراف به مدنياً. وكان ذلك أسرع صدور لفرمان عثماني في كنيسة الروم الكاثوليك(١٢٦).

---

(١٢٤) شعاع الفضائل في ترجمة ورثاء الحبر الجليل الأكبر والعلامة المفضال الأبر والطيب العين والأثر كيريوس كيريوس بطرس الجريجيري بطريرك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٠٢، ص ٤٢، ٤٣.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ٩٥.

(١٢٦) المطران ناوفيطس إدلبي: أساقفة الروم الملكيين بحلب في العصر الحديث، مطبعة الاحسان، حلب، ١٩٨٣، ص ٣٣٢.

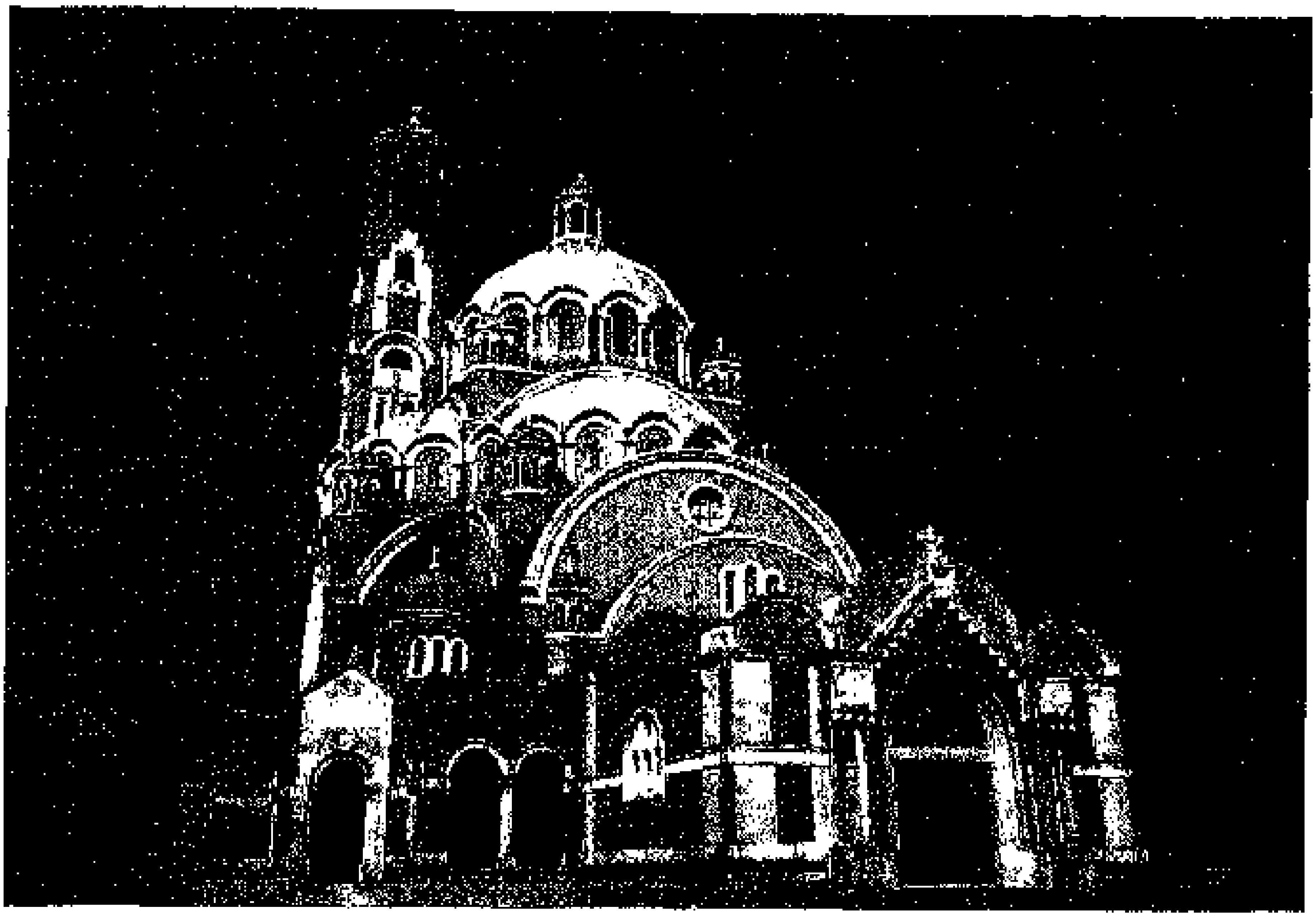

كنيسة القديس بولس للمرسلين البولسيين (حريصا)

أما أبرز الأحداث التي جرت في البطريركية خلال هذ العهد فكانت:

آ) تأسيس جمعية المرسلين البولسيّين

شهد عهد البطريرك كيرلّس الثامن جحا تأسيس جمعية آباء مرسلين، على اسم القديس بولس. مهمتها الوعظ والارشاد وعمل الرياضات في رعايا الكنيسة الملكية الكاثوليكية، على يد مطران بعلبك المستقيل جرمانس معقّد.

وكان المطران المذكور قد تقدم بطلب الإذن لتأسيس الجمعية إلى البطريرك سيّور، في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٦، فوافق غبطته على المشروع وأصدر إعلاماً بطريركياً، بتاريخ ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه، لإطلاق المشروع ودعوة المحسنين إلى دعمه. إلاّ أنّ وفاة البطريرك وتفتيش المطران عن مكان مناسب لتأسيس الدير أخّرا التنفيذ على الرغم من تصديق البطريرك الجريجيري المشروع برسالة وجّهها من القاهرة بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) عام ١٨٩٩.

وقد تمكن المطران من بناء دير في حريصا لاستقبال الرعيل الأول من المرسلين. وبعد وفاة الجريجيري، سنة ١٩٠٢، التمس المطران معقّد من خلفه البطريرك جحا المصادقة على المشروع. فأعلن غبطته مباركته له في إعلام بتاريخ ١٦ تموز (يوليو) عام ١٩٠٢. فاكتملت بذلك الخطوط الأولى لتأسيس الجمعيّة. وبعد

أن وصل الرعيل الأول، المؤلف من الأب بولس سيّور والشماس جرجي جنن والأخ جوزف أشقر من إكليريكية القديسة حنة، أرسل غبطته إليهم كتاباً بتاريخ ١٩ آب (أغسطس) عام ١٩٠٣ يحثّهم فيه على الثبات في مقاصدهم الصالحة «والاستعداد للجدّ والنشاط وبذل النفس في سبيل مجد الله وخير النفوس».

وهكذا تفتحت بذور تلك الجمعية من الآباء المرسلين التي ستنطلق لنشر كلمة الله في أبرشيات كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في لبنان والشرق، وسوف تسهم برعاية حركة الاتحاد في أماكن متعددة بدعوة من أساقفة الأبرشيات(١٢٧).

ب) انعقاد «المجمع الملّي» في عين تراز سنة ١٩٠٩

كان هذا المجمع في طليعة اهتمامات البطريرك كيرلّس الثامن، وقد تأخر انعقاده بسبب مرض البطريرك السابق ووفاته. لذا عزم غبطته على عقد هذا المجمع لتدوين قانون كنسي كامل للروم الكاثوليك. فشكّل لجنة لوضع مسودة المجمع قوامها الأساقفة: اثيمس زلحف (صور)، نيقولاوس قاضي (حوران)، كيرلّس مغبغب (زحلة)، غريغوريوس حجار (عكا). إلاّ أن عمل اللجنة طال، ولم يخرج المجمع إلى حيز التنفيذ. وكان المطران جرمانس معقّد (اللاذقية شرفاً) يتهم غبطته بالمماطلة بعقد المجمع، وأبدى استعداده أمام المطران اغناطيوس حمصي لتحضير أعماله. فتجاوب البطريرك مع هذه الرغبة وكلف المطران معقّد في ٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٨ بتحضير أعمال المجمع(١٢٨). فكتب المطران معقّد إلى غبطته موافقاً على التكليف بالرغم من وضعه الصحي، وطالباً من غبطته حث الأساقفة، المكلفين بتحضير أجزاء من مواد المجمع، على الاسراع في عملهم، متعهّداً إنجاز العمل بأسرع وقت ليلتئم المجمع في صيف عام ١٩٠٨(١٢٩). إلاّ أنّ الأعمال التحضيرية دامت حتى ربيع عام ١٩٠٩، فوجه غبطته إعلاماً إلى السادة الأساقفة، في ١٤ نيسان (أبريل) عام ١٩٠٩، دعاهم فيه إلى الاجتماع في عين تراز يوم عيد العنصرة في ٣٠ أيار (مايو) من العام نفسه(١٣٠).

وقد تناول مجمع عين تراز أموراً طقسية وقانونية وعقائدية (الأسرار) وقضائية توزّعت على ١٠١٨ مادة قسّمت إلى أربعة أقسام. وختم المجمع أعماله في ٨ تموز (يوليو)،

---

(١٢٧) راجع تاريخ هذه الجمعية عند: د. وسام كبكب: **جمعية المرسلين البولسيين**، المرجع المذكور، ص ٧١٢.

(١٢٨) محفوظات جمعية المرسلين البولسيين، **مراسلات جرمانس معقّد**، رسالة من غبطة البطريرك كيرلّس الثامن إلى المطران معقد بتاريخ ٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٨، رقم ٣/١٢٣.

(١٢٩) المصدر السابق، رسالة من المطران معقد إلى البطريرك بتاريخ ٢١ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٨.

(١٣٠) محفوظات جمعية المرسلين البولسيين. **سجل التحارير الواردة إلى المطران معقّد**، سجل ٤، رقم ١٣.

وكُلّفت الجمعية البولسية بتنقيح مقرّراته وترجمتها إلى الفرنسية، بعد إضافة التغييرات التي أقرّها آباء المجمع. وأُرسلت المقرّرات إلى رومة التي لم تجب سلباً أو إيجاباً عليها حتى الآن.

ج) تأسيس أول مجلة بطريركية

أطلع المطران معقّد أعضاء جمعيته البولسية على رغبته في إصدار مجلة باسم «المسرّة» تكون غايتها تلافي بعض الأضرار الناجمة عن «ما تحدثه النشرات المعادية للدين من الأضرار الباهظة للنفوس»(١٣١). لكن قلة عدد المرسلين وتراكم أعمال الرسالة أخرّا هذا المشروع إلاّ أن «المجمع الملّي»، المنعقد في عين تراز سنة ١٩٠٩، وافق على المشروع الذي تطور ليصبح مجلة صادرة باسم البطريركية وبإدارة الجمعية البولسية وإشراف شخصي من المطران معقّد.

وقد صدر الاعلام البطريركي بشأن تأسيس المجلة وإدارتها في ١ نيسان (أبريل) ١٩١٠. وظهر العدد الأول من مجلة «المسرّة» في مطلع حزيران (يونيو) عام ١٩١٠. واعتمدت في نهجها على نشر المقالات الدينية والعلمية والأدبية والأخبار «الملّية» والفوائد المتنوعة بعبارة فصيحة وقريبة من متناول أفهام القراء العاديين.

د) نشاطات رعوية متفرقة

اهتم البطريرك كيرلّس الثامن برعيته، وكان يستغل كل مناسبة لتوجيه منشور الى المؤمنين يوضح لهم فيه معاني المناسبة، مسهماً في بتعليم أبنائه وتثقيفهم. وكانت هذه المناشير فاتحة لاعتماد البطاركة اللاحقين هذا الأسلوب في التعاطي مع المؤمنين.

واهتم غبطته كذلك بالمدارس وبتثقيف الناشئة، فدعم المدارس البطريركية، وأسهم في زيادة عدد طلابها الذي ارتفع من ٢٠٠٠ إلى الضعف(١٣٢). وأكّد ضرورة التعاضد بين أبناء كنيسته لتحقيق مزيد من النجاح وتعزيز وجودها. واعتنى بالجمعيات الخيرية، وحضّها على متابعة أعمالها المبرورة في خدمة المعوزين.

وفي سنة ١٩١١ انتقل إلى القطر المصري حيث استقر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، فلم يتمكن من العودة إلى سورية ولبنان. وبعدما خلعت بريطانيا الخديوي عباس وعيّنت مكانه السلطان كامل، شارك غبطته في حفل المبايعة مما أغضب السلطنة العثمانية واعتبرت عمله هذا خيانة عظمى بسبب تابعيته للباب العالي. فعزلته عن البطريركية، أي سحبت منه السلطنة المدنيّة، وأمرت الأساقفة بانتخاب بديل عنه. لذلك أقام غبطته في مصر حتى وفاته. وفي خلال هذه الإقامة أسس إرسالية السودان سنة ١٩١٢.

وقد تنامى عدد أبناء الروم الكاثوليك في عهده حتى وصل إلى ١٤٤١٩٥ مؤمناً سنة

(١٣١) المسرّة، السنة ١ (١٩١٠)، مقدمة العدد الأول، ص ٣.

(١٣٢) المسرّة، السنة ٢ (١٩١١)، ص ٣١٦.

١٩٠٧. واللوحة المرفقة تظهر إحصاء مفصلاً عن وضع الكنيسة الملكية في تلك السنة(١٣٣).

هـ) نكبة كنيسة الروم الكاثوليك خلال الحرب العالمية الأولى

اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ والبطريرك الملكي في القطر المصري، معزول عن ولايته المدنية في الأراضي الواقعة تحت سلطة الأتراك. وقد دعت الحكومة العثمانية أساقفة الروم الكاثوليك لانتخاب قائمقام بطريركي للشؤون الزمنية تاركة لهم حرية الاتصال بروما في ما يتعلق بالشأن الروحي. وإذا تخلّفوا عن الانتخاب فإنها سوف تسحب اعترافها «بطائفة الروم الكاثوليك». وتداركاً لتفاقم الموقف مع السلطة العثمانية، قدّم الأساقفة مرشحين هما المطران باسيليوس حجار (صيدا) وكيرلّس مغبغب (زحلة). فاختار الأتراك المطران حجار الذي أقام في دمشق، في حين ظل الأرشمندريت ديمتري سكرية نائباً بطريركياً للشؤون الروحية.

وفي ٩ كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٦ توفي البطريرك جحا في مصر، ووصل الخبر إلى الأساقفة في ١٨ شباط (فبراير)، في اليوم التالي لوفاة المطران حجار في دمشق. فعيّنت روما مطران حلب ديمتريوس قاضي نائباً رسولياً لحين اختيار بطريرك جديد. وكانت السلطة العثمانية قد عيّنت موعداً لانتخاب خلف للمطران حجار، في آذار (مارس) عام ١٩١٦. فاختار الأساقفة ديمتريوس قاضي وكيرلّس مغبغب، فعيّنت الأستانة المطران قاضي قائمقاماً بطريركيًّا. ولعلها قصدت بذلك توحيد السلطتين المدنية والروحية بيد أسقف واحد، تخفيفاً للمشاكل التي قد تنشب بين «الطائفة» والسلطنة العثمانية(١٣٤).

لقد عانت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك كثيراً في الحرب العالمية الأولى: فالبطريرك معزول ،مجبر على الإقامة في مصر. والأبرشيات كانت في حالة فوضى بسبب ترمّل بعضها بوفاة أساقفتها، أو نفي البعض الآخر، فكانت على الشكل التالي: البطريرك جحا متوفى منذ عام ١٩١٦. تسلم المطران ديمتريوس قاضي رئاسة الكنيسة بصفة قائمقام بطريركي. مطرانان متوفيان هما: مطران صيدا باسيليوس حجار، ومطران صور أفتيموس زلحف. ستة مطارنة متغيّبون أو منفيّون: مطران طرابلس يوسف دوماني (منفي إلى سيواس)، مطران بعلبك أغابيوس معلوف (منفي إلى أورفا)، مطران حوران نيقولاوس قاضي (منفي إلى حلب)، مطران عكا غريغوريوس حجار (في مصر منذ بدء الحرب ومحكوم عليه بالإعدام)، مطران بيروت أثناسيوس صوايا (في أوروبا)، المطران بولس أبو مراد (في مصر منذ بدء الحرب). أما المطارنة الذين ظلوا في أبرشيّاتهم فهم: مطران زحلة والفرزل والبقاع

---

(١٣٣) راجع الأب يوسف نصر الله: «الكنيسة الملكية الكاثوليكية في خلال مئة سنة» مقال في المسرّة، السنة ٣٤ (١٩٤٨)، ص ١٦٥-١٧٠.

(١٣٤) حاج، الرهبانية الباسيلية الشويرية...، ٢:٤١٨.

كيرلّس مغبغب، مطران حمص فلابيانس كفوري، مطران بانياس اقليمنضس معلوف، المطران اغناطيوس حمصي المقيم في عين تراز.

أما الرهبانيات فقد بذلت الكثير من النفقات، وأثقلت كاهلها بالديون لأجل إطعام الجائعين الذين كانوا يؤمون أديرتها يومياً بالمئات. فلقد خرج دير المخلص، في جون، من الحرب العالمية بديون ثقيلة على الرغم من وسع أملاكه وأطيانه التي تدرّ الغلال الوافرة، وعلى الرغم مما كان يرده من الأموال الطائلة من أوروبا عن طريق سويسرا[١٣٥].

أما جمعية المرسلين البولسيين الفتية فقد تعرّضت لهزة عنيفة كادت تودي بكل الجهود التي بذلها المرسلون أدراج الرياح. وعلى الرغم من كل ذلك فقد تمكّنت الجمعية من إسعاف مئات من الفقراء الذين كانوا يؤمون الدير، فتكبّدت مبالغ ضخمة في سبيل تأمين القمح لها وللفقراء، فبلغت ديونها حوالي ١٥٠٠ جنيه ذهبي[١٣٦]. فضلاً عن ذلك قامت الجمعية بإسعاف المرضى المهملين الذين نبذتهم أسرهم وقراهم، وبدفن الجثث الملقاة على الطرقات. وإسهاماً في تخفيض عبء الديون التي سقطت على كاهل الجمعية، من جراء نشاطها الاجتماعي في محيط ديرها الرئيسي، توجه البطريرك ديمتريوس قاضي في ١٥ آذار (مارس) عام ١٩١٩ بإعلام بطريركي إلى أبنائه في مصر، حرّضهم فيه على مساعدة الجمعية لمتابعة دورها الرسولي في خدمة الانسان.

أما على صعيد المؤمنين فقد حلّ بأفراد كنيسة الروم الكاثوليك ما حلّ بغيرهم من المواطنين من النكبات مدة الحرب العالمية الأولى، فتشتت شمل الكثيرين منهم، ونفت الحكومة العثمانية عدداً غير قليل من أبنائها في دمشق وبيروت وبعلبك وزحلة وغيرها من المدن إلى الأناضول حيث عانوا العذاب واستشهد البعض منهم[١٣٧].

إنه من الصعب جداً أن نرصد أعمال النائب البطريركي المطران ديمتريوس قاضي، خلال فترة نيابته بين عامي ١٩١٦ و١٩١٩. فلقد أمضى تلك السنين في تعب فكر دائم وانزعاج متواصل. فأبناؤه معذبون ومضطربون، وأعيانهم منفيون، والمعوزون يتسوّلون لقمة العيش. والنائب البطريركي منهمك في إرضاء جمال باشا السفاح لرد الحيف عن «الطائفة» رؤساء وشعباً. وهو من جهة أخرى منهمك في تدبير شؤون الرعية الدمشقية و«الطائفة» جمعاء. إلاّ أن دخول الحلفاء دمشق وسورية في أواخر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ أنعش الآمال وأزال الضغط عن كاهل الروم الكاثوليك المتهمين أبداً

---

(١٣٥) جميل بحري: «الاكليرس والمجاعة»، مقال في المسرّة، السنة ٥ (١٩١٤-١٩١٩)، ص ٤٥٧.

(١٣٦) الأب بولس سبور البولسي: المجاعة في سورية ولبنان، مطبعة الفنون العصرية، ١٩١٩، ص ٢٨-٢٩؛ يوميات الجمعية البولسية، سجل ١، ص ٩٩.

(١٣٧) الأب بولس سبور «أهم أخبار الطائفة الملكية مدة الحرب العامة»، مقال في المسرّة، السنة ٥ (١٩١٤-١٩١٩)، ص ٤٥٦.

بالتواطؤ مع فرنسا على السلطة العثمانية(١٣٨).

٣) عهد البطريرك ديمتريوس الأول قاضي ١٩١٩-١٩٢٥)

بعد استتباب الوضع في الشرق، اجتمع أساقفة الروم الكاثوليك، في ٢٩ اذار (مارس) عام ١٩١٩، في دير المخلّص في صربا، وانتخبوا ديمتريوس الأول قاضي بطريركاً أصيلاً.

وباشر البطريرك الجديد مهامه فوراً، خصوصاً وان وضع البطريركية لم يكن يتحمّل المماطلة. فعيّن ثمانية أساقفة، ستة منهم من خريجي إكليريكية القديسة حنة، وواحد من مدرسة رومة اليونانية، وواحد من الرهبانية الشويرية، إذ كان يعتقد بأنّ الوقت قد حان لتعيين أساقفة ذوي تنشئة جديدة تسمح لهم بإنهاض أبرشيّاتهم من الأتون الواقعة فيه من جراء نكبات الحرب العالمية الأولى(١٣٩).

واهتم خلال ولايته البطريركية القصيرة، التي دامت ست سنوات، بأمور ثلاثة:

آ) التثقيف

لقد كان غبطته يدرك حاجة رعيته إلى معاهد علمية تكون منبتاً لأمهات فاضلات مسيحيات شرقيات، بعدما رأى أن فتياتنا يتخرجن من المدارس المتفرقة على عوائد وطقوس غريبة عنهن، مما يقطع روابطهن بكنيستهن وكهنتهن. لذلك ما إن سنحت له الفرصة حتى اتفق مع راهبات المحبة، سنة ١٩٢١، على تأسيس فرع شرقي ينتمي إلى رهبانية البزنسون، تحت إشراف غبطته، يظل محافظاً على الطقس الشرقي. وما إن تأسس هذا الفرع حتى عمدت الراهبات إلى تأسيس عدة معاهد علمية باسم الروم الكاثوليك في القاهرة والاسكندرية ودمشق تتعوّد فيها التلميذات طقسهن الشرقي، إلى جانب تلقّيهن ثقافة علمية ووطنية عالية.

وقد أسّس غبطته، سنة ١٩٢٠، مدرستين في باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس، أولى للبنات وثانية للأحداث. واهتم ببناء الكنائس، منها كنيستان في دمشق وثالثة في السلط (شرقي الأردن)، كما بنى الدار البطريركية في الاسكندرية، وميتماً في دمشق(١٤٠).

ب) الأوقاف

إنّ مشكلة الأوقاف كانت تسبّب متاعب كثيرة لكنيسة الروم الكاثوليك، وتكلّفها نفقات باهظة سواء لدفع تكاليف الدعاوى أو لإرضاء ورثة بعض الأساقفة. فالأوقاف كانت تسجّل باسم الأسقف، لا باسم الأبرشية. لذلك توصل مع الجنرال فيغان الى حل هذه

---

(١٣٨) الأب الياس اندراوس البولسي: «الفاجعة الجلّى وفاة المثلث الرحمات البطريرك ديمتريوس الأول قاضي بطريرك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق ١٨٦١-١٩٢٥»، مقال في المسرّة، السنة ١١ (١٩٢٥)، ص ٦٨٦-٦٩٠.

(١٣٩) Zographos «Sa Béatitude Dimitri 1er Qadi, Patriarche d'Antioche et de tout l'Orient, Topotérite d'Alexandrie et de Jérusalem», Extrait du *Saudioun*, oct. 1925, pp. 185-187.

(١٤٠) الشماس، المرجع المذكور، ٣: ١٨٧.

المسألة. فأعطى الجنرال مهلة سنة لتفريغ العقارات من أسماء الأشخاص إلى أسماء معنوية، دون دفع رسوم الانتقال. وأخذ غبطته المبادرة إذ حوّل كل الأملاك التي على اسمه إلى اسم بطريركية الروم الكاثوليك. وفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى الأموال المسجلة باسمه في المصارف[١٤١]. بعد ذلك وجّه رسالة إلى الأساقفة والرهبانيات والجمعيات والمعاهد العلمية، في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٣، ليحذوا حذوه[١٤٢].

ج) المجمع الملّي

كان البطريرك قاضي يشعر بمدى الضرر الحاصل من جراء افتقار كنيسته إلى «نظام عام واضح وثابت يسدّد خطواتها ويوحّد جهودها وينعش أعمالها»[١٤٣]. لذلك شكّل لجنة، في مطلع عام ١٩٢٤، لتهيئة أعمال المجمع الملّي لوضع قانون خاص بكنيسته الملكية وحضر إلى بيروت شخصيًّا ليشرف على أعمالها. وما لبث أن انتقل معها إلى دمشق ليسهل عليه مراقبة أعمالها، وملاحقة الفصول التي تضعها ليتمكن من إرشادها وإبداء ملاحظاته. لكن المنيّة وافته قبل إنجاز هذا المشروع، فتأجّل عقد المجمع إلى عهد خليفته البطريرك مغبغب.

٤) عهد البطريرك كيرلّس التاسع مغبغب (١٩٢٥-١٩٤٧)

عيّن الكرسي الرسولي، بعد وفاة البطريرك قاضي، متروبوليت صور مكسيمس الصائغ مدبّرًا رسوليًّا على البطريركية، في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٥. وبناءً على تعليمات رومة، دعا المطران الصائغ أساقفة كنيسته إلى سينودس انتخابي، في ٣ كانون الأول (ديسمبر)، في عين تراز. إلاّ أن الأساقفة اعترضوا على المكان، فتمّ الاتفاق على دير المخلص في صربا[١٤٤].

وقد افتتح المجمع أعماله، في ٧ كانون الأول (ديسمبر)، بحضور ١٤ مطرانًا، ووكيل عن مطران صيدا. وأسفرت عملية الاقتراع عن انتخاب كيرلّس مغبغب بطريركًا لكنيسة الروم الكاثوليك. فأبرق قداسة البابا إلى غبطته مهنئًا، ومنحه الباليوم في أواخر حزيران (يونيو) عام ١٩٢٦.

والبطريرك الجديد هو رئيس أساقفة الفرزل وزحلة والبقاع منذ سنة ١٨٩٩، والذي قام بأبرز عملية إعمار في أبرشيته، فبنى أربعين كنيسة وأنطوشًا ومدرسة حتى أُطلق عليه لقب «المطران البنّاء»[١٤٥].

وقد نقل غبطته هذا اللقب من الأسقفية

(١٤١) راجع وصيته في المسرّة، السنة ١١ (١٩٢٥)، ص ٧٠٩-٧١١.

(١٤٢) اندراوس، المقال المذكور، ص ٦٩٧.

(١٤٣) المرجع السابق، ٦٩٤.

(١٤٤) أ. حاج، المرجع المذكور، ٢: ٤٢١.

(١٤٥) راجع نبذة عن حياته ودوره السياسي والديني خلال أسقفيّته على الفرزل وزحلة عند: وسام بشارة كبكب: **«دور المطران كيرلّس مغبغب في ولادة دولة لبنان الكبير»**، بحث في المسرّة، السنة ٨٠ (١٩٩٤)، العدد ٨٠٩، ص ٣٥٣-٣٨٤.

إلى البطريركية، فكان بنّاءً للكنيسة بشراً وحجراً. فاهتم بالكلمة، متوجّهاً إلى النفوس العطشى يروي تعطّشها إلى كلمة الله الحي. فاعتمد الوعظ والارشاد لتثقيف رعيّته مستعملاً وسيلة المناشير الرعويّة على طريقة البطريرك جحا، فأكثر منها حتى بلغت منشوراً في كل سنة ضمّنها مواضيع روحية واجتماعية وتاريخية. كما بنى عددا كبيراً من الكنائس في لبنان وسورية وفلسطين ورسالات شرقي الأردن والقطر المصري والعراق، واهتم بإرساليات السودان(١٤٦).

أما على صعيد الأبرشيات فقد قام البطريرك مغبغب بتحديد الكراسي الأسقفية بكاملها، فرسم ١٣ أسقفاً خلال ولايته. وفي عهده فصل شرقي الأردن عن بطريركية القدس وأبرشية الجليل، بعدها قرّر الكرسي الرسولي إحياء أبرشية بترا وفيلادلفيا وشرقي الأردن(١٤٧) وعيّن عليها الأب بولس سلمان، أمين سر غبطته، في ٥ حزيران (يونيو) عام ١٩٣٢. فتسلّم رعيّة تتألف من ٤٠١٥ مؤمناً يحيط بهم ١٠١٦٧ من الروم الأرثوذكس و٣٤٤٥ من اللاتين، يهتم برعايتهم ١٦ كاهناً من الاكليرس المحلي، وتحتضنهم ٧ كنائس و١٠ مدارس و٧ أناطيش(١٤٨).

وعلى صعيد العلاقات المسكونية أقام غبطته علاقات صداقة حميمة مع الكنيسة الأرثوذكسية. ولم تمر مناسبة إلا وعبّر فيها عن تقديره واحترامه لها. فقد كان يعي تماماً أنه في الظروف الحالية يجب السعي إلى الوحدة المسيحية بأي ثمن أمام تصاعد التحديات المادية من كل الأشكال(١٤٩).

أما على الصعيد الطقسي فقد حقق هذا العهد تجديداً طقسياً بارزاً إذ أثمرت جهود المطران الصائغ في سينودس تعنايل، المنعقد في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٦، تكليفاً رسمياً للآباء البولسيين بترجمة كتاب الأورولوغيون (السواعية) وللمطران الصائغ بتحسين ترجمة الانجيل المقدس المستعمل في القداس الإلهي. وظهرت السواعية بحلّتها الجديدة سنة ١٩٢٨، في حين أنجز الإنجيل المقدس سنة ١٩٢٩. وبعد نقل المطران الصائغ من صور إلى بيروت، تعذّر عليه إنهاء كتاب

---

(١٤٦) راجع حول إنشاءاته: Joseph TAWIL: «Cyrille IX Patriarche d'Antioche, d'Alexandrie de Jérusalem et de tout l'Orient», art.in *Le LIEN*, Année XII (1947), nos 7 et 8, pp. 11-16.

إبراهيم بك الأسود: كتاب تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، المجلد الثالث، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت ١٩٣٠، ص ٨٨: «الفاجعة الكبرى وفاة المطوّب الذكر البطريرك كيرلس التاسع المغبغب بطريرك انطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق ١٩٤٧–١٩٥٣»، مقال في المسرّة، السنة ٣٣ (١٩٤٧)، ص ٤٦٩.

(١٤٧) راجع حول هذا الموضوع: وسام كبكب: **«تاريخ إنشاء أبرشية شرقي الأردن للروم الكاثوليك»** بحث في مجلة المسرّة، ٧٠ (١٩٨٤)، ص ٦١٠–٦٢٢.

(١٤٨) الاحصاء مستقى من: محفوظات الجمعية البولسية، **سجل الرسالات**، سجل ١، ص ٣٧٤؛ ومن Mgr. Paul SALMAN, *Rapport sur les Missions Grecques-Catholiques du Nouveau Diocèse de Transjordanie*, imp. St.-Paul, Harissa (Liban), 1932, pp. 7, 8.

(١٤٩) TAWIL, *op, cit.*, p. 18.

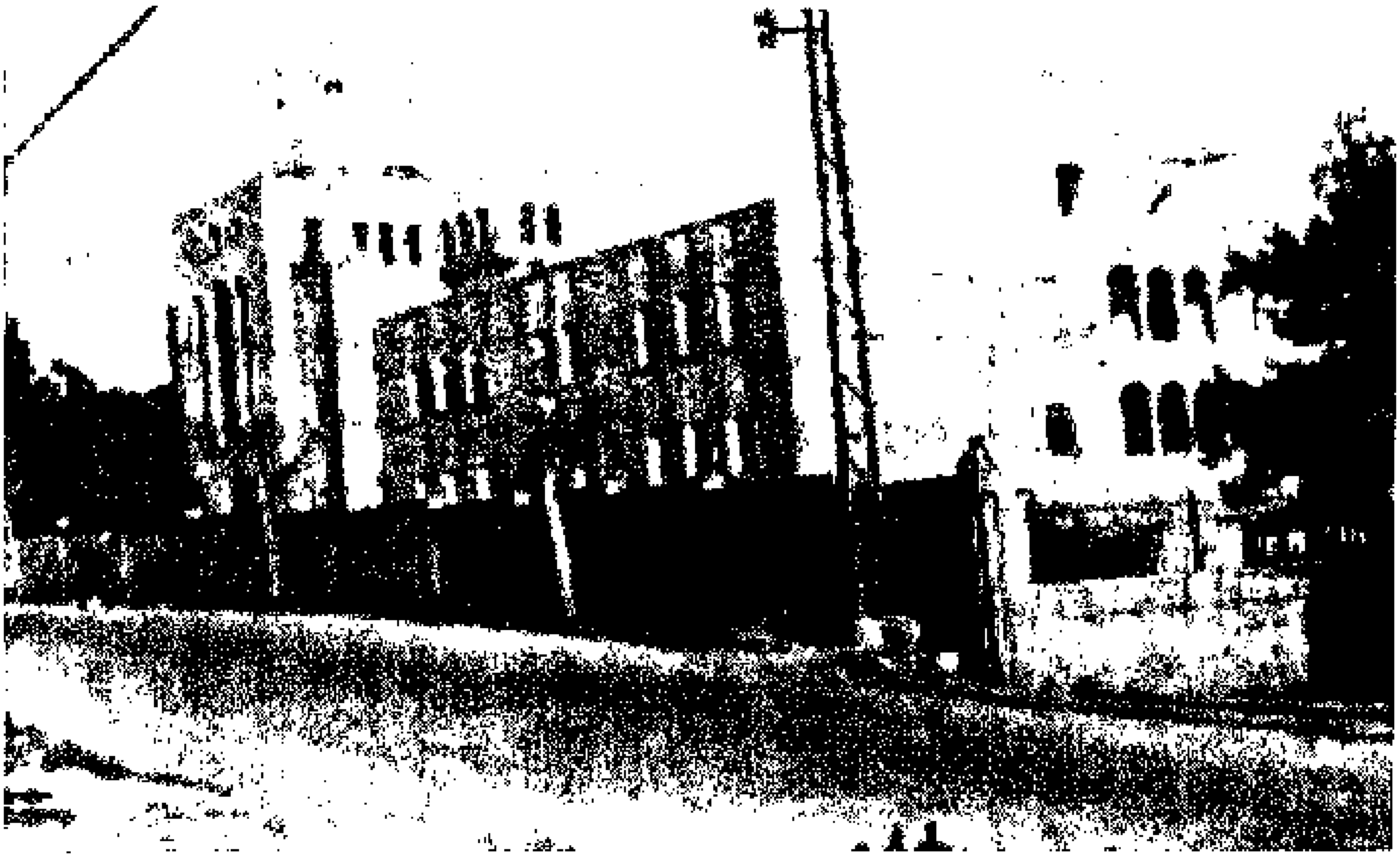

دير راهبات سيدة المعونة الدائمة المرسلات في حريصا

الرسائل فأوكل هذا الأمر إلى الآباء البولسيين الذين أخرجوه بكل عناية على صعيد التدقيق في الترجمة والصياغة اللغوية والطباعة المتقنة، مما حدا البطريرك مغبغب أن يأمر باستعماله في جميع رعايا الكنيسة الملكية(١٥٠).

بقي علينا أن نشير إلى إنجازين مهمين في الكنيسة الملكية في هذا العهد.

الإنجاز الأول هو تأسيس مرسلات سيدة المعونة الدائمة، الذي يعود الفضل فيه لعمق فهم الآباء البولسيين لشؤون العمل الرسولي، ولهمة المطران الصائغ الذي دعم المشروع مادياً وبعطفه الأبوي وتبنّاه قانونياً لتذليل المشاكل القانونية التي كانت تثيرها الدوائر الرومانية وهي منع تعلق الرهبانيات النسائية، ذوات النذور البسيطة، من حيث السلطة، برهبانية رجالية.

فقد خبر البولسيون ضرورة وجود راهبات للعمل الرسولي في الأوساط النسائية، وبين الأطفال، خصوصاً وأن البولسيين عجزوا عن اختراق هذه الأوساط، نظراً الى التقاليد السائدة في مجتمعنا الريفي الشرقي. والجديد في هذه الرهبانية أن البولسيين أرادوها جمعية راهبات تنطلق للعمل الرسولي بين المؤمنين، على غرار جمعية المرسلين، على أن تأخذ على عاتقها الإرشاد الروحي للنساء والأولاد،

(١٥٠) أنظر الرقيم البطريركي في كتاب **الرسائل**، مطبعة القديس بولس في حريصا، ١٩٣٥.
كما يمكن ملاحقة هذا النشاط الطقسي عند: وسام ككب، **جمعية المرسلين البولسيين**...، ص ٤٧١-٤٧٥.

والشؤون التربوية والصحية والاجتماعية. فتكون هذه الرهبانية مغايرة للرهبانيات النسائية السائدة في الكنيسة الملكية الكاثوليكية آنذاك، وقد كانت بمجملها رهبانيات محصّنة تنعزل فيها الراهبة عن الحياة المدنية للتأمل والصلاة وتقديس الذات.

وقد تفتحت بذور هذه الرهبانية في رسالة مرمريتا، إذ التحق بها آنسات معلمات، منذ أواخر عام ١٩٣١، يعشن حياة اختبارية مشتركة ومنظمة. وبعد خمس سنوات قضتها المعلمات في جو من الروح الرسولية العابقة بالمحبة والعطاء والتضحية، نضجت الثمار التي زرع غرساتها البولسيون في وادي النصارى، وروتها جهود مرسلين مندفعين في العطاء وبذل الذات أمثال بطرس الشامي ويوسف المعلوف وباسيليوس بريدي بتوجيه أبوي دقيق من الأب العام أنطوان حبيب ورعاية روحية متفانية من الأب يوحنا الشامي. فحظيت الكنيسة الملكية عام ١٩٣٦ برهبانية نسائية من المرسلات الشرقيات برعاية قانونية ودعم مادي وأبوي من المطران مكسيمس الصائغ(١٥١).

الإنجاز الثاني كان مجمع عام ١٩٣٩، الذي التأم بدعوة من البطريرك في عين تراز بين ٢٠ و٢٦ آب (أغسطس)، وشارك فيه ١٣ أسقفاً وتغيب اثنان بداعي السفر واثنان لأسباب صحية. وقد ناقش آباء المجمع مسائل كنسية قانونية وإدارية ومسلكية وطقسية «متآلفين حبّاً بعضهم لبعض وغيرة على خير رعاياهم وبلادهم»(١٥٢).

لقد خدم البطريرك مغبغب كنيسته طيلة ولايته الأسقفية التي دامت ٢٧ سنة (أيار (مايو) ١٨٩٩ - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥)، وولايته البطريركية التي دامت حوالى ٢٢ سنة (كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ - أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧)، بروح وثابة إلى العمل المضني والاهتمام بشؤون رعيّته فاستحق لقب «المطران البنّاء»، و«البطريرك البنّاء»، فنمت الكنيسة الملكية في عهده وتطورت حتى بلغ عدد المؤمنين ٢٤٧١٧٠ بين مقيم ومغترب و٣٠٧ خورنيات و٣٧٨ كنيسة يرعاها ١٣٨ كاهناً بين متبتّل ومتزوّج و١٤٩ مدرسة للصبيان تضم ١١٨٩٠ تلميذاً و٤٧ مدرسة للبنات تضم ٤٧٩٠ تلميذة. يضاف إليهم ٢٩٩ راهباً و٤٠ مرسلاً و١١٢ راهبة و٣٧ مرسلة(١٥٣).

لقد أثقلت كاهل البطريرك هموم كنيسته فبدأت قواه تنهار منذ شباط (فبراير) عام ١٩٤٧، لذلك قرّر غبطته بعد موافقة الكرسي

---

(١٥١) راجع في ما يخص تأسيس الرهبانية وانطلاقتها: كيكب، المرجع السابق، ص ٤١٥-٤٤٠؛ ويمكن الاطلاع على رأي الراهبات أنفسهن بمسألة التأسيس في المرجع المذكور سابقاً: *Maximos IV Pasteur et Père* الذي ترجمه إلى العربية الأب جورج خوام البولسي بعنوان **مكسيمس الرابع الراعي والأب**، ١٩٨٨، ٢٦٠ صفحة.

(١٥٢) المسرّة، ٢٥ (١٩٣٩)، ص ٥٧٦.
راجع قرارات المجمع في المرجع السابق، ص ٥٢٩-٥٣٣؛ **قرارات السينودس المقدس لطائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين المنعقد في المقر البطريركي بعين تراز من ٢٠ إلى ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٣٩**. مطبعة القديس بولس في حريصا، ٨ صفحات.

(١٥٣) المسرّة، ٣١ (١٩٤٥)، ص ٨-١٠.

الرسولي تعيين المطران بطرس كامل مدوّر معاوناً بطريركياً يخفف عن كاهله عبء المسؤوليات البطريركية في مرسوم صادر بتاريخ ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٣ تحت رقم ٣٦٩/١٦.

وفي ١٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٧، أصدر غبطته مرسوماً جديداً فوّض فيه المطران تفويضاً تامًّا بصفة وكيل مطلق في تصريف شؤون البطريركية الروحية والزمنية من قضائية وإدارية ومالية وثقافية وأدبية.

وكان غبطته قد أمضى آخر سني حياته في مصر بين القاهرة والاسكندرية. وفي ٨ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ كان الضعف الشديد قد شلّ جسده فأسلم روحه محققاً قول بولس الرسول «قد أتممت السعي وحفظت الإيمان فلم يبق لي إلاّ أن أنال إكليل المجد المعدّ لي».

إثر وفاة البطريرك مغبغب، عيّن الكرسي الرسولي المطران بطرس كامل مدور مدبّراً رسوليًّا على الكرسي البطريركي للإشراف على انتخاب بطريرك جديد. فدعى سيادته الأساقفة إلى سينودس انتخابي في عين تراز في ٢٦ تشرين الأول (نوفمبر) عام ١٩٤٧. فاختار آباء المجمع المطران مكسيمس الصائغ بطريركاً على كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك باسم مكسيمس الرابع.

٥) عهد البطريرك مكسيمس الرابع الصائغ (١٩٤٧-١٩٦٧)

ما إن تسلّم البطريرك الصائغ السدّة البطريركية حتى بدأ العمل بتنظيم شؤونها. فقرّر أن تعقد المجامع سنويًّا بدل أن تعقد مرة

البطريرك مكسيمس الرابع الصائغ

كل عشرات السنوات، وفي ذلك ملاحقة سريعة لكل مشاكل البطريركية وقضاياها. وأجرى بعض الإصلاحات في مركزي البطريركية في القاهرة والاسكندرية، وفي دمشق وأورشليم. واستقطب حوله نخبة من رجال الإكليرس، وعلى رأسهم مساعده المخلص المطران بطرس كامل مدوّر، الذين شكّلوا الدائرة البطريركية التي كانت تزوّده بالدراسات المختلفة المتعلقة بالقضايا التي تهمّ كنيسة الروم الكاثوليك. وكان من أبرزهم الأب أوريست كرامه، مستشار البطريرك ومطلق الحركة المسكونية في مصر وفي كنيسة الروم الكاثوليك؛ والمرحوم الأرشمندريت أدريانس شكّور الراهب الحلبي الذي تسلّم أمانة سر البطريركية طيلة عهد الصائغ، ويعود إليه الفضل في تنظيم محفوظات عين تراز، والآباء ناوفيطس إدلبي وهيلاريون كبوجي وبطرس

الراعي والياس نجمة وكلُّهم أصبحوا في ما بعد أساقفة معاونين أو أبرشيّين.

كما تابع خطة أسلافه في تثقيف أبناء كنيسته باللسان والقلم فاعتمد أسلوب الوعظ والخطب ودبّج ١٤ منشوراً راعوياً في أمور متفرقة روحية واجتماعية وسياسية وقانونية. والمطّلع على نصوص مناشيره وعظاته وخطبه يستقي منها تعاليم مشرقة حول كل المسائل التي واجهت كنيسته خلال ولايته. ولا عجب من هذه الملكة التي اقتبسها من إكليريكية القديسة حنة ومن جمعية المرسلين البولسيين التي خدم بين صفوفها من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩١٩، عاملاً على «زرع سلام الله في نفوس الشعب المسكين». فالواعظ برأيه لا يصل إلى القلوب ويؤثّر فيها إلاّ بمقدار ما يقترب من حقائق الإيمان وتعاليم الإنجيل(١٥٤). ولا يتمّ ذلك إلاّ بالاستعداد الطويل قبل الوعظ. فنراه لا يرتوي من الكتابة في تأليف العظات وزرعها بين الناس من خلال الرياضات الروحية التي قام بها في أبرشيات كنيسة الروم الكاثوليك كلها حتى أُحصي له بين عامي ١٩٠٦ و١٩١٩ حوالى ٧٥ رياضة، كانت بشهادة رجال الاكليرس «جدولاً سلسبيلاً يسيل رقة وعذوبة أو إذا شئت فقل حنطة ممتازة منقّاة على الطبلية»(١٥٥). لذلك نراه يحمل رسالته هذه على كتفيه، إلى المهام التي أُنيطت به، سواء في أبرشية صور أو السدّة البطريركية. وفي كل من هذه المهمات كانت المسؤولية تكبر وتعظم، لذلك تتوسع المواضيع وتتعدد لتطال كل مؤمني بطريركية الروم الكاثوليك.

اهتم غبطته كذلك بتوطيد دعائم كنيسته فعيّن خلال ولايته ١٧ أسقفاً(١٥٦) من بينهم ١١ من خريجي أكليركية القديسة حنّة المتحلّين بصفات القداسة والتواضع والتقوى والتفاني في العمل والثقافة العالية، ليساعد أبرشيّات كنيسته على النمو والازدهار. كما أنشأ عدداً من الكنائس والمدارس والإكليريكيّات والمياتم في بطريركيّات دمشق والاسكندرية وأورشليم(١٥٧).

وعندما رأى أنّ رسالة وادي النصارى، التي كان يتحمل أعباءها الآباء البولسيون، قد تهيأت لتصبح أبرشية، فصلها عن أبرشية طرابلس وأحيا أبرشية اللاذقية وتلكلخ ومصياف وسلّم مقاديرها إلى الأب بولس أشقر البولسي سنة ١٩٦١.

ويعود إلى عهد البطريرك الصائغ الفضل في إنشاء الصندوق الطائفي العمومي لمساعدة الكهنة المعوزين والأبرشيات الفقيرة، ومساندة مشاريع الكنيسة الملكية. وقد أُقرّ هذا المشروع في سينودس آب (أغسطس) عام ١٩٥٠ بناءً على اقتراح المطران جاورجيوس حكيم.

(١٥٤) محفوظات راهبات سيدة المعونة الدائمة في حريصا: خواطر الأب يوسف الصائغ البولسي، (مخطوط)، خواطر ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٠٧.

(١٥٥) «غبطة السيد مكسيمس الرابع الصائغ البطريرك الجديد على الطائفة الملكية»، مقال في المسرّة، السنة ٣٣ (١٩٧٤)، ص ٥٣١.

(١٥٦) راجع لائحة الأساقفة في كتاب مكسيمس الرابع الراعي والأب، المرجع المذكور، ص ٧٧-٧٨.

(١٥٧) راجع إنشاءاته في المرجع السابق، ص ٦٧-٨١، ٨٥-٩٢، ٩٥-١٠٠.

كما قرّر سينودس أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٨ إنشاء لجنة طقسية دائمة برئاسة المطران بطرس كامل مدوّر للنظر في كل الكتب الطقسيّة الرسميّة قبل إعادة طبعها. وأكّد سينودس آب (أغسطس) عام ١٩٥٩ على ضرورة هذه اللجنة وأسند رئاستها إلى المطران فيليبس نبعة، وعيّن الأب ناوفيطس إدلبي أميناً للسر على أن تشكّل عضويتها من موفد من كل رهبانية ومن قبل الجمعية البولسية.

وتميّز هذا العهد بتحديد تنظيم المحاكم الكنسية على قواعد حديثة تضمّنت تشكيل المحاكم وطريقة عملها، ولوائح الدعاوى، والرسوم القضائية.

وكان مصير رعايا الروم الكاثوليك في بلاد الاغتراب الشغل الشاغل الذي أخذ حيّزاً مهمّاً من اهتمام غبطة البطريرك الصائغ. فالمغتربون توزّعوا في الأميركيتين وأفريقيا، وتنظّموا بشكل فردي بهمة بعض الكهنة أمثال كيرلّس عنيد في باترسون وبرنار غصن في نيويورك(١٥٨). وتعود علاقة الصائغ مع المغتربين إلى عهد البطريرك قاضي عندما كلّف غبطته المطران الصائغ القيام بزيارة رعائية إلى أميركا الشمالية سنة ١٩٢١-١٩٢٢. لذلك ما إن تسلّم الصائغ السدّة البطريركية حتى وضع نصب عينيه كيفية الحفاظ على رعايا الروم الكاثوليك الذين بدأوا يتوافدون إلى أميركا وأفريقيا بكثافة، وكيفية تأمين الدعوات الكهنوتية لهم. وكانت صعوبات جمة تعترض طريق تعيين أساقفة لهؤلاء المؤمنين لأن الدوائر الرومانية كانت تفرض على كل الكاثوليك، لأي كنيسة انتموا، الخضوع للأسقف اللاتيني المحلي.

لذلك سعى غبطته مع الرهبانيات لتأسيس رسالات لها في بلاد الاغتراب، فافتتح المخلصيّون إكليريكية لهم في ميتهوين ماسيشوسيتس، في ٣٠ أيار (مايو) عام ١٩٥٤، بموافقة المجمع الشرقي(١٥٩). وظلّ البطريرك يبذل الجهود الكثيفة حتى أثمرت مساعيه، في أواخر عهده، في ٩ آذار (مارس) عام ١٩٦٦، بتعيين إكسرخساً على الملكيّين في الولايات المتحدة وهو الراهب الحلبي يسطينس نجمة. فكان هذا التعيين الخطوة الأولى التي أدّت إلى خطوات لاحقة أتاحت للروم الكاثوليك أن ينعموا برئيس كنسي خاص بهم.

أما في أميركا الجنوبية فقد تمكّن غبطته من تحريك موضوع التنظيم المستقل للشرقيين الكاثوليك في البرازيل، وقد كان ينعم برضى قداسة البابا بيوس الثاني عشر. وما لبث قداسته أن عيّن ثلاثة نواب عامّين لكردينال البرازيل كامارا: الأول على الكنيسة الأكرانية، والثاني على الكنيسة المارونية والثالث على الملكيّين وهو الأرشمندريت الياس كويتر. وفي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٦٠، أنجزت الخطوة الثانية على عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي منح الأب كويتر درجة الأسقف المساعد

---

(١٥٨) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(١٥٩) المرجع نفسه.

للكردينال. وكان عدد الملكيّين يربو على الخمسين ألفاً(١٦٠).

أما في الأرجنتين فقد حقّق غبطته الأمنية بعد بضع سنوات من إنجاز البرازيل، فأقرّ التنظيم المستقل للملكيّين وتعيّن عليهم نائب عام هو الأب الياس اندراوس البولسي.

أما في فنزويلا فكان الأمر مختلفاً، إذ كتب الأب جورج فاخوري، سنة ١٩٥٧، إلى المهاجر في كاراكاس السيد جورج ديك، طالباً منه تأمين بعض المشتركين لمجلة «المسرّة». فأجابه: «قبل أن تطلب إليّ اشتراكات لأجل المسرّة، أسعفونا وأرسلوا إلينا كاهناً يهتم بنا... !»(١٦١).

وهكذا تدخّل البطريرك الصائغ، بعد تجاوب المطران بلانكو، رئيس أساقفة كاراكس، مع الجمعية البولسية التي أرسلت الأب غفريل ديك للاهتمام بالجالية الحلبية. وظل غبطته حتى أواخر سنيه يبذل الجهود لتعزيز أوضاع الكنيسة الملكية في فنزويلا، والتي حظيت بعد وفاته، في ٣٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٨، بمعبد على اسم القديس جاورجيوس في كاراكاس ككنيسة قانونية للرعية وتعيّن الأب ديك أول كاهن رعية رسمي.

أمّا في أفريقيا فقد طلب الكرسي الرسولي من غبطة البطريرك إيفاد كاهن إلى القارة الأفريقيّة لزيارة أبناء الكنيسة الملكيّة وتفقّد أوضاعهم. وقد كلّف غبطة البطريرك الصائغ الأب بولس أشقر البولسي الذي جال على المغتربين في أفريقيا بين كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٩ وتشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥١. وقد وضع الأب أشقر خلال زيارته تلك إحصاء كاملاً عن المهاجرين اللبنانيين والسوريين وسائر أقطار الشرق الأدنى من مسيحيين ومسلمين. ويطلعنا الأب أشقر، في مذكّراته، عن هذه الرحلة، عن زيارة قام بها لأمبراطور الحبشة هيلاسيلاسي في ٧ تموز (يوليو) عام ١٩٤٩ كان لها أثر كبير في وضع أبناء الجالية في أديس أبابا.

وعلى صعيد العمل المسكوني، أقام غبطته أطيب العلاقات مع الكنائس الأرثوذكسية، خصوصاً في مصر. فقد صرّح خريستوفورس الثاني، بطريرك الاسكندرية الأرثوذكسي لدى خروجه من لقاء مع الصائغ: «حتى الآن، كانت علاقاتي ببطريركية الروم الكاثوليك ضئيلة للغاية، ولكني منذ الآن فصاعداً سأصلح الماضي، وسوف أزوركم مراراً». إلاّ أن المرض منع البطريرك خريستوفورس من تحقيق رغبته.

كما تعرّف الصائغ إلى البطريرك المسكوني أثيناغوراس الأول في مصر. وتحولّت العلاقة البروتوكوليّة سنة ١٩٥٩ إلى صداقة حميمة بين البطريركين(١٦٢)، وتعمّقت خلال زيارة قداسة البابا بولس السادس إلى

---

(١٦٠) المرجع نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.

(١٦١) المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٨؛ كيكب: جمعية المرسلين البولسيين. ص ٣٥٨-٣٥٩.

(١٦٢) مكسيمس الرابع الراعي والأب، ص ٨٨، ٧٩-٨١.

القدس سنة ١٩٦٤، حيث التقى غبطة البطريرك الصائغ البطريرك المسكوني في الدار البطريركية الأرثوذكسية في القدس(١٦٣)، وفي اللقاء التاريخي الذي جرى بين الحبرين، يوم ٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦٤، عندما قام البطريرك المسكوني برد الزيارة إلى البطريرك الصائغ(١٦٤)، وفي لقاء ثالث جرى في استنبول عندما قام البطريرك الصائغ بزيارة الكرسي المسكوني في الفنار، في ٣٠ أيار (مايو) عام ١٩٦٤. لقد كان في هذا اللقاء تأكيد من الطرفين أن باب الحوار المسكوني، الذي فتحه البابا بولس السادس على مصراعيه، لن يستطيع أحد إغلاقه البتّة. وكانت الكلمة الأخيرة في هذا اللقاء للبطريرك المسكوني: «كم تأخرنا حتى عرفناكم، وكم تأخرنا حتى أحببناكم» تعبّر عن مدى التقارب الذي أوجده البطريركان في العلاقات بين الكنيستين الأرثوذكسية والملكية الكاثوليكية(١٦٥).

لقد خاض البطريرك الصائغ أشرس معاركه وأكثرها تشريفاً في المجمع الفاتيكاني الثاني. وإنه يتوجب علينا كتابة المجلدات إذا ما أردنا أن نسترسل في دور كنيسة الروم الكاثوليك في المجمع(١٦٦)، لذلك سوف نكتفي ببعض الإشارات المهمّة والمعبّرة.

لقد كان دور الروم الكاثوليك بارزاً في المجمع في مرحلة تهيئة مسودات الأبحاث المجمعية وفي المناقشات وفي التعديلات الكثيرة التي طرأت على الدساتير العقائدية والقرارات والبيانات قبل أن تأخذ شكلها النهائي.

ونشير إلى أمور أربعة كان فيها لموقف البطريرك الصائغ وأساقفته صدى بالغ.

الأمر الأول هو جلسة الافتتاح التي عدل غبطته عن المشاركة فيها، خصوصاً وأن البروتوكول الاحتفالي كان يفرض على البطاركة تقبيل ركبة البابا، فهذه المسألة كانت غير مقبولة البتّة. وكان موقف غبطته الاستنكاف عن حضور الاحتفال والجلسات لتقليص الاذلال إلى أقصى حد ممكن. صحيح أن غبطته لم يشارك في حفل الافتتاح، إلاّ أنّ مقرّ مكسيمس الصائغ تحوّل إلى مقر للمجمع بعد أن توافد إليه المستفسرون من آباء المجمع، وهذا ما رفع من معنويات غبطته ودفعه إلى المشاركة انسجاماً مع مواقف أساقفته الذي عبّر عنه المطرانان جاورجيوس حكيم وفيلبس نبعة قائلين: «نحن مقتنعون بأن رومة تسيء معاملة بطريركيّتنا، وسوف ندافع عن موقفنا. ولكن يجب حضور المجمع والتحدّث فيه بقوة من أجل تحقيق ذلك... والجميع ينتظر منا أن نقوم بدور رائد إبّان المجمع... ثم إن أساقفة دون بطريركهم لا يمثّلون الكنيسة الملكية تمثيلاً

---

(١٦٣) راجع «البابا في الأماكن المقدسة»، مقال في المسرّة، السنة ٥٠ (١٩٦٤)، ص ١٣٣-١٣٤.

(١٦٤) المرجع السابق، ص ١٤٧.

(١٦٥) راجع: الأب جورج فاخوري: «مكسيمس الرابع يلتقي أثيناغوراس»، خبر في المسرّة، السنة ٥٠ (١٩٦٤) ص ٥٢٤-٥٣١.

(١٦٦) يمكن ملاحقة دور الروم الكاثوليك في المجمع الفاتيكاني الثاني في كتاب: *L'Eglise Grecque Melkite Catholique au Concile* الذي عربه الدكتور بشارة صارجي، عن مركز الأبحاث الرومي الملكي الكاثوليكي في القدس.

حقيقياً. فإما ننسحب كلنا معاً، وإما على البطريرك أن يبقى، وأن يعمل معنا»(١٦٧).

الأمر الثاني هو اللغات المستعملة في المجمع، خصوصاً اللغة الليترجية. وقد انقسم آباء المجمع بين استعمال اللغة اللاتينية أو اللغات الحية. واحتدم النقاش مدة ساعتين دون جدوى حتى أعطي البطريرك الصائغ الكلام. فتكلّم بالفرنسية خارقاً نظام المجمع، وألقى خطاباً تاريخياً أكّد فيه «أن المسيح ورسله قد تكلّموا بلغة معاصريهم. كما أن الكنيسة قد قبلت دائماً في احتفالاتها الليترجية اللغات جميعها. أما اللغة اللاتينية فقد أمست لغة ميتة، فيما الكنيسة حيّة دائماً وينبغي عليها التكلم بلغة مؤمنيها اليوم»(١٦٨) فجاء كلامه كدوي انفجار في كنيسة القديس بطرس، فعلا التصفيق حاداً من المشاركين في المجمع.

الأمر الثالث هو مناقشة مخطط الوحدة الكنسية حيث كان يفترض بالمداخلة أن لا تزيد عن الدقائق العشر. وبما أن الوقت لا يكفي فقد اتّبع الروم الكاثوليك خطة ذكية بأن تناوب خمسة منهم الكلام بشكل متتالي، فكان أن عبّرت كنيستنا عن رأيها على مدى ساعة تقريباً في العمل المسكوني. وقد تناوب على الكلام غبطة البطريرك بالفرنسية ونقل المطران حكيم كلامه إلى اللاتينية، ثم تبعه المطران نبعة، والمطران الزغبي، والمطران إدلبي، والأب العام الشويري أثناسيوس حاج. وكانت مداخلاتهم طليعية، كشفت عن المسؤولية التي يتحمّلها الكرسي الرسولي الروماني في الانقسامات الكنسية(١٦٩).

الأمر الرابع كان «معجزة المجمع» عندما تناول البطريرك الصائغ موضوع الجماعيّة الأسقفيّة، مصرّحاً بأن الدوائر الرومانية يجب ألاّ تنفرد بمساعدة البابا. فمصفّ الأساقفة المتّحد برئيسه أسقف رومة هو صاحب السلطة العليا في الكنيسة على قدم المساواة مع البابا بصفته رئيس هذا المصفّ عينه. فما من جسم دون رأس، ولكن ما من رأس أيضاً دون جسم(١٧٠).

لقد حقّقت كنيستنا إنجازات كبرى في المجمع الفاتيكاني الثاني، تعود إلى عمق فهمها لدور كنيستنا بين الشرق والغرب وفي العمل المسكوني.

لقد دامت ولاية البطريرك الصائغ حوالى عشرين عاماً، قضاها في العمل الحثيث لتحقيق الوحدة المسكونية وإنعاش المسيحية. وقد توفي في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٧ عن عمر يناهز التاسعة والثمانين. فالتأم السينودس المقدس في عين تراز، في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، بدعوة من المدبّر البطريركي المطران بطرس كامل مدور، وانتخب المطران جاورجيوس حكيم بطريركاً باسم مكسيمس الخامس.

---

(١٦٧) مكسيمس الرابع الراعي والأب، ص ١٢١-١٢٢.

(١٦٨) المرجع نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

(١٦٩) المرجع نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(١٧٠) المرجع نفسه، ص ١٢٩-١٣٠.

٦) **عهد البطريرك مكسيمس الخامس حكيم (١٩٦٧-٠٠٠٠):**

تسلّم البطريرك مكسيمس الخامس السدّة البطريركية وهي في ذروة التنظيم والازدهار. لذلك استمر غبطته بالتعاون مع المعاون البطريركي، والعقل المخطط للبطريركية، المطران بطرس كامل مدور، واستعان بعدد من المستشارين وعيّنهم أساقفة معاونين بطريركيّين، أمثال الياس نجمة وبطرس راعي ويوحنا منصور، بالإضافة إلى نيقولاوس الحاج الذي كان قد عيّنه البطريرك الصائغ. وحافظ على نظام السينودسات السنوي، الذي كان ساريًا منذ عهد سلفه، لدرس شؤون الكنيسة في الشرق والشتات. وعمل على تجديد الهيئة السينودسية فرسم ٣٢ أسقفًا حتى الآن. منهم ستة في مطلع عهده، بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧١. وعمل على إنشاء مجلس أعلى لفعاليات الروم الكاثوليك في لبنان لدرس كل القضايا والمشاكل التي تعترض حياة الكنيسة والوطن، كما أحيا المجلس الملّي في دمشق ووضع له قانونًا ينسّق أعماله ويمكّنه من إدارة مهمّته بفعالية(١٧١). وعمل على بعث وتنظيم الجمعية البطريركية لفرسان صليب أورشليم المقدّس، التي أسّسها البطريرك الصائغ، بأن وضع لها، في ٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٩، قانونًا جديدًا مفصّلاً. وأعاد تنظيم مجلة الرابطة التي أسسها في مصر، وانتقلت معه إلى أبرشيّة عكّا، وحملها معه إلى السدّة البطريركية، ناطقة باللغة الفرنسية، رابطة بين البطريركية وأبنائها في الشرق وبلاد الاغتراب(١٧٢). وأنشأ غبطته سلسلة من المدارس والإكليريكيات في لبنان وسورية، وأبرزها مشروع إكليريكية القديسة حنّة في الربوة. كما أنشأ غبطته عددًا من الكنائس والمؤسسات الاجتماعية، وعزّز وضع المدارس البطريركيّة.

وعلى صعيد الاغتراب: كان غبطته يتفقّد شؤون الرعية بشكل متواصل ليحافظ على الرابط بين الكنيسة في المهجر والكنيسة الأم. ودافع عن حق الكنيسة في المهجر بتنظيم أمورها وفق شرعها الخاص، لا سيما في ما يختص بالكهنة المتزوجين. وعمل على تنظيم الرعايا في بلاد الاغتراب، وسعى وآباء السينودس المقدس مع الكرسي الرسولي لإنشاء أبرشيات ملكية تحضن الروم الملكيّين في الشتات، فأثمرت المساعي بأن توطّدت أركان أبرشية البرازيل منذ عام ١٩٧١، وأبرشية نيوتن وسائر الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٧٧، وكندا عام ١٩٨٠، وأوستراليا عام ١٩٨٧. وتمكّنوا من إنشاء إكسرخسيات في المكسيك وفنزويلا (١٩٩٠) وباريس (١٩٥٠) ومرسيليا (١٩٦٧). أما في رومة فقد نشأت أولى الرعايا في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٢ بعدما وهب قداسة البابا بولس السادس كنيسة القديسة مريم إن كوزمدين (Santa Maria in Cosmedin) لغبطته. وفي بلجيكا نشأت أولى الرعايا سنة

---

(١٧١) **مكسيمس الخامس حكيم بطريرك أنطاكية وسائر المشرق**، إعداد الأب جان جنبرت، طبع بمناسبة وضع حجر الأساس لمشروع الربوة السكني في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٨٤، ص ٢٠.

(١٧٢) المرجع السابق، ص ١٣ - ١٤.

١٩٨٠ بهمّة بعض الكهنة البلجيكيين المنضمين إلى الطقس البيزنطي، وعلى رأسهم الأب سيرج ديسّي.

وبقي الهاجس الأكبر كيف نربط هذا العدد من المهاجرين المتنامي سنة بعد سنة بالوطن الأم. فعقِب تشجيع السينودس المقدس والمجلس الأعلى للروم الكاثوليك في لبنان، وبطلب من غبطة البطريرك، ولدت فكرة تأسيس اتحاد عالمي للروم الملكيّين الكاثوليك والذي عقد مؤتمراً في مونتريال، بين ٥ و٧ أيار (مايو) عام ١٩٨٦، وضع شرعة الاتحاد العالمي للروم الملكيّين الكاثوليك (U.M.C.I.)(١٧٣).

وعلى صعيد العمل المسكوني: فقد درس آباء السينودس المقدس، منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن، ما لا يقل عن ٣٧ وثيقة، بين مذكرة وتقرير لجنة ومشروع، تتناول العمل المسكوني. وقد شكّل سينودس عين تراز، في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٨، لجنة مسكونية بطريركية برئاسة المطران كامل مدوّر، وعضويّة الأساقفة ناوفيطس إدلبي ويوسف طويل وجاورجيوس حدّاد وغريغوريوس حدّاد، يضاف إليهم الرؤساء العامون الأربعة، إلاّ أن الخطوات المسكونية كانت محدودة بسبب الموقف السلبي الذي تقفه الكنائس الشرقية الأرثوذكسية من الكنائس الشرقية الكاثوليكية. ولطالما اعتبر الروم الأرثوذكس الروم الكاثوليك عقبة أمام الاتحاد. فجبابرة العمل المسكوني: بولس السادس، البطريرك المسكوني أثيناغوراس، مكسيمس الرابع الصائغ، قد رحلوا على التوالي، وعدنا بالعمل المسكوني إلى الوراء. إلاّ أنّ بريقاً من الأمل لمع في عهد البطريرك حكيم والفضل مشروع لسيادة المطران الياس الزغبي، ففي ٢٥ آذار (مارس) عام ١٩٧٤، قدم سيادته اقتراحاً إلى اللجنة المسكونية يهدف إلى إقامة وحدة فورية بين شطري الكنيسة الانطاكية على أن تبقى كنيستنا في شركة كاملة مع كرسي رومة الرسولي.

والمهم في هذا الاقتراح أنه، وإن لم يثمر، حرّك العمل المسكوني بعد جمود فترة طويلة. ومشروع المطران الزغبي كما عبّر عنه في مجلة المسرّة الغرّاء يدعو «إلى إيجاد صيغة للوحدة بين شطري البطريركية الأنطاكية الخلقيدونية، أي بين بطريركيتي الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس، تكون بمثابة مرحلة اتحادية أولى، على أن ترضى بهذه الصيغة وتباركها الكنيستان الرومانية والأرثوذكسية. فتعود كنيستنا إلى الوحدة مع البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية مع بقائها على الشركة مع كرسي رومة الرسولي». على أن لا يكون هذا الانتساب المزدوج الغاية القصوى والأخيرة، بل «تجربة تعايش في واقع الحياة ومرحلة تمهيدية لصيغة اتحادية أوسع تشمل الكنيستين الكبيرتين، الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية، اللتين تؤلّفان معاً كنيسة المسيح الجامعة ولا يتمّ بدون اتحادهما

(١٧٣) **دليل كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في العالم**، صدر عن بطريركية أنطاكية وسائر المشرق والاسكندرية وأورشليم، تنسيق الأب جورج باليكي البولسي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٤٢.

تحقيق التراث المسيحي الكامل»(١٧٤). إلاّ أنّ الكرسي الرسولي رفض الاقتراح. أما المطران زغبي فقد ثابر على تطوير اقتراحه وأصدر عام ١٩٨١ كتابه «ألسنا جميعاً منشقين؟»(١٧٥)، أعلن فيه تجاوزه لتحفظات الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وأنه يعتبر نفسه في حالة اتحاد مع الاثنين في آن واحد. مبادراً إلى تحقيق مشروع «الشركة المزدوجة» في ذاته. مصرّحاً: «أعلن أنني أعيش وسوف أموت في اتحاد تام بالكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الممثلة محليّاً ببطريركية أنطاكية للروم الأرثوذكس، وأعترف بأن الاثنتين مقدّستان رسوليتان متساويتان جوهرياً في الايمان وفي الرسولية وفي الأسقفيّة وفي العبادة الكنسيّة وفي إقامة الأسرار»(١٧٦).

إن إعلان سيادة المطران زغبي شركته المزدوجة ظل موقفاً شخصياً، وإن تحوّل إلى صرخة نبوية أطلقها سيادته إلى الرعاة لإعادة وحدة القطيع المشتّت. إلاّ أن هذه الصرخة تحولت في سينودس تموز (يوليو) عام ١٩٩٦ إلى خطوة متقدّمة على طريق الوحدة المسكونية بعد التطور الذي حصل من خلال اللّجنة اللاهوتية الدولية المشتركة بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنائس الأرثوذكسية. فقد أُعلنت وحدة الإيمان في العقائد الأساسية في أربع وثائق بين عامي ١٩٨٢ و١٩٩٣، وبقي نقطة للدرس وهي «دور أسقف رومة في الكنيسة والمجامع المسكونية».

فقد قرّر آباء السينودس أنه، بعد كل الانجازات المسكونية، واستناداً إلى الوحدة هي جوهر الإيمان، فإن «المشاركة في القداسات هي اليوم ممكنة، وهم يقبلون بها تاركين مدى وطرق تطبيقها لما سوف يقرّره معاً سينودساً كنيستي الروم الملكيّين الكاثوليك والروم الأرثوذكس».

وقد أعلن اباء السينودس بقاءهم في الشركة الكاملة مع كنيسة رومة الرسولية، وسعيهم في الوقت عينه إلى التحاور معها لتحديد ما يقتضيه دخولهم في الشركة مع كنيسة أنطاكية الأرثوذكسية.

لقد أكّد آباء السينودس تطلّعهم بشوق إلى اليوم الذي يعود فيه فرعا كنيسة أنطاكية الملكيّة إلى وحدة البطريركية في كنيسة واحدة وبطريركية واحدة. وهم يؤكّدون أنّ إعادة الوحدة لا تعني انتصاراً لأحد أو ذوباناً لكنيسة، بل الرجوع إلى الوحدة التي كانت سائدة قبل انفصال ١٧٢٤.

لقد تتوّجت جهود رواد الحركة المسكونية أمثال أوريست كرامة والمطران بطرس كامل مدوّر والبطريرك مكسيمس الرابع والمطران الياس زغبي، واللجنة المشتركة المكوّنة من السادة الأساقفة جورج خضر والياس عودة وسليم بسترس والياس زغبي، بقرار سينودسي جريء من قبل كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك بانتظار موقف سينودس الروم الأرثوذكس والكرسي الرسولي.

---

(١٧٤) المطران الياس زغبي: «حول الوحدة المسيحية ووحدة البطريركية الأنطاكية»، مقال في المسرّة، السنة ٦١ (١٩٧٥)، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(١٧٥) Mgr. Elias ZOGHBY: *Tous Schismatiques?*, Beyrouth, 1981.

(١٧٦) *Ibid.*, p. 150

كما أنه يجدر التوقف، في هذا العهد، عن حدثين مهمين:

الأول: مؤتمر الإكليرس

في السينودس الأول الذي عقده البطريرك حكيم في عين تراز، في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٨، درس اباء المجمع موضوع لقاء بين الرؤساء الكنسيين والاكليرس، تمشيًا مع روح المجمع الفاتيكاني، وإفساحًا للمجال أمام الكهنة لدرس المسائل التي تخصهم وتخص الكنيسة.

وقد التأم المؤتمر الأول في دير يسوع الملك (لبنان)، من ١١ إلى ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٦٩، وبحث المواضيع التالية(١٧٧): روحانية الكاهن وثقافته، وضع الكاهن الاجتماعي والمادي.

وقد التأم المؤتمر سبع مرات بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨٠. إلاّ أن الظروف المأساوية التي عصفت بلبنان بعد ذلك التاريخ أوقفت المؤتمرات اللاحقة. وما زال مؤتمر الإكليرس متوقفًا حتى الآن على الرغم من تحسن الأوضاع السياسية والأمنية.

الثاني: المؤتمر العام لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

لقد أكد المجمع الفاتيكاني الثاني دور جماعة المؤمنين الذين يؤلفون «شعب الله» في كنيسة المسيح. من هذا المنطلق بدأت تنمو فكرة «المؤتمر العام» في السينودس المقدس وتدور حول ضرورة إشراك المومنين في خدمة المسيح وكنيسته المقدسة(١٧٨). وتمكنت الأمانة العامة للجان السينودس برئاسة سيادة المطران غريغوار حداد من بلورة فكرة رائدة في محاولة تلاقٍ أقرّها السينودس سنة ١٩٨٢ وتعذّر تنفيذها حتى صيف عام ١٩٨٣. وقد حدّدت الأمانة العامة للمؤتمر هدفًا مزدوجًا: من جهة التباحث والتفاعل حول موضوع المؤتمر، ورفع التوصيات إلى السينودس المقدس الهيئة المؤهّلة لاتخاذ القرارات، ومن جهة ثانية القيام باختبار حياتي لوحدة هذه الكنيسة على صعيد كل فئاتها. وهكذا التأم ثلاثة مؤتمرات(١٧٩) بين عامي ١٩٨٣ و١٩٩٢، شارك فيها مندوبون من أبرشيات الروم الكاثوليك المختلفة وناقشوا مواضيع المجالس الرعوية والحركات الرسولية والتربية المسيحية، وكنيستنا: تاريخ ورسالة، وكنيستنا: التجسد والانثقاف.

لقد تجاذب المؤتمر تياران، الأول يميل إلى المثابرة على عقد اللقاءات على الرغم من عدم إقرار أي توصية من توصياته حتى الآن، فإيجابيات اللقاء كثيرة وتستحق العناء. الثاني يميل إلى اعتبار المؤتمر قد تحوّل إلى مسرح لترف

(١٧٧) دليل كنيسة الروم...، ص ٣٩.

(١٧٨) الكلمة الافتتاحية لصاحب الغبطة مكسيموس الخامس حكيم في المؤتمر العام الأول، راجع المسرّة، السنة ٦٩ (١٩٨٣)، ص ٥١٨.

(١٧٩) راجع أعمال المؤتمر الأول في: المسرّة، السنة ٦٩ (١٩٨٣)، العددان ٦٩٣-٦٩٤ (خاص)، ص ٥١٣-٥٩٢.

راجع أعمال المؤتمر الثاني في المسرّة، السنة ٧٧ (١٩٩١)، العدد ٧٩١ (خاص)، ص ٨٩٧-١١٢٠.

راجع أعمال المؤتمر الثالث في المسرّة، السنة ٧٩ (١٩٩٣)، العدد ٨٠٥ (خاص)، ص ٨٤٩-١١٢٠.

فكري يمكن الاستغناء عن عناء تحضيره والاكتفاء بنشر المواضيع المثارة في المجلات الملكيّة الكاثوليكية. ومع الأسف توقف المؤتمر، دون أن ينتصر تيار على الآخر، بل لأسباب لا مجال لذكرها الآن تاركاً فراغاً كبيراً في كنيستنا التي كانت سبّاقة في الشرق لعقد مؤتمر الإكليرس والمؤتمر العام.

خامساً: هيكلية كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك

تتألف كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك من: البطريرك، مصف الأساقفة، الإكليرس، العلمانيين.

*** البطريرك**

هو رأس الكنيسة الملكيّة والرئيس الروحي الأعلى له، والممثل الوحيد الشرعي لها، يترأس السينودس، ويختار الأساقفة بالتشاور مع آباء السينودس، ويرسمهم. يعاونه مستشارون برتبة أساقفة معاونين بطريركيّين، ونوّاب بطريركيّون ينوبون عنه في إدارة الكراسي البطريركية التي تخضع لولايته، وهي:

١) **الكرسي الأنطاكي**: مقره مدينة أنطاكية، وانتقل إلى دمشق إثر المفاوضات التي حصلت بين الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع والسلطان المملوكي بيبرس، فاعترف الملك الظاهر بيبرس برئاسة البطاركة الأنطاكيين وسمح بانتقالهم من أنطاكية إلى دمشق، وكان ذلك في عهد البطريرك الأنطاكي ثيودوسيوس الرابع (١٢٦٨-١٢٧٦)(١٨٠).

٢) **كرسي دمشق**: كان الكرسي الثاني من حيث الأهمية بعد كرسي صور. وكان الكرسي رئاسة أسقفية تتبع لها ١٣ أسقفية. إلاّ أنه، مع انتقال البطاركة إليها، تحوّل مطرانها من رئيس أساقفة إلى وكيل بطريركي.

٣) **كرسي الاسكندرية**: هي بطريركية قائمة بذاتها، لا يتبعها أبرشيات. فهي أبرشية واحدة مقرها في الاسكندرية والقاهرة معاً وتشمل ولايتي السودان وليبيا.

٤) **كرسي أورشليم**: نمت كنيسة الروم الكاثوليك ببطء في القدس بين بطريركيّتي الأرثوذكس واللاتين، وقد عين لرعايتهم المطران ملاتيوس فندي سنة ١٨٣٨. إلاّ أن معظم الذين تولوا النيابة البطريركية بعده كانوا من الكهنة، حتى عام ١٩٦١، عندما عادت البطريركية إلى تعيين أساقفة كنوّاب بطريركيّين.

يتبع الكرسي البطريركي كذلك مقرّان في لبنان:

الأول في عين تراز، أُعدّ ليكون إكليركيّة، ثم تحوّل في عهد البطريرك الصائغ إلى مقر صيفي للبطريركية. وهو يجسد تراث كنيسة الروم الكاثوليك بسبب السينودسات العديدة التي عقدت فيه، وبسبب مكتبته الثمينة

(١٨٠) د. أسد رستم: **كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى**، منشورات المكتبة البولسية، جونيه (لبنان)، ١٩٨٨، الجزء الثاني، ص ٢٣٩-٢٤٠.

ويقول الأب يوحنا العجيمي في كتابه: **العخيكون** (مخطوط)، ص ٣٢١، إن هذا الانتقال تم سنة ١٥٣٠م.

بالمخطوطات والوثائق والتي تعرّضت للنهب والسرقة في خريف ١٩٨٣، وما يزال مصيرها مجهولاً. في حين تعرّض المقر للقصف والحريق فدمّرت أجزاء منه.

الثاني في الربوة، حيث أنشأت البطريركية، سنة ١٩٧٧، إكليركية القديسة حنّة الكبرى بدلاً من القدس وحوّلت جناحًا منها لإقامة غبطة البطريرك ودوائره.

ويتبع الكرسي البطريركي أيضًا ثلاث نيابات بطريركية هي: نيابة العراق، وقد أُلحقت، منذ عدة سنوات، بأبرشية شرقي الأردن، نيابة الكويت، نيابة استنبول.

كما يتبع الكرسي البطريركي أربع رعايا في أوروبا بانتظار تأسيس أبرشية أوروبا الغربية، وهي: باريس (١٩٥٠)، مرسيليا (١٩٦٥)، رومة (١٩٦٥)، بلجيكا (١٩٨٠).

* **مصفّ الأساقفة**

الأسقف هو رسم السيد المسيح الحبر الأزلي، والأسقفيّة هي ملء الكهنوت وذروته العليا. فالأسقف هو ملاك كنيسته كما دعاه يوحنا في سفر الرؤيا. وهو الراعي الأول للأبرشيّة والرئيس الروحي والقاضي والأب لإكليرسه وشعبه.

هناك نوعان من الأساقفة يرتبطان بشكل الأبرشيّة، والنوعان لا يختلفان إلاّ بحق التقدم، يتساويان بكل حقوق الأسقفية بحسب الشرع الكنسي. فنحن نميّز بين المتروبوليت وهو الأسقف المعيّن على مدينة رئيسة بالترتيب الكنسي، وهناك رئيس الأساقفة وهو الأسقف المعيّن على أسقفية عادية. من هذا المنطلق نجد في كنيستنا الكراسي المتروبوليتية والكراسي الأسقفية والكراسي المنشأة حديثًا خصوصًا في بلاد الاغتراب، إذ لم يكن لها وجود في التاريخ.

آ) **الكراسي المتروبوليتيّة**: وهي ست: صور، حلب وسلوقية وقورش، بصرى، وحوران وجبل العرب، بيروت وجبيل وتوابعهما، يبرود وحمص وحماه، اللاذقية وطرطوس وتلكلخ ومصياف.

ب) **الكراسي الأسقفية**: وهي سبع: صيدا ودير القمر وتوابعهما، طرابلس وعكار، عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل، الفرزل وزحلة والبقاع، بانياس وتوابعها، بعلبك، بترا وفيلادلفيا وشرقي الأردن.

ج) **أبرشيات الاغتراب**:
أبرشية نيوتن وسائر الولايات المتحدة (١٩٧٦)، أبرشية ساو باولو وسائر البرازيل (١٩٧١)، أبرشية كندا (١٩٨٠)، أبرشية أوستراليا (١٩٨٧)، أبرشية فنزويلا (١٩٩٦).

* **رجال الإكليرس**

أُقيم رجال الإكليرس منذ فجر الكنيسة لمساعدة الأساقفة في إرشاد النفوس وتوزيع الأسرار والوعظ الإنجيلي. إلاّ أن الكنيسة الشرقية كانت تعاني الكثير، من خلال الأحداث التي تلاحقت منذ القرن السابع حتى عشية نشأة الروم الكاثوليك سنة ١٧٢٤، من وضع رجال الإكليرس. في حين كان المرسل اللاتيني يقضي عشر سنين ونيفًا في الدرس ومباشرة أعمال الرياضة الروحية، فضلاً عمّا

هي عليه رهبانياته من الجاه والمال، فإن ثقافة بعض رجال الإكليرس الملكي الكاثوليكي لم تتعدّ حفظ بعض المعلومات المتفرقة في علم اللاهوت الأدبي(١٨١). أما الجهاز البشري فكان يتألّف من عدد ضئيل من الكهنة المتزوجين، أُضيف إليهم من بعد عدد من الرهبان بعد تأسيس الرهبانيات الملكية. ولم تتطور أحوالهم الثقافية وتتحسن، إلاّ مع إنشاء إكليريكيّة القدّيسة حنّة عام ١٨٨٢. وكانت أبرشيات الروم الكاثوليك ترزح تحت عبء النقص الفادح في الدعوات الكهنوتية. فلقد كانت حاجة الكنيسة الملكية الكاثوليكية إلى الكهنة تزداد يوماً بعد يوم. ففي الربع الأول من القرن العشرين كانت هذه الحاجة ملحّة: فأبرشية صور مثلاً لم تنعم إلاّ بأربعة كهنة، ينهم بعض النفور، وهي بحاجة إلى ثلاثة آخرين، فيما الكاهن الواحد يعتني بأكثر من قرية واحدة(١٨٢). ولم تستطع إكليريكية القديسة حنّة في القدس أن تسدّ هذه الحاجة، فلقد خرّجت، منذ تأسيسها حتى إقفالها سنة ١٩٦٩، ٢٨٩ كاهناً، ومن سنة ١٩٦٩ حتى ١٩٧٧، ٦ كهنة، ومن عام ١٩٧٧ حتى الآن ٦٣ كاهناً، أي ٣٥٨ كاهناً على مدى ١١٤ سنة(١٨٣).

ورغم النشاط والازدهار اللذين أذكيا الحياة الرهبانية منذ القرن الثامن عشر، فإن هذه الحياة لم تستطع سدّ الفراغ الكامل الحاصل في القرى المختلفة التابعة لأبرشيّات الكنيسة الملكية. فالرهبانيات المخلّصيّة والشويريّة والحلبيّة كانت تعاني، وما زالت، نقصاً من الناحية البشرية. والمطّلع على الجدول المرفق عن وضع الكنيسة الملكية الكاثوليكية الحالي يرى عمق المأزق الذي تعانيه من تناقص عدد الدعوات الكهنوتية بشكل خطير بات يستلزم تحركنا جديًّا وجذريًا من قبل الأساقفة والكهنة والرهبان والراهبات والأسر المسيحيّة والمدارس والجامعات والحركات الرسولية...(١٨٤).

والوضع الحالي لرجال الاكليرس في كنيسة الروم الكاثوليك هو على الشكل التالي(١٨٥):

أ) الكهنة

هم خدمة الرعايا، يُقسَمون إلى قسمين: كهنة متزوّجين بحسب التقليد الشرقي، وكهنة

---

(١٨١) محفوظات الجمعية البولسية: **مراسلات المطران معقد**، رسالة إلى البطريرك، بتاريخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٥.

(١٨٢) محفوظات الجمعية البولسية: ملف **مراسلات الأب بولس سور**، رسالة إلى المطران الصائغ بتاريخ أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ و٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٧.

(١٨٣) استناداً إلى صكوك الرسامات في سجلات الاكليريكية في الربوة، ومستندات سينودس تموز (يوليو) ١٩٩٦.

(١٨٤) **سينودس تموز (يوليو) ١٩٩٦**: البيان الختامي.

(١٨٥) اعتمدنا في هذا الجزء على المعلومات الواردة في دليل **كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في العالم**، وهي معلومات تعود إلى تقارير سنة ١٩٨٧. أما الأرقام الواردة في الاحصاءات الحديثة فقد استقيناها من وثائق سينودس تموز (يوليو) ١٩٩٦، ومن قدس الأرشمندريت جورج حدّاد، أمين سر البطريركية.

دير القديس يوحنا الصابغ في الشوير مهد الرهبانية الباسيلية الشويرية

متبتّلين: يبلغ عددهم اليوم في الشرق وبلاد الاغتراب ٢٨١ كاهنا: ١٥٠ متبتلاً و١٣١ متزوجاً. يخدمون رعايا ١٦ أبرشية في الشرق و٥ أبرشيات وعدد من الرعايا المتفرقة في بلاد الاغتراب.

ب) الرهبان

يعدّون ١٨٣ راهباً يتوزعون على ثلاث رهبانيات قانونية وجمعية مرسلين.

١. **الرهبانية الباسيلية المخلّصيّة**: تأسست سنة ١٦٨٣ على يد مطران صيدا وصور الملكي افتيميوس الصيفي. وهي من أعرق الرهبانيات في تاريخ كنيستنا لأنها حضنت في ديرها الرئيسي في جون (الشوف)، دير المخلّص، حركة الكثلكة، وأوت البطاركة والأساقفة المضطهدين والملاحقين من قبل الأرثوذكس والسلطات العثمانية. ولأن الدير الرئيسي يضمّ مخطوطات ووثائق مهمة جداً تُعتبر من كنوز تراث الروم الملكيين الكاثوليك.

قد تعرّضت الرهبانية إلى نكسة خطيرة بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٥ إذ قصفت وفجّرت أديرة في جبل لبنان، ونهبت محتوياتها وصودرت إيقوناتها ومخطوطاتها. إلاّ أنها تمكّنت من تخطي الأزمة بعد نقل الدير الرئيسي مؤقتاً إلى جعيتا. وقد استعادت اليوم أديرتها وأملاكها وهي تتابع رسالتها في المحيط الذي غرست فيه منذ قرون ثلاثة وفتحت منه كوات إلى العالم لتضيء حياة الكثير من المؤمنين في بلاد الاغتراب. وقد قدّمت هذه الرهبانية إلى الكنيسة ثمانية بطاركة و٥٨ أسقفاً.

٢. **الرهبانية الباسيليّة الشويريّة**: أسسها جماعة من الرهبان الحلبيّين المنفصلين عن دير البلمند. أسسوا دير مار يوحنا الصابغ في الخنشارة، سنة ١٧١١. ضمّت في حنايا

تاريخها قسماً مهماً من تراث الروم الكاثوليك والشرق، فقد احتضنت الرهبانية في ديرها الرئيسي أول مطبعة في الشرق بالحرف العربي التي أسّسها الشمّاس عبد الله الزاخر. إلاّ أنها تعرضت لهزّة عنيفة سنة ١٨٢٩، إذ انشطرت إلى قسمين: الرهبانية البلديّة (الشويرية) والرهبانية الحلبية. وعلى الرغم من ذلك يعتبر الأب أثناسيوس حاج قب الرهبانيّتين شقيقتين، تعمل فيها روح واحدة، كنهر أبى أن تنحصر مياهه من ناحية واحدة، فانقسم إلى شعبتين مكونا دلتا، ليتسنى له أن يؤمّن الخصب والحياة في مجال أوسع(١٨٦)، وقد قدمت الرهبانية للكنيسة ثلاثة بطاركة و٣٤ أسقفاً.

٣. **الرهبانية الباسيلية الحلبية**: تأسست إثر انقسام الرهبانية الحناوية إلى شويريّة وحلبيّة سنة ١٨٢٩. وقدّمت للكنيسة كردينالاً، أكاكيوس كوسا، وعشرة مطارنة (منذ ١٨٢٩).

٤. **جمعية المرسلين البوليسيّين**: تأسست سنة ١٩٠٣ على يد مطران بعلبك المستقيل جرمانس معقّد (+١٩١٢)، غايتها إقامة الرياضات الروحيّة وإلقاء المواعظ وتعليم قواعد الديانة وأصول التعليم المسيحي بشرح واضح بسيط. وعلى الرغم من حداثتها فقد قدّمت للكنيسة بطريركاً و١٢ أسقفاً.

ج) **الراهبات**: عددهن اليوم حوالى ٣٧٢ راهبة ينتمين إلى ٥ رهبانيات، ثلاث رهبانيات باسيليّات: المخلصيّات والشويريّات والحلبيّات؛ جمعية مرسلات المعونة الدائمة، ورهبانية للخدمة: راهبات الخدمة الصالحة.

١. **الراهبات المخلصيّات**: بدأت الرهبانية على شكل راهبات محصنّات، تحوّلن إلى راهبات مرسلات منذ سنة ١٩٤٩، تاريخ تشكيل أول هيئة قانونية، وتحوّل اسمها إلى «جمعية المرسلات المخلصيّات».

٢. **الراهبات الشويريّات**: تأسست الرهبانية الشويرية منذ عام ١٧٣٠ على يد مجموعة من العابدات الحلبيّات اللواتي انتقلن إلى دير سيدة البشارة في زوق مكايل سنة ١٧٣٧. ثم توالت أفواج الراهبات، مثالاً يحتذى في الزهد والتوبة، ونمت الحياة الرهبانية المحصّنة في ظلال المحبّة والمشورات الإنجيلية، ضمن إطار الليترجية والانقطاع إلى العبادة، في ظل القوانين القائمة على الصلاة والعمل. وقد تأثرت الراهبات بانقسام الرهبان الحنّاويّين إلى فرعين: بلدي وحلبي، فانقسمن بدورهن، سنة ١٨٣٠، إلى راهبات شويريّات، وراهبات حلبيّات. وفي سنة ١٩٤٠ بدأت ملامح تحوّل جديد في الرهبانية يقوم على الانتقال من الحياة المحصّنة إلى الحياة الرسولية. وقد ثبّت ذلك قداسة البابا، بإرادة رسولية صادرة بتاريخ ٢١ أيار (مايو) عام ١٩٥٣، معلناً تأسيس «جمعية خيرية مرسلة قائمة بذاتها».

---

(١٨٦) الأب أثناسيوس حاج قب: صفحة من **تاريخ الرهبانية الباسيلية الشويرية الملكية**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٨، ص ١٥.

دير سيدة البشارة للراهبات الباسيليات المخلّصيّات

٣. **الراهبات الحلبيّات:** نشأن عن انقسام الراهبات الباسيليّات إلى راهبات شويريّات وراهبات حلبيّات، كما ذكرنا. وفي سنة ١٩٤٥ بدأت أول محاولة جديدة للتحدّي في حياة الرهبانية بإيحاء وتوجيه من الأب أكاكيوس كوسا، أمين سر اللجنة البابوية لتدوين الحق القانوني الشرقي في رومة آنذاك وتم التحول القانوني والنهائي في ٢٥ تموز (يوليو) عام ١٩٥٣، وتحولت الراهبات إلى جمعية مرسلات تعمل في الحقل الرسولي.

٤. **مرسلات سيدة المعونة الدائمة:** تأسست جمعية المرسلات سنة ١٩٣٦ بسعي حثيث مشترك من الجمعية البولسية، في عهد الأب أنطوان حبيب، وسيادة مطران بيروت مكسيمس الصائغ. هي الرهبانيّة الوحيدة المتعلقة بالكرسي البطريركي. ديرها الرئيسي، على اسم سيدة المعونة الدائمة، يقع في حريصا، ويضم مركز الرئاسة العامة، ومراكز التنشئة الرهبانية، إلى جانب دير أساسي في مرمريتا.

٥. **راهبات سيدة الخدمة الصالحة:** تأسست هذه الرهبانية سنة ١٩٥٣ على يد المطران يوسف معلوف، رئيس أساقفة بعلبك، لتأمين الخدمة المنزلية في الأديرة والمطرانيات والمياتم والمآوي والمستشفيات وإدارة المدارس ضمن حدود أبرشية بعلبك.

* **العلمانيون**

لم يكن أبناء الرعايا الملكيّين الكاثوليك يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بكنيستهم، فكانوا يبتعدون عنها في كثير من الأحيان، ويمتنعون عن ممارسة شعائرها الدينية، لأي خلاف قد يقع بينهم وبين الكاهن، أو «استياء من تصرف بعض الكهنة»(١٨٧). وإن هذا الانقطاع قد

(١٨٧) محفوظات الجمعية البولسية، **سجل الرسالات**، سجل رقم ١، رسالة طرابلس، ص ١٧١، فقرة ٢٧٣ (تورين).

يحصل أيضاً بسبب عادات وتقاليد محلية كما كان شائعاً على سبيل المثال في جديدة مرجعيون: فالأهلون كانوا يمتنعون عن دخول الكنيسة إذا توفي أحد الأقارب، حتى يمر على وفاته عيد(١٨٨). كما أثّرت الصراعات العائلية المحلية في عدم الالتزام بممارسة الشعائر الدينية، خصوصاً إذا انحاز كاهن الرعية إلى أحد الفريقين المتصارعين(١٨٩). وبصورة عامة، ساعدت هذه الأوضاع على تفشّي حالة من الجهل الديني وصلت إلى حد أن بعض أهالي راشيا الفخّار الشيوخ كانوا لا يعرفون الاعتراف والمناولة(١٩٠).

إلاّ أن الآفة الكبرى التي كانت تفرض هذا الجهل فرضاً هي الزواج المبكر الذي كان يتمّ عادةً عند الفتيان بين سن الخامسة عشرة والعشرين. أما عن الفتيات فكان من الممكن حصوله في سن الرابعة عشرة(١٩١). ومن السهل أن ينعكس هذا التقليد الاجتماعي على وضع الطفل التربوي مدنيّاً وروحيّاً، خصوصاً إذ كان الولدان اليافعان ضعيفين من الناحيتين التربوية والدينية.

ومع أن أبرز مهام الإرساليات التبشيريّة التي أمّت لبنان كانت تعليم الفتيان والفتيات، فإن هذا الأمر لم يكن ينفّذ بدقّة، خصوصاً بعد تحول هذه الإرساليات إلى تعاطي شؤون الناس الحياتية، فضلاً عن أن تحوّلها إلى النشاط التربوي لم يتمّ إلاّ بعد انطلاق المبشرّين الأميركيّين في هذا الميدان (١٨٣٤). واقتصر نشاطها في الفترة السابقة على التبشير وتعزيز علاقة الكنيسة الشرقية بروما(١٩٢)، عبر ليتنة خطيرة كانت تحصل في بعض المناطق، كما حصل عام ١٨٨٤ في القدس عندما كان المطران معقّد نائباً بطريركياً. ولعلّ أبرز ما نستنتجه من ذلك الحدث أن محاولات الإرساليات في جذب الأرثوذكس إلى الكنيسة الكاثوليكية لم تكن تتم بوسائل عقائدية وتعليمية وتوجيهيّة بقدر ما كانت تتمّ بالمال تارة وبالتفسيحات الكنسية طوراً(١٩٣)، مع الخطر المتزايد من إفراغ الكنائس الشرقية من رعاياها بعد ليتنتها.

رغم جميع المحاولات التي بذلتها الحكومات المحلية لسدّ الفراغ الناشئ عن النقص في منجزات الإرساليات التربوية، ومع أن حكومة المتصرفية في عهد فرنكو باشا (١٨٦٨-١٨٧٣) قد جعلت التعليم الابتدائي إجبارياً، فإن عدد المدارس لم يزد في وقت

---

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ١٤٢، فقرة ٣١٩.

(١٨٩) من الأمثلة على ذلك خلافات آل الشامي وآل الخرياطي في جون، وآل الهندي وآل الطرابلسي وعبد النور في كفرحونة، وآل حرّو وآل الفرح في عين بورضاي - بعلبك. راجع المصدر نفسه، ص ١٢٦ و١٦٣.

(١٩٠) المصدر نفسه، ص ١٤٠، فقرة ٣١٦.

(١٩١) مسعود ضاهر: **تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤-١٩٢٠**، دار الفارابي، بيروت، طبعة أولى، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٤، ص ٢٢٨.

(١٩٢) كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، ص ١٧٣.

(١٩٣) الخوري عيسى أسعد: **الطرفة النقية في تاريخ المسيحية**، مطبعة حمص، ١٩٢٤، ص ٢٣٨.

واحد على أربع وعشرين أو خمس وعشرين مدرسة موزعة في مختلف أرجاء لبنان المتصرّفيّة(١٩٤)، مع لفت النظر إلى أن أنظمة مدارس المعارف لم تكن تنعش التعليم الديني.

وقد اتضح لنا بصورة جلية، إنطلاقاً مما وقع بين أيدينا من معلومات مستقاة من بعض المراجع والمخطوطات، أن هذا الوضع المدرسي لم يكن يتمتع به إلاّ المجمّعات السكنية الكبرى، نعني بها المدن الكبرى في الجبل والولايات ومراكز الأقضية. أما القرى الصغيرة والنائية، فقد ظلت على واقعها التاعس اجتماعياً وتربوياً، مع جواز حصول بعض الاستثناءات العرضية(١٩٥). ففي الوقت الذي كنا نجد فيه الكثيرين من شبان الروم وشاباتهم، في قضاء مرجعيون، يقرأون ويكتبون بفضل انتشار الإرساليات البروتستانتية التي كانت تسهم في تثقيف الناشئة، محاولةً استمالتها دينياً، كانت مناطق الشمال على عكس ذلك تماماً(١٩٦) ولا سيما في القرى التابعة لأبرشية طرابلس.

وإذا أضفنا الضغوط التي كانت تمارس على المسيحيّين في بعض المناطق المختلطة(١٩٧)، تكوّنت لدينا فكرة واضحة عن حالة هؤلاء المسيحيّين في أوائل القرن العشرين.

ولا شك في أن انتشار الإرساليات اللاتينية والبروتستانتية التي كانت تسعى إلى استمالة الشباب ولا سيما المثقفين، وتغلغل الماسونية في صفوف الشعب المسيحي(١٩٨)، قد ساعدا بوضوح على إذكاء الجهل الديني لأصول ممارسة الشعائر الدينية، وإن اختلفت الوسائل المستعملة.

وما من دليل أسطع برهاناً على الوضع الديني المتردّي الذي كانت تواجهه الرعايا، من ذلك الوضع الذي واجهه المطران جرمانس معقّد خلال أسقفيته على بعلبك (١٨٨٦-١٨٩٤)، وذلك بالرغم من نشاط المرسلين اليسوعيّين في البقاع منذ فترة مبكرة. فقد كانت الأبرشية تشكو أسوأ حالات التخلّف المادّي والاجتماعي والروحي. إذ كانت منطقة الرأس (رأس بعلبك) تضم ١٦٠٠ من الروم الكاثوليك، خمسون منهم فقط مطّلعون على أصول الديانة، والباقون «لا يعرفون سر التثليث والتجسد ولا شيئاً عن النصرانية». أما القاع فكان فيها زهاء ٨٠٠ نفس، يجهلون قواعد الديانة الضرورية. ولما استفسر المطران عن سبب هذا الجهل، أُجيب: «يا سيدنا، ما أحد،

---

(١٩٤) الصليبي، المرجع المذكور، ص ١٧٩.

(١٩٥) كسكان جرجوع مثلاً الذين تميزوا بثقافتهم، وسكان دير ميماس الذين كان بعضهم متضلعاً من الكتاب المقدس، أنظر سجل الرسالات ١، ص ١٨٢ و١٣٨.

(١٩٦) رفيق التميمي ومحمد بهجت: ولاية بيروت، مطبعة الإقبال، بيروت ١٩١٦، أعادت دار لحد خاطر نشره بالتصوير عام ١٩٧٩، جزءان في مجلد واحد، ص ١٨٤.

(١٩٧) نورد مثلاً مستقى من سجل الرسالات ١، ص ١٨١. ففي قرية جباع، جنوبي لبنان، منعت الأكثرية الشيعية الأقلية المسيحية من تعليق جرس للكنيسة، ولم يعلق إلاّ بعد احتلال الحلفاء للبنان. ولم تبنَ قبة الكنيسة إلاّ عام ١٩٢٣.

(١٩٨) كان في برعشيت ١٧٥ عضواً ماسونياً. أنظر المصدر نفسه، ص ٢٤٠ (نفى سكان برعشيت الحاليين صحة هذه المعلومات).

لا سألنا ولا علّمنا لا مطران ولا خوري، ونحن من أين نعرف»(١٩٩).

وهذا الأمر يطرح على البحث موضوع وضع رجال الإكليرس وعلاقتهم بالرعية. فإن تدخل الكهنة في الشؤون المتعلقة بأبناء الرعايا، ومشاطرتهم الحزازات المحلّية قد أضعفا من شخصيتهم وعلاقتهم بالمؤمنين، فضلاً عن قلة عددهم، إذ كانت أكثر القرى بأمسّ الحاجة إلى كهنة(٢٠٠). إن سبب عدم وصولهم إلى القرى كافة هو الجوع والحوادث المتفرقة تارة(٢٠١)، وإهمال بعض الكهنة لواجباتهم الروحية تارة أخرى، حتى إن الكهنة في مصر كانوا يتهمون بأنهم «بكم»، إذ قد تخلوا عن مهمة نشر كلمة الله(٢٠٢). هذا وإن قسماً كبيراً من كهنة الرعايا كان يفضل الخدمة في المدن بدل القرى(٢٠٣). فها هو المطران معقّد مثلاً يستغيث من بعلبك طالباً كهنة، ولا سيّما وإن الحاجة ملحّة لخدمة قريتين عنده(٢٠٤).

لذلك كانت كنيسة الروم الكاثوليك عاجزة عن تأمين الخدمة الروحيّة لكثير من القرى النائية. صحيح أن تأسيس جمعية المرسلين البولسيين أوصل كلمة الله ورسالة الخلاص إلى كثير من القرى الفقيرة والمهملة التي لم يهتم أحد من رجال الدين برعايتها. إلاّ أن قلة عدد المرسلين أدّى إلى استفادة بعض المناطق فقط من الرعاية الروحية كقرى حوران ووادي النصارى وضواحي دمشق وصور ومصر، في حين ظلت مناطق واسعة بحاجة ماسّة إلى الرعاية.

إلاّ أن الوضع بدأ يتغير منذ مطلع القرن العشرين، أقلّه على الصعيد الثقافي والتربوي. فقد أثمرت إكليريكية القديسة حنّة فئة من الشباب المثقف التي أنارت محيطها بثقافتها وعلمها، فضلاً عن تعزيز المدارس البطريركية والأسقفيّة والرهبانية في لبنان وسورية ومصر، ممّا سمح لهذه المؤسّسات بتخريج فئات من الشباب والشابات المثقفين الذين خدموا محيطهم على الصعيد الفكري والثقافي التربوي والمهني، حتى غدا أبناء كنيسة الروم الكاثوليك اليوم من بين أبرز الفئات ثقافةً واتقاناً للغات العربيّة والأجنبيّة في العالم العربي والفرنكوفوني.

سادساً: دور الروم الكاثوليك

إن دور أبناء الروم الكاثوليك في المجتمعات التي يعيشون فيها هو مكمّل لدور الروم الملكيّين قبل عام ١٧٢٤. ومن الطبيعي أن يبرز في حقبة مبكرة رجال الإكليرس لأنهم الوحيدون الذين كانوا مؤهلين للقيام بالدور الثقافي والفكري إنطلاقاً من الامكانات التي كانت متوفرة لهم ولم تتوفّر لأبناء الرعايا.

(١٩٩) **مراسلات المطران معقّد**، رسالة إلى البطريرك بتاريخ ٢١ نيسان (أبريل) عام ١٨٨٩.

(٢٠٠) **سجل الرسالات ٩**، ص ١٩٣.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٢٠٢) محفوظات الجمعية البولسية، **مراسلات الأب بولس سيور البولسي**، رسالة من الكونت نقولا دبانة في ١٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠.

(٢٠٣) **مراسلات معقّد**، تاريخ ١٤ تموز (يوليو) ١٨٩٢.

(٢٠٤) المصدر نفسه، تاريخ ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٢.

لذلك نجد معظم الرعيل الأول ممن رافق انطلاقة النهضة الثقافية، في مطلع القرن السابع عشر، هم من الإكليرس أمثال ملاتيوس كرمة، متروبوليت حلب، والايقونومس ميخائيل بجع، والبطريرك مقاريوس الثالث الحلبي، الذين غرفوا من الليترجية والتاريخ والخطب الدينيّة.

في أواخر القرن السابع عشر ظهر فريق جديد من الروّاد، الذين تتلمذوا على يد بطرس التولاوي الماروني، خريج رومة. وأبرزهم: مكسيمس حكيم الراهب الحنّاوي والأسقف والبطريرك، والشاعر الراهب الحنّاوي نيقولاوس صايغ (†١٧٥٦) والجدلي الشهير عبد الله الزاخر († ١٧٤٨).

تسجل في هذه المرحلة أيضاً بروز أسماء عديدة، أهمها: القس ثاوفيلس فارس قب (†١٧٤٨)، الخوري يواكيم مطران قب (†١٧٦٧)، والمؤرخ الأب يوحنا العجيمي (†١٧٨٥)، والراهب المخلصي يوسف بابيلا (†١٧٨٧)، والمؤرخ نقولا الترك (†١٧٢٨).

وقد برز في اللاهوت اقتيميوس الصيفي، والزاخر، وجرمانس آدم (†١٨٠٩) الذي حاربته رومة وحرّمت كتبه، والبطريرك مكسيمس مظلوم. وتجدر الإشارة إلى الانتاج الليترجي الملكي الوحيد غير المنقول عن اليونانية: «**الخدمة الليترجية الكاملة لعيد الجسد**»، وقد وضعها متروبوليت حلب مكسيمس حكيم والراهب الحناوي نيقولاوس الصايغ. وكانت مستوحاة من عمق التراث الشرقي الروحي واللاهوتي مع شيء من الانفتاح على اللاهوت الغربي.

وقد سجّل التاريخ للروم الكاثوليك أنهم أول من أسس مطبعة بالحرف العربي في لبنان والشرق. وقد أُنشئت بادئ ذي بدء في حلب، على يد المطران ملاتيوس كرمة، ثم نقلت إلى دير القديس يوحنا الصابغ في الخنشارة، فاهتم بها الشماس عبد الله الزاخر الذي طوّرها وحسّنها. إلاّ أنها اضطرت إلى التوقف عن العمل سنة ١٨٩٩ بسبب مزاحمة المطابع العصريّة لها.

أما في القرنين التاسع عشر ومطلع العشرين فقد أسهم الملكيون بكثافة في النهضة العربية. فبرزت أسماء عديدة أهمها:

- **في التاريخ**: الراهب الحنّاوي حنانيا المنيّر (†١٨١٥)، ميخائيل الصباغ (†١٨٦١)، الراهب أنطون بولاد المخلصي (†١٨٧١)، الراهب كيرلّس الحدّاد المخلّصي (†١٨٩٠)، المطران غريغوريوس عطا (†١٨٩٩)، وغيرهم...
- **في الأدب والشعر**: المعلم بطرس كرامة (†١٨٥١)، الشيخ حبيب اليازجي (†١٨٧٠)، الشيخ ناصيف اليازجي (†١٨٧١)، فرنسيس المراش (†١٨٧٣)، الشيخ خليل اليازجي (†١٨٨٩)، الشيخ إبراهيم اليازجي (†١٩٠٦)، جميل المدوّر (†١٩٠٧)، وغيرهم...
- **في الصحافة**: سليم عنحوري، مؤسس مجلة مرآة الشرق (١٨٧٩)، أمين الشميّل، مجلة الحقوق (١٨٨٦)، جرجس ميخائيل نحاس، الجريدة المصرية (١٨٨٨)، نجيب جاويش، مجلة النبراس (١٨٩٥)، نقولا بولاد، مجلة الغزالي (١٨٩٦)، اسكندر شلهوب، مجلة

السلطانة (١٨٩٧) والعصر الجديد (١٩٠٠)، سليم بك تقلا وبشارة بك تقلا مؤسِّساً سلسلة من الصحف والمجلات كالأهرام (١٨٧٦) وصدى الأهرام والبيراميد (Pyramides) والعائلة المصرية، والشيخ إبراهيم اليازجي (†١٩٠٦) الذي أسس في لبنان مجلة الطبيب، وفي مصر مجلتي البيان والضياء. وكان الملكيّون من روّاد الصحافة المتخصصة، فأسس الدكتور أديب زيات والصيدلي نجيب غناجي المجلة الصحية سنة ١٩٠١. وجورج إسحاق يارد، مؤسس الصحف التالية: الابتسام (١٩٠١)، والسهام (١٩٠٢)، والطغراء (١٩٠٣)، وخليل زينيّة، مجلة المصور (١٩٠٢)، وخليل مطران، الجوائب المصرية (١٩٠٣).

- **في الترجمة:** يوسف العجلوني الراهب الحنّاوي (†١٨١٨).
- **في العقيدة:** سابا كاتب المخلّصي (†١٨٢٧).

وفي هذا القرن أسس الرهبان المخلّصيّون مطبعتهم، سنة ١٨٦٥، في الوكالة المخلّصيّة في بيروت. ثم ما لبثوا أن نقلوها إلى دير المخلّص في جون. وقد أسهمت هذه المطبعة في نشر مجموعة ضخمة من الكتب الدينية والطقسية والتاريخية والأدبية التي دبجتها أقلام الرهبان، مؤدين خدمات جلّى لتطوير الفكر وازدهار الثقافة ونشر الدين.

أما في القرن العشرين فقد أخذ الملكيون يعنون بالأبحاث العلمية، كهنة وعلمانيين. ومما سهّل هذا الاتجاه تأسيس المطبعة البولسية، سنة ١٩١٠ لتسهيل نشر مجلة «المسرّة». وقد نافست المطبعة، بتقنيتها وتعاملها، كبريات المطابع في لبنان والشرق العربي. فترافقت مع المطبعة المخلّصيّة في الاهتمام بالنشر الديني والثقافي والعلمي. أما الرهبانية الشويرية فكانت تسعى بجهد كبير لتجديد مطبعتها، وتمكنت من تأهيلها وتجديدها سنة ١٩٥١، إلاّ أن انطلاقتها ظلت محدودة.

وقد أسهمت هذه المطابع الملكية الثلاث بشكل كبير في نشر الكتاب الديني والأدبي والفكري، ووضعت، بيد الباحثين والمثقفين وروّاد المطالعة، نفائس الكتب.

كذلك ترافقت مجلة المسرّة للمرسلين البولسيين، ومجلة الرسالة المخلّصيّة والوحدة في الإيمان (المتخصصة بالمجمع الفاتيكاني الثاني)، وحياة وعمل وغيرها من النشرات الصادرة بالعربية عن الأبرشيات، لتخلق جوّاً ثقافيّاً في كنيسة الروم الملكيّين. وإذ كانت المجلات «الطائفية» المختلفة ظلت في إطار ضيق من المواضيع المعالجة، لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن، فإن مجلة المسرّة انطلقت في عالم الفكر لتتحف قراءها بنخبة من المقالات في اللاهوت والحركة المسكونية وتاريخ الكنيسة والكتاب المقدس والطقوس وتاريخ لبنان والمنطقة والتراث العربي المسيحي وترجمة الرسائل البابوية. . . تدبّجها أقلام نخبة من الاختصاصيين والمثقفين والجامعيين، من أساقفة وكهنة وعلمانيين، في حين انطلقت مجلة الرابطة (Le Lien) الناطقة بالفرنسية باسم البطريركية لتربط المؤمنين الفرنكوفونيّين بكنيستهم.

كما أن القرن العشرين سجّل بروز أسماء عديدة من الإكليرس والعلمانيّين أبرزها:

- **في التاريخ**: الرهبان المخلصيّون: قسطنطين الباشا (†١٩٤٨) وكيرلّس حدّاد، فايز فريجات، والياس كويتر، والأديب الكبير حبيب زيّات (†١٩٥٤).
- **في الأدب والشعر**: خليل مطران (١٩٤٩)، الأب نقولا أبو هنا المخلصي.
- **في البيليوغرافيا**: يوسف أسعد داغر.
- **في الصحافة**: خليل البدوي (†١٩٣٢)، مؤسس جريدة الأحوال، ومجلة الكنيسة الكاثوليكية، ومجلة الفوائد، وإميلي عبد المسيح، مؤسسة مجلة مصر الفتاة (١٩٢١).
- **في الموسيقى**: زكي ناصيف...
- **في الإخراج السينمائي**: مارون بغدادي (†١٩٩٣).

كما أنه يجب أن نتوقّف عند المطران جرمانس معقّد (†١٩١٢)، الذي وضع مؤلفات عديدة في الأدب والرواية، والأدب الروحي، والأدب الخطابي، وكان رائد الاصلاح الليترجي، في عهد البطريرك سيّور، في كتابه « تحقيق الأماني لذوي الطقس اليوناني»، والأب جورج فاخوري البولسي (†١٩٧٧) الذي كان علماً من أعلام الشرق وقد ظهر معظم إنتاجه في مجلة «المسرّة»، التي دبّج فيها مقالات لا تحصى، وتولّى إدارتها طوال ٢٢ سنة (١٩٥٠-١٩٧٢)، فكانت له جولات في ميادين الدين والاجتماع والتاريخ والأدب والأخلاق والسياسة، والأب يوحنا فاخوري الذي وضع مؤلفات عديدة في اللغة العربيّة والأدب العربي والفلسفة العربيّة، وترجم كتابه الأدب العربي، إلى الروسية والفارسية، وكتابه في تاريخ الفلسفة إلى الفارسية. وكتبه في اللغة والأدب منتشرة في كل أقطار العالم العربي، والأب إميل الحاج البولسي الذي وضع حتى الآن ٤٠ كتاباً في القصص الروحي، خصوصاً حياة القدّيسين، وعالج مواضيع أخلاقيّة واجتماعيّة وتأمّلات روحيّة. والأب باسيليوس قسيس المخلّصي الذي وضع حوالى ٢٣ كتاباً في الليترجية، والأرشمندريت انطون هبّي الذي وضع مجموعة من الكتب الموسيقية والطقسية والفنية والتاريخية وفي الأدب المسرحي الديني وعدداً كبيراً من المقالات بالعربية والفرنسية والانكليزية. والإكسرخس يوسف نصر الله (†١٩٩٣) الذي وضع عدداً من المؤلّفات في تاريخ الكنيسة الملكية، وتوّج إنتاجه بموسوعة ضخمة بعنوان «تاريخ الحركة الأدبية في الكنيسة الملكيّة» بالفرنسية. والمطران العلاّمة ناوفيطس إدلبي (†١٩٩٥) الذي خلّف لنا سلسلة التراث العربي المسيحي القيّمة.

أما في الموسيقى البيزنطية فقد نبغ الآباء أنطون هبّي وكيرلّس حداد المخلّصي وجبرائيل أبو شديد الشويري، ووضع الأب جوزف العبسي البولسي طريقة لمطابقة اللحن البيزنطي على الكلام العربي (٢٠٥).

---

(٢٠٥) أطروحة دكتوراه بعنوان: «Le chant de l'Eglise Melkite. L'Hymnographie Grecque et ses versions Syriaque et Arabe – la relation texte-Musique».

أما في مجال الحوار المسيحي الإسلامي فينبغي أن نشير إلى جهود الأرشمندريت يوسف درّه الحداد (+١٩٧٩)، والأب منير خوام من على صفحات مجلة المسرّة، وإلى جهود قدس الأرشمندريت سليم غزال المخلّصي رائد الحوار المسيحي الإسلامي في أبرشية صيدا ومنها إلى لبنان والعالم. وفي هذا الإطار عمدت جمعية المرسلين البولسيّين إلى إنشاء «مركز أبحاث في الحوار المسيحي – الإسلامي» (C.E.R.D.I.C.)، في أوائل كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٥، وعهدت بإدارته إلى الأب مشير عون البولسي. والمركز يعنى بتنشيط الأبحاث العلمية ويوجّه أعماله وفقًا لإرشادات المجمع الفاتيكاني الثاني المتعلقة بموضوع الحوار مع الأديان.

أما على صعيد العمل المسكوني، فإننا ننوّه بجهود الأب الياس أندراوس البولسي (+١٩٦٧)، الذي قام بسلسلة من المحاضرات في مصر، سنة ١٩٣٧، وفي بيروت ودمشق سنة ١٩٣٠، وفي القاهرة والإسكندرية، سنة ١٩٣١، وقد تكلّم فيها عن ضرورة الاتحاد، وإمكانية حصوله، ووسائله، وإلى جهود المطران بطرس كامل مدوّر، والمطران الياس زغبي والأب أوريست كرامه الذين أسهموا في توجيه الكنيسة الملكية الكاثوليكية نحو الانفتاح المسكوني الجديد.

وعلى صعيد الحق القانوني، لمعت أسماء ثلاثة رهبان حلبيّين، رسموا أساقفة في ما بعد، وهم: متروبوليت حلب ناوفيطس إدلبي، الراحل، الياس نجمة رئيس أساقفة طرابلس، وبطرس راعي المعاون البطريركي ورئيس أساقفة فنزويلا الراحل.

ودخلت الرهبانية المخلّصيّة معترك العمل الاجتماعي فأنشأت مؤسّستين بارزتين:

- مؤسسة المخلّص الاجتماعية في الصالحية، شرقي صيدا، في خريف عام ١٩٦٦، بهمة الآباء جورج كويتر (مطرن صيدا الحالي) ولطفي لحام (النائب البطريركي في القدس حاليًا) وسليم غزال (الرئيس العام الحالي). وتعرف هذه المؤسسة باسم دار العناية.
- دار الصداقة في زحلة، سنة ١٩٧٧، بهمّة الآباء حنا سليمان وأندره حدّاد (مطران زحلة الحالي) وأثناسيوس نصّورة. وانطلق العمل في الدار من معهد للتعليم الديني العالي ليخرّج فريقًا للتعليم الديني في المدارس وانعاش الحركة الرسولية عند الأولاد.

وتخصّصت الرهبانية الشويرية بالتربية من خلال كلياتها في زحلة (الكليّة الشرقية)، والخنشارة (كلية القديس يوحنا الصابغ)، وكفرشيما (كليّة القدّيس أنطونيوس).

أما جمعية المرسلين البولسيّين فقد اعتنت بشكل خاص بالنشر الديني من خلال مطبعة ومكتبة ومجلة، كما أنشأت معهدًا للفلسفة واللاهوت يُعدّ كهنة المستقبل من كل الأبرشيّات وبعض الرهبانيّات.

أما على الصعيد الوطني فقد برز الملكيّون الكاثوليك في مجتمعاتهم بحسب ما سمحت لهم الظروف والأنظمة القائمة. ففي لبنان كانوا منذ عهد الإمارة في صميم العمل الوطني من خلال ممثليهم في المجالس المحلية، إلى جانب

بعض الوظائف الكتابية التي تبوّأوها، فاغناطيوس عيطة كان كاتباً للأمير فخر الدين قبل أن يصبح مطراناً على صيدا ثم بطريركاً، وبطرس كرامة وناصيف اليازجي كانا من بلاط الأمير بشير الثاني الشهابي، وأمراء آل أبي اللمع في المتن اتخذوا لهم كتبة ملكيّين كاثوليك من آل كساب، وهم الوحيدون في لبنان الذين نالوا لقب المشيخة (٢٠٦)، كذلك الأمر بالنسبة إلى عهد المتصرفيّة (١٨٦١-١٨٧١). وكان للروم الكاثوليك الدور البارز في إعلان دولة لبنان الكبير إلى جانب البطريرك الماروني، من خلال الدور الكبير الذي مثله المطران كيرلّس مغبغب والاتصالات التي قام بها والمذكرات التي رفعها إلى مراكز القرار الدولي.

وكان للروم الكاثوليك دور كبير في الاستقلال وترسيخه في الوحدة الوطنية وسيادة لبنان، من خلال الدور الذي قام به سليم تقلا وهنري فرعون. وفي عهد تركيز الدولة على المؤسّسات، كان لهم دور بارز بفضل زعامات وشخصيات سياسية أمثال فيليب تقلا وجوزف نجار وجوزف سكاف ويوسف سالم وجوزف أبو خاطر. وقد تميّز دور هذه الزعامات بالاعتدال والروح التوفيقية وبالقدرة على إيجاد الحلول في الداخل، وبعدم التبعيّة للخارج.

أما خلال الحرب الأخيرة (١٩٧٥-١٩٩٠) فقد لحق بالروم الكاثوليك أبناءً ومؤسسات خسائر فادحة في الأرواح والأرزاق: القاع (١٩٧٦-١٩٧٨)، زحلة (١٩٨١)، الجبل (١٩٨٣)، شرقي صيدا (١٩٨٥)، وتعرّضت المؤسسات للدمار وخراب فادحين: المقر البطريركي في عين تراز، دير المخلّص، دار المطرانية في بيروت، تفجير دار مطرانية زحلة...

وكانت مواقف كنيسة الروم الكاثوليك إكليرساً وشعباً ميّالة إلى:

- الدعوة إلى نبذ العنف واعتماد الحوار.
- الالتفاف حول الشرعيّة لتقوية فكرة الدولة.
- التمسّك بسيادة لبنان والانفتاح على العالم العربي.
- المحافظة على استقلالية القرار الكاثوليكي.

وتجدر الإشارة إلى ثلاث وقائع مهمة:

- إن «الطائفة» كانت السبّاقة إلى المطالبة بإلغاء اتفاقية القاهرة.
- إن «الطائفة» لفتت أنظار اللجنة السداسية، برئاسة وزير خارجية الكويت، باعتدالها وبروحها التوفيقية.
- إن الرئيس أمين الجميّل استبعد طائفة الروم الكاثوليك من اجتماعات المصالحة في جنيف ولوزان لانعدام الدور السياسي الذي كان ناشئاً عن قرار رسمي ليس هو وليد الظروف (٢٠٧).

---

(٢٠٧) استقينا المعلومات عن وضع الروم الكاثوليك في لبنان في التاريخ المعاصر من محاضرة البروفسور فايز الحاج شاهين في المؤتمر العام الثاني لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك. راجع المسرّة، السنة ٧٧ (١٩٩١)، ص ١٠٣٤-١٠٤٧.

كما كان للروم الكاثوليك دور بارز في مصر منذ الحملة الفرنسية. فكان لهم ممثل في الديوان العام الذي أنشأه نابليون من ٦٠ شخصاً من المشايخ، وهو ميخائيل كحيل. كما هيمن أبناء الروم الكاثوليك على ديوان التجارة والجمارك، وتسلّموا وظيفة معلم الديوان الذي كان يضمن الجمرك والمرافئ. وأبرز من تولاها: يوسف بيطار، أنطوان فرعون، نعمة الله صيدح، ميخائيل كحيل، غبريال بركات، يوسف كسّاب. وكلهم من أصل شامي فرّوا من سورية إلى مصر بعد عام ١٧٢٤.

وفي عهد محمد علي، تبوّأ الروم الكاثوليك بعض الوظائف المهمّة. فكان يوسف بكتي مستشاراً لمحمد علي، وجورج جبارة مدير التجارة في الاسكندرية والمسؤول عن استيراد وتصدير مادة النطرون. وتولى آل البحري مراكز مهمة في دواوين الحكم، فكان يوحنا بحري مساعداً لوزير المالية، وجرمانس بحري مديراً لوزارة الحربية، وعبود بحري مديراً لديوان محمد علي وكاتبه الخاص، ولطف الله عيروط ترجماناً في ديوان القاهرة.

كما برزت أسماء مهمّة في الحقل الوطني أمثال: الكونت حبيب باشا سكاكيني، قسطنطين قطة باشا، فريد بابازوغلي باشا، بطرس مشاقة باشا، نجيب يوسف سيور باشا، عبد العزيز كحيل باشا، غبريال باشا تقلا، يوسف صيدناوي باشا، باسيل سوسو باشا.

وتولّى زنانيري باشا إدارة الحجر الصحي، وكان السير يوسف سابا باشا عضواً في أول مجلس بلدي لمدينة الاسكندرية. وكان أبناء الروم الكاثوليك روّاداً في القطاع الصناعي، فكان حبيب ديمتري بولاد رائداً في صناعة القطن، إذ أدخل أول «وابور لحلج القطن إلى مصر». وكان آل كحلا روّاداً في صناعة الزيوت والصابون. وكان آل كفوري من أكبر أصحاب شركات المواصلات العامّة. وكان نصري بك تاجراً وأولاده من كبار التجار.

وعلى الصعيد الاجتماعي أسّس الأب هنري عيروط اليسوعي جمعيّة الصعيد. كما ظهرت «جمعيّات غداء الظهر» التي أخذت على عاتقها تقديم وجبة طعام الظهر إلى أولاد المدارس المجانية يوميًّا، وما زالت قائمة حتى اليوم في الاسكندرية، وأسّس آل صيدناوي مستشفى قدّموه لجمعيّة الهلال الأحمر.

وعلى صعيد الحوار المسيحي الاسلامي، يجب التنويه بنشاط لويس ماسينيون والآنسة ماري كحيل مع نخبة من الأصدقاء، إذ أسّسوا ثلاث جمعيات فكرية تعنى بالحوار هي: البدلية، إخوان الصفا، جمعية الإخاء الديني(٢٠٨).

وعلى هذا المنوال كان أبناء الروم الكاثوليك يتفاعلون مع مجتمعاتهم في لبنان ومصر وسورية وفلسطين والأردن وبلاد الاغتراب، فيعملون في الفكر والأدب والفن

(٢٠٨) زوّدنا الأب يوسف أندراوس بالمعلومات عن دور الروم الكاثوليك في مصر من بحثه الذي يحضره عن كنيستنا في مصر.

والاقتصاد، وهم في غالب الأحيان متفوّقون بارزون، ويعملون في المجال الوطني حيث تسمح الظروف السياسية والأنظمة.

تقييم عام

إن حركة ١٧٢٤، التي أدّت إلى انقسام بطريركية أنطاكية الملكية إلى فرعين: أرثوذكسي وكاثوليكي، لم تبحث حتى اليوم بجديّة، ولم يتطرّق إليها بإسهاب أحد من الباحثين، ولم يقيّمها أحد من المؤمنين تقييماً علمياً وموضوعياً. صحيح إن انقسام الكنائس الشرقية إلى كنائس أرثوذكسية وأخرى كاثوليكية يعتبر طعنة في صميم الحركة المسكونية بمفهوم العصر. إلاّ أن خط الكرسي الرسولي الوحدوي ظل حتى المجمع الفاتيكاني الثاني مبنياً على أساس انضمام كل الكنائس إلى كرسي رومة، وتحت رئاسة قداسة البابا. وإن هذا الخط ظل غالباً على مسيرة الكنيسة العالمية بالرغم من محطات مع بعض البابوات الذين نظروا إلى الكنائس الشرقية نظرة أخوّة واحترام، وأصدروا المراسيم التي تحفظ لها حقوقها وكرامتها. وكان الرهبان اللاتين، الذين أمّوا الشرق، جنود هذا الخط منذ القرن السادس عشر. فقد أسّسوا المدارس، وبذلوا المال الوفير في سبيل تفريغ الكراسي الشرقية من المؤمنين ليحققوا وحدة الكنيسة بحسب المفهوم الغربي لها.

لقد عاشت الكنيسة الملكيّة كاثوليكيّتها (جامعيتها) منذ مجمع خلقيدونيا (٤٥١). فسياسة الأباطرة القائمة على مفهوم «القيصرية البابوية» (Cesaropapisme) كانت تحتّم الوحدة

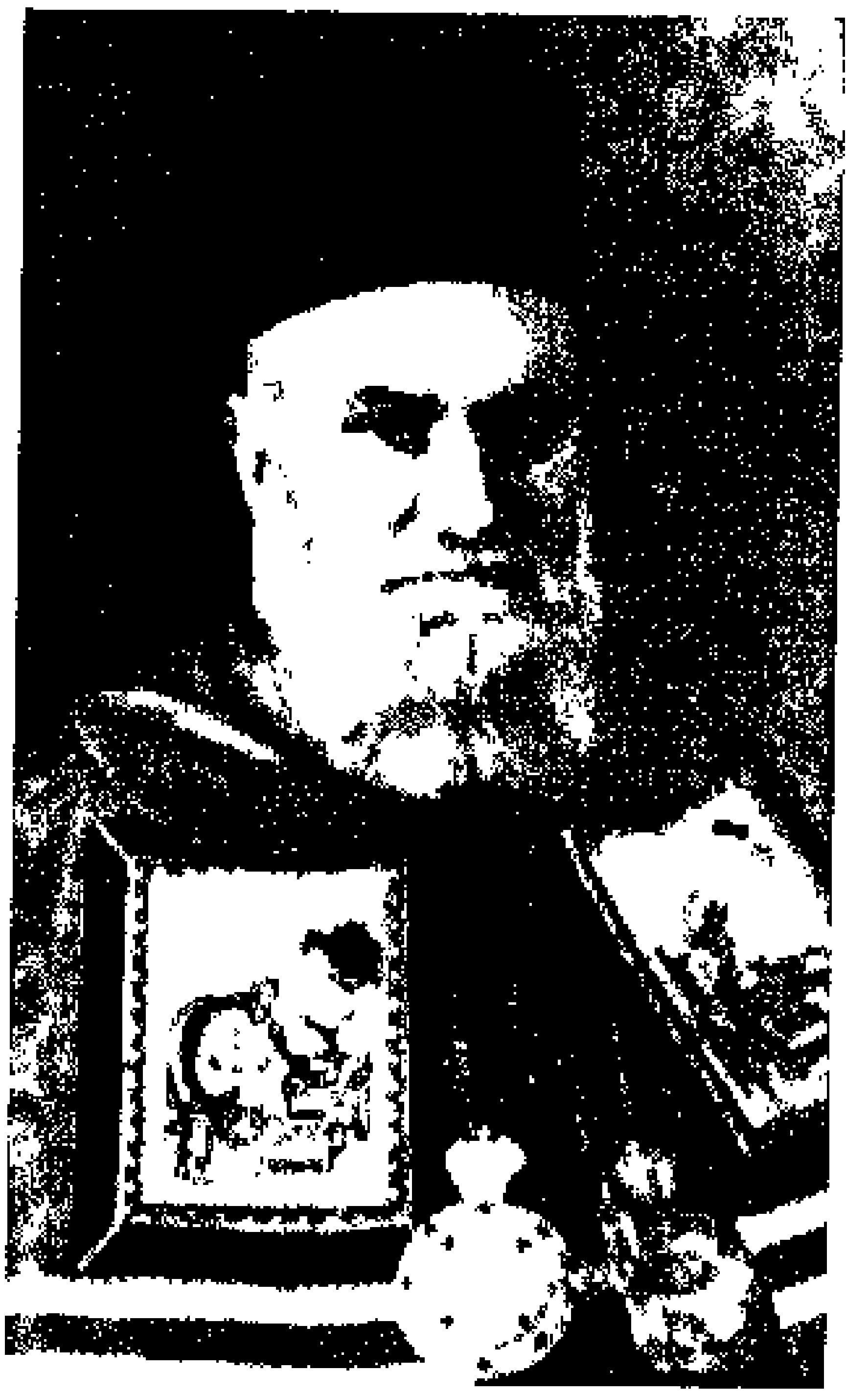

الكردينال أكاكيوس كوسا

في الأمبراطورية كما في الكنيسة. وكان الأباطرة يسعون لرأب أي انقسام في الكنيسة مخافة أن ينعكس ذلك على وحدة الأمبراطورية. لذلك عاشت بطريركية أنطاكية الملكية كاثوليكيتها منذ حداثتها وتمرست في هذه الجامعية طيلة تاريخها. ويوم انقسمت الكنيسة بين شرق وغرب، سنة ١٠٥٤، لم تجد الكنيسة إلاّ بطريرك أنطاكية بطرس الثالث ليحذر البطريرك القسطنطيني ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣-١٠٥٩) من مغبّة الانشقاق عن الكنيسة الرومانية والضرر الكبير الذي قد يترتّب عليه، وليرجوه معاملة إخوتنا اللاتين بمحبة وعاطفة مسيحيتين. فالخلاف بين رومة

والقسطنطينية خلاف بديهي يقوم على الصراع السياسي والحضاري بين جزأي الأمبراطورية، أما الكراسي الأخرى فلا مصلحة لها دينية أو سياسية من الانشقاق. والجدير بالذكر أن البطريركية الأنطاكيّة الملكيّة لم تقم بأي إجراء رسمي لقطع العلاقات بين الكنيستين الرومانية والملكية، بل إن الظروف السياسية والضغط العربي الإسلامي هي التي حتّمت القطيعة ومنعت الاتصال بينهما.

وكانت البطريركية الملكيّة تغتنم كل فرصة ممكنة لكي تعبر عن كاثوليكيّتها من خلال اتصال بعض بطاركتها بالكرسي الروماني. كما أن مجمع فلورنسا، الملتئم سنة ١٤٣٩، ظل في نظر التقليد الملكي، المجمع المسكوني الثامن، وإن كانت السلطة الكنسية الملكية اضطرّت إلى التصدّي له تضامناً مع المصفّ الأسقفي البيزنطي.

غير أن العلاقات الودية والشركة الروحية القائمة بين البطاركة الملكيين وكنيسة رومة تحولّت بعد المجمع التريدنتيني إلى علاقة متّسمة بالتبعيّة، وذلك نتيجة للخط المتصلّب الذي اتّبعه البابوات في علاقتهم مع الكنائس المتحدة. ووصل إلى ذروته مع المجمع الفاتيكاني الأول الذي جعل أولية البابا وعصمته عقيدة دينية.

لقد أرادت الكنيسة الملكية أن «تقاطع واقع القطيعة» من دون أن يلزمها ذلك بمقاطعة الشرق. فدخلت سنة ١٧٢٤ في المشروع اللاتيني، متكئة على تراثها الجامعي (الكاثوليكي)، فتسبب ذلك بانشقاق جديد في جسم الكنيسة مصيباً بطريركية أنطاكية الملكية في الصميم، فانقسمت إلى كنيستين أرثوذكسية وكاثوليكية. فالكنيسة الملكية في سعيها إلى الوحدة «انضمّت إلى الموقف الروماني في مواقع النزاع التي باتت تلهب الجدل بين الكنيستين من غير أن تسعى إلى استخلاص وجه التكامل بين وجهات النظر»(٢٠٩).

وانطلاقاً مما حدث عام ١٧٢٤، سار فرع من الكنيسة الملكية نحو الوحدة مع رومة في حين تمسّك الفرع الآخر بموقفه العدائي منها، بل إن هذا الموقف ازداد عدائية بسبب ممارسات الرهبانيات اللاتينية في الشرق، متّخذاً طابع العدائية المزدوجة:

- عدائية تجاه رومة تحميلاً لها مسؤولية إفراغ الكنائس الأرثوذكسية من المؤمنين وتحويلهم إلى الكنيسة اللاتينية أو الكنائس المتحدة.
- عدائية تجاه الفرع الأنطاكي الكاثوليكي يرافقها حقد وازدراء وتهم بالخيانة والعمالة.

وقد ترجمت هذه العدائية المزدوجة باتّساع شقة الخلاف مع رومة وبممارسة فصول من الاضطهاد والملاحقة لأتباع الفرع الكاثوليكي استعملت فيه كل الأسلحة المتاحة في سبيل خنق الحركة في مهدها.

لقد شاءت الكنيسة الملكية الكاثوليكية أن تشكّل من نفسها جسر عبور للقاء الشرق والغرب. إلاّ أن تصرفات الكرسي الروماني لم تساعد على إنجاح مشروع الفرع الكاثوليكي،

---

(٢٠٩) باشا: الروم الملكيون الكاثوليك، ص ٧١.

ولم تقنع الفرع الأرثوذكسي بجدوى المشروع الكاثوليكي. فوجدت كنيسة الروم الكاثوليك نفسها في موقع دقيق: فلا الكنيسة الرومانية اعترفت بها ككنيسة مستقلة تعبّر عن تراث الشرق وتسعى إلى ربط الكنيستين الشرقية والغربية بشركة المسيح، بل تعاملت معها ككنيسة تابعة من دون أن تغوص في تحديد مسؤولية هذه المعاملة. ولا الكنيسة الأرثوذكسية اعترفت بوجودها بل إنها وصلت في النهاية إلى اعتبار وجودها عقبة أساسية أمام الاتحاد.

لقد أدركت كنيسة الروم الكاثوليك أن شركتها مع الكرسي الرسولي تعني في آخر المطاف ذوبانها في كنيسة رومة، «فكان عليها أن تقاوم وتصمد، ثم أن تصحّح هذا المفهوم على ضوء المعطيات الكنسية القديمة وفي خط الحركة المسكونية التي وسعت ولا تزال توسع إطار «الجماعية» عمقاً وفساحة»(٢١٠).

إنه لمضيعة للوقت أن نجلس اليوم لنناقش عن شرعيّة انتخاب كيرلّس السادس طاناس أو سلفسترس القبرصي بطريركاً على الكرسي الأنطاكي، سنة ١٧٢٤. فالفاصل الزمني بين الأمس واليوم يزيد عن قرنين ونصف من الزمن تطورت خلاله كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك ونمت نمواً ملحوظاً، وقدّمت للكنيسة ولمشروع الوحدة خدمات جلّى. صحيح أن هناك تيارين تجاذبا كنيستنا: تيار أرثوذكسي وتيار لاتيني. إلاّ أنه في النهاية لا بد لكنيسة الروم الكاثوليك أن تحقق رسالتها التي ورثتها من التراث الملكي الأنطاكي في أن تبقى شرقية أصلاً وعقلية على الرغم من اتحادها بالكرسي الروماني، وعلى أن تبقى أمينة للتراث الأنطاكي الملكي في جذوره الرسولية.

والحقيقة أن كنيسة الروم الكاثوليك لم تبتدئ سنة ١٧٢٤، فهي تحمل في شخصيتها تراث أقدم بطريركية تأسّست على يد القدّيس بطرس. وإن مشروع الوحدة بين الفرعين الكاثوليكي والأرثوذكسي، الذي تبنّاه سينودس عام ١٩٩٦، هو أكبر دليل على هذه الشخصية الجامعة التي تبلورت خلال القرنين الماضيين لتوضح المفهوم الحقيقي لجسر العبور الذي شكلته كنيستنا في تاريخها الحديث ليكون محطة لقاء بين تراث الشرق والغرب، ووسيلة وحدة بين الكنيسة الرومانية والكنائس الأرثوذكسية. فإذا نجحت كنيستنا في مسعاها تكون قد حقّقت رسالتها، وإذا فشلت تكون قد قامت بما يمليه عليها إيمانها بالمسيح، ومستظلّ على هذا الإيمان باذلة الجهود ومذلّلة الصعاب ورافعة الصلاة لتتم فينا جميعاً مشيئة الله المقدّسة وتتحقّق صلاة السيد المسيح إلى أبيه السماوي: «ليكونوا واحداً كما نحن واحد ليؤمن العالم أنك أنت أرسلتني».

(٢١٠) المطران بطرس راعي: «الكنيسة الملكية في خدمة جامعية الكنيسة، تاريخاً فرسالة فهوية»، مقال في المسرّة، السنة ٧١ (١٩٨٥)، ص ٧٠٦.

بطاركة الروم الكاثوليك

١. كيرلّس السادس طاناس ١٧٢٤–١٧٥٩
٢. أثناسيوس الرابع جوهر ١٧٥٩–١٧٦٠
٣. مكسيمس الثاني حكيم ١٧٦٠–١٧٦١
٤. ثاودوسيوس الخامس الدهان ١٧٦١–١٧٨٨
٥. أثناسيوس الرابع جوهر ١٧٨٨–١٧٩٤
٦. كيرلّس السابع سيّاج ١٧٩٤–١٧٩٦
٧. أغابيوس الثاني مطر ١٧٩٦–١٨١٢
٨. اغناطيوس الرابع صرّوف ١٨١٢
٩. أثناسيوس الخامس مطر ١٨١٣
١٠. مقاريوس الرابع طويل ١٨١٣–١٨١٥
١١. اغناطيوس الخامس القطان ١٨١٦–١٨٣٣
١٢. مكسيمس الثالث مظلوم ١٨٣٣–١٨٥٥
١٣. اقليمنضس الأول بحوث ١٨٥٦–١٨٦٤
١٤. غريغوريوس يوسف سيّور ١٨٦٤–١٨٩٧
١٥. بطرس الرابع الجريجيري ١٨٩٨–١٩٠٢
١٦. كيرلّس الثامن جحا ١٩٠٢–١٩١٧
١٧. ديمتريوس الأول قاضي ١٩١٩–١٩٢٥
١٨. كيرلّس التاسع مغبغب ١٩٢٥–١٩٤٧
١٩. مكسيمس الرابع الصائغ ١٩٤٧–١٩٦٧
٢٠. مكسيمس الخامس حكيم ١٩٦٨–

الجماعات الرهبانية

الرهبانيات	الرهبان والراهبات			الأديرة				
	١٩٠٧	١٩٤٤	١٩٩٦	١٨٤٤	١٨٨٤	١٩٠٧	١٩٤٤	١٩٩٦
المخلصية	١٨٤	١٧٠	٨٥	٧	٧	٧	٧	٩
الشويرية	١٠٥	٧٤	٣٥	٣	٣	٣	٤	٤
الحلبية	٧٠	٥٥	٢٨	٤	٤	٤	٥	٥
المرسلون البولسيون	٤	٤٠	٣٧	–	–	١	١	٥
المخلصيات	٣٠	٣٩	٧٥	١	١	١	١	٣
الشويريات	٣٣	٥٥	١٥٠	٢	٢	٢	٢	٣
الحلبيات	٢٨	١٨	٢٢	٣	٣	٤	٣	٣
المعونة الدائمة	–	٣٧	٨٩	–	–	–	٢	٢
الخدمة الصالحة	–	–	٣٦	–	–	–	–	٢
كرمل الوحدة	–	–	٢٧	–	–	–	–	١
المجموع	**٤٥٤**	**٤٨٨**	**٥٨٤**	**٢٠**	**٢٠**	**٢٢**	**٢٥**	**٣٧**

	الأبرشيات	مطارنة					كهنة					مؤمنون					كائس				
		١٨٤٤	١٨٨٤	١٩٠٧	١٩٤٤	١٩٩٦	١٨٤٤	١٨٨٤	١٩٠٧	١٩٤٤	١٩٩٦	١٨٤٤	١٨٨٤	١٩٠٧	١٩٤٤	١٩٩٦	١٨٤٤	١٨٨٤	١٩٠٧	١٩٤٤	١٩٩٦
الكراسي البطريركية	دمشق	– –	١	١	١	٢	١٦	٢٤	١١	١٤	١٨	٧٠٠٠	١٥٢٩٦	١٠٨٣٨	١٠٩٠٠	٨٥٠٠٠	٣	١٢	١٤	٢١	١٧
	الإسكندرية	١ ١	–	١	١	١	٢٥	٢٥	٨	١٧	١٦	٤٠٠٠	٧٩٦٥	٩٨٥٥	٢٥٠٠٠	٦٠٠٠	٩	١٨	١٥	٢٠	١٣
	أورشليم	١ ١	١	١	١	١	٦	٦	٣	٥	٥	١٠٠٠	٩٠٠	١١٠٥	٣١٥٠	٣٥٠٠	٤	٣	٨	٨	١٣
ملحقات بالكراسي البطريركية	السودان	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	١	–	–	–	٢٠٠٠	–	–	–	–	٨	١
	الكويت	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	١	–	–	–	–	٥٠٠٠	–	–	–	–	١
	العراق	– –	–	–	–	–	–	–	–	١	–	–	–	–	٢٠٠		–	–	–	١	١
	باريس	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–		–	–	–	–	١
	مرسيليا	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٠٠٠٠	–	–	–	–	١
	بلجيكا	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	٢	–	–	–	–		–	–	–	–	١
	رومة	– –	–	–	–	–	–	–	–		٢	–	–	–	–		–	–	–	–	١
	استنبول	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	١٥٠	–	–	–	–	١	١
الكراسي المتروبوليتية	صور	١ ١	١	١	١	١	٢٥	١٥	٦	٦	٤	٥٠٠٠	٤٤٠٠	٥٢٧٠	٤٥٠٠	٥٠٠٠	٩	١٠	١٤	١١	١٢
	حلب	١ ١	١	١	١	١	٢٦	١٣	١٦	١٢	١٥	٨٥٠٠	٩٢٠٠	٩٨٧٦	١٤٠٠٠	١٠٠٠٠	٣	١٢	٢	٥	٩
	حوران	١ ١	١	١	١	١	١٠	١٦	١٧	١٣	١٦	٣٠٠٠	١١١٠٠	٩٩٠٠	٨٢٠٠	٣٥٠٠٠	٧	٨	٩	١٨	٢٣
	بيروت	١ ١	١	١	١	١	٥٨	٦٠	١١	١٧	٤٤	٧٥٠٠	١٢٠٠٠	١٢٠٠٠	١٧٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٢٨	٤٥	٤٠	٧٤	٩٠
	حمص	– –	١	١	١	١	١٤	١٧	١٤	١٢	٧	٢٠٠٠	٩٥٠٠	٧٥٣٦	٨٠٠٠	٢٥٠٠٠	٩	١٥	١٣	١٧	١٤
	اللاذقية	– –	–	–	–	١	–	–	–	–	١٢	–	–	–	–	١٠٠٠٠	–	–	–	–	١٦
الكراسي الأسقفية	صيدا	١ ١	١	١	١	١	٢٦	٤٣	١٩	١٤	١٥	١٠٥٠٠	٩٩٠٠	١٨٥٥٠	١٥٠٠٠	٥٥٠٠٠	٣	٤٤	٤٢	٥٢	٦٠
	طرابلس	١ ١	–	١	١	١	١	–	١٠	١٦	٩	١٠٠	–	١٢٢٠	٥٠٠٠	٦٠٠٠	١	–	١٠	١٨	٩
	عكا	١ ١	١	١	١	١	٤٤	٢٦	١٤	١٩	١٦	٩٠٠٠	٧٥٠٠	١٣٩٢٣	٢٥٠٠٠	٥٤٠٠٠	٢٥	٢٤	٨٢	٤١	٢٦
	زحلة	١ ١	١	١	١	١	٥٥	٦٠	١٥	٩	١٢	١١٠٠٠	١٨٠٠٠	٢٩٤٦٠	١٣٨٠٠	١٢٠٠٠٠	٤٢	٣٥	٣٣	٢٨	٤٥
	بانياس	– –	–	١	١	١	٨	–	٨	١٠	٢	١٥٠٠	–	٦١٩٠	١٥٠٠	٢٥٠٠	٥	–	١٦	١٤	١٣
	بعلبك	١ ١	١	١	١	١	٥٠	١٤	٤	٨	٩	٤٠٠٠	٤٢٠٠	٨٤٥٠	٧٥٠٠	١٣٠٠٠	٢٨	٨	١٠	١٦	١١
	دياربكر	١ ١	–	–	–	–	٤	–	١	–	–	١٠٠٠	–	٢٠	–	–	٢	–	١	–	–
	قارة	– –	–	–	–	–	٢٢	–	–	–	–	٣٠٠٠	–	–	–	–	١٧	–	–	–	–
	الأردن	– –	–	–	١	١	–	–	–	١٤	١٩	–	–	–	٥٧٠٠	٢٥٠٠٠	–	–	–	١٥	٣١
	البرازيل	– –	–	–	–	١	–	–	–	–	٦	–	–	–	–	٦٥٠٠٠٠	–	–	–	–	٤
	الولايات المتحدة	– –	–	–	–	١	–	–	–	–	٣٩	–	–	–	–	١٢٥٠٠٠	–	–	–	–	٤٠
	كندا	– –	–	–	–	١	–	–	–	–	٣	–	–	–	–	٤٠٠٠٠	–	–	–	–	٦
	أوستراليا	– –	–	–	–	١	–	–	–	–	٧	–	–	–	–	٤٠٠٠٠	–	–	–	–	٤
	فنزويلا	– –	–	–	–	١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	٥٠٠٠٠	–	–	–	–	٣
	الأرجنتين	– –	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	١٠٠٠٠٠	–	–	–	–	٢
	المجموع	١١١٢	١١	١٤	١٥	٢٢	٣٩٠	٣١٩	١٥٧	١٨٣	٢٨١	٧٨١٠٠	١٠٩٩٦١	١٤٤١٩٥	١٧٦٦٠٠	١٧٠٥٠٠٠	٢١٥	٢٤١	٣٠٩	٣٧٨	٤٦٩

كنيسة السريان الكاثوليك

بقلم المطران ميخائيل الجميل*

* نائب بطريركي ومطران بيروت

١. سريان آراميون

السريان شعب عريق يرقى عهدهم إلى القرن السادس عشر قبل المسيح. عرفوا بالآراميين حتى حوالى القرن الخامس قبل المسيح، ثم بسريان من بعده.

ويعني بالآراميين مجموعة القبائل التي كانت تتكلم اللغة السامية الشمالية والتي سكنت آرام في شمال بلاد الشام، ثم توسعت حتى احتلت، في القرنين التاسع والثامن ق.م.، بلاد ما بين النهرين، فانتشرت لغتهم في بلاد فارس والهند وعمّت بلاد الشام والجزيرة العربية كما أنها أصبحت اللغة الرسمية في الامبراطورية البابلية والفارسية وبقيت لغة الشعب في الشرق كله في عهدي الأمبراطوريتين اليونانية والرومانية. بها تكلم يسوع المسيح، وبها كتبت بعض من أسفار الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد.

يساعدنا الكتاب المقدس – العهد القديم – في نصوص عديدة، على معرفة أصل الآراميين وانتشار لغتهم ومواقع وجودهم (تكوين ١١/٢٨...) و(١٧/٣١...) وبأنهم كانوا يسكنون، منذ القرن السادس عشر ق.م.، بلاد حران وآرام ما بين النهرين.

ويمكن القول بأن الآرامية تطورت، شأنها شأن القبائل الرحل الأخرى، حتى تركّزت في بقاع مجاورة حيث غزارة المياه وخصوبة الأرض. (فامتزجوا) بالقبائل المستوطنة واستفادوا وأفادوا.

وورد ذكر الآراميين تترى في العاديات الأشورية، على ما ورد في ألواح تل العمارنة، ترقى إلى ١٣٧٥ ق.م. ومن الأكيد أنهم اشتدوا بأساً في حوالى ١١٦ ق.م. حتى كوّنوا دولة أرهبت الأمبراطورية الآشورية.

وجاء في العاديات الآشورية أن تغلات تجلت فلآسر الأول ملك آشور، كان يفتخر بمهاجمته الآراميين ثمانية عشرة مرة. إلاّ أن الآراميين صمدوا أمام هول الدولة الآشورية، بل واصلوا معاركهم حتى احتلوا أعالي الفرات وأقساماً هامة من وادي دجلة الأعلى. وفي الجيل الحادي عشر ق.م. كانوا قد استحكموا

ببلاد الشام كلها وتوغلوا في أعماق ما بين النهرين حتى أخذوا بابل، ونصبوا لهم فيها ملكاً آرامياً باسم اداد - افاليدين. وفي عهدهم سمّيت بابل وما يجاورها بلاد كلدو وشعبها كلدانيين. وقد وردت هذه التسمية مرات عديدة في الكتاب المقدس.

وما إن أطل القرن التاسع ق.م. حتى كان الآراميون يسيطرون على البلاد المحدودة شرقاً ببلاد فارس وغرباً بالبحر الأبيض المتوسط وشمالاً ببلاد أرمينية وآسية الصغرى وجنوباً بأقصى الحدود الجنوبية للجزيرة العربية. وبقيت الدولة الآشورية في القسم الأوسط من وادي دجلة كجزيرة وسط محيط من السيطرة الآرامية.

إلاّ أن ملوك آشور شنّوا حروباً دامت أكثر من مئة سنة احتلوا خلالها البقاع الممتدة من أواسط دجلة حتى بلاد الفينيقيين على الساحل اللبناني. فانتهت ممالك الآراميين في قسميها الشمالي والغربي في عهد سرجون الثاني ٧٢٠ ق.م.، في حين صمدت في بابل وما يجاورها من البقاع المسماة بلاد كلدو. ولكنها سقطت هي أيضا عام ٦٨٩ ق.م. في يد الآشوريين، ثم نهضت عام ٦٢٦ ق.م. لما ملك نبوبولاسار الآرامي وأعاد بناء بابل وتحالف مع الماديين والسيتيين لتدمير آشور.

ان لفظة سرياني جاءت متأخرة فهي من عهد الأمبراطورية اليونانية. والظاهر ان هذه اللفظة (سرياني) جاءت من سورورس وهو رجل آرامي الجنس استولى على بلاد الشام وما بين النهرين ومنه سميت البلاد سورية، وأهلها سرياناً.

وتقول مصادر تاريخية موثوق بها، مثل معجم ابن بهلول، «ان كلمة سورية مشتقة من سورورس الذي قتل أخاه وملك بين النهرين فسميت مملكته كلها سورية»، وان السريان كانوا قديماً يسمّون آراميين، وإنهم، حين ملك سورورس، سمّوا سرياناً والبلاد سورية.

وغني عن القول بان اسم «السريان» لا يمكن ان يرتقي إلى أكثر من القرن الخامس قبل الميلاد، وإلاّ لورد ذكرها ولو مرة واحدة في الكتاب المقدس والعاديات الآشورية، علماً بأن الآشوريين والعبرانيين كانوا على اتصال مستمر بالآراميين.

وفي كل الأحوال، إذا كان نجم الآراميين قد بدأ بالأفول إدارياً وسياسياً منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فان حضارتهم ولغتهم قدّمت للأمبراطوريات المتعاقبة تراثاً فكرياً وغنًى حضارياً لا يضاهى. هذا فضلاً عن ان لغتهم بقيت لغة الشعب في جميع جنبات بلاد الشام وما بين النهرين. فالأمبراطوريات الفارسية والبيزنطية والعربية نهلت من تراث الآراميين السريان واستعملت لغتهم، وذلك حتى أجيال متأخرة من التاريخ الميلادي.

٢. تنصير السريان

يُعدّ السريان الآراميون أول شعب وثني اعتنق المسيحية، حتى إن كلمة سرياني (سورايا أو سوريايا)، باللهجة السريانية العامية، تعني مسيحي لدى جميع الذين ما زالوا ينطقون بهذه اللغة حتى اليوم في بعض قرى سورية وفي جميع القرى المسيحية في شمال العراق.

وقد اعتنق السريان الدين المسيحي منذ القرن الأول الميلادي عن يد بطرس الرسول في أنطاكية وعن يد توما الرسول وتلميذيه اداي وماري في الرها وجميع بقاع بلاد ما بين النهرين، ومنه انطلقت البشرى لتعم بلاد فارس والهند.

٣. بطريركية أنطاكية السريانية

أول كنيسة تكوّنت بعد كنيسة أورشليم هي كنيسة أنطاكية السريانية. وبحكم كون أنطاكية عاصمة الشرق الروماني آنذاك، أصبحت هذه المدينة، بذات الفعل، المركز الرئيسي الكنسي لبلاد سورية وما بين النهرين وآسية الصغرى. كما شملت أيضاً بلاد مصر قبل استقلال بطريركيتها المعروفة بالاسكندرية في القرن الثالث الميلادي. وفي أنطاكية سُمّي تبّاع المسيح مسيحيين لأول مرة.

وبدافع من وعيها لمركزها الرفيع ومسؤولياتها تجاه الجماعات المسيحية في الشرق، ألهمت سائر كنائس الشرق، بما أوتي لها من مكانة وأصالة على جميع الاصعدة: اللاهوتية والفلسفية والليترجية. وانا لا نغالي، إن قلنا بأن أنطاكية كانت مركز الفكر الفلسفي بعد الاسكندرية ونقطة الانطلاق لكل الطقوس الشرقية: السريانية والبيزنطية والقبطية والحبشية والأرمنية. وتعني السريانية هنا السريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك والموارنة والكلدان والآشوريين والملنكار والملبار، وهاتان هما كنيستا الهند السريانيتان.

ولسعة انتشار الكنيسة السريانية على رقعة جغرافية فسيحة تتقاسمها الأمبراطوريتان (الرومانية (الغربية) تنتهي حدودها عند الضفة الغربية من نهر الفرات، والفارسية (الشرقية) تبدأ حدودها عند الضفة الشرقية من نهر الفرات)، كان لا بد لهذه الكنيسة في أجزائها المترامية أن تتأثر إيجاباً أو سلباً بحضارة كل من الأمبراطوريتين وتتعثر شؤونها بالمشاكل والعقبات الناشئة بينهما عبر التاريخ. ولصعوبة الاتصال بين جزئي الكنيسة السريانية الشرقي والغربي، اضطرت كنيسة ما بين النهرين وبلاد فارس إلى الاستقلال الاداري من نفوذ انطاكية، وذلك في مجمع عقد في سلوقيا عام ٤١٠، انتخب فيه مار اسحق بطريركاً (جثليقاً) على كرسي سلوقيا – قطيسفون بحضور مار ماروث ممثل فرفوريوس، بطريرك انطاكية، «والآباء الغربيين». وبقيت سلوقيا الكرسي البطريركي لكنيسة ما بين النهرين حتى عام ٧٧٩، حين نقل طيموثاوس الأول (٧٢٨-٨٢٣) كرسي البطريركية من سلوقيا إلى بغداد، عاصمة العباسيين الجديدة، على بعد ٢٠ كيلومتراً شمالي سلوقيا.

٤. الانقسامات المريرة

على ان وحدة الكنيسة الانطاكية انفصمت عراها مرات عديدة، أولاً في مجمع أفسس سنة ٤٣١، ثم في المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١. ففي مجمع أفسس أتى نسطور بنظرية الطبيعتين والأقنومين في المسيح، فتبعه عدد كبير دعوا نساطرة وألفوا كنيسة سُمّيت نسطورية مستقلة عن انطاكية عام ٤٨٤، ثم انقسم تبّاع البطريركية الانطاكية الباقون إلى قسمين آخرين بسبب اختلافهم على وحدة

الطبيعة في السيد المسيح وتثنيتها، عندما اختلفوا في المجمع الخلقيدوني عام ٤٥١. فالذين قالوا بالطبيعة الواحدة في المسيح سُمّوا سريان مونوفيزيين والقائلون بالطبيعتين هم السريان الملكيون (وهم السريان والموارنة والروم الملكيون).

وهكذا أصبحت الكنيسة السريانية الانطاكية الكبيرة أجزاء. وكان لتدخل الملوك وتضارب المصالح السياسية الدنيوية أثر كبير في إذكاء روح الانقسام هذا، وأصبح للسريان ثلاثة أقسام عُرفت بالنسطورية واليعقوبية والملكية

٥. عصر السريان الذهبي

وبالرغم من هذه الانقسامات اللاهوتية، بقي السريان بجميع فئاتهم ومواقعهم على أهمية بالغة في التأثير الحضاري والعطاء الفكري والفلسفي والعلمي، لا سيّما وإن هذا الشعب عرف ان يقتبس من الحضارات المتعاقبة اليونانية والرومانية والفارسية والعربية ما جعله واسع المدارك ووسيع القدرة ليقوم، في الوسط الجغرافي والبشري، بدور الأخذ والعطاء، ليصبح جسراً حضارياً للتلاقي الفكري والتلاقح الحضاري بين شعوب المنطقة، بلغ ذروته في أيام الخلفاء العباسيين (٦٣٦-١٢٥٠)، حين بلغ السريان عصرهم الذهبي في العلم والثقافة، يترجمون ويشرحون، وينقلون من اليونانية إلى السريانية ومنهما إلى العربية، مبادئ الفلسفة اليونانية وكتبها. وقد أسسوا مدارس ومراكز علمية عديدة مثل مدرسة نصيبين والرها وحران وقنشرين وجندي سابور وغيرها. أضف إلى

مار افرام

ذلك تأثيرهم الفعّال في مدرسة الحكمة ببغداد.

وهكذا نشط المثقفون من السريان، من كتبة وأطباء ومؤمنين وكهنة ورهبان، فتسرّبوا في كل مكان وتغلغلوا إلى مواقع حساسة في دور الملوك. فأنس من ثقافتهم وفكرهم واخلاصهم الخلفاء الراشدون خاصة وتوسموا فيهم الخير العميم، وعرفوا فيهم ثروة وغنى لحضارة أرادوها منطلقاً للنهضة الفكرية والأدبية والعلمية والأخلاقية والفنية التي جاء العباسيون ليرسوا أسسها في عاصمتهم الجديدة بغداد. فبرز السريان وشهدوا لعمقهم الفكري ووسع مداركهم وطاقاتهم الخلاّقة وحيويتهم المدهشة، بما حملوه إلى العرب من أصول الفلسفة والحضارة اليونانية الرومانية التي كانت كنيستهم قد تطعمت منها منذ بداية الفترة الهلينية، ففاضت بها إلى ما وراء الحدود الشرقية وراحت تنقل هذه الثقافة المطعمة بأخلاقيتها إلى شعوب آسية: إلى الهند والصين

والتبت. وهكذا نثرت بذور ثقافتها من قبرص إلى منجوري وإلى جزر جافا وسومطرا. وتقول المصادر التاريخية ان المسيحية كانت قد ألقت بذارها في الصين عن يد السريان منذ حوالى سنة ٦٣٦. إلاّ أن الاضطهادات القاسية خنقت هذه البذرة ولم تنبت من جديد إلاّ في القرن الحادي عشر. ولما كان عام ١٢٧٥، رفعت بكين إلى مركز الرئاسة الأسقفية. لكن المسيحية لم يكتب لها تاريخ طويل في القسم الشرقي من آسية. فقد قضى المغول عليها، كما قضوا على معالم الحضارة والتاريخ في كل بلد زحفوا إليه، إلى أن وصلوا بغداد في منتصف القرن الثالث عشر فقضوا على أروع حضارة وأغزر تراث تركه العرب بعد اندماجهم بالفكر الفلسفي اليوناني عن طريق المترجمين والشرّاح السريان.

٦. مخطَّط في الفروع السريانية

قبل أن نتكلم عن الكنيسة السريانية الكاثوليكية، نود أن ندرج هنا دليلاً بتفرع العائلة السريانية الكبيرة إلى عائلات مستقلة نتيجة تمازج الحضارات وتضارب الآراء واختلاف السياسات عبر تاريخهم.

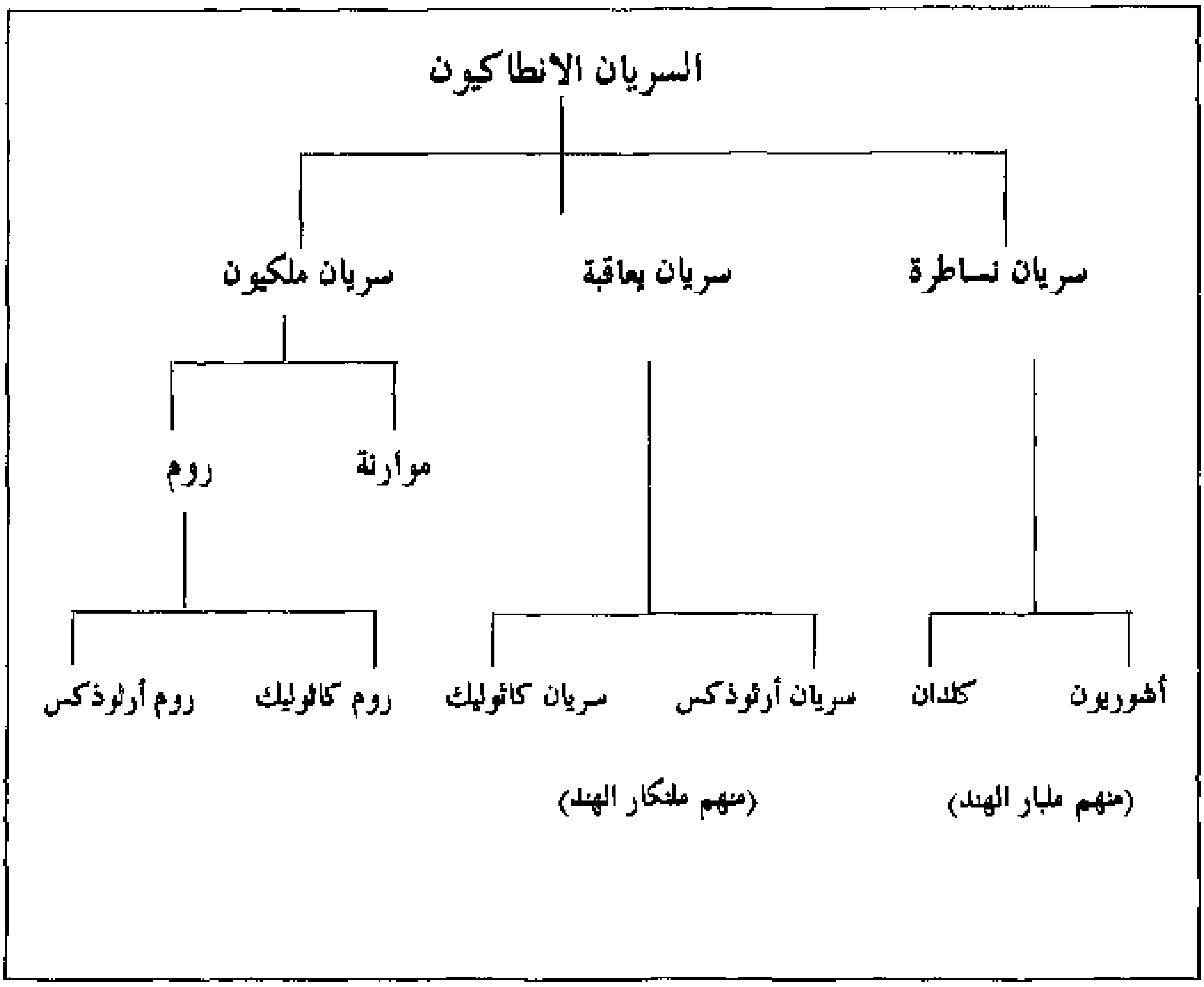

٧. الكنيسة السريانية الكاثوليكية

الكنيسة السريانية الكاثوليكية هي الشطر السرياني الذي اتحد بالكرسي الرسولي بعد قطيعة دامت قرابة عشرة قرون.

ففي عام ٤٥١، عندما حدّد المجمع الخلقيدوني نوع وحدة الطبيعتين في شخص الكلمة الواحد، عند مذهب نسطور القائل بطبيعتين وشخصين، رفض أساقفة السريان هذا التحديد وانقطعوا تماماً عن الوحدة مع بابا رومة فلقّبوا بذوي الطبيعة الواحدة، وقد تبع أيضاً هذا المذهب الأرمن والأقباط. والجدير بالذكر ان مقولة الطبيعة الواحدة هي اختلاف في التعبير، لا في المحتوى. فإخوتنا السريان الأرثوذكس يؤمنون بأن المسيح هو إله حق وإنسان حق. لكن نفوذ السلطات الزمنية واختلاف الذهنيات باختلاف المناطق والأزمنة وصعوبة الاتصال كانت الدافع إلى مثل هذه التيارات الانقسامية.

ومع ذلك، فقد حصلت محاولات للتقارب بين الكنيسة السريانية والكرسي الرسولي منذ سنة ١٢٣٧ عبر مراسلات جرت بين البابا غريغوريوس التاسع والبطريرك السرياني اغناطيوس داود أدت إلى إعلان البطريرك السرياني اتحاده (الفردي) بالكرسي الرسولي.

وفي عام ١٣٤٠، عُقد مجمع إقليمي للكنائس الشرقية في جزيرة قبرص بأمر من البابا بندكتس الثاني عشر. وقد جاهر في هذا المجمع أسقف السريان بالوحدة الكاملة بالكنيسة الكاثوليكية. ولكن سريان قبرص ما لبثوا ان اتبع بعضهم الطقس اللاتيني وبعضهم الآخر اندمج بالكنيسة السريانية المارونية(١).

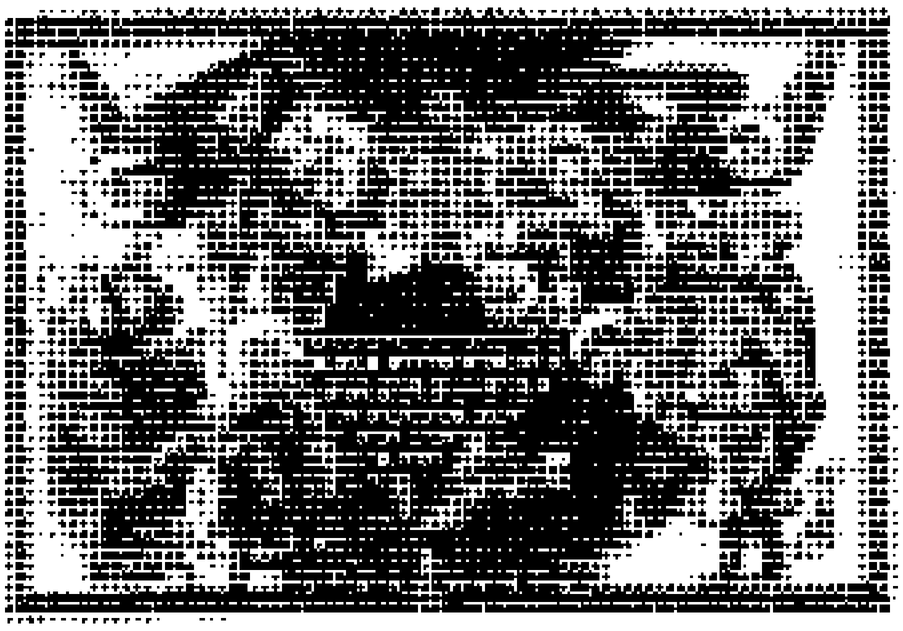

الميلاد – الفن السرياني – مخطوطة من القرن الثاني عشر

وفي عام ١٤٤١، جرت محاولة أخرى، وهذه المرة على مستوى مجمع مسكوني هو المجمع الفلورنتيني على أيام البابا أوجانيوس الرابع والبطريرك بهنم الحدلي. فكان من نتيجته أن أصدر البابا صورة القرار الخاص بالسريان في ٤ شباط (فبراير) ١٤٤١(٢). ولما انتقل المجمع الفلورنتيني إلى اللاتران، أوفد البطريرك بهنام المذكور المطران عبد الله مطران الرها، فأقرّ هذا في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٤٤٤، باسم البطريرك واسم شعبه، الوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية أمام البابا المشار إليه. إلاّ ان هذا الاتحاد لم يدم بسبب صعوبة الاتصال بين الشرق والغرب،

---

(١) ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية، الجزء الأول، الموصل ١٩٧٣.

(٢) ألبير أبونا: تاريخ الأدب السرياني، بيروت ١٩٧١.

ولا سيما بسبب المضايقات التي كانت تقوم بها السلطات العثمانية والعقبات التي كانت تثيرها في وجه الباباوات الذين كانوا يصدّون هجماتهم. مع ذلك، بقيت هذه المصالحة التاريخية حدثًا حيًّا في ذاكرة الذين شاركوا في أعمال المجمع، كما تشهد بذلك خطابات الباباوات والبطاركة السريان في تلك الحقبة(٣).

وفي عام ١٥٥٣، أرسل البطريرك اغناطيوس عبد الله الراهب موسى إلى رومة، حاملاً كتاباً إلى البابا بولس الثالث. فتلا الراهب موسى بين يدي البابا، «باسمه وباسم بطريركه»، دستور الإيمان الكاثوليكي والتسليم بالمجامع المسكونية المقدسة. لكن هذه المحاولة أيضاً لم تنجح. وتبعتها محاولة أخرى على عهد البطريرك نعمة الله أصفر الذي تبادل الرسائل مع البابا بيوس الرابع ومع خلفه البابا بيوس الخامس من سنة ١٥٦٣ إلى سنة ١٥٧١. وبعد مضايقات عديدة أكرهته على إعلان إسلامه، هرب إلى رومة والتجأ إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر وقضى بقية حياته هناك بالتوبة والصلاة والتكفير(٤). ويجدر القول بأن هذا البطريرك العلاّمة كان أحد العلماء الذين شاركوا في تصحيح الحساب اليولياني ووضع الحساب المعروف بالحساب الغريغوري، وما زالت له كتب ومخطوطات عديدة محفوظة في مكتبة فلورنسا.

التقدمة: فن سرياني من القرن الحادي عشر

وفي هذه الحقبة بالذات، بدأت عائلات سريانية عديدة تنضم إلى الكثلكة في سورية وما بين النهرين وخاصة في حلب حيث نشأت جماعة كبيرة بفضل المرسلين من الكبوشيين واليسوعيين(٥). وهذا ما حدا بالبطريرك الماروني يوحنا الصفراوي إلى رسامة الشماس السرياني المنضم إلى الكثلكة أندراوس أخيجان كاهناً على حلب في دير السيدة بقنوبين، بعد عودته من رومة حيث كان البطريرك يوسف

(٣) سامي اليافي: الحضارة الإنسانية، القاهرة ١٩٦٢.

(٤) يوحنا قمير: أصول الفلسفة العربية، بيروت ١٩٦٧.

(٥) ماجد فخري وخليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، بيروت ١٩٦٦.

العاقوري قد أرسله عام ١٦٤٦ لتلقّي دروسه الكهنوتية. ثم رسمه أسقفًا على حلب في الدير نفسه في ٢٩ حزيران (يونيو) سنة ١٦٥٦. لكن ما لبث المطران ان ترك مرغماً حلب بسبب معاكسة البطريرك شمعون، فلجأ إلى لبنان. وبعد وفاة البطريرك شمعون، عاد أخيجان إلى حلب فانتخب في صيف ١٦٦٢ بطريركًا على جماعة السريان المتحدين بالكرسي الرسولي. وكان في الواقع يسوس الجماعتين. إلاّ أن خلافات حادة وقعت مرة أخرى بين السريان أجبرت البطريرك أخيجان على مغادرة حلب مرة أخرى إلى الأستانة. وبعد اتصالات رفيعة المستوى، عاد إلى حلب وساس جماعة السريان الكاثوليك حتى توفاه الله في ٢٤ تموز (يوليو) ١٦٧٧(٦). وكما في عهد أخيجان كذلك في عهد خلفه البطريرك شهبادين الذي نزعت نفسه إلى الوحدة. وقد خلع هذا البطريرك بسبب القلاقل خمس مرات عن الكرسي البطريركي، حتى اضطر إلى الهرب إلى لبنان طالبًا حماية البطريرك الماروني اسطفان الدويهي في وادي قنوبين. ولما عاد إلى حلب مرة أخرى، أثيرت في وجهه عقبات ومنازعات جديدة أدّت إلى سجنه ونفيه إلى أدنه، مع المطران أميرخان وعدد من كهنة ورهبان، فسيقوا مشياً حتى الاسكندرون، ولما وصلوا إلى سجن أدنه، فارق المطران أميرخان الحياة وتبعه بعد أربعة أشهر البطريرك شهبادين ولم ينجح سوى ثلاثة رهبان، بعد تدخّل قنصل فرنسا. فقصد هؤلاء لبنان وأتوا دير

المسيح يبارك الرهبان
الفن السرياني من القرن الثاني عشر

قنوبين وطلبوا من البطريرك الماروني يعقوب عواد قطعة أرض في جوار بشرّي ليبنوا عليها ديرًا لهم بالقرب من الرهبان الموارنة. فأشار إليهم البطريرك الماروني أن يذهبوا إلى بلدة الشبانية في المتن، لأن والي طرابلس قامر فلا يصيبهم من شره متاعب. وهناك في الشبانية أسّسوا ديرًا على اسم مار افرام عام ١٧٣٠ عُرف بدير «مار افرام الرغم» لقربه من عين ماء تدعى عين الرغم. وقد عرف هذا الدير ازدهاراً منقطع النظير بفضل رهبانه وبفضل الأساقفة الذين أمّوه وسكنوا فيه، فازدان بالعلم واللغات

(٦) لويس شيخو: مجاني الأدب، بيروت ١٩٥٧.

وبالمكتبة الشهيرة التي حوت ٥٠٠ مخطوطة ثمينة وبالمطبعة التي اشتراها البطريرك بطرس جروه في ما بعد(٧).

وفي غضون ذلك، كان القس ميخائيل ابن نعمة الله جروه منذ رسامته الكهنوتية عام ١٧٥٧ يبدي رغبة شديدة في الاتحاد بالكرسي الرسولي، فقاسى من جراء ذلك كثيراً من الضغوط منعاً له من تحقيق رغبته، فرسمه البطريرك السرياني كوركيس الثاني أسقفاً على حلب في ٢٣ شباط (فبراير) ١٧٦٦. فأمل المطران جروه من وراء ذلك في ان يستطيع التحرك بحرية أكثر في تحقيق مأربه وجذب العديد من أبناء أبرشيته الحلبية التي كانت تجلّه وتحبه كثيراً. لكن البطريرك كوركيس الموصلي الذي خلف كوركيس الثاني «أخذ يضطهده بالأكثر. وقد سبب له أتعاباً كثيرة ومشقات وخسائر وافرة»(٨). ولكن المطران جروه، وعلى أثر اتفاق أهالي حلب السريان على إعلان وحدتهم بروما، هرب من دير الزعفران حيث كان يحتجزه البطريرك كوركيس وجاء حلب وتلا صورة إيمانه الكاثوليكي وأرسل فأعلم البابا بيوس السادس. فثارت الفتن والشكاوى وتحمّل المطران هو وكهنته العذابات والتهديدات حتى اضطر إلى الهرب إلى اللاذقية في ٢١ آب (أغسطس) ١٧٧٨ متنكّراً ومنها إلى قبرص، ثم الاسكندرية ودمياط ويافا فأورشليم.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٧٨١، بعد وفاة البطريرك كوركيس الموصلي

المطران ميخائيل جروه

أجمع السريان بشطريهم الأرثوذكسي والكاثوليكي على انتخاب المطران ميخائيل جروه بطريركاً عليهم، فاعتذر لكونه قد أعلن إيمانه الكاثوليكي. ولكن على إلحاح هؤلاء وبعد استشارة المجمع المقدس، قبل بذلك. فالتأم السينودس السرياني في دير الزعفران ونادى بالمطران ميخائيل جروه بطريركاً على السريان بشطريهم.

إلاّ أن الخلافات في البيت السرياني ألجأت البطريرك الجديد إلى الهرب ليلاً من دير الزعفران إلى الموصل متنكّراً ومنها إلى بغداد فالشام حتى وصل إلى بلدة بيت شباب في

(٧) فيليب فانس ميرز: التاريخ العام، بيروت ١٩٢٨.

(٨) دي لاسي أوليري: انتقال علوم الاغريق إلى العرب (ترجمة متى بيثون)، بغداد ١٩٥٨.

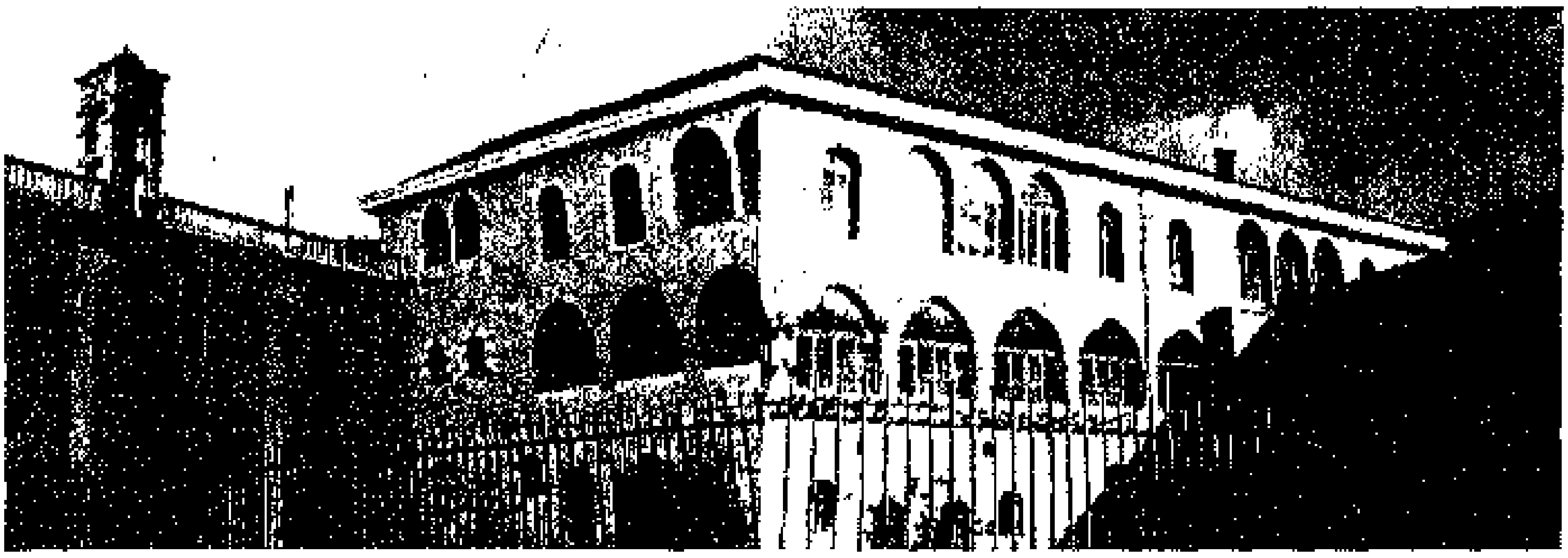

دير الشرفة القديم والجديد

لبنان. وبعد أربعة أشهر، قصد كسروان واشترى، عام ١٧٨٤، من بيت آل الخازن غرفتين وعقاراً على تلة مطلة على درعون تسمّى شرفة درعون، وعلى هذه الأرض بنى البطريرك ديراً، عام ١٧٨٦، باسم سيدة النجاة تيمناً بأيقونة سيدة النجاة التي كان يحملها على صدره طيلة فترة هربه، فأنقذته من موت محتم.

وما ان استقر الحال بالبطريرك جروه حتى باشر اتّصالاته بالحبر الأعظم وبملوك اسبانية تدعيماً لديره ولمشروعه الوحدوي. وفي مصلّى دير الشرفة احتفل البطريرك ميخائيل جروه بالذبيحة الإلهية بحضور رهط من الأساقفة والكهنة والرهبان صباح جمعة المعترفين ٢٥ نيسان (أبريل) ١٧٨٥. فقرر خلال الاحتفال بصورة الايمان الأوربائية كمألوف عادة بطاركة الشرق. ثم كتبها بخط يده ووقعها بختمه ورفعها إلى البابا بيوس السادس. ومنذ ذلك الحين أخذت الكنيسة السريانية العائدة إلى الوحدة استقلالها وعرفت باسم «كنيسة السريان الكاثوليك الانطاكية».

وبدأ دير الشرفة يزخر بالرهبان والتلاميذ يتثقّفون فيه بالعلوم والفضائل الكهنوتية وينطلقون إلى الرسالة في جميع بلدات وقرى سورية وما بين النهرين وتركيا.

وقد حافظ السريان الكاثوليك على كرسيهم البطريركي في ماردين بالرغم من ان بعضاً منهم جلس في حلب والموصل أو دير الشرفة. ومنذ عهد البطريرك افرام الثاني رحماني (١٨٩٨-١٩٢٩)، حاول نقل الكرسي البطريركي من ماردين نهائياً إلى لبنان، إلاّ ان البطريرك الكردينال جبرائيل تبوني

(٩) يعقوب منّا: **المروج النزهية**، الموصل ١٩٠١.

(١٠) البطريرك حايك: **علاقات الكنيسة السريانية بالكرسي الرسولي**، بيروت ١٩٨٥.

(١١) أنطوان رباط: **الوثائق الخطية**.

(١٢) إسحق أرملة: **تاريخ دير الشرفة**، جونيه ١٩٤٦.

هو الذي ركّز أخيراً الكرسي البطريركي في بيروت منذ عام ١٩٣٠.

لقد انتشرت الكنيسة السريانية الكاثوليكية انتشاراً سريعاً وتقدّمت في العلم والفكر والروح ونظّمت أحوالها وعقدت مجامع عدة أشهرها مجمع الشرفة عام ١٨٨٨ الذي نظّم الشرع الخاص بها، وهو شبيه بالمجمع اللبناني للموارنة الذي عقد عام ١٧٣٦.

للسريان الكاثوليك اليوم أبرشيات ونيابات بطريركية في لبنان وسورية والعراق ومصر وفلسطين وتركيا، ولهم إرساليات ورعايا في باريس والسويد ونيوجرسي ومونتريال وفنزويلا والبرازيل وسيدني وديترويت وجاكسونفيل — فلوريدا ولوس أنجلس.

البطريرك الكردينال جبرائيل تبّوني

ولهم نشاطات ومؤسسات عديدة نذكر منها: إكليريكيتي دير الشرفة والراهبات الافراميات وميتم بيت الفتاة وجمعيات خيرية ومجالس استشارية وراعوية ونادي النصر الرياضي والمستوصف المجاني ومركز البحوث والدراسات السريانية ومكتبة مخطوطات ثمينة وأخرى للمطبوعات، وأربع مدارس وخمسة أديرة.

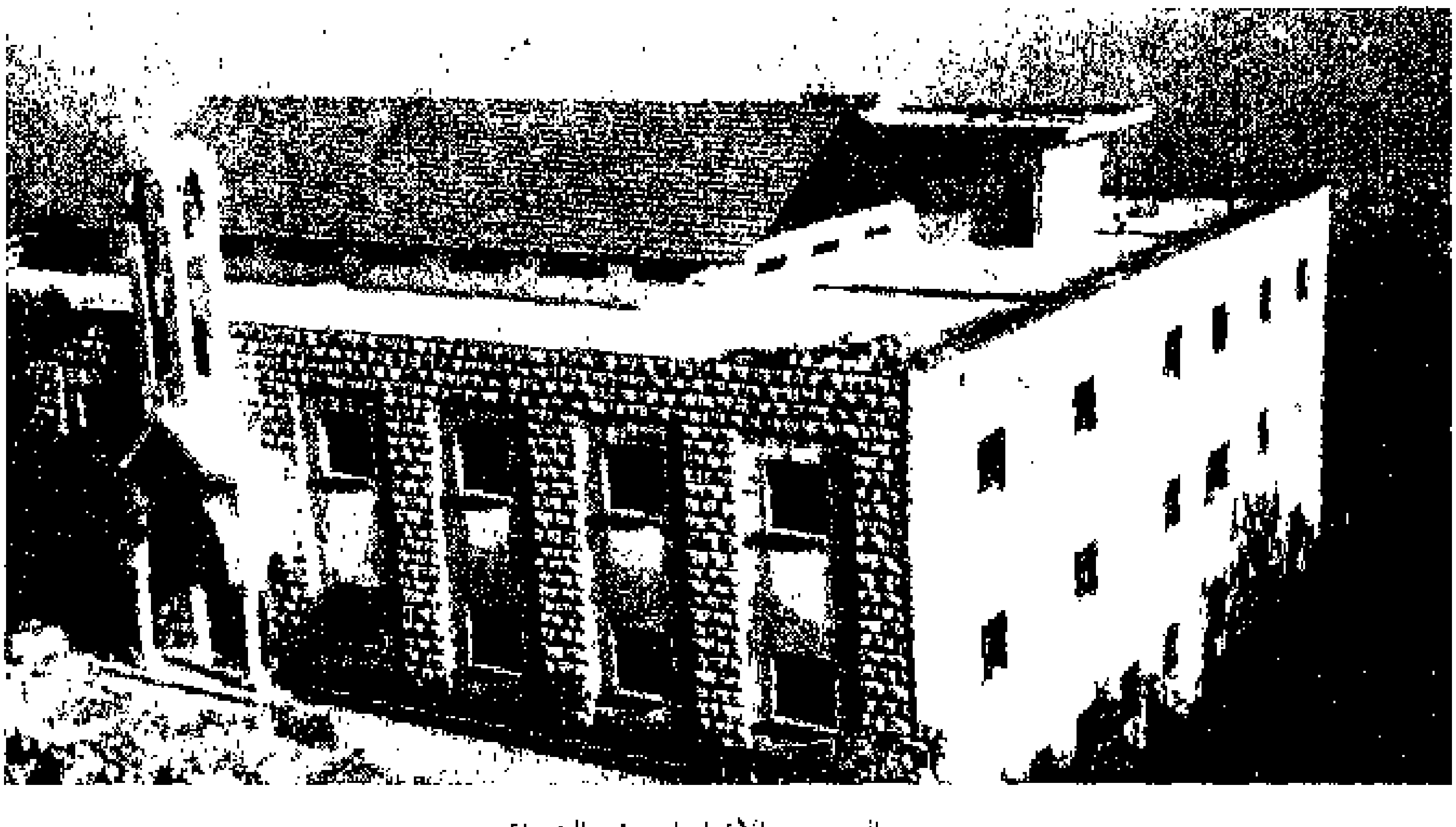

دير الراهبات الإفراميات في الشرفة

وبين شخصيات الطائفة الذين لمعوا في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، نذكر، على سبيل المثال، لا الحصر: ميشال جحا، إدمون رباط، أنطوان قتال، جو سرادار، السيدة فيروز، السيدة مريم نحاس زوجة الخوري يوسف طعمة. هذا فضلاً عن أساقفة وبطاركة وكهنة برعوا في العلم وبرزوا في المجتمع، أمثال يوسف داود وبهنام بني وجرجس شلحت وافرام رحماني واسحق أرملة وأنطوان رباط والكردينال تبوني وغيرهم...

٨. السريان الكاثوليك حاضراً

يناهز عدد السريان الكاثوليك اليوم نصف مليون نسمة. وهم بالرغم ممّا أصابهم من اضطهاد وتشتّت في العهود العثمانية، فقد انتظموا مرة أخرى ليؤدّوا دورهم الحضاري الفكري والروحي في مناطق وجودهم في بلدان الشرق الأوسط وبلدان الاغتراب. ويتوزّع القاطنون منهم في هذا الشرق على ثماني أبرشيات وثلاث نيابات بطريركية في لبنان وسورية والعراق وتركيا والأردن وفلسطين ومصر والسودان. أما في بلدان الاغتراب فيسوسهم كهنة في اثنتي عشرة إرسالية بدأ تأسيسها رسمياً منذ عام ١٩٧٦. وهذه الارساليات مرشّحة للزيادة كلما تقدمنا باكتشاف مواقعهم. ذلك بأن عدداً منهم هاجر منذ أكثر من خمسين سنة واندمج أو ضاع في طوائف أخرى. أما مراكز الارساليات الحالية التي خصصت الكنيسة السريانية الكاثوليكية اثني عشر كاهناً لخدمتها هي: باريس، السويد، نيوجرسي، ديترويت، لوس أنجلس، جاكسونفيل فلوريدا، مونتريال، تورنتو، ماراكاي، بورتولاكروس، بيلوريزونته، سيدني. وبلغ عدد السريان في الاغتراب ما يقارب ٥٠٪ من عددهم الأصلي في العالم.

٩. موجز عن أبرشيات السريان الكاثوليك

أولاً: أبرشية بيروت البطريركية: ولاية هذه الأبرشية تمتد إلى جميع نواحي لبنان، يرأسها غبطة البطريرك ويقوم بتصريف شؤونها الكنسية والراعوية نائب بطريركي بدرجة مطران. وهي مقسمة إلى خمس رعايا يخدمها خمسة كهنة. وللسريان الكاثوليك في لبنان ثلاثة أديرة: دير الشرفة (درعون - حريصا) حيث إكليريكيتان: كبرى وصغرى لإعداد كهنة المستقبل يدير شؤونها أربعة كهنة. وإلى جانب ذلك يحوي الدير مكتبة للمخطوطات النفيسة يربو عددها على ٢٥٠٠ مخطوطة. ومتحف صغير. إلى جوار الدير المذكور دير ثانٍ للراهبات الافراميات بنات أم الرحمة وهو من حق بطريركي. ثم ميتم بيت الفتاة يخدمه راهبتان من الافراميات. أما الدير الثالث فهو

(١٣) المطران بيلوني: **مقال في السريان الكاثوليك في لبنان**، مجلة المنارة، عدد ١ و٢، سنة ١٩٨٦.

(١٤) الأباتي بطرس فهد: **الكنائس الشرقية عبر التاريخ**، جونيه ١٩٧٢.

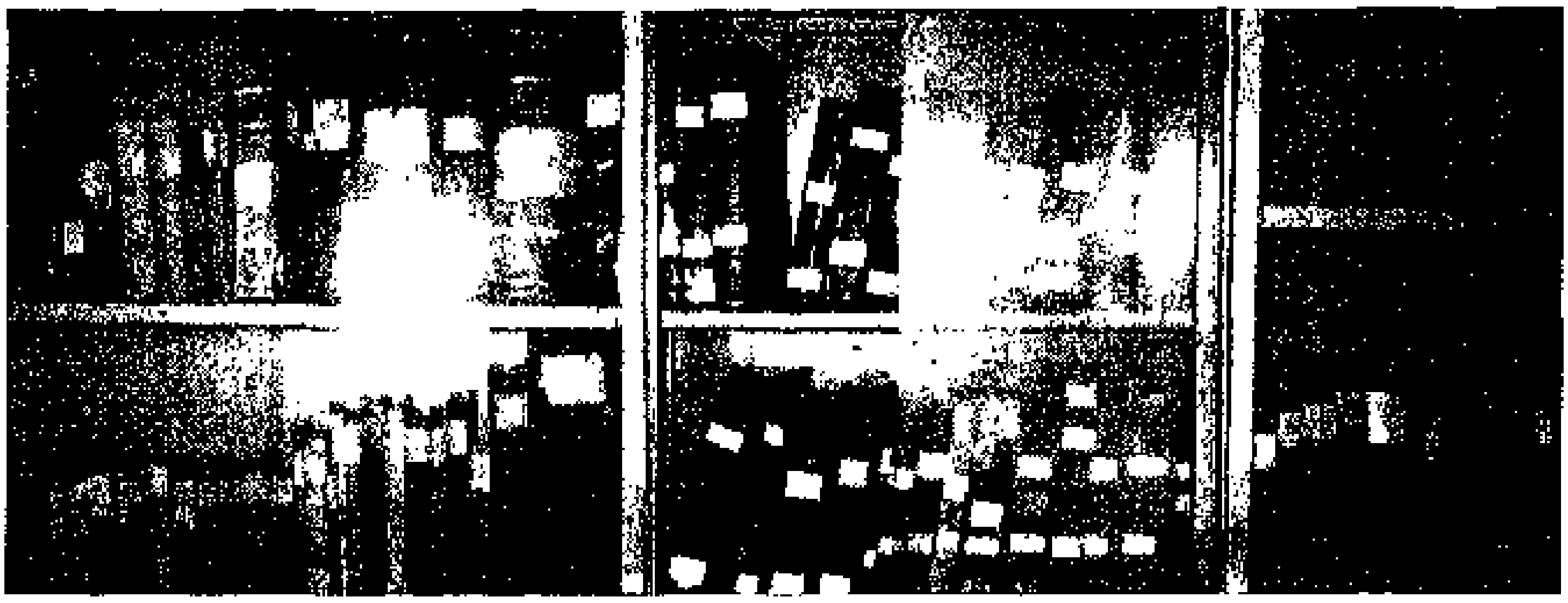
قسم من مخطوطات دير الشرفة

في أسفل قرية الشبانية في المتن الأعلى وهو بحكم الخراب، بعد أن قتل رهبانه عام ١٨٦٠ وهجره الباقون إلى ماردين حيث أسسوا لهم ديراً متخذاً نفس الاسم: دير مار افرام. والجدير بالذكر ان دير مار افرام في الشبانية كان له دور كبير في تثقيف أبناء المنطقة بما فيهم الدروز وتلقينهم اللغات الثلاث: السريانية والفرنسية والإيطالية.

عدد مدارس الأبرشية البطريركية هو اليوم ثلاث مدارس من أصل سبع، بعد أن توقف البعض منها أو دمج خلال الحرب اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩١).

وإلى جانب هذه الأديرة والمؤسسات، هناك النشاطات الراعوية والرسولية، مؤسسات اجتماعية وفكرية منها: الجمعية الخيرية، المستوصف الصحي، المجلس الاستشاري، المحكمة الكنسية، مركز للبحوث والدراسات السريانية، اتحاد الأقليات المسيحية، ناد رياضي. وفي كل رعية أخويات وحركات رسولية وشبيبة وكشافة ومجلس راعوي وجوقات تراتيل ونشرات موسمية.

وفي سياق كلامنا عن أبرشية بيروت البطريركية للسريان الكاثوليك، نرى من الضروري الاشارة بسرعة وإيجاز إلى الجذور السريانية في لبنان. هذه الجذور ترقى إلى العهد الآرامي منذ ١٦٠٠ ق.م. وقد حافظ السريان الآراميون على لغتهم وتراثهم وأصالتهم بعد تنصرهم وانتظموا تحت سلطة بطريركية انطاكية السريانية وما زالوا بالرغم من تفرّع كنائسهم واتخاذها أسماء وأوضاع إدارية وقانونية مستقلة.

ومنذ القرن السابع الميلادي، تكونت في لبنان كنيسة سريانية، في بطريركية خاصة، باسم «سريان موارنة» فاحتضنت هذه الكنيسة الجماعات السريانية المنتشرة في البلاد؛ لا سيما في مناطقه الشمالية.

أما السريان الحاليون (أرثوذكس وكاثوليك)، فبعد ان انتظم من كان منهم في لبنان في سالف الأيام واندمج مع الزمن في الكنيسة المارونية، بدأوا مرة أخرى في تكوين كنيستهم، ابتداءً من القرن السابع عشر حتى أصبح لهم كنيسة سريانية، الواحدة كاثوليكية والثانية أرثوذكسية، والغالبية الساحقة من

هؤلاء السريان هي من السريان القادمين من بلاد سورية وما بين النهرين وتركيا ومصر منذ العهو العثمانية. وذلك على اثر اضطهادات ومضايقات ومذابح كان آخرها مذابح تركيا عام ١٩١٥.

ثانياً: أبرشية دمشق: يسوسها رئيس أساقفة وثمانية كهنة يخدمون رعاياها السبع ويرشدون شبيبة الرعايا وأخوياتها. وفي الأبرشية دار للعجزة وداخلي للفتيات الجامعيات ومحكمة كنسية ومؤسسة يسوع العامل، وليجيوماريه ومركز للتعليم المسيحي وجمعية خيرية ومجالس راعوية وجوقات تراتيل ونشرة كنسية موسمية.

ثالثاً: أبرشية حمص وحماه والنبك: يسوسها رئيس أساقفة يعاونه اثنا عشر كاهناً في خدمة عشر رعايا. وإلى جانب الأخويات ولجوقات التراتيل الكنسية مؤسسات ونشاطات رسولية وخيرية مثل: مجالس راعوية، ومجلس أبرشي، جمعية خيرية، مراكز للتعليم المسيحي، رهبنة مار موسى الحبشي، مؤسسة أرض البشر للمعاقين جسديا، مدرسة ابتدائية. وتجدر الاشارة، في هذه الأبرشية، إلى دير مار موسى الحبشي بجوار النبك يرقى عهده إلى القرون الوسطى أو ما قبلها يحوي جدرانيات نفيسة من القرن الثاني عشر. وقد اتخذت رهبنة مار موسى الحبشي الفتية هذا الدير مركزاً لها بعد ان رمّمت فيه ما يجعله أهلاً لسكنى رهبان زاهدين.

رابعاً: أبرشية حلب: يسوس هذه الابرشية رئيس أساقفة يعاونه في خدمة رعيتها سبعة كهنة يؤلفون مع مطرانهم المجلس الابرشي. في الابرشية أخويات وحركات رسولية للشبيبة وجوقات تراتيل ولجان وقف بالإضافة إلى المحكمة الكنسية والجمعية الخيرية وجمعية التضامن للاسكان ورابطة قدامى الاكليريكيين ونشرة فصلية وندوتين للشباب.

خامساً: أبرشية نصيبين والحسكة: يسوسها رئيس أساقفة ويعاونه في خدمة رعاياها الثلاث أربعة كهنة، في كل رعية مجلس راعوي وأخوية أو أخويتان. وجمعية خيرية ومركز للتعليم المسيحي. والجدير بالذكر ان التعليم المسيحي في الابرشية عهد فيه إلى الراهبات الافراميات بنات أم الرحمة اللواتي اتخذن لهن مركزاً في هذه الأبرشية لهذه الغاية.

سادساً: أبرشية الموصل: يسوسها رئيس أساقفة يعاونه واحد وعشرون كاهناً يخدمون رعاياها العشر. في كل رعية عدة أخويات وجوقة تراتيل وندوة دينية، ومركز للتعليم المسيحي. وقد أُنشئت في الأبرشية عدة مشاغل لسد حاجات العائلات الفقيرة بسبب الحصار الجائر على العراق. وتمتاز هذه الابرشية بجمعية كهنوتية هي «جمعية كهنة يسوع الملك» وبدورات لاهوتية وحلقات دراسية ومجلة شهرية باسم «الفكر المسيحي». كما أن هناك ديراً أثرياً شهيراً من القرن الثالث عشر وهو دير مار بهنام الشهيد الذي يستقبل المؤمنين والشبيبة

---

(١٥) المطران ميخائيل الجميل: مقال في «الكنيسة السريانية بين انطاكيا وسلوقيا – قطيسفون» صدر في مجلة بين النهرين، سنة ١٩٧٧، عدد ١٨ و١٩.

في خلوات روحية ومؤتمرات. ويحتوي على مكتبة نفيسة للمخطوطات تربو على الخمسمائة مخطوطة. أما الدير الأثري الثاني في هذه الابرشية فهو دير مار يوحنا الديلمي المعروف بدير «نوقورتايا» من القرن التاسع الميلادي، وهو اليوم أطلال.

سابعًا: أبرشية بغداد: يسوسها رئيس أساقفة يعاونه سبعة كهنة يخدمون أربع رعايا. في الأبرشية أخويات وجوقات تراتيل وجمعية خيرية ومكتبة عامة للمطالعة ومراكز للتعليم المسيحي ومشغل حرفي ومجالس راعوية.

ثامنًا: أبرشية القاهرة: يسوسها أسقف هو في الوقت نفسه نائب بطريركي على السودان. ويدير شؤون رعاياها الثلاث، مع رعية الخرطوم في السودان، أربعة كهنة. في هذه الأبرشية مجلس أبرشي ومدرسة ومستوصف وجمعية خيرية وجمعية مار منصور وناد للعائلات وأخوية للسيدات.

١٠. النيابات البطريركية

أولاً: النيابة البطريركية في البصرة (العراق): يسوس شؤونها مطران بغداد ويخدم النفوس فيها حاليًا كاهن واحد بسبب صعوبة الأوضاع في المنطقة الحدودية مع الخليج. وتشمل هذه النيابة مدن البصرة والعمارة والناصرية مع الكويت والخليج. في هذه النيابة أخوية وناد للعائلات ومركز للتعليم المسيحي.

ثانيًا: النيابة البطريركية في القدس: تمتد حدود هذه النيابة إلى جميع الأراضي المقدسة والأردن. يسوسها نائب بطريركي بدرجة خوراسقف يساعده كاهن واحد في خدمة أبناء رعية عمان (الأردن). في هذه النيابة مدرسة وأخوية للسيدات ومؤسسة الموعوظين ومجلس راعوي ودار «أبونا إبراهيم» لاستضافة الحجاج.

ثالثًا: النيابة البطريركية في اسطنبول (تركيا): يسوسها نائب بطريركي بدرجة خوراسقف. وتشمل حدودها بلاد تركيا بأسرها. لهذه النيابة أخوية للسيدات ومجلس ملّي ودار للضيافة وجوقة تراتيل.

في ختام هذه الدراسة الوجيزة أود التنويه بما قدمته هذه الكنيسة عبر أبنائها من خدمات علمية في التأليف والترجمة والنشر، نثر علماؤها عصارة علمهم ونتاج فكرهم فأثروا المكتبات بمجلدات قيمة تناولت الأدب والتاريخ والفلسفة واللاهوت والقانون والعلوم الاجتماعية والدينية والسياسية. وأغلب هؤلاء الكتبة والمترجمين من الاكليرس. وقد ناهز عدد المجلدات التي جادت بها أقلامهم الألفي مجلد خلال القرن العشرين.

هذا بالإضافة إلى خدماتهم وإخلاصهم وعطائهم حيث ما وجدوا، في الميادين الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، محقّقين بذلك رسالة جدودهم السريان منذ العهود الآرامية، رسالة حضارة وأخلاق وانفتاح.

(١٦) فيليب دي طرازي: أصدق ما كان، بيروت ١٩٤٨.

(١٧) مجلة رعيتي، العدد ٣، فصح ١٩٩٦، صفحة ١٧، مقال الأب أنطوان ناصيف.

١١. الطقس، الروحانية، الفن

١) الطقس

ورثت كنيسة انطاكية السريانية طقوسها من أورشليم عن طريق المؤمنين الاوائل، ولا سيما عندما استقرّ فيها بطرس هامة الرسل، وفيها دعي المؤمنون الجدد مسيحيين لأول مرة.

كانت هذه الطقوس قريبة جداً من الطقوس اليهودية، يقتصر بعضها على تلاوة المزامير وعلى القراءات من الكتاب المقدس. ثم أُضيف إليها رويداً رويداً عبادات وصلوات وقراءات. ومع الزمن، أخذت كنيسة انطاكية تجمع ما توفر لديها من تقاليد وعبادات وتعاليم وتمعن في تنظيمها وترتيبها بحسب عبقريتها الحضارية المتشعبة المشارب، لا سيما الحضارة اليونانية المتميزة بالمنطق وبرشاقة التنسيق.

ولقد زاد الطقسَ السرياني عمقاً وغنًى خبرةُ الآباء القديسين والرهبان الزاهدين والمدارس السريانية الشهيرة والملافنة الذين شرحوا الكتاب المقدس وأشبعوا منه النصوص الطقسية، حتى غدا طقس الكنيسة السريانية أشبه بلاهوت كتابي أو بتعليم مسيحي موسّع وشامل يغطي جميع أيام السنة. ويشد المؤمن إلى الحقائق الإلهية معروضةً بأسلوب بسيط ودافئ، شعراً ولحناً وصلاة جماهيرية مؤثّرة.

لقد دأبت الكنيسة السريانية الانطاكية على تلحين صلواتها وتنظيم الكثير منها شعراً وتوزيع الألحان على الازمنة الطقسية، موافقةً بين اللحن والحدث. ويعود الفضل الكبير في تنظيم هذه الالحان إلى مدرستين شهيرتين انطلق منهما هذا التنظيم، هما مدرسة الرها ومدرسة نصيبين. فيهما أُنشأ مشاهير الآباء الكنسيين الموشحات والمنظومات لتُرتَّل في الطقوس لمكافحة الاضاليل. نذكر من هؤلاء الآباء: افرام السرياني الملقّب بكنارة الروح القدس (٣٧٣†) ورابولا أسقف الرها (٤٣٥†) واسحق الانطاكي (٤٦٠†) ويعقوب السروجي (٥٢١†) ويعقوب الرهاوي (٧٠٨†) وبالاي الحلبي وشمعون القوفي وجورجي أسقف الكوفة (٧٢٤†).

أما أنواع الترانيم السريانية فهي: المداريش والبواعيث والميامر والتخشفات الخ... هذه التصانيف هي بغالبيتها مستقاة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. وهي بتنوعها تدل على اشتراك الشعب في معظم الصلوات، ولا سيما في صلوات الساعتين القانونيتين: صلاة المساء وصلاة الصباح.

وبالاضافة إلى أنواع الترانيم هذه، هناك تنوّع كبير أيضاً في الالحان. فلكل وزن معين ثمانية ألحان تتغير مع المناسبة ومع الزمن الطقسي.

قليلون هم من الاكليرس والشمامسة العلمانيين من يلمّون بهذه التراتيل والالحان الطقسية في أيّامنا، لاقتران هذه الالحان باللغة السريانية التي أصبح بعض الكهنة أنفسهم يجهلونها.

يمكن اليوم الاستفادة من مبادرات كثيرة قام بها محبّو الطقس السرياني مثل «Don Jeannin» في كتابه «الألحان السريانية المنوّطة» والمطران أنطوان يلوني الذي جدّد طبع الكتاب المذكور، مضيفاً إليه تراتيل سريانية حديثة، والأب إميل أسود مع الأستاذ يوسف وهبه

اللذين ترجما ألحان الرتب السريانية إلى العربية شعراً ولحناً.

هذه المبادرات من شأنها، إن استُغلّت، أن تنعش الطقوس مع شيء من التحديث لمواكبة الزمن.

٢) الروحانية

من التأمل في الصلوات الطقسية ومن مطالعة كتابات الآباء القديسين والوقوف عند الزهد الذي عاشه الرهبان والمتوحّدون والنساك في كنيسة انطاكية السريانية، يتبين جلياً ان روحانية هذه الكنيسة قائمة على الايمان بإله أب رحوم يقبل توبة الخاطئ ويغفر له. هذه الرحمة وهذا الحنان اللذان يزخر بهما قلب الرب جعلا المؤمن في الكنيسة السريانية يغرق في صلاة متواصلة كما جعلت الراهب يعشق الزهد في أقسى درجاته والمضطهَد من أجل البر يقبل الهوان والعذاب حتى الموت.

لقد عكست كتابات آباء الكنيسة السريانية ورهبانها روحانية هي صدى لخبراتهم الحياتية مع الله عبر التأمل في الكتاب المقدس والمثابرة على الطقوس. وأكثر ما يبرز في كتاباتهم وممارساتهم هو: الصلاة والتوبة وحنان الرب ومحبة القريب والغذاء من كلام الرب وجسده.

ان بقاء المسيحية حية في هذا الشرق يبقى أعجوبة إذا ما قيس بالويلات التي انهالت على تبّاع المسيح عبر تاريخهم الطويل. فكنيسة انطاكية قاومت بإيمانها وثباتها كل التيارات الوثنية وصمدت في وجه كل المجازر البربرية المتتالية، وذخيرتها للطريق دماء شهدائها وصلاتها وطقوسها وتعاليم آبائها وصمود رهبانها. في كل ذلك تبقى فكرة التوبة من جهة ورحمة الله من جهة أخرى القطبين الرئيسين لحياة هذه الكنيسة ومسيرتها حتى اللقاء السعيد بين أحضان الآب.

٣) الفن

لم يقتصر الفن، لدى السريان، على الشعر واللحن وحسب، بل تعداه إلى الرسم أيضاً، كما تشهد بذلك جدرانيات كنائس وأديرة قديمة مزروعة هنا وهناك في هذا الشرق.

ان الرسم لدى السريان يعود، في أصله، إلى العصور الآرامية الوثنية، وقد انتقلت رموزه وأشكاله إلى مفهوم مسيحي بعد انتقال السريان الآراميين من الوثنية إلى المسيحية، كما هو بائن في منمنمات مخطوطة لرابولا وفسيفساء انطاكية وفلسطين وجبل تابو.

لقد شغف السريان بتصوير أحداث حياة يسوع ومراحلها على جدران كنائسهم. وبالرغم من كل التخريب الذي طالها عبر عصور الجهل والغزو التتري وعهود بني عثمان المظلمة، فان آثاراً هامة لهذه الجدرانيات ما زالت بادية في العديد من كنائس وأديرة قديمة مثل: مغارة جبل موسى شمال غربي انطاكية (تركيا) ودير مار موسى الحبشي ودير مار

(١٨) Jules Leroy: *Les manuscrits syriaques*, Paris 1964.

(١٩) مراجع أجنبية أهمها: ڤابو، تيسران، دي ڤال، فييه...

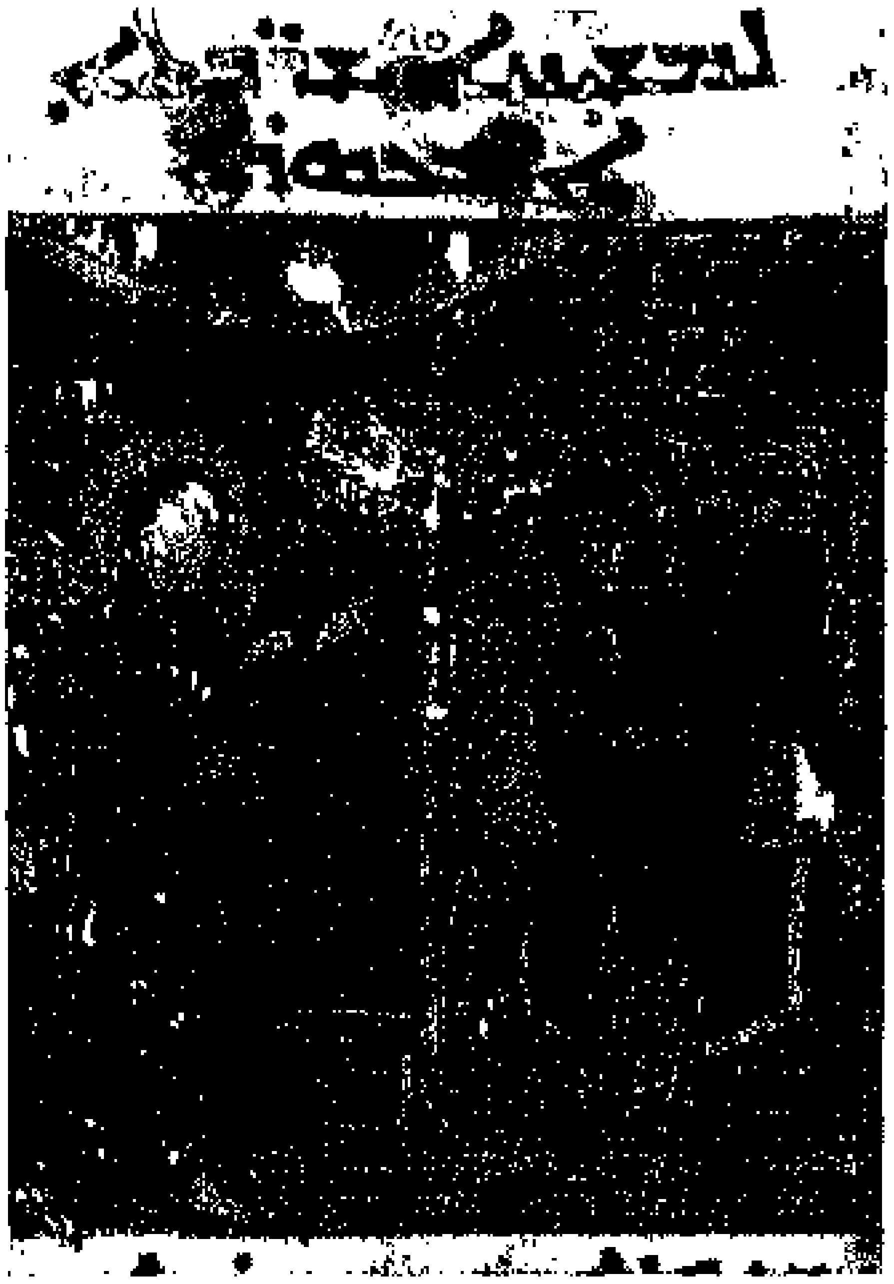

البشارة
فن سرياني من القرن الثاني عشر

يعقوب في قرى، جوار النبك (سورية) ومغارة القديسة مارينا وجدرانيات بحديدات وايليج وميفوق ومعاد وكنيسة مار فوقا بأميون (لبنان) وجدرانيات دير السريان في وادي النطرون (مصر).

بقي الفن السرياني منفتحاً غرباً على البحر الأبيض المتوسط ومتصلاً شرقاً بالعمق الأسيوي الشاسع، مما جعله يشكّل وحدة رائعة من مجموعة أساليب فنية أتت بها عبقرية مراكز حضارية متعاقبة من آرامية وثنية فسريانية مسيحية ويونانية هلّينية مغربية إسلامية متأثرة بلمسة فارسية وأحياناً مغولية.

وهكذا يمكن القول بأن عبقرية الفن السرياني تتجلى في مرونته وقدرته على التكيّف والاستيعاب والاقتباس، دون ان يفقد هويته وطابعه الخاص ليؤثر هو أيضاً في الفنون المحلية المواكبة.

وغنيّ عن القول بأن السريان لم يعتمدوا قواعد ثابتة أو تقنية خاصة، كما فعل فيما بعد البيزنطيون والروس، ولم يفكّروا في إعطاء الصورة أو الايقونة معاني لاهوتية دقيقة من خلال القياسات والأبعاد الهندسية التي قامت عليها الايقونة البيزنطية ولا أبرزوا الهالة الإلهية والعظمة الملوكية من خلال الوقفات والنظرات الأمبراطورية. ان ما أراده السريان بكل بساطة هو التعبير بعفوية عما في نفوسهم من وصال بحقائق الأسرار الخلاصية وما في قلوبهم من صبابة وتوق. فجاءت رسوماتهم وصورهم، بخطوطها المرنة وانحناءاتها الليّنة وسذاجة تناسقها وألوانها الدافئة، شبيهة برسوم أطفال أبرياء لا تغريهم التقنية والقياسات أكثر مما تشدهم الحقيقة والحدث الروحيّان.

لا شك ان عدم ارتباط السريان بدولة (سريانية)، كما حصل لكل من الكنيستين البيزنطية والروسية، هو أحد أهم العناصر المؤثرة في إبقاء الفن السرياني بدائي الشكل بين الخطوط ومتعاطفاً مع أنماط فنون حضارات متعاقبة.

كنيسة الأقباط الكاثوليك

بقلم مجموعة من المؤلّفين

مقدمة

الكنيسة القبطية هي امتداد الكنيسة الإسكندرية الشهيرة إلى كل القطر المصري، كما أنها انتشرت خارج القطر المصري في ليبيا غرباً وفي الحبشة جنوباً.

وكلمة «قبطي» مشتقة من الكلمة اليونانية «Aiguptos» التي كانت تطلق على الشعب المصري، وصار هذا اللفظ «Guptos» عند العرب، بحذف الحروف المتحركة الأولى، ومنها جاء التعبير: اللغة القبطية والكنيسة القبطية. وخصّص هذا اللفظ منذ الفتح العربي لمسيحيي مصر (القبط) ولكنيستهم «الكنيسة القبطية».

ويرجع تأسيس هذه الكنيسة، بحسب تقليد كنسي قديم، إلى القديس مرقس الإنجيلي. وقد اشتهرت بمدرستها اللاهوتية (الديدسكاليون) وبعدد شهدائها الذين رووا أرض مصر بدمائهم الزكية، كما يدين لها العالم المسيحي بقيام الحياة الرهبانية على مختلف أنواعها. وأخيراً كان لها الدور المتميّز في دحض الهرطقات في المجامع المسكونية الأولى بفضل أساقفتها العظام أمثال أثناسيوس الرسولي وكيرلّس الكبير، وقد قال فيها الأب برا اليسوعي في كتابه «أوريجانيس» ج ١١: «إذا كانت رومة قلب المسيحية، فالإسكندرية كانت عقلها المفكّر».

وبالأسف أخذ دورها يتضاءل في الانقسام الذي دبّ فيها بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١. ومن جهة أخرى، نرى فيها اليوم بوادر نهضة روحية تبشّر بكل خير في سبيل الوصول إلى الوحدة التي يريدها السيد المسيح لكنيسته.

نقسّم بحثنا إلى سبعة أقسام

١. كنيسة الإسكندرية قبل الانفصال إلى سنة ٤٥١.

٢. الكنيسة القبطية من بعد الانشقاق، من سنة ٤٥١ إلى الانشقاق الكبير سنة ١٠٥٤.

٣. الكنيسة القبطية في العصور الوسطى ومساعي الاتحاد بين رومة والكنيسة القبطية من

سنة ١٠٥٤ حتى سنة ١٧٤١.

٤ . مسيرة الكنيسة القبطية الكاثوليكية – الآباء الفرنسسكان والنواب الرسوليون من سنة ١٧٤١ حتى سنة ١٨٩٥.

٥ . الكنيسة القبطية في العصر الحديث.

٦ . الفن القبطي.

٧ . الليترجية القبطية.

القسم الأول

نشأة كنيسة الإسكندرية ودورها وازدهارها
(٤٨ - ٤٥١)

بقلم القمّص إسكندر وديع*

ينقسم هذا القسم إلى خمسة فصول

١ . نشأة الكنيسة ونموّها في الأجيال الثلاثة الأولى
٢ . مدرسة الإسكندرية
٣ . ملحمة الشهداء
٤ . نشأة الرهبنة
٥ . دور أساقفة كنيسة الإسكندرية في المجامع المسكونية الأولى .

* أستاذ العقيدة وتاريخ الكنيسة وعلم الآباء

الفصل الأول

نشأة الكنيسة في مصر
ونموّها في الأجيال الثلاثة الأولى

أولاً: مقدّمة - نظرة عامة الى وضع مدينة الإسكندرية

أسس الإسكندر الكبير مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق. م. كمرفأ تجاري، وزيّنها بالمباني والقصور الفخمة والشوارع المتسعة والبساتين الجميلة. وكانت الإسكندرية «درّة البحر الأبيض المتوسط». فجذبت أنظار العالم واستوطنها عدد كبير من اليونانيين واليهود، فصارت الإسكندرية ملتقى العروق والثقافات والأديان في حضارة هلّينية قائمة على اللغة اليونانية.

وسرعان ما انتشرت فيها المتاحف والمدارس الفلسفية - الميوزيوم والسيرابيون والمكتبات الشهيرة والمدرسة اليهودية بفضل فيلون الشهير الذي حاول التوفيق بين الفلسفة والتوراة - وهنا تأسّست المدرسة المسيحية الشهيرة التي سمّيت «الديدسكاليون» والتي ضارعت المدارس الأخرى وأتى إليها الفلاسفة من كل حدب وصوب.

في هذه المدينة العريقة تُرجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية لتكون في متناول الجميع. وهي الترجمة التي تسمّى «الترجمة السبعينية».

وفي هذه المدينة العريقة، اشتهر الكثيرون من العلماء، أمثال إقليمس عالم الرياضيات العظيم وأرخميدس صاحب قانون الطفو وغيرهما، فكانت الإسكندرية حقًّا عاصمة العلم والفلسفة لكل الأمبراطورية الرومانية.

وفي هذا الجو الزاخر بالعلم والفلسفة، ظهرت المسيحية التي وجدت أرضًا خصبة. وسرعان ما جذبت إليها كل هذه العقول المتعطّشة الى العلم والإيمان.

ثانيًا: نشأة الكنيسة ونموّها

دخل القديس مرقس هذه المدينة بإلهام إلهي حوالى السنة ٤٨ بحسب تقليد كنسي قديم يخبرنا عنه المؤرخ المسيحي الشهير أوسابيوس القيصري في القرن الرابع، وهو يستند إلى أقوال يوليوس الافريقي في أوائل

القديس مرقس الإنجيلي

القرن الثالث. كما أن لدينا شهادات أيفانيوس (الرد على الهرطقات ٢-٥) وهيرونيمس (الرجال العظام ٨).

وجد مرقس في الاسكندرية، وسط الجالية اليهودية، بعض الأشخاص الذين وصلتهم الرسالة المسيحية منذ يوم العنصرة (رسل ٢/١٠)، وقد تمكّن بعضهم من معرفة السيد المسيح، وأخذوا يبشّرون به. ويذكر سفر أعمال الرسل أحدهم وهو «ابلّس»، «اسكندري الأصل، رجل فصيح اللسان» (رسل ١٨/٢٤-٢٦). فنظّم القديس مرقس هذه الجماعة الناشئة ورسم لها شمامسة وكهنة وواصل التبشير في كل القطر المصري. ثم دعته الغيرة الرسولية إلى التبشير في ليبيا التي كانت، بحسب بعضهم، موطنه الأصلي. وازدهرت في تلك الديار الغربية جماعات مسيحية ضخمة، حتى أصبح للمدن الخمس، وهي قيرينه وبطلمايس وأرسينوية وسوزوزا وبردينة، منذ القرن الثاني، خمسة أساقفة تابعون لأسقف الاسكندرية. وعند رجوع مرقس البشير إلى الاسكندرية، هاج عليه الوثنيون. وفي أثناء الاحتفال بعيد القيامة سنة ٦٨، هجم عليه الأعداء وجرجروه في الشوارع حتى أسلم نفسه الطاهرة إلى باريها، فنال اكليل الرسولية واكليل الشهادة بعدما أضاء القطر المصري بنور الانجيل وغرس فيه بذرة كنيسة مجيدة.

ثالثًا: نشأة الديدسكاليون

وبعد القديس مرقس، يذكر أوسابيوس المؤرخ قائمة تضم عشرة أساقفة ترأس كل منهم الكنيسة لمدة اثني عشر عامًا دون ذكر شيء عنهم بالتفصيل، إلاّ أنه يمكننا أن نستنتج أنهم قاموا بنشاط كبير على مستوى القطر كله. وقد أسسوا مدرسة تعليمية لإعداد الموعوظين للعماد كان لها شأن كبير في ما بعد باسم «الديدسكاليون». وازداد عدد المسيحيين ولا سيما في صعيد مصر حيث ترجمت الكتب المقدسة من اللغة اليونانية، التي لم يعد يفهمها الشعب، إلى اللغة القبطية لغة الشعب. ولدينا بعض المخطوطات للإنجيل باللغة القبطية ترقى إلى ذلك العهد. وبانتشار المسيحيين، ازداد عدد الأساقفة اللازمين لرعايتهم، ووصل عدد هؤلاء الأساقفة إلى خمسين في سنة ٢٥٠ وإلى مائة في سنة ٣٢٠. وأخيرًا ظهر ازدياد المسيحيين بعدد الشهداء الذين رووا أرض مصر بدمائهم الزكية في ملحمة الشهداء. وأول أسقف يكلّمنا عنه التاريخ بشيء من التفصيل هو ديمتريوس الكرّام (١٨٠-٢٣٠). وقد عني عناية خاصة بمدرسة الاسكندرية وعيّن لها مديرا

شهيراً في شخص أوريجانيس بعد هروب اقليمنضس أثناء الاضطهادات. وتدخّل ديمتريوس في موضوع المشكلة الفصحية مسانداً فكتور أسقف رومة في تحديد يوم عيد القيامة (يوم الأحد التالي الرابع عشر من شهر نيسان)، ردّاً على كنائس آسية التي كانت تعيّد في يوم الرابع عشر من نيسان. وبتلك المناسبة نظّم الحساب القبطي الذي حدّد عيد الفصح لكل سنة، وهو الأحد الواقع بعد اكتمال القمر من الاعتدال الربيعي، كما أنه أوّل من رسم في مصر أساقفة للمدن الأخرى التابعة له، وأوّل من اتّخذ في الكنيسة لقب «بابا الاسكندرية».

وخلفه ياروكلاس، أحد تلامذة أوريجانيس، في المدرسة الاسكندرية. وكان فيلسوفاً متضلّعاً من شتى العلوم الفلسفية، كما كان خطيباً مفوّهاً. وكان له تأثير كبير في النفوس حتى إنه اكتسب عدداً كبيراً من الوثنيين إلى المسيحية. وقام برحلة رعوية طاف خلالها في مدن القطر المصري، وبسبب ازدياد عدد المسيحيين، رسم لهم عشرين أسقفاً.

وهناك وجه مشرّق للكنيسة في ذلك الزمان وهو القديس ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٢). كان أسقفاً عظيماً وكاتباً قديراً، ترك لنا مجموعة رسائل تدل على اهتمامه بجميع شؤون الكنيسة في زمانه وعلى سمو مكانته اللاهوتية في دحض الهرطقات التي ظهرت في وقته. حارب القائلين بالنظرية الألفية ولا سيّما الهرطقة الصابلية التي تنكر الثالوث وتتكلم عن أقنوم واحد اتخذ ثلاثة أشكال مختلفة. وكان معتدلاً وصانع سلام بين الأطراف المختلفة. يحارب التشدّد في النسك وفي معاملة المرتدّين. وأبرز قيمة الزواج المسيحي، ردّاً علي الذين يرون فيه دنساً وشراً، كما أنه حثّ على قبول الخطأة الراجعين إلى الله بتوبة صادقة، بعد أن ارتدّوا عن المسيحية بسبب ضعفهم أثناء الاضطهادات، متّخذاً موقف أسقف رومة ضد نوخاسيوس المتشدّد. لذلك وقف، في مسألة تعميد الهراطقة، في صف إسطفانس أسقف رومة ضد قبريانس أسقف قرطاجة. وقد شكاه أخصامه إلى البابا ديونيسيوس بأنه يقلّل من قيمة الابن بالنسبة إلى الآب، فطلب إليه البابا إيضاحاً عن موقفه، وردّ عليه بطريرك الإسكندرية وتمّ التفاهم بينهما.

وتعرّض في أيامه لاضطهاد داقيوس، فهرب مرة، ثم نفي مرة ثانية إلى الصحراء الليبية حيث بشّر وجذب الكثيرين إلى المسيحية. ثم أُفرج عنه في عهد اليانس. فرجع إلى الإسكندرية مكرّماً. واستمر في خدمة كنيسته بكل أمانة حتى لقي ربه سنة ٢٦٢.

ومن بعده انتشرت المسيحية في مصر انتشاراً واسعاً حتى صار عدد المسيحيين ثلث عدد السكّان في أواخر القرن الثالث. وزاد عدد الأساقفة على المائة في السينودس الذي عقده البطريرك الكسندرس ضد آريوس سنة ٣٢٠.

الفصل الثاني

مدرسة الإسكندرية الديدَسْكاليون

أخذت مدرسة الموعوظين في الاسكندرية تحرز شهرة واسعة، عندما بدأ يعلّم فيها الأساتذة الكبار. وأول اسم مشهور هو بنطينس وخلفه اقليمنضس الاسكندري، وأعظمهم هو أوريجانيس.

وقد تطوَّر نشاط هذه المدرسة من التعليم الديني إلى جامعة تضم مختلف العلوم الرياضية والفلك والفلسفة وتفسير الكتب المقدسة. وكانت المدرسة مفتوحة للجميع، من وثنيين ويهود ومسيحيين، ومن أغنياء وفقراء، ومن رجال ونساء، فكان لها الدور الكبير في تعليم المؤمنين وترسيخهم في الإيمان. واستطاعت أن تجذب الكثير من الوثنيين إلى الايمان القويم كما أنها حاربت الهرطقات المنتشرة في ذلك الزمان، ولا سيما الهرطقة الغنوصية التي كان لها طابع سرّي لا يُفضى به إلاّ إلى أتباعها، وتدّعي أن المعرفة كافية للخلاص، ولا حاجة إلى الإيمان والإنجيل.

امتازت هذه المدرسة بموقفها الإيجابي من الفلسفة اليونانية ورأت فيها شعاعاً من الحقيقة النابعة من نور الكلمة الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم، وطريقاً إلى الحق الكامل، وهو الرب يسوع. وهكذا تمّت المصالحة بين الفلسفة والدين، وصارت الفلسفة خادمة للدين.

وعرضت هذه المدرسة الديانة المسيحية بصفتها الغنوصية التي لا تكتفي بالإيمان البسيط الضروري لكل مسيحي، بل تعمل على تكوين المسيحي الكامل الذي يتعمّق في الإيمان ويصل إلى التأمل في الروحيات، وهو علم يستند إلى الإيمان وعلى نعمة الله، وهو مقدَّم للجميع، لا لخاصة متميزة فقط. ومن هنا نرى الفرق بين الغنوصية المسيحية والغنوصية المزيَّفة.

وقد اشتهرت المدرسة الإسكندرية بتفسير الكتاب المقدّس الرمزي، غير مكتفية بالمعنى الحرفي الذي وقفت عنده المدرسة الانطاكية. وأرادت أن تتعدّاه وتكتشف المعنى الروحي العميق وراء السطور في الكتاب المقدس، فتجد حقائق كثيراً ما تتفق مع بعض الحقائق الفلسفية. وكان هذا الأسلوب متبعاً عند الفلاسفة الوثنيين لتفسير أساطيرهم الدينية، كما استعمله فيلون العلاّمة اليهودي في شرح التوراة.

نجد له تطبيقاً عند القديس بولس، عندما يرى في هاجر وسارة رمزاً للعهد القديم والعهد الجديد (١ قور ١٠/٤).

وأعظم أستاذ لهذه المدرسة هو بلا شك أوريجانيس (١٨٥-٢٥٣)

وُلد أوريجانيس في الإسكندرية سنة ١٨٥ من والدين مسيحيين. تلقى علومه الأولية عن يد والده ليونيداس الذي غرس فيه حب الكتاب المقدس حتى كاد ان يحفظه عن ظهر قلب. وبعد استشهاد والده، تابع دروسه عن يد اقليمنضس الإسكندري، مدير مدرسة الإسكندرية. وبعد هروب إقليمنضس أثناء اضطهاد سبتيمس سافيرس سنة ٢٠٣، عيَّنه أسقفه ديمتريوس على رأس المدرسة وكان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره. فأخذ يدرّج تلامذته من الآداب إلى العلوم وإلى شرح الكتاب المقدس بكل جدارة، وذاع صيته

وازداد عدد تلامذته ومنهم كثيرون من عشّاق الفلسفة. فترك مؤقتاً إدارة المدرسة معيّناً باروكلاس نائباً عنه، وذهب ليتلمذ هو أيضاً على أعظم فلاسفة عصره وهو أمونيوس سكاس. فتعمّق في الفلسفة عن يده حتى يستطيع أن يحاور الفلاسفة. ورجع إلى إدارة مدرسة الإسكندرية مزوّداً بكل معرفة، وذاع صيته في العالم المسيحي كله، وكثيرون من الحكّام طلبوا من البطريرك ديمتريوس أن يرسل إليهم أوريجانيس ليحلّ مشاكلهم، ومنهم أم الأمبراطور الكسندر سافيرس، وحاكم بوسترا من بلاد العرب. ودعاه أسقف أورشليم وأسقف قيصرية فلسطين لإلقاء التعاليم المسيحية في كنائسهم، ثم رسماه كاهناً.

لكن ديمتريوس غضب منه لهذا السبب وحرمه ومنعه عن التعليم بالإسكندرية سنة ٢٣١.

فلجأ أوريجانيس إلى قيصرية فلسطين وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية تفوّقت على مدرسة الإسكندرية، وجذب إليه أكبر الشخصيات الذين كانوا يتشرّفون بأنهم تلامذته.

وأخذ يعلّم ويكتب مؤلفاته الكثيرة التي بلغ عددها ثلاثة آلاف كتاب، لم يصل إلينا منها بالأسف إلاّ القليل.

وأهم كتاب له هو «في المبادئ»، وهو أول موسوعة لاهوتية في تاريخ الكنيسة، وقد وصلت إلينا في ترجمة لاتينية تناول فيها كل العقائد المسيحية بطريقة منسّقة ووضع كل اجتهاداته اللاهوتية في حكم الكنيسة.

كذلك تبحّر في درس الكتاب المقدس، وجمع في خمسين مجلّداً كل النسخ والترجمات المعروفة في عصره للكتاب المقدس. وسمّى كتابه هذا السداسيات، لأنه جمعها في ستة جداول، ثم صارت ثمانية. وهو أول كتاب نقدي للكتاب المقدس.

كما أنه دافع عن الكنيسة في كتابه «الرد على قلسس». وكان قلسس هذا فيلسوفاً وثنياً أراد أن يهدم المسيحية بإظهاره أنها سلسلة من المتناقضات لضعاف العقول.

– وله شروح كثيرة للكتاب المقدس ومواعظ.

– وألّف الكتب الروحية السامية فكانت عزاءً للمسيحيين في كل زمان، وكتَبَ «في الصلاة وفي البتولية» وغيرها الكثير.

وقد قبض على أوريجانيس أثناء اضطهاد داقيوس وعذّب بأشد العذابات حتى ينكر الإيمان فيتبعه الآخرون، ولكنه ثبت بقوة وشجاعة نادرتين. وظلّ في السجن حتى موت داقيوس، وبعد سنتين توفّي في صور سنة ٢٥٢ شهيداً بغير سفك دم، وصار قبره مزاراً يحج إليه المسيحيون من مختلف البلاد إلى القرن الثالث عشر.

ولا يزال أوريجانيس إلى يومنا هذا يثير إعجاب اللاهوتيين ومفسّري الكتاب المقدس. وقد وضع الغربيون العديد من الكتب لإظهار عبقريته الفذّة.

الفصل الثالث

ملحمة الشهداء

قاست الكنيسة منذ نشأتها عذاب الاضطهاد وذلك في العالم كله ولا سيّما في

مصر، وكان طبيعياً أن تصطدم الكنيسة بالنظام الوثني المتفشي في الإمبراطورية الرومانية. وردت بعض الأسباب مذكورة في سفر أعمال الرسل، وبعضها الآخر يذكرها لنا التاريخ: نرى أولاً أن تمسكهم بالإله الواحد ورفضهم للأصنام أثار عليهم تجار المنحوتات والمصوغات الوثنية (رسل ١٩/٢٣-٢٤). ثم كانت المسيحية تفرض على أتباعها سلوكاً يختلف عن سلوك الوثنيين. فكان لا بدّ من إعلان الاختلاف القائم بين المسيحية والمجتمع الذي أخذت تنتشر فيه. وكان هذا الاختلاف يتغلغل في داخل الأسر. فمن كان يهتدي إلى المسيحية فيها كان يتعرّض لمقاطعة أهله جميعاً، لأنه لا يشاركهم في عباداتهم الوثنية. فلا تلبث الأسرة أن تتهمه بالكفر فترتفع الشكوى على المسيحيين وتشيع فيهم القصص الكاذبة عن اجتماعاتهم وعن آدابهم.

أولاً: بدء الاضطهادات

بدأ اضطهاد الكنيسة منذ القرن الأول. واشتدّ على عهد نيرون سنة ٦٤، ودوميتيانس سنة ٩٢ إلى ٩٦، ومرقس أوراليوس سنة ١٦٣.

إلاّ أن مصر سلمت إلى حدّ ما في هذه الفترة من الاضطهاد، مما جعل الكنيسة المصرية تمتد إلى الأقاليم جنوباً وغرباً، ولكن تغيّرت الأحوال في القرن الثالث.

ففي سنة ٢٠٢، جلس على عرش رومة الإمبراطور سبتيمس ساويرس. تخوّف من انتشار المسيحية في إمبراطوريته. فأراد إيقاف انتشارها فحرم التنصّر وأمر بالقبض على المهتدين إلى المسيحية والهادين إليها. وكان لهذا الاضطهاد وقع خاص في كنيسة مصر، ولا سيّما في المدرسة الإسكندرية التي كانت تقوم بتعليم الموعوظين وتجذب الكثيرين إلى المسيحية، فأغلقت أبوابها بعض الوقت وهرب مديرها اقليمنضس واستشهد الكثيرون من الموعوظين، وأهم ضحايا هذا الاضطهاد لأونداس والد أوريجانيس والعذراء بوتاميانا التي طرحوها هي وأمها في الزيت المشتعل.

وسكنت العاصفة بموت سبتيمس ساويرس سنة ٢١٢، وعاشت الكنيسة نحو أربعين سنة في سلام. فقد بدأت الإمبراطورية الرومانية تتبع سبيل المصالحة مع المسيحية في عهد فيلبّس العربي سنة ٢٤٤. كان الإمبراطور الجديد فلسطيني الأصل وكانت بينه وبين أوريجانيس، معلم المدرسة الإسكندرية الشهير، مراسلات متواصلة.

وزعم القديس هيرونيمس أن فيلبّس العربي كان أول إمبراطور مسيحي، ولو انه لم يعلن ذلك جهراً.

ثانياً: الاضطهادات الكبرى

بعد فترة من السلام دامت أربعين سنة تقريباً، تولّى العرش **الإمبراطور داقيوس سنة ٢٥٠**. كان داقيوس سليل أسرة عريقة تقوم على نهر الدانوب، فراعه ما رآه من انحلال الإمبراطورية وعزم أن يجدّد نظمها الوثنية ويوحّد سكّان إمبراطوريته الشاسعة الأطراف حول العبادة الإلهية لرومة وللإمبراطور، وذلك بقرار إمبراطوري ينطبق على الجميع تحت طائلة أقسى العذابات والنفي أو الإعدام للمتمرّدين.

فنزل بالمسيحية كلها ولا سيّما بمصر ضروب من الإرهاب والإكراه لم يسبق لها مثيل. فكان الجنود في الإسكندرية يقطعون رؤوس النساء على مشهد من الجموع إشباعاً للغرائز ويدفعون البنات المسيحيات إلى أقبح صنوف الهوان والعار، ومن لا يلقي من المسيحيين إلى الوحوش كان يحرق حياً في مواقد مستمرة. ومن لم يحكم عليهم بالموت، كانوا يوثقون بالقيود، اثنين اثنين، ويرسلون جموعاً كبيرة كالمواشي إلى المناجم والمحاجير، مع اللصوص والمجرمين، يعيشون تحت الأرض حتى الموت عيشة احتضار مستمر.

وقد استشهد الألوف من المسيحيين بكل بسالة. ولكن، أمام هذه العذابات المريعة، ضعف بعضهم، لا سيّما ذوو المراكز العالية، حتى من بين رجال الإكليرس.

ثالثاً: الصراع الأخير

اضطهاد ديوقليتيانس وغلاريوس (٣٠٣-٣١٣)

لم يبدُ ديوقليتيانس في العشرين سنة الأولى من ملكه ذا نزعة دموية، فكان عدد المسيحيين يتزايد بين جميع الطبقات حتى في القصر الإمبراطوري نفسه، إذ كانت زوجته برسكا وابنته فاليريا في عداد الموعوظين. ولكنه انقلب فجأة على المسيحيين لأسباب غير واضحة تاريخياً. ويرجّح تأثير معاونه غلاريوس الذي كان وثنياً ومتعصباً وحانقاً على الجنود المسيحيين لرفضهم تقديم الذبائح للآلهة. وسعى عند مولاه بدهائه للحصول على أمر يقضي:

١. بمنع الاجتماعات المسيحية.
٢. بهدم الكنائس.
٣. بحرق الكتب المقدّسة.
٤. بإرغام جميع المسيحيين الموظفين في المصالح العمومية أن يجحدوا.

ثم ألصق بالمسيحيين تهمة حرق الإمبراطور. فجن جنون ديوقليتيانس وأصدر ثلاثة أوامر أخرى تجبر جميع المسيحيين في الإمبراطورية كلها على ان يقدّموا الذبائح للآلهة، وتنفي أو تعدم المتمرّدين على هذه القوانين. وبدأ اضطهاد لم يكن له مثيل واستشهد فيه ألوف وألوف من المسيحيين في أهوال فظيعة يرويها لنا اوسابيوس القيصري في كتابه «التاريخ الكنسي» (الكتاب الثامن، الفصل التاسع).

واستمر هذا الاضطهاد عشر سنين في حكم ديوقليتيانس ومعاونه. ثم خلفه غلاريوس، إلى أن صدر قرار قسطنطين سنة ٣١٣ الذي يمنح الحرية لجميع الأديان. ان هذا الاضطهاد قد شمل كل الإمبراطورية الرومانية، إلاّ أنه أظهر بطشه بوجه خاص في الشرق ولا سيما في مصر حيث كانت أشهر ضحية القديس بطرس بابا الإسكندرية الذي يلقّب بخاتم الشهداء.

ولا نستطيع أن نحدّد عدد الشهداء الذين سفكوا دماءهم من أجل المسيح. إلاّ أنهم يعدّون بالألوف، وكانت دماؤهم، كما يقول طرطليانس، بذاراً للمسيحيين.

ولم ينس أقباط مصر هذا الاضطهاد الشنيع. ولكي يظل دائماً في الذاكرة ويذكرهم ببسالة أجدادهم الشهداء، صنعوا لهم تقويماً خاصاً يبدأ في ٢٨٤، وهي سنة اعتلاء ديوقليتيانس العرش الروماني، ويسمّونه «تقويم الشهداء».

ومن تلك الأيام بدأ تكريم الشهداء وجمع رفاتهم ووضعها في الأماكن المقدسة والاستشفاع بهم.

الفصل الرابع

نشأة الرهبنة

منذ القرن الثالث، ظهر في مصر نظام حياتي جديد، وهو النظام الرهباني، ولذلك دعيت مصر مهد الحياة الرهبانية. ومرت هذه الحياة بثلاث مراحل: أولاً مرحلة النسّاك المتعبدين تماماً. ثانياً المرحلة الأنطونية وهي مرحلة تجمع بين حياة الجماعة وحياة التوحّد. ثالثاً نظام الشركة الذي يرقى تأسيسه إلى الأنبا باخوم.

أولاً: مرحلة النسّاك أو العزلة الانفرادية

نجد رجالاً كثيرين يبحثون عن الكمال في الخلوة والصلاة، فيتعدون قليلاً عن مساكنهم ويعيشون متجردين عن كل شيء. نعرف منهم الأنبا بولا الذي كتب حياته القديس هيرونيمس والتقاه القديس أنطونيوس بإلهام إلهي. وأخبرنا القديس اثناسيوس عن المقابلة الأولى بينهما.

ومن أمثاله الشيخ الذي تتلمذ عن يده أنطونيوس فترة من الزمن. وكذلك الشيخ بلامون الذي قاد خطوات باخوم الأولى.

وبعد عصر الاضطهاد والحصول على السلام القسطنطيني، ازداد عدد هؤلاء المتوحدين، لما رأوا من فتور في الكنيسة.

فالذين حُرموا نعمة الاستشهاد التي كانوا يتوقون إليها، أرادوا استشهاداً من نوع آخر، إظهاراً لحبهم للمسيح. فكان الاستشهاد اليومي مدى الحياة في طهارة تامة وأصوام وتقشفات وصلاة مستمرة ليبلغوا الكمال المسيحي. وهذا ما نراه واضحاً في حياة مؤسّس الحياة الرهبانية الحقيقي، وهو **الأنبا أنطونيوس الكبير، كوكب البرية (٢٥١ - ٣٥٦).**

القديس أنطونيوس الكبير

وُلد أنطونيوس بقمن العروس في محافظة بني سويف حاليًا سنة ٢٥١، وفي عائلة تقية غنية. ومات والداه في سن مبكرة. ذهب يومًا إلى الكنيسة فسمع هذه الآية الإنجيلية: «إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء واعطه للمساكين وتعال اتبعني» (متى ١٩/٢١). وكان في الثامنة عشرة من عمره. فشعر بأن هذا النداء موجّه إليه شخصيًا. فللوقت نهض وتخلّى عن ماله وباع كل شيء ووزّع ثمنه على المساكين. ثم أودع أخته الوحيدة في دار بعض النساء المكرسات، وترك المدينة وسكن في صحراء مجاورة، متفرّغًا لله بالصلاة والعمل. وهناك صار عرضة لتجارب كثيرة من قبل الشيطان ليحوّله عن عزمه. ولكنه تغلّب عليها كلها بقوة كلمة الله. وذاع خبره في المنطقة حتى كان كثيرون يأتون إليه طالبين إرشاده وبركته.

فعزم على أن يبتعد إلى مكان أكثر انزواءً. فبعد مسيرة تسعة أيام، وصل إلى مكان وجد فيه قبرًا من قبور قدماء المصريين، فسكن فيه وأغلق كل منافذه. وكان أحد أصدقائه يأتيه ببعض الخبز كل ستة أشهر. وظل هناك عشرين سنة، عائشًا حياة النسّاك الأولين.

غير أن أنطونيوس لم ينعم طويلاً بالخلوة التي تاقت إليها نفسه، لأن الناس أخذوا يبحثون عنه حتى يجدوه. رفض أولاً مقابلتهم، ولكنه، تحت إلحاحهم، اضطرّ إلى استقبالهم. فتقاطر عليه الناس من مصر أولاً، ثم من البلاد الأخرى. فمنهم من كان يطلب نصيحة ومنهم من يطلب بركة ومنهم من يطلب شفاء. وقد جاء أيضًا فلاسفة يناقشونه في أمور الدين. وكان الجميع يتعجبون من حكمته ووداعته. وكثيرون أرادوا أن ينضموا إليه لكي يتتلمذوا عن يده. وفهم أن إرادة الله هي في أن يؤسس لهم نظامًا خاصًا يساعدهم في طريق الكمال المسيحي.

ثانيًا: وهكذا بدأت المرحلة الثانية من الحياة الرهبانية. وهي العزلة الجماعية وسُمّيت النظام الأنطوني

وسمح لكل من يرغب في هذه الحياة الجديدة ببناء قلاية في جواره. وكثر عدد هؤلاء الرهبان. وكان كل منهم يحيا حياته الخاصة بإرشاد الأنبا أنطونيوس الذي كان الأب الروحي لجميعهم. وكان يجمعهم من وقت إلى وقت، يلقي عليهم العظات التي تساعدهم على محاربة الشيطان. وكان تعليمه يتلخّص في قراءة الكتاب المقدس والصلاة والتنسّك في الأكل والشرب، والجمع بين كل هذا والعمل اليدوي كضفر السعف والخوص لصنع الحصير أو السلال، حتى لا يجد الملل إلى أنفسهم سبيلاً.

وخاف أنطونيوس على نفسه من هذه الحشود التي كانت تقطع عليه صلاته. فأراد أن يتوغل إلى الصحراء شرقًا. فوصل إلى جبل قسقام بالغرب من البحر الأحمر وظل في مغارة لا تزال حتى يومنا هذا.

ولم تكن خلوته هذه تمنعه من الاهتمام بالكنيسة وخدمتها عند اللزوم، لئلا نتصوّر أن الراهب لا يهتمّ إلاّ بنفسه. ويذكر التاريخ أنه ذهب إلى الإسكندرية مرتين، مرة ليشجّع

الشهداء على الثبات في الإيمان واحتمال الآلام حبًا للمسيح، معرّضًا نفسه ومشتاقًا إلى الاستشهاد، ومرة أخرى ليؤيّد اثناسيوس في مقاومة الهراطقة الأريوسيين الذين أشاعوا أن أنطونيوس من أنصارهم. وكان يرجع بسرعة إلى خلوته قائلاً: إن الراهب لا يستطيع أن يعيش خارج صومعته كما أن السمكة لا تستطيع أن تعيش خارج الماء.

وكان القديس اثناسيوس قد زاره قبل ذلك سنة ٣٣٣ وقضى عنده فترة من الزمن التماسًا للأمن وهربًا من اضطهاد الأباطرة الأريوسيين. ولذلك، فحين نفي إلى تريف وإلى رومة، كتب كتابه الشهير «حياة أنطونيوس» فعرف العالم الغربي أنطونيوس وتلامذته والحياة الملائكية التي يعيشونها، مما جذب الكثيرين إلى براري مصر ليشاهدوا بأنفسهم هذه الحياة.

ومن تلامذته المشهورين القديس أمونيوس والأنبا مقاريوس المصري اللذان

القديس باخوم

أشار عليهما أنطونيوس بتدبير إلٰهي بأن يرجعا إلى مكان خلوتهما في نتريا وبرية شيهيت، حيث تجمّعت حولهم مجموعات وفيرة تعيش على منوال تلاميذ أنطونيوس في هذه الحياة الجماعية، مع المحافظة على الحرية الفردية، فيجتمع الرهبان أيام السبت والأحد للقداس الإلٰهي. وما عدا ذلك، يتعاطون الصلاة الانفرادية والتنسك، كلٌ بحسب ما بدا له بإرشاد أبيهم الروحي.

ثالثًا: الأنبا باخوم أبو الشركة الرهبانية (٢٩٢-٣٢٦).

ولما كانت هذه الحياة الانفرادية معرّضة للأخطار الروحية، منها التطرف والغرور والملل الذي يؤدي إلى الفتور واليأس والنكوص عن الدير، هيأ الله الأنبا باخوم ليؤسّس حياة الشركة الرهبانية الحقيقية كما هي منتشرة الآن في معظم أديرة العالم المسيحي والتي تدين بنظامها وروحها للكنيسة القبطية.

وُلد باخوم سنة ٢٩٢ من والدين وثنيين بإسنا في صعيد مصر. وتثقّف بالعلوم المصرية، ولكنه كان يشعر بنفور من عبادة الأصنام. وفي العشرين من عمره، اضطر إلي الالتحاق بالجيش الروماني بإمرة الإمبراطور مكسيمينس لمحاربة جيش ليسنيوس وقسطنطين. وفي أثناء تأدية خدماته بالجيش، تأثر بمعاملة المسيحيين للجنود حتى الغرباء منهم وبتجردهم وسخائهم في سبيل الآخرين.

وبعد انهزام مكسيمينس وخروجه من الجيش، لم يرد الرجوع إلى أهله، بل أخذ يتعلم الديانة المسيحية حتى قبل العماد في بلدة شنسيت وقصد أن يحيا حياة تليق بالمسيحي. فذهب إلى أحد المتوحدين المشهورين يدعى بلامون. وبعد اختبارات كثيرة، قبله كتلميذ له وعاش مع معلمه حياة الصلاة والنسك. وكان من عادة باخوم أن يبتعد في الصحراء إلى مكان يدعى «طابنيس». فسمع يوماً صوتاً من السماء يقول له: «امكث في هذا المكان وابنِ ديراً لاستقبال كل من يرسلهم الله إليك لخدمته». وشجّعه بلامون على ذلك بعد أن عاش معه سبع سنوات، وكان أول تلميذ انضم إليه هو أخاه يوحنا، وتبعه كثيرون.

وأدرك باخوم مساوئ الحياة الانفرادية من ملل وغرور وخطر التطرف في التقشفات وعدم ممارسة فضيلة المحبة، فجمع تلاميذه في حياة جماعية. وهكذا ظهرت للمرة الأولى حياة الشركة. ولُقّب باخوم بأبي الشركة الرهبانية. وأقام لرهبانه ديراً ليجمعهم سوية ووضع لهم قانوناً بإرشاد سماوي كتب باللغتين القبطية واليونانية، ثم تُرجم إلى اللاتينية. وكان هذا القانون يحدّد واجبات كل منهم وواجبهم نحو الرئيس، وينظّم لهم حياتهم من جهة الأكل والشرب والملبس والصلاة وقراءة الكتاب المقدس. وكان للشغل اليدوي نصيب وافر، فكان منهم الحدّادون والنجّارون والخبّازون، ومنهم من يقوم بالفلاحة ومنهم بالحياكة. وكانت قوانين باخوم متّسمةً بالاعتدال، مراعيةً حالة كل فرد.

وقد لقي هذا النظام نجاحاً كبيراً وأسهم في زيادة عدد الرهبان. فأسس في حياته تسعة أديرة للرجال واثنين للنساء، لكل دير رئيس ومدبّر (الربيتة). وكان يستعين بتلميذيه الشهيرين ثاودورس وهرسيسيون، فخلفاه في الرئاسة.

وعلى منواله قام شنوده الأتريبي بتأسيس دير البيت الأبيض بالقرب من أُخميم. وكان راهباً مثقّفاً يعرف اللغة اليونانية، وملمّاً بالفلسفة اليونانية والشعر. وكان يتحلّى بصفات حميدة منها تقديم العون للمعوزين وتقوى حقيقية. إلاّ أنه عُرف بصرامته نحو الرهبان والراهبات، متشدداً في تطبيق القوانين الباخومية، كما عُرف بتمسكه باللغة القبطية ومحاربته الشديدة للهراطقة والوثنيين. وقام شخصياً ومع رهبانه بهدم الكثير من معابدهم. ووصل عدد الرهبان

الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس

عند الفتح العربي إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف راهب.

انتشرت القوانين الباخومية في أثيوبيا حيث نجد ترجمة حبشية لقوانين الأنبا باخوم، ثم انتقلت إلى فلسطين وسورية مع هيلاريون، إلى آسية الصغرى مع القديس باسيليوس، وإلى الغرب، مع هيرونيمس ويوحنا كاسيان. واستمدّ مؤسّسو الرهبانيات الغربية في أنظمتهم الرهبانية من قوانين الأنبا باخوم أبي الشركة.

الفصل الخامس

الكنيسة المصرية بعد السلام القسطنطيني (٣١٣ - ٤٥١)

بعدما أمنت الكنيسة من أعدائها الخارجيّين، بدأت تواجه أعداءً من الداخل وهم أشدّ خطراً. فقد ظهرت في الكنيسة انشقاقات وبدع كادت أن تقضي على الإيمان نفسه. ونكتفي بذكر انشقاق ميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) وبدع أريوس ونسطور وأوطيخا وتأثيرها في كنيسة الإسكندرية. ووجدت الكنيسة الرجال العظام الذين تصدّوا لهذه البدع وحافظوا على سلامة إيمان الكنيسة.

أولاً: ميليتيوس

استهلّ القرن الرابع بانشقاق ميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) الذي أخذ على البطريرك تسامحه في معاملة المرتدّين الراجعين إلى الكنيسة بعد ردّتهم أثناء الاضطهادات. ثم استغل منح البطريرك بطرس الرسامة الكهنوتية لرجال من غير إيبارشيته خلافاً لما تقضي القوانين الكنسية، فكوّن لنفسه حزباً منشقاً عن السلطة الشرعية. وظل يستمر في زرع الشقاق في الكنيسة حتى أثناء منفاه في مناجم فاينو بفلسطين. وأخذ حزبه يقاوم أثناسيوس، ويلقي في حقه التهم الباطلة في مجمع انعقد سنة ٣٣٥ متواطئاً مع الأريوسيين، مما أدّى إلى نفي أثناسيوس إلى تريف بفرنسا. وقد ضعف هذا الحزب حتى انقرض مع الأريوسية سنة ٣٨١.

ثانياً: أريوس ومجمع نيقيا سنة ٣٢٥ وأثناسيوس الرسولي

أما البدعة الأساسية التي ظهرت في هذا القرن فهي البدعة الأريوسية. كان آريوس من أصل ليبي وتخرّج من المدرسة الأنطاكية. وصار كاهناً بكنيسة الإسكندرية واشتهر بعلمه وبلاغته.

ولكن كبرياءه وطموحه قاداه، في الوصول إلى الكرسي البطريركي، إلى مقاومة البطريرك الكسندرس ونشر بدعته، المعروفة بالبدعة الأريوسية. وهي تقوم على إنكار لاهوت السيد المسيح، واضعة فرقاً جوهرياً بين الآب الأزلي والابن. فالابن ليس أزلياً وليس إلهاً، بل هو مخلوقٌ من الآب، لأن الآب كائن قبل الابن. وأخذ آريوس ينشر هذه البدعة وهذا التعليم الفاسد المضاد لتعليم الكنيسة في أشعار وأغاني يردّدها أتباعه. وقد كسب بعض الأساقفة إلى صفه، لا سيّما أوسابيوس القيصري وأوسابيوس النيقوميدي. وكان هذا

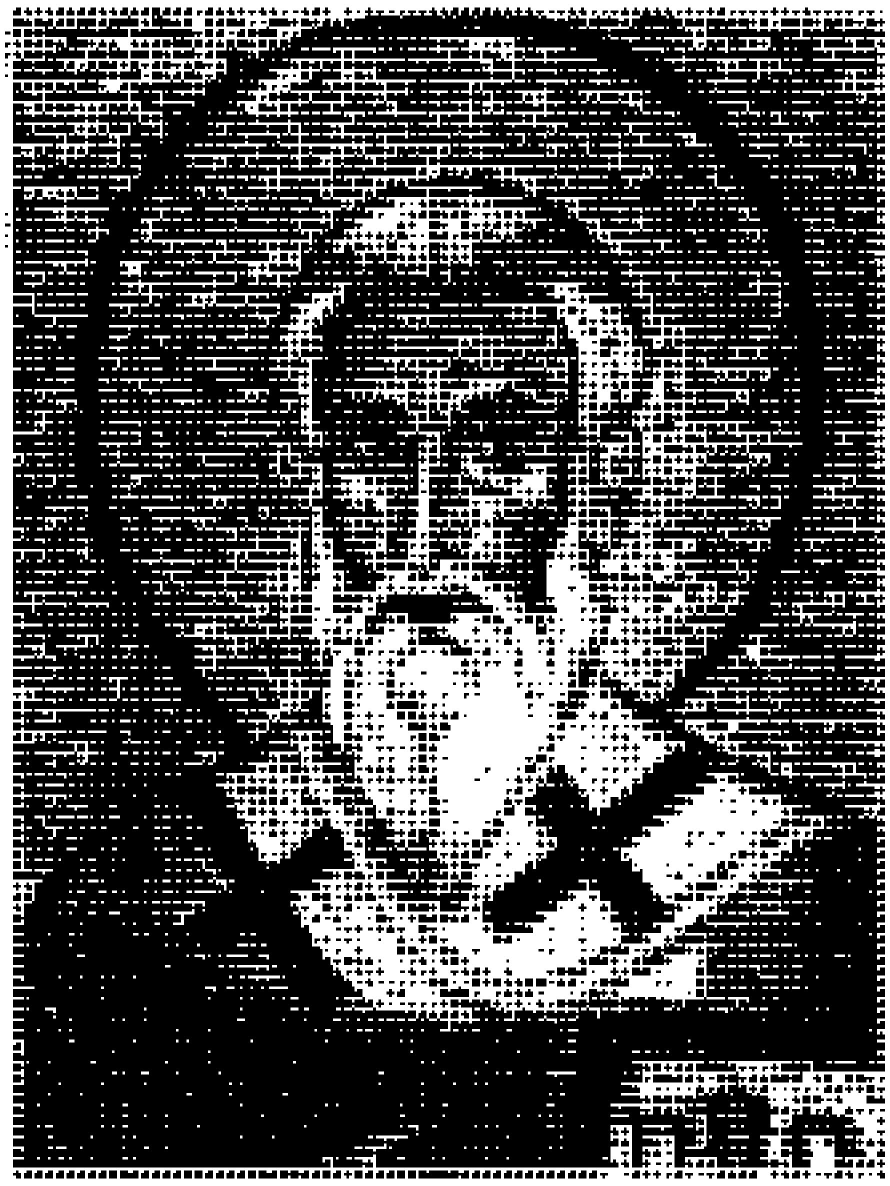

القديس أثاسيوس الإسكندري

الكرسي ذا أهمية نظراً إلى كونه مقر الإمبراطور. وهكذا قسم آريوس الكنيسة إلى قسمين بين أنصار له ومقاومين، وقد حرمه البطريرك ألكسندرس في سينودس محلي بالإسكندرية سنة ٣٢٠، حيث قرّر أن الآب كان دائماً أباً لوجود ابن أزلي له. ثم أثبت ميلاد الابن في الازل والبنوة الخاصة به ومساواته للآب في الجوهر، مستنداً إلى آيات الكتاب المقدس. ولكن آريوس لم يرتدع، بل استمر في نشر ضلاله.

ولذلك أراد الإمبراطور قسطنطين أن يُحلّ السلام في إمبراطوريته وفي الكنيسة عن طريق مجمع مسكوني في نيقيا. وكان هذا أول مجمع مسكوني عرفه التاريخ ولقد انعقد في ٣٢٥، وضم ٣١٨ أسقفاً معظمهم من الشرقيين. وقد حضره الكسندرس بطريرك الإسكندرية، رغم كبر سنه، مع شماسه أثناسيوس الذي كان له دور كبير في المجمع، إذ إنه أظهر بطلان تعليم آريوس وأقنع معظم الآباء بالانضمام إلى صفه. وأصدروا قانون الإيمان الذي لا يزال قاعدة الإيمان في الكنيسة كلها. وأكّد هذا القانون: خلافاً لتعليم آريوس: «نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر». «أوموأوسيوس» «Homooussios» باليوناني ومعناها «هو والآب جوهر واحد». وصار هذا اللفظ Homooussios الفاصل بين المؤمنين الحقيقيين الذين قبلوا مجمع نيقيا والأريوسيين الذين رفضوا المجمع. وحرم آريوس وأتباعه وحُكم عليهم بالنفي.

ثالثاً: نسطور ومجمع أفسس سنة ٤٣١ وكيرلس الاسكندري

والهرطقة الثانية التي هزّت الكنيسة بعد الأريوسية هي هرطقة نسطور، بطريرك القسطنطينية، والتي قاومها بشدة كيرلس الكبير بطريرك الاسكندرية (٣٧٠-٤٤٤). ويُعدّ أكبر لاهوتي في الكنيسة الشرقية بعد أوريجانيس. فقد تثقّف تثقيفاً أدبياً ولاهوتياً عالياً، فأهّله ذلك لخلافة خاله ثاوفيلس على كرسي الإسكندرية. وكانت العناية الإلهية قد أعدّته للدفاع عن الإيمان ضد نسطور بطريرك القسطنطينية.

وكان نسطور تلميذ المدرسة الانطاكية. بدأ في عظاته يرفض لقب «أم الله» «ثاوتوكس»

للسيدة العذراء، قائلاً انها أم المسيح وليست أم الله، واضعاً هكذا في السيد المسيح أقنومين: أقنوماً إلهياً وأقنوماً بشرياً، اتّحدا اتحاداً أزلياً عن طريق الصدفة. وسرعان ما وصلت الأخبار إلى الإسكندرية فتصدّى البطريرك كيرلّس لهذا التعليم المخالف لتقليد الكنيسة فحرّر خطابين إلى نسطور ليُرجعه عن غيّه. لكن نسطور تمسّك بموقفه. ولجأ إلى أسقف رومة البابا قلستينس، وطلب إلى الإمبراطور ثاودوسيوس عقد مجمع في أفسس في عنصرة ٤٣١ ليفصل الموضوع بين كيرلّس ونسطور. وبالفعل، انعقد المجمع برئاسة كيرلّس الإسكندري ونائبين عن البابا قلستينس. وحرم الآباء المائتان نسطور وأكدوا وحدانية أقنوم السيد المسيح بالعبارة الشهيرة «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد»، وبالتالي الأمومة الإلهية للسيدة العذراء. فرح سكان أفسس بهذا القرار وأخذوا يطوفون الشوارع حاملين المشاعل والمصابيح مرنّمين الترانيم الجديرة بالسيدة العذراء. أمّا وفد الكنيسة الأنطاكية الذي أتى متأخراً وعلى رأسه يوحنا الأنطاكي، فغضب من تصرف كيرلّس الذي لم ينتظر وصولهم، وحرموه. وقام نزاع بين الأسقفين لم يدم طويلاً. وبواسطة محبّي السلام، تم التفاهم بين الأسقفين اللذين وقّعا قرار الاتحاد سنة ٤٣٣.

رابعًا: أوطيخا ومأساة مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١

دبّ خلاف جديد في الكنيسة أثاره رئيس رهبان القسطنطينية. فلكي يحارب ثنائية نسطور، وقع في بدعة مضادة تقوم على إنكار حقيقة طبيعة المسيح البشرية التي ذابت في اللاهوت. وبالتالي، لم يعد المسيح مساوياً للبشر في الجوهر، مغالياً في تفسير تعليم كيرلّس عن «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد». وهذه الهرطقة تسمّى «المونوفيزية». فحرمه فلافيانس بطريرك القسطنطينية. ولجأ أوطيخا إلى ديوسقورس بطريرك الاسكندرية وإلى ثاودوسيوس الثاني الذي أمر بعقد مجمع مسكوني ليبتّ في الموضوع. وانعقد المجمع في أفسس سنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقورس.

أمّا ديوسقورس فلم يبال برسالة البابا لأون إلى فلافيانس، ولم يتمكّن نواب البابا ان يقرأوها، وبرّأوا أوطيخا وحرموا فلافيانس، وحكموا عليه بالنفي فمات من العذاب وهو في طريقه إلى المنفى. وقد احتج البابا لأون على هذه التصرفات لدى الإمبراطور، ولكنه لم يجد آذاناً صاغية، إلى أن توفي الإمبراطور ثاودوسيوس. وحل محله الأمبراطور مرقيانس الذي أظهر ولاءه للبابا لأون واستجاب لطلبه في عقد مجمع آخر ليُصلح الأوضاع. فاجتمع أكثر من خمسمائة أسقفاً، أولاً في نيقيا سنة ٤٥١. فانتهز ديوسقورس تغيّب الإمبراطور ليلقي الحرم على البابا لأون، ثم انتقل الآباء إلى خلقيدونية حيث استبعدوا ديوسقورس وحرموه، لا بسبب هرطقة، بل بسبب استعمال العنف في المجمع السابق. وقد أعلن المجمع براءة فلافيانس بعد وفاته وأصدر قراراً لا يختلف كثيراً في نصّه عن رسالة البابا لأون إلى فلافيانس، مؤكّداً أن في السيد المسيح أقنوماً واحداً وهو الأقنوم الإلهي القائم في طبيعتين:

الطبيعة الإلٰهية والطبيعة البشرية. وتم هذا الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. وهو مساوٍ للآب في الجوهر من حيث اللاهوت ومساوٍ للبشر في الجوهر من حيث الناسوت. وحُكم على ديوسقورس بالنفي إلى غنفرا في آسية الصغرى، وعيّن بروتيريوس مكانه.

ولكن معظم الأساقفة المصريين والرهبان والشعب ظلّوا متمسكين بيطريركهم وتعاليمه حتى إنه، بعد وفاته سنة ٤٥٤، عينوا له خليفة في شخص تيموتاوس ايلور، أي النمر.

وهكذا تثبّت الانقسام في الكنيسة المصرية بين خلقيدونيين (الملكيين)، أي أتباع الملك الذين يقولون بالطبيعتين في السيد المسيح، وغير الخلقيدونيين وهم القائلون بطبيعة واحدة في المسيح، محافظين على تعبير القديس كيرلّس. أراد الأباطرة أن يفرضوا تعليم المجمع على الجميع بالعنف، وحصلت أحداث مؤسفة من الناحيتين، مما أضعف الكنيسة المصرية وسبّب المنازعات التي سهّلت للعرب غزو مصر سنة ٦٤١.

القسم الثاني

الكنيسة القبطيّة بعد مجمع خلقيدونية
(٤٥١ - ١٠٥٤)

بقلم نيافة الأنبا مكاريوس توفيق*

* مطران كرسيّ الإسماعيليّة.

الفصل الأول

انقسام كنيسة الإسكندرية

لمّا كان المجمع الخلقيدوني قد اعتمد صيغة القديس لاون الكبير بأن السيد المسيح أقنوم واحد «في طبيعتين»، فقد ظنّ الأقباط أن المجمع قد تخلّى عن صيغة القديس كيرلّس الإسكندري، وهي «أقنوم واحد أو طبيعة واحدة من طبيعتين»، وأنه بالتالي قد انحرف عن الإيمان القويم ومال إلى النسطورية، وأنه قصد الحطّ من كرامة الكرسي الاسكندري والنيل من دوره القيادي في الدفاع عن الإيمان الرسولي، خاصة بعدما عزل المجمع البطريرك ديوسقورس عن كرسيه، وتسبّب في نفي الإمبراطور إيّاه بسبب موقفه الجائر من فلافيانس أسقف القسطنطينية.

ولأن ديوسقورس كان معدوداً «أبا الأقباط» وخليفة أثناسيوس وكيرلّس في الدفاع عن الإيمان الرسولي وحقوق الكرسي الإسكندري، ولأن الموقف اتّسم بالروح القومية وحماسة الدفاع عن الذات الكنسية في مواجهة سلطة الاحتلال الأجنبي والهيمنة الكنسية البيزنطية، فقد ثار غالبية الأقباط ثورة عارمة ورفضوا الخضوع للأسقف بروتيريوس الذي انتخبه الخلقيدونيون خلفاً للبطريرك ديوسقورس.

تدخل الإمبراطور مرقيانس (٤٥٧†) بالقوة لتنفيذ قرارات المجمع بمصر، وعقد بروتيريوس سينودساً بالاسكندرية لمصالحة المونوفيزيّين دون جدوى. فكتب رسالة إلى البابا لاون سنة ٤٥٤ معلناً انتخابه وأمانته للمجمع الخلقيدوني.

وبعد وفاة ديوسقورس في المنفى، أضرم المونوفيزيّون بالاسكندرية نار الثورة، واغتالوا بروتيريوس أثناء الصلاة سنة ٤٥٧، واختاروا زعيمهم الراهب تيموثاوس ايلور أسقفاً لهم، فقبله الإمبراطور الجديد لاون (٤٥٧-٤٧٤) رغبةً منه في أن يسود السلام والهدوء.

ولكي يتّخذ الإمبراطور لاون موقفاً

محدداً من هذا الانقسام والجدل، طلب من كل الأساقفة رأيهم في المجمع الخلقيدوني. فجاوبت الأغلبية بقبول المجمع ضد موقف البطريرك المونوفيزي تيموثاوس ايلور، فقام الإمبراطور بإبعاده، وعيّن بدلاً منه تيموثاوس سالوفاكيور (٦٠-٤٨١).

أدّت هذه الأحداث إلى انقسام الكنيسة إلى قسمين. القسم الأكبر مونوفيزي يتمسّك بصيغة «الطبيعة الواحدة» ويرفض قرارات المجمع الخلقيدوني والخضوع للسلطة الإمبراطورية، والقسم الآخر كاثوليكي خلقيدوني يقبل قرارات المجمع والملك، فدعي رجاله الملكانيين، أو الملكيين.

هذا الانقسام، الذي يبدو ذا صبغة دينية صرف، كان له دوافع أخرى: تنافس الكرسيين والعاصمتين في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية: الإسكندرية عاصمة الفكر الفلسفي واللاهوتي والقسطنطينية عاصمة الحكم والسلطان.

وبسبب هذا الصراع الذي بدأ بنفي القديس يوحنا الذهبي الفم أسقف القسطنطينية، وانتهى بنفي ديوسقورس بطريرك الإسكندرية، وبسبب الأحداث التي أعقبت الانقسام، اضمحل بهاء بطريركية الإسكندرية وسلطانها في الكنيسة الجامعة، فانكفأت على نفسها تحيا حياتها الخاصة بلغتها القومية وطقوسها الرهبانية وفكرها النسكي.

توالى الأباطرة زينون (٤٧٤-٤٩١)، وأنسطاس (٤٩١-٥١٨)، وبازيليسكو فعطفوا على الأقباط المونوفيزيين، فأعاد زينون أساقفتهم والبطريرك تيموثاوس ايلور من المنفى. وفي محاولة منه لرأب الصدع بين الكنائس وإعادة الوحدة بينها، وبإيعاز من أكاكيوس أسقف القسطنطينية، أصدر مرسوما عُرف «بالهينوتيكون»، أي المرسوم الوحدوي، الذي نصّ على قبول قرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى وإدانة كل من نسطور وأوطيخا، وأكّد اتحاد الطبيعتين في المسيح دون التطرّق إلى تحديد طبيعة واحدة أو طبيعتين بعد الاتحاد.

وفي عام ٥٤٣، أدان يسطنيانس في ثلاثة فصول عقيدة كل من تيودورس المصّيصي، وتيودورس الصوري، وإيبا الزهوري، باعتبارها نسطورية، آملاً ترضية المونوفيزيين لكي يقبلوا صيغة مجمع خلقيدونية.

لكن زويطس رفض التوقيع، فعُزل سنة ٥٥١ وأبدل بأبوليناريوس (٥٥١-٥٦٩) الذي شارك في المجمع المسكوني الخامس (٥٥٣) بالقسطنطينية.

وبعد أبوليناريوس، انتُخب يوحنا الثاني (٥٧٠-٥٨٠) الخلقيدوني بطريركًا على الإسكندرية.

وقام الأقباط المونوفيزيون بانتخاب راهب يُدعى تيودورس، لكن معارضة الشعب استبدلته بآخر يدعى بطرس قام حالاً بعد رسامته بتكريس ٦٠ أسقفاً لتقوية مركزه.

وعلى الجانب الآخر، انتخب الخلقيدونيون أولوجيوس (٥٨٠-٦٠٨) فتبادل الرسائل مع البابا غريغوريوس الكبير الذي أجلّه كثيراً، إذ كان لاهوتياً مرموقاً.

تساهل خلفاء يسطنيانس مع الأقباط المونوفيزيين فتوطدوا في كنيسة قومية مستقلة

كانت لغتها الرسمية القبطية، لغة الشعب، بديلاً لليونانية، فصارت لغة الطقوس والكتابة، خاصة بعد أن استعارت الحروف اليونانية إلى جانب سبعة حروف من الأشكال الديموطيقية الخاصة باللغة المصرية القديمة.

الفصل الثاني

الكنيسة القبطية تحت الحكم العربي

أولاً: الفتح العربي

بعد السيطرة على سورية وفلسطين، اتجه العرب بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر. وبدأوا حصار حصن بابليون في كانون الثاني (ديسمبر) ٦٣٩.

قام البطريرك الوالي قيرس بالتفاوض مع عمرو بن العاص، لكن الإمبراطور هرقل كان معارضاً فاستدعى قيرس إلى القسطنطينية ونفاه.

وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١، مات هرقل فعاد قيرس من المنفى. ولمّا تولّى هيرقليون، التقى قيرس الذي أقنعه بحتمية الصلح مع العرب.

عاد قيرس مرّة أخرى إلى الإسكندرية في أيلول (سبتمبر) ٦٤١ فذهب بصحبة بعض الكهنة إلى حصن بابليون للتفاوض مع عمرو دون أن يخبر قادة الجيش البيزنطي، خشية معارضتهم. انتهت المفاوضات في تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٤١ بتسليم الحصن.

وعاد قيرس مرّة أخرى إلى الإسكندرية ليقدّم لقادة الجيش شروط المعاهدة، معلّلاً قبولها لرغبته في ضمان الحرية الدينية لسكّان مصر.

كما عقد عمرو بن العاص معاهدة مع الأقباط المونوفيزيين، بعد تسليم الحصن سنة ٦٤١، مفادها أن يدفع الأقباط الجزية في مقابل «الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم (النيل)».

كان الأقباط قد عانوا عسفاً شديداً، خاصة بالاسكندرية، تحت ولاية قيرس، فتطلّعوا إلى التحرّر من نير الحكم البيزنطي بأي ثمن، بعدما اتحدت المشاعر الوطنية بالعقيدة الدينية.

ولذلك رحّب الأقباط بالعرب ورأوا فيهم منقذاً أرسلته العناية الإلٰهية إليهم.

ثانياً: السياسة العربية بمصر

آ) تعامل عمرو مع الأقباط

كانت سياسة عمرو بن العاص ترمي إلى كسب ودّ الأقباط المونوفيزيّين والاحتفاظ بوحدة مصر وقوّتها، فرأى – على خلاف ما كان يفعل باقي قادة العرب – أن المصلحة تقضي بمنع توزيع أراضيها وأسلابها على المحاربين كغنيمة حرب، كما أدرك فائدة معاملة سكّانها ورؤسائهم الدينيين معاملة طيبة، واحترام شعورهم الديني والحفاظ على ثروة البلاد الزراعية مع جباية الضرائب عنها.

وقد أدرك عمرو منزلة البطريرك بنيامين وترحيبه بالعرب فأرسل يستدعيه من مخبأه، مؤكّداً «له العهد والأمان والسلامة من الله. فليحضر آمناً مطمئناً، ويدبّر حال بيعته وسياسة طائفته». فعاد البطريرك بنيامين إلى الإسكندرية بعد غيبة ثلاث عشرة سنة.

وطلب عمرو إلى البطريرك أن يبارك حملته على طرابلس لأنه كان يرغب في جعله مسؤولاً عن إخلاص الأقباط للعرب. وقد كافأه على ذلك بترك مؤمنيه يستولون على معظم كنائس الملكيين وأديرتهم، فظلوا بدون بطريرك نحو سبعة وسبعين عاماً.

ولكن العرب لم يستطيعوا فتح ممالك النوبة المسيحية التي قاومت ببسالة وصدّت حملات عبد الله بن سعد مرتين: الأولى عام ٦٤٠، والثانية عام ٦٥٠، وفي النهاية عقدوا هدنة ذات بنود سياسية وتجارية، أهم شروطها:

ألاّ يعتدي أحدهما على الآخر، وأن تؤدّي النوبة لمصر عدداً من الرقيق كل سنة، وأن تؤدي مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيرهما كل سنة.

وقد ظل أهل مملكة نوباطيا على المذهب المونوفيزي، كما أن أهل مملكة مقورة الملكيين الذين كان لهم أسقفهم الخاص - بعد أن خلا عندهم الكرسي بسبب عدم وجود بطريرك ملكي بالإسكندرية - طلبوا أسقفاً من البطريرك القبطي فصاروا على مذهبه!

وجد العرب بمصر نظماً قامت منذ عهد الفراعنة، فأبقوا عليها كما فعل الرومان من قبل، واكتفوا بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا على الإدارة والأمن، كما أبقوا على أسماء المدن والبلاد كما كانت من قبل.

فانتعشت الكنيسة القبطية وتنظّمت في حكم عمرو بن العاص. فاعتقد الأقباط لفترة أن انتصار العرب أعاد لهم الحرية والكرامة والشخصية القومية، لا سيّما أن عمرو بن العاص اتبع وصية نبي الإسلام وعطفه على الأقباط، إذ جاء في الحديث: «إن الله عزّ وجلّ سيفتح مصر بعدي، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم منكم صهراً ونسباً». فقد كانت مارية

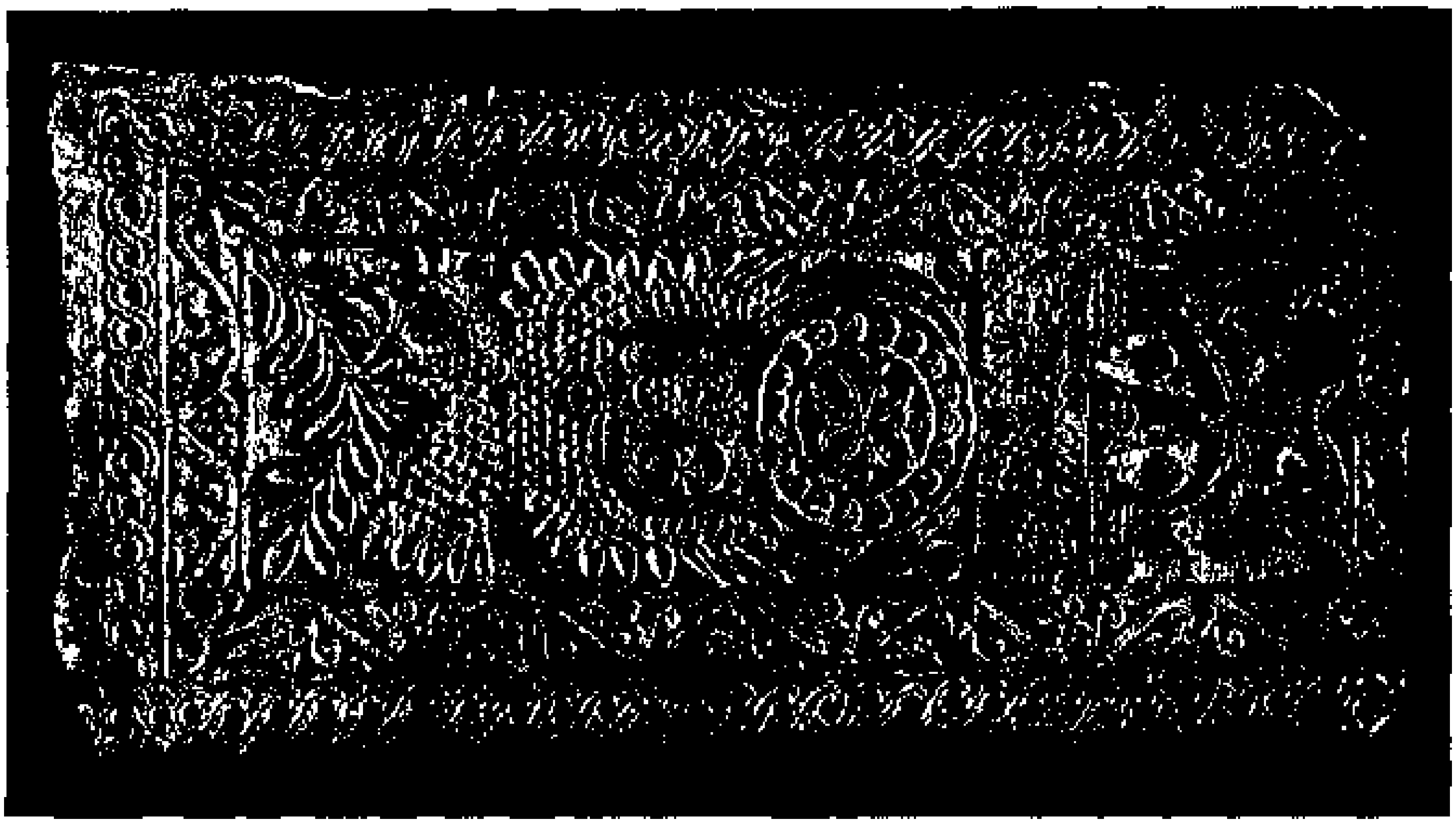

شاهدة ضريحية لصوفرونيوس

القبطية زوجةً للرسول وأنجبت له ولده الوحيد إبراهيم الذي تُوفّي بعد سنة ونصف تقريباً.

وقد ساعد الفتح العربي في بداية الأمر على نهضة اللغة القبطية على حساب اليونانية - لغة الثقافة من قبل - فالقراءات الطقسية صارت تُتلى بالقبطية وحدها، كما تُرجمت إليها أقوال الآباء. وقد بنيت عدة كنائس وجدّدت كنائس أخرى. ففي أيام البطريرك أغاثون (٦٦١-٦٦٧) عُمّرت كنيسة أبي مقار، وبنيت كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية في ولاية عمرو بن العاص الثانية، وظلت قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي في القرن الثالث عشر الميلادي.

ولقد أفتى الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة - وهما أئمة الفقه الإسلامي - ببناء الكنائس وتعميرها لأنهما عدّا ذلك من مظاهر التعمير في البلاد - على ما يقول الكندي في كتابه «الولاة والقضاة».

ب) تبدّل الحال بعد عمرو

بعد حكم عمرو بن العاص، تبدّدت آمال الأقباط في حياة حرّة رغدة، إذ سرعان ما دعت الحاجة بالأمويين إلى مضاعفة الجزية والخراج، لكثرة نفقات الفتوح الاسلامية، حتى أُلغيت الإعفاءات التي منحت لكبار السن والرهبان، واستعمل العنف والإجحاف في تقديرها. فآثر الكثيرون جحد الإيمان وتناقص عدد الرهبان.

وبعدما تولّى البطريرك يوأنس الثالث (٦٧٧) أخذ يزيد الأول يضيّق الخناق على المسيحيين فحمّلهم من الخراج ما لا يطاق، كما ذبح عدداً لا يستهان به من الرهبان.

ثم وصل الأمر بالخليفة عمرو بن عبد العزيز إلى جمع جزية موتى الأقباط من أحيائهم، بل جزية من أسلم فيهم، وقد أدّى ذلك إلى قيام بعض الثورات في الدلتا.

واهتم عبد العزيز بن مروان والي مصر بالاطّلاع على العلاقات القائمة بين البطريرك القبطي والحبشة والنوبة، على أثر ما كتبه البطريرك إلى ملكي الحبشة والنوبة للصلح بينهما، إذ إن بعض الحاقدين وشوا بالبطريرك لدى الوالي حتى ساء ظنه به. ولشدة غضبه، أمر بكسر جميع الصلبان في مصر. وكان ابنه الأصبغ مبغضاً للنصارى سفّاحاً. وكان يصطحب شماساً اسمه بنيامين ليترجم له أقوال النصارى وكتبهم.

بدأ العرب يشكّون في الأقباط لسبب استعمالهم اللغة القبطية، ومن المحتمل أن يكون هو السبب في جعل اللغة العربية لغة مصر الرسمية.

ثالثاً: أحوال الخلقيدونيين

تتحدث الباحثة سيدة اسماعيل في كتابها «مصر في فجر الإسلام» عن تفضيل العرب للأقباط المونوفيزيين فتقول: «وقد انتصر المسلمون لليعاقبة القبط على الكنيسة الملكانية، فاسترد اليعاقبة أو أخذوا عدداً من الكنائس والأديرة التي كانت في يد الملكانيين. كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكي يجذبوا إلى مذهبهم كثيراً من الملكانيين. بل

حدث في عهد قرّة بن شريك (والي مصر) أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة.

ولم يتمتع الأقباط الملكانيون ببعض الحرية إلاّ في فترات معيّنة، استندوا فيها - في غياب بطريركهم - إلى جهود بعض الموظفين المسيحيين لدى الخليفة في دمشق أو لدى الوالي بالفسطاط كما حدث في عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥)، إذ كان بعض الأقباط الملكانيين يعملون لدى عبد العزيز أخي الخليفة ووالي مصر، فسمح لهم ببناء كنيسة باسم مار جرجس. كما حصل بعض الكتّاب الأقباط على أذن ببناء كنيستين: واحدة باسم القدّيس سرجيوس والأخرى باسم القدّيس مرقريوس.

إعادة البطريرك الملكاني إلى الكرسي الإسكندري

وفي الفترة التي أعقبت الفتح العربي، وبعد رحيل البطريرك بطرس الرابع خليفة قيرس سنة ٦٥١، كان بمصر أسقفان ملكانيان، فكانوا يحضرون، لرسامة أسقف جديد أسقف صور حتى يكتمل عدد الراسمين القانوني. وقام كاهن راهب بدور النائب البطريركي بالإسكندرية، وكان يمثّل الكنيسة الإسكندرية في المجامع المسكونية.

وقد اشتركت الكنيسة القبطية الملكانية (الكاثوليكية) في المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠ بشخص مندوبها الراهب بطرس.

وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣)، عيّن قزما بطريركاً، فذهب لزيارة الخليفة في دمشق ليسمح له باستعادة الكنائس والأوقاف المغتصبة. وقد أمر الخليفة واليه بمصر بتلبية طلب البطريرك، فحصل على كنيستي قيساريون وانجليون.

ولمّا انعقد المجمع المسكوني السابع في نيقية عام ٧٨٧، أوفد البطريرك الملكاني الإسكندري بوليانس مندوباً عنه في شخص الراهب توما.

وقد ذكر البطريرك القسطنطيني فوتيوس أنه كان في وقته أسقف ملكاني في الأقصر، وان الطقوس هناك تقام باللغة القبطية الصعيدية. أمّا في الإسكندرية فكان الأقباط الملكانيون لا يزالون يستعملون الطقس الإسكندري باللغة اليونانية.

وتذكر الوثائق والمخطوطات أنه، حتى منتصف القرن الثاني عشر، كان هناك أساقفة في الصعيد ورهبان في الأديرة لا يزالون يستعملون التعبير الخلقيدوني عن طبيعة السيد المسيح.

واستمرّ الملكيون في اتّباع الطقس الإسكندري حتى بدء القرن الثالث عشر، حين كان بطريرك الملكيين مرقس الثاني يوناني التبعية، فكتب إلى بلسمون بطريرك القسطنطينية يسأله هل تستطيع كنيسة الإسكندرية الملكية أن تستمرّ على طقس القدّيس مرقس أم يجب تبديله. فردّ بلسمون «بأن كنيسة القسطنطينية لا تقرّ هذا الطقس، وعلى الملكيين في مصر أن يتّحدوا في طقوسهم مع رومة الجديدة (القسطنطينية) وأن يقيموا القدّاسات البيزنطية». فصار الملكيون في مصر ذوي صبغة بيزنطية صرف، لا في الفكر

والرئاسة فحسب، بل في الطقوس أيضا، مما حدا ببعض الملكيين المصريين إلى تفضيل البقاء في الطقس الإسكندري والانتماء إلى الكنيسة القبطية أو إلى المرسلين الرومانيين الذين جاءوا إلى مصر لخدمة القنصليات والتجّار الأوروبيين.

القسم الثالث

مساعي الاتحاد بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية

بقلم الأب بيشوي فوزي*

* راعي في الإيبارشيّة البطريركيّة

بذل الكرسي الرسولي جهداً كبيراً في سبيل الاتحاد مع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وذلك على مرّ العصور بواسطة المرسلين.

ففي بداية القرن الثالث عشر، أصدر الكرسي الرسولي أمره إلى الآباء الفرنسسكان كي يزوروا أقباط مصر وينشئوا علاقات طيّبة معهم ويعملوا على تقريب وجهات النظر.

ويرجع تاريخ وجودهم في مصر إلى عام ١٢١٩، وهي السنة التي حضر فيها القدّيس فرنسيس الأسيزي إلى مصر لتوبيخ الحملة الصليبية على أعمالها التي ارتكبت تحت راية الصليب.

وفي دمياط التقى القدّيس فرنسيس الملك الكامل الأيوبي الذي أعجب بشخصيته الشجاعة وقرّبه إليه واستضافه بضعة أيام، كما قدّم له بعض المنح والهدايا، وصرّح له بزيارة الأماكن المقدّسة والوعظ في أنحاء البلاد.

وكان الآباء الفرنسسكان يأتون إلى مصر بين الحين والحين لتقديم الخدمات الروحية لأبناء القنصليات التجارية المختلفة الموجودة بمصر، ولا سيما من هم من جنوا والبندقية والنمسا، وكان أهم مركز لهم في مصر القديمة (حيث كان دير وكنيسة أبي سرجه) ودرب الجنينة بالموسكي

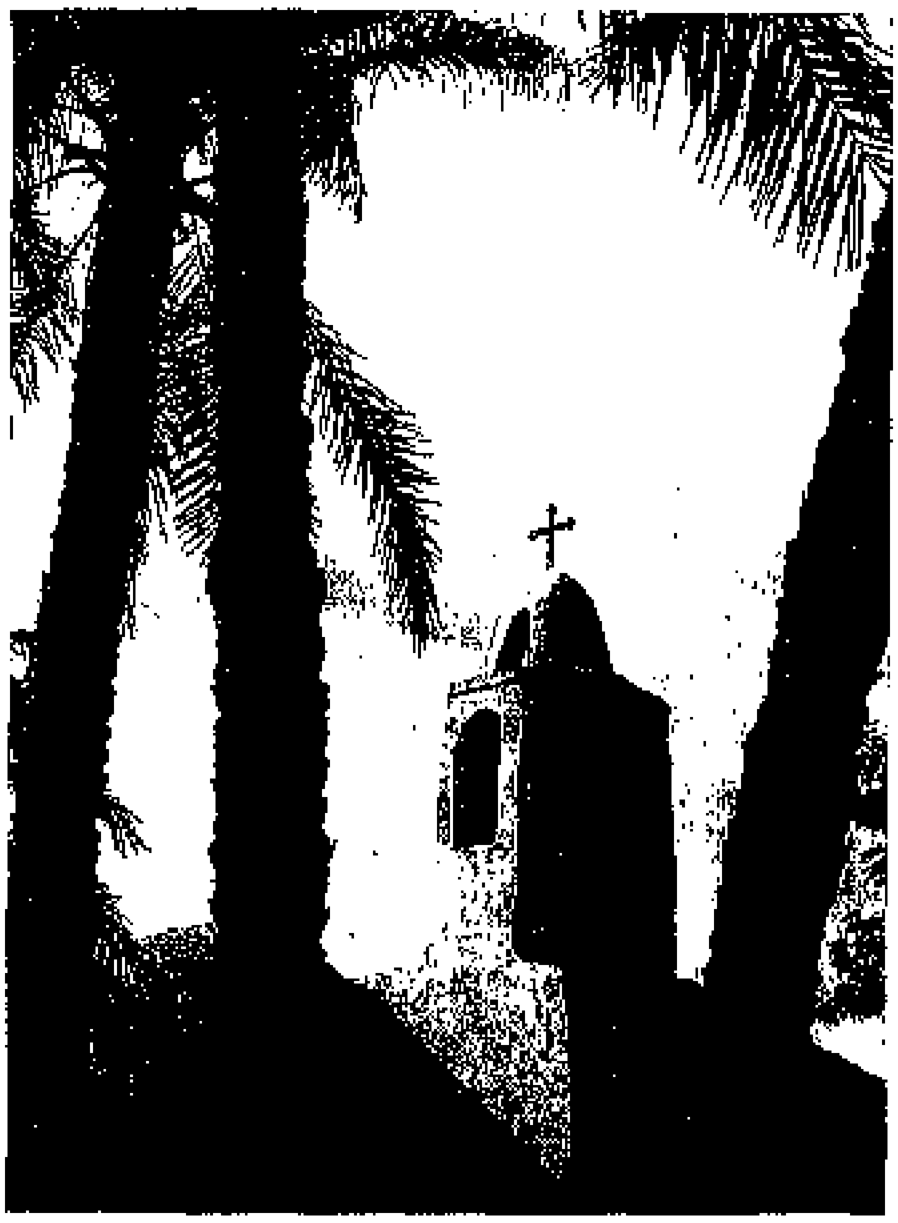

كنيسة جراجوس (الصعيد)
إحدى أقدم الكنائس

وفي الاسكندرية كنيسة سانت كاترين. وقد أنشئ دير الآباء الفرنسسكان عام ١٣٢٥ بإمدادات من رئاسة مشيخة البندقية. وتمكّن الآباء الفرنسسكان بأعمالهم الرسولية من إيجاد نواة تكوّنت منها الكنيسة القبطية المتحدة مع روما. وفي عام ١٢٣٧ أظهر البطريرك كيرلّس السادس الميل إلى الاتحاد بروما، ولكن لم تسفر عن ذلك نتائج كبيرة.

وفي عام ١٦٦٦، تأسّس دير الآباء الفرنسسكان في أخميم، ثم بنيت خمس كنائس. وتوغّل الآباء الفرنسسكان في المسير جنوباً فوصلوا إلى أثيوبيا التي بدأت فيها مفاوضتهم مع إمبراطورها سنة ١٦٧١، ولكنهم لم يوفّقوا فيها.

أولاً: المجمع المسكوني الفلورنتيني واتحاد الأقباط بروما (٤ شباط (فبراير) ١٤٤٢: أول مساعي رسمية قام بها الأحبار الرومانيون لتحقيق هذه الوحدة المنشودة كانت بمناسبة **المجمع الفلورنتيني**، وهو المجمع المسكوني السابع عشر (١٤٣٨-١٤٤٥)، الذي انعقد أولاً بمدينة «فرارة»، ثم بمدينة «فلورنسا» في عهد البابا الروماني أوجينيوس الرابع.

وكان من أهداف هذا المجمع الرئيسية السعي في الاتحاد الوثيق بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الشرقية الأرثوذكسية. وقد أوفدت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وفداً إلى روما برئاسة القمّص أندراوس ليعلنوا عن رغبة البطريرك والشعب القبطي في الاتحاد بروما.

وقد سُجّل قرار الاتحاد المعروف بالعبارة المصدَّر بها: «رنّموا للرب»، وهي وثيقة اتحاد الأقباط بروما، وقد وقّعها القمّص أندراوس بالنيابة عن البطريرك يوحنا الحادي عشر وعن الإكليرس والشعب القبطي.

وأعلن البابا أوجينيوس الرابع في مراسيم دينية بهيجة اتحاد الأقباط بروما في اليوم الرابع من شهر شباط (فبراير) ١٤٤٢ في كنيسة السيدة العذراء مريم بفلورنسا.

إلا أنه، لأسباب كنسية وسياسية عدّة، لم يُعمل بهذه الوثيقة في مصر ولم تُحقّق الوحدة بين الكنيستين.

ثانياً: مفاوضات بين البابا يوس الرابع والبطريرك جبرائيل السابع (١٥٦١-١٥٦٢): بعد انقضاء قرن من الزمان على المحاولة التي جرت في مجمع فلورنسا سنة ١٤٤٢، وفي خلال المجمع التريدنتيني، ذهب إلى روما سنة ١٥٦٠ قسيسان قبطيان (أحدهما إبرام السرياني) يحملان رسالة إلى البابا تعبّر عن رغبة رؤسائهما ورغبة الشعب كله في الاتحاد.

فأرسل البابا يوس الرابع وفداً للتفاوض مع البطريرك القبطي لتحقيق الاتحاد ودعا البطريرك إلى الاشتراك في المجمع التريدنتيني سنة ١٥٦١.

وكاد الاتفاق على الاتحاد أن يتحقّق، إلا أن البطريرك تُوفّي فجأة.

ثالثاً: استأنف البابا غريغوريوس الثالث عشر مفاوضات الوحدة الكنسية التي قام بها سلفه العظيم، مع بطريرك الكنيسة القبطية الأنبا يوأنس الرابع عشر، البابا ٩٦ (الملقب بالمنفلوطي)، إذ أرسل وفداً إلى البطريرك. وبدأت مباحثات مع البطريرك ومعاونيه من أساقفة وكهنة ووجهاء الشعب، وأخذت المفاوضات تسير سيراً حسناً أدّى إلى أن عقد

البطريرك، بتاريخ ١ شباط (فبراير) ١٥٨٤، في دار قنصل فرنسا، حينذاك بولس مرياني – مجمعاً عاماً ترأسه هو بنفسه وحضره أربعة أساقفة ووكلاؤهم ولفيف من الكهنة ووجهاء الشعب، وأدّى البحث مع وفد البابا إلى اتفاق عام على وضع صيغة رسمية لإعلان الإيمان.

ولكن لم يمضِ أسبوع على هذا الاجتماع التاريخي حتى انقلبت الأحوال بمكيدة شيطانية، فرفض جميعهم، من بطريرك وأساقفة وكهنة وشعب، التوقيع على الإقرار المذكور.

ولكن لم ييأس الوفد فعاود الكرة مرة أخرى بتوجيهات الكرسي الرسولي.

فأخذوا يحثّون غبطة البطريرك على إتمام ما بدأ به وعلى تنفيذ وعده. وبعد التروّي في الأمر، وعدهم البطريرك وعداً صادقاً بأنه سيوقّع الإقرار المشار إليه بعد عودته من الإسكندرية. إلاّ أن البطريرك، لسوء الطالع، قد وافته المنية فجأة، في أثناء السير من الإسكندرية إلى القاهرة، وكان ذلك في ٥ أيلول (سبتمبر) ١٥٨٤.

رابعاً: إعلان اتحاد الأقباط بروما في عهد البطريرك غبريال الثامن (١٥٨٧–١٦٠٣): في ٢٠ نيسان (أبريل) ١٥٩٠، كتب البابا سكستس الخامس إلى البطريرك غبريال الثامن يدعوه إلى الاتحاد الذي كان قد شرع فيه سلفه الكريم، كما وجّه أيضاً رسالة أخرى في اليوم نفسه إلى القمّص يوحنا، وكيل البطريركية بالإسكندرية والذي كان قد تلقّى دروسه العليا في جامعات إيطالية، وكان يسعى في اتحاد الأقباط بروما.

فكتب إليه البابا طالباً أن يعمل بجد لدى البطريرك لتحقيق هذه الرغبة. وما إن ارتقى البابا اقليمنضس الثامن السدّة البطرسية حتى واصل محاولات البابا سكستس الخامس لدى البطريرك جبرائيل الثامن، فكتب البطريرك إقراراً بالاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية. وكتب هذا الإقرار في كانون الثاني (يناير) ١٥٩٧ بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الإكليرس والشعب القبطي. ووقّعه بإمضائه وخاتمه، ووقّعه أيضاً، من الأساقفة، أسقف الفيوم والبهنسة وأسقف إسنا وعدد كبير من القمامصة والكهنة والشعب.

ولمّا وصل وفد الأقباط إلى رومة، دُرست المسألة جيّداً، وأُعدّت وثيقة الاتحاد. وكتب البابا اقليمنضس الثاني إلى البطريرك غبريال الثامن وأعلن كذلك قبوله في إنشاء مدرسة قبطية في رومة. وخصّص دير القدّيس اسطفانس داخل أسوار الفاتيكان ليكون مقرّاً لهذه المدرسة وهبة دائمة للأقباط.

ولكن البطريرك كان قد تُوفّي أثناء ذلك في ١٦٠٣/٥/١٤ وانتُخب خلفاً له على الكرسي الإسكندري الأنبا مرقص الخامس (البابا ٩٨) (١٦٠٣ – ١٦١٩) الذي ظلّ زمناً متّحداً بروما ولكنه بعد ذلك غيّر تصرّفاته تجاه القطيع الصغير من الأقباط الكاثوليك المتّحدين بروما.

خامساً: محاولات جديدة متواصلة في سبيل الاتحاد بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية بواسطة مرسلين موفدين من مجمع نشر الإيمان بروما الذي كان قد تأسس في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٦٢٢.

وفي القرن السابع عشر، أوفد البابا أُربانس الثامن مرسلين من الآباء الفرنسسكان إلى البطريرك القبطي يوحنا الخامس عشر الذي كان قد أظهر في أواخر حياته رغبة في الاتحاد بروما.

ولكن، عند وصول المرسلين إلى مصر، كان البطريرك قد رحل عن هذه الحياة. ومن بعده، تتابعت المحاولات من الرهبان الكبوشيين والفرنسسكان الموفدين من مجمع نشر الإيمان لدى البطريرك متى الثالث (البابا ١٠٠) (١٦٢٣-١٦٤٢)، الذي أظهر دائماً علامات المودّة والتفاهمٍ المتبادل في معاملة المرسلين الكاثوليك وصرّح لهم بالوعظ في الكنائس القبطية، لكن الاتحاد المنشود لم يتحقّق في عهده.

ونعرف من التاريخ أن البطريرك مرقص السادس (البابا ١٠١) (١٦٤٦-١٦٥٦) قد أظهرٍ استعداداً تاماً لعقد علاقات الودّ مع رومة وصرح للمرسلين الكاثوليك بالوعظ وإقامة الذبيحة المقدسة في كنائس الأقباط.

وفي ٢٥ شباط (فبراير) سنة ١٦٨٤، أرسل البطريرك يوحنا السادس عشر (البابا ١٠٣) رسالةٍ إلى البابا الروماني اينوقنطيوس الحادي عشر يعلن فيها رغبته الصادقة في الاتحاد بالكرسي الروماني.

ولكن بعض أعضاء طائفته تهدّدوه، فنكص على عقبه وقال لسفير البابا: «إني لم أشكّ قط في استقامة الأمانة الكاثوليكية، ولكنني أخاف القيود والسجون».

وبالرغم من كل ذلك، ظلّ البطريرك يوحنا السادس عشر، إلى وفاته سنة ١٧١٨ مشجّعاً أعمال المرسلين الكاثوليك، ينفّذ بقدر استطاعته مشاريعهم النافعة للأقباط مع الوعظ والخدمة في الكنائس وتأسيس المدارس في القرى والاهتمام بطبع الكتب الطقسية.

وأخذ في عهده المرسلون الفرنسسكان يستوطنون الصعيد، أي الفيوم وصدفا وطهطا وأخميم وفرشوط ونقادة والهماص والشيخ زين الدين وبنجا وبرديس وأبوتيج وغيرها.

وفي عهد البطريرك يوحنا السابع عشر (البابا ١٠٥) (١٧٢٧-١٧٤٥)، أرسل البابا اقليمنضس الثاني عشر (١٧٠٣-١٧٤٠) أحد الآباء اليسوعيين ومعه رسائل وهدايا دينية إلى البطريرك. وبعد أن ناقش البطريرك أراخنة الأقباط، أرسل جوابه بتاريخ أول شباط (فبراير) سنة ١٧٣٥، شاكراً البابا على هداياه داعياً إياه: «رئيس الشعوب المسيحية والإنجيلي الخامس، خليفة المسيح والقديس بطرس».

وكان يسمح للأقباط بقبول الأسرار من الكاثوليك. وهكذا توالت اللقاءات على مرّ العصور والأجيال دون الوصول إلى تحقيق الاتحاد بين الكنيستين الكاثوليكية والقبطية الأرثوذكسية حتى انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥).

سادساً: الحوار المسكوني بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية ابتداء من سنة ١٩٧٣ حتى أيامنا هذه: أصدر المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) وثيقتين في غاية الأهمية: الأولى «في الحوار المسكوني» والثانية «في الكنائس الشرقية الكاثوليكية» وعلاقتها بشقيقاتها الأرثوذكسية. وقد دعا هذا المجمع بعض ممثّلي الكنيسة القبطية

الأرثوذكسية لحضور جلساته كمراقبين. وقد قام الأحبار الرومانيون – لا سيّما البابا بولس السادس والبابا يوحنا بولس الثاني – بمساع متواصلة للحوار الدائم والبنّاء مع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

وقد لبّى قداسة البابا شنوده الثالث بطريرك الإسكندرية على الأقباط الأرثوذكس دعوة الحبر الروماني البابا بولس السادس للذهاب إلى رومة، فقدم إلى حاضرة الفاتيكان على رأس وفد من الأساقفة والكهنة ووجهاء العلمانيين من كنيسته بتاريخ ٥ أيار (مايو) ١٩٧٣ – وهذه هي المرة الأولى، في تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، التي يحضر فيها بطريرك قبطي لمقابلة الحبر الروماني وللتشاور معاً في شؤون الاتحاد بين الكنيستين –، وفي اليوم العاشر من أيار (مايو) ١٩٧٣، صدر بيان مشترك من الحبر الروماني وبابا الإسكندرية بشأن هذا اللقاء التاريخي وأقرّ به ووقّع عليه كل من الحبرين، وجاء فيه:

- الإقرار بالنقاط العقائدية المشتركة.
- ذكر بعض الخلافات.
- الرغبة الصادقة في السعي المتواصل لتحقيق الاتحاد المنشود وتعميق صلات المحبة بين أبناء الكنيستين.
- نبذ كل أنواع «الضمّ البغيض» من كلا الطرفين.
- تبادل الآراء ووجهات النظر والخبرات في ما يؤول إلى صالح الجميع في سائر الأمور الاجتماعية والثقافية.

واتفق الطرفان على تكوين لجان متخصّصة مشتركة تضمّ: من جانب الكاثوليك أعضاء من مجلس الوحدة المسيحية البابوي بروما ومن الكنيسة القبطية الكاثوليكية – ومن جانب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أعضاء من الأساقفة والكهنة والعلمانيين على غرار الجانب الكاثوليكي. وتقوم مهمة هؤلاء الأعضاء من الطرفين على درس الموضوعات المتنوّعة المختلف عليها، عقائدية كانت أم راعوية، لمناقشتها في جلسات الحوار المسكوني.

وقد انعقد بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٨ في القاهرة أربعة اجتماعات مسكونية في غاية الأهمية. وبتاريخ ٢٣ حزيران (يونيو)، وُضعت مبادئ بروتوكول الحوار المسكوني بين الكنيستين الكاثوليكية والقبطية الأرثوذكسية، اعتمدها ووقّع عليها كل من البابا يوحنا بولس الثاني والبابا شنوده الثالث.

وتوقّفت اجتماعات الحوار المسكوني بسبب صدور قرار الرئيس السادات بالتحفّظ على قداسة البابا شنوده الثالث داخل أسوار دير أنبا بيشوي بوادي النطرون، وعدم التصريح له بمزاولة مهامه البطريركية. ولكن هذه الاجتماعات استؤنفت بعد عودة البابا شنوده إلى كرسيه البطريركي بالقاهرة في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥.

وفي إحدى الجلسات، بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩٨٨، توصّل الطرفان إلى اتفاق تام حول صيغة مشتركة بشأن سرّ تجسّد السيد المسيح، على النحو الآتي:

«نؤمن بأن ربنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، الكلمة المتجسّد، هو كامل في لاهوته وكامل في ناسوته – وجعل ناسوته واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا

تشويش، ولاهوته لم ينفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين - وفي الوقت نفسه، نحرم تعاليم كل من نسطور وأوطيخا».

وانعقدت فيما بعد اجتماعات ثلاثة بين أعضاء لجان الحوار المشتركة في دير أنبا بيشوي بوادي النطرون. في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨، ونيسان (أبريل) ١٩٩٠، وأيار (مايو) ١٩٩١، حول «انبثاق الروح القدس» و«المطهر» دون الوصول إلى حلول مرضية. ولكن الجانبين اتفقا على متابعة الحوار المسكوني بثقة متبادلة وثبات بلا ملل ومحبة صادقة، وفقا لمشيئة السيد المسيح الذي صلّى بأنّات لا توصف (عب ٥/٧) من أجل وحدة الكنيسة المقدّسة (راجع يوحنا ١٧).

القسم الرابع

مسيرة الكنيسة القبطية الكاثوليكية
مع النواب والمدبّرين الرسوليين
(١٧٤١-١٨٩٩)

بقلم البطريرك إسطفانوس الثاني غطّاس

- **الأنبا أثاسيوس (١٧٤١-١٧٤٤م)**

أخذ عدد الأقباط الكاثوليك يتزايد يوماً بعد يوم بفضل همّة المرسلين الفرنسسكان وغيرتهم وجهودهم. ولكن لم يكن لهم حينئذٍ أسقف يرعاهم ويدبّر أمورهم.

ولمّا انضمّ إلى الكثلكة الأنبا أثناسيوس، أسقف أورشليم للأقباط الأرثوذكس، في ١٠ آب (أغسطس) ١٧٣٩، عيّنه قداسة البابا بندكتس الرابع عشر نائباً رسولياً لطائفة الأقباط الكاثوليك ببراءة بابوية في ٤ آب (أغسطس) ١٧٤١ واتّخذ وكيلاً عاماً له الأب صالح مراغي. وبسبب كبر سنّه قدّم استقالته. فخلفه في إدارة الطائفة الأب صالح مراغي.

- **الأب صالح مراغي (١٧٤٤-١٧٤٨)**

وُلد يسطس (صالح) مراغي بأخميم في محافظة سوهاج - وقد أوفد بعثة دراسية إلى رومة والتحق بكلية انتشار الإيمان في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٧٢٤، حيث حصل على شهادة في الفلسفة واللاهوت ورسم كاهناً برومة في ٥ أيلول (سبتمبر) ١٧٣٦، وعُيّن وكيلاً للأنبا أثناسيوس سنة ١٧٤١، وخلفه في الإدارة بصفته وكيلاً عاماً للطائفة حتى وفاته سنة ١٧٤٨.

مدبرون رسوليون من الآباء الفرنسسكان (١٧٤٨-١٧٦١)

بعد وفاة الأب صالح مراغي، قام برعاية طائفة الأقباط الكاثوليك بتعيين من الكرسي الرسولي، على التوالي، بصفة مدبّرين رسوليين، رؤساء الآباء الفرنسسكان في مصر. وهم:

- **الأب يعقوب رزيمارس (١٧٤٨-١٧٥١)**
- **الأب بولس دانيونا (١٧٥١-١٧٥٧)**
- **الأب يوسف فرنسيس (١٧٥٧-١٧٦١)**
- **الأنبا أنطونيوس فليفل (١٧٦١-١٧٧٤)**

كان الأنبا أنطونيوس فليفل أسقفاً على كرسي جرجا للأقباط الأرثوذكس، واعتنق

الكثلكة عام ١٧٥٨، وسافر إلى رومة في السنة نفسها، وأقام بدير القديس إسطفانس الخاص بالرهبان الأحباش والأقباط حتى سنة ١٧٦١، وفي ١١ نيسان (أبريل) ١٧٦١، عيّن نائباً رسولياً لطائفة الأقباط الكاثوليك، فرجع إلى مصر وكانت إقامته في القاهرة، وتوجه إلى الصعيد ومكث في أخميم وفرشوط حتى عام ١٧٧٤. وقدّم استقالته في تلك السنة بسبب كبر سنّه واعتلال صحته. ورقد في الرب في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٠٧. وفي عهده ارتسم روفائيل طوخي أسقفاً برومة سنة ١٧٦١.

- الأنبا روفائيل طوخي (١٧٦١-١٧٨٧)

وُلد روفائيل طوخي (نيافة الأنبا روفائيل طوخي) بمدينة جرجا في مصر العليا حوالى عام ١٧٠٣. وفي منتصف شهر أيار (مايو) من عام ١٧٢٤، أوفد بعثة دراسية إلى رومة والتحق بكلية انتشار الإيمان في اليوم الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٧٢٤. وقد مكث فيها اثنتي عشرة سنة، وحصل في ٢٧ من أيار (مايو) عام ١٧٣٥ على شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت. وفي يوم ٥ حزيران (يونيو) ١٧٣٥، رسم كاهناً برومة عن يد نيافة الكردينال لويس باللوغا. واهتمّ في عام ١٧٣٦ بطبع الخولاجي القبطي، وهو أول كتاب طقسي قبطي يتمّ طبعه. ثم رجع إلى وطنه مصر في ٥ شباط (فبراير) ١٧٣٧ ومكث حتى عام ١٧٣٩. ثم استدعي إلى رومة في عام ١٧٤٠ وأقام بها وأدار دير القديس إسطفانس المخصّص للرهبان الأحباش والأقباط، واهتمّ بتدريس الطلبة المبعوثين إلى رومة. ثم نقّح وطبع الكتب الدينية وخاصة الطقسية وألّف: قواعد اللغة القبطية، وقاموساً قبطياً وعربياً سنة ١٧٤٦. واهتمّ بطبع كتاب الأجبية قبطي - عربي سنة ١٧٥٠، وكتاب الرسامات سنة ١٧٦١. وبفضل جهوده المشكورة، نشر للمرة الأولى معظم الكتب الطقسية التي استخدمها أبناء الكنيسة الإسكندرية - الكاثوليك والأرثوذكس على السواء - مدة قرن ونصف قرن. ولم تكن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قد نشرت إلى ذلك اليوم كتبها الطقسية. ونظراً إلى علمه وتقواه وسيرته الطيبة وغيرته الرسولية ومكافأةً للخدمات الجليلة التي أداها لصالح الكنيسة، رُقّي إلى درجة الأسقفية يوم ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٧٦١ برومة.

وإليه يرجع الفضل في نشر الطبعات الأولى من الترجمة القبطية الصعيدية للعهد القديم من الكتاب المقدّس، وقد نشر عدّة أجزاء من هذه الترجمة في كتاب القواعد القبطية برومة سنة ١٧٧٨. وتوفي يوم ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٨٧ برومة.

- الأب روكسي قدسي (١٧٨٠-١٧٨١)

الأب روكسي قدسي من مواليد جرجا، التحق بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٧٤٠ وقد عيّنه مجمع انتشار الإيمان وكيلاً عاماً للأنبا أنطونيوس فليفل في ١ نيسان (أبريل) ١٧٦١. ثم عيّن نائباً رسولياً بقرار في ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٠ وبراءة بابوية بتاريخ ١١ كانون الثاني (يناير) ١٧٨١. ولكنه لم يرتسم أسقفاً لظروف طائفية

آنذاك، واستقال من منصبه بضعة شهور بسبب مرضه، ثم رقد في الرب.

- الأب يوحنا الفرارجي (١٧٨١-١٧٨٥)

الأب يوحنا الفرارجي من مواليد أخميم، التحق بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٤ شباط فبراير ١٧٥٢. أُقيم نائباً رسولياً بقرار في ١١ حزيران (يونيو) ١٧٨١ وبيراءة بابوية بتاريخ ٢٦ حزيران (يونيو) ١٧٨١، ولكنه لم يرتسم أسقفاً لعدم وجود من يرسمه من الأساقفة بمصر في ذلك الحين، ثم رقد في الرب. وفي عهده اعتنق الكثلكة صهيون غنامي الذي ألّف كتباً عديدة قيّمة منها التقويم القبطي والتقويم الغريغوري.

- الأب بشاي نصير (١٧٨٥-١٧٨٧)

الأب بشاي نصير من مواليد ساحل طهطا من أعمال محافظة سوهاج. التحق بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٧٦٧، ودرس الفلسفة واللاهوت وعين نائباً رسولياً بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٥ إلى عام ١٧٨٧، ثم استقال ورقد في الرب.

- الأب ميكيلانجلو باتشلي (١٧٨٧-١٧٨٨)

تولّى رعاية الأقباط الكاثوليك منذ ٤ حزيران (يونيو) إلى نيسان (أبريل) ١٧٨٨ بصفة زائراً رسولياً، ثم رقد في الرب.

- الأب متى الرقيطي (١٧٨٨-١٨٢٢)

التحق متى الرقيطي بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٢٩ كانون الأول (يناير) سنة ١٧٦٧، وأقيم نائباً رسولياً بتاريخ ٢١ نيسان (أبريل) ١٧٨٨ بقرار من مجمع انتشار الإيمان ثبته البابا بيوس السادس بتاريخ ٢١ أيار (مايو) من السنة ذاتها.

واختير متى الرقيطي أسقفاً بقرار صدر يوم ٦ آذار (مارس) ١٨١٥ وبيراءة من البابا بيوس السابع في ٢٠ منه ولكنه لم يُرسم أسقفاً لعدم وجود أساقفة لرسامته. انتقل إلى الامجاد السماوية عام ١٨٢٢. ولمّا توفّي متى الرقيطي سنة ١٨٢٢، سعى باسيليوس بك أحد وجهاء الطائفة القبطية الكاثوليكية، وهو الابن الأكبر للمعلم غالي، لدى البابا لأون الثاني عشر في أمر إعادة بطريركية قبطية كاثوليكية، وقد تدخّل في هذه القضية محمد علي نفسه، وكان المرشح للمنصب البطريركي مكسيمس جويد.

- الأبا مكسيمس جويد (١٨٢٤-١٨٣١)

التحق مكسيمس جويد بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٢٥ آذار (مارس) ١٧٩٣، ثم أُقيم نائباً رسولياً وأسقفاً بقرار صدر في شباط (فبراير) ١٨٢٤ وبيراءة بابوية في ٩ أيار (مايو) من السنة ذاتها.

رُسم أسقفاً عن يد البطريرك الملكي.

عيّنه البابا لأون الثاني عشر بطريركاً للإسكندرية في ١٥ آب (أغسطس) ١٨٢٤، ولكن هذا المشروع الجليل لم يتحقّق لظروف غامضة. وظلّ نائباً رسولياً إلى ١٨٣١، وانتقل للأمجاد السماوية يوم ٣٠ آب (أغسطس) ١٨٣١.

– الأنبا تاوضروس أبو كريم (١٨٣٢–١٨٥٤)

من مواليد جرجا. التحق بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٠٦ ثم أُقيم نائباً رسولياً وأسقفاً بقرار ٢٢ حزيران (يونيو) ١٨٣٢. رسمه أسقف سرياني. وأقامه البابا غريغوريوس السادس عشر قاصداً رسولياً وزائراً للحبشة في ٢٤ تموز (يوليو) ١٨٤٠. ويبدو أنه لم يمارس سلطانه كقاصد رسولي. وانتقل إلى الأمجاد السماوية عام ١٨٥٥.

– الأنبا أثناسيوس خزام (١٨٥٥–١٨٦٤)

رُسم كاهناً بتاريخ ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٣٦، ثم خلف الأنبا تاوضروس أبو كريم بصفة نائب رسولي وتعيّن أسقفاً بقرار صدر في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٨٥٥ وببراءة بابوية بتاريخ ٢ تشرين الأول (أكتوبر) من السنة نفسها. وبقي نائباً رسولياً إلى عام ١٨٦٤. ثم انتقل إلى الأمجاد السماوية بتاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٨٦٥.

– الأب أغابيوس بشاي (١٨٦٦–١٨٧٩)

وُلد في بلدة الهماص، محافظة سوهاج، في ٩ نيسان (أبريل) ١٨٢٨. والتحق بكلية نشر الإيمان الإكليريكية بروما في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٦، ورسم كاهناً بروما في ٢٥ آذار (مارس) ١٨٥٨، وعيّن نائباً رسولياً لطائفة الأقباط الكاثوليك في ٢٧ شباط (فبراير) ١٨٦٦، وأُقيم أسقفاً بتاريخ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٦ مع لقب أسقف كاريوبوليس. حضر المجمع المسكوني الفاتيكاني الأول سنة ١٨٧٠، واستدعي إلى روما في ١٥ نيسان (أبريل) سنة ١٨٧٨ بسبب خلافات طائفية، وبقي فيها حتى ١٨٦٦. وفي خلال هذه الحقبة، ألّف كتاب قواعد اللغة القبطية ومعجماً ضخماً من ثلاث لغات: القبطية واللاتينية والعربية.

عاد إلى مصر في أواخر عام ١٨٨٦، وانتقل إلى الأمجاد السماوية يوم ٢٠ شباط (فبراير) ١٨٨٧.

تُحفظ رفات الأنبا أغابيوس بشاي في مقبرة البطاركة والأساقفة في الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر في القاهرة.

– الأب أنطون ناداب (١٨٨٠–١٨٨٩)

من مواليد أخميم، محافظة سوهاج، بتاريخ ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٤. التحق بكلية انتشار الإيمان بروما، بتاريخ ٢٣ أيار (مايو) ١٨٤٥ ورسم كاهناً بروما بتاريخ ٢٨ آذار (مارس) ١٨٥٧، وأُقيم نائباً رسولياً منتدباً بدلاً من الأنبا أغابيوس بشاي من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨٩. وفي ١٢ شباط (فبراير) ١٨٨٠، تعيّن المنسنيور أنطون مرقس (وهو كاهن من البطريركية اللاتينية الأورشليمية) زائراً رسولياً للأقباط الكاثوليك، وترك مهمته هذه في أواخر سنة ١٨٨٧ بسبب مرضه، فناب محله رئيس الإرساليات الفرنسسكانية فرنسيس زنوبي بصفة زائر رسولي منتدب، وتعيّن لهذه المهمة في جلسة ٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٩.

- الأب سمعان برايا (١٨٨٩-١٨٩٢)

من مواليد أخميم محافظة سوهاج، بتاريخ ٨ أيار (مايو) ١٨٤٥. التحق بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤١، ورسم كاهناً بروما بتاريخ ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٥٨، تعيّن نائباً رسولياً منتدباً يوم ٥ تموز (يوليو) ١٨٨٩. وأقام بالزيتون (القاهرة) وشيّد كنيستها الأولى وانتقل إلى الأمجاد السماوية يوم ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٤.

- الأب أنطون كابس (١٨٩٢-١٨٩٥)

من مواليد طهطا، محافظة سوهاج، بتاريخ أول كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٢ والتحق بكلية انتشار الإيمان بروما بتاريخ ٢٨ أيار (مايو) ١٨٥٥، ورسم كاهناً بروما بتاريخ ١٠ حزيران (يونيو) ١٨٦٥، كان راعياً بأخميم من عام ١٨٧٦ إلى عام ١٨٧٩ وراعياً بأسيوط ١٨٨٩ وهو أول راعٍ قبلي كاثوليكي بطهطا سنة ١٨٩١. وعيّن نائباً رسولياً منتدباً في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٢.

- الأنبا جرجس مقار (١٥ آذار (مارس) ١٨٩٥ - ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٩)

من مواليد بلدة الشناينة، محافظة أسيوط، في ١٧ كانون الأول (يناير) ١٨٦٧. التحق بالكلية الإكليريكية الشرقية التابعة لجامعة القديس يوسف في بيروت (لبنان) التي يديرها الآباء اليسوعيون. أتمّ مراحل الدراسة بتفوّق عظيم وختمها بدرس الفلسفة واللاهوت وحصل على الدكتوراه. وأجاد اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والفرنسية، علاوةً على اللغة العربية والقبطية. رسم كاهناً في بيروت في حزيران (يونيو) ١٨٩١.
أُقيم أسقفاً ونائباً رسولياً على الطائفة بتاريخ ١٥ آذار (مارس) ١٨٩٥. واتخذ اسم «كيرلّس» وصار لقبه «الأنبا كيرلّس مقار أسقف قيصرية فيلبّس ونائب رسولي على الكنيسة المرقسية الإسكندرية»، حتى تعيينه بطريركاً من قداسة البابا لاون الثالث عشر بتاريخ ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٩.

القسم الخامس

الكنيسة القبطية الكاثوليكية في العصر الحديث
(١٨٩٥ - ١٩٩٥)

بقلم غبطة البطريرك إسطفانوس الثاني غطّاس

يرجع الفضل الأكبر في نمو الكنيسة القبطية الكاثوليكية وازدهارها منذ مائة عام إلى قداسة الحبر الأعظم البابا لأون الثالث عشر الذي أعاد لهذه الكنيسة مجدها الغابر، وذلك بتجديد الكرسي البطريركي للأقباط الكاثوليك وتثبيته بإصدار البراءة الرسولية المصدّرة بالعبارة «المسيح الرب» في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٥.

واننا نقسم هذا القسم الخامس والأخير إلى أربعة فصول، نبيّن فيها ما تمّ من أعمال في عهد كل من البطاركة الأقباط الكاثوليك الأربعة الذين اعتلوا الكرسي الإسكندري خلال مائة عام:

١. غبطة البطريرك الأنبا كيرلّس الثاني مقار (١٨٩٩–١٩٠٨)
٢. غبطة البطريرك الأنبا مرقس الثاني خزام (١٩٤٧–١٩٥٨)
٣. غبطة البطريرك الأنبا إسطفانوس الأول سيداروس (١٩٥٨–١٩٨٦)
٤. غبطة البطريرك الأنبا إسطفانوس الثاني غطاس (١٩٨٦–٠٠٠٠)

الفصل الأول

في عهد البطريرك الأنبا كيرلس الثاني (١٨٩٩-١٩٠٨)

عيّن قداسة البابا لأون الثالث عشر الأب جرجس مقار نائبًا رسوليًا على الكنيسة القبطية الكاثوليكية في ١٥ آذار (مارس) ١٨٩٥، واتخذ لنفسه اسم: «الأنبا كيرلس مقار». وكان له من العمر حينذاك ثمان وعشرون سنة. كان قد أتمّ دروسه العلمية والفلسفية واللاهوتية في الإكليريكية الشرقية التابعة لجامعة القدّيس يوسف، بيروت - لبنان) والتي يديرها الآباء اليسوعيون. أجاد اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية علاوة على اللغتين العربية والقبطية، وأتقن اللغة الفرنسية إتقانًا عميقًا حتى نظم الشعر فيها، وألّف وهو طالب ثلاث روايات تمثيلية باللغة الفرنسية ونظمها شعرًا، عنوانها: «إيمان لبنان» و«ملك رومة» و«شهيد خط الاستواء». ورُسم كاهنًا في بيروت في حزيران (يونيو) ١٨٩١. ورجع إلى بلاده وعُيّن مدرّسًا بالمدرسة الطائفية المجاورة لدار البطريركية في درب الجنينة بالقاهرة.

وبينما كان يقوم بمهامه الرعائية بغيرة ونشاط، كان يكتب مؤلّفات قيّمة باللغتين الفرنسية والعربية منها: «دليل المصريين» و«المسيح عمانوئيل» و«تبرئة أوريجانيس الإسكندري» في ثلاثة أجزاء، نشر منها جزءان وبقي الجزء الثالث مخطوطًا، و«تصحيح تقويم الكنيسة الاسكندرية» من اليولياني إلى الغريغوري، وأصدر منشورًا يعلن فيه إصلاح التقويم المذكور.

وفي ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٥، أصدر البابا لأون الثالث عشر البراءة الرسولية التي بموجبها أعاد إلى الأقباط مقام البطريركية الاسكندرية الكاثوليكية بجميع امتيازاتها القديمة. وعُين مديرًا رسوليا للبطريركية الأنبا كيرلس مقار. وقرّر - مع الإيبارشية البطريركية - تأسيس إيبارشيتين تابعتين للكرسي البطريركي، وهما: إيبارشية

هيرموبوليس (المنيا) وإيبارشية طيبة (الأقصر). كما عيَّن قداسة البابا بعد ذلك أسقفين، واحداً لإيبارشية هيرموبوليس ومقرّ كرسيّه المنيا، وهو الأب يوسف صدفاوي الذي اتّخذ اسم: الأنبا مكسيمس صدفاوي – والثاني لإيبارشية طيبة ومقرّ كرسيه طهطا (محافظة سوهاج)، وهو الأب بولس قلاده برزي، وأخذ اسم: الأنبا إغناطيوس برزي. وتمّت رسامتهما الأسقفية في ٢٩ آذار (مارس) ١٨٩٦.

كلّف قداسة البابا لأون الثالث عشر الأنبا كيرلّس مقار في ١١ أيار (مايو) ١٨٩٦ بالسفر إلى أثيوبيا والقيام بمهمة التوسّط لدى الإمبراطور النجاشي المنليك للإفراج عن الأسرى الإيطاليين. وظلّ في السفر المضني لقضاء هذه المهمة الخطيرة زهاء ستة أشهر. وكانت رسالة ناجحة بفضل حكمة الأنبا كيرلّس مقار.

في عهده تمّت الإنجازات الآتية، وهو مدبّر رسولي للبطريركية:

- بُنيت الدار البطريركية وكاتدرائية القيامة بالاسكندرية بفضل مساعدات الإمبراطور فرنسوا جوزيف، إمبراطور النمسا – إذ كانت الكنيسة القبطية الكاثوليكية في حمايتها.
- تأسّست الكلية الإكليريكية أولاً في المنيا في ٧ أيار (مايو) ١٨٩٥ – وعهد بإدارتها إلى الآباء اليسوعيين – وتمّ فيها رسامة أحد عشر كاهناً.
- وُضع حجر الأساس في حفل مهيب للإكليريكية الكبرى بطهطا (محافظة سوهاج) في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٧ – وتمّت حفلة الافتتاح الرسمي في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩ باسم القديس لأون الكبير عرفاناً بالجميل لقداسة البابا لأون الثالث عشر وحبّه الصادق للكنيسة القبطية الكاثوليكية.
- عُقد المجمع الإسكندري العام في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٩٨ إلى ٣ حزيران (يونيو) ١٨٩٨ – وصدّق الكرسي الرسولي على ما تضمّنه (بالنص اللاتيني) في ٢٣ نيسان (أبريل) ١٨٩٩ – ولم يترجم إلى العربية.
- تمّ شراء مطبعة وحروف قبطية وعربية، طُبع فيها باللغتين القبطية والعربية كتب القداديس والأناجيل الأربعة وأسبوع الآلام وقطمارس الرسائل والأناجيل وغيرها من الكتب الطقسية، الأول منها في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٩.
- واشترك الأنبا كيرلّس مقار في كثير من الجمعيات العلمية، وكان عضواً في المجمع العلمي المصري وفي الجمعية الجغرافية الخديوية، ومراسلاً في مجمع شيكاغو العلمي بالولايات المتحدة الاميركية.

عيّن قداسة البابا لأون الثالث عشر **الأنبا كيرلّس مقار بطريركاً على الكرسي الاسكندري في ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٩** – وتمّ تجليسه بالاسكندرية في الكاتدرائية الجديدة بتاريخ ٣١ تموز (يوليو) ١٨٩٩.

واعترفت الحكومة المصرية بهذا التعيين بأمر عال في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٠، على مثال غبطة البطريرك الأنبا كيرلّس الخامس بطريرك الأقباط الأرثوذكس.

وكان عدد الأقباط الكاثوليك آنذاك اثني عشر ألف نسمة يخدمهم ثلاثون كاهناً. وأصبحوا في سنة ١٩٠٨ عشرين ألفاً وخمسين كاهناً.

وكانت شؤون الكنيسة القبطية الكاثوليكية في تقدّم ملموس ونجاح مرموق بفضل همّة رؤسائها الكنسيين ونشاطهم: بطريركها الشاب المتّقد حماسةً وصاحبي النيافة مطراني المنيا وطهطا المعروفين بالفضل والعلم والفضيلة.

ولكن الشيطان، عدو الخير، زرع الزؤان في حقل الكنيسة النامية. فقد شنّ على البطريرك كيرلّس مقار منذ سنة ١٩٠٤ كثير من الحملات النفاقية والتهم الباطلة. واستدعي إلى رومة في أيار (مايو) ١٩٠٨ وقدّم استقالته من مهامه البطريركية إلى قداسة البابا بيوس العاشر في ٣٠ أيار (مايو) ١٩٠٨.

وعيّن الكرسي الرسولي في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٠٨، ليحلّ محلّه كمدبّر رسولي **للبطريركية، الأنبا مكسيمس صدفاوي مطران كرسي هيرموبوليس** (المنيا).

وحدثت اضطرابات وألوان كثيرة من الشغب في القاهرة بسبب تقديم استقالة البطريرك الأنبا كيرلّس مقار، الذي عاد إلى الإسكندرية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ ليعيش هناك. وقد أوعز إليه أن يسافر إلى لبنان. فتوجّه إليه سنة ١٩١٠ وسكن في مدينة جونيه. إلاّ أنه، بعد قرابة سنتين، قوّضت الغربة والعزلة حياته ومشاعره، وهزّته ثورة داخلية عنيفة. وغادر لبنان، وعاد فجأة إلى الإسكندرية سنة ١٩١٢. وعندما وصل إلى الاسكندرية توجّه إلى بطريركية الروم الأرثوذكس، ورفض أن يتوجّه إلى بطريركية الأقباط الكاثوليك، بالرغم من التحذير والتوسلات. وأعلن انفصاله عن الكنيسة الرومانية. وبقي في دار بطريركية الروم الأرثوذكس مدة ثلاثة أيام، ولم يأتِ بأي فعل إيجابي اشتراكاً في القدسيات.

وبعد هذا العمل الشائن، أفاق من غفلته وعاد إلى صوابه. وبكى بكاءً مرّاً... وعزم العزم على السفر إلى رومة وسافر إليها، وقدّم وثيقة ندامته وخضوعه واحترامه للكرسي الرسولي في ٩ آذار (مارس) ١٩١٢. وقبل الحبر الأعظم البابا بيوس العاشر خضوعه.

لم يتحمّل الأنبا كيرلّس شتاء إيطاليا القارس، فعاد إلى لبنان واستقرّ في بيروت العاصمة. ووافته المنيّة في ١٨ أيار (مايو) ١٩٢١. ونقل جثمانه إلى مصر ودفن بالقاهرة في كاتدرائية درب الجنينة – الموسكي. ثم نقلت رفاته إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر.

وبعد استقالة الأنبا كيرلّس مقار من المهام البطريركية، قاسى المدبّر الرسولي الأنبا مكسيمس صدفاوي الكثير في أوائل عهده، وبذل جهداً جباراً ليعيد الوحدة والسلام إلى أبناء طائفته. لكن الأحداث جعلت الكنيسة القبطية الكاثوليكية في شبه ركود، لا سيما وأن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٩) عرقلت الأمور.

ولكن، في عهده وعهد الأنبا إغناطيوس برزي مطران طيبة، تأسّست في مدينة طهطا في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ أول رهبانية قبطية كاثوليكية رسولية وهي رهبانية راهبات قلب يسوع المصريات.

البطريرك الأنبا مرقس الثاني خزام

وقد تُوفّي الأنبا مكسيمس صدفاوي يوم ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٢٥. ودفن في كاتدرائية درب الجنينة. ونقل بعد ذلك إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر. وكان قد سبقه بقليل إلى الأمجاد السماوية الأنبا إغناطيوس برزي في طهطا يوم ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، ودفن في كاتدرائيتها.

الفصل الثاني

في عهد البطريرك الأنبا مرقس الثاني (١٩٤٧-١٩٥٨)

وُلد مرقس خزام بأخميم (محافظة سوهاج) بتاريخ ١٦ آذار (مارس) ١٨٨٨. والتحق بالإكليريكية الصغرى بالقاهرة في ٢٥ نيسان (أبريل) ١٨٩٨، فدرس العلوم الثانوية في مدرسة الآباء اليسوعيين. ولما نبغ في دروسه، أرسله رؤساؤه في بعثة دراسية إلى الكلية الشرقية التابعة لجامعة القديس يوسف (بيروت – لبنان) للآباء اليسوعيين ليتعمّق في اللغات والفلسفة واللاهوت. ورسم كاهناً في بيروت بتاريخ ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩١١.

وبعد عودته من بيروت، عيّنه المدبّر الرسولي الأنبا مكسيمس صدفاوي راعياً لبلدة أبي قرقاص (المنيا). وظلّ فيها خمسة عشر عاماً راعياً غيوراً يتمتّع بشخصية جذّابة، قويّ الحجّة، بليغ العبارة، مهيب الطلعة، وديعاً، اتّسم بالبساطة في حديثه وعلاقاته بالمسيحيين والمسلمين.

وبعد وفاة كل من الأنبا مكسيمس صدفاوي والأنبا أغناطيوس برزي، عيّن الكرسي الرسولي الأب مرقس خزام أسقفاً على كرسي طيبة (الأقصر) ومدبّراً رسولياً للبطريركية، والأب فرنسيس بسطورس أسقفاً على كرسي هيرموبوليس (المنيا) متّخذاً اسم الأنبا باسيليوس بسطورس. وقبلا معاً الرسامة الأسقفية في كاتدرائية درب الجنينة بالقاهرة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٦.

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها المدبّر الرسولي الأنبا مرقس خزام.

- بناء كاتدرائية طهطا وعدة كنائس في الصعيد.
- إصلاحات عديدة لمساكن الكهنة والمدارس.
- تأسيس الجمعية المسيحية لمدارس الصعيد سنة

دار بطريركية الأقباط الكاثوليك في القاهرة

١٩٤١ بفضل جهود الأب هنري عيروط اليسوعي.

- إصدار المجلة الطائفية «الصلاح» في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠.
- اقتناء فيلتين جميلتين مع حديقة مساحتها فدانان تصلح للدار البطريركية الجديدة في كوبري القبة.

وقد عُرف نيافة الأنبا مرقس خزام مدبّر للبطريركية الرسولي بغيرته الرعوية الساهرة، يجوب أنحاء البلاد شمالاً وجنوباً في زيارات رعائية منتظمة متفقّداً الكنائس ومنازل أبنائه بيتاً بيتاً في بساطة رسولية عارفاً الجميع بأسمائهم.

ونظراً إلى غيرته الرسولية، عيّنه قداسة البابا بيوس الثاني عشر بطريركاً على الكرسي الإسكندري الشاغر منذ ١٩٠٨ بتاريخ ٩ آب (أغسطس) ١٩٤٧، وعيّن معاوناً له الأب اللعازري إستيفي سيداروس، الذي كان رئيساً للمعهد الإكليريكي الطائفي: واتّخذ اسم «الأنبا إسطفانوس سيداروس». وقسمت إيبارشية طيبة الأقصر إلى إيبارشيتين: إيبارشية أسيوط وتشمل محافظة أسيوط فقط وإيبارشية طيبة (الأقصر) وتشمل محافظات سوهاج وقنا وأسوان. وعيّن لإيبارشية أسيوط الأب إسكندر حبيب راعي مصر الجديدة باسم الأنبا الكسندرس اسكندر — كما سلّمت إليه رعاية إيبارشية طيبة (الأقصر) بصفة مدبّر رسولي.

وتمّ حفل تجليس غبطة البطريرك الأنبا مرقس الثاني على الكرسي الإسكندري يوم ٧ آذار (مارس) ١٩٤٨ بالدار البطريركية في كوبري القبة.

وقد وضع يديه المباركين لرسامة ثمانين كاهناً، وستة أساقفة وهم الآتية أسماؤهم:

(١) الأنبا جرجس البركة مطران المنيا في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٨ خلفاً للأنبا باسيليوس بسطاورس الذي كان قد توفّي يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤.

(٢) الأنبا ألكسندرس إسكندر مطراناً لأسيوط ومدبّراً رسولياً لطيبة الأقصر في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ وهو مؤسّس إيبارشية أسيوط، وقد عني ببناء كاتدرائيتها ومطرانيتها الفاخرتين.

(٣) الأنبا إسطفانوس سيداروس أسقفاً معاوناً لغبطته في ٩ آب (أغسطس) ١٩٤٧، وقبل الرسامة الأسقفية في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨.

(٤) الأنبا إسحق غطاس مطراناً لكرسي طيبة في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩.

(٥) الأنبا بولس نصير مطراناً لإيبارشية المنيا في آذار (مارس) ١٩٥٠ خلفاً للأنبا جرجس البركة الذي كان قد توفي بتاريخ ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦.

(٦) الأنبا يوحنا نوير أسقفاً مساعداً لإيبارشية طيبة الأقصر في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ في كاتدرائية الاسكندرية.

وأصبح عدد الأقباط الكاثوليك في عهده مائة وعشرين ألفاً ونيف.

وانتقل إلى الأمجاد السماوية يوم ٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨، ودفن جثمانه بالقاهرة في كاتدرائية درب الجنينة. ثم نقل إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر.

الفصل الثالث

في عهد البطريرك الأنبا إسطفانوس الأول (١٩٥٨-١٩٨٦)

إستيفي سيداروس من مواليد ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٤ بالقاهرة من عائلة مصرية عريقة من طائفة الأقباط الكاثوليك، كان والده المغفور له د. سيزوستريس باشا وزير مصر المفوض بالولايات المتحدة، وكانت والدته تنتمي إلى عائلة المعلم غالي الذي كان وزيراً للمالية في عهد محمد علي الكبير. والذي كان له الفضل في تعزيز الكثلكة ونشرها في القرن التاسع عشر.

وبعد أن أنهى إستيفي دروسه الثانوية في مدرسة العائلة المقدسة للآباء اليسوعيين بالقاهرة سنة ١٩٢٣، التحق بكلية الحقوق والعلوم السياسية في باريس، وعاد من بعدها إلى مصر وانخرط في سلك المحاماة.

وكان نداء الله يلاحقه أثناء تتميم واجباته الدينية وأثناء نشاطه في أخوية السيدة العذراء وجمعيات القديس منصور. فلبّى النداء وتوجّه إلى باريس عام ١٩٣٢ وطلب الانضمام إلى رهبانية الآباء اللعازاريين وأبرز نذوره الرهبانية في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٣٥ وتابع دروسه الفلسفية في باريس، ثم دروسه اللاهوتية في داكس حيث رسم كاهناً في تموز (يوليو) ١٩٣٩، وعيّن بعد ذلك مدرّساً للكتاب المقدّس والفلسفة واللاهوت الأدبي في معاهد إكليريكية مختلفة في إيبارشيات فرنسا.

وفي سنة ١٩٤٦ استدعاه مجمع الكنائس الشرقية ليكون رئيساً للمعهد الإكليريكي بطهطا

– ثم بطنطا عام ١٩٤٨، وقد أشرف على بناء الإكليريكية الجديدة بالمعادي التي افتتحها رسمياً نيافة الكردينال أوجين تيسران رئيس المجمع الشرقي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣. وظلّ رئيساً لها حتى عام ١٩٥٨.

ولما اعتلى الأنبا مرقس خزام الكرسي البطريركي للأقباط الكاثوليك في آب (أغسطس) ١٩٤٧ اختار الأب إستيفي أسقفاً معاوناً له. واقتبل الرسامة الأسقفية بالاسكندرية في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨.

وبعد وفاة المثلث الرحمات الأنبا مرقس الثاني في ٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨، اختير الأنبا إسطفانوس سيداروس خلفاً له في البطريركية القبطية الكاثوليكية في ٧ حزيران (يونيو) ١٩٥٨. وتمّ تجليسه على السدّة المرقسية بكنيسة المعهد الإكليريكي بالمعادي في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٥٨. واتّخذ إسم «الأنبا إسطفانوس الأول».

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها

– تشييد كنيسة بالجيزة وأخرى بعزبة القصيرين، وكاتدرائية القيامة بالاسكندرية، وكنيسة العائلة المقدّسة بدرب الجنينة وكنيسة العذراء بعين شمس.
– إجراء إصلاحات وترميمات في الكنائس التي سلّمها المرسلون الذين غادروا البلاد إلى طائفة الأقباط الكاثوليك، أمثال كنيسة السجود بشبرا، وفي المحلة الكبرى، وفي طنطا وزفتى وشبين الكوم وكنيسة الملاك ميخائيل بالاسكندرية.
– افتتاح إكليريكية صغرى بالاسكندرية لأبناء الوجه البحري، علاوة على الإكليريكية الصغرى بطهطا لأبناء الوجه القبلي.
– العناية بالمدارس التابعة للبطريركية وتعضيدها: مدارس سان جورج في مراحلها الثلاث (مصر الجديدة ومدينة نصر)، ومدرسة سان ميشيل بالاسكندرية، ومدرسة العناية الإلهية بالمنصورة.
– بناء عقارات استثمارية لزيادة دخل الإيبارشية البطريركية.

وفي عهده انبثقت رهبانية «راهبات يسوع ومريم القبطيات» من رهبانية «راهبات قلب يسوع المصريات» في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٦٩.

وتخرّج في عهده تسعة وأربعون كاهناً يعملون في كرم الرب، رسم منهم أربعة وعشرين كاهناً، والباقون رسمهم أساقفة إيبارشياتهم.

وتأسّست في أيامه إيبارشيتان جديدتان، هما إيبارشية الاسماعيلية في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ وإيبارشية سوهاج – منفصلة عن إيبارشية طيبة الأقصر – في أيار (مايو) ١٩٨٣ – وأصبحت الكنيسة القبطية الكاثوليكية مكوّنة من ست إيبارشيات.

وكان غبطة البطريرك الأنبا إسطفانوس الأول رجل صلاة وحياة روحية عميقة، ذا إرادة صلبة وعزم ثابت، متقشّفاً، متواضعاً، عني كل العناية بوضع السلام والوئام في الكنيسة التي وكلت إليه من قبل راعي الرعاة. وكان عهده عهد سلام ووفاق، يعمل غبطته لازدهار الكنيسة في صمت وهدوء...

وأصبح عدد الأقباط الكاثوليك تحت رعايته مائة وخمسين ألف نسمة.

وكانت علاقاته بالكنائس الأخرى المسيحية طيّبة. وشرع، ابتداءً من سنة ١٩٧٣ في الحوار المسكوني مع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. كما أن اتصالاته بالسلطات المدنية كانت حسنة جداً، يحترمه ويجلّه الجميع. وقد اشترك – وأساقفة الكنيسة القبطية الكاثوليكية – في جلسات المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٥ –. كذلك حضر اجتماعات سينودس الأساقفة التي ابتدأت في الفاتيكان بعد المجمع الفاتيكاني الثاني.

وقد منحه قداسة البابا بولس السادس رتبة الكردينالية للكنيسة الجامعة في ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٦٥. وهو أول من حمل هذا اللقب في الطائفة.

ونظراً إلى كبر سنّه واعتلال صحته، عيّن الكرسي الرسولي في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٨٤ نيافة الأنبا أندراوس غطاس، مطران طيبة – الأقصر، مدبّراً رسولياً للبطريركية. وفي ١٩ نيسان (أبريل) ١٩٨٦ قدّم غبطة البطريرك الأنبا إسطفانوس الأول استقالته من المهام البطريركية. وانتخب السينودس البطريركي يوم ٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٦ بالإجماع الأنبا أندراوس غطّاس بطريركاً للكرسي الاسكندري، وقد اتّخذ اسم «الأنبا إسطفانوس الثاني» وفاءً وتقديراً لسلفه العظيم وتأكيداً للاستمرارية.

ورقد الأنبا إسطفانوس الأول في الرب بالقاهرة في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٨٧.

وشيّعت جنازته في موكب مهيب من كاتدرائية الفجالة إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر بجوار أسلافه العظام الأنبا كيرلّس الثاني والأنبا مرقس الثاني.

الفصل الرابع

في عهد البطريرك إسطفانوس الثاني
(١٩٨٦–٠٠٠٠)

غطاس أندراوس (نيافة الأنبا أندراوس غطّاس) من أبناء قرية الشيخ زين الدين، مركز طهطا، محافظة سوهاج، ومن مواليد ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠، من عائلة تقية فقيرة عُرفت بانتمائها التام إلى الكنيسة القبطية الكاثوليكية. التحق بالمدرسة الإكليريكية الصغرى يوم ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٢٩، فدرس العلوم الثانوية بمدرسة العائلة المقدّسة للآباء اليسوعيين بالفجالة. ولمّا فاق أقرانه بمراحل عدّة، اختاره رؤساؤه ليتلقّى الفلسفة واللاهوت في كلية انتشار الإيمان بروما ورُسم كاهناً يوم ٢٥ آذار (مارس) ١٩٤٤.

ولمّا رجع إلى مصر اختارته إدارة المدرسة الإكليريكية اللاّوِنية الكبرى بطهطا مدرّساً للفلسفة. ولمّا نقل المعهد الإكليريكي إلى طنطا، محافظة الغربية، واصل التدريس في الفلسفة واللاهوت العقائدي واللغة القبطية مع الإرشاد الروحي.

وشعر بدعوة ملحّة إلى الكمال المسيحي، فصرّح له رؤساؤه بأن ينتمي إلى رهبانية الآباء اللعازريين. فسافر إلى باريس لفترة الابتداء

وعُيِّن بعد ذلك للرسالة في لبنان، قضى فيه ست سنوات مثمرة. ثم رجع إلى مصر مدبّراً، ثم رئيساً لدير الآباء اللعازاريين بالإسكندرية.

وانتخبه السينودس البطريركي في ٨ أيار (مايو) ١٩٦٧ مطراناً على كرسي طيبة - الأقصر. وتمّت رسامته الأسقفية في كنيسة الآباء اللعازاريين بالإسكندرية في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

وعيّنه الكرسي الرسولي مدبّراً رسولياً للبطريركية نظراً إلى اعتلال صحة غبطة الأنبا إسطفانوس الأول وتقدّمه في السن. ولمّا قدّم غبطته استقالته من مهام البطريركية، انتخب السينودس البطريركي بالإجماع الأنبا أندراوس غطّاس بطريركاً للكنيسة القبطية الكاثوليكية في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٦، وتمّ تجليسه على السدّة البطريركية في كاتدرائية الفجالة بتاريخ ١٢ تموز (يوليو) ١٩٨٦.

ومن أهم أعماله الرسولية وإنجازاته الرعائية خلال إقامته في إيبارشية طيبة - الأقصر وفي الإيبارشية البطريركية:

١. تفقّد أبناء الإيبارشية بانتظام، وغالباً بيتاً بيتاً، يعرفهم بأسمائهم...

٢. الاهتمام الأبوي بأبنائه الكهنة وبناته الراهبات من كل رهبانية، ساعياً لاستدعائهن للخدمة في الرعايا وفي كل المجالات.

٣. تشييد مطرانية الأقصر والدار البطريركية بالإسكندرية.

٤. بناء وتجديد عشر كنائس وسكن الكهنة وأديرة الراهبات ومستوصفات ومشاغل ودور للتنمية وأماكن للمصيف في بلطيم ومرسى مطروح، وللخدمات والندوات في أكنج مريوط وفي الدير الإكليريكي بالإسكندرية.

٥. تشييد دار القديس إسطفانوس لضيافة الكهنة المسنّين بالمعادي - وداراً للمسنين من العلمانيين بمنشية البكري في القاهرة.

٦. الاهتمام الخاص بالأقباط الكاثوليك في بلاد المهجر (نيويورك ونيو جرسي ولوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأميركية، ومونتريال وتورنتو في كندا، وسيدني وميلبورن في أوستراليا، وفي باريس وفي رومة - وتعيين رعاة من الطائفة للعناية بهم - وتفقّدهم بانتظام كل سنتين.

وفي عهده حتى تاريخه وضع غبطة البطريرك يديه المباركتين لرسامة أربعين كاهناً ونيّف وخمسة أساقفة

وأصبح عدد الأقباط الكاثوليك في عهده مائتين وعشرة آلاف نسمة بما فيهم عشرة آلاف نسمة في بلاد المهجر - وعدد الكهنة الإيبارشيين مائة وثمانين ما عدا أربعين راهباً من الفرنسسكان وعشرين من الرهبانيات الأخرى - وعدد الراهبات المصريات مئة وعشر، والقبطيات خمسين، ما عدا الراهبات القبطيات الكاثوليكيات في الرهبانيات الأخرى الأربعين، والعاملات في حقل الكنيسة المصرية.

اشترك غبطته في جميع اجتماعات سينودس الأساقفة في رومة، لا سيّما السينودس الخاص بالقارة الأفريقية حيث كان عضواً في اللجنة المركزية لإعداد السينودس،

لا في رومة فقط، بل في عدّة بلدان أفريقية أيضاً.

والفضل يرجع أيضاً إلى غبطته في تعيين لجنة من الكنيسة الكاثوليكية المصرية لترجمة «مجموعة قوانين الكنائس الشرقية الكاثوليكية» من اللاتينية إلى اللغة العربية، حازت تقدير الجميع. وكذلك تأليف الدليل العام للكنيسة الكاثوليكية في مصر، بانتظام، في اللغتين العربية والفرنسية.

القسم السادس

الفنّ القبطيّ

بقلم الأب موريس يار مرتان اليسوعي*

* باحث

تأثّر الفنّ القبطيّ بالأساليب الفنّية التي تطوّرت منذ القدم في حوض البحر المتوسّط(١)، وبالفنّ التقليديّ المصريّ نفسه. وقد أخذت عناصر هذا الفنّ البدائيّة تتكوّن في نهاية عصر البطالسة وبداية الحكم الإمبراطوريّ الرومانيّ، وبلغت أوج تطوّرها في القرنين الخامس والسادس، وبوجه خاصّ في الأوساط الديريّة. إلاّ أنّ الاجتياحات العربيّة، التي دامت من ٦٤٠ إلى ٦٤٢؛ وأدّت إلى تأسيس الإسلام دين الدولة، حالت دون استمرار هذا الفنّ في الارتقاء. بل أخذ، مذ ذاك، يشهد عصر انحطاط حتّى مطلع العصر الحديث.

مميّزات الفنّ القبطيّ

من مميّزات الفنّ القبطيّ صفته التجريديّة ورسومه التزيينيّة. ويلاحظ فيه، في بعض الحالات: عناصر من الفنّ الفرعونيّ. ففي فنّ

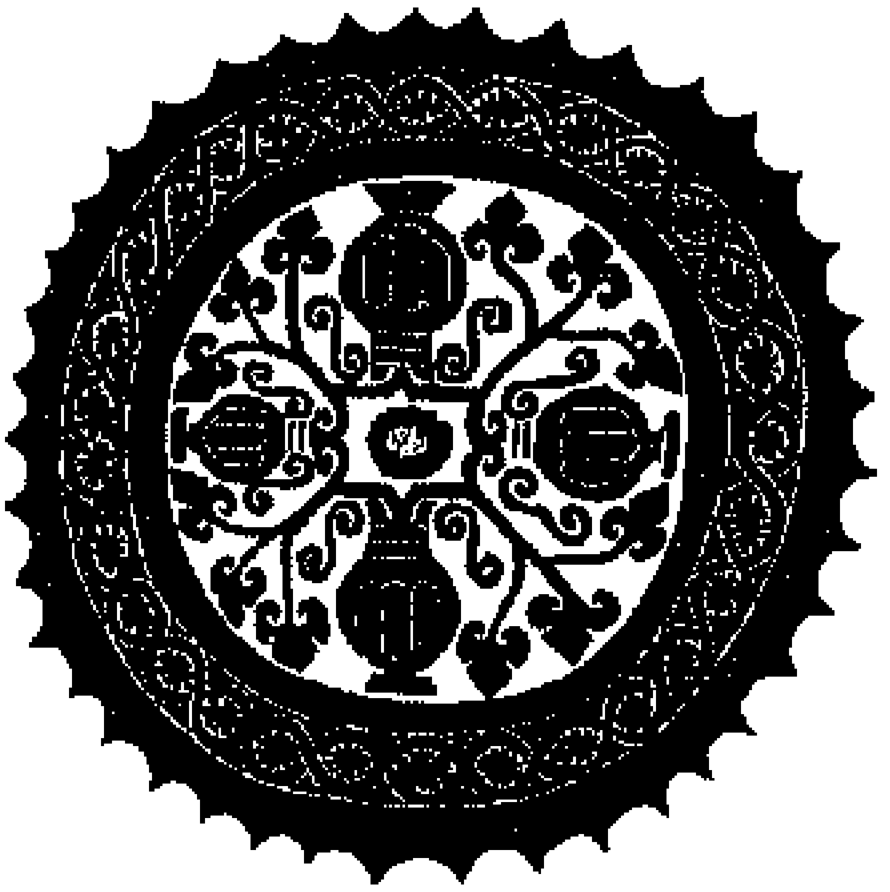

رسم مسيحي قبطي

العمارة، على سبيل المثال، نجد بالأديرة، التي تقع على مقربة من سوهاج، أنّ الدور الأرضية قد صُمّمت ببساطة متناهية، والجدران الخارجيّة ضخمة خالية من أيّة زخرفة أو تزيين، ممّا يُذكّر بمعابد إدفو ودندرة. أمّا رسوم القدّيسين التي تغطّي الجدران الداخليّة في الكنائس، فهي

(١) تأثّر الفنّ القبطيّ، بوجه خاصّ، بالفنّ البيزنطيّ والسوريّ، وبدرجة أقلّ بفنّ بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس.

شديدة البروز، تغلب عليها الألوان الصافية، ولا سيّما الأزرق والأحمر والأصفر، وهي ألوان استخدمت أيضاً في صناعة النسيج منذ عهد يرتقي إلى القرن العاشر.

أمّا الإيقونوغرافيّة القبطيّة، فقد تحكّمت بها طريقة تصميم الكنائس، التي، على خلاف الكنائس البيزنطيّة، حدّت من أماكن الرسوم الزيتيّة. وبوجه عامّ، نجد رسم المسيح الممجّد (كما في بويط)، محاطاً غالباً بالملائكة، رمزاً لوحدانيّة الله. كما نجد رسوماً تعبّر عن مشاهد من حياة المسيح: الميلاد وعبادة المجوس (كما في فَرَس بالنّوبة)، والعماد (كما في بويط وسقارة)، وطفولة المسيح وعجائبه (كما في دير أبو حِنّس بالقرب من شيخ عبادة)، والصعود (بويط). وهنالك أيضاً رسوم للسيّدة العذراء، التي بدت ممجّدة تحيط بها الملائكة، وقد برزت هذه الرسوم بوجه خاصّ إبّان الحكم العربيّ.

هندسة الكنيسة القبطيّة

تستوحي الكنيسة القبطيّة التقليديّة هندسة البازيلكات الرومانيّة وهيكليّتها: صحن مركزيّ واسع الأطراف، يقوم على جانبيه **رواقان** ضيّقان، وينتهي لجهة الشرق **بصدر الكنيسة**، ويقال له أيضاً **القدس**، وهو يرتفع بضع درجات عن مستوى أرض الكنيسة. كما ينتهي الرواقان الجانبيّان لجهة الشرق أيضاً، وعلى جانبي صدر الكنيسة، إمّا بصدرين صغيرين، وإمّا بحجرتين مربّعتين.

الكنيسة مشيّدة على أساس مستطيل. والصدور الشرقيّة مبنيّة من الداخل، ولا تظهر من الخارج مطلقاً. وتعلوها قُبب ثلاث، الوسطى منها تكون عادةً أعلى من الأخريين. وتحت كلّ قبّة **مذبحٌ** مكعّب مملوء، تقوم وراءه في الحائط حنية.

يفصل صدر الكنيسة، الذي يقوم فيه **المذبح الرئيسي أو الهيكل**، عن صحن الكنيسة حجابٌ حامل الأيقونات، مرتفع، مصنوع من الخشب المشغول المطعّم بالعاج، وفيه باب مركزيّ ونافذتان جانبيّتان صغيرتان. وأمام الحجاب نجد «الخورس» وهو مساحة مربّعة مخصّصة للمرتّلين والقارئين. وتعلو الرواقين الجانبيّين غالباً «شرفة» أو مقصورة مستطيلة، كانت تخصّص في ما مضى للنساء.

وفي الكنائس القديمة جداً، نجد، في الطرف الشرقيّ من **مدخل الكنيسة**، حوضاً محفوراً في الأرض يسمّى **«حوض الظهور»**، حيث كانت تمارس في الماضي في عيد الظهور (الغطاس) طقوسٌ خاصّة لتبريك المياه. وأمّا جرن المعموديّة، فليس له مكان محدّد في الكنيسة.

وقد نجد غالباً كنائس أُخرى ثانويّة، لها الهيكليّة نفسها ولكن بقياسات أصغر، ملاصقة للكنيسة الرئيسيّة.

وأخيراً، وفي بعض الكنائس بالصعيد، قد تضاف إلى كلّ من جانبي صدر الكنيسة كنيسة صغيرة، ممّا يجعل الكنيسة تبدو وكأنّ عرضها أكبر من طولها، فتظهر للناظر إليها من بعيد أو من فوق كما لو كانت تجمّع قبب صغيرة.

القسم السابع

الليترجية القبطيَّة

بقلم الأب موريس بيار مرتان اليسوعي*

* باحث

تتّسم الليترجية القبطيّة بخصائص مُميّزة. ويبدأ حساب السنين في سنة ٢٨٤ الميلاديّة، وهي السَنة الأولى من حقبة الشهداء الأقباط الذين استشهدوا في عهد ديوقليتيانس. بالإضافة إلى ذلك، يتّبع الأقباط التقويم اليولياني، وهو متأخّر حاليًا عن التقويم الغريغوري بثلاثة عشر يومًا. وإنّ توزيع الأشهر هو أيضًا خاصّ بالأقباط. وقد أخذوه عن التقليد الفرعونيّ. فتبدأ السنة بعيد «النّيروز» الموافق للأوّل من شهر توت (١١ أيلول/ سبتمبر). ويأتي بعد شهر «توت» شهر «بابا»، ثمّ «هاتور»، فـ «كيهك» (الذي ينتهي بعيد الميلاد)، ثم تأتي أشهر «طوبه»، «أمشير»، «برمهات»، «برموده»، «بشنس»، «بؤونة»، «أبيب»، و«مسرى». وهذه الأشهر الاثنا عشر التي يتألّف كلّ منها من ثلاثين يومًا، تستكمل بشهر صغير إضافيّ من خمسة أيّام أو ستّة يسمّى «النّسي».

وتتوزّع، وسط هذه الأشهر، أعياد وطقوس ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتواتر الزراعيّ. وهكذا، فعيد الصليب، الموافق لـ ١٧ توت، هو عيد النيل وفيضان المياه المبارك. واثنين الفصح هو «شمّ النّسيم»، عيد الربيع. وهناك صلوات خاصّة بأوقات الزرع والحصاد (الحصاد يتمّ في شهر برموده، وهو «الشهر الجديد» الذي يؤمّن البقاء للسنة).

لم تحتفظ الليترجيّة الإفخارستيّة القبطيّة إلاّ بثلاثة نوافير: نافور القدّيس باسيليوس الذي يتلى في كافّة أيّام السنة، ونافور القدّيس غريغوريوس المحفوظ لأعياد الميلاد والظهور والفصح، وأخيرًا نافور القدّيس كيرلّس الذي يتلى طوال شهر «كيهك». ولقد أدخل السّينودس البطريركيّ بعض التّعديلات في القدّاس الباسيليّ اليوميّ، وذلك في الثمانينيّات، رغبة منه في التجديد والتّأقلم مع المتطلّبات الرّعويّة والرّوحيّة. ويسري الآن تجديد مُماثل في رتب سائر الأسرار، ولا سيّما في سرّ المعموديّة وسرّ الزّواج، وكذلك الأمر في الأصوام الكنسيّة... بما يتوافق ومُقتضيات العصر إلى جانب الأمانة للتّقليد العريق.

وأمّا سرّ المعمودية، فلا يُمنح قبل مرور أربعين يوماً على ولادة الطفل الذكر، وثمانين يوماً على ولادة الأنثى، وهي المدّة التي لا يجوز فيها للأمّ الاقتراب من الكنيسة، وفي نهايتها تخضع الأمّ لرتبة تطهير. ومن جهة أخرى، يمنح العماد إمّا فردياً، وإمّا في رتبة جماعيّة في «أحد التناصير» الذي يسبق أحد الشعانين».

وأمّا الزواج فهو يجري بحسب الطقس القبطيّ. ويتكوّن الاحتفال الأساسيّ بالزواج بتكليل الخطيبين (الزواج = الإكليل).

وأمّا رُتبة الجنّاز، فهي متأثّرة على وجه ملحوظ بالمُعتقدات المصريّة القديمة في شأن الموت: «إطلاق النفس» التي تبقى تحوم حول المنزل حتّى اليوم الثالث بعد الوفاة. وبحسب التّقليد القبطيّ القديم، لا يتقرّر المصير الأبديّ للميت إلاّ في اليوم الأربعين بعد وفاته، وهو اليوم الذي يذهب فيه أهل الميت إلى الكنيسة، للمرة الأولى بعد وفاته، للاحتفال بذكراه أمام صورته.

ويبقى التعلّق الشديد بالتقاليد الخاصّة قويّاً جداً لدى الأقباط، عن أمانة وعن رغبة في الاحتفاظ بشخصيّة متميّزة وسط الطقوس والطوائف الأخرى.

المراجع باللغة العربية

- أسكاروس (توفيق): **نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر**، القاهرة، ١٩١٠.
- باخوميوس (الأنبا): **الرهبانية القبطيّة**، ١٩٤٨.
- بتلي (ألفريد): **الكنائس القبطيّة القديمة في مصر**، جزءان، القاهرة، ١٩٩٣.
- بركات (نعمة الله): **كشف الأوهام عن الأوهام لأحد الشرقيّين**، ١٨٩٤.
- جرجس (ميشيل): **الكنيسة المصريّة**، لندن، ١٩٢٤.
- جرجس (يوسف): **الرحلة البطريركيّة إلى الامبراطوريّة الأثيوبيّة**، القاهرة، ١٩٠٣.
- سعد الله (القمّص بطرس حنّا): **اليوبيل الماسي للكليّة الإكليريكيّة للأقباط الكاثوليك (١٨٩٩ - ١٩٧٤)**.
- سكندر (ألكسندروس): **تاريخ الكنيسة القبطيّة**، جزءان، ١٩٦١ - ١٩٦٢.
- صبحي (اسكندر): **المنارة التاريخيّة في مصر الوثنيّة والمسيحيّة**.
- عوض (جرجس فيلوثاوس): **عثرة الكنيسة القبطيّة في القرن العشرين**، ١٩٣٠.
- —، **تاريخ الإصلاح القبطي المصري**، ١٩٠٥.
- غطّاس (الأنبا اسطفانوس الثاني البطريرك): **الأنبا روفائيل طوخي (١٧٠٢ - ١٧٨٧): حياته ومؤلفاته**، القاهرة، ١٩٨٧.
- كابس (الأنبا يوحنّا): **المعلّم غالي وعصره**، القاهرة، ١٩٧٦.
- —، **تاريخ حياة الأنبا كيرلّس مقار، بطريرك الإسكندريّة للأقباط الكاثوليك**، القاهرة، ١٩٧٩.

– —، لمحات تاريخيّة عن النوّاب الرسوليين لطائفة الأقباط الكاثوليك في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٧٨.
– —، تاريخ الكنيسة الإسكندريّة (مخطوط).
– متّى المسكين: حقبة مضيئة في تاريخ مصر: القديس أثناسيوس الرسولي (٢٩٦ – ٣٧٣)، دير
– القديس أنبا مقار، ١٩٨١.
– مقار (جرجس): كتاب دليل المصريين في اعتقاد كنيسة الأقباط المرقسيين.
– مقار (الأنبا كيرلّس): كتاب الوضع الإلهي في تأسيس الكنيسة، ثلاثة أجزاء، ١٩١٨.
– —، منشور رعائي، ١٨٦٥.
– —، رومة والإسكندريّة، ١٩١٠.
– —، رسالة رسولية من الأب الأقدس البابا لاون الثالث عشر عن البطريركيّة الإسكندريّة للأقباط، ١٨٩٥.
– —، مختصر تاريخ الأمّة القبطيّة في عصري الوثنيّة والمسيحيّة: الجزء الأول: من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي، القاهرة، ١٩١٤.
– —، كتاب قوانين الرسل والمجامع المسكونيّة والمكانيّة، ١٨٩٤.
– —، تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة (٨٤٩ – ٨٨٠)، القاهرة، ١٩٤٣.
– منقريوس (يوسف): تاريخ الأمّة القبطيّة (١٨٩٢ – ١٩١٢).
– ناداب (المنسنيور باسيليوس): ذكرى فقيد الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة.
– نخله (كامل صالح وفريد كامل): تاريخ الأمّة القبطيّة، القاهرة، ١٩٤٠.
– يعقوب (جرجس نجيب): موجز تاريخ بطاركة الإسكندريّة، ١٩٦٦.
– —، نتيجة التحقيق في ردّ سهام العوفيق من جمعيّة الوحدة المرقسيّة للأقباط الكاثوليك – الدليل العام للكنيسة الكاثوليكيّة في مصر، ١٩٩٤.

الكنيسة الكلدانيّة

السريانيّة الشرقيّة الكاثوليكيّة

بقلم الأب ألبير أبونا*

* أستاذ التاريخ الكنسيّ

ان كنيسة المشرق أو الكنيسة السريانية الشرقية هي الكنيسة التي نشأت في الرها (أورفا الحالية في تركيا) في القرن الأول الميلادي، وامتدّت إلى منطقة ما بين النهرين، وتمركزت حول «المدائن»، ثم بسطت إشعاعها على المناطق الواقعة شرقيّ دجلة وغربيّ الفرات، وعلى ضفاف الخليج العربي. وانها لمجازفة كبيرة أن نحصر تاريخ هذه الكنيسة الطويل والحافل بالبطولات وبالمآسي في صفحات معدودات. لذا أجدني مضطراً إلى إلقاء نظرة سريعة على هذا التاريخ، وأُحيل القرّاء الكرام إلى ما كتب في هذه الكنيسة مفصّلاً في مختلف الكتب التي تناولت تاريخها.

أولاً: كنيسة المشرق قبل الإسلام

١. نشأة كنيسة المشرق

لا شك ان كنيسة المشرق تستمدّ جذورها الأولى من أورشليم التي كانت مهد الكنيسة الأول، ثم من انطاكية التي أضحت سريعاً مركزاً مسيحياً هاماً ومنطلقاً للرسالة المسيحية إلى الغرب ثم إلى الشرق. فمن هاتين النقطتين، انطلق رسل المسيح إلى العالم، عملاً بوصية الرب: «إذهبوا في العالم كله، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين»(١).

ونعلم ان معظم رسل المسيح وتلاميذه انطلقوا نحو الغرب، وان غيرهم نقلوا البشرى إلى البلدان الشمالية والجنوبية. فهل توجّه بعضهم نحو الشرق أيضاً؟ ليس في سفر الأعمال ولا في الرسائل أية إشارة إلى ذلك. بل نحن أمام «تقاليد» جارية في كنيسة المشرق منذ القدم، وتجمع هذه التقاليد على القول ان المسيحية دخلت المشرق «منذ البداية».

وتنسب هذه التقاليد تبشير ما بين النهرين إلى العديد من الأشخاص، منهم:

أ) **بطرس**، إستناداً إلى نصّ ورد في نهاية رسالته الأولى(٢) وأُسيء فهمه، وإلى وجود

---

(١) مرقس ١٦/١٥ = متى ٢٨/١٩ = أعمال ١/٨.

(٢) ١ بطرس ٥/١٣.

القديس توما الرسول

مار ماري مؤسس كنيسة المشرق

كنيسة قديمة في الموصل على اسمه (كنيسة شمعون الصفا).

ب) **توما**، ويُعتَبر عامةً رسول المشرق. ولكن هل اجتاز توما في ما بين النهرين، في طريقه إلى الهند؟ فان «أعمال» توما(٣) تميل بالأحرى إلى ان هذا الرسول اتّخذ طريق البحر في ذهابه إلى الهند، ويستبعد عبوره، والحالة هذه، في منطقة ما بين النهرين.

ج) **أدّاي** (تدّاوس) الذي يبدو انه انطلق إلى الرها وشفى ملكها أبجر الخامس أوكاما (الأسود) وبشّر سكّان عاصمته(٤). وواصل تلميذه «أجّي» عمله التبشيري في الرها، ولكنه استشهد فيها أيضاً.

د) **ماري**، وهو تلميذ أدّاي، مدّ تبشيره إلى قلب المدائن العاصمة الارشاقية. وقد وردت في أعماله(٥) وفي «مجدل» ماري بن سليمان(٦) دلائل تشير إلى مجيئه إلى المدائن في نحو نهاية القرن الأول، واستطاع أن ينال حظوة لدى أمير قطيسفون الذي وهب له فيها قطعة أرض في منطقة كوخي (الأكواخ)، في

---

(٣) راجع بيجان، **سير الشهداء والقدّيسين** ٣، باريس ١٨٩٢، ص ٣–١٧٥، خاصة ص ٥.

(٤) ادي شير، **شهداء المشرق** ١، الموصل ١٩٠٠، ص ٨–١٢؛ ألبير ابونا، **شهداء المشرق**، بغداد ١٩٨٥، ص ١١–١٤.

(٥) بيجان، **سير الشهداء والقديسين** ١، باريس ١٨٩٠، ص ٤٥–٩٤، ادي شير، **شهداء المشرق** ١، ص ١٤–٤٠؛ ألبير أبونا، **شهداء المشرق**، ١، ص ١٥–٣٥.

(٦) ماري بن سليمان، **أخبار بطاركة كرسي المشرق** (المجدل)، تحقيق جسموندي، رومة ١٨٩٩، ص ٣.

ضاحية المدينة، فأسس فيها الكنيسة الأولى. ومن هناك ذهب إلى مناطق أخرى للتبشير، ثم حطّ رحاله في دور قنّي حيث توفي ودفن.

وهكذا بوسعنا القول ان المسيحية انتشرت في ما بين النهرين في نهاية القرن الأول أو في مطلع القرن الثاني.

٢. شهادات المؤرّخين

لدينا شهادات مؤرّخين كثيرين على دخول المسيحية في عهد مبكر إلى ما بين النهرين، نخصّ بالذكر منهم:

- **كتابة ابرسيوس** أسقف منبج في نهاية القرن الثاني، وفيها يقول انه وجد اخوةً له مسيحيين ما وراء الفرات، أي شرقيّه.
- **أوسابيوس القيصري، في تاريخه الكنسي** الشهير(٧)، يقول ان كنائس ما بين النهرين وافقت في نهاية القرن الثاني مع كنائس الغرب على القضية الفصحية.
- **تاريخ الرها** يذكر فيضان نهر ديصان سنة ٢٠١م وتدميره كنيسة للمسيحيين في المدينة، وان نونا أسقفها أقام عوضها كنيسة أخرى سنة ٢٠٢.
- **برديصان** (+٢٢٢) يذكر في **كتاب شرائع البلدان** انتشار المسيحية في مختلف أنحاء ما بين النهرين، ويورد عادات المسيحيين المختلفة عن عادات الشعوب الوثنية التي كانوا يعايشونها.
- **دياطسرون ططيانس** (١٥٠-١٧٠) يشير أيضاً إلى انتشار المسيحية في هذه البلاد.
- شهادات مؤرّخين لاحقين، أمثال سقراطس وسوزومين (القرن الخامس) والمؤرّخين السريان في القرون التالية، وكلها تشير إلى انتشار المسيحية في هذه البلاد منذ قرون الميلاد الأولى.

وكان اليهود المنتشرون في ما بين النهرين عنصراً هاماً ساعد على انتشار المسيحية في البداية، وتأثير اليهودية واضح في أقدم طبقات الليترجية السريانية الشرقية.

٣. المسيحية والساسانيون

عاشت المسيحية قرنَيها الأولين تحت حكم الملوك الفرثيين، من الاشغانيين والارشاقيين، في جوّ من التسامح، دون ان تتعرّض لاضطهادات عنيفة ومنظّمة. واستفادت من ذلك لتوطيد كيانها وتنظيم شؤونها الدينية وإنشاء عدد من المراكز الكنسية في طول البلاد وعرضها.

وفوجئ الساسانيون في بدء عهدهم (سنة ٢٢٤م) بانتشار المسيحية الواسع في البلاد التي سيطروا عليها. إلاّ أن أردشير الأول، مؤسّس هذه السلالة، عامل المسيحيين بكثير من الرفق والتسامح. أما خلفه شابور الأول (٢٤١-٢٧٢) فقد انقلبَ تسامحُه الأول إلى شيء من الحذر تجاه هذه الديانة الجديدة التي كانت تهدّد بتقويض كيان الديانة المزدية، فأبدى شيئاً من

(٧) نشر بيجان نصه السرياني في باريس سنة ١٨٩٧، وترجمه إلى العربية القس مرقس داود ونشره في القاهرة سنة ١٩٦٠.

الصرامة تجاه المسيحيين، متأثراً في ذلك بضغط رؤساء الدين المزدي. ولكنه أسهم، من حيث لا يدري، في نشر المسيحية في بلاده. فإن المسبيّين الذين جلبهم من منطقة الروم إلى الشرق، وكان من بينهم ديمتريانس، أسقف أنطاكية، والامبراطور فالريانس نفسه، أسكنهم في منطقة الأهواز. وكان معظمهم من المسيحيين، ولم يتخلّوا عن ديانتهم في الغربة، بل عاشوها بحريّة ودعموا المسيحيين المتواجدين في البلاد. وكانت جماعات مسيحية أخرى قد نزحت منذ القرن الثاني من المنطقة الغربية إلى الشرق، هرباً من وطأة الاضطهاد، منهم الأسقف تقريطي الذي حلّ في منطقة كرخ سلوخ (كركوك الحالية).

ونستطيع القول ان المسيحية في القرن الثالث عاشت في ظلّ الملوك الساسانيين في جوّ من التسامح والتغاضي، وان تعرّضت أحياناً لبعض المضايقات الناجمة عن تزمّت الكهّان المزديين.

٤. القرن الرابع

بدأت كنيسة المشرق توحّد كيانَها وتنظّم شؤونَها. وانتشرت الكنائس والمراكز الأسقفية في البلاد، وكانت ترتبط فيما بينها بروابط المحبة المسيحية وبوحدة العقيدة. وسرعان ما شرعت كنيسةُ المدائن (كوخي) في البروز لكونها كنيسةَ العاصمة الملكية، وتبنّى أسقفها لقب «الجثليق» (العام – الشامل). وكانت كنيسة المشرق تنظر دوماً إلى كنيسة انطاكية بكثير من الاحترام وتستلهمها في أمور كثيرة. فان انطاكية مدينة كبيرة، وفيها مدرسة شهيرة، وكانت تعتبر ذاتها مسؤولة عن المشرق المسيحي. ولكنها في الواقع لم تتدخّل في شؤون كنيسة المشرق إلاّ على طلب هذه، لا سيّما في شأن الرسامات الأسقفية. وقد ضعفت هذه العلاقات شيئاً فشيئاً، بالنظر إلى العداء بين الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية وتوسّع أبرشية المشرق، ثم بسبب اختلاف العقيدة منذ القرن الخامس. ولم يكن تدخّل «الآباء الغربيين» (انطاكية) فعّالاً في حسم النزاع الذي قام في عهد الجثليق فافا الذي أقاله أساقفة كنيسته لسوء إدارته وأقاموا في مكانه مار شمعون بر صباعي جثليقاً لكنيسة المشرق سنة ٣٢٨.

٥. الاضطهاد الأربعيني

لم تتعرّض كنيسةُ المشرق للاضطهاد ما دامت الدولة البيزنطية وثنية، أي حتى مطلع القرن الرابع. فان شابور الثاني ملك الفرس (٣٠٩-٣٧٩) كان صغير السنِ، فاستغلّ البيزنطيون ضعفه لينتزعوا منه بعضَ ولايات. وجاء مرسوم ميلانو (سنة ٣١٣) ليعلن حرية الاديان في الامبراطورية البيزنطية، ثم أخذت الديانة المسيحية تحظى بالأولية إلى ان أصبحت ديانةَ الدولة، يدعمها الملك قسطنطين الكبير بجميع الوسائل ويذود عن كيانها ومعتقدها القويم في وجه جميع الانحرافات التي تهدّد كيانها وصفاء إيمانها (مجمع نيقية ٣٢٥).

وحينما بلغ شابور الثاني أشدَّه، استأنفَ العداءَ التقليدي للأمبراطورية البيزنطية، وحاول استعادةَ مقاطعاته المنتزعة. لكن قسطنطين الكبير كان واقفاً له بالمرصاد، وأحبطَ جميع

مساعيه وأفشلَ خططَه العسكرية. ولدى موت قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧، ظنّ شابور الثاني ان الجوّ قد خلا له، فزحف إلى الغرب وحاصر مدينة نصيبين. ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها. وعزي ذلك إلى صلوات أسقفها القدّيس مار يعقوب أو إلى صلوات ملفانها القدّيس مار افرام. مهما يكن من أمر، فقد عاد عنها شابور يجرّ أذيال خيبة مريرة ومراجل الغضب والحقد تغلي في صدره على المسيحيين الذين ظنّهم موالين للدولة البيزنطية من حيث شركة المعتقد المسيحي.

ولاحت في الأفق بوادرُ عاصفة هوجاء تهدّد المسيحيين بالدمار. واختلق شابور حججاً وذرائع مردّها إلى أسباب دينية وسياسية واقتصادية، واتّهم المسيحيين بالتجسّس لحساب الغرب، رغم كونهم ينعمون بخيرات البلاد الفارسية. ففرض عليهم جزية مضاعفة، وذلك لتمويل خزائنه الخالية وتجنيد المزيد من الجيوش استعداداً لمجابهات قادمة. واقتضى ان يقوم الجثليق مار شمعون برصباعي نفسه بجباية هذه الضرائب. إلاّ ان الجثليق الشجاع رفض ذلك، أولاً لأن المسيحيين ليسوا على ثراء يمكّنهم من دفع هذه المبالغ الباهظة، وثانياً لأنه أقيم رئيساً لشؤونهم الدينية، لا جابياً للضرائب. وما إن تلقّى الملكُ الفارسي هذا الرفضَ حتى ثار ثائره واحتدم غيظاً وقرّر الانتقام من المسيحيين باستئصال شأفتهم من البلاد الفارسية باضطهاد لا يبقي ولا يذر. وقد ساهم اليهود في إذكاء نيران الحقد والغضب في قلب الملك الفارسي

مار شمعون برصباعي

على المسيحيين. وفي سورة غضبه، أصدر أمراً في مطلع سنة ٣٤١ يقضي بإلقاء القبض على مار شمعون برصباعي وعلى مائة وثلاثة آخرين من الأساقفة والكهنة ووجهاء المؤمنين في العاصمة الفارسية، وسيقوا إلى منطقة الاهواز حيث كان الملك يقيم آنذاك. وتعرّضت الكنائس للدمار والتهمتها ألسنة النيران، واستحوذ الهلع على المسيحيين. وكان هذا بدء الاضطهاد الأربعيني الذي دام حتى وفاة شابور الثاني سنة ٣٧٩. وجرى استنطاق السجناء في الاهواز، وحاول الملك ان يحمل الجثليق على التخلّي عن مبادئه السامية والرضوخ للإرادة الملكية. ودارت بينهما مناظرة رائعة(٨) برهنت

(٨) طالع عنها ادي شير، **شهداء المشرق ١**، ص ١٩٣–٢٣٤؛ ألبير أبونا، **شهداء المشرق ١**، ص ١٠٥–١٣٧.

عن قوة إيمان عظيمة لدى الجثليق. وفي نحو منتصف نيسان (أبريل) سنة ٣٤١، في يوم خميس الفصح، أصدر الملك أمراً بإعدام الجثليق ورفاقه. فأمضوا تلك الليلةَ الأخيرة في السجن عاكفين على الصلاة والسهر، وكان الجثليق يشجّع رفاقه بأحاديثه وإرشاداته الأبوية. وأقاموا قداسهم الأخير في السجن وتهيّأوا للشهادة.

وفي صبيحة جمعة الآلام سنة ٣٤١، سيقوا إلى موضع الاستشهاد. وهناك وقف الجثليق كالجبار يشجّع اخوته الذين قدّموا عشرة عشرة وحزّت رؤوسهم. وفي الأخير، نال الجثليق أيضاً إكليل الشهادة. وكان ذلك إيذاناً ببدء مجزرة رهيبة تقشعرّ لها الأبدان دامت عشرة أيام، من الجمعة العظيمة حتى الأحد الجديد بعد القيامة. وحصدت سيوف الفرس أعداداً غفيرة من المسيحيين الذين قدّموا أعناقهم طوعاً، في اندفاع شديد إلى الاستشهاد. وجيء بقوافل أخرى من المسيحيين من مناطق أخرى إلى منطقة الأهواز التي ارتوت حقًّا بدماء الشهداء وضمّت أجسادهم المقدّسة. وكانت الاعدامات تجري دون استنطاق ودون التعرّف إلى هوية الأشخاص أو مواطنهم، إذ كان الاعتراف باسم المسيح وحده كافياً لضرب أعناقهم دون تمييز.

إلاّ أن أحداثًا جرت أثناء المجزرة حملت الملكَ الفارسي على إعادة النظر في قراره العاتي. فقد ذهب اثنان من أمنائه أيضاً ضحيّة هذه الاعمال البربرية. فان كوشتازاد الذي جحد إيمانه المسيحي ظاهرياً ثم عاد إلى رشده، بذل دمه في سبيل المسيح. وتنكّر أزاد في ثياب راهب واختلط بجمهور الشهداء ونال الاكليل. فكان لاستشهاد هذين الأمينين وقع عميق في نفس الملك الذي أصدر أمراً إلى جلاوزته بالتريّث في تنفيذ أحكام الموت بالمسيحيين، فلا يقتل من بعد أحدٌ منهم قبل استنطاقه والتعرّف إلى هويته والتثبّت من إصراره على البقاء في دينه ورفضه السجود لمعبودات الفرس...

وهكذا فقد خفّت وطأة الاضطهاد قليلاً، مع استمراره على درجات متفاوتة في العنف في مختلف مناطق الامبراطورية الفارسية، ولا سيّما في منطقتي بيت كرماي وحدياب حيث كان أخو الملك يحكم ويمارس شتى أنواع العنف والبطش على المسيحيين... ودام الاضطهاد نحو أربعين سنة، إلى وفاة شابور الثاني سنة ٣٧٩. ولسنا مطّلعين بدقة على عدد الشهداء الذين قتلوا في هذه الفترة. فهناك من يقدّر عددهم بنحو ١٦ ألف شهيد، وهناك من يقول انه بلغ نحو ٢٠٠ ألف شهيد!... أمّا السبايا الروم الساكنون في تلك المنطقة فلم يتعرّضوا للاضطهاد، بل ساهموا في تشجيع الشهداء واهتمّوا بدفن أجسادهم(٩).

أراد شابور الثاني القضاء على المسيحية في بلاده، إلاّ أن دماء الشهداء التي ارتوت بها

(٩) طالع ما كتبه عنهم ماروثا الميافرقيني في المروج النزهية ١، الموصل ١٩٠١، ص ١٢١-١٤٩.

أرض فارس أصبحت بذاراً خصباً للمسيحيين الذين ازدادوا عدداً وعزيمةً في وسط تلك المآسي وبعدها. فقد عجز الاضطهاد عن القضاء على الوجود المسيحي في البلاد، بل خرجت كنيسة المشرق من هذه المحنة الدامية ناصعةً جميلة، راسخةً في إيمانها، وثابتةً في مبادئها وشجاعةً في المجاهرة بالقيم السامية.

٦. بعد الاضطهاد

ما ان خمدَ الاضطهاد حتى راحت الكنيسة تستعيد كيانَها وتنظّم شؤونها وتنشر الديانة التي تعذّرَ على السيوف والحراب القضاء عليها. فقد انصهرت هذه الكنيسة في بوتقة الاضطهاد وخرجت منه أكثر استعداداً للقيام بمهمتها في البلاد.

وفي مطلع القرن الخامس، قام مار أحا الجثليق ومار ماروثا، أسقف ميافرقين، بجمع القصص والروايات والأناشيد التي دارت حول الشهداء. وجمع ماروثا أيضاً الكثير من ذخائر هؤلاء الشهداء ونقلها إلى ميافرقين مدينته، ومنها وصلت إلى مختلف أنحاء العالم المسيحي. وقد أضافت الأجيالَ المسيحية التالية الكثيرَ من القصص والتفاصيل إلى سيرِ هؤلاء الشهداء(١٠).

وبعد تذبذب دامَ نصفَ قرن، استطاعت كنيسة المشرق ان تستأنف مسيرتَها وتستعيد رئاستَها. ففي مطلع القرن الخامس، استلم الجثليق مار اسحق رئاسة الكنيسة، واستعان بماروثا الميافرقيني في تنظيم شؤونها. وفي سنة ٤١٠، عقدت مجمعها الأول في ساليق، وفيه سنّت القوانين الكفيلة بإقرار النظام في إدارتها. وتحسّنت علاقاتها بالسلطات الحاكمة، ونما فيها الوعيُ لرسالتها ولدورها الفعّال في البلاد...

٧. الانشقاقات

في القرن الثالث، ازدهرت في العالم المسيحي مدرستان كبريان، هما مدرستا الاسكندرية وانطاكية، بنزعتيهما المتباينتين:

فقد اتّصف أساتذة مدرسة الاسكندرية بنزعتهم الافلاطونية، فركّزوا على مقتضيات الباطنية والمفارقة في اللاهوت، وآثروا في علم التفسير التأويلَ الصوفي والرمزي، وشدّدوا على ألوهية المسيح ووحدة كيانه الجوهرية. وقد اشتهر فيها كيرلّس الذي أصبح بطريركاً على الاسكندرية في مطلع القرن الخامس.

أمّا مدرسة انطاكية، فقد اشتهر فيها ديودورس الطرسوسي وتيودورس المصيصي وتيودوريطس القورشي وغيرهم، وكانوا يتّصفون بالنزعة الأرسطاطالية، فيركّزون على النواحي الإنسانية وعلى الأخلاق أكثر منهم على التصوّف، وفضّلوا في علم التفسير المعنى الحرفي والتاريخي، وفي الكلام عن سر التجسّد كانوا يشدّدون على الناحية الإنسانية في المسيح وعلى تمييز الإنسانيات والإلهيات أكثر منهم على الوحدة الجوهرية... وكان هذا الاختلاف في الأسلوب المدرسي يزداد

(١٠) نشرها الأب بولس بيجان في ٦ مجلّدات بعنوان سير الشهداء والقديسين، في باريس ١٨٩٠-١٨٩٦.

حدّة بسبب النعرة العنصرية والتنافس على مراكز الرئاسة في الكنيسة والهيمنة على الزعامة الفكرية فيها. وقد زاد تدخّل مدينة القسطنطينية هذا الصراعَ تعقيداً، إذ اتّخذ طابعاً سياسياً، باعتبارها عاصمة الإمبراطورية الجديدة.

وحينما أُقيم نسطور — وهو من المدرسة الانطاكية – بطريركاً على القسطنطينية، شرع يجاهر بالفكرة اللاهوتية الشرقية، وينفي تبادل الصفات في المسيح. ودارت نقاشات حول ألفاظ الطبيعة والاقنوم في المسيح، وكل من الفريقين أضفى عليها معنى خاصا يختلف عمّا لدى الفريق لآخر. وتشبّث كل فريق بوجهة نظره دون ان يحاول تفهّم وجهة نظر الفريق الآخر. واستطاع كيرلّس ن يستميل رومة إلى جانبه وان يحرم نسطور وأنصاره في مجمع أفسس (سنة ٤٣١) وان يَصِمهم بالانحراف عن الإيمان القويم. وتأزّمت الأمور في الكنيسة، وتفاعلت الأفكار، وأدّى تمسّك الإسكندريين المفرط بالتقليد وبحرفية تعابير كيرلّس الإسكندري إلى الانحراف بالمسيحيين في مصر وإلى القول بالطبيعة الواحدة في المسيح بعد التجسّد، ممّا استدعى عقد مجمع آخر في خلقيدونية (سنة ٤٥١) لتوضيح العقيدة وتحديد الطبيعتين في شخص المسيح الواحد. والخلافات التي كانت في البدء على لفظتي الطبيعة والأقنوم أو الشخص أدّت إلى خلافات مذهبية عميقة وقسمت الكنيسة إلى ثلاثة أقسام: منهم من قالوا بطبيعتين وأقنومين في المسيح مع شخص واحد هو الابن (النساطرة)، ومنهم من قالوا بطبيعة واحدة وأقنوم واحد بعد التجسّد (المونوفيزيون)، في حين ان الفئة الثالثة تمسكت بما حدّده مجمعا أفسس وخلقيدونية وقالت بطبيعتين في المسيح: إلهية وإنسانية وأقنوم واحد هو شخص ابن الله... وعمّت الفوضى في الكنيسة وانتشرت الأفكار المتضاربة. وتغلغل المذهب النسطوري الشرقي في الامبراطورية الفارسية حتى ساد فيها، في حين ان المذهب المونوفيزي انتشر في بلاد الروم وعاش جنباً إلى جنب مع العقيدة الخلقيدونية...

وقد تأثرت مدرسة الفرس في الرها[11] بهذه التيارات الفكرية المتعارضة، ممّا أدّى إلى انحطاطها ونزوح عدد من كبار أساتذتها إلى المنطقة الشرقية، لا سيّما برصوما والملفان نرساي. وتوصّل برصوما إلى ان يُقام مطراناً لنصيبين وأفلح مع نرساي في إعادة إنشاء مدرستها التي أصبحت من المراكز العلمية الكبرى في الشرق السرياني. إلاّ أن برصوما الطموح قاوم جثالقة المشرق وتسبّب في موت واحد منهم هو بابويه، كما انه اضطهد دعاة المذهب المونوفيزي، لا سيّما في منطقة نينوى، وقتل عدداً منهم بمؤازرة السلطة الفارسية الحاكمة. وانفردت كنيسة المشرق في معتقدها النسطوري، وسارت نحو الاستقلال عن الكنيسة الغربية. وقد كرّس مجمع باباي سنة ٤٩٧ انفصال كنيسة المشرق هذا بصورة رسمية

(١١) وكان القدّيس افرام الملفان قد أسّسها سنة ٣٦٣، إثر نزوحه من نصيبين عند استيلاء الفرس عليها.

ونهائية. وراحت أدراجَ الرياح جميعُ المحاولات التي بذلها الأمبراطور زينون في سبيل التوفيق بين مختلف المذاهب. ولم يحظ «موسم الاتحاد – هينوتيكون» الذي أصدره بالقبول في كنيسة المشرق، كما ان الفوضى الفكرية في مدرسة الرها أدّت إلى إغلاقها سنة ٤٨٩.

٨. القرن السادس

مرّت كنيسة المشرق، في النصف الأول من القرن السادس، بفترة من الركود، من جراء الرئاسة المزدوجة وما نجم عنها من الفوضى والفساد استغلّها المونوفيزيون لترسيخ أقدامهم في الإمبراطورية الفارسية. إلاّ ان قيام مار آبا الكبير (٥٤٠-٥٥٢) بالرئاسة أولى كنيسة المشرق يقظةً وحيوية. وقد انضمّت القبائلُ العربية (المناذرة) المتمركزة حول الحيرة إلى مذهب كنيسة المشرق، في حين انضمّ الغساسنة الساكنون في منطقة بصرى الشام إلى المذهب المونوفيزي. وراح كلٌ من الفئتين العربيتين تناضل في سبيل الذود عن مذهبها وأراضيها وتقوم بدور الدرع الواقي لكل من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية. وقد سعى ملكُ الغساسنة حارث ابن جبلة في نشر المذهب المونوفيزي ودعمه، خاصة بوساطة المطرانين اللذين رسما في العاصمة البيزنطية بمؤازرة الإمبراطورة تيودورة. وقام هذان المطرانان بدور فعّال في نشر المونوفيزية بين القبائل العربية المتواجدة في كلتا المملكتين وهما يعقوب البرادعي وتيودورس العربي. ومن جهة أخرى أصبحت عاصمة المناذرة، الحيرة، ملجأً وملاذاً أميناً لرؤساء كنيسة المشرق ابان المحن

مار آبا الكبير

والصعوبات، ومرقدَ جثمان العديد منهم بعد موتهم.

أما الجثليق مار آبا الكبير فقد تعرَّض لشدائد كثيرة، ونُفي إلى منطقة بعيدة حيث ظلّ مدة طويلة. ولكنه ظلّ في تلك الظروف العسرة الراعيَ الهمام الذي يستغلّ كل الفرص لقيادة شعبه المؤمن ورفع شأن كنيسته ونشر القيم المسيحية السامية بين تلك الشعوب المتسكّعة في ظلام الوثنية والسائرة على عوائدها وتقاليدها الذميمة. وإذا تسرّب شيءٌ من الوهن في الكنيسة في عهد خلفه الجثليق يوسف، فإن الرؤساء الذين خلفوه كانوا على مستوى المسؤولية وعرفوا ان يولوا كنيستهم طابعاً من الاستقرار والازدهار.

٩. الكنيسة في عهد كسرى الثاني

مرّت البلاد الفارسية بفترة حرجة في نهاية القرن السادس، وكثر المتنافسون على العرش الفارسي. وأخيراً استطاع كسرى الثاني، بمساعدة الإمبراطور موريقي البيزنطي، ان ينتصر على خصومه وان يقبض على زمام السلطة في البلاد. وكان في بدء عهده يعطف على المسيحيين، مراعاةً لزوجتيه المسيحيتين: شيرين الآرامية ومريم البيزنطية. ولكن سرعان ما تأزّمت العلاقات بين الملك ورعاياه المسيحيين الشرقيين، لا سيّما على اثر إقامتهم غريغور بطريركاً عليهم سنة ٦٠٥، دون رضى الملك. فأقسم الملك الفارسي ألاّ يقوم في عهده بطريرك آخر على كنيسة المشرق. وظلّت الكنيسة دون رئيس بعد وفاة البطريرك غريغور سنة ٦٠٩ حتى مصرع كسرى الثاني سنة ٦٢٨. وكان طبيب البلاط جبرائيل السنجاري، الذي مال مع الملكة شيرين إلى المونوفيزيين، من وراءِ قرارِ الملك هذا. فلم يدّخر هذا الطبيب جهداً في مناوأة النساطرة ومساعدة بني مذهبه.

وفي الربع الأول من القرن السابع، اجتاح كسرى منطقة الروم وتوغّل فيها حتى بلغ إلى أورشليم واستولى عليها، وعاث في الأرض فساداً سنين طويلة، إلى أن طفح الكيل، فهبّ هرقل ملك الروم وصدّ الجيوش الفارسية، ثم دحرها ولاحقها حتى بلغ في زحفه إلى العاصمة الساسانية التي فرّ منها ملكها ولاذ بمناطق نائية. وكان لهذه الهزيمة صداها العميق في نفوس الفرس، بالإضافة إلى ما أبداه كسرى من الجشع والاستبداد والبطش الذي لم يسلم منه حتى خازنه المسيحي يزدين. وإذا بمؤامرة تُحاك ضد كسرى اشترك فيها أبناءُ يزدين وواحدٌ من أبناء كسرى. واستطاع الثوار ان يقضوا على كسرى مع عدد كبير من أبنائه، وأُقيم ابنه شيرويه ملكاً على الفرس. وتحسّنت علاقات الملك الجديد بالغرب المسيحي وبالمسيحيين في بلاده. واستطاع المسيحيون ان ينتخبوا لهم بطريركاً هو ايشوعياب الثاني الجدالي سنة ٦٢٨. وطوال فترة شغور كرسي المشرق، كان باباي الكبير، رئيس دير ايزلا، يقوم بزيارة الكنائس وتفقّد أحوال الرهبان والسهر على استمرار النظام في الأبرشيات وفي الأديرة، ذائداً عن الايمان القويم في وجه «المصلّين» والبدع الأخرى التي حاولت الاندساس في صفوف الرهبان والمؤمنين. وفي نحو سنة ٦٣٠، أرسل ملك الفرس وفداً إلى البلاد البيزنطية للتفاوض مع الملك هرقل، برئاسة الجثليق الشرقي نفسه وبعضوية لفيف من مطارنته وأساقفته. واستطاع الوفد الشرقي ان يلتقي هرقل والأساقفة الغربيين، وان يشترك معهم في الطقوس الدينية...

١٠. روّاد الفكر في كنيسة المشرق

منذ القرن الثاني الميلادي، ظهر في كنيسة المشرق كتّابٌ وأدباء وشعراء رفدوا اللغة السريانية بمفرداتها الأصيلة، وغذوا الفكرة الدينية، وطوّروا التعبير اللاهوتي. ففي نهاية القرن الثاني، برز برديصان (+٢٢٢) الذي يعتبر أبا الشعر السرياني، بالرغم من الطابع الغنوصي الذي يبدو في كتاباته. أما في القرن الرابع، فقد تبلورت الفكرة لدى الجثليق الشهيد

مار شمعون برصباعي (+٣٤١) من خلال أحاديثه وتراتيله الدينية. وقد اشتهر فيه يعقوب افراهاط الملقّب بالحكيم الفارسي (+٣٤٦) بعروضه اللاهوتية المسمّاة «البيّنات» التي جاءت مشبعة باستشهادات من الكتاب المقدّس، وفيها تناول معظم المواضيع الدينية. وكفى هذا القرن فخراً انه أنجب الملفان العظيم القدّيس افرام السرياني (+٣٧٣) الذي يُعدّ من أكبر عمالقة اللاهوت والآداب السريانية. فكتب نثراً ونظماً، وكتاباته أكثر من أن تحصى، وإن لم يبق منها سوى القليل. وما يزال اللاهوتيون يدهشون أمام سمو أفكاره وعمق أبحاثه التي تناولت مختلف ميادين العلوم، التفسيرية منها واللاهوتية والفلسفية والأدبية. واستطاع ان يغذّي إيمان جيله والاجيال اللاحقة بما علّمه وأنتجه يراعه. وقد أشرف على إدارة مدرسة نصيبين منذ نشأتها (في نحو ٣٢٥). وحينما استولى الفرس على هذه المدينة، تركها القدّيس افرام مع أساتذة مدرسته ومعظم طلاّبها، وتوجّهوا إلى الرها حيث استأنف الملفان نشاطه في «مدرسة الفرس» التي أنشأها في الرها وأدارها حتى وفاته سنة ٣٧٣. وفرض الملفان نرساي شخصيته في القرن الخامس. فبعد ان علّم مدة طويلة في مدرسة الرها، انتقل إلى نصيبين وأنشأ هناك، مع زميله برصوما النصيبيني، مدرسةً أصبحت جامعةً مرموقةً في كنيسة المشرق. وأنتج يراعُ نرساي العديدَ من البحوث والمقالات، وما بقي منها يشير إلى علمه الغزير وتفكيره العميق وتعبيره العذب. وهو الذي استنبط البحرَ الاثني عشري في الشعر السرياني. ويعتبر باباي الكبير، رئيس دير ايزلا، أكبرَ لاهوتي في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع. وكتابه الشهير «في الاتحاد» خير دليل على رجاحة عقله وسعة آفاقه وعمق مفاهيمه اللاهوتية.

١١. الحياة الرهبانية

غالباً ما قيل ان حيوية الكنيسة منوطة بحيوية الرهبانية فيها. أجل، لقد كان الرهبان دوماً قلب الكنيسة النابض ومقياس حرارتها ومعيار ثقافتها. وكانت الأديرة دوماً مراكز للحياة الروحية الأصيلة وللعمل الدؤوب ولإشعاع الفكر والثقافة في مختلف ميادينها. وما ان انتشرت الحياة الرهبانية في الديار المصرية، حتى اقتبستها بلاد ما بين النهرين. فكان الرجال والنساء يعيشون في البدء حياة رهبانية في وسط العالم وبين ذويهم، عاكفين على الزهد والصلاة وملتزمين بالمشورات الانجيلية. وفي القرن الرابع، انتظمت هذه الحياة وتطوّرت إلى حياة جماعية في نطاق أديرة. وسرعان ما انتشرت هذه الأديرة في طول البلاد وعرضها، في سهولها وجبالها. وقام دير ايزلا الكبير الذي أسّسه مار إبراهيم الكشكري الكبير بالقرب من نصيبين في منتصف القرن السادس بدور كبير في تنظيم الحياة الرهبانية في كنيسة الشرق وتحديد صيغتها القانونية وأهدافها الحقيقية. وأصبح هذا الدير منطلقاً لإنشاء أديرة أخرى عديدة في البلاد منذ مطلع القرن السابع، نخصّ بالذكر منها دير بيث عابي في منطقة العقرة الذي أسّسه يعقوب اللاشومي، وقد أصبح مركزاً هاماً للثقافة زوّد كنيسة المشرق بعديد من رؤسائها وأساقفتها

ومرسليها وبخيرة علمائها وأدبائها، ودير الربان هرمزد بالقرب من القوش الذي استمرّت فيه الحياة الرهبانية إلى هذا العصر. ويذكر المؤرّخون أسماء أكثر من عشرين ديراً في منطقة الحيرة وحدها، في عهود ملوكها اللخميين والمناذرة. وكانت بغداد ذاتها – قبل تأسيسها عاصمة للعبّاسيين وبعده – زاخرةً بهذه الأديرة التي اندثرت آثارها الآن. أما الجبال، فكانت الموضع المفضّل للحياة الرهبانية، فكثرت فيها الأديرة والصوامع والمناسك(١٢). وكان كل دير يحتوي على مكتبة عامرة بالمخطوطات. ويعكف الرهبان على استنساخ مخطوطات كثيرة. إلاّ ان الاضطرابات والحروب التي دارت رحاها في البلاد على تعاقب الأزمان دمّرت الأديرة ومعظم مكتباتها. وقد وصل قسمٌ من هذه المخطوطات إلى مكتبات أوروبا الشهيرة: لندن وباريس وبرلين والفاتيكان، وغيرها...

١٢. الكنيسة والرسالة

حينما استقرّت الأوضاع في كنيسة المشرق وانتظمت شؤونها، أدركت ان رسالتها لا تنحصر في الداخل. فهناك مناطق عديدة يسكنها أقوام ما يزالون عائشين في ظلام الوثنية. فأرادت الكنيسة ان تحمل إليهم نورَ الانجيل وتزفّ إليهم بشرى الخلاص. فبعد ان انتشرت المسيحية في ما بين النهرين وامتدّت شرقيّ دجلة وانحدرت إلى بلدان الخليج مثل قطر والبحرين، وسّعت نطاق تبشيرها نحو الجنوب الغربي ووصلت إلى قلب الجزيرة العربية، وانتشرت في اليمن ونجران ومكة وغيرها من المراكز الهامة في الحجاز، وتجاوزتها إلى عدن وجزيرة سقطرى وعمان. وقد استفاد المرسلون الشرقيون من القوافل التجارية المتجهة إلى تلك المناطق لينقلوا إليها أفكارهم الدينية. وقد استخدموا هذه الطريقة ذاتها في الذهاب إلى بلدان إيران الشرقية وإلى الهند حيث وجدوا بقايا من المسيحيين الذين استمرّوا على ديانتهم منذ عهد توما الرسول. وبوسعنا ان نقول ان حدود كنيسة المشرق كانت تمتدّ في النصف الأول من القرن السابع من سواحل البحر الأحمر حتى بلدان الصين واليابان.

ثانياً: كنيسة المشرق والاسلام

بينما كانت الحروب دائرة في الربع الأول من القرن السابع بين الامبراطوريتين العظميين، الفارسية والبيزنطية، وقد أنهكت قواهما

(١٢) راجع: توما المرجي، **كتاب الرؤساء**، ترجمة الأب ألبير أبونا، الموصل ١٩٦٦؛ ايشوعدناح البصري، **الديورة في مملكتي الفرس والعرب** (المعروف **بكتاب العفة** خطأ)، ترجمة القس (البطريرك) بولس شيخو، الموصل ١٩٣٩؛ الشابشتي، **كتاب الديارات**، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، بغداد ١٩٦٦؛ يوسف رزق الله غنيمة، **الحيرة**، بغداد ١٩٣٦؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان** ٢، بيروت ١٩٥٦، وغيرها من المراجع القديمة والحديثة.

وخلّفت فيهما الكثير من التذمّر والاستياء، كانت أفكار جديدة تختمر في الجزيرة العربية. وإذا لقيت هذه الأفكار معارضةً شديدة عند بعض الفئات من العرب، فان هذه المعارضة عجزت عن احتواء تلك الموجة العارمة التي تدفّقت من مكّة وانتشرت في الحجاز، في قلب الجزيرة العربية: انه الاسلام الذي أعلنه رسول العرب وحمل رايته وأراد نشره بين القبائل العربية الوثنية أولاً، ثم ن يمدّه وراء حدود الجزيرة العربية.

١. بدء الإسلام

عاش رسول العرب في بيئة انتشر فيها اليهود والنصارى، والتقى في طريق أسفاره التجارية العديدة أديرة ورهباناً، وسمع القصص التي يسردونها من العهدين القديم والجديد، واختزن في ذاكرته الكثير من هذه القصص، بالإضافة إلى ما تلقّاه من ورقة بن نوفل. وصاغ من اليهودية - المسيحية مذهباً وسيطاً يلائم الذهنية العربية، فتبنّاه العرب وسعوا في نشره بجميع الوسائل. وبعد ان استقرّت الأمور للإسلام في الجزيرة العربية، سعى خلفاء محمد في نشر ديانتهم الجديدة وفرض سيطرتهم على البلدان المجاورة أولاً، ثم على البلدان البعيدة. وكانت معركة اليرموك الشهيرة (سنة ٦٣٦) التي فتحت أمام المسلمين أبواب الإمبراطورية البيزنطية، ثم جاءت معركة القادسية (سنة ٦٣٧) التي انتصر فيها العرب المسلمون على الفرس، وانفتحت أمامهم أبواب الشرق. وقد رحّب المسيحيون في البلاد الفارسية بالفاتحين الجدد، وذلك لأسباب عديدة، منها لأنهم كانوا يعانون في كل العهود الفارسية تقريباً من الظلم والتعسّف، ثم لأن لغتهم الآرامية قريبة من اللغة العربية، فكلتاهما من دوحة آرامية واحدة. والسبب الثالث هو ان الاسلام ينادي بدين شبيه بالدين المسيحي إلى حدّ ما. وكان للانسانية التي اتّسم بها الاسلام الأول تأثير عميق في نفوس الذين دخلوا تحت سلطة المسلمين من رعايا الروم والفرس. وكانت القبائل العربية المسيحية من المناذرة والغساسنة أشدّ الناس تحمّساً للفاتحين وتضامناً معهم في فتوحاتهم الأولى. وكان المسلمون عندما يفتحون بلداً، يخيّرون سكانه بين اعتناق الاسلام والاحتفاظ بدينهم الخاص. فإذا أسلموا، كانوا هم وسائر المسلمين سواء، وإلاّ وجب عليهم دفع الجزية، فيصبحون «في ذمة» المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم. وان لم يقبلوا كلا الأمرين، فيحاربون ويقاتلون(١٣).

أما كنيسة المشرق، فقد واصلت مسيرتها بأمان في بدء الاسلام، دون أن تتعرّض لصعوبات كبيرة. وكانت في هذه الفترة تعاني من مشكلة داخلية سبّبها سهدونا بتعاليمه المخالفة للتعاليم النيودورية السائدة في كنيسة المشرق.

(١٣) طالع ما قيل في هذا الشأن: تاريخ ميخائيل السرياني، طبعة شابو (٤ ج)، النص السرياني والترجمة الفرنسية، باريس ١٨٩٩-١٩١٠، ط ٢، ص ٤١٢-٤١٣؛ يوحنا بر فنكايي، في منكثاء المصادر السريانية ١، الموصل ١٩٠٧، النص السرياني ص ١٤٦، والترجمة الفرنسية ص ١٧٥، وغيرهما...

وحلّت المشكلة بإقصاء مهدونا عن كرسيه الأسقفي في ماحوزا داريون وبنبذ تعاليمه. وحينما تولّى إيشوعياب الثالث الحديابي (٦٤٩-٦٥٩) الرئاسة على كنيسة المشرق، لاحظ بكثير من الأسى ما كان الاسلام يحدثه من التأثير في رعاياه المسيحيين، خاصة في البلدان الواقعة على السواحل الغربية من الخليج العربي، مثل البحرين وقطر وعمان. وحاول البطريرك العظيم ان يحفظ المسيحيين ثابتين في إيمانهم، ولكن دون جدوى. وإذا لم يفلح البطريرك مع المسيحيين الخليجيين الذين اجتازت أعدادٌ كبيرة منهم إلى الاسلام، طمعاً في الحفاظ على ثرواتهم، فقد أفلح في المناطق الأخرى، لا سيّما في الجزء الشمالي من ما بين النهرين. وقد اضطر البطريرك في نهاية حياته إلى اللجوء إلى دير بيث عابي هرباً من اضطهاد حاكم المدائن. إلاّ ان الخدمة الجليلة التي قدّمها هذا البطريرك لكنيسة المشرق، بالإضافة إلى إدارته الحكيمة وطول باعه في الآداب السريانية، كانت اهتمامه الكبير بالشؤون الطقسية وتنظيمها وإيلائها صيغة شبه نهائية ما زالت جارية في كنيسة المشرق في خطوطها العريضة، كما سنذكر ذلك في موضع لاحق.

٢. الكنيسة في العهد الأموي

واصلت الكنيسةُ مسيرتَها في العهد الأموي دون صعوبات كبيرة، وتعاقب الجثالقة في الرئاسة والإدارة الكنسية. وقد تأزّمت الحالة داخل الكنيسة في عهد الجثليق حنانيشوع الأول الأعرج (٦٨٥-٧٠٠) من جرّاء التنافس على السلطة. أما علاقاتها بالسلطة الحاكمة فكانت

البطريرك إيشوعياب الثالث الحديابي

حسنة عامةً، ولو ان الحكام الذين كان الأمويون يعينونهم لإدارة البلاد كانوا يتصرّفون أحياناً بشيء من التعسّف، لا سيّما فيما يتعلّق بفرض الضرائب.

٣. الكنيسة في العهد العباسي

دخلت كنيسةُ المشرق عهداً جديداً بمجيء العباسيين إلى الحكم وانتقال عاصمتهم إلى بغداد. فقد استعان الخلفاء والأمراء المسلمون بأبناء هذه الكنيسة للقيام بالإدارة والشؤون الاقتصادية، إذ كان المسيحيون وحدهم في ذلك العصر يمتازون بثقافة عالية في مختلف العلوم والفنون. فانتدبَ العديدُ منهم إلى دار الخلافة، وعُهدت إليهم مهام مرموقة، ثم

كُلّفوا بنقل الكتب اليونانية إلى العربية، وبذلك أتاحوا للمسلمين ان يتعرّفوا إلى الفلسفة الإغريقية والعلوم الغربية. فكانت كنيسة المشرق ممثّلة خير تمثيل لدى السلطات العباسية بواسطة الأمناء والأطباء والكتبة والمترجمين. وقامت بدورها الهام في ميدان الثقافة والادارة، وحظيت باحترام الحاكمين، لا سيّما حينما كانت شخصية بطريركها أو أحد أساقفتها بارزة في القداسة أو العلم، لأن المسلمين يولون هذين الأمرين أهمية عظمى. فصارت الديانة المسيحية تشغل حيّزًا كبيرًا في الدولة، بين مختلف شرائح الشعب، كديانة ثانية، وان غير رسمية.

٤. طيموتاوس الأول الكبير (٧٨٠-٨٢٣)

يُعتَبر طيموتاوس الأول أبرزَ شخصية قامت في كنيسة المشرق في العهد العباسي الأول. فهو الاداري المحنّك والعالم النحرير والسياسي المرن، عرف ان يبلغ بكنيسته إلى أوج مجدها وازدهارها، وان يذود عنها في الفترات الصعبة التي حاول فيها بعضهم ان يثيروا عليها عواصف المحن والاضطهادات(١٤).

أبصر طيموتاوس النور في حزة (اربيل) في نحو سنة ٧٢٨، وتلقّى العلم على الاستاذ إبراهيم بردشنداد في مدرسة باشوش في منطقة العقرة. ثم أُقيم أسقفًا لبيث بغاش، خلفًا لعمه

البطريرك طيموتاوس الأول الكبير

كيوركيس. وفي مطلع سنة ٧٨٠ انتُخب بطريركًا لكنيسة المشرق. وبعد صعوبات البداية، تمكّن من السير بكنيسته في مدارج العلم والفضيلة والادارة الحسنة والامتداد نحو الخارج. وقد دامت رئاسته أكثر من أربعين سنة، تحت حكم خمسة خلفاء متعاقبين، وارتبط بعلاقات المودّة والدالّة خاصة مع المهدي وهارون الرشيد. وبالاضافة إلى تضلّعه من مختلف العلوم والترجمات التي قام بها والقوانين التي وضعها، أدرك البطريرك ان أهمّ

---

(١٤) طالع عنه: **مجدل** ماري، رومة ١٨٩٩، ص ٧١-٧٥؛ **مجدل** صليبا، رومة ١٨٩٦، ص ٦٤-٦٦؛ ابن العبري، **التاريخ الكنسي** (٣ ج) نشره ابيلوس ولامي في لوفان ١٨٧٢-١٨٧٧، ٢، ١٦٥-١٧٢؛ توما المرجي، كتاب الرؤساء ص ١٦٣-١٦٥؛ السمعاني، المكتبة الشرقية ٣، ط ١، ص ١٥٨-١٦٣.

عنصر للاستقرار في كنيسة المشرق ولازدهارها يكمن في حسن اختيار رؤسائها وثقافة كهنتها وقداستهم. وكانت رغبة التفاهم مع الحكم العبّاسي في نظرة طيموتاوس ضرورة حيوية للكنيسة. ولكي يكون المسيحيون حقًّا في صميم معترك الحياة السياسية والثقافية، قرّر، منذ مطلع عهده، ان ينقل مقرّ البطريركية من المدائن إلى بغداد العاصمة الجديدة. فقد أدرك ان للكنيسة دوراً هاماً تجاه المجتمع، وان خير وسيلة لتجنّب الظنون والشكوك تجاهها هي ان تكون في صميم حياة المجتمع، وان تتعاون في بناء البلاد، بوساطة أطبائها وكتّابها وعلمائها ومترجميها. ولم يشأ طيموتاوس أن تعيش كنيسته في الخفاء وعلى هامش الحياة العامة وترفض كل تعاون مع الحكم القائم. ومهما قيل عنه، فانه كان رجل المبادئ، متديّنًا أصيلاً، ودبلوماسيًا لبقًا. كان رجلَ علم وفي الوقت نفسه رئيسًا يعيش في صميم الواقع. وعرف ان يقرن الصرامة بالتواضع والسلطة بالخدمة، مع الكثير من الفطنة والمرونة والانفتاح. لذا فقد كان عهده عهد يمن وبركة لكنيسة المشرق التي تذكره بإجلال وتطلق عليه لقب «الكبير». وفي عهده حظيت الكنيسة باحترام جميع الفئات في البلاد، وأسهم علماؤها في إعلاء شأن الثقافة في البلاد. أما أطبّاؤها، فقد نالوا حظوة كبيرة في البلاط العباسي، وتمكّنوا من القيام بدور بنّاء في الكنيسة. وقد امتاز بين هؤلاء الأطباء آل بختيشوع الذين تعاقبوا في خدمة الخلفاء، بالتعاون مع غيرهم من الأطباء... وهذا كله أولى كنيسة المشرق وجهًا مشرقًا وجعلها رائدة العلوم والثقافة في البلاد مدّة قرون طويلة.

ولم تكتفِ كنيسة المشرق بإيلاء الأمور الظاهرية والعلاقات الخارجية اهتمامها، بل ظهر فيها أشخاص حاولوا استجلاء طابعها العميق وتسليط الأضواء على روحانيتها الأصيلة. ومن المتصوّفين اللاهوتيين الذين برزوا في القرن الثامن، كان يوسف حزايا الذي كتب في مختلف نواحي الحياة الروحية، ولا سيّما في التأمّل أوِ المشاهدة (تيوريا)، ويوحنا الدلياتي الذي يعتبر إمامَ المتصوّفين في كنيسة المشرق في القرن الثامن(١٥). إلاّ ان رؤساء الكنيسة لم يقيموا وزنًا في حينها لما في تلك الكتابات من الغنى الروحي لحياة المؤمنين.

٥. العهود العبّاسية الأخيرة

بعد عهد الخليفة المأمون الزاهر الذي بلغت فيه العلوم ذروة تقدّمها، أُصيبت الثقافة بنكسة خطيرة من جرّاء تزمّت الخلفاء اللاحقين أو ضعف شخصياتهم. وعانت الكنيسة من ردود الفعل الرجعية التي ظهرت في البلاد. وتعرّض علماؤها للاهمال والمضايقات. فشرع نفوذ الأطباء والعلماء المسيحيين يتضاءل بتضاؤل الاهتمام بالعلوم. ومن جهة أخرى، لم يظهر في الكنيسة جثالقة قاموا بدور بارز. فان كلاً منهم قضى فترة وجيزة في الرئاسة، ولم

(١٥) وقد قام الأب سليم دكاش اليسوعي بترجمة مجموعة رسائله الروحية ونشرها في سلسلة التراث الروحي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

يتميّزوا بشخصية قوية بالنظر إلى أعمارهم المتقدّمة وإلى ضحالة ثقافتهم. فبدأت الكنيسة تجتاز مرحلة صعبة من حياتها بعد المجد والعظمة اللذين عرفتهما في أيام طيموتاوس الكبير الذي ترك كنيسة منظّمة من الداخل، وتنعم بإدارة اكليرس حاصل على ثقافة جيدة، وتحظى في الخارج باحترام العالم الإسلامي، بالنظر إلى علمائها وأطبّائها وإلى مساهمة بنيها على مختلف الأصعدة من الحياة الاجتماعية في الدولة العبّاسية.

ولم تكن الحال في الدولة بأفضل منها في الكنيسة. فقد تعاقب على الخلافة أشخاص ضعفاء أو مهملين، وكثرت المنافسات على الخلافة، وازدادت الدسائس وتفاقمت الفوضى في البلاد، وتعرّضت الأقليات لمساوئ كثيرة من الحكّام المستبدّين الذين تصرّفوا بحسب هواهم، غير مكترثين بالنظم الشرعية وغير عابئين بالسلطة المركزية الهشّة. وبينما كانت الأوضاع تتردّى في الدولة العبّاسية، كان رؤساؤها يعيشون في طمأنينة زائفة، عاكفين على اللهو والبذخ، والغرباء يتحكّمون بمصائرهم، وعيون الأجانب ترمقهم بكثير من الطمع وهم يتهيأون للانقضاض عليهم والاستيلاء على ثروات بلادهم... وظلّت الدولة العبّاسية في هذه الحال البائسة وهي لا تبالي بما يتهدّدها من الاخطار في الداخل والخارج...

ثالثًا: الكنيسة في عهد المغول والاتراك

شهدت العهود الأخيرة من الخلافة العبّاسية ضعفًا في الادارة وفي السيطرة على مختلف أرجاء الدولة المترامية الأطراف، مما أدّى إلى نشأة دول عديدة وإمارات مستقلّة في قلب الخلافة وعلى أطراف حدودها. وقد أضاع الخليفة، منذ مطلع القرن العاشر، سلطته الفعلية حتى على بغداد نفسها.

١. سقوط الدولة العبّاسية

في تلك الغضون، كانت قبائل من المغول تتكتّل بقيادة جنكيزخان (١١٥٥-١٢٢٧)، وشرعت تتقدّم نحو بلدان آسية الوسطى وتجتاحها. وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو - حفيد جنكيزخان - بلاد المغول على رأس جيش جرّار، وهو يقصد القضاء على الحشاشين والخلافة معًا. فوصل في زحفه إلى همدان سنة ١٢٥٧، وأرسل إلى الخليفة العبّاسي المستعصم يطالبه بالاستسلام. وأمام رفض الخليفة، زحفَ الجيشُ المغولي واستولى على بغداد في مطلع عام ١٢٥٨، وأعمل فيها الدمار والهلاك، وقتلَ العديدَ من سكّانها، وقضى على الخليفة وأعوانه. وبعد المجزرة الرهيبة التي قضت على أعداد غفيرة من سكان العاصمة، اهتمّ هولاكو بإعادة تنظيم الادارة في بغداد، ووضع على رأسها بعض المسؤولين في العهد السابق، لا سيّما الذين تعاونوا معه سرًّا، ريثما تتكوّن له مجموعة من الإداريين المغول.

أما المسيحيون، فقد جمعهم الجثليق مكيخا الثاني (١٢٥٧-١٢٦٥) في كنيسة سوق الثلاثاء، في الجانب الشرقي من المدينة، وأبقاهم هناك طوال فترة الفوضى، بحيث لم يصب أحدهم بأذى. وقد وضع كثيرٌ من المسلمين أموالهم لدى الجثليق، آملين استعادتها

في حال نجاتهم من القتل. لكن المسيحيين، بالرغم من حماية زوجة هولاكو المسيحية رقوز خاتون لهم، لم يكونوا في وضع مستقرّ، بل غالبًا ما شاطروا مصير إخوانهم المسلمين وتعرّضوا للقتل والسلب والنهب. وسرعان ما تبخّرت الآمال التي راودتهم حينًا في العيش باطمئنان في ظلّ الفاتحين الجدد. فان المغول عاملوهم في البداية معاملة حسنة، حتى وهب هولاكو للجثليق مكيخا دار الخليفة المعروفة بدار الدويدار الواقعة على دجلة، فسكن فيها وأقام فيها كنيسة وهناك توفّي ودفن(١٦). ولكن سرعان ما برهنت الأحداث اللاحقة ان المغول مارسوا تعسّفهم وهمجيّتهم تجاه الجميع دونما تمييز.

٢. الجثليق يهبالاها الثالث المغولي

لقد استعاد السلاطين المغول العادة التي كانت جارية لدى الساسانيين، ثم لدى المسلمين، في تأييد ودعم انتخاب الرؤساء في كنيسة المشرق. وهكذا، بعد موت الجثليق مكيخا الثاني سنة ١٢٦٥، خلفه الجثليق دنحا (١٢٦٦-١٢٨١)، وأيّد اباقاخان هذا الانتخاب وشرّف الجثليق الجديد بالخلعة السنية والفرمان وغيرها من آيات السلطة والكرامة. لكن المسيحيين تعرّضوا في أماكن شتى لمضايقات كثيرة، من جرّاء الفوضى السائدة في البلاد، بالرغم من الحماية التي كانوا يحظون بها من شخصيات مسيحية تمكّنت من الوصول إلى مناصب مرموقة في البلاد. ونرى ان الملكة قوتاي خاتون نفسها تتدخّل لحمل المسيحيين على الاحتفال ببعض أعيادهم علنًا(١٧)، اباقاخان يذهب إلى همدان سنة ١٢٨٢ ويشترك مع المسيحيين في عيد القيامة في كنيستهم.

وفي تلك الغضون، كان راهبان مسيحيان من أنحاء بكين، أحدهما يدعى صوما والآخر مرقس، قد وطّدا العزم على زيارة الأماكن المقدّسة. ولم تحُل الصعوبات والاضطرابات دون تحقيق عزمهما، فشدّا الرحال نحو المناطق الغربية. ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى الأماكن المقدّسة بسبب الاضطرابات والحروب الدائرة في المنطقة، فعادا إلى الجثليق الذي كانا قد التقياه سابقًا في مراغة. فرسم مرقس مطرافوليطا لأبرشية خطاي الصينية وسمّاه يهبالاها، وأقام صوما زائرًا عامًا للمناطق الصينية. لكن طرق العودة إلى بلادهما أيضًا قد انقطعت، فاضطرّ يهبالاها وصوما إلى المكوث في دير مار ميخائيل ترعيل، بالقرب من اربيل، طوال سنتين(١٨). وفي سنة ١٢٨١، توفّي البطريرك دنحا، فاجتمع المطارنة وقرّ رأيهم على انتخاب يهبالاها المغولي خلفًا له، وذلك إرضاءً لأسياد البلاد، ولكون المنتخَب على معرفة بلغة المغول

(١٦) صليبا في المجدل، ص ١٢٠-١٢١.

(١٧) راجع ابن العبري، تاريخ الزمان في الترجمة العربية لإسحق أرملة، دار المشرق، بيروت ١٩٩١، ص ٣٢٨.

(١٨) طالع قصة مار يهبالاها والربان صوما، وقد نشر الأب بيجان نصها السرياني في باريس ١٨٩٥.

وعوائدهم، بالرغم من قلّة اطّلاعه على التعاليم الكنسية وجهله اللغة السريانية وعدم كفاءته في الشؤون الإدارية. فقبل يهبالاها هذه المهمّة على مضض. وكانت سنواته الأولى صعبة، لا سيّما ان السلطة انتقلت إلى تكودار الذي اعتنق الاسلام وأساء إلى المسيحيين. ولما اغتيل سنة ١٢٨٤، خلفه أرغون الذي لم يسِر على سياسته، بل كان متسامحاً مع الديانات الأخرى ومنفتحاً على الغرب.

٣. الربان صوما سفير الملك إلى الغرب

كان أرغون خان يمنّي النفس بالاستيلاء على سورية وفلسطين، وكان يفتقر إلى مساعدة الدول الغربية. فأرسل الربان صوما إلى رومة وإلى الملوك الغربيين، وزوّده بالرسائل وبالهدايا المناسبة، كما ان الجثليق يهبالاها أعطاه رسائل وهدايا إلى البابا. فذهب الربان صوما إلى فرنسا وانكلترا حيث التقى ملكيهما. ودارت في رومة نقاشات حول القضايا الإيمانية، وكانت أجوبة السفير مرضية، واشترك معهم في الاسرار، وسرّ به الجميع. ولدى عودته، زوّده البابا بذخائر متنوّعة وأرسل معه تاجه الخاص إلى مار يهبالاها مع حلل فاخرة ومرسوماً يخوّل البطريرك السلطة على المشرق كله، كما أرسل بركاته إلى الملك أرغون. وعاد الربان صوما إلى الشرق، وقابل الملك أرغون وأطلعه على نتائج رحلته. ففرح الملك وأراد ان يبقيه عنده في خدمة كنيسته المتنقّلة، ولكنه رفض، وفضّل ان يقوم الجثليق نفسه بهذه المهمة.

وكان مار يهبالاها الثالث متّسماً بروح مسكونية. وقد برهن عن ذلك من خلال علاقاته بالمونوفيزيين الساكنين في بلاد المشرق، لا سيّما بابن العبري، وبالمرسلين الغربيين الذين شرعوا يتوافدون على المنطقة. فأفسح أمامهم المجال لممارسة رسالتهم بين مؤمني كنيسة المشرق. أمّا علاقاته برومة، فكانت علاقات تتّسم بالاحترام والاعتراف الضمني برئاسة البابا. وقد أعرب عن ذلك في الرسائل التي وجّهها إلى رومة في السنوات اللاحقة.

٤. المخاض الأليم

توفّي الملك أرغون سنة ١٢٩١، وخيّم الحزن على المسيحيين بموته. وإذا استمرّ خلفاء كيخاتو وبايدو على خطته المسالمة، فان غازان الذي جاء إلى الحكم سنة ١٢٩٥ تبنّى خطة مغايرة. فقد تبنّى المغول الاسلام، وشرعت المصائب تنهال على البطريرك والمسيحيين. فتعرّض يهبالاها للإهانات، ولم ينج من الموت إلاّ بأعجوبة، وساعده الملك هيثم الأرمني على الفرار من مراغة متنكّراً. وما ان عاد الاستقرار وتمكّن البطريرك من العودة إلى كرسيه في مراغة، حتى ثارت فتن أخرى نغّصت حياته... وكانت محنة كبيرة تنتظره في اربيل سنة ١٣١٠، حيث قامت فئة من الغوغائيين بإثارة مشاعر السكان المسلمين على المغول وعلى المسيحيين، وحدثت مجزرة رهيبة راح ضحيتها المئات من المسيحيين، وكاد البطريرك نفسه يلقى فيها حتفه. وانتهت المأساة باحتلال المسلمين لقلعة أربيل وبقتل المسيحيين فيها ونهب كل شيء والقضاء على الوجود المسيحي هناك. وحاول البطريرك المسكين إطلاع رؤساء

المغول على تلك الكارثة، ولكنه لم يلقَ منهم آذاناً صاغية. فعاد إلى مقرّه في مراغة وهو يقول: «لقد سئمتُ من خدمة المغول!». ومكث هناك إلى ان وافاه الأجل سنة ١٣١٧.

٥. نهاية العهد المغولي

تعاقب البطاركة على كرسي كنيسة المشرق، بالرغم من اضطراب الأحوال في نهاية العهد المغولي. فجعل طيموتاوس الثاني (١٣١٨–١٣٣٢) مقرّه بالقرب من أربيل، وحاول ان يجمع شمل مؤمنيه وان ينفحهم بروح الايمان والثقة. ثم خلفه البطريرك دنحا الثاني (١٣٣٢–١٣٦٥) الذي نقل كرسيه إلى قرية كرمليس في منطقة الموصل حيث احتمى بسلطة بعض الأمراء المسيحيين. أما حكم المغول فقد أصابه الانحلال والانحطاط، إلى ان انهار تحت ضغط الفئات الطامعة في البلاد... وحاولت كنيسة المشرق الابقاء على مستواها الثقافي، رغم تلك الظروف الحرجة. وكان آخر من حمل مشعل العلم والآداب السريانية الأصيلة هو عبديشوع الصوباوي (١٣١٨†) الذي يعتبر خاتمة عهد الآداب السريانية الزاهر، كما ان ابن العبري (١٢٨٦†) كان خاتمة العلوم والآداب في الكنيسة السريانية الغربية الشقيقة.

٦. العهود التركية

ان اختلاط القبائل، لا سيّما بعد غزو الترك لآسية الوسطى، أدّى إلى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان أهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها في مناطق ما وراء النهر. فقد استولى الجلائريون على هذه المناطق (١٣٣٧–١٤١١). وتخلّل عهدهم اجتياح تيمورلنك (١٣٣٦–١٤٠٥) لهذه المناطق لفترة وجيزة خلّفت وراءها الكثيرَ من الدمار والقتل، وعانى منها المسيحيون بوجه خاص. ثم تعاقب في الحكم القره قوينلو والآق قوينلو (١٤٠٠–١٥٠٨) وزادوا الطين بلّة بما أحدثوه من الفوضى والارتباك في البلاد كلها.

وفي خضمّ هذه الاضطرابات، تعذّرت اتصالات كنيسة المشرق بجميع أتباعها وجمع شملهم وتوحيد صفوفهم. ففي سنة ١٣٤٠، انضمّ نساطرة جزيرة قبرص إلى الوحدة مع رومة. وفي الشرق الأوسط، أخذ المرسلون الفرنسسكان والدومنيكان يعيدون الكثير من أبناء كنيسة المشرق إلى الوحدة مع رومة. وقد واصلوا مهمتهم هذه ومدّوها إلى الشرق الأقصى أيضاً. وفي الهند، انضمّ قسم من مسيحيي مار توما إلى المونوفيزية وغيرهم إلى اللاتينية، فيما واصل آخرون السير بحسب تقاليد كنيستهم الخاصة، وهم ينتظرون أن يأتيهم المدد الروحي من كنيستهم المشرقية. أما أحوال المسيحيين في ما بين النهرين وما حولها من البلدان، فقد اكتنفها الكثيرُ من الغموض. وقد شمل الالتباس والغموض حتى البطاركة الشرقيين فيما يتعلّق بتسلسلهم وسني رئاستهم ونشاطاتهم في إدارة كنيسة المشرق. وأرغمت الأحداث والاضطرابات المسيحيين على العيش في نوع من الخفاء والعزلة. وكثيراً ما تعرّضوا لشتى أنواع الظلم من قبل الحكّام المحلّيين، في حين كانت السلطات منشغلة بحروب متواصلة مع السلطات المجاورة.

وفي مطلع القرن السادس عشر، جاء أسقف كلداني من الهند اسمه توما، وقدّم التماساً إلى البطريرك إيليّا الخامس (١٥٠٢-١٥٠٤) يطلب منه ان يرسم أساقفة للهند. فرسم لهم ثلاثة أساقفة وأرسلهم إلى هناك.

٧. البطريرك سولاقا والحركة الوحدوية

منذ القرن الثالث عشر، قامت في الكنيسة السريانية الغربية حركات تهدف إلى الوحدة مع كنيسة رومة. وظهرت حركات مماثلة في كنيسة المشرق أيضاً، وقد ذكرنا محاولات البطريرك المغولي يهبالاها الثالث، ثم قضية النساطرة في قبرص وكيفية انضمامهم إلى وحدة الكنيسة للمرة الأولى، ثم للمرة الثانية والنهائية سنة ١٤٤٥، واعترف بهم البابا أوجينس الرابع وأطلق عليهم اسم «الكلدان»، تيمّناً باسم «كلدو» وهي منطقة بيث آرامايي الواقعة جنوبي بغداد، حيث كان مار ماري قد أسّس كرسيه الأول.

وفي نهاية سنة ١٥٣٤، احتلُّ الأتراك العثمانيون بغداد وانتزعوها من أيدي الفرس الصفويين، ودخلها السلطان سليمان الأول القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) وسط مظاهر العظمة والأبهة، دون ان يسمح لجيشه بدخول المدينة، حقناً لدماء سكانها وذوداً عن أموالهم. وكان العهد العثماني بدء مرحلة جديدة لكنيسة المشرق اعتورها شيء من الازدهار وكثيرٌ من الصعوبات.

وجابهتها أزمة شديدة من الداخل. فمنذ بداية القرن الرابع عشر، كانت عائلة «أبونا» تسيطر على الشؤون الدينية في كنيسة المشرق. فمن أعضاء هذه الأسرة كان يتمّ انتخاب الجثالقة. وكان طيموتاوس الثاني (١٣١٨-١٣٣٢) هو الأول في هذه السلسلة. وتتابع الجثالقة «الأبونيون» على كرسي المشرق، عن طريقة الانتخاب الشرعي، إلى البطريرك شمعون الباصيدي (١٤٣٧-١٤٧٦) الذي سنّ قانوناً يقضي بإقامة بطاركة من عائلة «أبونا» دون غيرها، فتنتقل الرئاسة من شخص إلى أخيه أو ابن أخيه. وهكذا أصبحت البطريركية وراثية في كنيسة المشرق. وكانت نتائج هذا الاجراء وخيمة على الكنيسة، إذ ارتقى السدّة البطريركية أناس غير جديرين على جميع الأصعدة، دون ان يبالوا باحتجاجات الأساقفة والمطارنة الذين أدركوا ما ينطوي عليه هذا القانون من الغبن لحقوقهم المشروعة ومن الشر للكنيسة.

وإذ ذاك ظهرت في كنيسة المشرق حركة تهدف إلى تصحيح الأوضاع والقضاء على التدابير التعسّفية وإلغاء قانون الوراثة الذميم في رئاسة الكنيسة. وتزعّم هذه الحركة ثلاثة أساقفة، وعقدوا اجتماعهم الأول في جزيرة ابن عمر ضمّ قسماً من الاكليرس والشعب. ثم استأنفوا اجتماعهم في الموصل في مطلع سنة ١٥٥٢. وقرّ رأي المجتمعين على انتخاب رئيس جديد لكنيستهم. وتوجّهت أنظارهم إلى الراهب البطريرك سولاقا رئيس دير الربان هرمزد بالقرب من القوش، لما كان يمتاز به من التقوى والعلم والانفتاح. فاستدعوه إلى الموصل، وناشدوه بقبول هذه المهمة. فقبلها على مضض. فأرسلوه مع وفد إلى رومة لكي

البطريرك شمعون يوحنا سولاقا

ينال التأييد والتثبيت من الكرسي الرسولي. وصل سولاقا إلى رومة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٥٢، وفي ٢٠ شباط (فبراير) ١٥٥٣، أُعلن بطريركاً على الموصل، وجرت رسامته الأسقفية في ٩ نيسان (أبريل) التالي، وفي ٢٨ نيسان قلّده البابا درع الرئاسة المعروف بالباليوم. ولدى عودته إلى بلاده، اصطحب معه أشخاصاً يساعدونه في نشر التعاليم الصحيحة في بلاده. وصل البطريرك الجديد إلى آمد (دياربكر) في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٥٣، وشرع ينظّم شؤون كنيسته ويرسم عدداً من الأساقفة، فصار للطائفة الجديدة – الكلدان – ثمانية أساقفة. وأبدى البطريرك الجديد نشاطاً كبيراً، وأخذ يتفقّد أحوال طائفته ويحرّضهم على التمسّك بالمبادئ القويمة وبالخير والمحبة. وقد أسفرت جهوده عن ازدياد عدد المنتمين إلى الطائفة الجديدة.

إلاّ ان البطريرك النسطوري شمعون السادس برماما كان ينظر إلى الحركة الجديدة التي نشأت في كنيسته بكثير من الهلع والغضب. وحاول خلق صعوبات في طريقها والاساءة إلى الداعين أو المنضمين إليها من الرؤساء والمؤمنين. ولكنه لم يفلح. إذ ذاك شرع يخطّط للقضاء على رئيسها. فاتّفق مع باشا العمادية حسين بك الكردي، لقاء رشوة دسمة، بأن يستقدم سولاقا إلى العمادية ويبيده. وما ان وصل سولاقا إلى هناك، حتى سجنه الباشا. وبعد عذابات دامت أكثر من خمسة أشهر، أمر الباشا رجاله بحمل الأسير إلى الجبال المجاورة والقضاء عليه سراً. وهكذا ألقي هذا البطريرك في بحيرة صغيرة مجاورة وأُغرق، وذلك في ١٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٥٥٥...

إلاّ ان الطائفة الجديدة واصلت مسيرتها، وانتخبت عبد يشوع الرابع مارون بطريركاً لها. ثم تعاقب البطاركة الكلدان، تارة في دياربكر، وطوراً في أحد الأديرة المجاورة لجزيرة ابن عمر، في حين اتّخذ البطاركة النساطرة القوش ثم دير الربان هرمزد مقرّاً لإقامتهم، وفي حين ان فئة أخرى منهم استقرّت في قوجانس الواقعة في الجبال الشمالية الشرقية النائية.

لكن البطاركة الكلدان لم يكونوا دوماً واضحين في معتقدهم، لا سيّما منذ مطلع القرن السابع عشر. وقد تذبذب بعضهم متأرجحين بين الكثلكة والنسطورية، فيما أعلن

غيرهم موقفهم المنحاز إلى النسطورية. وظلّت كنيسة المشرق تعاني كثيراً من هذا التذبذب والتمزّق الذي كان تأثيره عميقاً في صفوف المؤمنين.

٨. بطاركة الكلدان في دياربكر

وبينما كان الارتباك والفوضى ضاربين أطنابهما في الكنيسة السريانية الشرقية، بسبب تذبذب رؤسائها وانقسامهم، ظهر أمل جديد في دياربكر التي كانت خاضعة، من حيث الادارة الكنسية، لجثليق الربان هرمزد.

كانت جذور الكثلكة قد تأصلت في هذه المدينة، بهمّة المرسلين الكبوشيين وغيرهم الذين استطاعوا ن يقنعوا الكثيرين من النساطرة بالانضمام إلى الوحدة مع رومة. وكان يوسف مطران دياربكر نفسه من الذين انضمّوا إلى الوحدة. إلاّ ان الظروف الكنسية المرتبطة بالسياسة العثمانية كانت تشكّل عوائق خطيرة في وجه هذه الوحدة. وكان البطريرك إيليا التاسع مروجن (١٦٦٠-١٧٠٠) واقفاً لهذه الحركة بالمرصاد. فما ان اطّلع على موقف المطران يوسف، حتى استدعاه إلى مقرّه في تللسقف. لكن المطران أحجم عن الذهاب إلى هناك خوفاً من الدسائس. فاضطر البطريرك إلى المجيء بنفسه إلى ماردين ودياربكر، ودبّر الأمر مع «المتسلّم» العثماني الذي زجّ يوسف في السجن، وأخضعه لاستنطاقات عديدة. لكن «المتسلم» اقتنع أخيراً بصدقه ونزاهته، فأطلق سراحه، واعترف بسلطته على ماردين ودياربكر، وأعلن استقلاله عن البطريرك النسطوري. لكن «متسلّماً» جديداً ألقى بيوسف في السجن، وهناك أصابه من التعذيبات ما يعجز اللسان عن وصفه، حتى لقّب بالبطريرك الشهيد(١٩). ولدى خروجه من السجن، تلقّى تهاني البابا اقليميس العاشر سنة ١٦٧٣. ثم ذهب إلى رومة وإلى بلدان أوروبا الأخرى أملا بالحصول على مساعدات كانت طائفته بأمس الحاجة إليها. ولكنه لم يتلقّ سوى مبالغ زهيدة. وحاول الحصول على تأييد رومة. إلاّ ان هذا التأييد لم يأتِ إلاّ في مطلع سنة ١٦٨١. وهكذا ظهرت، في الربع الأخير من القرن السابع عشر، سلسلة أخرى من البطاركة الكلدان الذين أقاموا في دياربكر، وتسمّوا جميعهم باسم «يوسف».

إلاّ ان الآلام والمصائب كانت قد هدّت قوى البطريرك يوسف الأول، وقد أوشك ان يفقد بصره. وكان بقربه تلميذ نبيه اسمه صليبا أبصر النور في بلدة تلكيف التابعة للموصل في سنة ١٦٦٧. ومنذ صباه قصد دياربكر والتحق ببطريركها. فرسمه هذا شمّاساً ثم كاهناً. وفي سنة ١٦٩١، رقّاه إلى الدرجة الأسقفية وأقامه معاوناً له، ثم عيّنه خلفاً له واستقال هو وذهب إلى رومة. ونال يوسف الثاني (صليبا) آل معروف تأييد رومة سنة ١٦٩٦. وقد امتاز يوسف الثاني بغيرة عارمة على الديانة المسيحية، وأبدى نشاطاً عظيماً في كلا الحقلين الإداري والأدبي. واجرى إصلاحات كبيرة في الكتب

(١٩) طالع ما كتبه عنه ألبير لامبار بالالمانية: **شهيد الاتحاد مع رومة، يوسف الأول بطريرك** الكلدان، لوزرن ١٩٦٦.

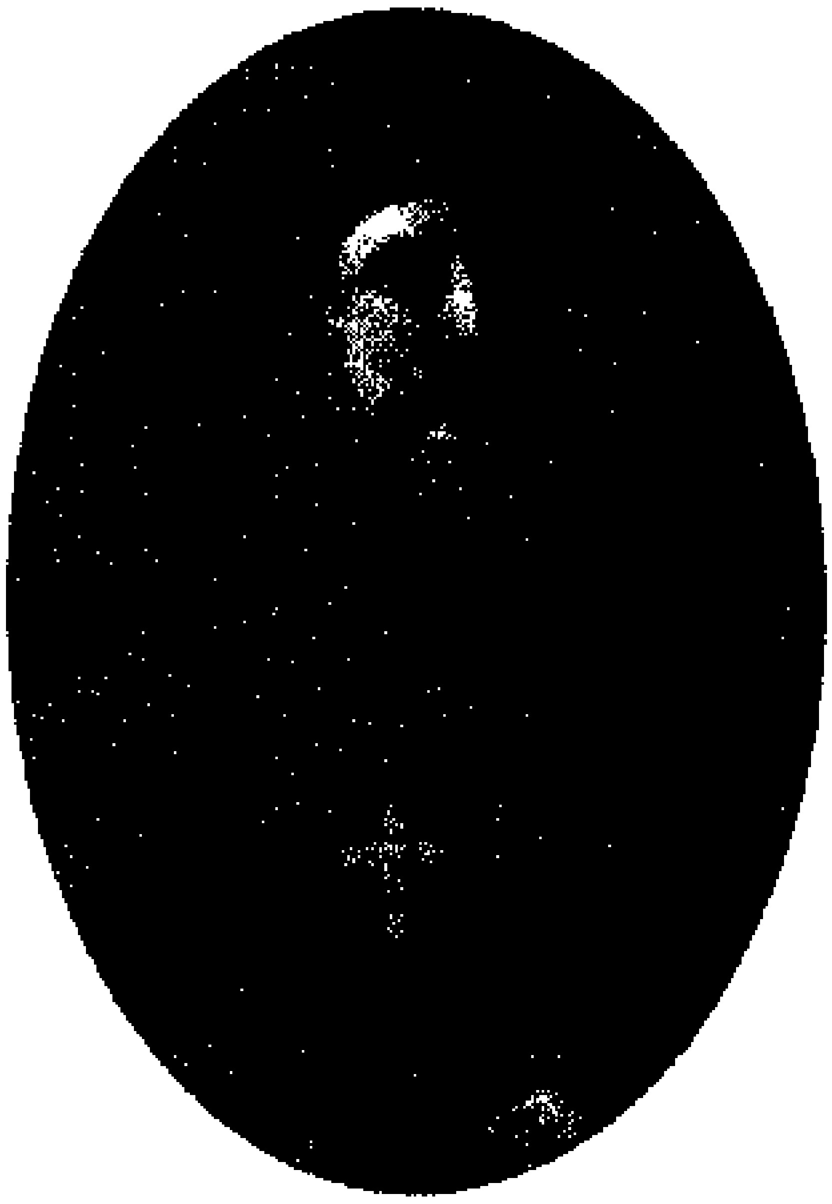

البطريرك يوسف الثاني آل معروف

الطقسية الكلدانية، وأزال عنها التعابير التي لا توافق المعتقد الكاثوليكي، واستحدث فروضاً لأعياد لم تكن موجودة لدى الشرقيين، ونقّح صلوات الأعياد الأخرى. ووضع كتباً كثيرة لقيت إقبالاً شديداً في عصره، وكانت خير وسيلة لدعم الايمان وتثقيف الشعب المسيحي. إلاّ ان حياته لم تخلُ من صعوبات ومحنٍ واضطهادات من قبل الفئة المناوئة، حتى أراد لبطريرك العظيم ن ينعزل في لبنان، وقد رفضت رومة طلبه في الاعتزال في رومة(٢٠). فلم يذهب يوسف الثاني إلى رومة، ومات بداء الطاعون المتفشّي في البلاد في ٢ حزيران (يونيو) ١٧١٢، وهو في السادسة والأربعين من سنه.

وكان يوسف الثاني قبل موته قد أعرب عن رغبته في ان يقام تلميذه طيموتاوس مروجين، مطران ماردين منذ سنة ١٧٩٦، خلفاً له. وأُجري الانتخاب القانوني، وانتخب طيموتاوس باسم يوسف الثالث، ونال تأييد رومة سنة ١٧١٤. وتعرّض البطريرك الجديد أيضاً لمضايقات النساطرة. لكن حركة الوحدة انتشرت بين المؤمنين في مختلف المناطق، وتمكّن البطريرك من القيام بزيارة رسمية إلى الموصل سنة ١٧٢٨، وأعاد الكثيرين إلى الوحدة مع رومة. وما ان رجع إلى دياربكر، حتى انهالت عليه نقمة النساطرة الذين استولوا على كنيسته وتمكّنوا من إلقائه في السجن بقوة السلطات الحاكمة. أخيراً توصّل وكيله في العاصمة العثمانية من الحصول على فرمان يقضي بنوع من الاتفاق بين الفريقين: ان تكون الموصل وحلب للنساطرة، وماردين ودياربكر للكلدان. واضطر البطريرك يوسف الثالث إلى السفر إلى رومة والبلدان الأوروبية لطلب المعونة. ومكث في رومة من سنة ١٧٣٥ حتى سنة ١٧٤١(٢١). وأراد البطريرك، لدى عودته، ان يقيم كاهناً شاباً خلفاً له. إلاّ ان المؤمنين رفضوه. وفي ٨ شباط (فبراير) سنة ١٧٥٧، رسم لعازر هندي خلفاً له باسم

(٢٠) شموئيل جميل، **العلاقات بين الكرسي الرسولي والسريان الشرقيين أي كنيسة الكلدان**، رومة ١٩٠٢، النص العربي (كرشوني) ص ٢١٤، والترجمة الإيطالية ص ٢١٣.

(٢١) المرجع السابق، ص ٢١٤-٢٢٩ ثم ص ٢٣٩-٢٧٠.

يوسف الرابع. ولكنه لم ينلْ تأييده من رومة إلاّ سنة ١٧٥٩.

واستطاع البطريرك الجديد ان يسافر إلى رومة سنة ١٧٦١، وطبع هناك كتاب طقس القداس والأناجيل. ولدى عودته من رومة، استقال سنة ١٧٨١، وسلّم إدارة البطريركية إلى ابن أخيه وهو أوغسطين هندي وهو ما يزال كاهناً. أما هو فاعتزل في رومة حيث توفي سنة ١٧٩١.

وفي تلك الغضون، كان بطريركان يتقاسمان السلطة على الكنيسة النسطورية، أحدهما في قوجانس، والآخر في دير الربان هرمزد. وكانت رومة قد تلقّت من كليهما صور إيمان مرضية سنة ١٧٧١/١٧٧٠. وحينما خلف ايشوعياب عمه البطريرك إيليا (الثاني عشر)، عاد عن قضية الوحدة التي كان قد وافق عليها مع عمه الراحل. إلاّ ان ابن عم ايشوعياب، وهو يوحنا هرمزد، كان متمسكاً بالمذهب الكاثوليكي، وكان له مؤيّدون كثيرون في كنيسة المشرق. وأمام هذه الحالة المرتبكة، أبدى الكرسي الرسولي تحفّظاً شديداً.

أما في دياربكر، فقد قام أوغسطين هندي بإدارة الابرشية وهو كاهن، ثم كمطران منذ سنة ١٨٠٤. وكان يمنح نفسه لقبَ البطريرك ويدعو اسمه يوسف الخامس. لكن رومة لم تمنحه هذا اللقب قط... وهكذا استمرّ الانقسام مدة طويلة بين الكلدان في شأن الرئاسة التي كان يطالب بها كل من مطران ديار بكر أوغسطين هندي، ومطران الموصل يوحنا هرمزد، دون ان يكون للعقيدة شأن في هذه المنافسة. وحينما توفي أوغسطين هندي سنة ١٨٢٨، لم يبدِ خلفه على كرسي دياربكر أيةَ مطالبة بلقب البطريركية. وفي ٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٠، منحت حقوقٌ جديدة للبطريرك الكلداني يوحنا هرمزد الذي اتّخذ الموصل مقراً له.

رابعاً: كنيسة الكلدان في العصور الحديثة

١. بطريركية بابل الكلدانية

كانت حركة الاتحاد التي شرعت في الموصل منذ مطلع القرن الثامن عشر قد قطعت شوطاً كبيراً، وقد وجدت دعماً قوياً في المساندة التي لقيتها من المرسلين الدومنيكيين الذين اتّخذوا الموصل منطلقاً لرسالتهم في منتصف هذا القرن. وإذا تراجع البطريرك ايليا (ايشوعياب) (الثالث عشر) عن قراره السابق في الوحدة، فقد وجدت الحركة خير نصير لها في شخص يوحنا هرمزد الذي كان البطريرك ايليا (الثاني عشر) قد رسمه مطراناً وهو في السادسة عشرة من سنه. وما ان توفّي عمه، وتسلّم ابن عمه ايليا (الثالث عشر) الكرسي البطريركي سنة ١٧٧٨، حتى أعلن يوحنا هرمزد انضمامه إلى الوحدة مع رومة. ولقي يوحنا معارضة شديدة من ابن عمه البطريرك ومن أوغسطين هندي الذي كان يريد فرض سيطرته على جميع الكلدان. وأدّى الأمر إلى تدخّل رومة التي منعت يوحنا هرمزد من ممارسة سلطته على أبرشية الموصل سنة ١٨١٨[٢٢]. إلاّ ان رومة

---

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣٩١-٣٩٤.

عادت عن قرارها وبرّأت ساحة يوحنا هرمزد. وفي ٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٠، أثبته البابا بيوس الثامن بطريركاً على الكلدان(٢٣). وكان أوغسطين هندي قد رسم أحد رهبان دير الربان هرمزد المناوئين ليوحنا هرمزد، وهو يوسف أودو، مطراناً على الموصل سنة ١٨٢٤. وحينما أيّدت رومة يوحنا هرمزد في البطريركية، منح البطريرك الجديد أبرشية العمادية ليوسف أودو. وتلافياً لمبدأ البطريركية الوراثية، حينما توفّي يوحنا هرمزد في سنة ١٨٣٨، عيّنت رومة خلفاً له نيقولاوس زيعا مطران سلماس، وهو أحد خريجي كلية انتشار الايمان، وأيّدته في ٢٧ نيسان (أبريل) سنة ١٨٤٠. إلاّ ان البطريرك الجديد لقي من الصعوبات والمقاومات ما دفعه إلى الاستقالة والاعتزال في أبرشيته القديمة سلماس حيث توفي سنة ١٨٥٥.

وفي فترة شغور الكرسي البطريركي من جرّاء استقالة نيقولاوس زيعا سنة ١٨٤٧، عيّنت رومة يوسف أودو مدبّراً بطريركياً. ثم اختاره السينودس الكلداني بطريركاً في نهاية سنة ١٨٤٧، وكان عهده طويلاً وحافلاً بالاعمال الجليلة وبالصعوبات والمشاكل أيضاً. وظهرت الصعوبات الأولى في قضية كلدان مليبار الذين طالبوا بإلحاقهم بالبطريركية البابلية وبتعيين رؤساء لهم من طقسهم. ودارت مفاوضات عسيرة أدّت إلى خلافات طويلة نحجم عن ذكرها لضيق المجال. وجاءت مبادرات جريئة من قبل البطريرك في شأن

البطريرك يوسف السادس أودو

رسامة أساقفة لا ترضى بهم رومة، مما زاد العلاقات توتّراً. وكاد البطريرك يرشق بالحرم من جرّاء تصرفاته وخاصة لموقفه من مقرّرات المجمع المسكوني الفاتيكاني الأول. وقد قام بعض المشاغبين بدور سيّئ في دفع البطريرك إلى التصلّب في موقفه. وعمّت الفوضى والانشقاق في صفوف المؤمنين، من مؤيّدين لرومة ومناوئين لها. إلاّ ان البطريرك أبدى أخيراً خضوعه الكامل لمقرّرات رومة في ١ آذار (مارس) سنة ١٨٧٧. وتراجع المناوئون الآخرون أيضاً عن مواقفهم السلبية شيئاً فشيئاً، وبطلت تلك الحركة التي كانت تهدّد كنيسة المشرق الكلدانية بانشقاق أليم.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٣٩٤-٣٩٩.

وتوفي البطريرك العظيم يوسف أودو في ١٤ آذار (مارس) سنة ١٨٧٨، بعد ان قام بأعمال جليلة ومشاريع كبيرة لخير الطائفة، منها إنشاء معهد كهنوتي بطريركي في الموصل سنة ١٨٦٦...

واجتمع المطارنة والأساقفة الكلدان وانتخبوا بطريركاً جديداً هو إيليا بطرس عبو اليونان، الذي كان مطراناً على الجزيرة. وأيّدته رومة سنة ١٨٧٩. وفي عهده، أنشأ الدومنيكيون في الموصل سنة ١٨٨٢ معهد مار يوحنا الحبيب الكهنوتي. وفي السنة ذاتها، استأنف المعهد الكهنوتي البطريركي نشاطه، بعد ان أُغلق سنة ١٨٧٣ لأسباب طارئة. وتوفي البطريرك عبو اليونان في ٢٧ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٤ بحمّى التيفوئيد وله من العمر ٥٤ سنة.

وفي ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٤، انتخب عبد يشوع الخامس خياط بطريركاً، ونال التأييد في ٢٨ آذار (مارس) ١٨٩٥، وهو مثل سلفه من تلامذة كلية انتشار الايمان، وكان ضليعاً باللغات والآداب السريانية، وقام بنشاط كبير في تنقيح وطبع الكثير من الكتب الطقسية في مطبعة الآباء الدومنيكيين في الموصل. إلاّ ان عهده كان قصير الأمد، إذ توفي في بغداد سنة ١٨٩٩.

وبعد موت البطريرك عبديشوع خياط، اجتمع السينودس الكلداني وانتخب يوسف عمانوئيل الثاني توما بطريركاً في ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٠، وأيده البابا لاون الثالث عشر في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٠. وكان البطريرك الجديد من تلامذة اليسوعيين في غزير (لبنان). وكان عهده الطويل زاخراً بالنشاطات والأعمال الجليلة. وفي عهده، دارت الحربان العالميتان الأولى والثانية. وقد شاهد البطريرك العظيم مآسي شعبه خلال الحرب الكونية الأولى حيث قتل أعداد غفيرة من المؤمنين وشرِّد غيرهم، وتلاشت أبرشيات عديدة في تركيا. وقد لقي المهاجرون القادمون إلى العراق كل عونٍ ومساعدة من أبيهم البطريرك الذي لم يتردّد حتى في بيع أثاث الكنائس والأواني المقدّسة في سبيل إطعام الجائعين والذود عنهم بجميع الوسائل. وكانت له مواقف وطنية مشهود لها. ولما جاءت الحرب العالمية الثانية، كان البطريرك قد بلغ من العمر عتياً ووهنت قواه. ومع ذلك فقد بذل كل ما بوسعه لمساعدة الناس وللحفاظ على كيان الطائفة التي كان لها خير ممثّل لدى سلطات البلاد والسلطات الأجنبية، إلى ان فاضت روحه في صيف سنة ١٩٤٧ في شيخوخة متقدّمة.

وفي السنة نفسها، خلفه البطريرك يوسف السابع غنيمة (١٩٤٧-١٩٥٨) الذي كان من تلامذة معهد مار يوحنا الحبيب في الموصل، وذا علم غزير وثقافة راقية، وله مواقف خطابية شهيرة. وكان مثل سلفه عضواً في مجلس الاعيان العراقي. وهو الذي نقل كرسي البطريركية من الموصل إلى بغداد ليكون على صلة أوثق بسلطات البلاد في سبيل التضامن معها في بناء الوطن. وقد توفّي قبيل قيام الثورة العراقية التي أطاحت في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ بالنظام الملكي وأعلنت النظام الجمهوري في العراق.

البطريرك بولس الثاني شيخو

وبالرغم من ظروف البلاد العسيرة، فقد اجتمع السينودس الكلداني في خريف عام ١٩٥٨ وانتخب البطريرك بولس الثاني شيخو الذي تمّ تنصيبه في كانون الأول (ديسمبر) من السنة ذاتها. وكان البطريرك الجديد راعياً هماماً، عرف احتياجات شعبه الروحية وبنى العديدَ من الكنائس خاصة في العاصمة بغداد التي توافد إليها أعداد كبيرة من المؤمنين الذين نزحوا من المناطق الشمالية من جرّاء ثورة الأكراد والاضطرابات الناجمة عنها. فاستقبلهم البطريرك ولبّى احتياجاتهم واهتمّ بتنظيم شؤونهم الدينية في مختلف الخورنات التي أنشأها في بغداد. وقد اشتهر البطريرك بقداسة سيرته وبتجرّده وعطفه على الفقراء والمعوزين، وافته المنية سنة ١٩٨٩.

وخلفه البطريرك، مار روفائيل الأول بيداويد سنة ١٩٨٩. وعكف البطريرك الجديد على تنظيم شؤون الكنيسة الكلدانية وإعطاء الكنيسة وجهاً جديداً. وطبّق فيها القوانين الكنسية. وعند كتابة هذه السطور، تجري استعدادات واسعة النطاق لعقد المؤتمر الكلداني العام الذي فيه تحاول الكنيسة إعادة النظر في بنيتها وتنظيماتها، في سبيل إصلاح شامل تدعو الحاجة إليه، على ضوء مقرّرات المجمع الفاتيكاني الثاني.

٢. المدارس في كنيسة المشرق

اشتهرت كنيسة المشرق بمدارسها العديدة المنتشرة في طول بلاد ما بين النهرين وعرضه. وإليك ما يقوله أحد المؤرّخين المسلمين المعاصرين في هذا الصدد[٢٤]: «كان للنصارى فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة درّسوا فيها العلوم الآرامية واليونانية. وقد ألحقوا بهذه المدارس مكتبات. وكان في أديارهم شيء كثير من الأسفار ومن الكتب المترجمة إلى الآداب النصرانية من مؤلّفات أرسطو وجالينس وسقراط. لأنهم كانوا محور الدائرة العلمية في ذلك العصر، ونقلة الثقافة اليونانية إلى الامبراطورية الفارسية، ثم إلى الخلافة العباسية». ويذكر توما المرجي[٢٥] ان باباي

(٢٤) أحمد أمين، **ضحى الاسلام**، ٢، مصر ١٩٣٨، ص ٥٩–٦٠.

(٢٥) توما المرجي، **كتاب الرؤساء**، ص ١٢٦–١٢٨.

الجيلتي الملفان أسّس نحو ستين مدرسة في منطقتي اربيل ومرج الموصل في القرن السابع، وزوّدها بجميع المستلزمات وبالأساتذة. ويضيق المجال لذكر جميع هذه المدارس، ونكتفي بالاشارة إلي المدارس الشهيرة التي لعبت دوراً فعّالاً في تثقيف الناس وتخريج العديد من العلماء الذين قاموا بدور قيادي في كنيسة المشرق.

- **مدرسة نصيبين**: أسّسها يعقوب أسقف نصيبين بعيد سنة ٣٢٥، وأدارها القديس افرام الملفان (٣٧٣†) إلى سنة ٣٦٣. فأُغلقت على اثر استيلاء الفرس على هذه المدينة. ثم استأنفت المدرسة نشاطها في منتصف القرن الخامس، وواصلت مسيرتها خلال قرون طويلة. وكانت تحتلّ المرتبة الأولى في الشهرة والكفاءة بين مدارس كنيسة المشرق، وتدرّس فيها جميع العلوم المعروفة آنذاك. وازدهرت خاصة في منتصف القرن السادس حتى قيل ان عدد طلاّبها أربى على الألف.
- **مدرسة الرها**: أسّسها القدّيس افرام الملفان سنة ٣٦٣ للمسيحيين النازحين من نصيبين خاصة، لذا سمّيت مدرسة الفرس. واستمرّ نشاطها طوال قرن وربع القرن، وتخرّج فيها علماء كبار، إلى ان أُغلقت سنة ٤٨٩، اثر الخلافات التي تسرّبت إليها بسبب الجدالات العقائدية الدائرة آنذاك. وقد اشتهر بين أساتذتها الملفان نرساي.
- **مدرسة المدائن**: أسّسها مار آبا الكبير (٥٤٠-٥٥٢) في النصف الأول من القرن السادس، واستمرّت زماناً طويلاً إلى ان أصابها الذبول لدى انتقال الكرسي البطريركي إلى بغداد في نحو سنة ٧٨٠.
- **مدرسة جنديسابور**: وضع نواتها شابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩)، إذ دعا الطبيب اليوناني تيودوسيوس إلى جنديسابور وعهد إليه في تدريس الطب وترجمة الكتب اليونانية. وأصبحت المدرسة مركزاً هاماً للعلوم بعد ان التجأ إليها عدد من الأطباء والفلاسفة اليونان الذين اضطهدهم الروم واستقبلهم كسرى الأول أنوشروان (٥٣١-٥٧٩)، وشاد لهم مستشفى ومدرسة للطب تهافت إليها الطلاّب من البلاد كلها. واشتهرت هذه المدرسة في عهد الخلفاء العبّاسين الأوائل وتعاقب على إدارتها آل بختيشوع الذين زوّدوا الدولة العبّاسية بخيرة أطبائها.
- **مدرسة دير قنّي**: تُنسب إلى مار ماري الذي بشّر المنطقة في نهاية القرن الأول. وكانت زماناً تُعتبر أكبر مدرسة أو كلية لاهوتية في منطقة بغداد. وتخرّج فيها أعظم مشاهير علماء المسيحيين، وكان أشراف بغداد يرسلون إليها أولادهم. ومن الذين اشتهروا بين تلامذتها ومدرّسيها أبو بشر متى بن يونس (٩٤٠†)، العالم المنطقي الذائع الصيت، الذي عليه قرأ الفيلسوف الكبير الفارابي. وهناك من ينسب إنشاء هذه المدرسة إلى مار عبدا في نهاية القرن الرابع الميلادي.

... ومن المدارس الشهيرة أيضاً مدرسة الدير الأعلى في الموصل التي أُطلق عليها لقب أم الفضائل، ومدرسة ايثالاها بالقرب من دهوك...

وبالإضافة إلى هذه المدارس، كان كل دير يضمّ مدرسة يتردّد إليها الطلاّب من المنطقة نفسها أو من المناطق البعيدة، بحسب شهرة المدرسة(٢٦).

وكان لكنيسة المشرق مدارس خاصة واصلت مسيرتها في مختلف العهود الأخيرة التي حكمت بلاد ما بين النهرين. وكانت هذه المدارس تتبع مناهج الدولة، وتهتمّ بتعليم اللغة السريانية والدين المسيحي. إلاّ انها أُمّمت في السبعينيات من هذا القرن... أما معهد شمعون الصفا الكهنوتي فقد استمرّ على تثقيف الاكليرس في الموصل أولاً، ثم نقل إلى بغداد إلى منطقة الدورة (ميكانيك). وفي هذه السنوات الأخيرة، جرت محاولة تهدف إلى جعله كلية لاهوتية للعلوم الكنسية (كلية بابل). وما تزال الجهود تبذل في سبيل الحصول على موافقة السلطات الرسمية. ويتلقّى الآن العلم في كلية بابل الكنسية تلامذة المعهد الكهنوتي مع فرقة صغيرة من أبناء الطائفة الأثورية الشقيقة وعدد صغير من العلمانيين الذين يتهيّأون للدرجات المقدّسة أو للرسالة في الخورنات. كما ان كنيسة المشرق ترسل بين فترة وأخرى بعضاً من أبنائها التلاميذ أو الكهنة للتخصّص في جامعات الغرب، وخاصة في رومة.

... أما ما تبقّى من الاديار العديدة المنتشرة في ما بين النهرين، فينحصر الآن في مؤسسة رهبانية رجالية واحدة هي تلك التي أنشأها الربان هرمزد في الدير المعروف باسمه الواقع بالقرب من القوش شمالي العراق. وهذه الرهبانية تواصل مسيرتها منذ القرن السابع، بالرغم مما أصابها من النوائب خلال مسيرتها الطويلة عبر الاجيال. ولقد اضطرّ رهبانها مرات كثيرة إلى ترك ديرهم تحت ضغوط الاضطرابات والاضطهادات، ثم العودة إليه بعد مرور العاصفة. إلاّ ان الحياة الرهبانية كانت بأمسّ الحاجة إلى إصلاح يعيدها إلى أصالتها الروحية الحقيقية. وقد تمّ هذا الاصلاح عن يد الانبا جبرائيل دنبو المارديني الذي أقبل إلى البلاد وتولّى إدارة الدير سنة ١٨٠٨، واستطاع، رغم الظروف العسرة، إن ينعش الرهبانية الكلدانية ويعيد تنظيمها وان ينال تثبيت قوانينها في رومة. ولكنه استشهد سنة ١٨٣٢ مع ثلاثة من رهبانه خلال موجة عنف هبّت من الجبال الشمالية، واستمرّت الرهبانية وازداد عدد المنضمّين إليها، حتى اضطرّوا إلى إنشاء دير آخر في سهل القوش أطلق عليه اسم «دير السيدة حافظة الزروع». وقد أصبح هذا الدير وما يزال مركز رئاسة الرهبانية الكلدانية. وفي سنة ١٨٦٢، اعتبر دير مار كوركيس القريب من الموصل ديراً قانونياً للرهبانية الكلدانية الأنطونية الهرمزدية. وفي سنة ١٩٦٩، شيّد دير آخر للكلدان في منطقة الدورة في بغداد، ويضمّ المبتدئين والمسؤولين عن تنشئتهم وتثقيفهم. وللرهبانية أيضاً دار في رومة لاستقبال الرهبان الذين يقصدون رومة لفرض الدرس والتخصّص... وهناك ثلاثة أديرة أخرى في منطقة الموصل قد أُعيد ترميمها على دفعات متتالية، وهي: دير مار ميخائيل رفيق

(٢٦) راجع رفائيل بابو اسحق، مدارس العراق قبل الاسلام، بغداد ١٩٥٥.

الملائكة ودير مار إيليا الحيري أو دير سعيد القريبان من الموصل، ودير مار إبراهيم القريب من بلدة باطناي، إلاّ ان هذه الأديرة الثلاثة خالية من الرهبان.

وللكلدان أيضاً رهبانيتان للنساء، هما: جمعية بنات مريم المحبول بها بلا دنس (راهبات الكلدان)، وقد أُسّست سنة ١٩٣٣ ومركزها في بغداد، وتعمل راهباتها في حقلي التعليم والخدمة، وجمعية القلب الأقدس التي أُسّست سنة ١٩١٥ في أرادن التابعة لأبرشية العمادية، وانتقلت إلى الموصل اثر الظروف الأخيرة التي حلّت بالمنطقة الشمالية. ولكلتا هاتين الجمعيتين فروع في أماكن عديدة من البلاد، ولبنات مريم الكلدانيات فروع أيضاً خارج البلاد، في رومة وفي الولايات المتحدة الأميركية.

٣. طقوس كنيسة المشرق

ان اللغة المستعملة في الصلوات والطقوس في كنيسة المشرق هي اللغة السريانية الشرقية (الكلدانية). وكانت هذه اللغة هي المستعملة طقسياً حتى عند القبائل العربية المنضمة إلى هذه الكنيسة، مثل المناذرة وغيرهم، في حين ان اللغة المتداولة عندهم كانت العربية. وفي هذه السنوات الأخيرة، وعلى ضوء مقرّرات المجمع الفاتيكاني الثاني الداعي إلى استخدام اللغات التي يفهمها الشعب المسيحي، في سبيل تسهيل مشاركته في هذه الطقوس، جرت محاولات عديدة لترجمة القدّاس ورتب وصلوات أخرى إلى اللغة العربية أو إلى اللغة السريانية الدارجة (السورث). إلاّ ان الطقوس فقدت الكثير من رونقها وروعتها في هذه الترجمات التي ما زالت غير وافية.

دأبت كنيسة المشرق، منذ نشأتها، على تنظيم شؤونها الدينية والطقوس التي كانت تعبّر بها عن شواعرها وعن وحدة إيمانها. وكانت السريانية الفصحى اللغة المستعملة للصلاة والتداول اليومي. وجاءت كتابات الآباء السريان الأوائل ووفّرت مادة روحية عميقة وغزيرة للمؤمنين. وقامت كنيسة «كوخي» الأم بدور فعّال في إيلاء هذه الصلوات صيغة شاملة. ثم جاءت تنظيمات أخرى خلال القرون الستة الأولى، وقدّمت للاكليرس والمؤمنين رتباً دينية تغذّي حياتهم الروحية. وكان لمدرسة الدير الأعلى في الموصل اليد الطولى في هذه التنظيمات الطقسية. إلاّ ان العمل الكبير في هذا الشأن قام به البطريرك ايشوعياب الحديابي (٦٥٩†) في القرن السابع، بمساعدة عنانيشوع وغيره من علماء عصره. وأسفرت جهودهم المشتركة عن نتائج كبيرة وطقوس رائعة تشمل السنة كلها. وأصبح هذا التنظيم أساساً لكتاب الفرض الذي يستعمله الكلدان والنساطرة حتى الآن، وهو المسمّى «الحوذرة»، أي مدار السنة الليترجية. وقد رتّب ايشوعياب هذه الصلوات على نظام السابوعات التي تسير بحسب حياة المخلّص وأعماله (مدبرانوثا). أما هذه السابوعات فهي: ١) سوبارا (البشارة) ويمتدّ على أربعة أسابيع قبل الميلاد ويضاف إليها أسبوع بعد الميلاد، ٢) دنحا (الدنح) وهو سبعة أسابيع أو أكثر تلي عيد العماد وتمتدّ حتى الصوم الكبير، ٣) صوما (الصوم) وهو سبعة أسابيع بضمنها أسبوع

الآلام، ٤) قيامتا (القيامة) وهو سبعة أسابيع مع الأحد الذي يلي الصعود، ٥) شليحي (الرسل) وهو سبعة أسابيع ابتداءً من العنصرة، ٦) قيطا (القيظ) وهو سبعة أسابيع وتدور الصلوات فيه حول كرازة الرسل وتوبة البشر، ٧) إيليا والصليب وهما سابوع متداخل ويتكوّن من سبعة أسابيع، ٨) موشي (موسى) وهو أسبوع أو أكثر، ويشير إلى مجيء المسيح المفاجئ، ٩) قوداش عيتا (تقديس البيعة) وهو أربعة أسابيع بها تنتهي الدورة الطقسية وتشير إلى ان المسيح في نهاية العالم يدخل الكنيسة عروسه إلى ملكوته ويكلّل الصالحين في السماء... وقد أجريت إصلاحات على هذا النظام عبر الاجيال، أهمّها في عهد البطريرك يوسف الثاني آل معروف (+١٧١٢) الذي استحدث أعياداً وتذكارات ونقّح بعض الصلوات. وأخيراً طبعت هذه الصلوات الطقسية في ثلاثة مجلّدات بهمّة الأب بولس بيجان في نهاية القرن التاسع عشر، ثم أعيد تصويرها وطبعها في رومة سنة ١٩٣٨. ويجري الآن إعادة طبعها في رومة أيضاً.

ولكنيسة المشرق ثلاث ليترجيات للقداس: ١) ليترجية القدّيسين أدّي وماري رسولي المشرق وتسمّى القدّاس الأول أو قدّاس الرسل، وتستعمل للأيام البسيطة كلها وللآحاد والأعياد الواقعة بين أحد الشعانين وأحد البشارة، وهي أقدم الليترجيات الشرقية، ٢) ليترجية تيودورس المصيصي المترجمة من اليونانية، وتسمّى «القدّاس الثاني» وتستعمل للآحاد والأعياد الواقعة بين أحد البشارة وأحد الشعانين، ٣) ليترجية نسطور المترجمة من اليونانية أيضاً، وتسمّى «القدّاس الثالث»، وهي أطول الليترجيات الثلاث، وتستعمل خمس مرات في السنة: في عيد الدنح (عماد الرب)، وعيد مار يوحنا المعمدان، وتذكار الآباء اليونان، واليوم الثالث من صوم نينوى (باعوثا)، وخميس الفصح. وتجدر الاشارة إلى ان هذه الليترجيات قد نقّحت مرات عديدة وحذفت منها ألفاظ أو تعابير لا تلائم معتقد كنيسة المشرق الكلدانية.

٤. الكنيسة الكلدانية اليوم

يطلعنا التاريخ على مدى انتشار كنيسة المشرق في عصورها الذهبية. فكانت عشرات الابرشيات قد أنشئت في البلاد، وأخرى انتشرت في البلدان الشرقية المجاورة والنائية. فكانت كل من الأبرشيات الكلدانية على الوجه التالي: ١) الأبرشية البطريركية، وعلى رأسها غبطة البطريرك وسيادة معاونه؛ ٢) البصرة؛ ٣) أربيل؛ ٤) كركوك؛ ٥) الموصل؛ ٦) زاخو؛ ٧) العمادية؛ ٨) القوش؛ ٩) العقرة؛ ١٠) طهران؛ ١١) أورميا؛ ١٢) الأهواز؛ ١٣) اسطنبول (ديار بكر سابقاً)؛ ١٤) حلب والجزيرة؛ ١٥) مصر؛ ١٦) لبنان؛ ١٧) الولايات المتحدة الأميركية.

أما النيابات البطريركية فهي: السليمانية، القدس، أوستراليا، السويد، فرنسا، رومة، كندا.

ومجموع المطارنة والأساقفة الكلدان هم اليوم: ١٥، بالاضافة إلى غبطة البطريرك.

ويبلغ عدد الكلدان الكلي في العالم نحو ثلاثة ملايين، منهم نحو مليونين ونصف المليون

في الهند (مليار) وهم يخضعون لسلطة رومة المباشرة. أما الكلدان الذين يخضعون لبطريركية بابل الكلدانية التي مركزها بغداد فهم الآن نحو ٦٠٠ ألف نسمة، منهم أكثر من ٤٠٠ ألف في العراق، وأغلبهم يسكنون بغداد، وقد نزح العديد منهم إليها من المناطق الشمالية اثر الاضطرابات التي حدثت فيها. أما الباقون فيتوزّعون على المدن والقرى العراقية الأخرى. وللكلدان جاليات عديدة خارج القطر العراقي، في البلدان العربية المجاورة وفي البلدان الأوروبية وأميركا وكندا وأوستراليا وغيرها. لقد بدأت هجرتهم إلى تلك البلدان منذ سنين طويلة، واشتدّت حركة الهجرة في هذه السنوات الأخيرة، حيث نزحت أعداد كبيرة منهم من بلاد ما بين النهرين وتوجّهت إلى بلدان أوروبا وأميركا. وغادر معظم كلدان تركيا بلادهم ولجأوا خاصة إلى فرنسا وبلجيكا والسويد والمانيا وغيرها من البلدان. وأكبر جاليات الكلدان توجد الآن في الولايات المتحدة الأميركية، إذ بلغ عددها أكثر من ٧٠ ألف نسمة.

ويقوم نحو ١٢٠ كاهناً بخدمة جميع هؤلاء المؤمنين في العراق وفي الخارج.

أما النشاطات في الكنيسة الكلدانية فمتعدّدة ومختلفة، منها تهدف إلى تثقيف الاكليرس في المعهد الكهنوتي، وغيرها إلى تثقيف المؤمنين بشتى الوسائل كالدورات اللاهوتية والندوات والاخويات لمختلف الاعمار والدروس الدينية في المدارس الرسمية أو في الخورنات. ولهم مجلة تصدر في بغداد باسم «بين النهرين» تنشر مقالات تراثية رصينة، ومجلات وصحف أخرى في مختلف البلدان، ونشرات محلية على نطاق الابرشيات أو الخورنات. وقد توفّق بعض كهنتها ومؤمنيها إلى نشر نتاجاتهم الفكرية، التراثية منها والأدبية. ومعظم كهنة الطائفة الآن من ذوي ثقافة جيدة، ومنهم من ذوي الاختصاص في مختلف الحقول العلمية، الفلسفية واللاهوتية والقانونية والتاريخية وغيرها. وما تزال الممارسة الدينية لدى المؤمنين على مستوى جيد، والوعي الروحي في ازدياد مستمر لدى الشباب خاصة...

٥. الكنيسة الشرقية القديمة (النسطورية)

منذ منتصف القرن السادس عشر، حيث انضمّت فئة من كنيسة المشرق إلى الوحدة مع رومة بزعامة البطريرك يوحنا سولاقا، ظلّت الفئة الأخرى تتأرجح بين الاقدام على الوحدة والاحجام عنها، بحسب الضغوط التي كانت تتلقّاها من الظروف ومن الفئات المتشدّدة في الكنيسة ذاتها. وقد وجدت هذه الفئة نفسها منعزلة في الجبال الشمالية تعاني من تعسّف الأكراد والاتراك خلال قرون طويلة، في حين ان الوحدة انتشرت انتشاراً واسعاً خاصة في سهل الموصل وفي وادي دجلة وعلى ضفاف بحيرة أورميا في إيران. ومن المفارقات الغريبة ان خلفاء سولاقا عادوا إلى مذهبهم القديم وانزووا في منطقة «تياري»، في حين انضمّ خلفاء منافسه التسطوري إلى الوحدة، تحت تأثير المرسلين في دياربكر والموصل. وكان من الصعب على الفئة المعتصمة بالجبال أن تتخلّى عن وحدتها القومية وان تسمح للتمزّق في

صفوفها، بالنظر إلى كونها محاطة بأقوام يتربّصون الفرص للقضاء عليها. وقد تجلّى ذلك من خلال المجازر التي ارتكبتها جيوش بدرخان في السنوات ١٨٤٣/١٨٤٧. وكان بطاركة قوجانس مع شعوبهم يعانون من العزلة ويعتبرون الوحدة مع رومة ضرورة تتيح لهم الحفاظ على حياتهم وكيانهم. وإذا بالبطريرك شمعون السابع عشر يقول للمحيطين به في نزاعه الأخير سنة ١٨٦١: «إذا اضطررتم للحفاظ على أمتنا إلى تغيير مذهبكم، فاتّحدوا مع الكاثوليك ولا مع البروتستانت». وقد تذكّر خلفه البطريرك شمعون الثامن عشر هذه النصيحة سنة ١٨٩١، فالتمس من الدومنيكيين في الموصل ان يتوسّطوا له لدى الحبر الأعظم للحصول على مدارس ومساعدات مادية وحماية من قنصل فرنسا، أسوة ببقية الجماعات المسيحية. إلاّ ان البطريرك تخلّف عن اللقاء في العمادية بالبطريرك الكلداني إيليا عبو اليونان سنة ١٨٩٢، خوفاً من المعارضة التي ثارت ضد هذه المبادرة في طائفته نفسها.

لكن التحرّك في اتجاه الوحدة استمرّ عند ابنَي أخي البطريرك: إبراهيم أسقف حكاري وأخيه نمرود. وكانت هذه الحركة من القوة بحيث نرى ان البابا لاون الثالث عشر يعيّن بطريرك الكلدان عمانوئيل الثاني توما وكيلاً عنه في بتّ شؤون العائدين إلى الوحدة الذين كان عددهم يربو على ٤٠ ألف نسمة. ولم يكن من السهل إيجاد أشخاص من المرسلين أو غيرهم ممن لهم الكفاءة لرعاية هذه الاعداد الغفيرة من المؤمنين وتثقيفها... وفي تلك الغضون، توفي البطريرك شمعون الثامن عشر سنة ١٩٠٣، في حين كان ابنا أخيه إبراهيم ونمرود يعقدان مفاوضات بشأن الوحدة في الموصل. وانتهز الحزب المناوئ للوحدة هذه الفرصة، وعيّن، عوض إبراهيم الوريث الشرعي، واحداً من أبناء عمّه، وهو بنيامين الذي أصبح شمعون التاسع عشر وهو في التاسعة عشرة من سنه. وكان للأموال البريطانية والضغوط الروسية دور كبير في إيقاف عجلة الوحدة. لكن همة المرسَلين لم تفترْ، بل فتحوا لهم مراكز كثيرة، انطلاقاً من مركزهم الرئيسي في قرية مار ياقو القريبة من دهوك، في «أشيثا» قلب المنطقة النسطورية. وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى، تحزّب البطريرك شمعون التاسع عشر لروسيا، وقضى على نمرود وعلى عدد من أفراد أسرته، وقرّر إجلاء رعاياه إلى البلاد الفارسية، وبذلك عرّض العديد من قراه للسلب والنهب من قبل العشائر الكردية. وبعد مجازر سنة ١٩١٥، اجتاز الباقون من المسيحيين إلى أذربيجان تحت حماية الروس. وفي سنة ١٩١٧ انسحب الروس تاركين المسيحيين تحت رحمة أعدائهم. وتمكّن قسم منهم من اللجوء إلى روسيا، في حين ذهب القسم الأكبر إلى منطقة ما بين النهرين المحتلّة من الإنكليز. فوصل نحو ٦٠ ألفاً منهم إلى بعقوبة ووُضعوا في مخيم أُقيم لهم هناك. وقد اغتيل البطريرك شمعون التاسع عشر في البلاد الفارسية، فأقاموا خلفاً له أخاه بولس وعمره ٢٤ سنة، واتّخذ لنفسه اسم شمعون العشرين. وجاء هذا إلى الموصل في الوقت الذي كانت فيه معاهدة سيكس — بيكو في طريقها إلى التنفيذ، وأظهر ميله إلى الانضمام إلى الوحدة. وحينما نُفّذت المعاهدة

المذكورة وشملت منطقة الموصل، أُقصي البطريرك عن المدينة، ومات بعيد ذلك في مخيّم بعقوبة بداء السل سنة ١٩٢٠.

وخلفه ايشاي باسم شمعون الحادي والعشرين، وهو صبي في الثالثة عشرة من سنه. وأرسل إلى انكلترا للدراسة، وبقيت إدارة الشؤون الكنسية في أيدي والده وخاصة عمته سورما خانم أخت البطريركين بنيامين وبولس. ولدى عودة البطريرك الشاب إلى الموصل سنة ١٩٢٧، اعترفت به الحكومة العراقية رئيساً للنساطرة الباقين في العراق والموجودين في روسيا والهند.

ومنذ القرن التاسع عشر، دخلت المناطق التي يسكنها النساطرة إرساليات بروتستانتية قادمة من انكلترا وأميركا. وكان لها تأثير كبير في المؤمنين الذين كانوا غالباً ما يعانون من الفقر والجهل، بالاضافة إلى كونهم معرّضين لمضايقات جيرانهم الأكراد والاتراك. وقد انضمّ عدد من أفراد هذه الكنيسة إلى مذاهب هؤلاء المرسلين، مما خلق المزيد من الفوضى والارتباك في هذه الكنيسة. وعجزت سياسة البطريرك الضعيفة عن توحيد كلمة رعاياه، بل خلق ميله إلى الانكليكان معارضة قوية في صفوف اكليرسه، فانضمّ عدد منهم إلى طيموتاوس أسقف ملبار، والتفّ آخرون حول القس يوسف الذي أنشأ في الموصل مدرسة معارضة للمدرسة التي أقامها فيها البطريرك وسلّمها إلى إدارة المرسلين البروتستانت.

وفي سنة ١٩٣٣، ظهرت في صفوف الأشوريين انتفاضة تهدف إلى إقامة نوع من الحكم الذاتي. وحاولت قواتهم المسلّحة الانضمام إلى اخوتهم في سورية التي كانت إذ ذاك تحت الانتداب الفرنسي. وكان لمصالح الدول الكبرى دورها في إحباط هذه الانتفاضة التي جنّد لها العراق كل طاقاته للقضاء عليها. وبعد معارك ضارية دارت بين الثوار والحكومة العراقية، استطاع الجيش العراقي القضاء على الثورة، فقتل أعداداً كبيرة من مسلّحيها، ثم لاحق فلولهم في الجبال والقرى، حيث لقي الكثير من النساء والاطفال حتفهم، ودمّرت قراهم وأُحرقت محاصيلهم... واثر هذه الثورة، أُبعد البطريرك شمعون الحادي والعشرون إيشاي إلى قبرص أولاً، ثم إلى لندن حيث مكث مدة طويلة. وفي سنة ١٩٤٢، بينما كانت الحرب العالمية الثانية على أشدّها، غادر لندن إلى الولايات المتحدة الأميركية، واستقرّ في ولاية سان فرانسسكو إلى ان اغتيل سنة ١٩٧٥، لأسباب دينية وقبلية.

ولم تمرّ السنوات الأخيرة من حياة البطريرك شمعون إيشاي بغير صعوبات. فقد ظهرت أزمة جديدة في الطائفة سنة ١٩٦٤، اثر القرار الذي اتّخذه البطريرك في التخلّي عن التقويم اليولياني القديم وتبنّي التقويم الفريغوري، تمشّياً مع معظم الكنائس في العالم، وفي تقليص الصلوات الطقسية وتخفيف الاصوام التقليدية الكثيرة والصارمة. فقاومته فئة من كنيسته، واستقدمت المطران توما درمو من الهند إلى بغداد. وبعد ان رسم ثلاثة أساقفة، اجتمع معهم في بغداد سنة ١٩٦٨، واختاروه بطريركاً للمعارضين، وقرّروا عزل البطريرك شمعون إيشاي. إلاّ ان

هذا استمرَّ على رأس كنيسته، وقد زار العراق سنة ١٩٧١، واستعاد جنسيته العراقية. وحينما صمَّم على الزواج سنة ١٩٧٤، أثار بذلك استياءً عميقاً بين صفوف شعبه أدَّى إلى اغتياله سنة ١٩٧٥. وقد وضع موته حداً للبطريركية الوراثية في الكنيسة الشرقية الأشورية، بعد ان استمرَّ فيها هذا القانون الجائر طوال قرون عديدة.

وفي سنة ١٩٧٦، تمَّ انتخاب أسقف طهران بطريركاً باسم مار دنخا الرابع، خلفاً للبطريرك الراحل، على رأس «الكنيسة الشرقية الأشورية». وكانت الفئة المعارضة التي أطلقت على نفسها اسم «الكنيسة الشرقية القديمة» قد اختارت أيضاً، بعد موت توما درمو، مار ادي الثاني بطريركاً لها سنة ١٩٧١. وما يزال البطريركان يتقاسمان السلطة على الكنيسة الشرقية النسطورية.

ويتخذ مار دنخا الرابع شيكاغو في الولايات المتحدة الأميركية مقراً مؤقتاً له. أما مقرّه الرسمي ففي بغداد. ولكنيسته الآن عشر أبرشيات، منها في العراق وأخرى في سورية وإيران ولبنان وأوروبا وكندا وأستراليا والهند، وأبرشيتان في الولايات المتحدة الأميركية. وعدد أساقفتها ثمانية، بالإضافة إلى البطريرك. ويبلغ عدد كهنتها نحو ٦٧ كاهناً في مختلف الاقطار. أما عدد المؤمنين المنتمين إلى هذه الكنيسة فلا يتجاوز ٤٠٠ ألف نسمة(٢٧). ولهذه الكنيسة نشاطات كثيرة. فقد افتتحت مدرسة لتثقيف الكهنة في بغداد، ولها مطبعة كاملة ومتطوّرة لطبع الكتب الدينية والطقسية وغيرها، ومكتبة عامرة تضمُّ مطبوعات كثيرة ونحو ١٥٠ مخطوطة. كما ان لها جمعيات خيرية ولجاناً للشباب، وتقوم بمختلف النشاطات التثقيفية للمؤمنين، بالاضافة إلى مجلة «صوت من الشرق» التي تصدر في شيكاغو الأميركية. واستطاع مار دنخا الرابع مع عدد من أساقفته القيام بزيارة لمؤمنيه في روسيا وتفقّد أحوالهم وتنظيم شؤونهم. وبهذه المناسبة طلب من أبنائه في روسيا ان يرسلوا بعضاً من شبابهم لكي يتلقّوا العلوم الدينية الكنسية في الدير الكهنوتي في بغداد. ولهذه الكنيسة علاقات أخوية مع الكنيسة الكلدانية، لالتزامهما بالطقوس والأعياد والعادات المشتركة.

أما «الكنيسة الشرقية القديمة» التي يرأسها البطريرك مار ادي الثاني كيوركيس منذ سنة ١٩٧١، الذي مقرّه الرسمي في بغداد، فلها ست أبرشيات: الأبرشية البطريركية وأبرشيات التأميم والموصل والحسكة السورية والولايات المتحدة الأميركية وأبرشية ملبار التي لها مطران وأسقف. وتجدر الاشارة إلى ان أغلبية النساطرة في ملبار هم من أتبع هذه الكنيسة، وهناك عدد منهم في أوستراليا ونيوزيلندة وغيرهما من البلدان الشرقية والغربية. ومع ذلك فان عدد المؤمنين المنتمين إلى هذه الكنيسة لا يتجاوز ٢٠٠ ألف نسمة، وعدد كهنتها

---

(٢٧) لقد استقيت هذه المعلومات من فرعي هذه الكنيسة، وخاصة من القس ايشو القس عوديشو الذي أشكر لطفه. ومن الظاهر ان في هذه المعلومات شيئاً من المبالغة.

يبلغ ٤٢ كاهناً(٢٨)، ولها نشاطات خاصة في الهند حيث يقوم المطران والاسقف الهنديان بتثقيف الكهنة لهذه الطائفة ويديران مطبعة ويصدران مجلة هناك أيضاً.

خاتمة

لقد ألقينا نظرة سريعة على تاريخ كنيسة المشرق الطويل، واستعرضنا نشأتها وانتشارها، وسلّطنا الاضواء على ميزاتها، وواكبنا تطوّرها عبر الاجيال، وتألّمنا لما اعتور مسيرتها الطويلة من المآسي والمحن، وابتهجنا ليقظتها ونشاطها في العصور الحديثة. فلا يسعنا، في نهاية هذا المقال، إلاّ ان نهيب بأبناء هذه الكنيسة، مهما اختلفت وتباينت نزعاتهم الدينية أو القومية، ان يتذكّروا أمجاد آبائهم القدامى ويحاولوا توحيد صفوفهم وتوجيه جهودهم ليجعلوا كنيستهم على مستوى مسؤوليتها الجسيمة للقيام برسالتها في عالم اليوم، فتكون شاهدة أصيلة للقيم السميا والثقافة العالية والاخلاق الرصينة، لكي يرى جميع الناس أعمالهم الصالحة ومحبتهم الأخوية وتعاونهم البنّاء، فيمجّدوا أباهم السماوي.

(٢٨) بحسب المعلومات التي وردتني من مقرّ بطريركية هذه الكنيسة، وفيها أيضاً شيء من المبالغة، إذ قد لا يتعدّى عدد المنتمين إليها ٥٠ ألف نسمة.

ملحق

بقلم الأب جان موريس فييه الدومينيكاني*

* مؤرّخ وباحث في التراث السرياني.

كنيسة السريان الملبار

هذه الكنيسة موجودة في جنوب الهند وترقى إلى الرسول القدّيس توما. إلاّ أنّ التقليد المحلّي يقول بأنه حوالى سنة ٣٤٥ افتقر «مسيحيّو مار توما» إلى رجال دين، فاتّصلوا بجثليق المشرق فأرسل إليهم توما قنايه التاجر يرافقه ٧٢ أسرة، وأربعة كهنة، وشمامسة، ومطران هو يوسف الرهاوي. إلاّ أنّ في التاريخ المذكور نظراً، إذ كان آنذاك اضطهاد شابور الثاني قائماً على قدم وساق.

وهنالك تقليد آخر يقول بأنه تمّ، حوالى التاريخ عينه، انتقال شخص يُعرف بثاوفيل الهنديّ، من الجزيرة العربيّة إلى الهند. إلاّ أنه تجدر الملاحظة هنا أن كلمة «الهند» قد تعني، في تلك الحقبة، مناطق قريبة من بلاد العرب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى «الهند» التي بشّرها، بين ٣١٠ و٣٤١، المطران داود الفراثميشانيّ (= داود البصريّ). وبالنسبة إلى العلاقات بين كنيسة مار ماري والهند، فإنه لم يؤتَ على ذكرها قبل القرن السادس، إذ روى الرحّالة إنديكوبلوستيس أنه كان آنذاك في الملابار «أسقف رُسم في بلاد فارس»؛ وكان كرسيّه تابعاً لمطرانيّة تلك البلاد وظلّ لاحقاً بها حتى القرن الثامن، حيث أصبح بدوره كرسياً لمطرانيّة مستقلّة. وظلّت العلاقات بين ذلك الكرسي ومركز الجثليق مستمرّة على شيء من الانتظام حتى القرن السادس عشر. ولم يتمّ الانفصال إلاّ على يد البرتغاليين بعد ان حلّوا في الملابار سنة ١٤٩٨ واتّصلوا بالسريان الشرقيّين، فظلّ بعضهم نسطوريّاً وصار بعضهم الآخر كلدانيّاً كاثوليكيّاً. وفي عام ١٥٩٥، شكّ البابا اقليمنضس الثامن بصحة عقيدة المطران إبراهيم، فرأى انه لا يمكن تفويض رعاية مسيحيّي القدّيس توما إلاّ لمطران يعيّنه البابا، وأعطى في هذا الصدد كامل الصلاحيات لرئيس أساقفة غوا اللاتيني. وبعد سنوات معدودة، عام ١٥٩٩، التأم ديابير برئاسة المطران المذكور وثبّت الليتنة على سائر الأصعدة إنّ في السلوك والقوانين أو في الطقوس.

وقد سبق ورأينا كيف أن البطريرك يوسف أودو (١٨٤٨-١٨٧٨) حاول إعادة الصلة بين الهند والبطريركية. وقامت في إثر ذلك أزمة نتج عنها فئة جديدة ارتبطت بالأسقف ملّوس – الذي عيّنه أودو – ثم أعلنت هذه الفئة خضوعها للبطريرك النسطوري سنة ١٩٠٧، وما لبث أن انقسمت هي أيضاً على نفسها.

وفي سنة ١٨٩٥ جرت محاولة لربط كنيسة الملابار بالبطريركية الكلدانية، بيد أن رومة أوقفتها وقرّرت إلحاق مسيحيّي القدّيس توما بها مباشرة.

المراجع

- ابن العبري (غريغوريوس الملطي): **التاريخ الكنسي** (ج ٣) نشره أبيلوس ولامي مع ترجمته اللاتينية في لوفان ١٨٧٢-١٨٧٧؛ **التاريخ السرياني أو تاريخ الزمان**، نشره الأب بيجان في باريس ١٨٩٠، وترجمه إلى العربية إسحق أرملة، بيروت ١٩٩١؛ **تاريخ مختصر الدول**، نشره الأب أنطون صالحاني اليسوعي في بيروت، ط ١، ١٨٩٠.
- أبونا (الأب ألبير): **أدب اللغة الآرامية**، ط ١، بيروت ١٩٧٠؛ **تاريخ الكنيسة الشرقية**، ط ١، الموصل ١٩٧٣.
- ايشوعدناح البصري: **الديورة في مملكتي الفرس والعرب**، ترجمة القس بولس شيخو، الموصل ١٩٣٩.
- بابو إسحق (رفائيل): **تاريخ نصارى العراق**، بغداد ١٩٤٨؛ **مداوس العراق قبل الاسلام**، بغداد ١٩٥٥؛ **أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العبّاسية**، بغداد ١٩٦٠.
- بيجان (الأب بولس): **سير الشهداء والقدّيسين** (٦ ج) (بالكلدانية)، باريس ١٨٩٠-١٨٩٦.

التاريخ السعردي: نشره مع ترجمته ادي شير في سلسلة البترولوجية الشرقية في باريس ١٩٠٧-١٩١٨.
- تيسران (الكردينال أوجين): **الكنيسة الكلدانية**، ترجمة القس سليمان صائغ، الموصل ١٩٣٩.
- جميل (الانبا شموئيل): **علاقات الكرسي الرسولي مع الكنيسة الكلدانية**، رومة ١٩٠٢.
- السمعاني (يوسف سمعان): **المكتبة الشرقية** (٣ ج)، رومة ١٧١٩-١٧٢٨.
- الشابشتي (أبو الحسن): **كتاب الديارات**، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، بغدا ١٩٦٦.
- شير (المطران ادي): **تاريخ كلدو وأثور** (٢ ج)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١٢-١٩١٣؛ **شهداء المشرق** (٢ ج)، الموصل ١٩٠٠ و١٩٠٦.
- صائغ (القس سليمان): **تاريخ الموصل** (٣ج) ط ١، مصر ١٩٢٣، ط ٢، بيروت ١٩٢٨، ط ٣، جونيه ١٩٥٦.
- صليبا (بن يوحنان الموصلي): **أخبار فطاركة المشرق**، تحقيق جيسموندي، رومة ١٨٩٦.
- الصوباوي (عبد يشوع): **فهرس المؤلفين**، ترجمة الأب يوسف حبي، بغداد ١٩٨٦.

- الطريحي (محمد سعيد): **الديارات والأمكنة النصرانية في الكوفة وضواحيها**، بيروت ١٩٨١.
- العمري (ابن فضل الله): **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، تحقيق أحمد زكي بشا، القاهرة ١٩٢٤.
- غنيمة (يوسف رزق الله): **الحيرة، المدينة والمملكة العربية**، بغداد ١٩٣٦.
- قنواتي (الأب جورج شحاته): **المسيحية والحضارة العربية**، ٢٧، بغداد ١٩٨٤.
- ماري (بن سليمان): **أخبار فطاركة كرسي المشرق (المجدل)**، تحقيق جيسموندي، رومة ١٨٩٩.
- **المجامع الشرقية** (سينوديكون): نشر شابو نصه وترجمته الفرنسية، باريس ١٩٠٢.
- المرجي (توما): **كتاب الرؤساء**، ترجمة الأب ألبير أبونا، الموصل ١٩٦٦.
- ميخائيل السرياني: **التاريخ** (٤ ج) نشره شابو مع ترجمته الفرنسية، باريس ١٨٩٩-١٩١٠.
- نصري (الأب بطرس): **كتاب ذخيرة الاذهان** (٢ ج)، الموصل ١٩٠٥ و١٩١٣ (غير كامل)
- ياقوت الحموي: معجم البلدان (٥ ج)، بيروت ١٩٥٥- ١٩٥٧.
- بالإضافة إلى مراجع أخرى كثيرة، منها بالعربية والسريانية وغيرها باللغات الأجنبية . . .

الكنيسة اللاتينيّة*

البطريركية اللاتينيّة الأورشليميّة

بقلم أحد كهنة البطريركيّة

(*) هذا العرض الموجز لتاريخ البطريركية اللاتينية الأورشليمية، ولا سيّما الفصول المتعلّقة بحراسة الأراضي المقدّسة والبطريركية اللاتينية، اقتبس من كتاب **المسيحية المعاصرة في الأردن وفلسطين** للأب د. حنا كلداني، من كهنة البطريركية اللاتينية، الباب الثاني، من الصفحة ١٣٥ إلى ٢٨٢. ومنه جميع الاقتباسات الواردة في النص بين مزدوجين. نشر الأب كلداني كتابه هذا في عمان - الأردن، عام ١٩٩٣.

مقدّمة

كنيسة القدس

هي الكنيسة الوارد ذكرها في سفر أعمال الرسل. هي كنيسة الجماعات المسيحية الأولى المتصلّة مباشرةً بالرسل ويسوع المسيح نفسه. ففي القدس بدأ كل شيء. وفيها ولد كل مسيحي وكل كنيسة. وكنيسة يسوع واحدة، ولو أنها كانت اليوم مع الأسف منقسمة. ولهذا فإن هذه البداية هي بداية جميع الكنائس أيضاً. وصلاة يسوع ما زالت تدعو الجميع إلى الوحدة: «يا أبت القدّوس، إحفظهم باسمك الذي وهبته لي، ليكونوا واحداً كما نحن واحد» (يوحنا ١٧/١١).

نجد اليوم في القدس عدّة كنائس ترقى كلها إلى العصور القديمة. ومن طبيعة كنيسة القدس أن تكون في الوقت نفسه كنيسة محليّة وكنيسة جامعة أو في خدمة الكنيسة الجامعة، لأن جميع الكنائس، على غرار جميع المسيحيين، وُلدت روحيًّا في القدس. ومن ثم، فإذا ما دوّنت اليوم أية كنيسة في القدس تاريخها، وجب أن تعي هذا البعد الشمولي والعام الذي تحمله في صميم كيانها. وإذا كان التاريخ الماضي مثقلا بالنزاعات وبنظرية «الحقوق المكتسبة» وعقليتها، وجب أن يكون التاريخ الحاضر محرّراً من هذا العبء القديم، ليتسنّى لجميع الكنائس ان تُعدّ مستقبلاً واحداً لكنيسة يسوع المسيح، ولجميع أبنائها في الأرض التي قدّسها بتعاليمه وآلامه وقيامته. فمن قال اليوم انه ينتمي إلى كنيسة القدس، يجب ان ينمّي في نفسه إحساساً بجميع إخوته المسيحيين الذين جاوروه في المكان والزمان، بالخصومات تارة وبالأخوّة تارة أخرى، ولكنهم رفعوا دائماً مثله التسبيح للرب يسوع المسيح نفسه القائم من بين الأموات، بعد أن تألّم ومات، ليخلّص كنيسة القدس وجميع كنائس العالم، بل العالم كله.

ولهذا، فإذا أردنا ن نقدّم في هذا الكتيّب تاريخ كنيستنا الأورشليمية اللاتينية على حدة، فإننا نعتبر في الوقت نفسه ان تاريخ كل كنيسة في القدس هو تاريخنا أيضاً. وكل حضارة مرت عبر القرون بأرضنا المقدّسة هي حضارة كل ابن للأرض المقدّسة.

القسم الأول

منذ النشأة وحتى القرن التاسع عشر

الفصل الأول

النشأة والعصور الأولى

تكوَّنت كنيسة القدس الأولى، وهي الكنيسة الأم لجميع الكنائس، من الرسل أنفسهم ومِمَّن كان معهم من المؤمنين. فبعد صعود يسوع المسيح، ورد في سفر أعمال الرسل: «رجعوا إلى أورشليم من الجبل الذي يُقال له جبل الزيتون، وهو قريب من أورشليم على مسيرة سبت منها. ولمّا وصلوا إليها، صعدوا إلى العليّة التي كانوا يقيمون فيها. وهم بطرس ويوحنا، ويعقوب واندراوس، وفيلبس وتوما، وبرتلماوس ومتى، ويعقوب ابن حلفى وسمعان الغيور، فيهوذا بن يعقوب. وكانوا يواظبون جميعاً على الصلاة بقلب واحد، مع بعض النسوة، ومريم أم يسوع، ومع إخوته» (رسل ١/١٢-١٤).

وبعد العنصرة أخذ يتكاثر عدد المؤمنين ببشارة الخلاص. ويصف سفر أعمال الرسل هذه الجماعة المسيحية الأولى بهذا الكلام:

«وكانوا يواظبون على تعليم الرسل وكسر الخبز والصلوات... وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة، يجعلون كل شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم، يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، يسبّحون الله وينالون حظوة عند الشعب كله. وكان الرب كل يوم يضمُّ إلى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص» (رسل ٢/٤٢-٤٧).

وكان هؤلاء المؤمنون الأولون من اليهود الذين آمنوا بيسوع المسيح. وكانوا يجمعون بين تمسكهم بشريعة موسى وإيمانهم بيسوع المسيح. فيؤدّون الصلاة في الهيكل مثل سائر الشعب، ويلتزمون بالختان وبسائر فرائض الشريعة الموسوية. ولهذا نرى أنَّ السلطات الرومانية في هذه الفترة، إذا ما بلغتها مخاصمات بين المتنصّرين من اليهود وسائر مواطنيهم، اعتبرتها خلافات يهودية داخلية، لا شأن لها فيها. هذا

كان، على سبيل المثال، موقف الوالي الروماني غاليون في آخائية، حين اشتكى اليهود على بولس. فقد قال لهم الوالي الروماني: «لو كانت المسألة مسألة جرم أو جناية قبيحة، لاستمعت إليكم كما يقضي الحق. ولكن، لما كان الجدل في الألفاظ والأسماء وفي شريعتكم، فانظروا أنتم في ذلك، لأنني لا أريد أن أكون قاضياً في هذه الأمور» (رسل ١٨/١٤-١٧).

تعرَّض المؤمنون في هذه الكنيسة الأولى إلى المقاومة من قبل مواطنيهم اليهود، كما تعرضوا أيضاً للضربات الخارجية. ففي سنة ٧٠، لما دمَّر الرومان أسوار القدس، لجأوا إلى مدينة (Pella)، أي طبقة فحل في شرق الأردن. وفي عام ١٣٥، عاد الإمبراطور الروماني هدريانس ودمَّر القدس، وقضى على كل وجود يهودي فيها، حتى انه بدَّل اسمها باسم روماني جديد. وأصبحت تُعرف باسم إيلياء (Aelia Capitolina)، ومنع إقامة اليهود فيها. ومع ذلك، فإننا نجد في الفترة نفسها جماعة من اليهود المتنصِّرين يقيمون في جبل صهيون خارج أسوار المدينة.

وأُطلق على تلك الجماعة اسم النصارى نسبةً إلى يسوع الناصري. وكان أول أسقف لهم الرسول يعقوب الصغير المعروف بأخي الرب والذي استشهد عام ٦٢ في القدس. ثم خلفه سمعان ابن عمه واستشهد هو أيضاً في عهد نيرون عام ١٠٧. واستمرَّت هذه الجماعات اليهودية المسيحية حتى القرن الرابع. ثم تبدَّدت، إمّا في الفِرَق والبِدَع، وإمّا في زخم الكنيسة القادمة من الأمم، والتي انطلقت بعد دمار القدس عام ١٣٥.

الكنيسة القادمة من الأمم

كان الرسل يتوجَّهون في بشارتهم إلى اليهود أولاً، فإذا ما رفض اليهود البشارة توجَّهوا إلى الوثنيين. ونجد بطرس الرسول يتوجه منذ البداية إلى الوثنيين. وأول من بشَّره هو القائد الروماني قرنيليوس مع جميع أهل بيته (راجع رسل، الفصل ١٠). وبعد دمار القدس عام ١٣٥، كان أسقف القدس يحمل اسماً لاتينياً وهو مرقس، أول أسقف للكنيسة القادمة من الوثنيين. وخلفه على الكرسي الأورشليمي ١٢ أسقفاً يحملون اسماً لاتينياً مثله.

ومن بين المتنصِّرين من الرومان، نجد في القرن الثاني الفيلسوف والقديس الشهيد يسطينس. وهو روماني من مدينة نابلس (Flavia Neapolis). وهو الذي وجَّه كتابه في الدفاع عن الديانة المسيحية إلى الإمبراطور أنطونينس (١٣٨-١٦١)، ثم إلى خلفه مرقس أوريليوس (١٦١-١٨٠).

وقد مرَّت هذه الكنيسة الناشئة بفترة اضطهاد عنيفة من قبل السلطات الرومانية. ودامت الاضطهادات حتى عهد الإمبراطور قسطنطين الذي تنصَّر في عام ٣١٣، والذي جعل من الديانة المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية.

ونعمت كنيسة القدس بالسلام منذ القرن الرابع. وشيِّدت في هذه الفترة والدة الإمبراطور قسطنطين، وهي القديسة هيلانة، عدداً من الكنائس، أشهرها كنيسة القيامة وكنيسة المهد. وشهدت كنيسة القدس في الفترة نفسها حركة ازدهار في الحج وفي

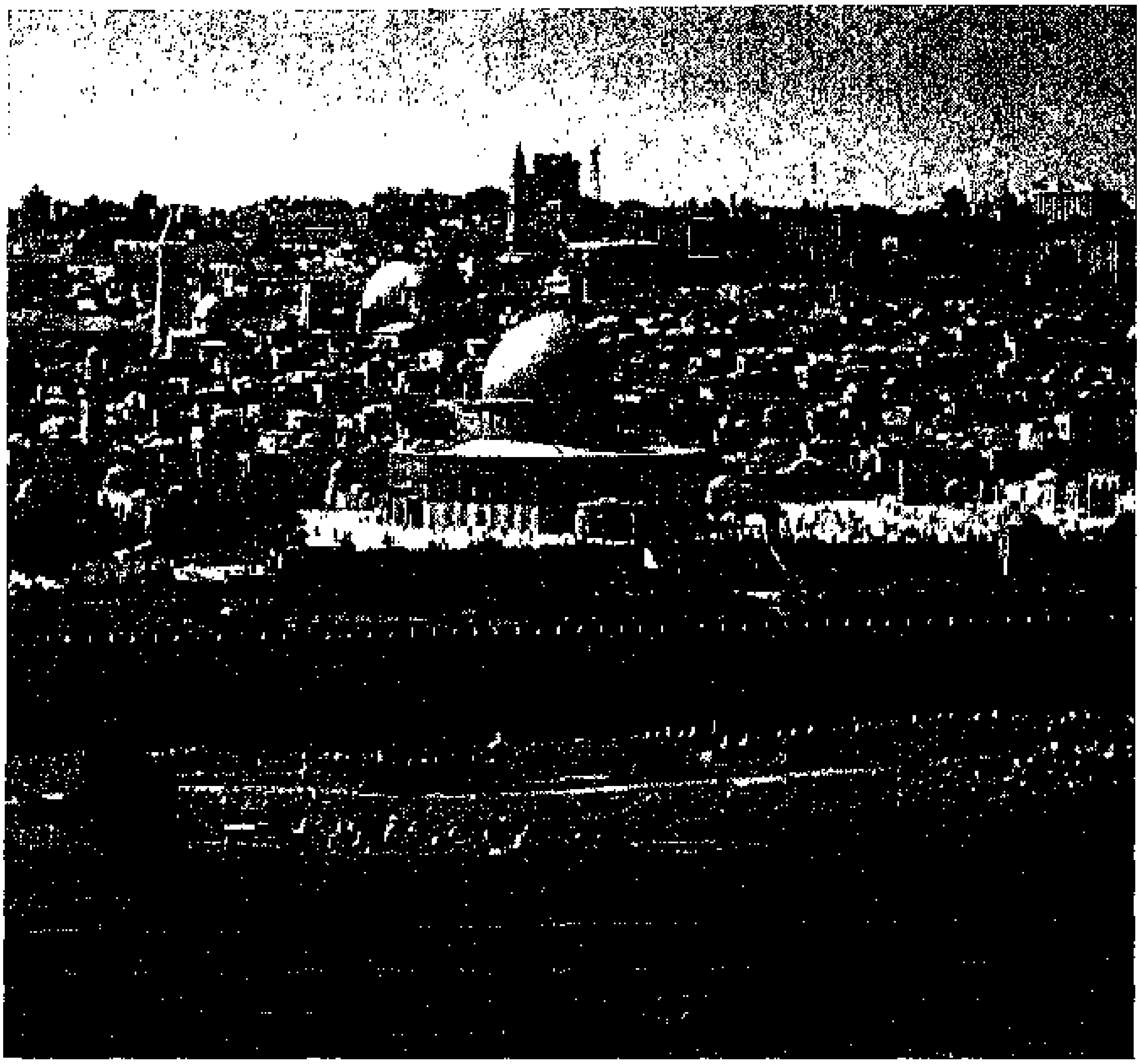

مدينة القدس

النسك والحياة الرهبانية. فامتلأت صحراء غزة والصحراء الشرقية حول بيت لحم والقدس وغيرها من المناطق بالنساك والرهبان. وما زال بعض الأديرة قائماً حتى اليوم، مثل دير مار سابا ومار ثيودوسيوس شرق بيت لحم، ومار جاورجيوس في وادي القلت في شرق القدس. ومن بين تلك الأديرة أديرة لاتينية أيضاً على جبل الطور مع الراهب روفينس والقديسة ميلانيا، وفي بيت لحم مع القديس هيرونيمس.

وكانت كنيسة القدس تابعة منذ نشأتها لكنيسة قيصرية. ومنذ عام ٤٥١، رُقِّيت إلى «كنيسة بطريركية» بفضل جهود البطريرك يوفنالس (٤٢٢–٤٥٨) في مجمع أفسس. وبلغ عدد الكراسي الأسقفية في هذه الفترة في فلسطين ٤٥ وفي شرق الأردن ٣٠.

ولم تطل فترة الازدهار. فجاءت ثورة السمرة عام ٥٢٩ فدمَّرت وذبحت. وفي عام ٦١٤، اكتسح الفرس بلاد فلسطين ودمَّروا الكنائس في القدس ومنها كنيسة القيامة، واقتادوا البطريرك زخريا إلى الأسر. ثم كانت

نقطة التحوّل في تاريخ البلاد بمجيء الفتح الإسلامي عام ٦٣٨. وكان فتحاً مستقراً خلق أوضاعاً جديدة ما زالت باقية حتى اليوم.

الخلاصة

ان هوية كنيسة القدس الأولى هي هوية الجماعة المذكورة في سفر أعمال الرسل، وهي جماعة اليهود النصارى. وقد حاولت هذه الجماعة ان تبقى في بداية الأمر متّحدة بالديانة اليهودية، ولكنها انفصلت عنها فيما بعد، وأصبح لها معابدها وأماكن صلاتها. واضطرت إلى إقامة صلواتها في الخفاء خوفاً من الاضطهاد، ولهذا لجأت إلى استخدام الرموز في شعائرها الدينية. وزال أثر هذه الكنيسة الأولى في القرن الرابع تقريباً.

وخلفت هذه الكنيسة كنيسةَ ثانية تكوّنت من العناصر المختلفة من أهل البلاد ومن الفاتحين من الرومان. ومن المعروف ان الحكم الروماني تأثّر إلى حدّ بعيد بالثقافة اليونانية. وكانت الإمبراطورية واحدة. ولذلك فلمّا جاء العرب، عرفوا المسيحيين في الشرق جميعاً باسم واحد ونسبوهم إلى رومة، فأطلقوا عليهم اسم الروم. وتمّ الانفصال بين شطري الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع، وكانت العاصمة غرباً رومة وشرقاً بيزنطية أو القسطنطينية، وبرزت مع هذا الانقسام العصبيتان الرومانية واليونانية على الصعيدين السياسي والديني معاً.

وأما لغة الشعب الغالبة فكانت الآرامية، أي السريانية، وهي اللغة التي نطق بها السيد المسيح. ثم جانبتها اللغة اليونانية وهي لغة الثقافة والحضارة. وأما الإدارة الرومانية فقد استعملت لغتها اللاتينية في الشؤون الإدارية. ولمّا جاء العرب في القرن السابع، أخذت اللغة العربية تتقدّم شيئاً فشيئاً حتى عمّت. وانحسرت القوميات المختلفة بلغاتها في إطار الانتماءات الكنسية والعلوم اللاهوتية والطقوس الليترجية.

الفصل الثاني

الأحداث التاريخية حتى نهاية عهد الصليبيين

تابعت الكنيسة نموّها في عهد الخلافة الأموية ثم العباسية. وكانت الكنيسة المحلية قد ابتُليت بالانقسامات إثر المجامع المسكونية الأولى التي عُقدت في القرنين الرابع والخامس. فتكوّنت الكنائس المتواجدة حتى اليوم في القدس وفلسطين وسائر المشرق. وظلّت الشركة الكنسية قائمة بين كنيستي القسطنطينية ورومة حتى القرن الحادي عشر حيث وقع الانشقاق الكبير بين هاتين الكنيستين. وفي القرن نفسه أيضاً شهدت فلسطين والمنطقة انقلاباً سياسياً بتولّي الفاطميين الحكم في مصر. وقد امتدّت ولايتهم على فلسطين أيضا. وفي هذا القرن وقعت الحروب الصليبية، ردّاً على هدم كنيسة القيامة عن يد الخليفة الفاطمي الحاكم وإغلاق سبل الحج في وجه الحُجّاج المسيحيين.

فتح الصليبيون القدس عام ١٠٩٩. وكان البطريرك سمعان قد غادرها إلى قبرص،

ورافقته إلى الجزيرة علية أفراد الإكليرس. ولمّا وجد الصليبيون الكرسي الأورشليمي شاغراً، عيّنوا عليه بطريركاً منهم. وأعادوا التنظيم الكنسي، فأقاموا رؤساء الأساقفة والأساقفة ومجلساً بطريركيًا مكوّناً من الكهنة الملقّبين بـ«قانونيّي» القبر المقدّس: «Chanoines du Saint-Sépulcre».

ولمّا احتلّ صلاح الدين الأيّوبي القدس عام ١١٨٧، انتقل البطاركة اللاتين إلى عكا واستقرّوا فيها حتى عام ١٢٩١، وهي السنة التي فتح فيها المماليك هذه المدينة. ثم أقام البطاركة اللاتين بعد ذلك في الغرب حتى عام ١٨٤٨ حيث عادوا إلى المدينة المقدّسة بقرار من البابا بيوس التاسع.

وقبل عودة البطاركة اللاتين إلى القدس، كان الرهبان الفرنسسكان قد أمّنوا حضوراً متواصلاً للكنيسة الكاثوليكية في الأراضي المقدّسة، منذ حجّة مؤسسهم القديس فرنسيس الأسيزي ومن صحبه من الرهبان.

زار القديس فرنسيس الأسيزي الشرق، وقابل الملك الكامل في مصر. وجاء في الرواية الفرنسسكانية أنّ فرنسيس زار الأماكن المقدّسة واستملك بعضها، كمغارة بيت لحم والجلجلة وجبل صهيون وكنيسة الناصرة، واستبقى بعض رهبانه فيها. ويُعدّ الراهب ايليا دا كورتونا (Elia da Cortona) أول رئيس للمقاطعة الرهبانية الفرنسسكانية في الشرق عام ١٢١٩.

وفي عام ١٢٢٩، عقد الامبراطور فريديريك والملك الكامل اتفاقية وهدنة لمدة عشر سنوات، أعاد الملك الكامل بموجبها إلى الصليبيين القدس وبيت لحم والناصرة. أمّا الأسباب التي حملت الطرفين على توقيع الهدنة، فهي حاجة الملك الكامل إلى عون خارجي لمواجهة أطماع أخيه المعظّم وحلفائه الخوارزميين. أمّا فريديريك، فقد تعرّض لضغط شديد من البابوية للقيام بحملة صليبية جديدة تُصلح الوضع الذي نجم عن إخفاق الحملة الخامسة. ولمّا ماطل فريديريك، هدّده البابا بالحرم الكنسي في أواخر أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧، فاضطرّ مكرهاً إلى التوجّه إلى الشرق ومعه خمسمائة فارس، لا ليحارب، بل ليفاوض الكامل. فالظروف التاريخية والصداقة القائمة بينهما دفعت هذين الملكين إلى التفاهم وتفادي الحرب التي كان الطرفان في غنى عنها. وحتى عام ١٢٢٨، لم يتقدّم الملك فريديريك إلى القدس وأقام في عكا، الأمر الذي دفع البابا غريغوريوس التاسع إلى حرمانه. ونقل صكّ الحرمان الرهبان الفرنسسكان إلى البطريرك اللاتيني في عكا، ممّا أثار حفيظة الملك على الرهبان وعاقبهم.

وفي فترة الهدنة بين ١٢٢٩–١٢٤٠، عاد البطريرك اللاتيني المقيم في عكا إلى القدس مع كهنته ورهبانه، ويعتقد أن الرهبان الفرنسسكان رافقوه في هذه العودة من غير أن تكون لهم صلاحيات معيّنة في إدارة شؤون البلاد الدينية أو في الأماكن المقدّسة، بل كان وجودهم عبارة عن حضور رهباني بإشراف بطريرك القدس، أسوةً بغيرهم من رجال الدين. وبانتهاء الهدنة عام ١٢٤٠، دخل المسلمون المدينة وأخلاها الصليبيون إلى عكا. وأما الرهبان الفرنسسكان فقد مكثوا في المدينة حبًّا للأماكن المقدّسة.

الرهبان الكرمليون في جبل الكرمل

ومن الرهبانيات اللاتينية القديمة في فلسطين، لا بدّ من ذكر رهبانية الكرمل. وهم نسّاك أقاموا في جبل الكرمل في حيفا منذ القرون البعيدة، ثم انتظموا في القرن الثاني عشر بموجب قانون رهباني وضعه لهم البطريرك ألبرتس، أحد بطاركة القدس المقيمين في عكا. وما زال هؤلاء الرهبان مقيمين في ديرهم في حيفا حتى اليوم. وبالإضافة إلى استقبال حجّاج الأرض المقدّسة، فإنهم رعوا شؤون الرعية اللاتينية في حيفا منذ العصور القديمة وما زالوا يرعونها حتى اليوم. ومن حيفا انتشروا في أنحاء العالم العربي وفي العالم كله. ومنهم اليوم عدد من المطارنة في مجلس الأساقفة اللاتين في البلدان العربية، فمنهم المطارنة اللاتين في لبنان والعراق والكويت.

الفصل الثالث

حراسة الأراضي المقدّسة

أقام الرهبان الفرنسسكان في القدس على فترات متقطّعة بين عام ١٢٤٠ وسقوط عكا عام ١٢٩١، والدليل على ذلك أنّ سجلاّت الرهبان تذكر بعض شهدائهم في تلك الحقبة من الزمن.

ولمّا أصبح، منذ ١٢٩١، منصب بطريرك القدس فخرياً يُمنَح لأحد الأساقفة المقيمين في الغرب، عهد الكرسي الرسولي إلى الرهبان الفرنسسكان في العناية بالأقلّية الباقية من اللاتين في فلسطين، بالإضافة إلى إشرافهم على الأماكن المقدّسة. فقد حرص البابا يوحنا الثاني والعشرون على استمرارية صلة الرهبان بالأراضي المقدّسة. وأوصى في التاسع من نيسان (أبريل) عام ١٣٢٨ بأن يبعث رئيس الفرنسسكان الإقليمي المقيم في قبرص اثنين من رهبانه سنوياً إلى فلسطين. وسمّي هذا الإقليم في تنظيمات الرهبانية حراسة الأراضي المقدّسة، وكان يشمل سورية ولبنان وفلسطين وقبرص.

وقد تبرّع ملك نابولي روجيه دي انجو (Roger d'Anjou) وزوجته الملكة دي ماجورك (Sanche de Majorque) بالمال اللازم لاقتناء الأماكن المقدّسة. وفاوض الملك الناصر، نيابة عن الملك روجيه دي انجو، الراهب روجيروس غاريني (Rogerus Garini). وصدرت في هذه المناسبة سنة ١٣٤٢ براءتان بابويتان: الأولى «Gratias Agimus» والثانية «Nuper Carissimae»، في تثبيت حقوق الكنيسة الكاثوليكية في الأماكن المقدّسة. ويعدّ الفرنسسكان هاتين البراءتين وثيقةً تأسيسيّةً لحراسة الأراضي المقدّسة.

وقد تمّ شراء بعض الأماكن المقدّسة من بيت مال المسلمين. ويحتفظ الرهبان بوثائق شراء هذه الأماكن في أرشيف حراسة الأراضي المقدّسة في دير المخلّص بالقدس. وقد حقّق جولوبوفيش هذه الوثائق ونشرها في كتابه: «Serie Cronologica Superiori di Terra Santa» على شكل ملحق بعنوان «Firmani e documenti arabi inediti». وعدد هذه الوثائق اثنتا عشرة وثيقة حُرِّرت سنة ١٣٠٩م-١٣٥٧م.

ويشهد مؤرّخون معاصرون لتلك الأحداث المذكورة آنفاً باستملاك الرهبان بعض الأماكن المقدّسة، ومنهم الرحّالة لودلفو دي سودهايم (Ludolfo di Sudheim) الذي زار فلسطين عام ١٣٣٦، وجاء في مذكّراته: «في هذا الدير (دير صهيون) يعيش الإخوة الحفاة (الإخوة الأصاغر). وفي زمن زيارتي للبلاد (١٣٣٦) قدّمت الملكة سانشا زوجة الملك روجيه كل ما يلزم للدير. وفي كل الأوقات، يقيم الرهبان القداس علناً وبتقوى فائقة، ويدفنون موتاهم دون دفع إتاوة للحكام. وهؤلاء الرهبان رجال أقوياء وقادرون، يحمدهم التجار والمسلمون على حد سواء لما يصنعون من خير».

وهكذا بانت تدريجاً ملامح نظام حراسة الأراضي المقدّسة. فحارس «Guardiano» دير جبل صهيون هو الرئيس الأعلى للفرنسسكان في فلسطين، وتابع للرئيس الإقليمي المقيم في قبرص. وفيما بعد، استقلّ حارس جبل صهيون عن الرئيس الإقليمي المقيم في قبرص، وارتبط برئيس الرهبانية العام. وثبت ذلك مجمع الرهبانية العام المنعقد في لوزان عام ١٤١٤. وفي عام ١٥٢٦ منح حارس جبل صهيون صلاحيات الرئيس الإقليمي. وتدريجا لم يعد يسمّى «Guardiano»، بل «Custode».

أما مجالات عمل الرهبان في القرن الخامس عشر والسادس عشر فهي إرشاد الحجاج واستقبالهم، والعمل على التقارب المسيحي بين الشرق والغرب. وقد بدت ثمرة هذا التقارب في مجمع فلورنسا (١٤٣١-١٤٤٣)، وفي تقديم الخدمات الروحية للتجار الأوروبيين وإقامة الصلاة لهم، وأخيراً حراسة الأماكن المقدّسة وصيانتها وإقامة الصلاة فيها باسم العالم الكاثوليكي كافة. وهذه هي رسالة الرهبان الروحية الكبرى والرئيسة.

وإلى جانب صلاحيات حارس الأراضي المقدّسة كمندوب بابوي ورئيس الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، فقد أُنيطت به بعض المهام والصلاحيات «شبه الأسقفية». وتوسّعت في فترة لاحقة رقعة حراسة الأراضي المقدّسة لتشمل سورية ومصر والحبشة وآسية الصغرى وأرمينيا واليونان. وأما اليوم (عام ١٩٩٥) فإنها تشمل فلسطين وإسرائيل والأردن وسورية ولبنان ومصر وقبرص وجزيرة رودس. ولها أديرة تابعة مباشرةً لها في أنحاء العالم في أوروبا والأميركتين.

تكوين حراسة الأراضي المقدّسة

تكوّنت حراسة الأماكن المقدّسة بعد الحروب الصليبية، في جو ساده العداء بين الشرق المسلم والغرب المسيحي. إلاّ أنّ الرهبان لم يدخلوا في منطق الحروب، بل في منطق كلمة الخير والسلام، وهو شعار مؤسسهم القديس فرنسيس وشعارهم حتى اليوم في الأرض المقدّسة: Pax et Bonum. - وقد مدّت إليهم الممالك المسيحية يد العون إذ ذاك فزوّدتهم بالمال اللازم للاقتناء والبناء وتأمين الخدمات الروحية والإنسانية. كما ساعدتهم أيضاً بالتوسّط لدى حكام فلسطين للحفاظ على حقوقهم ومكتسباتهم.

ان العصر الذي تشكّلت فيه حراسة الأراضي المقدّسة وغيرها من الكنائس لم يكن عصر الوحدة المسكونية المسيحية، ولم تسمح العقليات السائدة بإجراء أي تنسيق بين الطوائف والكنائس المسيحية في سبيل عمل مشترك، بل كانت العقليات تحمل إلى التنافر، مما جعل الدول تحكم في الخلافات بين الطوائف ولا سيّما في ما يتعلّق بالأماكن المقدّسة. وقد وقف العثمانيون، بعد ان احتلّوا فلسطين في أوائل القرن السادس عشر، حكماً بين اليهود والمسيحيين وبين الأرثوذكس والكاثوليك وبين الروم واللاتين. وكان المستفيد ماليًا من هذه النزاعات حول الأماكن المقدّسة السلاطين في الصفقات الكبيرة، ثم صغار الحكام والولاة في الصفقات الصغيرة المتكرّرة. فكانت حراسة الأراضي المقدّسة مضطرة إلى الالتجاء إلى الدول المسيحية الكبرى، خاصةً فرنسا، لتمويل هذه الصفقات وللتوسط لدى الباب العالي، لتأكيد حقوق الرهبان. ومن أهم الأسباب التي أدّت إلى اندلاع حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) قضية الأماكن المقدّسة واختلاف وجهات النظر حولها بين روسيا وفرنسا.

وقد امتدّت صلاحيات الحارس الروحية إلى سائر الكاثوليك المقيمين في فلسطين، ما عدا الروم الكاثوليك في الجليل، التابعين لأسقفية صور. وكان للحارس امتياز خاص برفع راية الحراسة فوق مبانيها ومراكزها. ومن ناحية التنظيم الداخلي فقد كان الحارس إيطاليًا ونائبه فرنسيا ووكيل المالية ونائبه إسبانيين. وتكوّن مجلس الحراسة من أربعة أعضاء من أربع جنسيات مختلفة، الإيطالية والإسبانية والفرنسية والألمانية. وقد تغيّر هذا النظام اليوم، فأصبح يشمل مختلف القوميات بما في ذلك العرب من أبناء الرهبانية والحراسة. ويقيم حارس الأراضي المقدّسة في دير المخلّص في القدس منذ عام ١٥٥٩، بعد أن أُجبروا على التخلّي عن جبل صهيون عام ١٥٥١، وقد اشتروا دير المخلّص من الرهبان الجاورجيين.

أمّا تنظيم الحراسة الخارجي فهو انعكاس لمهمة الرهبان في الأماكن المقدّسة، ولذا انقسموا إلى فئتين: الفئة الأولى تتولّى السهر على الأماكن المقدّسة وصيانتها وإقامة الشعائر الدينية فيها، والفئة الثانية تتألّف من الرهبان المهتمين بالشؤون الراعوية، وبالخدمات الاجتماعية والدينية المختلفة.

كان عدد الرهبان الفرنسسكان عام ١٨٧٩ نحو ٣٠٠ راهب، منهم مائة راهب يعملون في الشؤون الراعوية. وكانت أغلبية الرهبان تقيم في فلسطين، وقلّة منهم في مصر وسورية وأرمينيا. وتفيد إحصائية أخرى أن عدد الرهبان كان ٤١٤ راهباً عام ١٨٨٩، و٤٨٣ راهباً عام ١٨٩٨.

كان تجمّع الرهبان حول الأماكن المقدّسة الرئيسة: القدس وبيت لحم والناصرة، وحول هذه الأماكن نشأت الأديرة والمدارس والمياتم والمستوصفات والمراكز الحرفية. ولكل دير رئيس. ويعمل معه عدد من الرهبان يشكّلون معاً وحدة ديرية متكاملة منظّمة، تتبع الرئيس العام حامل لقب «حارس الأراضي المقدّسة»، وإقامته في دير المخلّص بالقدس. ومنذ قرون مضت وحتى منتصف القرن التاسع عشر،

عندما أُعيد تأسيس البطريركية اللاتينية والأسقفية الأنغليكانية، كانت أديرة الرهبان وخدماتها الاجتماعية هي المراكز الأكثر فاعلية في الأرض المقدّسة، وأحياناً الوحيدة في بعض الحقب التاريخية.

أديرة الرهبان الفرنسسكان

الأديرة هي بيوت الرهبان وقلاياتهم التي قامت حول الأماكن المقدّسة. ومنها مارس الرهبان حِراسةَ الأماكن المقدّسة وخدمته، وفيها استضيفَ الحجاج وفُتحت المدارس والمستوصفات. وأهم الأديرة في فلسطين:

آ) **دير جبل صهيون:** سكن الرهبان، بحسب رواياتهم التقليدية، دير جبل صهيون في عصر مار فرنسيس عام ١٢١٩. ولكن من المؤكّد تاريخياً أن الدير غدا ملكاً للرهبان بين عامي ١٣٣٣ و١٣٣٦. وأخلى الرهبان ديرهم على مرحلتين في عامي ١٥٢٣ و١٥٥١. وتشترك اليوم اليهودية والمسيحية والإسلام في ملكية جبل صهيون. فللمسيحيين دير للرهبان البندكتيين وآخر للفرنسسكان، ولليهود كنيس ومدرسة دينية. أما عليّة جبل صهيون فقد حوّلت إلى جامع تُمنَع الصلاة فيه على أتباع الديانات الثلاث، ويسمح بزيارته فقط. ويشعر الرهبان بالمرارة والأسى لفقدانهم عليّة صهيون وديرهم الأول: «إنّ الاحتجاج الوحيد على الظلم الذي ألمّ بنا في القرون الماضية هو الدموع والصلوات وتوسلات أبناء مار فرنسيس الفقراء، الذين لم ينقطعوا عن طرق باب العدالة البشرية والإلهية، كي يعاد إليهم يوماً ما كنزهم المقدّس، ألا وهو عليّة صهيون والدير».

ب) **دير المخلّص:** اشترى الرهبان الفرنسسكان دير المخلّص من الرهبان الجاورجيين عام ١٥٥٩. وهو أكبر أديرة الفرنسسكان وأهمها، وفيه يقيم الرئيس العام. وقد بُنيت الكنيسة الراعوية في حرمه بين عامي ١٨٨٢ و١٨٨٥. وفي الدير كذلك مدرسة وميتم ومطبعة وأرشيف تاريخي هام ومعامل حرفية ومكتبة.

ج) **دير القبر المقدّس (دير كنيسة القيامة):** ويقع هذا الدير في حرم كنيسة القيامة وسكنه الرهبان منذ عام ١٢٤٠.

د) **دير القدّيسة كاترينا:** يقع هذا الدير في بيت لحم بجوار كنيسة المهد، واستقرّ فيه الرهبان في القرن الثالث عشر.

هـ) **دير البشارة:** لا يُعرف بالتأكيد متى استقرّ الرهبان في الناصرة، ويؤكّد الرحّالة وجود الرهبان في دير الناصرة في نهاية القرن الرابع عشر. وكان على الرهبان هجر ديرهم عدة مرات. فقد أُجبر الرهبان على هجر ديرهم مجدّداً عام ١٥٤٨ وعهدوا لأحد المسيحيين الأتقياء، واسمه عيسى، بحراسة الدير وكنيسة البشارة وعهد إليه بالمفتاح، على أن يحافظ على قنديلين مضائين في معبد البشارة على نفقة حارس جبل صهيون. وفي عام ١٦٢٠، حصل رئيس الرهبان العام تومازو دا نافونا (Tomaso da Navona) من الأمير فخر الدين على إذن بإعادة ترميم الدير والكنيسة». وأُعيد بناء الكنيسة عام ١٧٣٠.

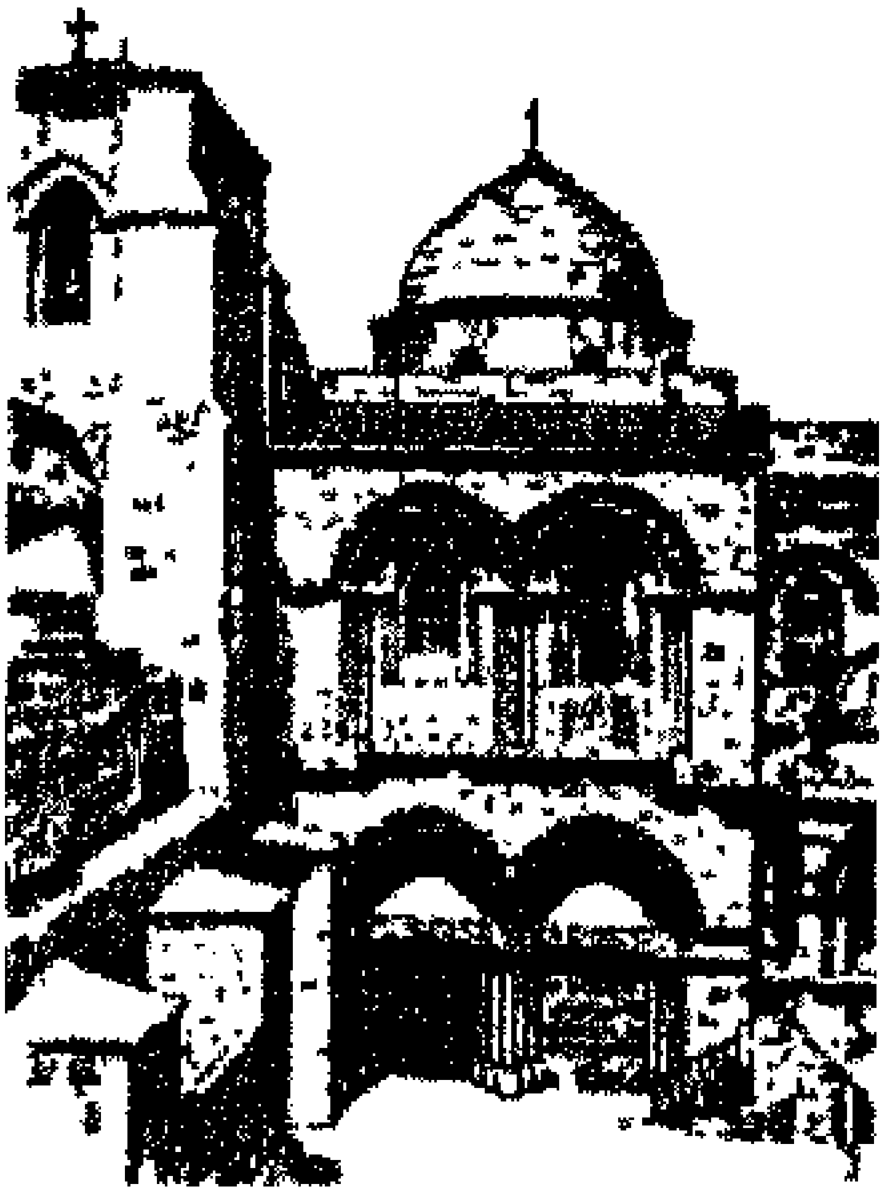

كنيسة القبر المقدس

وغير هذه الأديار الخمسة الشهيرة هناك اثنا عشر ديراً يماثل تاريخها تاريخ الأديرة الخمسة الكبرى، وقد استملك الرهبان بعضها في فترة متأخرة وهي: دير جلد المسيح في القدس، ودير القدّيس يوحنا في عين كارم، ودير زيارة القدّيسة مريم العذراء في عين كارم، ودير القدّيسة كلوبا في عمّاوس، ودير القدّيس نيقوديمس في الرملة، ودير القدّيس بطرس في يافا، ودير تجلّي يسوع المسيح على جبل طابور قرب الناصرة، ودير قانا الجليل، ودير القدّيس بطرس في طبريا، ودير كفرناحوم، ودير الوردية في حيفا، ودير القدّيس فرنسيس في عكا. وهناك العديد من المعابد والمزارات والأديرة يقيم فيها الرهبان الصلاة في مناسبات دينية خاصة ولا يسكنون فيها.

الرعايا التي خدمها الرهبان الفرنسسكان

ينقسم تاريخ حراسة الأراضي المقدّسة إلى أربعة عصور: العصر الأول، وهو العصر الصليبي، بين سنة ١٢١٩ حتى انتقال عكا إلى يد المماليك سنة ١٢٩١. والعصر الثاني، وهو العصر العربي، ويمتدّ من سقوط عكا في يد المماليك إلى سقوط القدس في يد الأتراك ١٢٩١-١٥١٦. والعصر الثالث، وهو العصر التركي، ويمتدّ من سقوط القدس في يد الأتراك إلى سقوطها في يد الانكليز في الحرب العالمية الأولى ١٥١٦-١٩١٧. والعصر الرابع وهو العصر الحديث، ويبدأ بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ وحتى يومنا هذا.

انحصر عمل الرهبان الفرنسسكان في العصر الأول في رعاية الحجاج وخدمة الصليبيين الدينية. وفي العصر الثاني، مثّل الفرنسسكان الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين. وفي العصر الثالث تعاظمت أهمية الحراسة، إذ منح الكرسي الرسولي حارس الأراضي المقدّسة مسؤولية رئيس الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، ومارس سلطات شبه أسقفية. وفي العصر الحديث تعاونت الحراسة مع البطريركية اللاتينية للاستمرار في حراسة الأماكن المقدّسة وفي أداء الخدمات الراعوية.

تكوّنت الرعايا في نهاية الحقبة الثانية وفي الحقبة الثالثة، بفضل جهود الرهبان الراعوية. يقول أحد مؤرّخي الرهبانية: «إن جميع اللاتين المحلّيين المقيمين حاليًا في بيت لحم والقدس وعين

كارم ويافا والرملة، وفي ثلاثين موقعاً آخر، موزّعة في سورية وقبرص وفلسطين ومصر، قد انضموا إلى الكثلكة هم أو أجدادهم عن يد الرهبان الفرنسسكان».

ويشرح مؤرّخ فرنسسكاني كيف تكوّنت الرعايا الفرنسسكانية. فيقول انه، في الفترة الواقعة بين مجمعي ليون ١٢٧٤ وفلورنسا ١٤٣٩، حصلت حركات عودة جماعية إلى الكثلكة في بعض الكنائس الشرقية. في هذه الفترة لم يمارس الرهبان أعمالاً راعوية لأن مثل هذه الأعمال كانت من مسؤولية الكهنة والأساقفة الشرقيين المتّحدين بروما. وبعد مجمع فلورنسا وإخفاق مساعي الوحدة، ظلت جماعات من المؤمنين على اتحادها بروما، ولم يكن لهذه الجماعات أساقفة وكهنة من طقسها الشرقي لرعايتها. فأخذ الفرنسسكان على عاتقهم هذا الأمر. وتذكر سجلاّت الرهبانية عدّة حالات انضمام إلى الكثلكة، جماعية وفردية، بين عامي ١٥٥٥ و١٦٢٢.

ويشير أحد السجلاّت إلى الجماعة النسطورية المقيمة في القدس واتحادها مع رومة بين عام ١٥٥٥ وعام ١٥٦٢. وتشير إحصاءات عام ١٨٦٨ إلي أنّ عدد الرعايا وصل إلى ٥٠٣٨ مؤمناً. وآخر الإحصاءات في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تشير إلى نمو سريع في رعايا الرهبان الفرنسسكان كما هو مدرج في الجدول التالي:

وقد أوصى مجمع الرهبانية العام سنة ١٦٣٣ بتعليم اللغة العربية وتاريخ الكنائس الشرقية في أربع من كلياتها في الغرب، وذلك

البلد	إحصائية عام ١٨٨٩	إحصائية عام ١٩٠٩
القدس	٢٠٢٠	٣٤٩١
بيت لحم	٣٥٦٤	٥١٧٢
عين كارم	١٧٧	—
الرملة	٧٥	١١٥
يافا	٦٢١	١٠٠٠
الناصرة	١٢٠٦	١٢٧٩
قانا الجليل	١٢٦	٦٩
طبريا	١٨	١٣٠
عكا	١٣٢	١٠
مجيدل	—	٤٨
المجموع	**٧٩٣٩**	**١١٣٣٥**

لكي يتمكّن الرهبان من القيام برسالتهم في أراضي الحراسة. وفي القرن السابع عشر، افتتحت الحراسة مثل هذه الكليات في بيت لحم وحلب ودمشق والرملة وحريصا.

الخدمات الاجتماعية

منح نظام الملة الكنيسة صلاحيات مدنية واسعة على رعاياها. إلاّ أن هذا النظام فرض عليها في الوقت نفسه تأمين الخدمات التي لا تقدّمها الدولة. ولذلك نرى حراسة الأراضي المقدّسة تهتمّ بتأمين السكن لرعاياها، وفي بعض الأحيان دفعت الضرائب عنهم. وبحسب سجلاّت الرهبانية، بلغت هذه النفقات في هذين المجالين، عام ١٨٥٧، مبلغ ٥٧ ألف فرنك. وفي عام ١٨٩٠، بلغ عدد البيوت المؤجّرة ٣٨٨ بيتاً تسكنها أربعمئة عائلة وعائلتان، عدد أعضائها ١٩٣٠ فرداً.

المدارس

وقد أنشأت الحراسة أيضاً المدارس. وتعود هذه المدارس إلى القرن السادس عشر. ويرد ذكر أول مدرسة أنشأها الآباء الفرنسسكان في بيت لحم في مذكّرات الرحّالة يوهنس كوتفيك (Iohannes Cotwyck) الذي حجّ إلى القدس عام ١٥٨٩. ويقول في مذكّراته انه وجد «مدرسة للأطفال في بيت لحم في دير الرهبان الأصاغر، وهي مدرسة موجودة من قبل. ويتبع مسيحيو بيت لحم الطقس اليوناني وأقلية منهم يتبعون الطقس اللاتيني. ولكنهم جميعاً يتقنون اللغة الإيطالية التي يسمونها لغة الإفرنج ويتعلّمونها وهم صغار. ويقوم كبارهم بدور التراجمة للرهبان الأصاغر والحجاج الغربيين، ولهذا يهتمون بتعليم أبنائهم اللغة الإيطالية عن يد الرهبان ليشرفوا على أشغال الدير. وهم بحسب شهادة الرهبان يقومون بهذين العملين حتى الآن، أعني درس اللغة وأشغال الدير بنشاط وأمانة».

وفي القرن السابع عشر، أنفقت حراسة الأراضي المقدّسة على عشرين مدرسة، كما جاء في تقرير حارس الأراضي المقدّسة فرانشيسكو دي سان فلورو (Francesco da San Floro) عام ١٦٩٩. وقامت هذه المدارس حول الأديرة ومجموع طلاّبها ١٨٨ طالباً، وكان نصيب فلسطين ست مدارس، والبقية في سورية وقبرص ومصر وإسطنبول. «فقد جرت العادة على فتح مدرسة في كل دير على أمل أن تكون هذه المدارس – عاجلاً أم آجلاً – مصدر خير وعلم».

نعمت حراسة الأراضي المقدّسة منذ منتصف القرن التاسع عشر بفترة ازدهار وسلام، فشرعت بترميم أديرتها ومدارسها وتحسين مستوى التعليم، وتحويل المدارس من مدارس خاصة إلى عامة، وفتحها لكافة فئات المواطنين. وحتى عام ١٨٤١ اقتصرت المدارس على الذكور. فافتتحت أول مدرسة للإناث في القدس ثم في الناصرة وبيت لحم. وعيّن رئيس الرهبنة الفرنسسكانية العام مفتّشاً عاماً لتنظيم المدارس وتنميتها.

وفي عام ١٨٤٦ أوصى البابا بيوس التاسع: «بالمحافظة على وجود المدارس المتوفّرة في حراسة الأراضي المقدّسة بكل الوسائل

المتاحة، وبتزويد كل رعية كبيرة بمدرسة للبنين وأخرى للبنات». وجرى في القرن التاسع عشر تعاون مثمر بين الحراسة والبطريركية اللاتينية في مجال التربية والتعليم، فعهد عام ١٨٤٨ إلى راهبات مار يوسف بالإشراف على مدارس البنات في القدس ويافا وبيت لحم. ورحّب الآباء الفرنسيسكان بإخوة المدارس المسيحية (رهبان دي لا سال)، وعدّوا مدرستهم مدرسة راعوية لأبناء طائفة القدس، وساهموا في نفقات المدرسة. وتوافدت الرهبانيات اللاتينية إلى الأرض المقدّسة في القرن التاسع عشر وبلغ عدد المدارس في عام ١٨٩٥–١٨٩٦ أربعاً وخمسين مدرسة في كافة أنحاء الحراسة، منها ٣٦ للذكور و١٨ للإناث، ومجموع طلاّبها ٤٢٢٤ طالباً، وعدد المعلّمين ٦٠ معلّماً.

المياتم والمهن الحرفية

جرت العادة في حراسة الأراضي المقدّسة أن يتقصّى الرهبان عن الأيتام في رعاياهم، ويعهدوا بتربيتهم إلى عائلات ميسورة يترعرعون في كنفها على نفقة الحراسة، التي كانت تقدّم للعائلة كل ما يلزم لمعيشة اليتيم. وتراوح عدد الأيتام الذين ترعاهم الحراسة بين ٢٥٠ و٣٠٠ يتيم سنوياً. وقد أتاح مجيء الجمعيات الرهبانية النسائية إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتح المياتم الخاصة بإدارة الراهبات. وفتح أول ميتم للأولاد وآخر للبنات عام ١٨٨٩.

وفي عام ١٧٠٠ أدخل الرهبان إلى دير المخلّص معامل لعدّة حرف يدوية بهدف تأمين عمل ودخل للعائلات المحتاجة وتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي للأديرة أنفسها. وقامت هذه المعامل الحرفية بدور المدارس المهنية. ففي عام ١٨٧٩ تدرّب فيها خمسون عاملاً في حرف النجارة والحدادة والطباعة والتجليد. ويذكر أحد مؤرّخي الرهبانية في نهاية القرن الماضي أن عدد المتدرّبين بلغ ١٥٠ عاملاً في الحرف المذكورة وغيرها.

وفي القرن السادس عشر أدخل الفرنسيسكان صناعة الخشب والخزف إلى بيت لحم، ووصلت هذه الصناعة إلى أوجها في القرن السابع عشر في عصر رئيس الدير في بيت لحم برناردينو أميشي (Bernardino Amici). وتعدّ الصناعات اليدوية الخشبية والخزفية من المرافق الاقتصادية المهمة في بيت لحم، إذ يقبل الحجاج على شرائها عند زيارتهم بيت لحم والأماكن المقدّسة الأخرى.

وأمّا فنّ الطباعة، فلم تأذن الأستانة للإخوة الأصاغر بإنشاء مطبعة في القدس حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولم يكن هذا الحظر سارياً على الرهبان وحدهم، بل على الجميع. وشهدت فترة الحكم المصري في فلسطين نوعاً من الحرية والانفتاح، فأنشأ على أثرها الأرمن مطبعة عام ١٨٣٣، واليهود عام ١٨٤١، وتبعهم الرهبان الفرنسيسكان عام ١٨٤٦. وتبرّع بتكاليف المطبعة إمبراطور النمسا فرنسوا جوزيف الأول. وقد زوّدت المطبعة بأحرف عربية ولاتينية. وكان أول إنتاجها عام ١٨٤٧ طباعة ألف نسخة من العهد الجديد وزّعت على طلاّب المدارس. وفي السنة نفسها طبع أول كتاب للتعليم المسيحي

بالعربية ألّفه الكردينال روبرتو بلرمينو (Roberto Bellarmino)، وعنوانه «التعليم المسيحي» وطبع منه ١٥٠٠ نسخة، وعدد صفحاته ٨٧ صفحة.

تنوّعت مطبوعات المطبعة فشملت دراسات الكتاب المقدّس واللاهوت والفلسفة والليترجية والتاريخ والجغرافيا واللغات الشرقية والغربية والفنّ والرياضيات. وبلغ عدد الكتب المطبوعة بين ١٨٤٧ و١٨٨٨ ما يقارب ٤٠٨ كتب. وعدد النسخ المطبوعة بين عام ١٨٧٦ و١٨٨٨ بلغ ٣٠٥٧٦٥ نسخة. وقد كانت المطبوعات العربية الجزء الأكبر من إنجازات المطبعة. وهذه المؤسسة قائمة حتى اليوم، وجلّ منشوراتها اليوم، بالإضافة إلى المجلاّت المختصّة بالأرض المقدّسة وبلغات متعدّدة، هي المنشورات العلمية المتعلّقة بالدراسات في الكتاب المقدّس وبعلم الآثار وبحضارات الأرض المقدّسة والبلدان المجاورة لها.

خاتمة

في غضون خمسة قرون متوالية، منذ منتصف القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر، مثّل الرهبان الفرنسسكان مع بعض الكرمليين في حيفا الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية في الأراضي المقدّسة، وحافظوا على هذا الوجه من أوجه الحضور المسيحي في الأماكن المقدّسة في ظروف صعبة. ثم جاءت إعادة تأسيس البطريركية اللاتينية في منتصف القرن الماضي بمثابة صيغة جديدة للعمل الكاثوليكي، فحاولت أن تركّز على العمل الراعوي وعلى بعد الكنيسة المحلية بصورة خاصة. كما أنها توجّهت إلى الأرياف أو إلى التجمّعات السكنية التي برزت مع تطوّرات التاريخ الحديث. وخرجت من حدود فلسطين إلى شرق الأردن لترعى المسيحيين هناك، وقد تفرّدت بهذه الرعاية في منتصف القرن الماضي.

وتطوّرت مؤسّسات الحراسة أيضاً في القرنين التاسع عشر والعشرين بصورة واضحة. وعبرت هي أيضاً إلى شرق الأردن عام ١٩٥٦ حيث أسّست كلية تراسانطة الشهيرة في عمان، وكثّفت الحفريات الأثرية في موقع الصياغة قرب مادبا وفي مواقع أخرى متعدّدة، بإدارة رهبان علماء في الكتاب المقدّس وفي الآثار أمثال الراهب جيرولمو، وهو أول من رافق الأمير عبد الله في أول سني الإمارة، وكان له صديقاً حميماً، والأب كوربو ثم بتشيرلو وغيرهم.

ومن أهم تطوّرات الحراسة إنشاء المؤسّسة العلمية في القدس في دير حبس المسيح لدراسة الكتاب المقدّس والآثار، والتي تخرّج فيها أجيال من الدارسين من شتى أنحاء العالم، ودرّس فيها رهبان علماء ذوو صيت عالمي أمثال الآباء باجاتي وسالر وأساتذة المعهد المعاصرون. وقام هؤلاء العلماء من الرهبان بحملات مكثّفة للبحث عن الآثارات في الأردن وفلسطين في ثلاثة وثلاثين موقعاً وحفرية أثرية بين عامي ١٨٩٤ و١٩٧٨. وازداد نشاطهم بعد ذلك التاريخ إلى يومنا هذا. وغدت الأماكن المقدّسة والمزارات بإشراف حراسة الأراضي المقدّسة، لا أماكن سياحية أثرية فقط، بل كنائس تعبق بالليترجية والصلاة بمختلف اللغات الحية.

القسم الثاني

البطريركية اللاتينية الأورشليمية في التاريخ الحديث

الفصل الأول

عودة البطريرك اللاتيني إلى القدس

احتلّ محمد علي في أواسط القرن التاسع عشر بلاد الشام، ولولا أن أوقفته الجيوش البريطانية لوصل إلى القسطنطينية. وأخذت السلطنة العثمانية بعد هذه الأحداث بالتداعي، وغدت تحسب الحساب لنفوذ الدول الغربية ووساطاتها في سبيل المؤسّسات الكنسية القديمة والجديدة. وقد اهتمّت الكنيسة مرة أخرى بالأماكن المقدّسة. فأسّست الكنيستان الأنغليكانية واللوثرية أسقفية في القدس تمثّلهما معاً، ودعمتهما في هذه المبادرة الحكومتان الانكليزية والبروسية الألمانية. وكان أول أسقف انغليكاني الأسقف ميشيل سلمون الكسندر عام ١٨٤١، وهو انغليكاني، ثم خلفه عام ١٨٤٦ الأسقف اللوثري صموئيل غوبات.

ورأت الكنيسة الكاثوليكية أيضاً أن الوجود الرهباني وحده لم يعد يكفي لخدمة الأراضي المقدّسة، وأنه لا بدّ من إيجاد سلطة أسقفية فيها. فأخذ الكرسي الرسولي ينظر بجدّية في إعادة البطريركية الأورشليمية اللاتينية إلى المدينة المقدّسة.

وفي رومة اعتلى السدّة البطرسية البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨)، في أطول حبرية في تاريخ الكنيسة. فقد أنشأ هذا البابا ٢٩ أسقفية بإمرة رئيس أساقفة و١٣٢ أسقفية يديرها أسقف في شتى أنحاء العالم. وكانت إعادة تأسيس البطريركية، إحدى إنجازاته الكبرى، قد طُرحت على بساط البحث في عصر سلفه البابا غريغوريوس السادس عشر (١٨٣١-١٨٤٦).

وسُئل رئيس الرهبانية الفرنسسكانية العام لويجي دا لوريتو (Luigi da Loreto) عام ١٨٤٢ عن رأيه، فقال: «إنها لفكرة حميدة جداً إقامة بطريرك في القدس، ليُحيي مرة أخرى ماضي الكنيسة والأراضي المقدّسة المجيد». ثم عاد وعدل عن رأيه، وبدت صعوبات كثيرة من قبل الرهبانية. فعملت رومة على إيجاد الطرق التي يمكنها أن تضمن التعاون

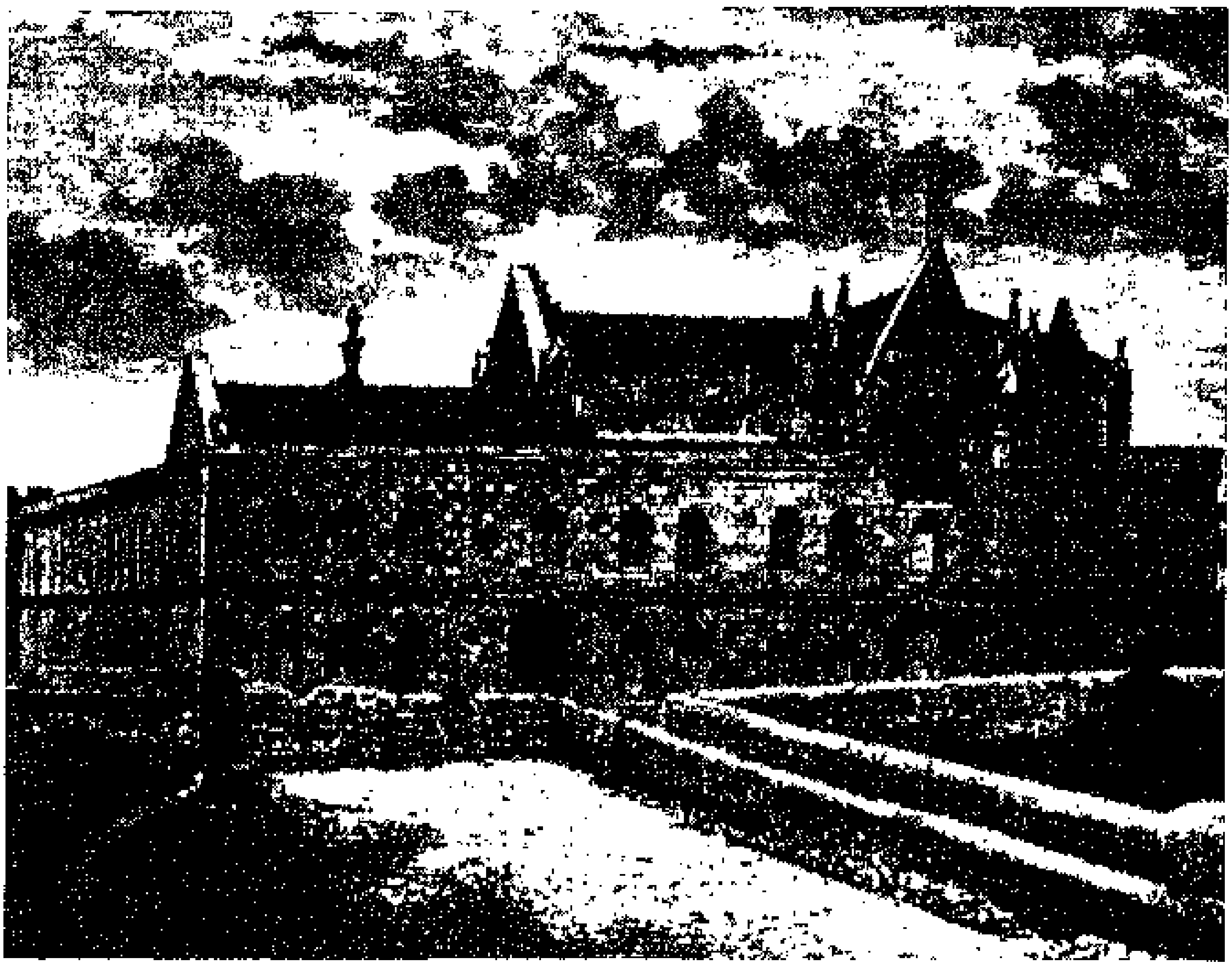

دار البطريركية اللاتينية في نهاية القرن التاسع عشر

بين النظام البطريركي الجديد رئيس الرهبان العام المحلّي الذي هو في الوقت نفسه حارس الأماكن المقدّسة.

وفي ١٨٤٢/٢/٢٨ أيّد مجمع الكرادلة مشروع تعيين بطريرك لاتيني في القدس. ووجدت الفكرة تأييداً أيضاً من الأبرشيات الكاثوليكية الأخرى في أوروبا. إلاّ أن القرار لم ينفّذ بسبب الصعوبات التي ذكرناها. وقال الكاردينال «أكتون»، الذي عهد إليه بمتابعة القضية، ملخّصاً الموقف بهذه الكلمات: «أُرجئ الأمر كله، مع أنّه تمّت الموافقة على تنفيذ المشروع».

وكان هناك طرف ثالث يراقب مشروع بطريركية القدس بحذر. فالحكومة الفرنسية عدّت حامية الكاثوليك في الشرق، فكان أي تحرّك أو تطوّر على الساحة الشرقية يلفت انتباهها. فكتب سفير فرنسا في رومة، لاتور مامبورغ (Latour Mambourg)، في رسالة بعث بها إلى وزير خارجيته «جيزو» (Guizot) بتاريخ ١٨٤٢/١/٨ يقول فيها ما يلي: «علمت بطريقة غير مباشرة أنّه حتى تقابل الآثار الناجمة عن تعيين أسقف بروتستانتي مقيم في القدس، يقال هنا إنه سوف يعيّن أسقف كاثوليكي، ولا شكّ أنّ هذا الاقتراح قدّم إلى مجمع نشر الإيمان. ويثير هذا المشروع هنا بعض الاعتراضات، فرئيس الرهبان الفرنسكان

العام الذي عُهِدَت إليه حراسة الأراضي المقدّسة يُظهِر معارضة بصفة خاصة ويخشى أن تمنح الدرجة الأسقفية إلى أحد رهبانه، مما يؤدّي إلى نزاع بينه وبين السلطات الرهبانية العليا...».

وبعد ان قابل جبرييل دي لانتيني (Gabriel de Lantigni)، قنصل فرنسا في فلسطين، البابا غريغوريوس السادس عشر في رومة بتاريخ ١٨٤٣/٥/١٦، كتب إلى وزير خارجيته يقول ان مشروع بطريركية القدس مشروع خيالي... «إلاّ أنه يحقّ لرومة مدّ نفوذها إلى هذه البلاد (فلسطين) بكل الوسائل المتاحة لها، على شرط ألاّ تمسّ بالحماية الفرنسية التقليدية للكثلكة في الشرق».

وقد تطوّر الموقف الفرنسي فيما بعد إلى المعارضة الصريحة لمشروع إقامة أبرشية كاثوليكية في القدس، فكتب «جيزو»، وزير خارجية فرنسا، إلى سفيره في رومة «مامبورج» في ١٨٤٧/٦/١٥: «أعتقد أنّ إقامة أبرشية كاثوليكية في القدس لن يكون مشروعاً جيداً في حدّ ذاته بالنسبة إلينا، بل إنه غير مفيد وقد يكون مضراً».

وأما الكرسي الرسولي فقد استمرّ في درس المشروع من جميع جوانبه. وقرّر البابا بيوس التاسع، بعد الاطّلاع الدقيق على تقرير مجمع نشر الإيمان، إعادة البطريرك اللاتيني إلى القدس مع كامل صلاحياته. وقد اختار لهذه المهمّة الأب يوسف فالرجا، بناء على تنسيب المجمع نفسه. وصدرت تعليماته لاستقالة المنسيور فوسكولو بطريرك القدس الفخري، فاستقال من منصبه في ١٨٤٧/١٠/١٠. وفي ١٨٤٧/٧/٢٣ صدرت الرسالة البابوية (Nulla Celebrior)، ومن أهم ما جاء في رسالة التأسيس هذه:

«لم تشتهر مثل القدس مدينة في العالم بالشعائر الدينية، وبين جميع المناطق التي يؤمّها المسيحيون ليست منطقة تفوق أرض فلسطين كرامة. ففي كل مكان في هذه المدينة ترتفع الأبنية الشهيرة التي تشهد بأعمال سيدنا يسوع المسيح، فتعيد إلى الذاكرة أمثلة الفضيلة والقداسة التي شرّف بها الفادي الإلهي الجنس البشري... ولهذا أحاطها المسيحيون بالتكريم والاجلال منذ نشأة الكنيسة... ومن أقدم المصادر التي بلغت إلينا القرار الذي ورد في المادة السابعة من أعمال المجمع المسكوني الأول المنعقد في نيقيا عام ٣٢٥، وقد جاء فيه انها لعادة قديمة وتقليد قديم ان يُكَرَّم أسقف ايلياء (القدس)، وان يكون له ما يترتّب على هذا المنصب من التكريم المناسب... وقد ثبّت مرتبة كرسي القدس البطريركية المجمع المسكوني اللاتراني الرابع المنعقد في حبرية البابا اينوقنطوس الثالث عام ١٢١٥... إلاّ ان البطاركة اللاتين لم يتمكّنوا من البقاء في القدس للقيام برعاية الرعية الموكولة إليهم. واضطرّ أسلافنا الأحبار الرومانيون إلى اللجوء إلى طريقة أخرى لرعاية هؤلاء المؤمنين. ومع ذلك فانهم لم ينقطعوا عن انتخاب بطاركة للقدس، ولو انهم أعفوهم من واجب الإقامة هناك...

أما اليوم فقد زالت الموانع التي تحول دون إقامة البطريرك اللاتيني في القدس واهتمامه هناك بخلاص خرافه... فنظراً إلى ما للكرسي الأورشليمي من قدم وكرامة ولما تقتضيه الظروف الراهنة، قرّرنا أن نرسل مجدّداً إلى

مدينة القدس بطريركًا على حسب الطقس اللاتيني. . . فبسلطة الإله القدير والرسولين بطرس وبولس وبسلطتنا نعيد صلاحيات البطريرك اللاتيني الأورشليمي إلى الوجود، ونعلن إلزامه بالإقامة كما كان الأمر من قبل. أما في ما يختصّ بحدود البطريركية، فإنّا نأمر ونقرّر ما يلي: إلى ان تصدر تعليمات أخرى عن هذا الكرسي الرسولي، تخضع لسلطة هذا البطريرك المناطق والأمكنة الخاضعة حاليًا لسلطة ابننا الحبيب حارس الأماكن المقدّسة والقبر المقدّس. . . وفي ما يختصّ بإنشاء وتعيين أساقفة تابعين للبطريرك، نقرّر اننا سنعلن عن رأينا في ما بعد، ونحتفظ بهذا الأمر لنا ولإخوتنا الكرادلة أعضاء مجمع نشر الإيمان. . .».

الفصل الثاني

البطريرك يوسف فالرغا
(١٨٤٧-١٨٧٢)

البطريرك يوسف فالرغا

وُلد يوسف فالرغا في لوانو بالقرب من جنوا، عام ١٨١٣. وأكمل دروسه العليا في جامعة الحكمة في رومة في الحق القانوني وفي اللاهوت، ودرس اللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية والعربية، وأتقن أيضًا اللغات الكلدانية والتركية والكردية. رسم كاهنًا عام ١٨٣٦ وعمل في مجمع نشر الإيمان في قسم الوثائق الصادرة في اللغات اليونانية واللاتينية والعربية. وفي حزيران ١٨٤١ عيّن سكرتيرًا

البطريرك يوسف فالرغا

للقاصد الرسولي في سورية، وبين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٧، التحق بالمنسنيور تريوش القاصد الرسولي لبلاد ما بين النهرين وفارس. فخدم الكنيسة الكلدانية وتعاون مع الآباء الدومنيكان في الموصل. وفي عام ١٨٤٧، تمّ اختياره بطريركًا لإعادة الكرسي البطريركي في القدس.

أبحر إلى يافا في شهر كانون الثاني ١٨٤٨، وقد صحبه أمين سرّه باتستا كافتسي وخادمه سانتي فتورين. وفي يافا استقبله الرهبان باسم الحراسة والسلطات العثمانية وممثّلو الطوائف المسيحية. واتّجه إلى القدس مارًا بالرملة وأبو غوش وعين كارم. وتوقّف في عين كارم حيث قلّده وكيل الحراسة العام وسام

جمعية القبر المقدس، وكان آخر وسام يقلّده، لأنّ هذا الحق انتقل إلى البطريرك نفسه. وجاء من القدس إلى عين كارم رئيس الرهبان العام وممثّلو الطوائف والقناصل ووجهاء المدينة. وفي الغد تمّ دخول البطريرك الجديد إلى القدس بأبّهة واحتفال، وقد شاركت الحكومة في الاستقبال. إذ أرسل ظريف مصطفى باشا حاكم القدس فرقة من الجند لمرافقة البطريرك وقدّم له حصاناً يمتطيه. ولما اجتاز أسوار القدس أطلقت المدفعية طلقاتها تحيّة له.

وبعد الاحتفالات بدأت مهمّة البطريرك العسيرة، إذ لم يكن يملك من وسائل العمل والتنفيذ إلاّ القليل. فليس لديه بيت خاص به ولا كنيسة ولا إكليرس أو جهاز يساعده في تنفيذ المهام. وطلب العون من الآباء الفرنسسكان، فقدّم له الرهبان مسكناً في ديرهم. واتّخذ البطريرك حارس الأراضي المقدّسة نائباً له ومجمع الحراسة مجمعاً استشارياً له. أما كهنة الرعايا فكانوا كلهم من الرهبان الفرنسسكان، ما عدا حيفا حيث كان الرهبان الكرمليون. وعيّن البطريرك أحدَ الرهبان الفرنسسكان نائباً له في قبرص.

بطاركة القدس الثلاثة

لم تكن الحركة أو الروح المسكونية في أوجها في منتصف القرن التاسع عشر، بل على العكس. فقد أدّى الصراع على الأماكن المقدّسة بين مختلف الطوائف المسيحية إلى جو من الحيطة والحذر في العلاقات بين رؤساء الطوائف، وخاصة بين الحراسة وبطريركية الروم الأرثوذكس. وقد أعرب فالرغا عن نيته في زيارة البطاركة في المدينة والمسؤولين المدنيين. وقبل ذلك جمع حاكم المدينة المقدّسة البطاركة الثلاثة، اللاتيني والأرثوذكسي والأرمني، في ديوانه، بعدما وصل إليه كتاب رسمي من الباب العالي مفاده ان لا فرق بين البطريرك الجديد العائد إلى مقرّ بطريركيته والبطريركين الآخرين اليوناني والأرمني. ثم دعا الباشا البطاركة إلى الاجتماع في كنيسة القيامة أمام جمع غفير، وألقى الباشا كلمة ناشد فيها الرؤساء الثلاثة المحافظة على الوحدة والتعاون فيما بينهم. وبعد ذلك تمّ تبادل الزيارات بين البطاركة الثلاثة.

أبرشية البطريرك فالرغا

بدأ البطريرك بزيارة الرعايا. وأولى الكنائس والمدارس جلّ اهتمامه. وكان في كل رعية مدرسة. وبدأ يشدّد على ضرورة تعلّم لغة الشعب. فاقترح أن يُبعَثَ المرسَلون الجدد إلى حريصا في لبنان لدرس اللغة العربية، وأرسل آخرين إلى نيقوسيا لدرس اليونانية. وعمل فالرغا على تقوية مدارس الفتيات وتنميتها. فاستدعى لذلك راهبات مار يوسف.

وأما الشعب فلم يكن من السهل التعامل معه بالرغم من صفاته الحسنة. فقد تميّز بعدم رسوخ قناعاته الدينية وباللامبالاة وقلة الثبات في الإيمان. وكثيراً ما كان يهدّد هؤلاء المؤمنون كهنة الرعايا بالعدول عن الايمان والكنيسة. ويعزو فالرغا تردّيَ الأوضاع الروحية والدينية لدى الشعب المسيحي إلى الأسباب التالية: اعتماد الشعب في حياته المادية على الأديرة، وضعف الثقافة الدينية والتربية المسيحية بسبب

غياب الاكليرس الوطني الذي يتكلّم لغة الشعب ويفهم عقليته. وكان عدد المؤمنين اللاتين في البطريركية آنذاك ٤١٤١.

التعاون بين البطريرك والرهبان

لجأ البطريرك إلى الرهبان لإصلاح الأوضاع السائدة. كانت إمكانياته محدودة وأمّا طموحاته فكبيرة. كان يطمح إلى أن تكون القدس نواة الحركة الدينية في الشرق. ولم يكن من السهل تحقيق الهدف المنشود. فقد غابت السلطة البطريركية عن القدس ما يقارب ستة قرون على أثر سقوط عكا. وفي هذه الحقبة، أدار الآباء الفرنسيكان شؤون الكنيسة الفلسطينية. والآن أصبح البطريرك مقيماً في القدس بكامل صلاحياته، ولكن دون جهاز يمكّنه من العمل بموجب صلاحياته. ولم يكن الصراع بين البطريرك والرهبان خافيًا على أحد. ويظهر ذلك في التقرير الذي كتبه بعد سنتين، وقد علم أن الشكاوى بدأت تُوجّه في حقه. وحاولت رومة أن توفّق بين الطرفين. فقالت ان السلطة الأسقفية المحلية التي يتمتّع بها البطريرك هي السلطة الشرعية الوحيدة في الأبرشية. لكن للرهبان امتياز الإشراف على الأماكن المقدّسة. ولما تأزّمت الأمور وبلغت الصعوبات مداها، قدّم البطريرك استقالته إلى الكرسي الرسولي وسافر إلى أوروبا ليعرض قضيته في رومة. وكان ذلك عام ١٨٤٩. وكان البابا إذ ذاك في بلدة جايته (Gaete) في مملكة نابولي. وقال الحبر للبطريرك الذي قدّم استقالته: «الصليب لا يلقى جانبًا حين ترافقه نعمة العيش في القدس». وتابع البطريرك جولته بعد ذلك في أوروبا فالتقى في فرنسا، بعد مقابلة رئيس الجمهورية القنصل المعيّن جديداً للقدس، وهو السيد بوطا، وسوف يكون لهذا الرجل الأثر الحاسم في رسالة البطريرك وثباته ونجاحه في إتمامها.

وأصدر مجمع نشر الإيمان تعليمات تحدّد العلاقات بين البطريرك ورئيس الرهبان: فالكنيسة الراعوية في القدس هي كنيسة البطريرك الرسمية، إلى أن تبنى كنيسة أخرى. وفي ما يختصّ بمصادر التمويل فإنّ البطريرك يصبح المسؤول المباشر عن جمعية فرسان القبر المقدّس. وأما سائر الحسنات التي ترسَل إلى الحرامية فإنّ البطريرك يشرف على إدارتها والتدقيق فيها. تمّ تنفيذ البندين الأولين، إلاّ أن البند الثالث لاقى معارضة ولم ينفَّذ.

الإكليرس البطريركي

حالما تسلّم البطريرك العائد مهامّه، كانت له رؤية صائبة وهي الاعتماد على الاكليرس المحلي. ومن ثم كان لا بدّ من تأسيس إكليريكية تستقبل أبناء الأبرشية وتهيّؤهم لرسالة الكهنوت السامية. وقبل ن يتمكّن من تنفيذ مبتغاه هذا، لجأ في السنوات الأولى إلى ما توفّر له من كهنة من جميع أنحاء العالم. وكان الكاهن عبد الله كومنداري من بيت لحم قد أرسله الرهبان إلى رومة للدروس الكهنوتية، وقد أنهاها في رومة ورسم فيها كاهنًا. فلما التقى البطريرك عدل عن الحياة الرهبانية وكان أول كاهن في الإكليرس الأبرشي العربي.

ومنذ أول سنة من قدوم البطريرك عام ١٨٤٨، أرسل عشرة طلاّب كهنوت إلى غزير في لبنان حيث كان للآباء اليسوعيين

الإكليريكية الكبرى

مدرسة إكليريكية لإعداد الكهنة. وقد رسم في ما بعد ثلاثة منهم وهم الأب سمعان إسحاق من القدس: ولد عام ١٨٣٩ ورسم كاهناً عام ١٨٦٣، ثم علّم في الإكليريكية في بيت جالا، وخدم في الرعايا، وتوفّي عام ١٨٨٩. والأب أنطون مرقس من الناصرة، ولد في ١٨٣٨ ورسم كاهناً في ١٨٦٣، وعيّن مديراً للمراسم الدينية وممثلاً للملّة اللاتينية لدى السلطات العثمانية. وفي ١٨٨٠، عيّن زائراً رسولياً لدى الأقباط الكاثوليك في مصر. وقام بهذه المهمة مدة اثني عشرة سنة حتى تقاعد عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٠٧. والأب يوسف طنوس، ولد في الناصرة عام ١٨٣٨، وعيّن معلّماً في الإكليريكية في بيت جالا ثم سكرتيراً للقصادة الرسولية في بيروت في ١٨٦٦، وأمين سر البطريركية في ١٨٦٩. وفي ١٨٨٠ أسّس رهبانية الوردية، وتوفّي عام ١٨٩٢.

الإكليريكية وتنظيم الإكليرس البطريركي

افتتح البطريرك المعهد الإكليريكي عام ١٨٥٢. وقد تولّى الرئاسة فيه بنفسه في المرحلة الأولى، وكان أخوه، وهو راهب كرملي في حيفا، نائباً له. والتحق بالإكليريكية طلاّب من الأبرشية ومن خارجها، من القدس وقبرص والبندقية، بالإضافة إلى العشرة الأوائل الذين بعثوا إلى غزير.

وقد وجّه البطريرك نداءً يطلب مساعدة الإكليرس في مختلف أبرشيات العالم.

والشروط التي عرضها على من يريد ان يعمل معه هي أن نعمل سوية في خدمة كنيسة القدس بلا أجر أو راتب. ولخّص صعوبات العمل في أربع: تعلّم اللغة العربية، وتعلّم التعامل مع الشعب، والتسليم بأنّ ثمار العمل الرسولي لن تقطف بسرعة، ومواجهة أوقات الفراغ الطويلة. فعلى المرسل استغلال وقته في المطالعة والقيام بوظيفتين إضافيتين: وظيفة الطبيب، فعليه ان يلمّ بالمبادئ الأولية للطب والتعامل مع بعض الأدوية. والوظيفة الثانية أن يقضي بالعدل بين الناس، فلا يخاف أن يقول أو أن يقال له: «من أقامك عليّ قاضياً»؟

وأما روحانية الإكليرس فيجب أن تتغذّى بمجاورة الأماكن المقدّسة، وأن تبنى على روح الحياة العائلية، فالإكليرس البطريركي يشكّل عائلة واحدة. ولهذا تقدّم البطريركية إلى جميع أفراد الإكليرس ما يلزمهم من رعاية روحية ومادية. وإذا ما عجز الكاهن، عاد إلى دار البطريركية، وأقام حيث يقيم البطريرك نفسه مع الكهنة المشرفين على الأعمال الإدارية. وقد وضع على هذا الأساس عام ١٨٦٤ قانوناً لكهنة البطريركية يجمع بين ميزات الكهنة الأبرشيين والحياة الجماعية في الرهبانيات.

وتحقّق حلم البطريرك. فكان له بعد قليل إكليرس أبرشي من أبناء الأبرشية ومن الأبرشيات الأخرى في العالم. وقد رسم في عهده ستة عشر كاهناً، اثنا عشر منهم من أبناء الأبرشية (ومن بينهم خمسة من قبرص)، وأربعة من خارج الأبرشية من فرنسا.

وبالإضافة إلى الرسالة الراعوية الأولى التي طبعها في رومة قبل مجيئه ووزّعها حال وصوله إلى القدس، كان يوجّه بصورة منتظمة رسائل راعوية يرشد بها الشعب والإكليرس. وشكّل مجلس القانونيين حاملي لقب قانونيي القبر المقدّس، وهم المجلس البطريركي الاستشاري. وفي عام ١٨٦٦ رسم أحد كهنته وهو منصور براكو أسقفاً مساعداً له. وفي عام ١٨٦٤، انتهى من بناء المقر البطريركي الجديد. وهو بناء كبير يتّسع للبطريرك ومن معه من الكهنة الإداريين، ولكل كاهن من كهنة البطريركية إذا مرض أو شاخ وقعد عن العمل. والمبنى قائم حتى اليوم، وما زال نمط المعيشة فيه مشابهاً لما أراده البطريرك المؤسّس والباني.

وأمّا الكنيسة الكاتدرائية المرافقة والخاصة بالبطريركية فقد أُنجز بناؤها عام ١٨٧٢. وقد شُيّدت إلى جانب المقر البطريركي. وهي كاتدرائية مرافقة، لأن الكاتدرائية الرئيسة هي كنيسة القيامة، وكنيسة القيامة هي في الواقع الكنيسة الكاتدرائية للبطاركة الثلاثة في المدينة المقدّسة: اللاتيني والأرثوذكسي والأرمني.

تأسيس الرعايا

وانطلق البطريرك مع فريق الكهنة الذي لبّى نداءه يؤسّس الرعايا ويفتح المدارس ويقدّم الرعاية الدينية للمؤمنين. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فقد حفل تاريخ الرعايا في هذه المرحلة التأسيسية بين ١٨٥٣ و١٨٧٢ بضروب الاخفاق، وتوالى عليها الفشل والنجاح. وقد أسّس فالرغا إحدى عشرة رعية جديدة. ونكتفي هنا بسرد الظروف التي ألمّت بتأسيس رعيتين، الأولى في فلسطين وهي رعية بيت

بيت كاهن الرعية في الكرك

جالا، والثانية في شرق الأردن وهي رعية السلط. وتبيّن رواية هذا التأسيس الظروف العامة التي عاشها البطريرك والإكليرس الذي رافقه.

رعية بيت جالا

بيت جالا اليوم مدينة صغيرة تقع غرب بيت لحم على مسافة كيلومتر واحد. يربو عدد سكانها على العشرة آلاف. وكلهم من المسيحيين، معظمهم من الأرثوذكس، وقسم منهم من اللاتين. وقد وفد على المدينة الصغيرة في أواسط القرن العشرين، مع التحركات السكانية وأزمة اللاجئين، بعض المسلمين الذين سكنوا المدينة واستقرّوا فيها. وفي أيام البطريرك فالرغا، كانت بيت جالا قرية صغيرة، عدد الأرثوذكس فيها نحو الألف وعدد الكاثوليك لا يتجاوز المئتين.

وكان الرهبان الفرنسسكان يؤمّنون لهم الخدمة الروحية من بيت لحم. ولكنهم لم يتمكّنوا من الاستقرار فيها لما كان بين الناس في ذلك الزمن من نعرات طائفية قوية. وقد أراد البطريرك أن يقتحم هذا الوضع الطائفي. فواجه مقاومة عنيفة من قبل الرعية الأرثوذكسية. وتدخلت في هذا الصراع البطريركيات في القدس والسلطات العثمانية المحلية حتى وصلت القضية إلى الاستانة نفسها.

وبدأ البطريرك فكلّف الأب كومنداري البيتلحمي بشراء أرض في بيت جالا. فاشترى بيتاً لسكناه، ثم شرع في بناء الكنيسة. فتصدّى له أهل القرية وأوقفوه عن البناء. ووقعت

معارك واشتباك بالأيدي وبالسيوف والرصاص أيضاً. عام ١٨٥٣ أرسل البطريرك إلى بيت جالا كاهناً فرنسياً كان قد انضمّ جديداً إلى الإكليرس البطريركي واسمه جان موريتان. وقد أسّس هذا الكاهن عدداً من الرعايا وبنى فيها الكنائس. كتب موريتان في مذكّراته يقول: «غادرت القدس يرافقني الأب عبد الله وقواس البطريرك وخادم. وحملنا معنا ما يلزم للإقامة في رعية جديدة. واستقبلنا بعض المؤيّدين وكثرة من المعارضين». وكان أول لقاء مع القرية صراعاً عنيفاً جرح فيه الكاهن. فأُعلِم البطريرك بما حدث.

ولما لم تلقَ الشكاوى آذاناً صاغية عند باشا القدس، جاء البطريرك نفسه إلى بيت جالا وأمر بمتابعة البناء بالرغم من أمر الباشا بوقف العمل. وفي أحد الأيام حاصر البيت ١٥٠ رجلاً مسلحاً. فوقع صدام وتهديد وضرب. وعاد مالك البيت الذي باعه أول مرة للبطريركية اللاتينية، فباعه مرة ثانية لبطريركية الروم الأرثوذكس، فطالبت هذه البطريركية به. وقامت مناوشات جديدة، وشهر أحدهم السيف في وجه البطريرك. وكان عيد الميلاد قد قرب، فألغى البطريرك إقامة صلاة العيد في بيت لحم خوفاً من ان يستغلّ الطرف الخاصم غيابه، وأقام صلاة العيد في بيت جالا.

وتواطأ حاكم القدس والجند الذين أرسلهم مع خصومه. فترك البطريرك القرية، بل وخرج من القدس أيضاً احتجاجاً على ظلم الحاكم، وتوجّه في منفى طوعي إلى مدينة يافا، وقد رافقه في هذا المنفى قنصل فرنسا

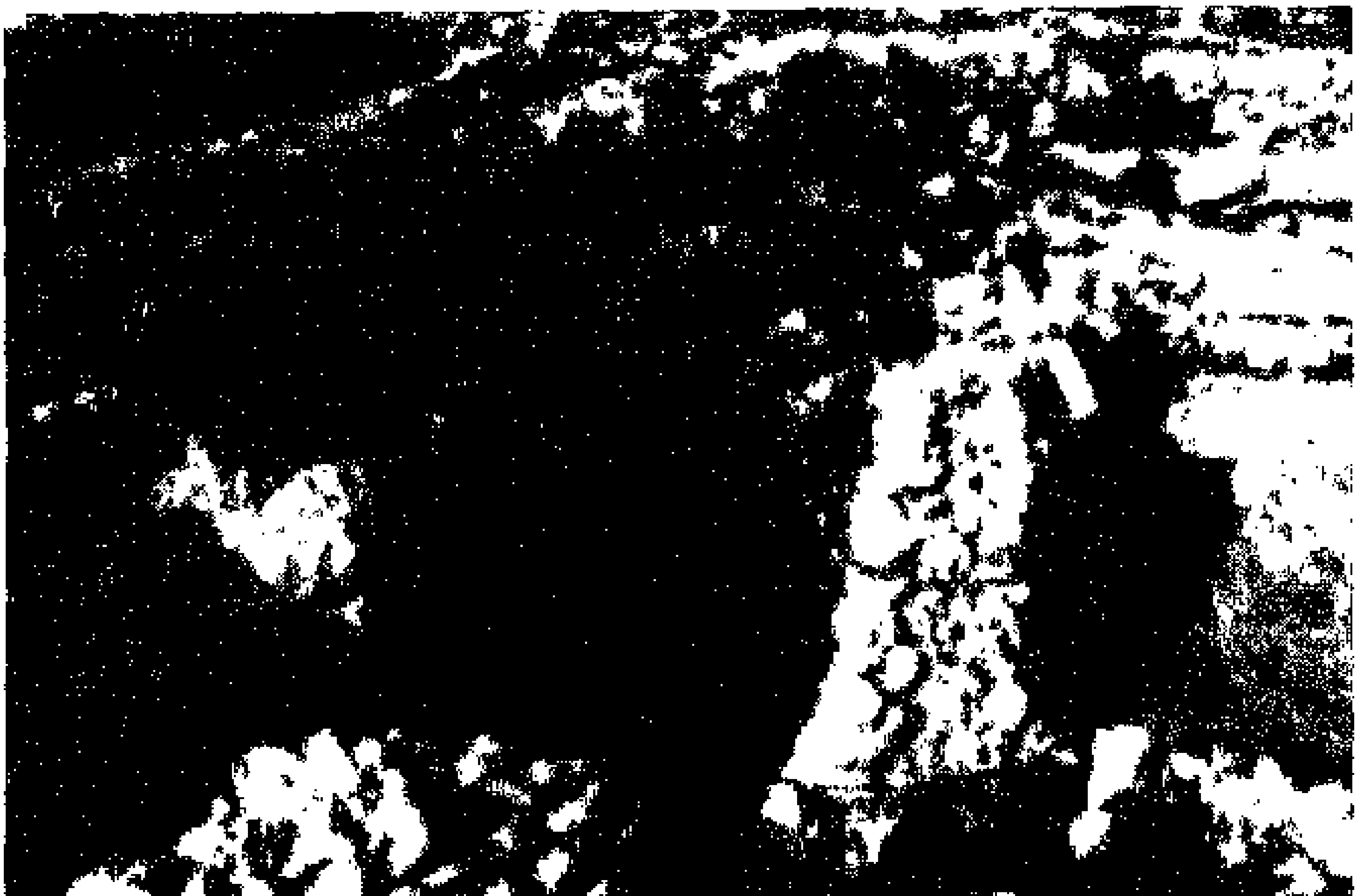

المغارة الكنيسة في مادبا

السيد بوطا. وعمل كلاهما على رفع القضية إلى الباب العالي في الأستانة. وتدخّلت الحكومة الفرنسية. وأخيراً تمّ النصر للبطريرك، إذ أنصفه الباب العالي، فأصدر فرماناً عام ١٨٥٤، يأمر حاكم القدس بإعطاء البطريرك أرضاً في بيت جالا وبالسماح له ببناء الكنيسة والدير.

رعية السلط في شرق الأردن

وفي عام ١٨٦٦، فتح البطريرك أول رعية في شرق الأردن في مدينة السلط. وحصل ذلك من قبيل الصدفة. كانت السلط تابعة إدارياً لمتصرّف نابلس. فجاء يوماً خيّالة من السلط إلى نابلس يبحثون عن الكاهن اللاتيني فيها، وأبلغوه أن رجلاً لاتينياً في السلط مريض، وهو يطلب حضور كاهن في ساعته الأخيرة. فرافق الكاهن الخيالة وأسعف المريض. واستقبله مسيحيّو السلط وأكرموه وطلبوا إليه أن يقيم معهم ويبني لهم كنيسة. وشجّع متصرّف نابلس الكاهن اللاتيني على فتح رعية السلط لخدمة المسيحيين فيها، وقد عيّن بهذه المناسبة عضوين من اللاتين في مجلس السنجق، أحدهما من نابلس وهو سرافيم والثاني من السلط وهو صالح ناصر أبو جابر.

الرهبانيات الجديدة

وقد استقدم البطريرك الرهبانيات لمساعدة الإكليرس الأبرشي في خدمة المسيحيين والمجتمع معاً. فكانت أول الرهبانيات التي لبّت نداءه في القدس راهبات القدّيس يوسف عام ١٨٤٨. وقد تولّين التعليم والإدارة في مدارس الفتيات. وجاءت إلى الجليل راهبات الناصرة ففتحن مدرسة في الناصرة عام ١٨٥٤، ثم في حيفا وعكا، وفي عام ١٨٦٧ في بيروت. وتلاهن راهبات صهيون اللواتي أنشأن ميتماً في القدس عام ١٨٥٦ وآخر في عين كارم عام ١٨٦٠. وقد استقبل هذا الميتم إبان الحرب العالمية الأولى الأيتام من فلسطين والبلدان المجاورة.

واهتمّ أحد كهنة الإكليرس البطريركي بالأيتام وهو الأب أنطون بلوني. فاستقبل أولاً بعض الأولاد في بيته في بيت جالا، ثم اشترى لهم داراً. ولما تزايد عددهم، فتح مؤسسة في بيت لحم، في بيت جمال والناصرة. وعرف بأبي اليتامى، وقد أصبحت تعرف مؤسساته بهذا الاسم فيقال «دير أبو اليتامى». وحاول تأسيس رهبانية لمتابعة عمله، ثم عدل عن فكرته. وعرض على رهبانية السالزيان الناشئة التعاون معه، فلبّوا دعوته. وتسلّمت منه رهبانية السالزيان عام ١٨٩١ ما بدأ به من مؤسسات. وتابعت عمله وطوّرته. ومدارس السالزيان اليوم أصبحت مدارس مهنية تستقبل الطلاّب على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية.

جمعية فرسان القبر المقدّس

تأسّست هذه الجمعية لمساعدة الأراضي المقدّسة. يعيد البعض أصولها إلى عهد الصليبيين. ولكن من الأرجح أنها نشأت بعد ذلك العهد لمرافقة الحجاج ومساعدتهم، ولتقديم المساعدات للأرض المقدّسة بصورة عامة. وكان برأسها حارس الأراضي المقدّسة، بموجب براءة بابوية (Pastoris Officii) عام

١٤٩٦. لما قدم البطريرك فالرغا تولّى هو أمر هذه الجمعية وأعاد تنظيمها، وفوّضه الكرسي الرسولي بها عام ١٨٦٨ في البراءة (Cum multa sapienter). وفي تجواله في أوروبا وزيارته للعواصم والملوك حصل من الملوك والأمراء على الاعتراف بها بصورة رسمية. وقد بلغ عدد أعضائها قبل وفاته ١١٤٧ عضواً ينتمون إلى عشرين دولة.

فالرغا وشؤون الشرق

كان فالرغا رجل ثقة البابا بيوس التاسع في شؤون الشرق. فقد شغل منصب القاصد الرسولي في سورية ونائب رسولي في حلب من ١٨٥٨ إلى ١٨٧٢. وكان يقيم في الصيف في بيروت وفي الشتاء في القدس. وعاصر أحداث لبنان عام ١٨٦٠، والأزمة التي مرّت بها كنيسة الروم الكاثوليك حين تحوّلت إلى التقويم الغريغوري بين ١٨٥٨ و١٨٦٤ والتي أدّت إلى استقالة البطريرك بحوث عام ١٨٦٤. وقام بدور هام في دعم المؤسسات الكاثوليكية في بيروت، حيث حمل الآباء اليسوعيين على إنشاء جامعة تعمل على تربية الشبيبة وتثقيفها. وتحقّقت هذه الرغبة بعد وفاته. كان اليسوعيون قد أنشأوا المدرسة الإكليريكية في غزير عام ١٨٤٦، ثم نقلوها إلى بيروت عام ١٨٧٥، ومنح الكرسي الرسولي كلية الفلسفة واللاهوت فيها رتبة جامعة.

وامتدّ نفوذ فالرغا إلى الكنيسة الكلدانية، وكان قد خدمها قبل ان يكون بطريركاً، إذ التحق في الأعوام ١٨٤٢-١٨٤٧ بالقصادة الرسولية في العراق. وناشده مجمع نشر الإيمان التدخّل في حل أزمة نشأت بين بطريرك الكلدان والكرسي الرسولي. وسببها ان البطريرك عيّن أسقفاً من كنيسته لمنطقة الملبار في الهند، وقد كانت قديماً تابعة لبطريركية الكلدان قبل استيلاء البرتغاليين عليها عام ١٥٢٩. وكان فالرغا صديقاً حميماً لبطريرك بابل. فتوصّل الطرفان إلى اتفاق نهائي في مسألة الملبار عام ١٨٦٣.

فالرغا في المجمع الفاتيكاني الأول ١٨٦٩-١٨٧٠

استدعاه الكرسي الرسولي عام ١٨٦٦ قبل انعقاد المجمع بصفته خبيراً في شؤون الشرق. وكان ذا كلمة مسموعة في هذا المجال. فاشترك في ثلاث لجان: اللجنة التحضيرية للكنائس الشرقية واللجنة الموكلة بتقديم أوراق العمل المجمعية واللجنة المجمعية للكنائس الشرقية. وقدّم دراسة أعدّها في بيروت عرض فيها اقتراحين بخصوص الحق القانوني في الكنائس الشرقية. وينصّ الاقتراح الأول ان تحتفظ كل كنيسة بقانونها الخاص. والثاني ان تتبنّى كل الكنائس الشرقية القانون العام المتبع في الكنيسة الكاثوليكية، على ان تترك الحرية لكل كنيسة فيما يختصّ بتراثها وليترجيتها.

وقد وجّهت الدعوة للمشاركة في المجمع إلى البطاركة الأرثوذكس مثل أسلافهم في مجمع ليون وفلورنسا. ولكن بطريرك القسطنطينية اعتذر وكذلك بطريركا القدس للروم الأرثوذكس والأرمن، وأسقف الكنيسة اليعقوبية.

افتتح المجمع أعماله في ١٨٦٩/١٢/٨

وألقى فالرغا فيه خطاباً عن العصمة البابوية. وكان قد أعدّ خطاباً ثانياً في شؤون الكنائس الشرقية. إلاّ أنه لم يتمكّن من طرحه للمناقشة بسبب توقف أعمال المجمع في ١٨٧٠/٧/١٨ بعد اندلاع الحرب بين فرنسا وبروسيا. وقد رفعت الجلسات رسمياً في ١٨٧٠/١٠/٢٠.

عاد فالرغا إلى القدس في تشرين الأول ١٨٧٠ بعد غياب سنتين. وقام بجولته الأخيرة التفقّدية في ربوع البطريركية والقصادة الرسولية. وعيّن الأب بسكال أبوديا نائباً عاماً له في بيروت، وأتمّ بناء الكنيسة الكاتدرائية المرافقة ودشّنها في ١٨٧٢/٢/١١ وترأس في ١٨٧٢/٥/٢ أول دورة في عيد الجسد تقام في القدس. وفي أيار ١٨٧٢ قام برحلة تفقّدية أخرى دامت ستة أشهر، زار خلالها الرعايا في شمال فلسطين. ثم قضى في بيروت أربعة أشهر، وفي دمشق ترأس المحكمة التي نظرت في قضية استشهاد عدد من الرهبان الفرنسسكان في أحداث ١٨٦٠. ومن دمشق عبر حوران إلى شرق الأردن. وهناك لاقاه شيخان من قريتي الرميمين وصافوط في منطقة السلط، وطلبا منه فتح رعية في قريتيهما. والشيخان من عشيرتي الصايغ وحتّر. وقبل دعوتهم، نزل ضيف عليهما. وأمّا الرعيتان فلم تفتحا إلاّ بعد وفاته. واستقبله أهالي السلط بحفاوة شعباً وحكومة. وأخيراً وصل إلى القدس في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧٢، وتوفّي بعد ذلك بقليل في ٢ كانون الأول ١٨٧٢، وهو في ٥٩ من عمره.

كان هذا البطريرك العائد إلى القدس، بعد غياب قرون، من أعلام الكنيسة الكاثوليكية المحلية والعالمية، بل هو من كبار الشخصيات المسيحية التي أرست أسس التاريخ المسيحي المعاصر في فلسطين وشرق الأردن، كما قام بمهام عديدة، هو أو أحد كهنته، في البلدان العربية المجاورة في لبنان وسورية ومصر والعراق.

الفصل الثالث

البطريرك منصور براكو
(١٨٧٢-١٨٨٩)

ترك فالرغا بوفاته فراغاً كبيراً. وأثار انتخاب خلفه مجدّداً قضايا دبلوماسية وكنسية كثيرة. منها قضية الوجود اللاتيني في الشرق. وكان الكاردينال لافيجري الفرنسي ومؤسّس الآباء البيض أحد المرشّحين والمعارضين في الوقت نفسه للبطريركية. وعيّن الكرسي الرسولي أخيراً بطريركاً على القدس الأسقف منصور براكو مساعد البطريرك المتوفّى. وعيّن قاصداً رسولياً لسورية لودوفيكو بيافي رئيس الرهبان الفرنسسكان العام.

وُلد براكو في إيطاليا عام ١٨٣٥ من أسرة فقيرة. ولم يتمّ دروسه إلاّ بعناء. انضمّ إلى الاكليرس البطريركي، وبعد رسامته كاهناً، عيّن معلّم للاهوت في الاكليريكية، ثم رئيساً لها وأخيراً أسقفاً مساعداً عام ١٨٦٦. وعيّن بطريركاً عام ١٨٧٣. وأسّس في عهده إحدى عشرة رعية في فلسطين وشرق الأردن، واستقدم اثنتي عشرة رهبانية.

الرهبانيات الجديدة في عهد البطريرك براكو

إخوة المدارس المسيحية (الفرير)

أنشأ الفرير مدارسهم الأولى في مصر عام ١٨٤٧، ومن مصر قادتهم الظروف إلى فلسطين: «كانت الظروف التي أدّت إلى انتشار مرض الكوليرا في مصر والصعوبات المادية الكبيرة التي واجهتهم بالإضافة إلى انتشار حملة كره للأجانب، من العوامل الهامة التي دفعت الأخ أدريان (Adrien)، مدير مدارس الإسكندرية، إلى أن يكتب إلى رؤسائه يستأذنهم بإرسال مجموعة من الإخوة للحج إلى الأرض المقدّسة. فقامت مجموعة منهم بصحبة الأخ ايفاغر (Evagre) بالابحار من مدينة الإسكندرية إلى فلسطين». وتمّت هذه الرحلة عام ١٨٧٤، وفيها التقى ايفاغر القنصل الفرنسي في القدس وحارس الأراضي المقدّسة والبطريرك براكو. ولاقى من هذا تشجيعاً وترحيباً، ونسّق مع مجمع نشر الإيمان وحراسة الأراضي المقدّسة أن يتولّى إخوة المدارس المسيحية مدارس الأولاد في بيت لحم وحيفا والناصرة ولارنكا في قبرص.

«مع بداية السنة المدرسية في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٧٨، سلّم الفرنسـكان طلاّب مدرستهم الراعوية لإخوة المدارس المسيحية. وقدّمت البطريركية للإخوة أرضاً بجوار دار البطريركية لإنشاء مدرستهم الخاصة عليها. وفي عام ١٨٨٢، وُضع حجر الأساس لمدرسة في يافا، ثم حيفا عام ١٨٨٣، وفُتحت دار الابتداء في بيت لحم عام ١٨٨٥ لتنشئة الشبان العرب الراغبين في الانضمام إلى حياة الإخوة الرهبانية. وفي عام ١٨٩٢، فُتحَت مدرسة لإعداد المعلّمين في بيت لحم تهدف إلى إعداد الشباب الفلسطيني من أجل الحصول على التأهيل الضروري للتدريس في مدارس الإخوة فيما بعد».

طوّر إخوة المدارس المسيحية نظام المدارس وأسلوب التعليم المتّبع منذ قرون. ودرّسوا في مدارسهم أربع لغات: العربية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية. وحظيت اللغة العربية برعاية الإخوة. وتوفّي مؤسّس مدارس الفرير في فلسطين، الأخ ايفاغر، في ١٩١٤/١/٢٦.

الرهبان الدومينكان

زار الأب ماتيو لوكونت (Mathieu le Comte) الدومينكاني فلسطين عام ١٨٨٢، وقد عزم «على إحياء رهبانية الدومينكان في فلسطين، إذ كانت مزدهرة في الأرض المقدّسة في العصور الوسطى». وفي هذه الأثناء تمّ اكتشاف أثري في حي المصرارة (شمالي باب العامود خارج أسوار القدس). والآثار المكتشفة عبارة عن كنيسة بنتها الامبراطورة أفدوكيا عام ٤٦٠م في الموضع الذي يقول التقليد انه مكان استشهاد الشماس اسطفانس. فاشترى الرهبان الدومينكان الموقع على مراحل بين عام ١٨٨٣ و١٨٨٨. وشرع الأب لوكونت في اصلاح وترميم مبنى قديم مهجور كان في الأرض التي اشتراها، وحوّله إلى مسكن للرهبان الدومينكان، واستقرّ فيه الرهبان في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٤. وبدأت أعمال الحفريات والتنقيب والترميم، فعثر على مخطط

الكنيسة البيزنطية القديمة. وبنى الدومينكان كنيسة كبيرة على اسم القديس اسطفانس، جرى تدشينها في ١٣ أيار (مايو) ١٨٩٠، وتمّ العمل في الدير عام ١٨٩١. وقد خطفت يد المنون العديد من الآباء الدومينكان الأوائل الذين ساهموا في بناء الدير والكنيسة، فقيل في ذلك: «لقد قام دير القدّيس اسطفانس على القبور».

في عام ١٨٨٨، طرح الدومينكان في القدس فكرة إنشاء كلية لاهوت في ديرهم لتدريس علوم الكتاب المقدس واللغات الشرقية، وأيّد البابا لاون الثالث عشر هذه الفكرة. وصادق البطريرك براكو أيضاً على المشروع. فافتتح المعهد لدراسات الكتاب المقدّس (L'Ecole Biblique) في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٠. ومن معلّمي هذا المعهد العلاّمة المشهور في دراسات الكتاب المقدّس الأب لاكراغ (Lagrange). وتسلّم الأب المذكور رئاسة الدير والمعهد معاً. وأصدر المعهد في عام ١٨٩٢ مجلة متخصّصة في دراسات الكتاب المقدّس «المجلة الكتابية» (La Revue Biblique). والمعهد والمجلة قائمان حتى يومنا هذا. والمعهد الكتابي متخصص في الدراسات العليا في الكتاب المقدّس والأبحاث الأثرية الفلسطينية والشرق أوسطية واللّغات الشرقية القديمة، ويؤمّه طلاّب العلم من مختلف أنحاء العالم للاشتراك في مساقاته.

رهبانية الوردية

جمعية راهبات الوردية مؤسسة رهبانية عربية محلية تقبل في عضويتها الفتيات

الأب يوسف طنوس

العربيات، أسّسها الأب يوسف طنوس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو من كهنة البطريركية اللاتينية الأوائل. وقد شغل عدّة مناصب: أمين سر البطريركية اللاتينية وممثّلها لدى السلطات العثمانية، ونائب البطريرك فاليركا في قصادة بيروت، في أثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الأول. وبحكم موقعه في الإكليرس البطريركي، اطّلع الأب طنوس على ما يعانيه الكهنة في إرسالياتهم وخصوصاً تجاه عالم المرأة، فهي جاهلة غير مثقّفة وبعيدة عن الكنيسة. ففكّر في إنشاء رهبانية محلية، «لرفع مستوى المرأة العربية دينياً وأخلاقياً وإنسانياً، وجعلها قادرة على تربية أولاد صالحين». من جهة أخرى «كان على كل شابة

تريد الترهّب أن تغادر الوطن إلى فرنسا لمتابعة الدراسة، وكان ركوب البحر مجازفة كبيرة والذهاب إلى الغرب تحدّيًا لتقاليد العائلات المسيحية».

فلمّا سألت سلطانة دانيل غطاس المولودة في القدس عام ١٨٤٣ أباها أن تترهّب، رفض طلبها للسبب المذكور أعلاه. وكانت أول فتاة فلسطينية تلتحق بهذه الرهبانية وأُطلق عليها في الرهبانية اسم ماري ألفونسين. ولقد قاسمت ماري ألفونسين الأب طنوس أمله في إنشاء رهبانية وطنية. وسار كل منهما إلى هدفه في درب مختلف، إلتقيا فيما بعد في مشروع رهباني وطني واحد، وهو رهبانية الوردية.

طرح الأب طنوس فكرة إنشاء رهبانية وطنية على البطريرك براكو فلاقت قبولاً واستحساناً. وكان الأب يوسف مرشداً لأخوية بنات مريم، وتضمّ الأخوية عدداً من الفتيات المقدسيات التقيات. فعرض الأب يوسف مشروعه عليهنّ، فإذا بعضهنّ يتمنّى وجود مثل هذه الرهبانية لتحقيق دعوتهنّ. «كانت خمساً الفتيات اللواتي قرّرن في البداية تكريس ذواتهنّ لله في الرهبانية الجديدة. وكنّ من عائلات القدس العريقة، وهذه أسماؤهن: ريجينا كارمي وعفيفة أبو صوان وجليلة عبيس وحنة غطاس وأمينة حبش. وقد واجهن من الأهل والأقارب مقاومة عنيفة. صحيح أن الناس يحترمون الراهبات ويقدّرون أعمالهنّ في المدارس. ولكنّهم يرفضون أن تصبح بناتهنّ راهبات». واجتازت الفتيات مرحلة المعارضة التقليدية وفزن بمبتغاهن. وفي ٢٤ تموز (يوليو) ١٨٨٠، أخذن بيتاً قرب دار البطريركية، والتحقت بهنّ أربع فتيات أُخَر، فصرن تسعاً. وفي ١٥ كانون الأول (ديسمبر)، منحهن البطريرك براكو الثوب الرهباني في احتفال خاص.

أما الراهبة ماري ألفونسين فظلّت تراودها فكرة تأسيس رهبانية وطنية. وتأكّد عزمها بظهور العذراء لها مرات متتالية منذ عام ١٨٧٤، ودارت الظهورات حول دعوة الراهبة والرهبانية المزمع إنشاؤها. فتوجّهت الراهبة إلى البطريرك والأب يوسف طنوس الذي رأى في الراهبة الرائية إشارة سماوية لمتابعة مشروعه الرهباني. وانتقلت الأم ماري ألفونسين من جمعية راهبات مار يوسف إلى رهبانية الوردية الجديدة في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨٣. وأمرها مرشدها الأب يوسف بكتابة مذكّراتها حول ظهورات العذراء لها. وظلّ سرّها مكتوماً حتى مماتها. وعاشت حياة خفية بسيطة، ولم يطّلع أحد على سرّها حتى ولا أختاها حنة وريجينا اللتان انضمتا إلى رهبانية الوردية قبلها. فأختها حنة التي غدت رئيسة عامة للرهبانية جهلت حقيقتها إلى أن اطّلعت على مذكّراتها بعد وفاتها، «كان الخامس والعشرون من آذار (مارس) سنة ١٩٢٧، هو اليوم الذي انتقلت فيه الأم ماري ألفونسين إلى رحمة الله. ولم يدرِ في خلد أي من راهبات الوردية أنّ المؤسّسة الحقيقية للرهبانية قد غابت عن الوجود». ولهذا تعُدّ راهبات الوردية الأم ألفونسين مؤسّستهنّ مع الأب يوسف طنوس.

عيّن الأب يوسف طنوس للراهبات المبتدئات معلّمة هي الأخت روزالي ناصر من راهبات الناصرة. وفي ٧ آذار (مارس)

١٨٨٥، أبرزت المبتدئات النذور الرهبانية الكبرى، «وأخذن يتطلعن التعيين في إرساليتهنّ الجديدة». فوجدت فيهنّ البطريركية خير معين لكهنة البطريركية للعمل في القطاع النسائي، وعملهنّ الرئيس تعليم الدين المسيحي في مدارس البنات وتلقين مبادئ اللغة والخط. وتوفي الأب يوسف طنوس في الناصرة في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٢، ودفن في دير راهبات الوردية في ماميلا بالقدس.

وما هي إلاّ بضع سنوات حتى كانت راهبات الوردية العربيات يعملن في معظم رعايا البطريركية، وقد شاركن كهنة البطريركية مشقات الحياة الصعبة في مراحل التأسيس الأولى. وما زالت الرهبانية قائمة إلى اليوم وهي مزدهرة وقد انتشرت في معظم البلدان العربية.

الفصل الرابع

بطاركة القرن العشرين

البطريرك لودوفيكو ييافي (١٨٨٩-١٩٠٧)

توفي البطريرك منصور براكو في فجر التاسع عشر من حزيران (يونيو) عام ١٨٨٩ وهو في السنة الرابعة والخمسين من عمره، قضى منها ستة عشر عاماً بطريركاً للقدس. وازدهرت البطريركية بالرعايا التي أسّسها والمؤسسات الرهبانية التي دخلت في عصره للعمل في الأبرشية الأورشليمية. وفي يوم وفاته، تهافت الشعب كله على اختلاف دياناته من المسيحيين والمسلمين واليهود لزيارة رفاته،

الأخت ألفونس دانيال

وكان الجميع ينعته بالرجل القدّيس.

خلفه في الثامن من أيلول (سبتمبر) ١٨٨٩ البطريرك لودوفيكو يبافي (Ludovico Piavi). وقيل فيه انه دبلوماسي جامد الملامح، يخفي وراءها قلباً يطفح بالحيوية. وهو راهب فرنسسكاني أهلّته السنوات الثلاث والثلاثون التي قضاها في الشرق لمنصب بطريرك القدس.

وُلد يافي في بلدة رفينا (Ravena) بإيطاليا في ١٧ آذار (مارس) ١٨٣٣. وعندما بلغ السبعة عشر عاماً، التحق بالرهبانية الفرنسسكانية، ورسِم كاهناً عام ١٨٥٥، ودخل في خدمة حراسة الأراضي المقدّسة التي أرسلته إلى حريصا لتعلّم العربية، فأتقنها. ثم عُين في حلب. وبعد فترة وجيزة تسلّم إدارة الكلية الفرنسسكانية فيها. على أثر وفاة

البطريرك فاليرغا سنة ١٨٧٢، عيّن قاصداً رسولياً لبلاد سورية، ورسم أسقفاً في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٦.

ولمّا عيّن بطريركاً، استعان بأسقفين مساعدين لإدارة أبرشيته، وهما باسكال أبوديا سنة ١٨٩١، ولويس بيكاردو سنة ١٩٠٢. وفي عهده عقد المؤتمر القرباني بالقدس سنة ١٨٩٣، وزار إمبراطور ألمانيا فلهلم الثاني القدس عام ١٨٩٨.

لم ينشئ يافي رعايا جديدة إلاّ رعية الجيدل، وعهد بها إلى الآباء الفرنسسكان. فقد اهتمّ سلفاه فاليرغا وبراكو بإنشاء الرعايا، أما هو فقد عمل على تقوية هذه الرعايا وتثبيتها. كتب أحد مؤرّخيه: «وجّه البطريرك يافي جهوده إلى تطوير الرعايا القائمة وتزويدها بالخدمات الضرورية... فمعظم الرعايا مزوّدة بكنائس وأديار مؤقّتة لا تتناسب وعدد المؤمنين، وهي غير صحّية لسكنى المرسلين. ومن حسن حظ البطريرك أنه وجد بين كهنته مهندساً موهوباً ومخلصاً هو الأب باربيرس (Barberis) الذي أشرف على بناء المعهد الإكليريكي في القدس سنة ١٨٩٠-١٨٩١»، كما أشرف على أبنية عديدة في مختلف الرعايا.

أمّا التوقّف عن إنشاء رعايا جديدة فقد يكون مردّه أيضاً إلى سياسة البابا لاون الثالث عشر خليفة بيوس التاسع، والذي شجّع على دعم الطوائف الشرقية الكاثوليكية المتحدة بروما. وظهر في المؤتمر القرباني الذي عقد في القدس سنة ١٨٩٣ أول اعتراض علني على سياسة مجمع نشر الإيمان الرامية إلى توطيد حضور الكثلكة في فلسطين والبلاد المجاورة من خلال الطقس اللاتيني والمرسلين اللاتين. وقاد معارضة تيّار «الليتنة» البطاركة الشرقيون والشخصيات الفرنسية في المؤتمر، ممثّلة بالآباء البيض وآباء الأسومبسيونست، في حين أيّد وجهة النظر المعاكسة الرهبان الفرنسسكان والبطريركية اللاتينية طبعاً وأنصار مجمع نشر الإيمان. وسوف تستمرّ هذه المعارضة فتظهر عند كل تعين بطريرك جديد، في محاولة لإلغاء البطريركية اللاتينية. وقد نوقشت القضية بجدّية في المجمع الفاتيكاني الثاني. إلاّ أن الكنيسة رأت ان في هذه المؤسسة فائدة للكنيسة المحلّية كما وللكنيسة عامة. واليوم وقد أصبحت البطريركية من حيث الاكليرس والمؤمنون من أبناء الأرض، أعني من فلسطين والأردن، فقد أصبح مصير البطريركية خياراً يقرّر فيه أبناء الأرض والبلد أنفسهم.

وقد تخرّج في عصر البطريرك يافي ثمانية عشر كاهناً من اكليريكية بيت جالا، واثنا عشر منهم من أبناء الأبرشية، ومن بينهم أول كاهن من شرق الأردن وهو الأب سليم الزعمط. وكان مرسلو البطريركية يتلقّون العون من الإكليرس الماروني والآباء الفرنسسكان ومختلف الرهبانيات التي استقدمها البطاركة في هذا القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وصرف البطريرك جهوده إلى تأسيس المدارس في الريف، لأن المدارس الرهبانية تمركزت في المدن، في القدس ويافا والناصرة وبيت لحم وحيفا. وأما القرى فظلّت مهملة. فانصرفت البطريركية إلى خدمتها، ودعمت

جمعية كولن الألمانية جهود البطريركية في تأسيس المدارس في هذه القرى، وقد تأسّست هذه الجمعية عام ١٨٥٥ وعرفت باسم جمعية الأرض المقدّسة (Verein Das Heilige Land)، لدعم الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين.

البطريرك فيليب كماسي (١٩٠٧-١٩١٩)

في اليوم الرابع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٥، توفّي البطريرك يافي عن عمر يناهز السبعين عاماً، ودفن بجوار أسلافه في الكنيسة الكاتدرائية المرافقة. وخلفه البطريرك فيليب كماسي (Camassei) عام ١٩٠٧.

عاصر كماسي أحداث الحرب العالمية الأولى، وفي هذه الفترة أغلقت المدارس الفرنسية والإيطالية، وسجن عدد من كهنته ورهبانه. وأخيراً نفاه العثمانيون إلى الناصرة في ١٩١٧/١١/١٠، فحلّ ضيفاً على الآباء الفرنسسكان، وتابع من الناصرة الإشراف على رعايا البطريركية في شمالي فلسطين، في حين عيّن نائباً له في القدس في ١٩١٧/١١/٢٤ المطران فرنسيس فيلينجر (François Fellinger) لرعاية الطوائف والأديرة في بقية فلسطين وشرق الأردن. وفي ١٩١٨/١١/٣، عاد البطريرك إلى القدس، وكان الكرسي الرسولي قد بعث من رومة مساعداً له هو المنسنيور لويس بارلسينا (Barlassina) في ١٩١٨/١٠/٢٨. وبعد فترة وجيزة، سافر البطريرك إلى رومة ليأخذ قسطاً من الراحة لما عاناه من أحداث الحرب وليقوم بزيارة رسمية للفاتيكان. فأنعم عليه البابا بندكس الخامس عشر بالرتبة الكردينالية في ١٩١٨/١٢/١٣. وتوفّي في رومة في ١٩٢١/١/١٨، ودفن فيها.

البطريرك لويس بارلسينا (١٩٢٠-١٩٤٧)

اعتلى العرش البطريركي الأورشليمي بعد كماسي نائبه العام لويس بارلسينا (١٩٢٠-١٩٤٧). كان على البطريرك بارلسينا ان يواجه الدمار الذي خلّفته الحرب العالمية الأولى، فأولى جلّ اهتمامه لترميم إرساليات البطريركية وبناء المدارس والكنائس. وعاد إلى فتح الرعايا الجديدة في شرق الأردن وفلسطين، ولا سيّما في القرى البعيدة والمهملة دينياً واجتماعياً، حيث كانت الخدمات العامة كلها ناقصة من طرق أو ماء أو كهرباء.

وقد ظهرت في عصر البطريرك بارلسينا (١٩٢٧) بوادر الاحتجاج والمطالبة بتعريب أجهزة البطريركية وإدارتها. وبدأت هذه الظاهرة في رعية مادبا وهي كبرى رعايا البطريركية في شرق الأردن. وقاد حركة الاحتجاج مجموعة من رجال الرعية أطلقت على نفسها اسم «لجنة الاصلاح». وبعثت بالعرائض إلى البطريرك والشخصيات المسيحية في الضفتين وأهم مطالبها: تعيين نائب بطريركي عربي في عمان ورئيس عربي للمعهد الإكليريكي وتوظيف معلّمين محلّيين في مدارس البطريركية. واحتوت البطريركية هذه الظاهرة التي ظهرت بتأثير القضية العربية الأرثوذكسية التي دارت أحداثها في الحقبة عينها. واستطاع البطريرك أن يتعامل معها بكياسة. فلبّى مطالبها بصورة تدريجية حين توفّرت العناصر المحلية المطلوبة. عيّن نائباً عاماً له

في عمان المنسنيور أنطون زيتون سنة ١٩٢٧، وخلفه المنسنيور منصور جلاّد سنة ١٩٣٥، فالمنسنيور نعمة سمعان سنة ١٩٤٠. وكان هذا أول نائب بطريركي عام يرسم أسقفاً لشرق الأردن، وتمّ ذلك عام ١٩٦٥. وكان المطران منصور جلاّد أول أسقف عربي يرسم في القدس عام ١٩٤٧.

وكان بارلسينا شخصية قوية عاصر الانتداب البريطاني في فلسطين منذ بدايته وحتى نهايته. كما عاصر بداية التحرّكات القومية الفلسطينية واليهودية وتعامل معها بحكمة وبجرأة. فكان محامياً عن مصلحة الكنيسة والمسيحيين جميعاً. وقد حضر الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥). ورأى حكومة الانتداب البريطاني تفرض الأسر والإقامة الإجبارية على الجزء الكبير من الاكليرس الأبرشي والرهباني من الجنسيتين الإيطالية والألمانية. وبالرغم من الشدة المالية التي تعرّض لها بسبب هذه الحرب وانقطاع وصول الموارد إليه، فقد صرف همه إلى مساعدة اللاجئين المتضرّرين من هذه الحرب ولا سيّما من البولنديين الذين توافدوا في تلك الفترة على فلسطين. وتوفّي عام ١٩٤٧ قبل بداية المرحلة الحاسمة في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

ومن أهم أعماله الراعوية أنه وضع سلسلة من كتب التعليم المسيحي بصيغة السؤال والجواب، استخدمتها جميع المدارس الكاثوليكية الرهبانية والأبرشية وكانت الأداة لتربية الأجيال المسيحية في عهده وفي العهود التي تلته حتى المجمع الفاتيكاني الثاني.

وبقيت البطريركية من بعده في رعاية مدبّر

البطريرك ألبرتو غوري

رسولي تسلّم زمام الأمور فيها مدة ثلاث سنوات من ١٩٤٧-١٩٥٠، وهو القاصد الرسولي «تستا».

البطريرك ألبرتو غوري (١٩٥٠-١٩٧٠)

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى شهدت فلسطين وشرق الأردن، كما وسائر البلاد العربية، انقلاباً حاسماً في تاريخها. فقد وضعت الحرب حدّاً للحكم العثماني الذي دام خمسة قرون. ونشأت الدول العربية الحديثة. وكذلك نشأت إمارة شرق الأردن في جنوب سورية بقيادة الأمير عبد الله بن الحسين. وقد طورت العائلة الهاشمية البلاد وتعاونت مع العشائر البدوية في شرق الأردن، وخلقت في

هذا القرن العشرين دولة حديثة نعمت بالاستقرار والهدوء.

وفي فلسطين بدأ أيضاً نظام حكم جديد هو الانتداب البريطاني. وفي الوقت نفسه بدأ الصراع بين القوميتين الفلسطينية واليهودية. وقد بدأت التحركات الدبلوماسية من قبل قادة الحركة الصهيونية منذ القرن الماضي لدى السلطنة العثمانية. واستمرّت هذه التحركات لدى الحكومة البريطانية. ووقعت الصدامات الأولى الدامية بين العرب واليهود في فلسطين عام ١٩٢٠. ثم تتالت أعمال المقاومة والعنف بين الطرفين. وكانت المقاومة من كلا الطرفين معاً، اليهودي والفلسطيني، توجّه الضربات أيضاً إلى حكومة الانتداب البريطاني. وفي عام ١٩٤٨ قرّرت بريطانيا ان تنسحب من فلسطين. فبدأ الصراع الحاسم بين الفلسطينيين والدول العربية من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى. وأُعلِن عن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ في القسم الغربي من فلسطين، في حين انضمّ القسم الشرقي إلى أمارة شرق الأردن وكوّن معها المملكة الأردنية الهاشمية. وبدأت بذلك حقبة تاريخية جديدة الملامح سياسياً وحضارياً وثقافياً. ونشطت في هذه الفترة الأحزاب القومية المختلفة مناوئة للحكومات القائمة. وكان للمسيحيين عامة قسط كبير في الوعي السياسي الجديد.

وأصبحت الأبرشية البطريركية اللاتينية تقع في قسمين مختلفين منعزلين سياسياً بعضهما عن بعض، الأول هو المملكة الأردنية الهاشمية والثاني دولة إسرائيل. وأصبحت أوضاع الناس صعبة، لأنها أخذت تعيش في وضع صراع مستمر ومتعدّد الأشكال والطرق بين الشعبين اليهودي والفلسطيني أو الأردني. وقد تأثّرت بهذا الصراع كافة الشعوب العربية.

وأصبح الاتصال بين جزئي الأبرشية، الأردن واسرائيل، شاقاً وأحياناً غير ممكن. وكان مقرّ البطريركية في القدس القديمة، أعني القسم الأردني. وبقي البطريرك وحده مع بعض الأشخاص من حاشيته قادراً على زيارة قسم الأبرشية الواقع في دولة اسرائيل الجديدة.

وأتاح الله للبطريركية أن يدير شؤونها في هذه الفترات الانتقالية شخصيات مؤمنة قوية الاتصال بالله وبالناس وبالسلطات الحاكمة التي كانت تصوغ وجه البلاد الجديد.

وفي القدس، بعد فترة الوصاية، من ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠، عيّن البطريرك ألبرتو غوري (Alberto Gori) (١٩٥٠–١٩٧٠). وقد اهتمّ بتنظيم شؤون البطريركية بعد أن تغيّرت معالمها بسبب التقلّبات السياسية الجديدة في اسرائيل وفلسطين والأردن. فقد زال بعض الرعايا عن الوجود بسبب رحيل الناس وهجرة اللاجئين، مثل رعيّتي اللدّ وبيسان في اسرائيل، أو بقيت الكنائس مفرغة من مؤمنيها مثل الجيدل وطبريا في اسرائيل أيضاً، في حين ظهرت رعايا جديدة في شرق الأردن تكوّنت من اللاجئين الفلسطينيين ومن بداية تحرّك أردني داخلي من الريف إلى المدينة. فرعية عمان مثلاً التي كانت تعدّ بعض المئات أصبحت تعدّ الألوف، وفيها اليوم (عام ١٩٩٥) تسع رعايا مستقلة. ونشأت مدينة الزرقاء أيضاً وأصلها معسكرات للجيش الأردني وأماكن سكن لعائلات الجيش. وفيها نشأت رعيتان للاتين.

وتضاءلت بعض المراكز القديمة في شرق الأردن مثل رعية السلط، إذ أصبحت المرتبة الأولى الآن لعمان. وأصبحت رعية نابلس في فلسطين بعد هجرة الدوائر الحكومية عنها رعية صغيرة لا شأن لها من ناحية مسيحية. وأما القدس فقد شهدت تقلّصاً كبيراً في عدد المسيحيين، فبعد أن كان عددهم يربو على الثلاثين ألفاً عام ١٩٤٨، أخذ يتقلّص بعد هذا التاريخ حتى بلغ السبعة عشر ألفاً عام ١٩٦٧. واليوم في عام ١٩٩٥، لا يكاد يصل إلى العشرة آلاف. وأمّا في مدينتي الجليل، الناصرة وحيفا، فقد تضخّم عدد المسيحيين، وذلك بسبب هجرة القرى إليهما.

النائب البطريركي في اسرائيل

كان منذ البداية نائب بطريركي يقيم في الناصرة، لرعاية شؤون الكنيسة في شمال فلسطين. فأصبحت رسالته مع الظروف السياسية الجديدة أكثر أهمية. وكان النائب البطريركي عام ١٩٤٨، يوم وقوع الانقسام وولادة دولة اسرائيل، الأب أنطون فرغاني. وقد قام في هذه الفترة الانتقالية بجهود لا تثمن في سبيل تنظيم شؤون الكنيسة، بل وشؤون الشعب العربي كله، في المرحلة الانتقالية الدقيقة. ودافع عن الفقير والمظلوم وأحسن مخاطبة الدولة الجديدة لمساعدة كل محتاج.

ومن بعده أصبح النائب البطريركي في الناصرة أسقفاً. وعيّن أول مطران للناصرة من بين الرهبان الفرنسسكان وهو المطران كيابيرو. ثم خلفه مساعده المطران حنا كلداني عام ١٩٦٤، من مواليد مادبا في شرق الأردن عام ١٩١٨، وقد منحه البابا بولس السادس، لمّا حجّ إلى الأرض المقدّسة عام ١٩٦٤، خاتم الحبرية في دار النيابة البطريركية في الناصرة.

النائب البطريركي في الأردن

عام ١٩٤٨، كان النائب البطريركي في شرق الأردن الأب نعمه السمعان من مواليد الرامه في شمال فلسطين عام ١٩٠٨. عين نائباً بطريركيا في عمان منذ عام ١٩٤٠. وقد واكب ميلاد المملكة الأردنية الهاشمية وتكوينها وعرف جميع رجالاتها. أشرف عام ١٩٤٨ على مجيء اللاجئين، إذ فتحت الأديرة والمدارس لاستقبالهم وتقديم أول مأوى لهم. وتبدّل وجه الرعايا بمقدم اللاجئين المسيحيين إليها من فلسطين. فألزم هذا التحرك السكاني داخل البطريركية توفير أبنية جديدة عديدة من كنائس ومدارس.

وكان النائب البطريركي نعمه السمعان من أبرز الشخصيات المسيحية في عصره. وقد عمل بغيرة وإخلاص، لا في سبيل الكنيسة الكاثوليكية فقط، بل وفي سبيل جميع المسيحيين أيضاً. ولهذا تعاونت معه الكنيسة الأرثوذكسية أيضاً وسائر الكنائس في عمان، لمَا أبدى من مقدرة وكفاءة في خدمته للمسيحيين جميعاً.

آثار الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧

صرف البطريرك ألبرتو غوري جهده اذن إلى مواجهة الظروف الجديدة. فبنى الكنائس والمدارس في المواقع الجديدة ونظّم الأبنية

القديمة، كما بدأت في عهده حركة دينية نشطة بدخول شتى أشكال الرسالة التي عرفت باسم «العمل الكاثوليكي» ومثلها أيضاً الأخوية المريمية. وتمّ في عهده توسيع المدرسة الإكليريكية في بيت جالا. كما تمكّن من تنظيم مالية البطريركية بمساعدة جمعية فرسان القبر المقدّس، في حين كان سلفه بارلسينا قد تعرّض لأزمة مالية خانقة من جرّاء الحرب العالمية وقلّة الموارد المحلّية.

وفي عهد البطريرك ألبرتو غوري، وقع أيضاً الانقلاب العسكري والسياسي الثاني الذي غيّر وجه الأبرشية مرة ثانية، في أقل من عشرين سنة، وهي الحرب الاسرائيلية العربية عام ١٩٦٧، والاحتلال الاسرائيلي للقسم الباقي من فلسطين. فأصبحت الأبرشية في عهده ثلاثة أقسام. القسم الأول القدس المحتلّة والضفة الغربية وقطاع غزّة، والثاني اسرائيل والثالث الأردن. وظلّت صعوبة التنقل بين أقسام الأبرشية قائمة. ولهذا بدأت تتكوّن في كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة من الأبرشية عقليات يختلف بعضها عن بعض من ناحية اجتماعية وسياسية ووعي ديني، بالرغم من انتماء جميع المؤمنين إلى التاريخ الفلسطيني والأردني الواحد وإلى قاعدة المجتمع العربي الواحد.

ففي إسرائيل كان للمجتمع الإسرائيلي وللحضارة الإسرائيلية الغربية أثر في تكوين عقليات جديدة في المجتمع المسيحي عامة، تقيّم الأمور بحسب المقاييس المادية، ولا تقبل بالمسلّمات. وتولّدت فئة ابتعدت عن الكنيسة، في حين بقيت فئة أخرى قريبة منها، بل تجد في الكنيسة ملجأً وملاذاً في الأوضاع الجديدة التي زعزعت المسلّمات والتقاليد. وقد ساعد على رسوخ خصوصيات هذه العقلية الجديدة العزلة السياسية التي أحاطت بدولة اسرائيل، ولا سيّما فيما يختصّ بالاتصال مع الدول العربية. فلم يتمكّن المؤمنون من الاتصال بسائر الرعايا أو سائر المسيحيين في القسمين الباقيين من الأبرشية.

وفي الضفة الغربية المحتلة والمتعاملة مع احتلال وحكم عسكري، أخذت تتكوّن عقلية المقاومة، وأصبحت الشبيبة بمجملها مسيّسة، ملتزمة تقريباً كلها مع مختلف الأحزاب السياسية من الوسط واليسار. وقد أثّر ذلك إلى حدّ بعيد في مهمة المدارس ورسالتها التربوية وكما وفي مهمة العائلة وسلطتها على الأبناء والبنات.

وفي الأردن ظلّ المجتمع محافظاً على التقاليد، متمسكاً بالقومية العربية وقيمها، بالرغم من انفتاحه النسبي على الحضارة الغربية. وظلّت مهمّة المدرسة والكنيسة والعائلة أكثر يسراً في تعاملها مع الشبيبة والأجيال الصاعدة.

البطريرك يعقوب بلتريتي (١٩٧٠–١٩٨٧)

عام ١٩٧٠، خلف البطريرك بلتريتي البطريرك ألبرتو غوري الذي وافته المنية في هذا العام وهو في الثمانين من عمره. والمطران بلتريتي كان أسقفاً معاوناً لسلفه وله حق الخلافة بموجب براءة بابوية سابقة. وهو أول بطريرك يعيّن من كهنة الأبرشية، في حين كان جميع أسلافه قادمين من أبرشيات أخرى. وهو إيطالي، ولكنه نشأ منذ صغره في إكليريكية

بيت جالا، وأتمّ جميع دروسه فيها وأتقن اللغة العربية. ورسم كاهناً للأبرشية البطريركية اللاتينية.

لم تتغيّر الأوضاع السياسية في زمنه، بل استمرّت الهوّة تزداد من ناحية العقليات وأنماط المعيشة والنظر إلى الأمور في أقسام الأبرشية الثلاثة. وسار البطريرك يعقوب بلترتي على آثار سلفه، فتابع عمله في البناء والترميم. وكانت له الرسائل الراعوية العديدة، في شتى المواضيع الدينية، إذ كان في كل عام تقريباً يوجّه رسالة إلى أبرشيته، إكليروساً ومؤمنين.

وفي عهده أُعيد تنظيم الإكليريكية في بيت جالا من حيث فريق الكهنة الذي كان يديرها. ففي أول نشأة المعهد، أداره كهنة البطريركية أنفسهم، وقد مرّ بنا أن البطريرك فالرغا تولّى في مرحلة التأسيس إدارة المعهد بنفسه. وفي فترة لاحقة، في بداية القرن العشرين تولّى إدارة المعهد رهبان البندكتان الألمان من جبل صهيون. واستمرّوا في أداء هذه الرسالة للإكليروس الأبرشي حتى عام ١٩٣٢. وفي هذه السنة عهد البطريرك بارلسينا بإدارة الإكليريكية إلى رهبانية فرنسية تأسّست في أواسط القرن التاسع عشر في جنوب فرنسا، واسمها «جمعية آباء قلب يسوع الأقدس» أو آباء بيتارام»، نسبةً إلى البلدة التي نشأت فيها الرهبانية. وكانت رهبانية حديثة نشطة معروفة بتقواها وعلمها. فأنشأت أجيال الكهنة في البطريركية حتى عام ١٩٨٠. ولمّا تعسّر على الرهبانية الاستمرار في هذه الرسالة نظراً إلى تناقص أعداد أعضائها، من جرّاء الأزمة الدينية العامة التي ألمّت بأوروبا في السبعينات وما بعدها، عاد البطريرك بلترتي وعهد بإدارة الإكليريكية إلى كهنته الأبرشيين. وأول كاهن عهد إليه بهذه المهمة هو الأب سليم الصائغ، وكان إذ ذاك رئيساً للمحكمة الكنسية اللاتينية في القدس. وما زال فريق كهنة من البطريركية يقوم بإدارة هذا المعهد إلى اليوم.

واهتمّ البطريرك يعقوب بلترتي بكتب التعليم المسيحي في مدارس الرعايا. فأشرف على ترجمة وتأليف عدّة سلاسل من الكتب، منها «النور البهي» و«نور الحياة». وهي كتب معدّة لجميع الصفوف منذ الابتدائي الأول وحتى نهاية المرحلة الثانوية في الصف الثاني عشر.

وقد بدأت محاولة لتجديد كتب التعليم المسيحي في الأبرشية بحسب الأساليب التربوية الجديدة في عهد البطريرك بلترتي، ثم استمرّت في عهد خلفه البطريرك ميشيل صبّاح، وأشرف على هذه المهمّة الأب رفيق خوري، المسؤول عن قسم التربية المسيحية في الأبرشية.

ولمّا بلغ البطريرك يعقوب بلترتي الخامسة والسبعين من عمره قدّم استقالته إلى الكرسي الرسولي، عملاً بما يوصي به الحق القانوني الجديد. وهو أول بطريرك في الأبرشية يقدّم استقالته. واستمرّ في مهامّه حتى عيّن الكرسي الرسولي خلفاً له البطريرك ميشيل صبّاح في نهاية عام ١٩٨٧. وقضى آخر سنيه في دير رافات وهو مزار لسيدة فلسطين على مسافة نصف ساعة من القدس. ووافته المنية في إحدى زياراته إلى القدس في ١ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٩١.

البطريرك ميشيل صبّاح

تمّ تعيينه بطريركاً في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧. وقبل الرسامة الأسقفية من يد البابا يوحنا بولس الثاني في ٦ كانون الأول (يناير) ١٩٨٨. كان نبأ تعيينه مفاجأة للكنيسة وللعالم. وأبرزت وسائل الإعلام العالمية هذا الحدث بصورة لم يسبق لها مثيل. ذلك ان قضية الشعب الفلسطيني كانت تمرّ في مرحلة حاسمة استرعت انتباه الدول ووسائل الإعلام بصورة مكثّفة. والبطريرك المعيّن جديداً ليرأس كنيسة القدس فلسطيني مولود في الناصرة عام ١٩٣٣. وكان قد غادر الناصرة إلى المعهد الإكليريكي في بيت جالا في عهد الانتداب البريطاني وقبل قيام دولة إسرائيل. وفي أواخر ١٩٨٧، بدأت الانتفاضة الفلسطينية والمقاومة العنيفة للاحتلال الإسرائيلي. وأصبح السؤال في كل محفل: هل يستطيع الشعب الفلسطيني أن يحكم نفسه وأن ينجح في هذه المرحلة الأخيرة من مقاومته؟

ورأى الكثيرون في هذا الاختيار من قبل البابا يوحنا بولس لثاني اختياراً له دلالة خاصة وعلاقة مباشرة بما يجري من أحداث في فلسطين واسرائيل. وكان البطريرك الجديد أول بطريرك من أبناء الأبرشية. وجعلت منه وسائل الإعلام العالمية، بكثرة المقابلات التي أجرتها معه منذ بداية عهده وفي ما بعد أيضاً وجهاً عالمياً، لا يهم كنيسته وأبرشيته وحسب، بل والعالم، ولا سيّما في ما يتعلّق بقضية العلاقات بين الشعبين الفلسطيني والاسرائيلي. وهو في قرارة نفسه يعتبر مجال عمله الأول حمل رسالة الكنيسة وإنجيل ربنا يسوع المسيح. وبعد تسلّمه مهامّ البطريركية في القدس، وبعد فترة وجيزة من الصمت وتلمس الطريق في ما يختصّ بالأوضاع العامة في فلسطين، أخذ يتكلّم ويعبّر بجرأة عن موقف الكنيسة. وتناولت رسالته الراعوية الأولى في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٨٨ جوهر الرسالة الأسقفية، أعني الإيمان، وعلى ضوء الإيمان تناول مواضيع السلام في ما يختصّ بالعلاقات الفلسطينية العربية الإسرائيلية، والحوار مع الأديان، الإسلام واليهودية، وواقع الأقلية المسيحية ودورها، وأخيراً دور الرهبان والراهبات في الأرض المقدّسة. وفي الرسالة الثانية «اسألوا السلام لأورشليم»، نشرها في عيد العنصرة عام ١٩٩٠، تناول قضية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بصراحة. وقد ورد في بداية رسالته: «بدأ هذا الصراع بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي منذ سنين بعيدة. والكثيرون منكم ولدوا فيه. ومذ رأوا النور، فتحوا أعينهم على المأساة التي فرضت على آبائهم. فوجدوا أنفسهم، وقد زجّ بهم في المأساة بلا رحمة، منذ بداية حياتهم. وما زال الوضع يسوء يوماً بعد يوم». واستعرض معطيات الانتفاضة التي أثّرت في الشعب والكنيسة معاً. فالشعب هو الكنيسة. وتكلّم على الحلول. وقال انه لا بدّ من ان يتكلّم الخصمان وجهاً لوجه، وأكّد، يوم كان المجتمع الاسرائيلي والكثيرون من المجتمع الدولي لا يرون في الفلسطينيين سوى إرهابيين، أنّه لا بدّ من أن يكون الحوار بين الخصمين، والخصمان هما إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. ومن حيث العنف، قال انه ليس

طريقاً للحل: «لن يكون العنف بين إرشاداتنا. . . وإن موقفنا من كل ظلم وعنف وإرهاب ومن جميع مظاهر العنف هو شجب لكل ظلم ولكل عنف وإرهاب، مهما كان مصدره، سواء كان الدولة أم الجماعة أم الفرد». وطرح السؤال المباشر بهذه الصورة: «يسألوننا مراراً: هل تؤيّد الكنيسة المظاهرات والضجيج والعنف والانتفاضة؟ وقد أجبنا دوماً بما يلي: ليس هكذ يطرح السؤال. بل السؤال الذي يجب أن يطرحه كل صاحب إرادة صالحة وصادقة هو التالي: هل يحقّ لشعب ما ان يطالب بحقوقه وهل هو ملزم بذلك؟ فان كان الجواب بالإيجاب فهو إذن ملزم بالمطالبة. ويحقّ له ان يسمع صوته لينال حقوقه. لا يحقّ لأحد، لأيّ حجّة كانت، ان يطالب أناساً مظلومين بالسكوت. وألاّ يطالبوا بحقوقهم. ولكنّا نقول أيضاً انه لا يحقّ لأحد ن يملأ بحقد عقيم قلوب المظلومين، إذ إن الهدف ليس كراهية الخصم، بل تحقيق العدالة».

واتّهمت الحكومة الإسرائيلية البطريرك الجديد بأنه يتدخّل في السياسة وفي قضايا لا صلاحية له للكلام فيها، وانه منحاز إلى جهة دون أخرى. وكان جوابه علناً: ان العمل السياسي المباشر ليس من اختصاص الكنيسة. ولكن من واجب الكنيسة ان تبيّن وتندّد بالسياسة التي تقرّر ظلم الناس، ومن واجب الكنيسة ومن صلاحياتها ان تدافع عن المظلوم أيّاً كان ظالمه وأيّاً كانت المجالات التي يظلم فيها. وأمّا في ما يختصّ بالانحياز، فكان ردّه أنّ الكنيسة لا تنحاز إلى أحد دون غيره، بل تنحاز إلى الفقير والمظلوم. والآن فالمظلوم هو الشعب الفلسطيني، فلا بدّ من رفع هذا الظلم عنه. وكان يقول لمخاطبيه من الإسرائيليين: عندما يصبح الشعب اليهودي هو المظلوم، سنقف أيضاً إلى جانبه لرفع الظلم عنه. وكانت هذه الرسالة الرعوية الأولى التي أسمعت الكنيسة فيها صوتها في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. وقد كان للرسالة صدى وأثر إيجابيان في الأوساط السياسية نفسها.

وأمّا رسالته الرعوية الثالثة فهي رسالة قصيرة وجّهها بمناسبة الصيام الأربعيني عام ١٩٩٠. وتناول فيها موضوع هجرة المسيحيين. وممّا جاء فيها: «أمام ظاهرة الهجرة فانه من واجبنا ان نقول: يجب ن تبقوا أمناء لوطنكم ولأرضكم وكنيستكم. فان الأيام الصعبة ليست أيام هرب، بل أيام ثبات وتضامن مع جميع من يتألّمون ويتحمّلون الصعوبات. فكل سفر هو إضعاف للإخوة الباقين وهو إضعاف للوطن والكنيسة الباقية، والتي من واجبها ان تبقى حيث أرادها الله. . . والعيش في الأرض المقدّسة هو دعوة وبركة ونعمة: دعوة توجه إلى النفوس القوية وإلى مواطنين يقتحمون الحياة الصعبة».

وتناول في الرسالة الرابعة التي نشرها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٣ موضوع الكتاب المقدّس والعهد القديم. وعنوان الرسالة «قراءة الكتاب المقدّس في أرض الكتاب المقدّس». عرض فيها موقف الفلسطيني المسيحي وتساؤلاته أمام العهد القديم، بسبب تسخير بعض الخصوم لكتاب الله وزجّه بصورة تعسّفية في الصراع السياسي. وقد طرح في بداية الرسالة ثلاثة أسئلة: «أولاً ما هي العلاقة بين

العهدين القديم والجديد؟ وثانياً ما تفسير قصص العنف الواردة في العهد القديم والمنسوبة إلى الله؟ وثالثاً، في العلاقات الحالية بين الإسرائيليين والفلسطينيين، كيف يمكننا ان نفهم أرض الميعاد والشعب المختار والعهد؟ أومن الممكن ان يفرض الإله العادل والرحيم الظلم والجور على شعب لصالح الشعب الذي اختاره؟».

وجاءت ردود فعل مختلفة على هذه الرسالة بعضها متحفظ جداً، ولا سيّما من قبل جماعات الحوار المسيحي اليهودي وفي مفهوم الأرض بالذات. لأن البطريرك قال ان مفهوم الأرض «قد تطوّر في مختلف مراحل الوحي: ابتداء بالمعنى المادي والجغرافي والسياسي وانتهاء بالمعنى الروحي والرمزي، ولم تعد عبادة الله مقيّدة بأرض بعينها. ليس هناك أرض محدّدة للعبادة. وليست الأرض القيمة الأولى والمطلقة. وإنّما الأول هو الله سبحانه وتعالى وعبادته».

وفي ما يختصّ بحقوق الشعبين اليهودي والفلسطيني والديانات الثلاث في أرض فلسطين، قال في ملخّص كلامه: «السؤال الأساسي الذي يطرحه الفلسطيني المسيحي وكل مؤمن بالكتاب المقدّس هو التالي: هل يعطي الكتاب المقدّس اليوم وهو كلام الله الحق للشعب اليهودي ليتملّك الأرض ويخرج منها الشعب الفلسطيني؟

ان اليهودي المؤمن — وكذلك الشعب اليهودي والدولة أيضاً — يجد نفسه أمام الموقف التالي: ان هذه الأرض هي أرض مقدّسة له. وقد وعد بها الله إبراهيم ونسله. وفي هذه الأرض يجد اليوم أمنه في وجه الشعوب التي اضطهدته في شتاته. وفي نظره، يشكّل الله والدولة والأرض مثلث أمنه وأمانه.

ولكن من جهة أخرى هذه الأرض نفسها هي منذ قرون ملك لشعب آخر هو الشعب الفلسطيني. ومنذ زمن التوراة أيضاً، بقيت هذه الأرض أرض شعب آخر عاش فيها جنباً إلى جنب مع الشعب اليهودي.

وهي بالإضافة إلى ذلك مهد المسيحية وموقع أحداثها الأساسية. فهي، بالنسبة إليها، الأرض المقدّسة الأولى. وهي للإسلام أيضاً أرض مقدّسة. إنها إذن أرض مقدّسة لجميع المؤمنين من اليهود والمسيحيين والمسلمين... فهناك إذن شعبان لهما حقوق سياسية في الأرض، وللديانات الثلاث تاريخها الديني في الأرض نفسها، وكلها من نسل إبراهيم من حيث النسب المادي أو الروحي. وقد وعد الله بالأرض لإبراهيم ونسله. فلمن تكون الأرض؟

باسم الدين يحق للديانات الثلاث حقاً متساوياً العيش في هذه الأرض أو التوجّه إليها لأداء واجب العبادة فيها. وأمّا الحق السياسي فيها لأي دين من الأديان الثلاثة أو أي مؤمن من مؤمنيها فهو متوقّف على العمل السياسي الذي تقوم به السلطات السياسية المعنيّة. وهذا العمل يحكمه القانون الدولي». وقد لاقت هذه الرسالة قبولاً، لمواجهتها الصريحة قضايا لم يتجرّأ أحد على مواجهتها حتى اليوم، في العالمين العربي والغربي. ولاقت ردود فعل متحفّظة من قبل بعض الجماعات التي تودّ الربط بين الكتاب المقدّس والوقائع الراهنة اليوم.

وبالإضافة إلى اقتحام هذا المجال في الحياة العامة، فقد عمل البطريرك الجديد على متابعة

تنظيم البطريركية الداخلي، ولا سيّما التركيز على ضرورة تعمّق العلماني في معرفة الإيمان واتّخاذ دوره في الكنيسة والتزامه في الحياة العامة.

خاتمة

البطريركية اللاتينية الأورشليمية اليوم

البطريركية اللاتينية الأورشليمية اليوم (في بداية ١٩٩٥) تَعُدُّ نحو سبعين ألف مؤمن في الأردن وفلسطين وإسرائيل وقبرص. وقد يقابل هذا العدد عدد مماثل من الكاثوليك اللاتين الأجانب المقيمين في البلاد من العمال ورجال الأعمال والسفارات المختلفة. وفي إسرائيل أيضاً جماعة ناطقة باللغة العبرية، بعضهم يهود متنصّرون وبعضهم ليسوا بيهود ولكنهم يعيشون في الوسط الإسرائيلي اليهودي، ولغتهم اليومية كما ولغة الليترجية هي اللغة العبرية. ويتبعون الطقس اللاتيني وهم جزء من الأبرشية. وعددهم قليل لا يتجاوز المئات.

ويَعُدُّ الإكليرس البطريركي الأبرشي اليوم نحو خمسة وثمانين كاهناً. وفي الأبرشية أعداد كبيرة من الرهبان والراهبات، منهم من يتفرّغ للعمل الأبرشي ولمختلف الخدمات في الأبرشية من مؤسّسات للصلاة والتعبّد ومدارس ومستشفيات ومؤسّسات اجتماعية متنوّعة. ومنهم من يتفرّغ لخدمات تختصّ بالكنيسة الجامعة، كمعاهد الكتاب المقدّس واستقبال الحجّاج ومرافقتهم.

ويدير البطريركية اليوم بطريرك مقيم في القدس في البلدة القديمة، وهو المبنى نفسه الذي أنشأه البطريرك العائد والمؤسّس يوسف فالرغا. ويساعد البطريرك مطارنة مساعدون، أحدهم في القدس، والثاني نائب بطريركي عام للأردن، ويقيم في عمان، والثالث نائب بطريركي عام لإسرائيل، ويقيم في الناصرة. وفي قبرص أيضاً نائب بطريركي عام ليس أسقفاً. وهناك أيضاً نائب بطريركي خاص للجماعة الناطقة باللغة العبرية.

والبطريركية اللاتينية عضو في مجلس الأساقفة اللاتين في البلدان العربية. ويضمّ هذا المجلس الأساقفة اللاتين في كل من الأردن وفلسطين وإسرائيل وسورية ولبنان والعراق ومصر والكويت وشبه الجزيرة العربية والصومال وجابوتي. وليس أعداد اللاتين في هذه البلدان متساويا. ففي بعضها لا يتجاوز بضعة ألوف. إلاّ ن عدد اللاتين مرتفع جداً في الكويت وشبه الجزيرة العربية حيث يزيد على نصف المليون، وكلهم من العمالة الوافدة على تلك المناطق، منهم عرب من الشرق الأوسط ومنهم أجانب ولا سيّما من الفيليبين والهند.

والبطريركية اللاتينية عضو في مجلس رؤساء الكنائس الكاثوليكية في الأرض المقدّسة، وعضو في مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك. وهي أيضاً مع سائر الكنائس الكاثوليكية عضو في مجلس كنائس الشرق الأوسط.

عادت البطريركية اللاتينية إلى القدس في منتصف القرن التاسع عشر، ولقيت في عملها الرسولي نجاحاً وقبولاً بين الناس وفي المجتمع

المسيحي والمسلم على السواء، في الأردن وفلسطين. والسبب في ذلك التفات البطاركة إلى حاجات المؤمنين الروحية والثقافية والاجتماعية، على الرغم من الظروف القاسية التي ألمّت بهم وبمرسليهم. وقد أولوا جلّ عنايتهم لما فيه رفعة مسيحيّي الشرق. وراهن البطريرك فالرغا منذ البداية على الإكليرس المحلي، وكان هذا أيضاً من أسباب النجاح الرئيسة. فالبطريركية اللاتينية الأورشليمية في القرن العشرين أبرشية شرقية في كامل الشركة مع الكنيسة الكاثوليكية الجامعة.

عاش كهنة البطريركية واقع رعاياهم وعشائرهم التي انحدروا منها، واختبروا ظروف المؤمنين الحياتية القاسية. فرافقوا الجماعات المسيحية في حلّها وترحالها، يقيمون الصلاة ويفتحون المدارس في أقصى القرى ومضارب العربان في البادية، ممّا قرّبهم إلى أفئدة المؤمنين وحبّبهم إليهم. وأتقن الكهنة الأجانب في الإكليرس البطريركي اللغة العربية وحتى اللهجات القروية والبدوية، وتوصّلوا إلى سبر أغوار العقلية والمشاعر العربية. فصار الوجود المسيحي الكاثوليكي في فلسطين والأردن شعبياً وذا صبغة محلية.

وكان لرهبانية الآباء الفرنسيسكان الفضل الكبير في البقاء في الأماكن المقدّسة وفي رعاية المؤمنين حولها منذ العهود القديمة، وفي ظروف أدّت أحياناً إلى الاستشهاد. ووجدت البطريركية اللاتينية مجالاً آخر للعمل كمّلت به عمل الرهبان وتضحياتهم عبر العصور. مرّت العلائق بين الحراسة والبطريركية بمراحل حرجة في البداية، ثم تمّ التفاهم والتنسيق بين الطرفين. وكان اثنان من البطاركة من الشخصيات الفرنسسكانية المرموقة وهما لودفكو يافي (١٨٨٩-١٩٠٥) وألبرتو غوري (١٩٤٩-١٩٧٠)، وقد تركا أثراً طيّباً في العلاقات بين البطريركية ورهبانية الفرنسسكان.

ولكن ما هي أبعاد وجود كنيسة كاثوليكية لاتينية في الشرق؟ وما هي المبرّرات التاريخية لهذا الوجود؟ هذه التساؤلات وغيرها أُثيرت في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥)، وصدرت دراسات عديدة ردّاً على هذه التساؤلات، وعُرضت أفكار متباينة تطرح تصوّرات متعدّدة لمستقبل الوجود الكاثوليكي في فلسطين. لا نريد ان نختتم هذا العرض الموجز بإضافة صفحة جديدة إلى أدب الاعتراض على وجود البطريركية اللاتينية والردّ عليه، بل نكتفي بالقول ان البطريركية اللاتينية اليوم هي كنيسة محلية وعربية بإكليرسها وأبنائها، وعلى عاتقهم تقع مسؤولية الاختيار والقرار.

وقد تمّ التوصّل إلى هذا الطابع المحلي تدريجاً بكياسة وحكمة ويسر، وبفضل بعد نظر البطريرك العائد والمؤسّس يوسف فالرغا. ففي عام ١٩٨٧ جلس على السدّة البطريركية اليعقوبية الأورشليمية البطريرك ميشيل الصبّاح كنتيجة حتمية لتطوّر ناضج ومدروس. ومع ذلك ما زال الإكليرس البطريركي يحوي بين صفوفه كهنة أبرشيين عرباً وأجانب ورهباناً من مختلف الجنسيات. وظلّت فكرة المؤسّس قائمة وحيّة في نفوس أبنائه، ألا وهي فكرة الإكليرس البطريركي المختلط ببعديه المحلي

والدولي، والتمسّك بواقع الكنيسة المحلّية من جهة، ومن جهة أخرى بعالمية كنيسة القدس «أم الكنائس»، وبانفتاحها على كنائس العالم قاطبة، لاحتوائها الأماكن المقدّسة ولكونها قبلة كل مسيحي وتراثًا روحيًا عالميًا.

ان القضايا التي تواجه البطريركية اللاتينية اليوم هي القضايا نفسها التي تواجه سائر المسيحيين في الشرق. وهي قضية الهجرة وقضية العدد القليل والحوار والعيش المشترك مع العالم الإسلامي. وفي فلسطين وإسرائيل ما زالت قضية السلام والنزاع بين الشعبين اليهودي والفلسطيني قائمة، بالإضافة إلى قضية الحوار والعيش المشترك مع الشعب اليهودي والديانة اليهودية. وهناك أخيرًا قضية وحدة المسيحيين في الشرق كله.

وتسعى مختلف المجالس البطريركية والأسقفية الكاثوليكية والمسكونية المذكورة آنفًا في النظر معًا في هذه القضايا المصيرية المشتركة.

والمستقبل ماذا يكون؟

يكون بحسب ما يصنعه المسيحيون جميعًا قلبًا واحدًا ويدًا واحدة. فأمام التحدّيات الكبيرة التي تواجهنا في العالم المعاصر لا يجوز للمسيحيين ان يبقى كل منهم مغلقًا على نفسه أو مدافعًا فقط عن تراثه والتقاليد الخاصة به. لأن الإيمان والليترجية والتقاليد الخاصة يجب ان تكون مصدر حياة لا جمود، ومصدر دفع إلى الخارج حتى يلتقي الجميع في خدمة الكنيسة والأوطان المختلفة، حيث يجب على كل كنيسة ان تتحمّل مسؤولياتها تجاه الحاضر والمستقبل.

الكنيسة المارونيّة

بقلم الأب بولس صفير*

* عميد كلّيّة اللاهوت في جامعة الروح القدس
وحافظ المكتبة البطريركية المارونية

١ . مهد المارونية ونشأة عقيدتها اللاهوتيّة(١)

يُجمع المؤرّخون الثقات(٢) على ان الموارنة هم، في امتداد جذورهم التاريخيّة، من الكنعانيّين والآراميّين الذين دانوا بالعقيدة المسيحية منذ الاجيال الأولى للنصرانيّة، وانتسبوا إلى القدّيس مارون الناسك كأب روحي، بعد ان اعتنق القسم الأكبر منهم الدين المسيحي على يده ويد تلامذته النسّاك الأقدمين. وقد عاش القدّيس مارون فوق قمّة جبل قورش من جبل سورية الثانية في النصف الأخير من القرن الرابع، وتوفّي برائحة القداسة حوالى سنة ٤١٠ .

ولكنّ الموارنة اشتهروا كمنظّمة كنسيّة، لها تأثير روحي كبير، عندما تألّبوا حول دير مار مارون الشهير، الكائن على ضفاف نهر

---

(١) أصدرت مجلة «المنارة» في مطلع سنة ١٩٨٥ عدداً خاصاً في ذكرى مرور ١٣٠٠ سنة على تأسيس البطريركية المارونية، يقع في ٣٤٤ صفحة، وفيه ٢٠ مقالاً تتناول شتى جوانب تاريخ الطائفة منذ نشأتها حتى أيامنا الحاضرة. ويجد القارئ في هذه المقالات تبسّطا في بعض النقاط التي نعالجها في هذا البحث. ولذلك نضرب صفحاً عن الاستشهاد بها في الحواشي محيلين القارئ على هذه المراجع المذكورة.

(٢) راجع البطريرك اسطفانس الدويهي: **تاريخ الطائفة المارونية**، نشرة رشيد الخوري الشرتوني، بيروت ١٨٩٠، **تاريخ الأزمنة**، نشرة الأب فردينان توتل اليسوعي ١٩٥٠؛ ونشرة الأباتي بطرس فهد، الكريم ١٩٧٦. المطران يوسف الدبس: **الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل**، بيروت ١٩٠٥. المطران يوسف دريان: **لباب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية**، ١٩١١. الأب بطرس ضو: **تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري**، ظهر منه ستة أجزاء (١٩٧٠–١٩٨٠)؛ ثم ظهر جزء باللغة الانكليزية ١٩٨٤، وترجمته باللغة الفرنسية ١٩٨٥. المطران مخائيل ضوميط: **الموارنة**، بيروت ١٩٥٥. فؤاد افرام البستاني: **مار مارون**، بيروت ١٩٦٥. الدكتور كمال سليمان الصليبي: **الموارنة، صورة تاريخيّة**، ملفّ النهار، ١٩٦٩؛ **منطلق تاريخ لبنان**، بيروت ١٩٧٩. الأب بولس نعمان: **المارونية بين الدين والدولة، رأي في نزاع الشرق الأوسط**، الكسليك، ١٩٧٠. DIB, P.: *Histoire de l'Eglise Maronite*, 3 vols. Beyrouth, 1962-1973.

مار مارون

العاصي إلى الشرق من حماة وشيزر[٣]. وقد بنى هذا الدير، بحسب قول الجغرافي العربي أبي الفداء (١٢٧٣-١٣٣١)، الامبراطور مرقيانس سنة ٤٥٢، على اثر انعقاد المجمع الخلقيدوني. كان تيودوريطس، أسقف قورش المناهض للمدرسة الاسكندرية والمؤيّد لعقيدة وجود طبيعتين كاملتين في شخص المسيح، قد لجأ إلى الرهبان والنسّاك تلامذة القدّيس مارون لمناصرته. فسعى، بعد رواج أفكاره ومساندة البابا لأون الكبير له، في بناء هذا الدير لهم بالقرب من أديرة آفاميا، حيث كانت تسيطر المدرسة الانطاكيّة والنظريّة الثنائيّة لطبيعتي السيد المسيح. فشيّده على اسم القدّيس مارون[٤]. وسرعان ما تعاظم شأن هذا الدير بعد تحديد العقيدة الكاثوليكية في المجمع الخلقيدوني المنعقد سنة ٤٥١، وتأكيد وجود طبيعتين كاملتين في السيد المسيح، إلهيّة وانسانيّة. فتبوأ هذا الدير المركزَ الأول بين أديرة سورية الثانية، وأصبح «القلعة الوطيدة الاركان للعقيدة الكاثوليكيّة» بحسب التحديد الخلقيدوني[٥].

وانضوى، على اثر انعقاد هذا المجمع، عدد وافٍ من المؤمنين المسيحيين المجاورين للدير وغيرهم من بقايا الشعوب المسيحيّة القديمة المنتشرة في أنحاء سورية الثانية وفي مناطق أخرى، تحت لواء المعتقد الكاثوليكي الخلقيدوني، واستناروا بتعاليم رهبانه في ممارسة شعائر إيمانهم وديانتهم المسيحية، وكانوا يلوذون بحمايتهم العقائدية والقوميّة كلما تعرّضوا لهزّات الاضطهاد ومناوأة الاعداء. ومع توالي الأيام، سُمّي هؤلاء المسيحيون

(٣) هكذا حدّد موقعه المؤرّخ العربي الشهير الحسن بن علي المسعودي المتوفّى سنة ٩٥٧، في كتابه، التنبيه والاشراف، طبعة باريس ١٨٩٦، ص ١٥٤.

(٤) راجع الأب بولس نعمان، المرجع المذكور ص ٩—١١، حيث يقول: «في سنة ٤١٦، قصد منطقة النقيرة، قرب آفاميا، شاب انطاكي ثري اسمه تيودوريطس، فعاش في دير النقيرة سبع سنوات، ثمّ عيّن أسقفًا على منطقة قورش الجبلية حيث تعرّف عن كثب إلى تلامذة القدّيس مارون، ولمّا كان الرأي العام الرهباني في مصر يميل بكامله إلى تعاليم المدرسة الاسكندريّة، لم يبق لزعيم المدرسة الانطاكية سوى اللجوء إلى رفاقه القدامى رهبان دير النقيرة قرب آفاميا، والى أصحابه الجدد، فسعى في بناء دير لهم، وشيّده على اسم القدّيس مارون».

(٥) نعمان، المرجع السابق، ص ١١.

«موارنة» نسبة إلى دير مار مارون وسكّانه، وكان معظمهم يقطن الأرياف حيث توجد مساحات زراعيّة شاسعة، وكانت اللغة السريانيّة، وهي فصحى اللغة الآراميّة، لغة الطقس الكنسي عندهم(٦).

وأمّا نسبة انتماء المسيحيّين الخلقيدونيين إلى دير مار مارون وعقيدة سكانه، فكانت مرتفعة في نواحي حمص وحماة وآفاميا وشيزر، كما كانت مرتفعة في الوقت نفسه في بعض المناطق الشمالية الساحلية في لبنان، وبوجه التحديد في مناطق عرقا وطرابلس وبعض مدن وقرى بلاد جبيل والبترون. فألّف هؤلاء المسيحيون نواة الكنيسة المارونية. وظلّت العلاقة بين هذه المناطق ودير مار مارون وثيقة طيلة الاجيال الخمسة الأولى من تاريخ المارونية، وظلّ هذا الدير يتمتّع بزعامة روحيّة وعقائدية كبيرة حتى خرب مع الزمن «بتواتر الفتن من الاعراب وحيف السلطان»(٧)، حوالى منتصف الجيل العاشر. فيُعتبر هذا الدير بحق مهد المارونية، وتعتبر نشأة الفطرة المارونية متجسّدة منذ البداية في المعتقد الخلقيدوني الكاثوليكي والفكر اللاهوتي الانطاكي.

٢. تطوّر المارونية من عقيدة إلى قوميّة مناضلة

بعد الفتح الاسلامي، وبوجه التحديد، في الفترة الممتدّة بين سنة ٦٣٤ وسنة ٦٤٤، تراجع المسيحيون أمام المسلمين في سورية ومصر والبلدان المجاورة لهم. فتفرّق شملهم وأُرغم العديد منهم، من جرّاء الاضطهاد والمنازعات، على ترك المدن الكبيرة والهرب إلى الجبال والأرياف النائية، ومنها جبال لبنان الشاهقة وأوديته السحيقة. فأصاب الموارنة الساكنين قرب دير مار مارون ما أصاب بقيّة المؤمنين القاطنين في الشام وحلب وحمص وحماه واللاذقية. وهذا ما حملهم على أخذ موقف الدفاع عن النفس. فتحوّل، على الأثر، انتماؤهم من معتقد كاثوليكي وفكر لاهوتي إلى شبه قوميّة في نطاق طائفة مناضلة ومرتبطة بوطن معيّن، هو لبنان. أمّا الاسباب الداعية إلى ذلك فمعروفة، ويرجع معظمها إلى فرض اعتناق الدين الاسلامي على الشعوب المسيحية. فقوبل هذا الضغط بالمقاومة والرفض من قبل الموارنة، كما قوبل قبله بالرفض استبدال معتقدهم المسيحي الخلقيدوني بأي معتقد مسيحي آخر، والتنازل عن لغتهم السريانية وحضارتهم الآرامية لصالح أية حضارة أو لغة أخرى.

وظلّت الحملاتُ الاسلامية تتوالى على الموارنة في مناطق سورية طيلة الفتح العربي، وكانوا هم يجابهون الاضطهاد بالثبات والتصدّي والاستشهاد. ولكن، عندما ضاقت بهم سبل العيش في سورية، آثروا النزوح عنها والتخلّي عن تلك السهول الخصبة في سبيل المحافظة على حريّة معتقدهم المسيحي وكرامتهم الانسانية. فولّوا وجوههم شطر لبنان الشمالي، وسلكوا، من جملة ما سلكوا من طرق، لدى

(٦) راجع كمال الصليبي: **منطلق تاريخ لبنان**، ص ٣٦.

(٧) المسعودي، المرجع السابق، ص ١٣١.

جلائهم عن مواطنهم القديمة في سورية، طريق ضفاف الأنهر حتى وصلوا إلى منبع نهر العاصي في الهرمل، حيث لا تزال آثارهم ظاهرة هناك حتى يومنا هذا. ومن منطقة الهرمل، تسلّقوا جبال الأرز وحطّوا رحالهم في أماكن عديدة من مناطق لبنان الشمالي، واستوطنوا بوجه خاص منطقة الجبّة ووادي قاديشا وقنوبين[٨]. فألفوا في تلك المنطقة أمّة لها عاداتها وتقاليدها ونزعتها إلى الاستقلال، وحفظوا كيانهم بفضل تماسكهم والتفافهم حول بطاركتهم وأساقفتهم وكهنتهم ونسّاكهم. وهذا ما أشار إليه قنصل فرنسا رستلهوبر، في بيروت، قال: «ما ان اعتصم الموارنة في جبالهم، حتى ألّفوا أمّة على نصيب كبير من الاستقلال. فقد تمكّنوا، في ظلال جبالهم العالية والعصيّة، من صدّ الزحف العربي، حتى أصبح لبنان وكأنه قلعة مسيحية طبيعيّة. وقد تنظّموا بإدارة اكليرسهم وكبار ملاّكيهم تنظيماً اقطاعياً قوياً، ولّد عندهم شعوراً قومياً وطنياً، ظهر في تعلّق كل فرد منهم بشخص السيد البطريرك، وما كان أقوى هذا الشعور ابّان الملمّات في وجه العدو المشترك[٩].

ومما لا شكّ فيه انه كان في لبنان الشمالي، قبل الفتح العربي، مسيحيون ينتسبون إلى رهبان دير مار مارون ويدينون بعقيدتهم الكاثوليكية والانطاكية. وهؤلاء المسيحيون قاموا على السواحل اللبنانية وفي مناطق أخرى من لبنان، منذ فجر النصرانية بعدما بشّر الرسل الساحل الفينيقي لدى مجيئهم من أورشليم إلى انطاكية، مروراً بصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس. ومع مرور الزمن، أُضيف إليهم مسيحيون آخرون كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي في الجبال العالية على أثر تبشير تلامذة مار مارون، كإبراهيم الناسك (✝٤٢٨)[١٠]، وتلامذة مار سمعان العمودي (✝٤٥٩). فانصهر هؤلاء المسيحيون اللبنانيون مع إخوانهم المسيحيين الخلقيدونيين الذين سمّوا موارنة، وأتوا من مناطق سورية الثانية على أثر الاضطهادات والمنازعات في وحدة متراصّة في جبل لبنان، بعدما وثّقت فيما بينهم العقيدة واللغة الطقسية والصمود في مجابهة سوء المصير.

٣. نشأة البطريركيّة المارونيّة

بعد الفتح الاسلامي، كان الموارنة، كمجموعة مسيحيّة، تابعين للبطريرك الملكي الجالس على الكرسي الانطاكي. ولفظة «ملكي» هنا تعني نسبة البطاركة الانطاكيين إلى

تاريخ الموارنة، الجزء الأول، ص ٨٤-٩٠، و٢١٥-٢١٦. أما المطران بطرس ديب فيؤكّد، في مؤلفه المذكور بالفرنسية، الجزء الأول، ص ٧٠، ان الهجرة المارونية من سورية إلى لبنان تمّت على دفعات متقطّعة، منذ الجيل السابع حتى العاشر، دون ان يشير، ولو بطريق العرض، إلى وجود ماروني سابق في لبنان.

(٨) راجع نعمان، المرجع السابق، ص ١٢.

(٩) RISTELHUEBER, R: *Traditions françaises au Liban*, Paris 1918, pp. 12-13. ولهذا الكتاب ترجمة عربية بقلم القس يولس عبّود: **تقاليد فرنسا في لبنان**، بيروت ١٩١٨.

(١٠) لمزيد من المعلومات عن نشاط تلامذة القدّيس مارون الرسولي، راجع الأب بطرس ضو:

ملك الروم في القسطنطينية. غير ان العلاقة بينهم وبين هذا البطريرك لم تكن دائماً وثيقة وحسنة، بسبب الفوارق الاجتماعيّة العميقة من جهة، واللغة اليونانية التي هي لغة أهل الحكم من جهة أخرى. ولمّا اضطر الروم، على أثر الفتح الاسلامي ٦٣٤، إلى الخروج من بلاد الشام، ولم يعودوا قادرين على التحكّم بمصيرهم والاهتمام بأمور دينهم ودنياهم، خرج البطاركة الملكيّون أيضاً من انطاكية، ولم يستطيعوا البقاء فيها بسبب الحروب والمنازعات. فلجأ بعضهم إلى القسطنطينية واستقرّوا فيها نهائيًا، ولم يبقَ لهم من رئاسة الكنيسة الانطاكية سوى الاسم فقط. فأقاموا هكذا في أمكنة نائية وبعيدة عن كرسيهم الأصيل وعن أبناء كنيستهم ورعاياهم الذين مكثوا في انطاكية ومناطق سورية المترامية الأطراف، مشتّتين كخراف لا راعي لها. ونتيجةً لهذا الخلل، وبسبب التعسّف الديني والجور والاضطهاد، شغر الكرسي الانطاكي من بطريرك شرعي، بعد وفاة البطريرك الأصيل انستازيوس في أيلول (سبتمبر) ٦٠٩. ولم يُنتخب بعده أي بطريرك آخر بطريقة شرعيّة وقانونية(١١)، بل كان الملوك البيزنطيون يعيّنون بعض الأحيان بطاركة اسميين فقط لانطاكية. وكان هؤلاء يقيمون في القسطنطينية، دون ان تطأ أقدامهم أرض البطريركية الانطاكية. وتعاقب على الكرسي الانطاكي – بطريقة غير شرعيّة – في الفترة التي سبقت نشأة البطريركية المارونية، هؤلاء البطاركة، وهم(١٢):

١) مقدونيوس من ٦٤٠ حتى ٦٦٥. أقام في القسطنطينيّة وحرمه البابا مرتينس الأول، لأنه حمل لقب بطريرك أنطاكية دون ان يكون بطريركاً شرعيًا، ولم يتمكّن بسبب الحروب المتواصلة بين العرب والبيزنطيين من الدخول إلى انطاكية، فمات قبل تسلّم زمام سلطتها الروحيّة.

٢) مقاريوس من ٦٦٥ حتى ٦٨٠. أقام في القسطنطينية أيضاً، وحرمه المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية ٦٨٠، لتمسّكه ببدعة المشيئة الواحدة. فلم يتمكّن هو الآخر من الدخول إلى كرسي انطاكية. فأقاله المجمع وانتخب مكانه بطريركاً آخر يدعى تاوفانس.

٣) تاوفانس من ٦٨٠ حتى ٦٨٥. وهذا أيضاً، بالرغم من شرعيّة انتخابه، لم يتمكّن من دخول البطريركية الانطاكية ومن تسلّم زمام أمورها وسلطتها الروحية. فظلّ في القسطنطينية حتى وفاته في أواخر ٦٨٥.

كان من الطبيعي، بعد شغور الكرسي الانطاكي من بطاركة شرعيين يقيمون بين أبناء كنيستهم، ان يؤدّي هذا الوضع الشاذ إلى انتخاب بطريرك أصيل وشرعي يقيم في نطاق البطريركية الانطاكية، ويسهر على مصالح المؤمنين فيها، ويحامي عن معتقدهم السليم ويشدّد عزائمهم ابّان حملات الاضطهاد

(١١) حول ظروف شغور الكرسي الانطاكي راجع الأب بطرس فهد: حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية، جونيه ١٩٥٤، ص ٩٢.

(١٢) Cf. PIETRO J. SFEIR: *La Messa Siro-Maronita*, Roma 1949, pp. 119-122؛ وبطرس ضو، المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٣٢–٢٣٥.

القدّيس يوحنا مارون

والمنازعات. وهذا ما حمل الإكليرس الماروني والمؤمنين الموارنة المنتشرين حول دير مار مارون على ضفاف العاصي والموجودين في مناطق أخرى من سورية الثانية، ومعهم القسم الأكبر من المسيحيين الخلقيدونيين، على رفض الأمر الواقع بتعيين خلف للبطريرك الشرعي تاوفانس من قبل الملوك البيزنطيين. فاجتمعوا في أواخر ٦٨٥ وأوائل ٦٨٦[١٣]، وانتخبوا رئيس كهنتهم المدعو يوحنا مارون السرومي[١٤]، بطريركًا شرعيًا على كرسي انطاكية.

وتفيد التواريخ المارونية القديمة التي وردت عند علماء الطائفة المارونية ومؤرّخيها[١٥] ان البطريرك القدّيس يوحنا مارون كان في عداد الرهبان الذين حضروا جلسة الحوار الجدلي التي جرت في مجلس معاوية، حول المعتقد الكاثوليكي الصحيح، بين الاساقفة اليعاقبة وتلامذة مار مارون وأنصاره في السنة الرابعة عشرة للملك قسطنس الثاني[١٦]. ولما غلب أساقفة اليعاقبة على أمرهم في هذا الحوار، أمر معاوية بأن يدفعوا له عشرين ألف دينار في السنة لئلاً يكفّ يده عنهم، فيتعقّبهم عندئذٍ أنصار القدّيس مارون. وبعد هذا الحوار الجدلي، تفيد

---

(١٣) اختلف المؤرّخون في تحديد سنة ارتقاء القدّيس يوحنا مارون الكرسي الانطاكي. فمنهم من قال انه انتخب في انطاكية في مجمع الاساقفة بإجماع الاصوات سنة ٦٨٥، ومنهم من ذكر انه ذهب إلى رومة، فأقامه البابا سرجيوس، الانطاكي الأصل، بطريركًا على انطاكية حوالى ٦٨٧، ومنهم من ربط تاريخ إقامته بطريركًا بتاريخ الانفصال الذي حصل في الشام بين الملكيين الموالين للروم والموارنة أتباع القدّيس مارون، في العام الأول أو الثاني من خلافة يزيد بن معاوية (٦٨٠-٦٨٣). ومنهم من قال، وهو الارجح في رأينا، ان الاكليرس والشعب الماروني أقاموه بطريركًا عليهم بعد وفاة البطريرك الشرعي تاوفانس في أواخر ٦٨٥ وأوائل ٦٨٦، فثبّته البابا سرجيوس بواسطة نائبه يوحنا أسقف فيلادلفيا.

(١٤) السرومي نسبة إلى بلدة سروم التي تقع في جبل اللكام بالسويدية القريبة من انطاكية.

(١٥) راجع، المطران يوسف دريان: **أصل الجراجمة والمردة والموارنة**، ص ٣٨؛ الخوري ميخائيل عبد الله غبريئيل: **تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية**، مج ١، بعبدا ١٩٠٠، ص ٢٥٥ وما بعدها؛ فهد، المرجع السابق، ص ٨٨.

(١٦) اكتشف هذا الحوار الجدلي العالم الالماني Noldeke، ونشره في المجلّة الاسيوية Zomg، وقد عرّبه معلّقًا عليه الأب هنري لامنس في «المشرق» ١٨٩٩، ص ٢٦٥.

التواريخ عينها ان يوحنا مارون أقيم أسقفاً على البترون سنة ٦٧٦، وثبّت من قبل النائب الرسولي لبطريركيتي انطاكية وأورشليم، السيد يوحنا مطران فيلادلفيا (عمّان حالياً) الذي كان قد عيّنه الكرسي الرسولي نائباً له سنة ٦٤٩، حفاظاً على النظام الكنسي في الشرق المسيحي. فأظهر القدّيس يوحنا مارون، بعد ارتقائه إلى الدرجة الاسقفيّة، غيرة متّقدة على حفظ الايمان الكاثوليكي وتوطيد دعائمه ومناصرة تعاليم المجامع المسكونيّة. وتوصّل، بعلمه وتقواه، إلى هداية الكثيرين إلى الايمان الحق(١٧).

ولم يطل الوقت بعد ارتقاء يوحنا مارون السدّة البطريركية الانطاكية، حتى أخذت تظهر في الكتب والمصادر التاريخيّة معلومات عن نشأة البطريركية المارونية، وترقية الأساقفة والبطاركة فيها. وكان أول من ألمح إلى انتخاب البطاركة والاساقفة لدى الموارنة، في منتصف القرن الثامن، البطريرك اليعقوبي ديونيسيوس تلمحري، عندما روى حادثاً تاريخياً جرى في دير مار مارون سنة ٧٤٥، قال: «**وظلّ الموارنة، كما هم الآن، ينتخبون بطريركاً ويرسمون أساقفة من جمهور ديرهم**»(١٨).

وأما أقدم وثيقة مارونية تاريخيّة عن البطريرك الأول القدّيس يوحنا مارون، فتعود إلى كتاب الهدى، دستور الموارنة وناموسهم في العصور الوسطى، حيث تذكر هذه الوثيقة صراحة، في الفصل الثاني من القسم الأول، وفي معرض الكلام عن قانون الايمان، أسماء «فرق» المسيحيين الخمس، فتقول ما حرفيّته: «فأول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة، الفرقة المنسوبة إلى آريوس. ثمّ النسطوريّة وهي المنسوبة إلى نسطور. ثمّ اليعقوبيّة وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى بردعا، ولذلك يقال له يعقوب البرادعي. ثمّ الملكيّة المنسوبة إلى الملك قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل. ثمّ المارونية وهي منسوبة إلى مارون يوحنا بطريرك انطاكية العظمى»(١٩).

وهذه الوثيقة، التي ترجع إلى سنة ١٠٥٩، لا يسبقها زمنياً، إضافة إلى كلام تلمحري المذكور، إلاّ إشارة واضحة وأكيدة وردت في صلب قانون إيمان النصيريين، على لسان ابن نصير مؤسّس هذه الديانة في القرن التاسع. ففي نصوص القدّاس الثالث للنصيريين المعروف بالآذان، يذكر ابن نصير هذه «اللعنات» التي يقذف بها كلّ من لا يعترف بألوهية الامام علي ابن أبي طالب، فيقول: «وألعن أبا بكر وعمر ومعاوية... وأجعل اللعنة على يوحنا مارون البطريرك الملعون»(٢٠).

(١٧) I. ASSEMANI: *Bibliotheca Orientalis*, t I, Roma 1719, p. 499.

(١٨) *Chronique de Michel le Syrien*, trad. J.B. CHABOT, Paris, 1901, t. I, p. 467.

(١٩) الأخ بطرس تامر فهد: **كتاب الهدى**، حلب ١٩٣٥، ص ٣٧-٣٨. لقد اعتمد الناشر المخطوط الفاتيكاني السرياني، رقم ١٣٣، معارضاً إياه بنصوص عدّة مخطوطات أخرى قديمة. وأما تاريخ نسخ هذا المخطوط فيعود إلى ١٤٠٢.

(٢٠) سليمان أفندي الأذني: **كتاب الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النصيريّة**، (بدون تاريخ)، ص ٤٥.

فهذه الوثائق والمستندات التاريخيّة تدعم إلى حدّ بعيد تأكيد مؤرّخي الموارنة وعلمائهم المستمرّ على نشأة البطريركية المارونية في نهاية القرن السابع، وإقامة أول بطريرك منهم على كرسي انطاكية، في شخص يوحنا مارون الذي عاش في لبنان وقضى حياته مجاهداً في تثبيت إيمان أبنائه على المعتقد الكاثوليكي السليم، ثم انتقل من هذه الحياة سنة ٧٠٧، ودفن في ديره في كفرحي في منطقة البترون الوسطى.

وتعاقب بعده على الكرسي الانطاكي حتى اليوم ٧٥ بطريركاً(٢١). وكان أول من اهتمّ بجمع المعلومات التاريخيّة عن سلسلة بطاركة الموارنة الانطاكيين، البطريرك العلاّمة اسطفانس الدويهي (١٦٧٠-١٧٠٤) فهذا البطريرك الكبير يقول عن البطاركة الخمسة الأولين، وفي مقدمتهم البطريرك يوحنا مارون ما يلي: «ان هؤلاء البطاركة الخمسة: يوحنا مارون، قورش، جبرائيل، ويوحنا مارون الثاني، ويوحنا الدلمصاوي، أمرهم واضح من الرسالة التي أرسلها سنة ١٤٩٥ جبرائيل ابن القلاعي إلى القس جرجس بن بشاره في الفصل الحادي عشر. ووجدنا ذكرهم أيضاً في كرّاسة سريانيّة كانت عند سالفنا المغفور له البطريرك جرجس من قرية بسبعل الذي توفّي سنة ١٦٧٠، وقد نسخها داود بن إبراهيم سنة ١٦٢٤ لليونان، أي سنة ١٣١٣ للمسيح. فتكون أقدم من تحرير ابن القلاعي بمئة واثنتين وثمانين سنة»(٢٢).

٤. الموارنة في عهد الصليبيّين

بعد لجوء الموارنة إلى لبنان واستيطانهم في مناطقه الشمالية، انقطعوا لفترة غير قصيرة عن أجواء الاضطرابات، ورفع عنهم كابوس المحن والنكبات، فراحوا يهتمّون بتنظيم أوضاعهم الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، مؤثرين شظف العيش، في جبال لبنان الجرداء ووديانه السحيقة، على رخيّه في سهول سورية الخصبة والمترامية الأطراف. فالتفوا، أولاً، حول بطاركتهم ورؤسائهم الروحيين الذين كانوا لهم مرجعاً في كل شيء. ثمّ بدأوا ينظّمون حياتهم القرويّة وشعائر عباداتهم الدينيّة. فاهتمّوا ببناء الكنائس والأديار إلى جانب تعمير القرى وتشييد البيوت. ومن الكنائس التي بنيت في منتصف القرن الثامن كنيسة مار ماما في اهدن التي يرقى بناؤها إلى سنة ٧٤٩(٢٣). ومع الوقت، أصبح الموارنة شعباً قويّ الايمان متراصّ الصفوف، شديد المراس، حريصاً على

(٢١) نصرف النظر، حبّاً للاختصار، عن إعادة نشر سلسلة البطاركة الموارنة. وإنما نشير هنا إلى انه، بالاضافة إلى السلسلة التي وضعها الدويهي، هناك سلاسل أخرى منشورة للسمعاني والعنيسي والبطريرك بولس مسعد، وهي تختلف بعضها عن بعض قليلاً. ونحيل القارئ إلى تلك التي نشرناها في مجلة «الفصول اللبنانية» ٣ (١٩٨٠)، ص ١٠٢-١٠٧؛ وقد اعتمدها بحرفيتها الأب يوسف محفوظ: **مختصر تاريخ الكنيسة المارونية**، الكسليك ١٩٨٤، ص ٣٩-٥٥.

(٢٢) فهد، المرجع السابق، ص ٤٩١؛ دريان، المرجع السابق، ص ٤٤٢؛ ديب، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٤٩.

(٢٣) راجع ديب، المرجع السابق، ص ٧١، فهد، المرجع السابق، ص ٨٦.

كيانه ومبادئ ديانته، ماهراً في القتال وعنيداً في الدفاع عن النفس. فبرزت، على الأثر، البطريركية المارونية، وكأنها مؤسّسة كنسيّة دينيّة مستمرّة، ذات سلطة روحيّة ونفوذ زمني كبير تجاوز لبنان إلى المشرق. فكان البطاركة والأساقفة يعيشون إلى جانب أبناء شعبهم القروي الكادح ببساطة ووداعة، يقاسمونه شظف العيش ويشاركونه في الأفراح والأحزان، ويقومون بمهام الرعاية والقيادة والتدبير. فيرشدونه في أموره الروحية والزمنيّة، ويسهرون على مصالحه، مؤمّنين له حريّة التصرّف وأخذ المبادرات في تقرير المصير والانفتاح على بقية الأديان والمذاهب والحضارات.

وحدث، بعد نزوح الموارنة إلى لبنان، ان الخلفاء الفاطميين في مصر تمكّنوا، في منتصف القرن العاشر، من طرد الروم من سورية فغدت هذه البلاد تحت سيطرة المسلمين، وتعرّض المسيحيّون آنذاك لموجة قاسية من الاضطهادات، وظهر الضعف في دولة الروم. فاضطرّ أباطرة القسطنطينية إلى طلب النجدة من الغرب المسيحي. فلبّت كنيسة رومة النداء، ودعت الملوك وأمراء الفرنجة إلى تنظيم حملات عسكريّة على نطاق واسع، هدفها نجدة الروم ضد السلاجقة من جهة واستعادة الأماكن المقدّسة في فلسطين من جهة أخرى. وسمّيت هذه الحملات فيما بعد بالحملات الصليبيّة. وفي سنة ١٠٩٦، بدأت جيوش الصليبيّين تتحرّك نحو القسطنطينيّة. فوصلتها برّاً وبحراً وساعدت الروم على استرجاع الجزء الغربي من بلاد الأناضول من السلاجقة. ثم دخلت بلاد الشام، فاحتلّت انطاكية والرها، ثمّ توجّهت جنوباً نحو القدس. وفي ربيع ١٠٩٩، وصل الصليبيون إلى عرقا قرب طرابلس، فمرّوا بالساحل الفينيقي الممتدّ بين طرابلس وجبيل، سالكين طريق البحر. فنزلت وفود الموارنة لاستقبالهم، وتمّ هناك اللقاء الأول يوم عيد الفصح في ١٠ نيسان (أبريل) من تلك السنة. وكان هذا اللقاء بين الموارنة والصليبيين فاتحة عهد مساندة ووفاق. فتصادق الفريقان، واستمرّت علاقات الود والمصالح المشتركة وثيقةً طوال وجود الصليبيين في الشرق[٢٤].

وفي صيف ١٠٩٩، احتلّ الصليبيون مدينة القدس، ثمّ تحوّل فريق منهم شمالاً، فاستولى على مدينة جبيل الفينيقية ١١٠٢، وأخضع مدينة طرابلس ١١٠٩. وتأسّست هكذا مع الوقت في الساحل الفينيقي الشمالي وبعض مناطق الجبّة وطرابلس امارة صليبيّة امتدّت تخومها من فتوح كسروان جنوباً إلى منطقة اللاذقيّة شمالاً، ومن مشارف وادي العاصي شرقاً إلى البحر غرباً. فشملت هذه الامارة معظم المناطق المارونية من جبل لبنان.

ولمّا أحكم الصليبيون سيطرتهم على بلاد الشام، تعزّزت العلاقات بينهم وبين الموارنة من جهة، وبين بطاركة هؤلاء وأساقفتهم ورومة من جهة ثانية. فانتعشت في هذه الحقبة حريّة إقامة الشعائر الدينية، وتوطّدت العلاقات مع الكرسي الرسولي، وقد تجلّى ذلك في المظاهر الآتية:

---

(٢٤) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص ١٦.

أولاً - بدأ الموارنة يبنون الكنائس بحريّة تامّة ويشيّدون الأديرة في مختلف المدن الساحليّة والقرى الجبليّة، وأخذوا، منذ ذلك الحين، «يدقّون في أجراس من نحاس للصلاة والقدّاس الإلهي بدلاً من الخشب، لأن الدول الاسلامية كانت تمنع رعاياها المسيحيين من استعمال الاجراس النحاسيّة وتجبرهم على الاستعاضة عنها بنواقيس من خشب»(٢٥).

ثانياً - ازداد الموارنة تقرّباً من كنيسة رومة والأحبار الأعظمين، بعد ان تأمّنت لهم طرق المواصلات، وأُزيل خطر القرصنة البحريّة، وأُبعد عنهم حنق الخلفاء والولاة المسلمين. وقد توطّدت هذه العلاقات بتبادل الرسائل بين الفريقين من جهة، بعد ان بلغت رسائل الأحبار الأعظمين إلى بطاركة الموارنة، ما فوق الخمس عشرة رسالة في عهد الصليبيين وبعده بقليل(٢٦)، وبإيفاد القصّاد والممثلين بين الفريقين من جهة ثانية. وكان البطريرك يوسف الجرجسي، المقيم في دير سيدة يانوح سنة ١٠٩٩، أول من سعى إلى هذا التقرّب بإيفاده من يمثّله مع الوفد الصليبي الذي ذهب إلى رومة ليزفّ إلى البابا اربانس الثاني بشرى احتلال القدس. ولمّا عاد ممثّل البطريرك من رومة حمل له من عند قداسة أبي المؤمنين تاجاً وعصا. وبالمقابل، تكرّر إيفاد القصّاد الرسوليين والممثّلين البابويين إلى البطاركة الموارنة في أيام هذا البطريرك وخلفه غريغريوس الحالاتي.

تُوِّجت علاقات البطاركة الموارنة بالأحبار الأعظمين في أيام الصليبيين، عندما وجّه البابا اينوقنطيوس الثالث دعوة خاصّة إلى البطريرك إرميا العمشيتي لحضور المجمع المسكوني اللاتراني سنة ١٢١٥. فلبّى البطريرك الدعوة، وسافر إلى المجمع وحضر بعض جلساته، وكان أول بطريرك يزور الأعتاب الرسولية(٢٧).

٥. الموارنة في عهد المماليك

لم يدم عهد الصليبيين، الذي أخذ يتقلّص أمام حكم المماليك، أكثر من مئة وخمسين سنة في الشرق. ولم ينعم الموارنة طيلة هذه المدّة بأيام رخاء وسلام، كما كانوا يأملون. بل كانت لهم مواقف متناقضة من الفرنجة بحيث كان يناصرهم فريق ويخاصمهم فريق آخر. ولكن هذا التناقض في المواقف لم يوفّر عليهم نقمة المماليك الذين عرفوا بعدائهم المتواصل للموارنة أصدقاء الصليبيين. وتحتّم على رؤساء الطائفة وأبنائها ان يدفعوا غالياً ثمن صداقاتهم للفرنجة.

دُعيت دولة المماليك في زمانها دولة الاتراك من ١٢٥٠ حتى ١٣٨٢، ثمّ دولة الجراكسة، من ١٣٨٢ حتى ١٥١٦. فكان

---

(٢٥) راجع الدويهي: تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، ص ١٠٤.

(٢٦) هذا ما أكّده جبرائيل ابن القلاعي في رسالته إلى البطريرك سمعان الحدثي سنة ١٤٩٤.

(٢٧) روى ابن القلاعي والدويهي ان البطريرك ارميا العمشيتي كان يقدّس يوماً في حضرة البابا اينوقنطيوس، ولمّا انتهى إلى رفع القربان فوق رأسه ابّان الذبيحة الإلهية، بقي مرتفعاً في الفضاء، فعظمت قداسة البطريرك لدى البابا، وأمر بنقش صورة هذه الآية على جدار كنيسة مار بطرس القديمة. راجع المطران يوسف الدبس: الجامع المفصّل، ص ١٩٩.

السلاطين يقيمون في القاهرة، وتميّزت دولتهم بالتنظيم الاداري المتقن. وبعد ان أحكموا السيطرة على بلاد الشام، قسموها إلى ست ممالك، بينها مملكة طرابلس. فجعلوا على رأس كل مملكة نائباً للسلطان قابلاً للعزل. وكانت القرارات السياسيّة تصدر من القاهرة، فيطبّقها نوّاب السلطان كلّ في مملكته. وشملت مملكة طرابلس كامل الامارة الصليبيّة التي كانت تمتدّ من فتوح كسروان جنوباً إلى منطقة اللاذقيّة شمالاً، والتي كان يقطنها الموارنة في غالبية مناطقها(٢٨). ولمّا راحت معاقل الصليبيين تسقط الواحدة تلو الأخرى في منتصف القرن الثالث عشر، أمام زحف جيوش المماليك، كانت امارة طرابلس آخر ما تبقّى للفرنجة في بلاد الشام. فأغاروا عليهم مرّتين في عهد السلطان بيبرس، وأخذوا القليعات في سهل عكّار، وهدموا قلعتها سنة ١٢٦٤. وكان المماليك يتحيّنون الفرص للنيل من الموارنة والقبض عليهم والتنكيل بهم. فراحوا يسومونهم أمرّ العذابات ويضطهدونهم مضيّقين عليهم، بالحد من حرّيتهم وتنقّلاتهم، قاطعين طريق البرّ والبحر عليهم.

وفي شهر أيار (مايو) ١٢٨٢، حرّض المماليك فرقاً من التركمان للإغارة على جبّة بشرّي. ولمّا حاولوا الدخول إليها عن طريق اهدن، قاد رجال الدفاع لمواجهة تلك الغارة والتصدّي لها البطريرك دانيال الحدشيتي بنفسه(٢٩). فأوقف جيوش المماليك أمام اهدن أربعين يوماً، ولم يتمكّنوا منها إلاّ بعدما حاولوا إمساكه بالحيلة. فأخذوا اهدن، وهدموا قلعتها في حزيران (يونيو)، ثمّ سارت فرق التركمان في تلك المنطقة من بلدة إلى بلدة، مطاردة البطريرك ومن معه، حتى وصلت إلى الحدث في ٢٢ آب (أغسطس) من تلك السنة. فحاصرتها بضعة أيام، ثمّ استولت على قلعتها وأخذت البطريرك الحدشيتي أسيراً. بعدما خلّفت وراءها القتلى بالمئات، وأطلقت يدها في النهب والاستيلاء على الارزاق والممتلكات. وقد وصف لنا ابن عبد الظاهر الذي كتب سيرة السلطان قلاوون هذه الحادثة، قال: «اتّفق ان في بلاد طرابلس بطركاً عتا وتجبّر واستطال وتكبّر وأخاف صاحب طرابلس وجميع الفرنجة، واستغوى أهل تلك الجبال وأهل تلك الاهوية من ذوي الضلال، واستمرّ أمره حتى خافه كل مجاور. وتحصّن في الحدث وشمخ بأنفه، وما قدر أحد على التحيّل عليه من بين يديه ولا من خلفه. ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرّب تلك البلاد، وفعل ذلك أو كاد. فاتّفق ان النوّاب ترصّدوه مراراً فما وجدوه. فقصده التركمان في مكانه وتحيّلوا عليه حتى أمسكوه وأحضروه أسيراً حسيراً. وكان من دعاة الكفر

---

(٢٨) راجع الصليبي: **منطلق تاريخ لبنان**، ص ١٢٥.

(٢٩) ورد عند الدكتور كمال الصليبي في مقاله المذكور أعلاه ص ١٩، ان البطريرك الذي قاد رجال الدفاع لمواجهة المماليك هو لوقا البنهراني، في حين يؤكّد مؤرّخو الموارنة جميعهم انه دانيال الحدشيتي؛ راجع الأب أنطوان ضو: **«دور البطريركية المارونية في السياسة اللبنانية»** مجلة الفصول، ٣، (١٩٨٠)، ص ٩٣؛ الخوراسقف يوسف داغر. **بطاركة الموارنة**، بيروت ١٩٥٧، ص ٣٤.

وطواغيهم. واستراح المسلمون منه وأمنوا شرّه. وكان امساكه فتوحاً عظيماً، أعظم من افتتاح حصن أو قلعة، وكفى الله مكره»(٣٠).

ولم يكن البطريرك الحدشيتي ضحيّة اضطهاد المماليك وجورهم وتعسّفهم الوحيدة، بل قبض المماليك على البطريرك جبرائيل حجولا وأماتوه حرقاً في النصف الأخير من القرن الرابع عشر. وكان مقتله ردّة فعل على ما حدث سنة ١٣٦٥، عندما أغار فرنجة قبرص على الاسكندريّة ونهبوها وأعملوا في أهلها السيف. فاستشاط المماليك غضباً ضدّ الطوائف المسيحيّة في مختلف الانحاء المصريّة والشاميّة، وتعرّضت هذه الطوائف على الأثر لاضطهادات عنيفة. وكان الموارنة في جملة من اضطهد. فقبض المماليك على عددٍ من أساقفتهم وكهنتهم واقتادوهم إلى السجن في دمشق. فهرب البطريرك جبرائيل من وجه المضطهدين واختبأ في قريته حجولا. فكتب نائب دمشق إلى نائب طرابلس رسالة محرّضاً اياه على ضرورة إلقاء القبض عليه. فأمر نائب طرابلس حالاً بالقبض على زعماء الموارنة وعلى أربعين رجلاً من حجولا وأجبرهم بإحضار بطريركهم. ولمّا رأى هذا البطريرك القدّيس ما حلّ بأبنائه الموارنة من التعسّف والجور والملاحقة بسببه، استسلم مختاراً، وقدّم نفسه طوعاً فداءً عن أبناء الرعيّة. فأحضره الجند أمام نائب طرابلس الذي أمر بحرقه حيّاً في أول نيسان (أبريل) ١٣٦٧، خارج مدينة طرابلس عند جامع طيلان(٣١).

وبعد مقتل البطريرك الحجولاوي، أقام خلفاؤه في دير سيدة ميفوق، وظلّوا تحت سيطرة نائب طرابلس. فاضطروا إلى الانقطاع عن العالم المسيحي في الخارج. غير أنهم ظلّوا متمسكين بالاعتاب الرمولية والاتحاد الوثيق بالاحبار الأعظمين. وكانوا، فور انتخابهم، يسعون إلى الحصول على درع التثبيت وكمال الرئاسة من الاحبار الرومانيين بواسطة المرسلين الفرنسسكان. وكان هذا التثبيت يتأخّر وصوله أغلب الاحيان، بسبب صعوبة المواصلات، بضع سنوات.

وللحدّ من سلطة البطاركة الزمنيّة، شجّع المماليك وقوّوا سلطة مقدّمي القرى والبلدات المارونية. وراح يتنازع السلطة عندئذٍ بطريقة خفيّة أو علنيّة، كل من الفريقين. وكان المقدّمون على علاقة حسنة بحكّام طرابلس ونوّابها، ودعم هؤلاء سلطتهم واعترفوا لهم بالزعامة في مختلف مناطق الجبل، وقد وجدوا فيهم خير عون وسند على جباية الاموال

(٣٠) راجع مخطوط مكتبة باريس الوطنيّة، رقم ١٧٠٤، ص ٩٤-٩٥. راجع الأب فيليب السمراني: «السلطان منصور قلاوون في لبنان وسوريا»، في «المنارة» ١٩٣٤، ص ١٩٢-٢٠٧، وفيه صورة لهذا النص بخطّ مؤلّفه ابن عبد الظاهر: **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٧.

(٣١) راجع الدويهي: **سلسلة بطاركة الطائفة المارونية**، طبعة رشيد الشرتوني بيروت ١٩٠٢، ص ٢٩، يقول الناشر نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي، ان قبر البطريرك جبرائيل حجولا الشهيد قرب جامع طيلان في طرابلس أصبح مزاراً وقد نال منه الشفاء مرضى وسقماء عديدون، والمسلمون يسمّونه مزار الشيخ مسعود.

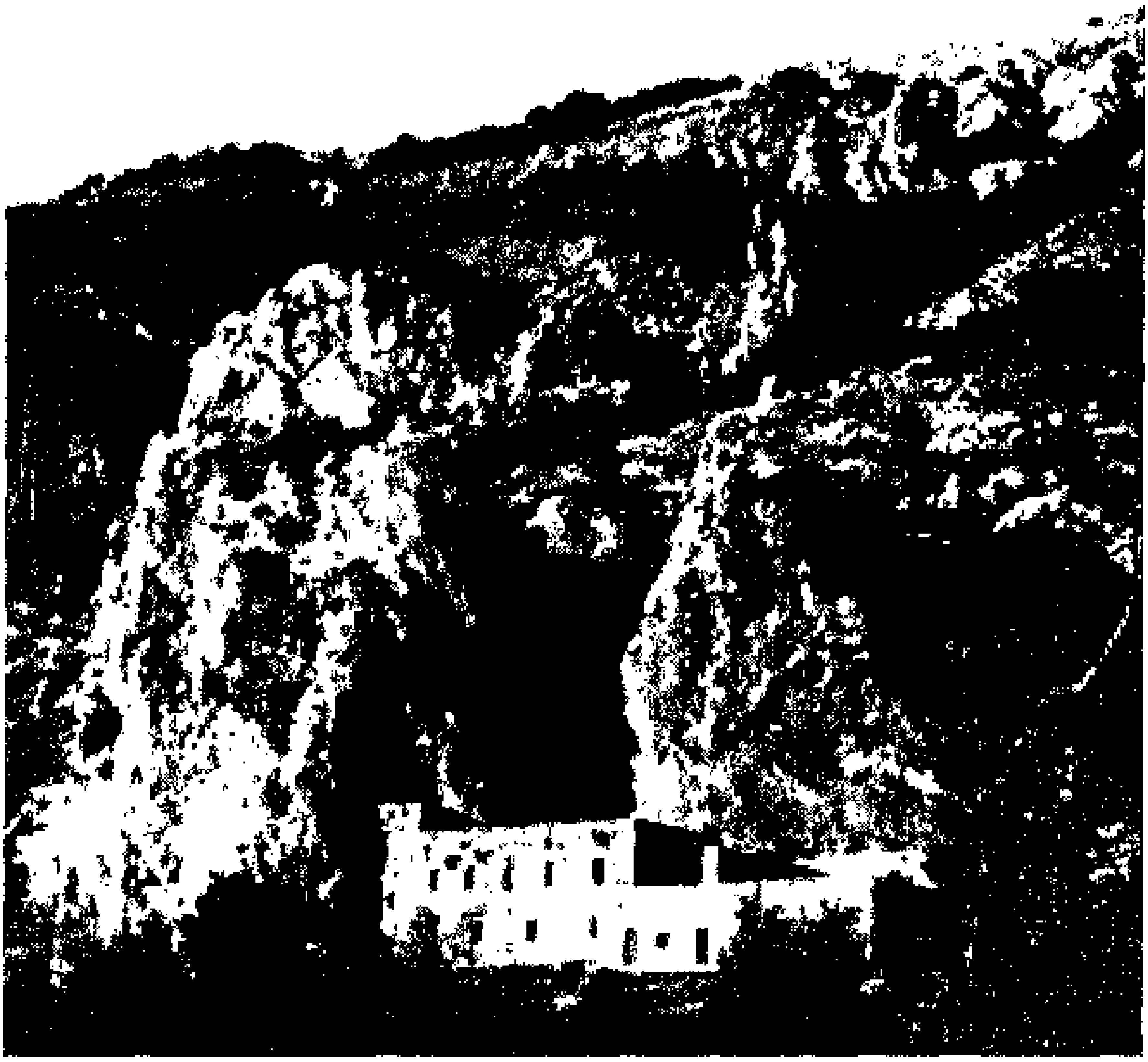

دير قنوبين

والضرائب. وكان من بين هؤلاء المقدّمين يعقوب بن أيّوب الذي نصّب مقدّمًا على مدينة بشرّي ١٣٨٢، فعظم شأنه حتى شملت مقدّميته الجبّة بأمرها. وظلّ حتى وفاته ١٤٤٤، وخلفه في المقدّمية أولاده وأحفاده(٣٢).

وعندما اتّضح للبابا أوجانيوس الرابع، قبيل انعقاد مجمع فلورنسا ١٤٣٩، ان الكنيسة المارونية هي وحدها على علاقة حسنة بكنيسة رومة، وكان متسلّمًا زمام سلطتها آنذاك البطريرك يوحنا الجاجي، أرسل إليه دعوة لحضور هذا المجمع. فاستدعى البطريرك الجاجي الأخ جوان رئيس الرهبان الفرنسسكان في بيروت، وكلّفه الاستنابة عنه في المجمع المذكور، كما طلب منه ان يحمل إليه بعد رجوعه من رومة درع التثبيت. فسرّ البابا بممثّل

(٣٢) راجع مقال الدكتور كمال الصليبي المذكور، ص ٢١.

البطريرك الماروني في المجمع، وأرسل إليه درع التثبيت معترفًا به بطريركًا على انطاكية وسائر المشرق. ولمّا عاد الأخ جوان إلى لبنان، هرعت الوفود المارونية إلى طرابلس لاستقباله، فأقلق ذلك نائب طرابلس. وكانت قد سرت إشاعة بين سكّان المدينة المسلمين بأن الروم والفرنجة إنّما اجتمعوا في فلورنسا لرسم خطّة جديدة لاسترجاع الاماكن المقدّسة من يد سلطان مصر. فأمر بالقبض على الأخ جوان ورفاقه، وأرسل فرقة من العسكر إلى مقرّ البطريرك في ميفوق، فأمسكت بعضًا من الكهنة والرهبان والاعيان، وأسرتهم وقتلت أنفارًا منهم ونهبت ممتلكات الدير. وسبّبت نكبة مركز البطريركية آنذاك نقله من ميفوق إلى دير سيدة قنّوبين في جبّة بشرّي، حيث استقرّ البطاركة الموارنة في حمى المقدّمين وحمى وعورة المسالك في الوادي المقدّس، ما يقارب الأربعمائة سنة(٣٣).

٦. الموارنة في عهد العثمانيين

انتهى عهد المماليك بانهزامهم سنة ١٥١٦، أمام هجوم السلطان سليم الأول العثماني على معسكرهم في معركة مرج دابق، قرب حلب. ومن هناك تابع هذا السلطان زحفه إلى احتلال بلاد الشام ومصر. فأخضعهم لحكمه، وأطلّ هكذا عهد جديد على بلدان الشرق منذ بداية القرن السادس عشر. فلُقّب هذا العهد بالعهد العثماني. ولمّا استتبّ الأمن في ظلّ حكم السلطان الجديد، أُعيد تنظيم البلدان والاقطار العربيّة وفقًا للنظم العثمانية، واستُعيض عن الممالك بالولايات والايالات. فجعلت مصر ولاية واحدة وبلاد الشام ثلاث ولايات، هي: دمشق وحلب وطرابلس. وأصبح الموارنة، في جبّة بشرّي وبلاد جبيل والبترون وجبّة المنيطرة، تابعين لولاة طرابلس والعثمانيين، كما كانوا تابعين لنوّابها المماليك من ذي قبل(٣٤).

واتّسم العهد العثماني، في سنيه الأولى بطابع التهدئة والاستقرار، ونعِم الموارنة بفترة هدوء وارتياح. ولكن ما عتم ان تسرّبت إلى ولاية طرابلس روح الفوضى، وساء تدبير الولاة لها، فتفشّت الرشوة في جميع الدوائر، وعمّ ابتزاز الاموال جميع مراكز القضاء ودور الحكّام والمسؤولين. فسيطرت موجة من تدهور الاخلاق في صفوف المواطنين، لم يسبق لها مثيل في العهود الغابرة. وسرعان ما أحيطت الدولة العثمانية بالأمر، فوكلت تدبير ايالة طرابلس إلى ولاة دمشق. فراح هؤلاء يخضعونها لزعيم محلّي يضمن جباية الضرائب. وأخذ هذا بدوره يعهد الجباية في المناطق تارة لزعمائها المحلّيين وطوراً لأتباعه وأعوانه. وهذا ما ألحق بالشعب الماروني الكادح جوراً عظيماً. ولم يطل الأمر حتى بدأ الموارنة في النزوح من طرابلس والشمال إلى

---

(٣٣) راجع مقالنا بعنوان «البطريرك يوحنا الجاجي من خلال الوثائق والمستندات التاريخية» المدرج في كتاب: جاج في التاريخ، للأب فيليب السمراني، ١٩٨٢، ص ٥١.

(٣٤) راجع الصليبي، المقال المذكور سابقًا، ص ٣٣.

المناطق الجنوبيّة من جبل لبنان سعياً وراء الأمن والاستقرار، وهرباً من وطأة الضرائب الباهظة. وكانت هذه المناطق الجنوبيّة، وهي كسروان والمتن والجرد والغرب والشوف، تابعة لولاية دمشق، وكان الأمراء العسّافيون التركمان موكّلين من قبل الدولة والوالي عليها، بعد ان أتى بهم المماليك، سنة ١٣٠٦، إلى هذه المنطقة واستولوا عليها.

وعندما افتتح السلطان سليم الأول بلاد الشام، لم يلقَ أدنى مقاومة من الأمير عسّاف التركماني. فشمله، بعد استتباب الامن، بعطفه وخفّض له المال المترتّب عليه. فانتعشت بلاد كسروان على أثر ذلك، وأصبحت أكثر المناطق اللبنانية ازدهاراً. فأخذ الموارنة النازحون من الشمال يستقرّون فيها. وكان الشيخ حبيش ابن موسى، بن عبد الله، بن ميخائيل من موارنة يانوح، في جبّة المنيطرة، قد انتقل مع عياله في أوائل العهد العثماني إلى كسروان واستوطن غزير، قاعدة آل عسّاف. فدخل هو وأبناؤه وأحفاده في خدمة الأمراء العسّافيين، واستعان بهم الامير منصور الذي ولي الامارة سنة ١٥٢٣، للقضاء على مناوئيه من الشيعة وغيرهم. وفي سنة ١٥٤٥، جاء من جاج بيت كميد والشدياق سركيس ابن الخازن واستوطنوا ساحل علما وبلّونه، وبيت الجميّل ذهبوا إلى بكفيا في قاطع كسروان(٣٥).

وبالرغم من توثيق عرى الصداقة بين آل حبيش والامراء العسّافيين في كسروان، أخذ الموارنة من جبّة بشرّي وولاية طرابلس، وعلى رأسهم البطريرك موسى العكّاري (١٥٢٤–١٥٦٧)، يفكّرون ويطالبون بالاستقلال الذاتي والتمتّع ببعض الامتيازات. فطلبوا، لتحقيق أمنيتهم هذه، مساندة الامبراطور الغربي شارلكان. فوجّه إليه البطريرك، في ٢٥ آذار (مارس) ١٥٢٧، رسالة يقول فيها: «منذ أربع سنوات ونحن نترجّى جلالتكم كي تهتمّوا بمساعدتنا على نيل استقلالنا، وعندنا خمسون ألف مقاتل من الرماة مدرّبون أحسن تدريب وعلى أتمّ استعداد لخدمتكم في الحرب الاستقلاليّة»(٣٦).

ولما لم يحصل البطريرك موسى على مبتغاه بقوّة السلاح، حاول بالأسلوب الدبلوماسي والحوار المباشر، فأوفد، سنة ١٥٥٠، الأب أنطون الحصروني ابن الحاج فرحات لمقابلة السلطان سليم، وطلب منه رفع الظلم والكفّ عن ملاحقة الموارنة وبطريركهم، كما التمس من مكارم السلطان المحافظة على شبه استقلال داخلي. فنزل السلطان عند رغبة البطريرك، وأنفذ خطّاً همايونيّاً إلى والي طرابلس يطلب منه عدم التعرّض للموارنة.

وقويت في عهد العثمانيين زعامة آل حبيش، وتميّزت بنوع خاص بالانفتاح على

---

(٣٥) راجع الدويهي: تاريخ الأزمنة، نشرة فهد، ص ٣٩٢.

(٣٦) قام بتعريب هذه الرسالة الأستاذ كميل افرام البستاني بعنوان: «رسالتان إلى الامبراطور شارلكان»، مجلة «الفصول» ١٢ (١٩٨٤)، ص ٨٦–٩٢؛ راجع الأب أنطوان ضو، المقال المذكور أعلاه، ص ٩٤.

المسلمين من جهة، والسعي لحماية مصالح الطائفة المارونية وبني قومهم من جهة ثانية. وهي لم تكن زعامة دينيّة روحيّة كزعامة البطاركة، كما انها لم تكن زعامة محليّة ضيّقة ذات أطماع ومآرب خاصة كزعامة المقدّمين. فوقفوا موقفاً محايداً من الكنيسة، ولم يكن هناك أي تنافس بينهم وبين البطاركة كما كان بين هؤلاء والمقدّمين. بل أظهروا بالعكس غيرة قويّة على مصالح الكنيسة المارونية. فكانوا يحمونها من جور حكّام طرابلس، بما لهم من نفوذ لدى الامراء ويدعمون بطاركتها وأساقفتها ضدّ مقدّمي بشري وغيرهم الذين استمرّوا يناوئونهم من وقت إلى وقت. وتركّزت مكانتهم على قربهم من هؤلاء الامراء وقدرتهم على خدمة مصالح الطائفة بما لهم من احترام وتقدير لديهم(٣٧).

٧. الموارنة في عهد الأمراء المعنيّين (١٥١٦–١٦٩٧)

اتّسمت سياسة الدولة العثمانية بتقوية الزعامات المحلّية القائمة في المناطق اللبنانية والمتمثّلة ببعض العائلات الاقطاعيّة. وأوكل الولاة إلى أرباب هذه الزعامات جباية الضرائب والمحافظة على الأمن وفضّ المشاكل العالقة دون ان تتدخّل الدولة مباشرة في شؤونهم. فسيطر هكذا رجال الاقطاع على مناطق محدّدة من ولايتي طرابلس ودمشق. وأصبح الأمراء المعنيّون الدروز حاكمي منطقة الشوف وملتزميها، كما أصبح الأمراء العسّافيون التركمان السنّيون ملتزمي منطقة كسروان وحاكميها. ولمّا خلف الأمير فخر الدين والده الأمير قرقماز في زعامة دروز الشوف، سنة ١٥٨٤، آتته الظروف وقويت شوكته وامتدّت سيطرته، سنة ١٥٩١، حتى شملت الغرب والجرد والمتن ومدينة صيدا بالاضافة إلى الشوف. ولمّا أراد هذا الأمير الاستيلاء على مدينة بيروت ومنطقة كسروان، وكان يخشى مناوئيه، حذا في سياسته حذو العسّافيين، وأحاط نفسه بمستشارين ومدبّرين من الموارنة وعلى رأسهم آل الخازن أعيان كسروان. فوثق الموارنة، كنيسةً وشعباً، بالامير الدرزي، وأصبحوا أنصاراً له حيثما وُجدوا وأينما اتّجهوا.

وكان الامير فخر الدين بحاجة إلى الدعامة القوية التي أمّنها له الموارنة. ذلك بأن الدروز لم يقفوا صفّاً واحداً إلى جانبه منذ البدء، بل كان منهم من ناوأه أشدّ المناوأة، وخاصّة في الشوف قاعدة آل معن. فأخذ يشجّع أنصاره الموارنة على النزوح إلى هذه المناطق ويسهّل لهم سبل العيش، مؤمّناً لهم الكسب الحلال من أبوابه المشروعة(٣٨). وكان الامير شديد الاهتمام بإنتاج الحرير والصناعة

(٣٧) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص ٢٥.

(٣٨) بدأ نزوح الموارنة من الشمال إلى الشوف قبل ان يتولّى الأمير فخر الدين الامارة سنة ١٥٨٤، كما ألمح إلى ذلك الأب جيوفاني بطيستا إليانو في تقريره الذي رفعه إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٨، فقال لقداسته عن الموارنة: «انهم بدأوا يسكنون بين الدروز». راجع الخوري بولس قرألي: **فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان، إدارته وسياسته**، حريصا سنة ١٩٣٧، ص ٣٦.

المحلّية، فساعد نزوح الموارنة إلى المناطق الدرزيّة على تقوية هذا الانتاج، إذ استقرّ الفلاّحون منهم في المزارع حيث اشتغلوا في تربية دود الحرير، بينما استقرّ غيرهم في البلدات الكبرى وبيروت وصيدا حيث اشتغلوا في تجارة الحرير. فتوطّدت عرى الصداقة ووحدة الحال بين الموارنة والامارة المعنيّة عن طريق المصلحة الاقتصاديّة، كما قويت سطوة الأمير بتأييد الموارنة لسياسة حكمه، فانضوى إلى ألوية جيشه آلاف من شبّانهم[٣٩]. فوجد الأمير هكذا من الوفاء والمساندة لدى الموارنة ممّا جعله يخصّهم بعناية فائقة. فأصبحت لهم في عهده مكانة ممتازة وصفها البطريرك اسطفانس الدويهي بقوله: «وفي دولة فخر الدين ارتفع رأس النصارى، فعمّروا الكنائس وركبوا الخيل بسروج ولفّوا شاشات وكرور، ولبسوا طوامين وزنانير مسقطة، وحملوا القاص والبندق المجوهرة. وقدموا المرسلين من بلاد الفرنج وأخذوا السكنى في جبل لبنان، لكون غالب عسكره كانوا نصارى، وكواخيه وخدّامه موارنة»[٤٠].

وفي السنة التي تولّى فيها فخر الدين الحكم، وهي سنة ١٥٨٤، أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر المدرسة المارونية في رومة بإدارة الآباء اليسوعيّين، وكانت الغاية من تأسيسها تنشئة الطلاّب الموارنة على الروح الإكليركيّة الأصيلة وتدريبهم وتضلّعهم من العلوم اللاهوتيّة المعاصرة. فقامت هذه المدرسة بدور هام في تاريخ الطائفة المارونية، وساهمت إلى حدّ بعيد في النهضة العلميّة والثقافيّة التي قام بها مشاهير علمائها وتوزيع طلاّبها في لبنان والشرق[٤١]. وعلى أثر رجوع الافواج الأولى من هذه المدرسة إلى وطنهم الأم، نشطت الاتصالات بين الكنيسة المارونية والكنيسة الكاثوليكية، وأفضت البعثات التي قام بها المرسلون الأجانب، من فرنسكان ويسوعيين وغيرهم، إلى عقد مجمع طائفي سنة ١٥٩٦، في دير قنّوبين المقرّ البطريركي آنذاك، حضره ممثّل البابا الأب هيرونيمس دنديني اليسوعي، وثبّت هذا المجمع صلات الاتحاد الوثيقة التي كانت قائمة منذ نشأة البطريركية بين رومة والطائفة المارونية.

ورافق المدّ الماروني من الشمال إلى الوسط فالشوف تحالف البطاركة والأساقفة الموارنة مع الأمير، وطلبهم لحمايته القويّة. فأحاطهم هو بالغ الرعاية، وأنزلهم في الديار الدرزيّة،

---

(٣٩) بعد نكبة ١٥٨٥ التي قتل فيها إبراهيم باشا والي مصر ستين ألفاً من الدروز لم يعد باستطاعة الامير فخر الدين ان يجنّد منهم أكثر من اثني عشر ألفاً، فاستعان عندئذ بالموارنة الذين انضوى من شبانهم إلى ألوية جيشه عشرون ألفاً، وكان أكثر قادة هذا الجيش منهم: راجع قرألي، المرجع ذاته، ص ٢٨.

(٤٠) الدويهي: تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، ص ٤٤٩٧ وطبعة توتل، ص ٣٢٩.

(٤١) راجع المحاضرات والندوات التي أُلقيت في جامعة الروح القدس: **«الذكرى المئوية الرابعة لتأسيس المدرسة المارونية، ١٥٨٤-١٩٨٤»**، الكسليك ١٩٨٦؛ أيضاً، العدد الخاص الذي أصدرته مجلة المنارة ١٩٨٤، عن المدرسة المارونية. Cf. NASSER GEMAYEL: *Les échanges culturels entre les Maronites et l'Europe*, 2 vols. Beyrouth, 1984.

وسمح لهم ببناء الكنائس وتشيد المعابد. ففي سنة ١٦٠٩، «اجتمع الرؤساء وأكابر الشعب وأجلسوا على الكرسي الانطاكي الأسقف يوحنا مخلوف الهدناني باختيار كل الرعيّة، ومن كثرة المظالم التي كانت صائرة على الكرسي من القشلق ومن الشدياق خاطر (مقدّم بشرّي)، اضطر إلى أن يتوجّه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الامير فخر الدين. وعندما حضر على الامير فخر الدين، قبله بكل كرامة. وصدف، قبل ذلك الزمان، ٣١٥ ان وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل المعوش وكثرت القتلى بين الجانبين حتى انهم اتّفقوا على بيع القرية والخروج منها. فاشتراها منهم الامير علي ابن الامير فخر الدين باثني عشر ألف ودفعها للنصارى. فنزل البطريرك في مجدل المعوش وعمّر كنيسة وداراً واستمرّ فيها حتى قصد زيارة القدس»(٤٢).

واتّفق الامير آنذاك مع البطريرك مخلوف على إرسال المطران جرجس عميره، وهو الذي سيخلفه على السدّة البطريركية، سفيراً إلى رومة وإلى توسكانا للمفاوضة مع البابا اربانس الثامن، والفراندوق فردينان الاول، أمير توسكانا، لإيجاد صيغة تحالف بينهما وبين الامير فخر الدين ضد العثمانيين. وكان العلاّمة إبراهيم الحاقلاني ذا مقام خطير في إيطاليا والفاتيكان، فساعد كثيراً البطريرك والامير المعني على ما فيه خدمة وطنه لبنان، حتى لُقّب بسفير الامير المتجوّل(٤٣). ولمّا كان المطران عميره يقوم بمسعاه لدى البابا وأمير توسكانا، كلّفه الامير فخر الدين وضع كتاب في هندسة الابراج والحصون والقلاع، أتمّه على أحسن ما يرام، حتى خيّل للمطّلعين عليه كأنه من ذوي الاختصاص في بناء القلاع والحصون وفي معرفة فنون الحرب.

ولم تقتصر علاقة فخر الدين برؤساء الموارنة على البطريركين مخلوف وعميرة، بل تعدّتهما إلى بعض الاساقفة وأعيان الشعب. فاستعمل هذان البطريركان نفوذهما لدى الاحبار الاعظمين والحكّام الفرنجيين، ووضعا تحت تصرّف الامير نخبة من الاساقفة والعلماء لبدء المفاوضات وإعداد المعاهدات، كالمطرانين جرجس مارون(٤٤)، وسركيس الجمري؛ فقاما بالمهمّة خير قيام.

وبعد ان تقلّبت الاحوال على الامير المعني، واضطرّ إلى التخلّي عن الامارة طيلة خمس سنوات، وبعد ان عاد إلى بلاده سنة

---

(٤٢) راجع الدويهي، المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٤٣) اقتصرت مهمّة الحاقلاني، إضافةً إلى المساعي السياسية لتعزيز موقف الامير من مناهضة الدولة العثمانية، على شراء أسلحة وذخائر وانتقاء خبراء في صبّ المدافع، وعلى بيع كميّة من حرير الامير في توسكانا وإيداع ثمنه في مصرف «الرحمة» في فلورنسا. راجع قرألي: **فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان وفردناندو الثاني أمير توسكانا (١٦٢١–١٦٣٥)**، حريصا ١٩٣٨، ص ٣١٥.

(٤٤) كان الهدف من سفارة المطران جرجس ابن مارون، من قبل الامير فخر الدين إلى الغرب المسيحي، مفاوضة الكرسي الرسولي ودولتي اسبانيا وتوسكانا في احتلال الأراضي المقدّسة واستخلاصها من يد الدولة العثمانية. راجع قرألي، المرجع المذكور، ص ٢٦٦.

١٦١٨، تعاظم شأنه مرة أخرى، وحارب يوسف سيفا واستولى على بلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي. وباستيلائه على هذه البلاد، انتهى فيها أمر سطوة المقدّمين، وجعل فخر الدين عوضاً عنهم مشايخ آل الخازن وكلاء عليها، كما جعلهم وكلاء على بلاد جبيل. وكان آل الخازن قد تسلّموا، سنة ١٦١٥، حكم كسروان عن يد شقيقه الامير يونس، عندما كان فخر الدين مقيماً في إيطاليا. وبعد ان أضيفت إليهم بلاد جبيل وجبّة بشرّي، أصبحوا الأسرة الأولى بين الموارنة دون منازع، وسار آل الخازن على خطى من سبقهم من مشايخ آل حبيش. فاتّبعوا تجاه طائفتهم السياسة نفسها التي اتّبعها هؤلاء قبلهم، فسهروا على تعزيز شأن طائفتهم وخدمة مصالح بني قومهم المادّية والمعنوية بشتّى الوسائل، وبكل ما كان لهم من نفوذ لدى الأمراء المعنيّين(٤٥).

يبدو واضحاً ممّا تقدّم أن الموارنة، في عهد المعنيّين، توصّلوا بفضل سياستهم وتماسكهم وتعلّقهم برؤسائهم الروحيين، وانفتاحهم على بقيّة الطوائف، وصلابتهم وثباتهم على الكفاح المستمرّ، توصّلوا بعد توليهم حكم مناطق الجبّة وجبيل والبترون وكسروان، إلى تكوين كيان سياسي لهم وقوميّة اجتماعية كادت توازي القومية المعنيّة.

٨. الموارنة في عهد الشهابيّين (١٦٩٧–١٨٤٢)

في سنة ١٦٩٧، توفّي الامير أحمد بن ملحم بن يوسف المعني دون عقب، وانقرضت بوفاته السلالة المعنيّة. فاجتمع أعيان المناطق الدرزيّة واختارو مكانه ابن أخته الامير بشير من الامراء الشهابيّين السنّيين في ودي التيم. فأقيم بشير هذا وكيلاً عن الامير الفتى حيدر الشهابي سبط الامير أحمد المعني، في الحكم، إلى ان توفّي مسموماً سنة ١٧٠٦، فخلفه الامير حيدر. وما عتم ان دارت على الاثر حرب ضارية بين الدروز القيسيّة والدروز اليمنيّة. ولم تحسم المعركة إلاّ في موقعة عين دارا ١٧١١، التي أوقع فيها الشهابيون والدروز القيسيّة وحلفاؤهم الموارنة الهزيمة بالدروز اليمنيّة وآل علم الدين. فاستتبّ الامر للأمير حيدر، وانتزع معظم مناطق اليمنيّة من زعمائها ووزّعها على أنصاره من القيسيّة. واعترف، في الوقت ذاته، بمشيخة آل الخازن في كسروان، ومشيخة آل حبيش في قاطع غزير. فوضع هاتين الاسرتين على قدم المساواة مع المشيخات الدرزيّة في الجرد والغرب والشوف. وهكذا أصبحت الامارة الشهابيّة شراكة اقطاعية بين المشايخ الدروز والموارنة على حدّ سواء، يترأسها الامير الشهابي السنّي كوالٍ للبلاد(٤٦). فارتاحوا إلى هذا التنظيم الجديد الذي ساوى

(٤٥) راجع مقال الصليبي المذكور أعلاه، ص ٢٨.

(٤٦) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص ٣٤.

بينهم وبين الدروز في المكانة. وشكّل هذا التنظيم منعطفًا تاريخيًا في حياة الموارنة إذ لم يسبق له، حتى في عهد المعنيّين، ان تساوى رجال الاقطاع الدروز برجال الاقطاع الموارنة. فدعم الفلاّحون والتجار منهم الامارة الشهابية، إذ وجدوا فيها ضمانة لهم ضد سطوة الغزاة. ولم يختلف آل الخازن وآل حبيش في دعمهم للإمارة عن سائر الموارنة.

وان الذي وطّد مكانة مشايخ آل الخازن، بوجه خاص، هو تعيين دولة فرنسا الشيخ أبا نوفل الخازن قنصلاً لها في مدينة بيروت(٤٧). والجدير بالذكر ان فرنسا – وهي الدولة الكاثوليكيّة الكبرى في أوروبا آنذاك – كانت قد أخذت على عاتقها، منذ أواسط القرن السابع عشر، حماية الموارنة في لبنان والشرق. وتوطّدت هكذا علاقات الصداقة بين الامارة الشهابية ودولة فرنسا عن طريق الموارنة وبواسطة نفوذهم، ممّا قوّى مركز هذه الامارة تجاه الدولة العثمانية. فزاد ذلك من اهتمام الشهابيين بالموارنة، كما زاد هذا الاهتمام من تعلّق الموارنة بالشهابيين(٤٨).

ولم يطل الوقت حتى تخلّى الدروز القيسيّة هم أيضًا عن مساندتهم لآل شهاب.

فبعد ان خلف الامير ملحم شهاب والده الامير حيدر، سنة ١٧٣٢، عاد زعماء الدروز من قيسيّة ويمنيّة إلى مناوأة الشهابيين. وأمام هذه المعارضة الدرزيّة، أخذ الامراء الشهابيون ينحازون شيئًا فشيئًا إلى الموارنة الذين كانوا يجلّون الامير الشهابي ويعتبرونه صاحب حقّ وراثي في الحكم. كما وانهم كانوا يرون في امارته ضمانة لكيان لبناني ينعمون في ظلّه بالحريّة والكرامة. وما لبث هذا الانحياز أن أحدث تغييرًا في هويّة الحكام الشهابيين. فعندما اضطر الامير ملحم شهاب، سنة ١٧٤٥، إلى التخلّي عن الحكم لمصلحة أخويه منصور وأحمد بسبب مقاومة الدروز له، انتقل إلى بيروت وسكن بقرب أصدقائه الموارنة حتى توفّي، سنة ١٧٦١. وكان لملحم أخ ثالث في بيروت يدعى علي اعتنق هو وبنو بيته المذهب الماروني، وحذا حذوه أبناء أخيه ملحم فتنصّروا هم أيضًا. ولم يطل الوقت حتى أخذ غيرهم من آل شهاب ينضمّ إلى الكنيسة المارونية، وكذلك أنسباؤهم من آل أبي اللمع الدروز، أمراء المتن. وعندما خلف الامير يوسف بن ملحم شهاب عمّه منصور في الامارة، سنة ١٧٧٠، كان أفراد العائلة

(٤٧) تمّ تعيين الشيخ أبو نوفل الخازن نائب قنصل لدولة فرنسا ثم قنصلاً لها في بيروت سنة ١٦٥٥، وظلّ أحفاده بعدئذٍ يتوارثون هذا المنصب حتى ١٧٥٨. وجرى، في ما بعد، تعيين مارونيين آخرين في هذا المنصب، أحدهما غندور السعد من عين تراز، كبير معاوني الامير يوسف. راجع كمال الصليبي: **تاريخ لبنان الحديث**، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٢.

(٤٨) لم يكن الوجه الثقافي في تمتين صداقة الشهابيين بالموارنة أقلّ أهمية من الوجه السياسي. فكثير من الذين تخرّجوا في المدرسة المارونية في رومة، عادوا إلى لبنان وأنشأوا مدارس محليّة راحت تزوّد الأمراء الشهابيين بالكتبة والمعاونين، وهكذا نشأت، على مرّ الايام، طبقة من المتعلّمين الموارنة، تبوأت أعلى المراتب في الحياة العامّة، وأملت، في الكثير من الاحيان، سياسة الامارة. راجع الصليبي، المرجع المذكور.

الحاكمة قد تنصّروا، وتحوّلت هكذا الامارة الشهابيّة إلى إمارة مارونية في أواخر القرن الثامن عشر(٤٩). ومهما تكن الاسباب السياسية التي أدّت إلى تنصّر الحكام الشهابيين، إلاّ ان حكمة الاكليرس الماروني وتقواه ومثله الصالح والسهر الدائب على خلاص النفوس قد ساعدت كثيراً ورافقت عن قرب طريقة اعتناق الأسرة الحاكمة للديانة المسيحيّة.

وبالرغم من تنصّر الحكّام الشهابيين، فقد أخذت الكنيسة المارونية بشخص بطاركتها وأساقفتها موقفاً حكيماً عادلاً وشجاعاً من هؤلاء الحكّام. فكانت تساندهم في الملمّات وتشدّ إزرهم لدى إحقاق الحق وإحلال العدل، وتقف بوجههم عندما كانوا يعرّضون مصالح المواطنين للخطر، ويرهقون كاهل الشعب الكادح بفرض الضرائب الباهظة واستنزاف أمواله بمضاعفة الميرة المفروضة عليه. ومثل هذا الموقف الحازم من هؤلاء الامراء كلّف البطريرك يوسف التيّان (١٧٩٦-١٨٠٨) تقديم استقالته من أعباء البطريركيّة إلى الكرسي الرسولي(٥٠)، والمطران يوسف اسطفان الثاني حياته(٥١)، عندما هدّد الأول الأمير بشير بالحرم لدى رفعه الميرة من قرش إلى ستّة قروش، والثاني عندما وقف إلى جانب الشعب الماروني الكادح في عاميّتي لحفد وأنطلياس.

وفي عهد الأمراء الشهابيين المتنصّرين، خطت الكنيسة خطوات واسعة في مراقي النمو والازدهار، وتطوّرت كثيراً عمّا كانت عليه من ذي قبل. والفضل في ذلك كله يعود إلى خرّيجي المدرسة المارونية في رومة الذين بدأوا يتبوّأون الكرسي الانطاكي ويحتلّون أعلى المراتب الكنسيّة. ثم كان تأسيس الرهبانيات، وانعقاد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦، الذي أقرّ الاصلاح في تنظيم الكنيسة المارونية. كما أنشئت المدارس التي تخرّج منها عدد وافر من الشبّان الذين دخلوا في خدمة الامراء الشهابيين وغيرهم من الأسر النافذة، فأصبحوا طبقة مارونية متعلّمة ذات شأن في البلاد؛ فرافق نموّ الطائفة المارونية الاداري تطوّر ثقافي وعلمي بارز. وتميّز هذا التطوّر، على يد تلامذة المدرسة المارونية، باهتمام جديد بكتابة تاريخها

(٤٩) إضافةً إلى الاسباب الدينيّة التي أدّت إلى تنصّر الأسرة الحاكمة، هناك أسباب أخرى حملت أفراد هذه الاسرة على اعتناق الدين المسيحي، منها: النزاع اليزبكي - الجنبلاطي الذي جعل من الدروز أقليّة في مناطقهم، وازدياد قوة الموارنة في شتى الميادين، وتوسّعهم الشامل، وارتباطهم بصناعة الحرير اللبناني التي أحيت الصلات التجارية بين أوروبا والشرق وعزّزت تفوّقهم الاقتصادي في البلاد. فتأثّر الامراء باختلال هذا التوازن بين الطوائف، وأفضى ازدياد النفوذ الماروني إلى اعتناقهم دين هذه الطائفة، راجع الصليبي، المرجع المذكور، ص ٤٠-٤١.

(٥٠) كثيرون يعتقدون ان استقالة البطريرك يوسف التيّان كانت حباً للزهد والتنسّك، أما في الواقع فكانت احتجاجاً على سياسة الامير بشير الثاني الكبير الظالمة. راجع مقال الأب أنطوان ضو المذكور أعلاه، ص ٩٥.

(٥١) دسّ الامير السمّ القتّال للمطران اسطفان في فنجان القهوة عندما كان يقوم بزيارة له في بيت الدين ١٨٢٢، فمات على اثر ذلك ودفن في دير مار روحانا البقيعة - كسروان.

وتنظيم طقوسها وضبط سلسلة بطاركتها، والسهر على تثقيف شبيبتها، والغيرة على خلاص النفوس. وهكذا وعى الموارنة، أكثر من ذي قبل، هويّتهم التاريخيّة والمكانة البارزة التي أصبحت لهم في ظلّ الامارة الشهابيّة.

٩. الموارنة في عهد القائمقاميتين والمتصرفيّة (١٨٤٢-١٩١٤)

يتّضح ممّا تقدّم انه، في عهد الشهابيين، بلغ الموارنة أعلى مستوى من التقدّم والرقي، وأصبح لهم، كطائفة مسيحيّة، نظراً إلى تماسكهم الداخلي، وإلى بعض الامتيازات التي كانوا ينعمون بها، مكانة سياسية فريدة من نوعها في البلدان الخاضعة للدولة العثمانية. وهذا الرقيّ الحضاري والتفوّق الثقافي والعمراني أقلق جيرانهم الدروز، وأوغر صدر ممثّلي الدولة العثمانية في صيدا ودمشق وطرابلس. فانعكس نموّ الطائفة وتطوّرها نقمة إسلامية عارمة ضدّها وضدّ الطوائف المسيحيّة الأخرى في البلاد العثمانية، إذ كان المسلمون يعتبرون هذه الطوائف مؤيّدة للدول الأوروبية المسيحية المحاربة للسلطنة. والذي أثار الشكوك العثمانية بوجه خاص هو علاقة الموارنة والامارة الشهابية برومة والبابويّة وفرنسا. فعمد العثمانيون، في آنٍ معاً، إلى الحطّ من مكانة الامارة الشهابية وإلى إذلال الموارنة بالتعاون مع الزعماء الدروز الناقمين عليها.

وممّا زاد في نقمة الدروز على الموارنة هو دعمهم للأمير بشير الثاني الكبير وتأييدهم لسياسته، وخاصةً بعد ان امتدّت سيطرة الشهابيين من الشوف إلى المناطق المارونية في ولاية طرابلس، وأصبح الدروز في رقعة مساحة الامارة أقليّة ضئيلة تواجه أكثريّة مارونية ساحقة. ولمّا احتلّت جيوش محمد علي باشا المصري بلاد الشام، سنة ١٨٣٢، بالتعاون مع الأمير بشير، وما عتمت ان أُجبرت على الخروج منه، سنة ١٨٤٠، بتدخّل الدول الكبرى في الامر، ساءت أوضاع الامير بشير السياسية وزادت نقمة المعارضين له، فأُرغم على التخلّي عن الامارة وأُرسل إلى المنفى(٥٢). فحصلت على اثر ذلك اصطدامات دامية بين الموارنة والدروز، في المناطق الجنوبيّة، حملت الحكم العثماني على وضع لبنان تحت سيطرته المباشرة بعد القضاء علي الامارة الشهابيّة. وما ان تمّ ذلك، في أوائل سنة ١٨٤٢، حتى هبّ الموارنة، كنيسةً وشعباً، يطالبون بعودة الشهابيين إلى الحكم. فرفض العثمانيون ذلك رفضاً باتاً، متذرّعين بعداء الدروز المعلن للأسرة الشهابيّة. وكانت دولة انكلترا آنذاك، بسبب التنافس السياسي بينها وبين فرنسا في بلاد الشرق، وراء هذا الرفض، إذ كانت تدعم موقف الدروز وتسهّل على الدولة

(٥٢) نفي الامير بشير الثاني الكبير إلى اسطنبول سنة ١٨٤٢، وعيّن الباب العالي رجلاً مجرياً كان قد انضمّ إلى الجيش التركي لمحاربة إبراهيم باشا في سورية، والياً على لبنان، هو عمر باشا النمساوي؛ وكانت تنقصه المقدرة والحنكة السياسية ليدرك حقيقة الوضع في لبنان. وقد عجز عن ان يظفر بولاء الدروز أو النصارى. راجع الدكتور فيليب حتّي: **تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، بيروت ١٩٧٨، ص ٥٢٨.

العثمانية فرض سياستها في جبل لبنان. ورفض الموارنة بالمقابل التعاون مع الحكم العثماني المباشر، ووضعوا عليه هم والدروز شروطًا لم يتمكّن من قبولها.

وأمام هذا الرفض المعلن لسيطرة الحكم العثماني، عدل الباب العالي عن التجربة وقرّر، بموافقة الدول الكبرى، تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين، واحدة مسيحيّة تضمّ مناطق بشرّي والكورة والبترون وجبيل وكسروان والمتن، والثانية درزيّة تضمّ مناطق الجرد والغرب والشوف. وجاء هذا التقسيم، الى حدّ ما، موافقًا لمصالح الزعماء الاقطاعيين الدروز، إذ أتاح لهم السيطرة على مناطقهم والتصرّف بها كما يشاؤون. أمّا المسيحيّون، فكانوا منتشرين في جميع أنحاء جبل لبنان، بما فيها المناطق الدرزيّة حيث فاق عددهم عدد الدروز(٥٣). ووضع هذا التقسيم الموارنة وغيرهم من المسيحيين في القائمقاميّة الدرزيّة تحت رحمة زعماء الاقطاع الدروز. فنقم أعيان الموارنة على هذا الترتيب وأخذوا يطالبون بتعديلات تضمن لهم مصالحهم. فدعمت الكنيسة المارونية موقف أبنائها في القائمقامية الدرزيّة وأخذت تشجّعهم على المطالبة بحقوقهم. فرأى الدروز في ذلك تحدّيًا طائفيًا لهم. فكان ذلك من جملة أسباب الاصطدامات الدامية بينهم وبين الموارنة وغيرهم من المسيحيين في المناطق المختلطة. ولم يحصل مثل هذا الالتفاف في الصف الماروني حول زعمائهم الاقطاعيين. فلمّا حاول آل الخازن وآل حبيش الاقتداء بالزعماء الدروز واستغلال ضعف حكم القائمقامين المسيحيين لتقوية سيطرتهم على كسروان، أخذ الفلاّحون ينتظمون لمقاومتهم. وما ان حلّ عام ١٨٥٨، حتى ثاروا في كسروان على آل الخازن وآل حبيش وأطاحوا بالسيطرة الاقطاعيّة في منطقتهم، وكان على رأسهم طانيوس شاهين الريفوني(٥٤).

وبعد نجاح حركة الفلاّحين على الاقطاعيين في منطقة كسروان، حاول المسيحيون في القائمقاميّة الدرزيّة مناوأة رجال الاقطاع الدروز، فتعاونوا مع بقيّة الطوائف المسيحية الأخرى لخلع نير هذه الاقطاعية. فالتفّ عندئذ الدروز حول زعمائهم بالاتفاق مع السلطات العثمانية المحليّة، وباغتوا المسيحيين في مناطقهم وانقضّوا عليهم بمساندة الحاميات العثمانية وأهلكوا أعدادًا وافرة منهم مسبّبين المذابح الدمويّة في أمكنة عديدة من لبنان، وبوجه خاص في راشيا وحاصبيّا ودير القمر وحمّانا والقرى المجاورة لها. فباعدت تلك الاحداث الدامية بين الطوائف وظلّت، بعد

(٥٣) بلغ عدد المسيحيين المقيمين في القائمقامية الدرزيّة ٣٨١٤٠ مسيحيًا، وكان من أصلهم ١٧٣٥٠ مارونيًا، بينما كان عدد الدروز في القائمقامية نفسها ٢٥٤٥٠ درزيًا. راجع حتّي، المرجع السابق، ص ٥٢٨—٥٢٩.

(٥٤) تزعّم طانيوس شاهين ثورة الفلاّحين بعد جرجس صالح صفير من عجلتون الذي تنازل عن هذه الزعامة وأبى سفك الدماء البريئة، وطانيوس شاهين هذا كان بيطارًا يعمل في دير الآباء اللعازريين في بلدته ريفون، فبعد ان طرد آل الخازن وأعيانًا آخرين من الموارنة، من ديارهم في كسروان، أعلن سنة ١٨٥٨ قيام حكومة الفلاّحين ونصّب نفسه حاكمًا مطلقًا عليها. راجع أنطوان العقيقي: ثورة وفتنة في لبنان، بيروت ١٩٣٨، ص ٨٢—٩٠.

حكم التاريخ عليها، وصمة عار على جبين التعايش السلمي بين الطوائف اللبنانية. وعرفت تلك الاحداث في التاريخ بأحداث سنة ١٨٦٠(٥٥).

وبالرغم من ان غدر الدروز بالمسيحيين جاء كردّة فعل لسياسة التحدّي التي اتّبعها الموارنة في الاقطاعية، إلاّ ان هذا التحدّي الماروني كان يمثّل وجهة نظر أكثر تجاوباً وتطوّراً مع متطلّبات العصر، وأكثر تطلّعاً إلى المستقبل. فبينما كانت الزعامات الدرزيّة تصرّ على الابقاء على تقاليد وحقوق إقطاعيّة موروثة تعرقل نموّ البلاد وتمنع إعادة وحدتها السياسية، كان الموارنة يشدّدون على ضرورة إلغاء نظام القائمقاميتين والاستعاضة عنه بنظام أكثر فعاليّة يعيد وحدة الكيان اللبناني ويضع حدّاً لنفوذ الأسر الاقطاعيّة، بما فيها الأسر المارونية، ويؤمّن مصالح الطبقة الوسطى الناشئة في مختلف أنحاء الجبل. فكانت فرنسا تدعم موقف الموارنة من الخارج، إلاّ ان مساندة انكلترا للإقطاعية الدرزيّة وإصرار الدولة العثمانية على إبقاء نظام القائمقاميّتين قد حالا دون إحداث أي تغيير يتلاءم مع مطالب الموارنة. وجاءت حوادث ١٨٦٠ تؤكّد فشل نظام القائمقاميّتين، وتفسح في المجال أمام الدول الأوروبيّة ودولة الأستانة للاعتراف بكيانٍ ممتاز للبنان يتألّف من جميع المناطق المسيحية والدرزية من الجبل اللبناني على حدّ سواء، وينعم باستقلال إداري ضمن الدولة العثمانية.

وبعد مذابح ١٨٦٠، جاءت ردّة الفعل المناوئة لحكم القائمقاميتين، بأن تمّ الاتفاق بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية(٥٦) على ان يتولّى الحكم في جبل لبنان متصرّف مسيحي غير لبناني يعيّنه السلطان من بين رعاياه الكاثوليكيين. فيقوم هذا المتصرّف بمهامّه بالتعاون مع مجلس إداري منتخب يمثّل جميع الطوائف في البلاد. وألغى النظام الجديد جميع الصلاحيات الاقطاعية في المناطق، وقسم البلاد إدارياً سبعة أقضية، جاعلاً على كل منها

---

(٥٥) لم تكن هناك أسباب مباشرة لنشوب أحداث ١٨٦٠، بل ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت فتنة مدبّرة. فبدأت تلك الاحداث في شهر نيسان (أبريل) سنة ١٨٦٠، وظلّت نيرانها تستعر حتى أواخر تموز (يوليو). فاندلعت الشرارة الأولى من حادث مشاجرة وقعت بين صبيّين درزي وماروني في صيف ١٨٥٩، ثم ما عتم مشايخ الدروز ان راحوا يتّصلون علناً بخورشيد باشا، ويتسلّمون أسلحة بواسطته، وكان قائد الحامية التركية يعرض حمايته للمسيحيين مقابل تسليمهم الاسلحة، ثم يقف يتفرّج عليهم يذبحون. فقتل من دير القمر ٢٦٠٠ نسمة، ومن جزين وجوارها ١٥٠٠، ومن حاصبيا قتل من الروم الأرثوذكس وحدهم ١٠٠٠ وبصورة بربريّة، وفي راشيا هلك ٨٠٠. وكانت أوامر قيادة الثورة في حاصبيا ألاّ يبقى على ذَكَر من السابعة إلى السبعين. وبلغ عدد المسيحيين الذين سقطوا خلال ثلاثة أشهر في مناطق الدروز ١٢٠٠٠ قتيلاً. وكانت الخسارة في الاملاك تقدّر بأربعة ملايين ليرة إنكليزيّة ذهبيّة. راجع حتّي، المرجع السابق، ص ٥٣٠–٥٣٢.

(٥٦) هي فرنسا، بريطانيا، النمسا، بروسيا، روسيا، تركيا، وقد انضمّت إليها إيطاليا ١٨٦٧.

(٥٧) كان القائمقام من الطائفة التي تنتمي إليها الأكثريّة في القضاء. وعلى هذا الاساس فقد جاء توزيع القائمقامين على النحو الآتي: ثلاثة من الموارنة، درزي واحد، مسلم واحد، روم أرثوذكس واحد، روم كاثوليك واحد. راجع حتّي، المرجع ذاته، ص ٥٣٨.

قائمقاماً يعيّنه المتصرّف(٥٧). فنجحت هذه الترتيبات في خلق إطار إداري صالح للنموّ، وأصبح لبنان مضرب مثل بحسن التنظيم والرقي.

وفي ظلّ المتصرّفية راح الموارنة ينضجون سياسياً أكثر فأكثر كفئة حاكمة. وبالرغم من انه كان لهم مآخذ على نظام المتصرّفية، وأهمّها ان هذا النظام أخذ الحكم من أيدي اللبنانيين ووضعه في أيد غريبة، فقد أتاحت الترتيبات الادارية التي أوجدها هذا النظام لعدد كبير منهم الاشتراك مع المتصرّفين في الحكم. فأخذوا يتدرّبون على تولّي المسؤولية، وتحوّلت هكذا تدريجاً طموحاتهم الفرديّة كطائفة إلى ولاء للبنان كوطن يجمع بينهم وبين جميع الطوائف الأخرى في البلاد، ضامناً مصالح كل طائفة ومؤمّناً العيش الحرّ الكريم للجميع. فنشأت القوميّة اللبنانية وترعرعت في ظلّ طموحات مارونية، وغدت الكنيسة المارونية القوام الأساسي لهذه الفكرة والمؤسّسة المجسّدة لها في غياب دولة لبنانية تقوم بهذه المهمّة.

وبقيت المتصرّفية على حالها حتى انتهى أمرها مع الحرب العالميّة الأولى. فألغى العثمانيون العمل بنظامها سنة ١٩١٥، بعد دخولهم الحرب إلى جانب المانيا والنمسا، ووضعوا جبل لبنان تحت الحكم العسكري.

١٠. الموارنة إحدى دعائم دولة الاستقلال

في ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤، اندلعت الحرب العالمية الأولى بتحالف النمسا والمانيا وتركيا ضد روسيا وصربيا وانكلترا وفرنسا وبلجيكا. فاحتلّت تركيا لبنان وحلّت حكومته الشرعيّة التي كنت قائمة في عهد المتصرّف أوهانس باشا، وألّفت هيئة حكومية جديدة برئاسة جمال باشا السفّاح قائد الجيش العثماني الرابع، دامت حتى انتهاء الحرب. ولمّا تسلّم القائد الجديد مهامه العسكرية والادارية، أعلن الاحكام العرفية، وعلّق العديد من اللبنانيين على أعواد المشانق، وأرغم **البطريرك الياس الحويّك** على طلب الفرمان من الدولة العثمانية(٥٨).

ومرّت على لبنان، في سني الحرب العالمية الأولى، أيام ضيق وشدّة لم يسبق ان احتمل الشعب اللبناني مثلها من ذي قبل. فعمّت المجاعة والعوز جميع أنحاء الوطن، وغطّت أسراب الجراد سماءه الصافية. فمات الآلاف من اللبنانيين ومن أبناء الطائفة المارونية جوعاً، وأوغرت المقابر فاها وابتلعت الكثيرين منهم. ولمّا ضاقت على جثث الموتى، كان الناس الأحياء يدفنون موتاهم بالقرب من البيوت.

وفي ٢٩ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨،

---

(٥٨) كانت قد جرت قبل هذا التاريخ محاولات عدّة من قبل سلاطين بني عثمان في فرض طلب الفرمان على البطاركة الموارنة. وكان هؤلاء لا يطلبون تثبيتهم في الكرسي الانطاكي إلاّ من أحبار رومة الأعظمين. وكانوا كلما ألجئوا إلى مثل هذا الطلب من الدولة العثمانية يجدون مخرجاً للتخلّص من تلبية رغبة السلاطين. وأمّا البطريرك الحويّك فلم يجد مهرباً تحت وطأة الحرب وتهديد جمال باشا من طلب الفرمان، ولو مكرهاً، تفادياً لشر مستطير قد ينزل بشخصه أو بأبناء طائفته.

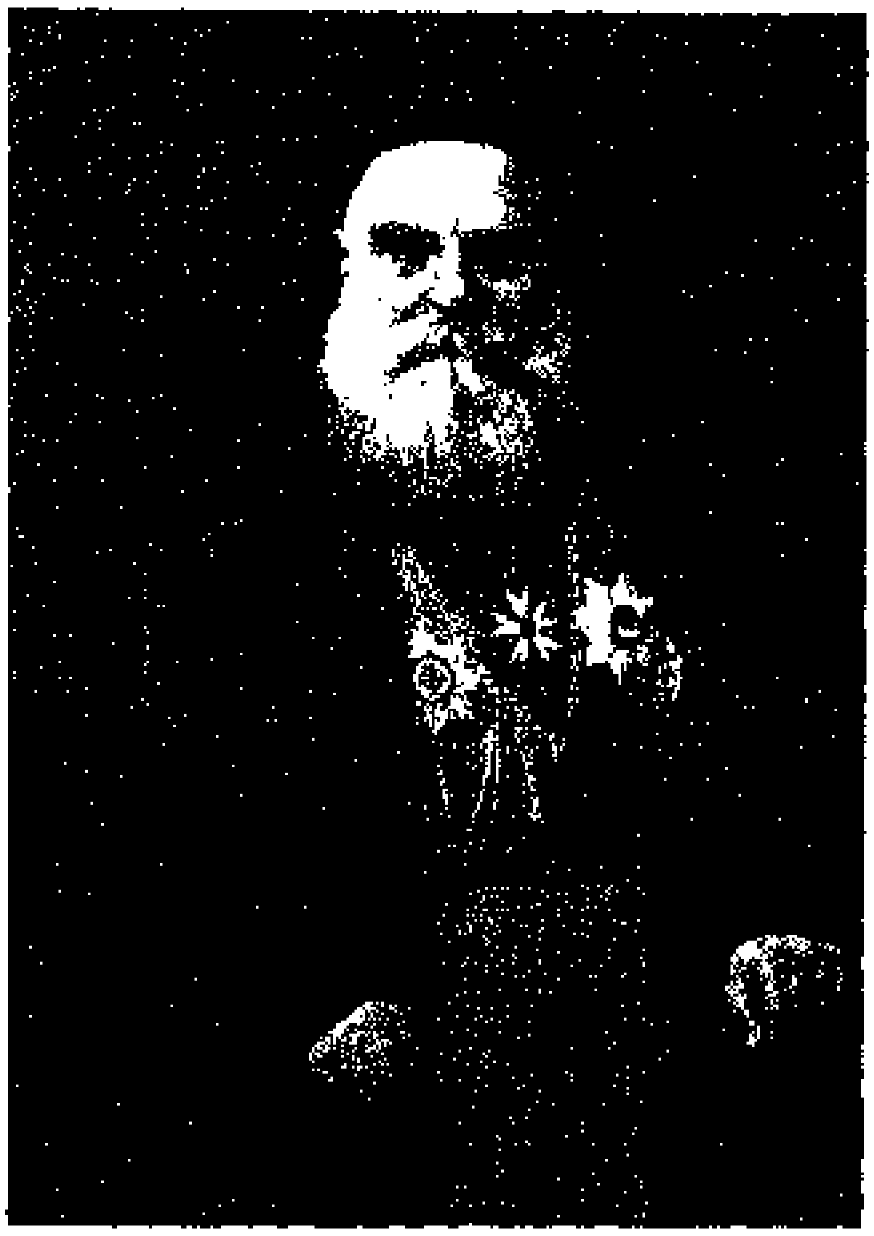

البطريرك الياس الحويك

وضعت الحرب العالمية أوزارها وجلا الأتراك عن لبنان بعد ان حكموه مع معظم بلدان الشرق الأدنى أربعمائة سنة (١٥١٦-١٩١٨). وفي أول تشرين الأول (أكتوبر)، دخل الامير فيصل دمشق على رأس كتيبة ليتقلّد زمام الحكم في هذه المدينة. ومن هناك أوعز إلى بلديّة بيروت برفع راية الحجاز فوق دور الحكومة، وأوفد شكري الأيوبي لتشكيل حكومة جديدة فيها. فردّ الجيش الفرنسي الأيوبي على أعقابه، فعاد إلى دمشق بعد ان أكره على إنزال الراية العربيّة عن مباني الحكومة. فعيّن عندئذ الكولونيل دي بيابابا الفرنسي حاكماً عاماً إدارياً في بيروت(٥٩).

وكان أول عمل أتاه الحلفاء، بعد ان خسرت تركيا الحرب؛ هو إرجاع حكومة لبنان الشرعيّة إلى سابق عهدها. فعاد مجلس الادارة المنبثق عن إرادة الشعب بانتخاب حرّ، إلى مزاولة مهامه الادارية والسياسية، وهو المخوّل دون سواه بأن يتكلّم باسم الشعب اللبناني. وعلى أساس هذا العرف، استمدّت الوفود الثلاثة التي أرسلها لبنان إلى مؤتمر الصلح في فرساي سلطتها التشريعية والقانونية من مجلس الادارة الذي استمدّ بدوره سلطته من الشعب اللبناني.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩، ألّف مجلس إدارة لبنان وفداً من أعضائه ليعرض على مؤتمر الصلح مطاليبه، وكان هذا الوفد مؤلّفاً من السادة داود بك عمّون مندوباً أولاً، ومحمود بك جنبلاط واميل اده وإبراهيم بك أبو خاطر وتامر بك حماده، أعضاء. وأما مطاليب مجلس الادارة، فتتلخّص بما يلي:

أولاً: توسيع حدود لبنان بحيث تتناول جميع الانحاء المنسلخة عنه في عهد الدولة العثمانية؛

ثانياً: الاعتراف باستقلاله التام وبحقّه في اختيار نوع الحكم الذي يصلح له،

ثالثاً: إنشاء مجلس نوّاب منتخب على قاعدة التمثيل النسبي تأميناً لحقوق الأقليات، ويكون لهذا المجلس حقّ التشريع والتمتّع بجميع

(٥٩) راجع الخوري إبراهيم حرفوش: **دلائل العناية الصمدانية**، جونيه ١٩٣٤، ص ٥٨٣-٥٨٨.

ما تتمتّع به مجالس النوّاب في الحكومات الديموقراطيّة في العالم من الحقوق والامتيازات.

رابعًا: مساندة فرنسا له ومساعدتها لحكومته الوطنيّة وتأييدها لاستقلاله.

وفوّض مجلس الادارة إلى المندوبين المذكورين أعلاه عرض هذه المطالب على مؤتمر الصلح المشار إليه، وملاحقة تأييدها وتقريرها. وعاد الوفد بعد بضعة أشهر دون الحصول على مبتغاه، لأن الأمير فيصل لم ينفكّ عن مواصلة مسعاه في ضمّ لبنان إلى سورية، وحمل الحلفاء على الاعتراف بأن هذين البلدين هما من البلدان والممالك العربيّة. وفي ٣ شباط (فبراير) سنة ١٩١٩، تقدّم هو بنفسه إلى مؤتمر الصلح بمطالبيه مدّعيًا انها مطاليب الاقطار العربيّة برمّتها، وفي مقدّمتها المطلب المتعلّق بسيطرته على لبنان وسورية. وبالرغم من ان المؤتمر لم يستجب إلى طلبه بضمّ لبنان إلى سورية، فقد تمكّن، خلال وجوده في باريس، من حمل الحكومة الفرنسية على الاعتراف بحكمه لسورية، مقابل وعد حرّ من جانبه بأن يوعز إلى الحزب العربي في دمشق بالاعتراف بالانتداب الفرنسي. وبعد رجوعه في أيار (مايو) سنة ١٩١٩، أخذ يجهد بكل قواه على استمالة لبنان إليه، وعلى ان يكون هذا البلد مضمومًا إلى سورية التي هو أمير عليها. وممّا زاد فيصل تشبّثًا بمطلبه هذا هو ما شهده في باريس من فشل الوفد اللبناني وإخفاقه في مهمّته، رغم مجاملة الحكومة الفرنسية لأعضائه، وما رآه من سعي الفرنسيين لحمل اللبنانيين على الانضمام إلى دمشق. فلم يذعن اللبنانيون لما كان يصبو إليه الامير، واتفقوا على ألاّ يمكّنوه من بسط سيادته على لبنان. فعزموا على فصل بلادهم عن سورية ونادوا باستقلالهم، وأجروا مظاهرات سلمية أمام سراي بعبدا وجونيه وغير أماكن. وتألّفت وفود من كبار القوم وأتت إلى بكركي تطلب إلى البطريرك الياس الحويّك (١٨٩٩-١٩٣١) تحقيق رغبتها بأن يسافر إلى باريس سعيًا وراء استقلال لبنان(٦٠). وقد انضمّ إليهم مسيحيّو بيروت والبقاع والشمال ومرجعيون وقسم من دروز لبنان. أمّا البطريرك فجمع أساقفة الطائفة المارونية في بكركي وفاوضهم في هذا الامر الهام، فأجمع الاحبار على الاستجابة لرغبة اللبنانيين. وبالرغم من ان البطريرك كان قد بلغ السادسة والسبعين من سنيه، فلم يحجم عن تجشّم مشقّات السفر وركوب البحر، مستهينًا في سبيل استقلال لبنان أغلى التضحيات ومستسهلاً أقسى المشقّات.

ويوم الثلاثاء في ١٥ تموز (يوليو) ١٩١٩، سافر البطريرك الحويّك بتفويض من مجلس الادارة، على ظهر الباخرة «كسّار» إلى رومة، ومنها إلى باريس، بصحبة المطارنة: اغناطيوس مبارك، وبطرس الفغالي، وشكر الله

---

(٦٠) لمزيد من التفاصيل عن سفر الحويّك إلى باريس، راجع حرفوش، المرجع السابق، ص ٥٩٤-٦٠٠.

(٦١) المطرانان شكر الله خوري ويوسف الخازن لم يرافقا البطريرك الحويّك من لبنان، ولكنهما انضمّا إلى الوفد هناك لوجودهما صدفة في العاصمة الفرنسية.

خوري ويوسف الخازن(٦١)، والخوري اسطفان الدويهي، وشقيقه لأون بك الحويّك، وانضمّ إليهم في باريس المطران كيرلّس مغبغب مطران زحله للروم الكاثوليك الذي انتخب فيما بعد بطريركاً، والكاهنان تودوسيوس معلوف وقبريانس شهاب معاونا المطران مغبغب.

وصل البطريرك إلى رومة في ٢٠ تموز (يوليو) وهناك قضى مدّة شهر راح يمهّد فيها لنجاح زيارته إلى فرنسا. وفي ٢١ آب (أغسطس)، سافر إلى باريس حيث قوبل بأجمل مظاهر الترحاب والاجلال. وبعد ان استقبله السيد بوانكرّه رئيس الجمهوريّة الفرنسية في قصر الأليزه في ٢٨ آب (أغسطس) ١٩١٩، والسيد كليمنصو رئيس الوزراء، وبعد ان اجتمع مراراً بأقطاب السياسيين الفرنسيين وتبادل الزيارات مع ممثلي الحلفاء في باريس، وباحثهم في ما قدم لأجله إلى العاصمة الفرنسية، تقدّم البطريرك في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر)، إلى مؤتمر الصلح بمذكّرة إضافية ضمنّها مطاليب اللبنانيين في ١٥ صفحة، أثبت فيها أهليّة لبنان للحكم الذاتي والاستقلال التام، مؤيّداً حقّه في الحياة الحرّة المطلقة من القيود السياسية بالحجج والبيّنات، معلّلاً صواب مطاليه بما تجلّى لعيون العالم المتمدّن من فضائل قومه وأهليتهم لاقتباس أفضل ما في الحضارة العصريّة من المميّزات المثبتة للأخلاق والمهذّبة للنفوس والموسّعة للإدراك(٦٢).

وبعد هذه المراجعات والاتصالات، قدّم رئيس وزراء فرنسا السيد كليمنصو إلى البطريرك الحويّك عريضة يعترف فيها بحقوق لبنان وصواب مطالبه، ويعاهده باسم الحكومة الفرنسية على العمل لصيانة هذه الحقوق وتحقيق تلك المطالب. وممّا جاء في هذه العريضة: «ان رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتية ونظام وطني مستقلّ تتفق تمام الاتفاق مع التقاليد الحرّة الفرنسية. وليكن اللبنانيون على ثقة من انهم بمعاضدة فرنسا ومساعدتها سيحافظون على تقاليدهم ويوسّعون نطاق نظاماتهم السياسية والادارية ويعملون بأنفسهم لاستثمار كل منافع بلادهم، وذلك بالاستقلال عن كل جماعة خارجة عن نطاق وطنهم(٦٣).

بعد تسلّمه عريضة رئيس الوزراء الفرنسي، سرّ البطريرك الحويّك لنجاح مهمّته في باريس، فغادر العاصمة الفرنسية مرتاح الضمير مطمئنّ البال إلى ما لقيه من الحفاوة والاكرام، وإلى ما أدّت تلك المساعي من تحوّل في السياسة الأوروبيّة بوجه عام والسياسة الفرنسية بوجه خاص لصالح استقلال لبنان. وصادف وجود البطريرك الحويّك في باريس آنذاك ذهاب الأمير فيصل إليها. ولمّا قابل هذا السيد كليمنصو رئيس الوزراء وباحثه بشأن مسألة لبنان والشواطئ البحرية، حصل منه علي هذا الجواب الفاصل: «قد كان لبنان دائماً مستقلاً، ولا أريد منذ الآن وصاعداً ان تفكّر به أو تطمع بضمّه إلى سورية».

حمل البطريرك معه إلى لبنان، الذي وصل

(٦٢) هناك نسخة عن هذه المذكّرة في ارشيف البطريرك الياس الحويّك الذي نظّمناه حديثاً، وقد ضمّت إلى اضبارة «سفر البطريرك الحويّك إلى باريس سعياً وراء استقلال لبنان».

(٦٣) راجع حرفوش، المرجع السابق، ص ٦٠١-٦٠٢.

إليه في ١٩١٩/١٢/٢٥، عريضة السيد كليمنصو المؤرّخة في ١٩١٩/١١/١٠، وحمل الامير فيصل معه معاهدة موقّعة منه ومن كليمنصو نفسه، جاء في أحد بنودها: «يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسي، وستعيّن الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هذا بعين الاعتبار لإتمام حقوق ومصالح وأماني الأهلين»(٦٤).

غير ان الامير فيصل لم يتقيّد بالمعاهدة في ما يتعلّق بحدود لبنان، وخصوصاً بعد عقد مؤتمر سان ريمو، وصرّح بعد عودته من مؤتمر الصلح، وبيده المعاهدة، بأن لبنان لا تتوسّع حدوده، وانما يستقلّ عن سورية فقط. فقلقت الخواطر لهذا التصريح، واضطرب بال البطريرك وأوجس خيفة من ان تهدم أنواء السياسة المعادية ما بناه في باريس من أسس واتفاقيات لقيام دولة الاستقلال. فعمد عندئذ إلى إيفاد نائبه المطران عبد الله خوري رئيساً للوفد الثالث، لإكمال ما بدأ به غبطته ومتابعته. فرافق المطران خوري في مهمّته هذه كل من الامير توفيق ارسلان والشيخ يوسف الجميّل والاستاذ إميل اده، ولحق بهم في ٢٤ آذار (مارس) ١٩٢٠، المطران كيرلّس مغبغب.

غادر المطران عبد الله خوري بكركي في أول شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأبحر مع الوفد المرافق في الثاني منه، بعد ان أصحبه البطريرك الحويّك بكتابات توصية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزرائها والوزراء. ودفع إليهم بعد وصوله إلى العاصمة الفرنسية صكّ التوكيل الرسمي من البطريرك الماروني ومن مجلس إدارة لبنان. وهذا أهمّ ما جاء فيه:

«لمّا كان هذا المجلس الممثّل للشعب اللبناني نيابياً قد وجّه، في مضبطته الصادرة في تاريخ ١٩ حزيران (يونيو) ١٩١٩، رجاءً وتكليفاً إلى غبطة البطريرك الماروني الياس الحويّك بالسعي لدى مؤتمر الصلح وسائر رجال الحلّ والعقد في باريس وغيرها «في سبيل» تأييد استقلال جبل لبنان الكبير بحدوده التاريخيّة والطبيعيّة، استقلالاً تامّاً إدارياً وسياسياً وفقاً لقرارات المجلس السابقة، ولمّا كان من الضروري للمصلحة الوطنيّة ان يوجد الآن من يلاحق المطالب اللبنانية المقدّم ذكرها لدن المراجع الايجابيّة، فبناءً على ذلك كله قد قرّر هذا المجلس تفويض وتوكيل سيادة المطران عبد الله خوري الموجود الآن في باريس لإكمال السعي لدى مؤتمر الصلح وسائر المراجع الايجابية في باريس وغيرها للحصول على المطالب والاماني المار بيانها على الشكل المصرّح به في هذه المضبطة وتقرير هذه الحقوق في مؤتمر الصلح بالصورة النهائيّة في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠. وتلي التواقيع: حبيب السعد رئيس المجلس، خليل عقل، سعد الله الحويّك، عبد الحليم الحجّار، محمود جنبلاط، داود عمّون، سليمان كنعان، محمد الحاج

---

(٦٤) راجع حرفوش، المرجع السابق، ص ٦١١.

محسن، محمد صبرا دلاغور، فؤاد عبد الملك، الياس شويري، نقولا غصن، يوسف بريدي»(٦٥).

وصل الوفد إلى باريس في ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأخذ فور وصوله في مباشرة مهمّته. فزار أولاً السيد جورج يكو المطّلع على مجرى الحوادث في لبنان، فأعلمه هذا ان أرباب الأمور عقدوا العزم على توسيع حدود لبنان بضمّ بيروت والبقاع إليه. وبعد اتصالات عديدة واجتماعات مطوّلة وزيارات فرديّة وجماعيّة لشخصيات فرنسية بارزة، وبعد مناقشات في المجالس الخاصّة والعامّة، وبوجه خاص في مجلسي الوزراء والنوّاب الفرنسيين، تعيّنت حدود لبنان بموجب الخارطة التي كان قد رسمها أركان حرب الحملة الفرنسيّة سنة ١٨٦٠، وهي تضمّ، إضافة إلى الجبل اللبناني، بيروت وطرابلس وصور وصيدا، وسهل البقاع مع راشيا وحاصبيا ومنطقة الهرمل – بعلبك. ولمّا رأى رئيس الوفد مع مرافقيه ان مهمّتهم قد انتهت، عادوا إلى لبنان في ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠.

وفي هذه الأثناء كان الجنرال غورو قد أعلن في اليوم الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، استقلال دولة لبنان الكبير في قصر الصنوبر في بيروت، وكان إلى يمينه البطريرك الياس الحويّك، إلى يساره الشيخ مصطفى نجا، ومن حولهم الأساقفة والرجال الرسميّون والوجهاء والاعيان. وعلى اثر هذا الاعلان، صدر مرسوم بتنظيم دولة لبنان الكبير؛ فقسّمت البلاد إلى متصرّفيات وأقضية، وأُعيد تنظيم دوائر الحكومة المركزيّة على قاعدة الوزارات المصغّرة، وعيّن لها مستشارون فرنسيون. أمّا منصب الحاكم العام فعهد إلى الكومندان ترابو الذي بقي في منصبه حتى ١٢ أيار (مايو) ١٩٢٣.

وظلّ لبنان بحدوده الحاضرة تحت الانتداب الفرنسي من ١٩٢٠ حتى ١٩٤٣. ولمّا كان، طيلة هذه المدّة، فريق من اللبنانيين يأبون الاعتراف بلبنان كدولة مستقلّة ويطلبون من حين إلى آخر الالتحاق بسورية، عقد في سنة ١٩٤٣ مؤتمر عام حضره أصحاب الرأي ورجال السياسة من الطوائف المسيحية والاسلامية، وفي طليعتهم الشيخ بشاره الخوري ورياض الصلح، وتمّ الاتفاق فيه بالاجماع على ان يعترف المسلمون بلبنان ضمن حدوده الحاضرة وطناً لهم ويعدلوا عن طلب الالتحاق بأية دولة في الجوار مقابل تخلّي المسيحيين عن التمسّك بأية حماية غربيّة وموافقتهم على ان يكون لبنان وطناً لجميع أبنائه على السواء، وان يتّجه في سياسته اتّجاهاً قومياً استقلالياً وطنياً. وهذا ما أسموه «بالميثاق الوطني»، منذ سنة ١٩٤٣، حتى

(٦٥) تستقي هذه المعلومات الدقيقة من يوميات سفر المطران عبد الله خوري إلى باريس التي ما تزال محفوظة في اضبارة خاصة به في ارشيف بكركي، ومن مؤلف الأب حرفوش، المذكور أعلاه، ص ٦١٤-٦١٨؛ ومن مخطوطة أطروحة دكتوراه، أعدّها حكمت الحدّاد، وناقشها بإشرافنا في قسم التاريخ في جامعة الروح القدس، ١٩٨٥، بعنوان: **الأوضاع السياسية في لبنان بين ١٩١٨-١٩٢٠، ودور البطريركية المارونية في إعلان دولة لبنان الكبير.**

يومنا هذا.

١١. من الامتيازات إلى الاستقلال الناجز التام.

يبدو واضحاً مما تقدّم ان لبنان لم يكن، في وقت من الاوقات، وخاصةً في عهد الدولة العثمانيّة، مستقلاً استقلالاً تاماً ناجزاً، كما هو اليوم. بل جلّ ما في الواقع التاريخي أنه كان حاصلاً على بعض الامتيازات ومستقلاً استقلالاً إدارياً داخلياً. وقد ظهر هذا الاستقلال بصورة جليّة في عهد الأمراء المعنيّين والامراء الشهابيّين، وعهد القائمقاميتين والمتصرفية، أي من ١٥١٦ حتى ١٩١٤. ولمّا أصبح حرّاً في تقرير مصيره بعد الحرب العالميّة الأولى ١٩١٨، وتقلّص ظلّ الحكومة العثمانيّة عن البلدان الشرقيّة، توصّل الموارنة مع بقيّة اللبنانيين، وبوجه خاص المسيحيين منهم، إلى انتزاع استقلالهم التام السياسي والإداري بواسطة دولة فرنسا، التي حقّقت حلم الموارنة القديم بإعلانها، في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، دولة لبنان الكبير بحدوده الحاضرة كدولة مستقلّة ذات سيادة حرّة على جميع أراضيها. وهذا الحلم لم يكن ليتحقّق لو لم «يتمكّن الموارنة عبر العصور، من المحافظة بدافع فطرتهم القوميّة، على هويّتهم التاريخيّة عن طريق الثبات في الموقف، والكفاح المستمرّ ضدّ الجور، والتعليم من الاخطاء، والحكمة في انتقاء الاصدقاء، والاستعداد للتفاهم مع الغرباء والاضداد، والانفتاح على الحضارات، والحوار مع الآخرين قبل أخذ القرارات، والوفاء لكل من مدّ لهم يوماً ما يد المساعدة وأظهر نحوهم عطفاً وتفهّماً وحسن مبادرة. ان هذا كله مكّن الموارنة من المحافظة على حقوق الانسان في العيش بحريّة وكرامة على مرّ الاجيال، ومن المساهمة في خلق وطن يضمن هذا الحقّ لجميع أبنائه»(٦٦).

كان من الطبيعي ان يتسلّم الموارنة، كلبنانيين، دفّة الحكم في جمهوريّة كان لهم الدور الأساسي في خلقها. وكان من الطبيعي أيضاً، بعد ان قامت الجمهوريّة اللبنانيّة تجسّد فكرة الاستقلال والدفاع عن حدود الدولة وسلامة أراضيها، أن تحلّ هذه الدولة محلّ الكنيسة المارونيّة في تحمّل المسؤوليّات السياسية والوطنيّة. إلاّ أن الكنيسة، كمؤسّسة دينيّة وروحيّة، يبقى عليها ان تدافع عن حرية المعتقد والاخلاق، وان تنعش الروح الوطنيّة في الكيان اللبناني، وان تحارب الالحاد والزيغ عن الايمان والهرطقات، وان تقاوم الجشع والطمع وكبت الحرّيات، وان تكافح الظلم والاباحيّة وتردّي الاخلاق من استرسال في استباحة المحرّمات والإدمان على المخدرات، وان تسهر على القيم والآداب السليمة والمثل العليا.

وهذا ما برح ينادي به، ويدافع عنه، ويدعو له جميع البطاركة الموارنة على مرّ التاريخ، وبوجه خاص بطاركة القرن العشرين: من الياس الحويّك إلى **أنطون عريضة**، فإلى بولس المعوشي، فإلى نيافة الكردينال أنطونيوس

---

(٦٦) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص ٤٧.

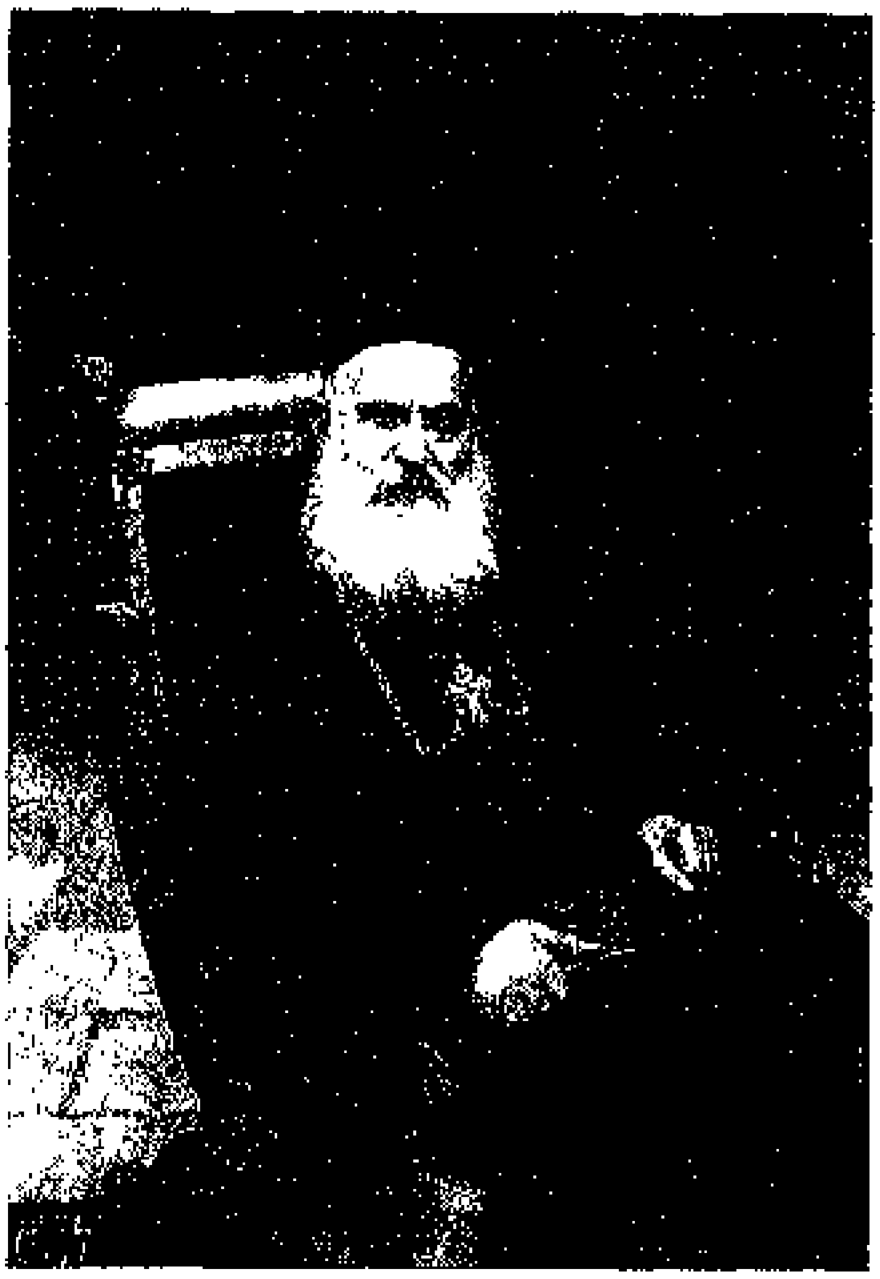

البطريرك أنطوان عريضة

خريش الذي لم يترك سانحة دون ان يُسمع صوته في المحافل الدينيّة والمدنيّة، ويتّخذ الموقف الحكيم والرزين الذي يمليه عليه الضمير، من الاشخاص والاحداث.

١٢. تجربة الميثاق الوطني والمداخلات الخارجية

ان تجربة الميثاق الوطني كانت تجربة ناجحة في بدء استقلال الجمهوريّة اللبنانية سنة ١٩٤٣، وقد تمكّن اللبنانيون، مسلمون ومسيحيون، إلى حدّ ما، من العيش في وطن حرّ، سيد، مستقلّ، يضمن لهم، في آنٍ معاً، عدم الانحياز إلى الغرب وعدم الالتحاق بالشرق. واجتازوا المراحل الأولى، بعد ١٩٤٣، بنجاح، وتوصّلوا إلى المحافظة على كيانهم وعلى النظم الديموقراطيّة الحرّة برغم الصعوبات والاخطار الكثيرة التي كانت تحيق بهم. وعرف لبنان، قبل أحداث ١٩٧٥، عهد ازدهار اقتصادي وأخوّة إنسانيّة، بدا معه، وكأنه في وقت من الاوقات، مثلاً يحتذى به، ورائداً في مجال إقامة نوع جديد من العلاقات بين الناس. وجاء نموذج التعايش السلمي بين اللبنانيّين دليلاً على أنه بالامكان إقامة مجتمع وطني متماسك الاطراف: متعدّد المعتقدات والثقافات والايديولوجيّات، وهذا ما جعل من لبنان رمزاً بين الامم.

ان التوازن والاستقرار الذي أراده الموارنة واللبنانيون نهائياً لوطنهم وثابتاً، قضت عليه قضاءً مأساويًّا، في الآونة الأخيرة، تحرّكات في المنطقة الشرق-أوسطيّة، ومداخلات أجنبيّة في لبنان. وجاءت المأساة الفلسطينيّة لتزيد من خطورة هذا الوضع وتوقد نيران الفتنة وتطلق الأزمة. وجاءت بعد ذلك الأحزاب المتطرّفة، كالشيوعيّة والاشتراكيّة والقوميّة، والحركات الدينيّة المتعصّبة، كالخمينيّة والتوحيديّة، لتمعن في تفتيت البلد، وتشرذم الجيش وتضعف الشرعيّة.

قد يكون الموارنة، وبوجه خاص الذين تحمّلوا مسؤوليّة الحكم في لبنان، قد أساؤوا حسن الادارة والتدبير. ولكن، يبقى ان جوهر الأزمة هو أبعد من المطالبة بحقوق، وإصلاح النظام، والتمتّع بمبدأ المساواة، وإبطال امتيازات طائفة على حساب طائفة أخرى. ان

تابع الاحداث من سنة ١٩٧٥ حتى اليوم يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بان ما يريده الأخصام إنما هو اقتلاع المسيحيّة من الشرق، والقضاء على المارونيّة وغيرها من الطوائف المسيحيّة في لبنان.

ان دور الطائفة المارونيّة اليوم، وحضورها حاليًّا في لبنان، هو هو كما كان بالأمس، في أيام المماليك، وفي عهد العثمانيين، وإبّان أحداث ١٨٦٠، أي ان تظلّ، كما سبق وقلنا، محافظةً بدافع فطرتها القوميّة، على هويّتها التاريخيّة عن طريق الثبات في الموقف، والصمود المستمرّ في وجه الجور والظلم، والتعليم من الاخطاء، والحكمة في انتقاء الاصدقاء، والاستعداد للتفاهم مع الاخصام، والانفتاح للحوار مع الآخرين بصدق وإخلاص ووفاء.

١٣. تطلّعات مستقبلية وانفتاح على ثقافة الغرب

ان دور الكنيسة المارونية اليوم وحضورها في لبنان هو ان تظلّ منفتحة في محيطها الجغرافي وعلى بقيّة الطوائف اللبنانية، وان يكون لها التأثير الفاعل والمميّز في مختلف التفاعلات الاجتماعية والسياسية والاقتصاديّة والثقافيّة في هذا الشرق. فإذا تطلّعنا إلى الماضي، يبان لنا، على ضوء الاحداث التاريخيّة المتتالية، تأثير الكنيسة المارونية في الامارات اللبنانية الثلاث: العسّافية، والمعنيّة، والشهابيّة. فمنذ بداية القرن السادس عشر، بدأ الانفتاح، من خلال نزوح العائلات المارونية إلى الوسط فالشوف فالجنوب، على بقيّة الطوائف والحكّام المحلّيين. ثم خرجت الكنيسة المارونية من معقلها القديم في وادي قاديشا وقزحيّا وقنّوبين، وراحت تتغلغل في الجبل اللبناني من الشمال إلى الجنوب. فدخل الموارنة كعنصر فعّال في الامارات الثلاث، والتقت مصالح كنيستهم مع مصالح هؤلاء الامراء من الناحية الماديّة والاقتصاديّة والمعنويّة والسياسيّة. وكانت حيويّة الشعب الماروني تستمدّ قوّة فعاليتها من قدامة سيرة، وصلابة عقيدة، وشدّة مراس، وثبات عزيمة في الاكليرس الماروني والرهبانيات. فاستقر الفلاّحون والمزارعون من أبناء الشعب الماروني، بعد نزوحهم من الشمال إلى المناطق الشوفية، في المزارع والقرى الجبليّة، حيث تعاطوا حراسة الارض وتربية دود القزّ، في حين زاول غيرهم الاعمال التجاريّة في المدن الكبرى. وهكذا توطّدت وحدة الحال بين الطرفين. فأصبح نشاط الفلاّحين والتجّار قوامًا لاقتصاد الامارة، كما كان تأييد البطاركة والأساقفة الموارنة دعامة لسطوة الامراء.

ولم يقتصر الانفتاح على المجتمع اللبناني وأبناء بقيّة الطوائف الأخرى وحسب، بل تعدّاه إلى الغرب المسيحي، عن طريق المراسلات وإيفاد المرسلين الكاثوليك من فرنسسكان وكبّوشيين وكرمليين ويسوعيين ولعازريين وغيرهم. ونتيجةً لذلك، توطّدت العلاقات بين الكنيستين المارونية والرومانيّة، وزاد اهتمام الاحبار الاعظمين بشؤون الكنيسة المارونية، فأخذوا يعيّنون لها كردينالاً خاصًا من كرادلة الكنيسة لرعاية مصالحها. وأنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٨٤، المدرسة المارونية في رومة، كما سبق ورأينا.

مدرسة عين ورقة قبل ترميمها

وعقد سنة ١٥٩٦، أولُ مجمعٍ إصلاحي في الكنيسة المارونية، وجدّد فيه الموارنة تمسّكهم بالاعتاب الرسولية وخضوعهم للاحبار الرومانيين.

ولم يطل الوقت، حتى بدأت الكنيسة المارونية تقطف ثمار انفتاحها على الغرب المسيحي، مع رجوع تلامذة المدرسة المارونية إلى أرض لبنان والشرق. ففي غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر، تبوّأ الكرسي الانطاكي ستّة من خرّيجي هذه المدرسة، كما رُقّي عشرات الكهنة منهم إلى الدرجة الأسقفيّة. فراحوا ينشطون معاً في إعادة تنظيم كنيستهم وتدبير أبنائها وإدارة كنائسها وأوقافها، وضبط طقوسها، وتعزيز النشاط الرسولي في الابرشيات. فساهموا إلى حدّ بعيد في ارتداد بعض أبناء الطوائف الشرقيّة الأرثوذكسيّة إلى الكنيسة الكاثوليكية، ووفّروا لرؤسائهم الروحيين من أساقفة وبطاركة، مع بعض العائلات المارونية النافذة، مقرّاً لسكناهم في جبل لبنان. وتوصّل الاكليرس الماروني، بواسطة مداخلاته ونفوذه، وبدافعٍ من غيرته الرسولية، إلى تنصّرِ الامراء الشهابيين في نهاية القرن الثامن عشر.

وعلى الصعيد الثقافي، تجلّى نشاط الكنيسة المارونية في بعث النهضة العلميّة التي قام بها تلامذة المدرسة المارونية في لبنان والشرق. فهذه المدرسة شكّلت منعطفاً تاريخياً في حياة الكنيسة المارونية. منها انطلقت الشرارة الأولى التي أضاءت مشعل الحضارة والنهضة الثقافية التي قاد مسيرتها تلامذتها

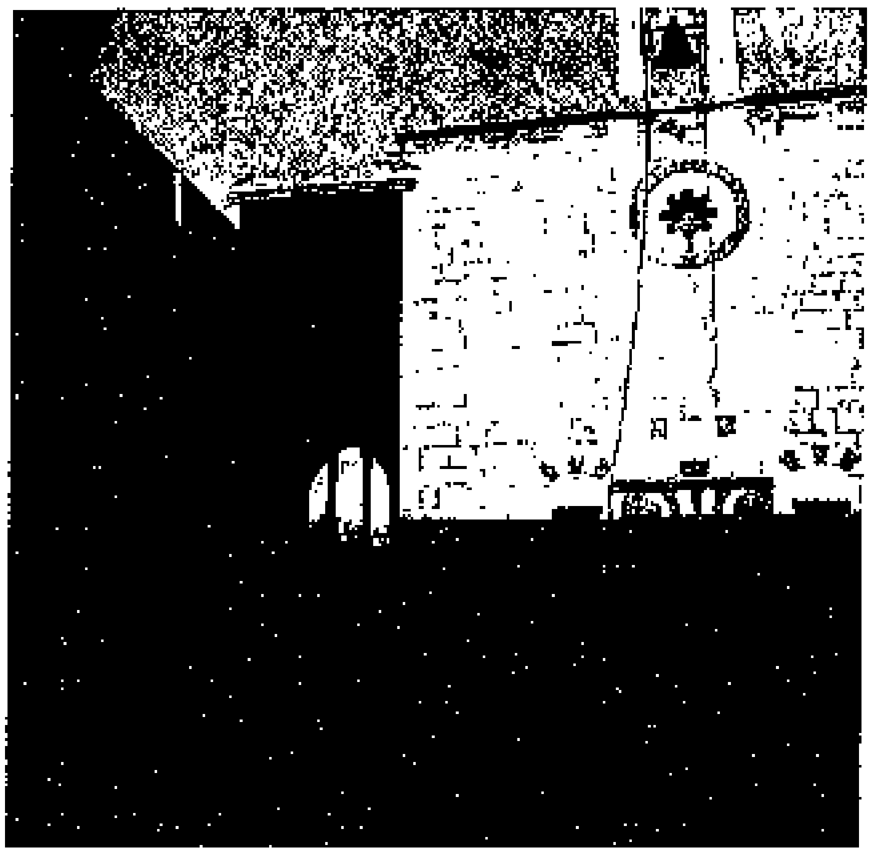

سيدة اللويزة كنيسة المجمع اللبناني

المجلّون، وإليها يعود الفضل في انفتاح الغرب المسيحي على كنوز الشرق وبقيّة الاديان والمذاهب، كما أفسحت في المجال لأبناء الشرق لاكتشاف حضارة الغرب، عن طريق الترجمات وتعليم اللغات الأوروبيّة على أنواعها. فكانت المدرسة المارونية نقطة انطلاق لدفع عجلة العلم والتربية في لبنان، وإنشاء المدارس المحليّة العديدة التي تخرّج منها، وبوجه خاص، من مدرستي عين ورقه وعينطورا، عددٌ وافر من الشبّان الموارنة الذين أدّوا أجلّ الخدم لوطنهم ولمحيطهم المشرقي. فدخلوا في خدمة الأمراء الحاكمين، وأصبحوا مع توالي الايام طبقةً مارونيّة متعلّمة ذات شأن في البلاد. وقد جلّى منهم غير واحد في العلم والادب والشعر في لبنان والبلدان العربيّة، فرفعوا مستوى اللغة، وأغنوا آدابها بالتآليف النفيسة، كما رأس العديدون منهم تحرير المجلاّت والجرائد اليوميّة.

وأفسحت المدرسة المارونية في مجال تفوّق بعض تلامذتها في شتى العلوم في المجتمعات الأوروبيّة، حتى عُرّف بهم في تلك الاوساط والاندية العالمية هناك، بهذا اللقب «عالم كماروني». وتعتبر مصنّفاتهم، حتى يومنا هذا، مرجعاً أوليًا لا يُستعاض عنه بسهولة. فتآليف السمعاني الكبير كانت ولا تزال مفتاح العلوم الشرقية ومنهلاً للآداب السريانية العريقة. وللسمعاني أندادٌ قبله وبعده، كابن القلاعي، وشلق، والدويهي، والحاقلاني، والسماعنة الآخرين ونيرون الباني في رومة، والصهيوني والحصروني في باريس، والغزيري في اسبانيا، وتادروس العضم وأنطون عريضه في براغ وغيرهم.

١٤. حيويّة ناشطة وشهادة الدم

وتجلّت حيويّة الكنيسة المارونية، في أواخر القرن السابع عشر، بتأسيس الرهبانية اللبنانية بفرعيها اللبناني والحلبي سنة ١٦٩٥، وتأسيس الرهبانية الانطونية سنة ١٧٠٠. فساعدت هذه الرهبانيات الثلاث في نموّ الحياة الروحيّة، وازدهار الاقتصاد اللبناني، كما أسهم العديدون من أبنائها في إنعاش النشاط الرسولي في القرى والارياف النائية. وفي الربع الأول من القرن الثامن عشر تنادى عدد من خرّيجي المدرسة المارونية إلى تأسيس رسالة مارونية عمّت نشاطاتها معظم قرى لبنان وسورية وفلسطين وجزيرة قبرس. ويبقى الحدث الأهم بالنسبة إلى تنظيم الكنيسة المارونية في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وهو انعقاد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦، **في دير سيدة اللويزة. فأقرّ هذا المجمع، فيما أقرّ، فصل** ديورة الرهبان عن الراهبات، وتقسيم

البطريركية المارونية إلى ثماني أبرشيات، يتولّى احداها البطريرك الماروني مباشرة، ويعيّن لكلّ من السبع الأخرى مطرانٌ خاصّ بها. وكانت الكنيسة المارونية حتى ذلك التاريخ في جبل لبنان منطقة واحدة يديرها البطريرك بمعاونة مطارنته.

ورافق تنظيم الكنيسة المارونية، في هذه الحقبة، اهتمامٌ جدّي بكتابة تاريخها من قبل البعض من خرّيجي المدرسة المارونية. فأكبّوا على دراسة التواريخ القديمة، وعلى تجميع وتقميش المراجع والمعلومات المشتّتة هنا وهناك في المخطوطات والمصاحف الموزّعة على الكنائس والديورة، كما جدَّ البطريرك اسطفانس الدويهي في البحث عن آثار الموارنة في الغرب المسيحي كما في الشرق. وبعد ان توفّرت لديه المعلومات التاريخية الصحيحة، وضع أوّل تاريخ منسّق لكنيسته، وضبط سلسلة تاريخيّة لبطاركتها.

وفي سنة ١٨٦٥، أسّس المطران يوحنا حبيب جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة، غايتها الوعظ والارشاد والتعليم. كما أسّس المطران الياس الحويّك، سنة ١٨٩٥، جمعية راهبات العائلة المقدّسة المارونيات لتهذيب الفتيات في القرى. وكانت قد تأسّست في بداية القرن الثامن عشر، إلى جانب الرهبانيتين اللبنانية والانطونية، جمعيتان رهبانيتان للنساء. فآثر أعضاء هاتين الجمعيتين العيش أولاً بمقتضى الحياة النسكية الديريّة، حتى تحوّلت إحداهما بعدئذ سنة ١٩٣٢، وهي جمعية الراهبات الأنطونيات، إلى رهبانية رسولية، في حين بقيت الأخرى جمعية رهبانية ديريّة. وهناك أيضاً راهبات مارونيات يتفرّغن للصلاة وعمل اليد ضمن حصن الدير، كراهبات البشارة في الذوق، وراهبات الزيارة في عينطورا، وراهبات مار يوحنا حراش، وراهبات سيدة الحقلة. وفي سنة ١٩٣٥، أسّس الخوراسقف أنطون عقل راهبات القدّيسة تريزيا الطفل يسوع، اللواتي يقمن بتربية الناشئة في المدارس، ويعتنين بالمرضى في المستشفيات. وفي سنة ١٩٦٦، أسّس الخوري اميل جعاره راهبات القربان الأقدس المرسلات اللواتي يوجّهن عنايتهن إلى تثقيف الفتيات في المناطق الجبلية والأرياف.

ان من يحلّل عن كثب المراحل التي مرّت بها الكنيسة المارونية عبر تاريخها الطويل، ويتوقّف عند الاحداث المصيريّة الهامّة التي ألمّنا إليها، يرى ان هذه الكنيسة تميّزت بقوّة دافعة، وحيوية ناشطة، تمثّلت، لدى بعض الفئات من أبنائها، في أداء الشهادة لمعتقدها الديني وإيمانها، حتى سفك الدم، وفي الانقطاع عن العالم والزهد في أباطيله حتى البطولة وفي نشر الثقافة والرسالة في مختلف الاوساط، وفي المغامرة في الحفاظ على الحرية والكرامة، وفي كسب العيش الكريم حتى آخر رمق من الحياة.

أمّا على صعيد الشهادة للمعتقد الديني حتى سفك الدم، فقدّمت الكنيسة المارونية على مذبح وفائها لمحبتها للمسيح مئات القرابين والضحايا البريئة الذين قضوا في سبيل الدين أو دفاعاً عنه، نذكر منهم الثلاثماية والخمسين شهيداً في بداية القرن السادس، والبطريرك جبرائيل حجولا ١٣٦٧، وأبا كرم يعقوب الحدثي ١٦٤٠، ويونس أبي رزق البشعلاني

١٦٩٧، والشيخ كنعان الضاهر ١٧٤١، وإبراهيم البشراني الراهب اليسوعي الذي استشهد في الحبشة، والاخوة المسابكيين الثلاثة في دمشق ١٨٦٠، ورهبان دير سيدة مشموشة وعددهم اثنان وعشرون في السنة نفسها، وشهداء الاحداث الدامية الأخيرة من سنة ١٩٧٥ حتى سنة ١٩٩٠، وهم أكثر من ان يحصوا؛ ولكن نذكر منهم شهداء الرهبانية اللبنانية الآباء: بطرس ساسين، وأنطونيوس ثمينة، وجرجس حرب، ويوسف فرح، وفرنسيس بو أنطون، والأخ يوحنا مقصود. والخوري فيليب أبو سليمان خادم رعيّة بحمدون، والاخت فيلومن خوري من راهبات القدّيسة تريزيا، وشهداء بمريم وعلى رأسهم كاهن الرعيّة، وجميع الذين قتلوا في معركة الجبل ومنطقة صيدا والاقليم، وقد مثّل بهم أفظع تمثيل، ولم تشفع بالعديد منهم شيخوخة مهدّمة، أو نضارة فتوّة. وكم من شهيدٍ وشهيدة في مناطق عديدة من لبنان، وفي كل قرية وبلدة ومزرعة ودسكرة ومدينة، سقطوا ضحايا الغدر، والعيش المشترك، فأغمضوا عيونهم عن أنوار هذه الدنيا، ولسان حالهم يقول للسيد المسيح: «اننا نموت من أجلك كل يوم، وقد حسبنا كغنم للذبح».

١٥. الشهادة للعالم الآخر

وعلى صعيد الانقطاع عن العالم المرئي والشهادة للعالم الآخر والزهد في أباطيل الدنيا، فقد أعطت الكنيسة المارونية أكثر من مثل يحتذى به. فتأسّست هي أولاً، حول صومعة أبيها الاكبر القدّيس مارون الناسك، وبرزت كمؤسّسة كنسية حول ديره على ضفاف العاصي، فاستنارت بتعاليمه السامية، وجذبها نمط حياته القشفة، فتأثّرت أكثر من سائر الكنائس الشرقيّة بالمسلك النسكي والرهباني معاً، حتى بدت، في بعض مراحل حياتها وكأنها جماعة رهبانية. فالقدّيس مارون هو أبوها الروحي ومرشدها، وحجر الزاوية في أساس بنيانها. منه يدأ ذلك المشعل الروحاني الجذّاب الذي يتلألأ نوره على طول الطريق، وإليه يرجع زخم ذلك المعين الدفّاق لتراث نسكي جليل، ما زالت الاجيال الطالعة تنهل منه حيويّة وبطولة وقدامة. فحذا حذوه، وهو على قيد الحياة، عدد كبير من التلاميذ، منهم: يعقوب الكبير، وليمناوس، ويوحنا السائح، وأنطيوخس، وأنطونينس، وماراثا، وكورا، ودومنينا.

وبعد أن ولّى الموارنة وجوههم شطر جبل لبنان، على أثر الاضطهادات والمنازعات، منذ منتصف القرن السابع، وقطنوا مناطقه الشمالية، وتوغّلوا في وادي قاديشا وقزحيّا، وقنّوبين، نما بينهم عد الزهّاد والنسّاك، ودلف كثيرون منهم إلى تلك المغاور الطبيعيّة والصوامع النائيّة. فازدهرت الحياة النسكيّة في ذلك الوادي المقدّس، واشتهر من النسّاك الموارنة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، هؤلاء الآتية أسماؤهم: يونان المتريتي، وجبرائيل الاهدني، ويوحنا اللحفدي، وملكا البقوفاني، وميخائيل الرزّي، وسركيس الرزّي، ويوسف البسلوقيتي، ويعقوب عصّاص السمراني، وفرنسوا غالوب دي شاستويل، الفرنسي الأصل.

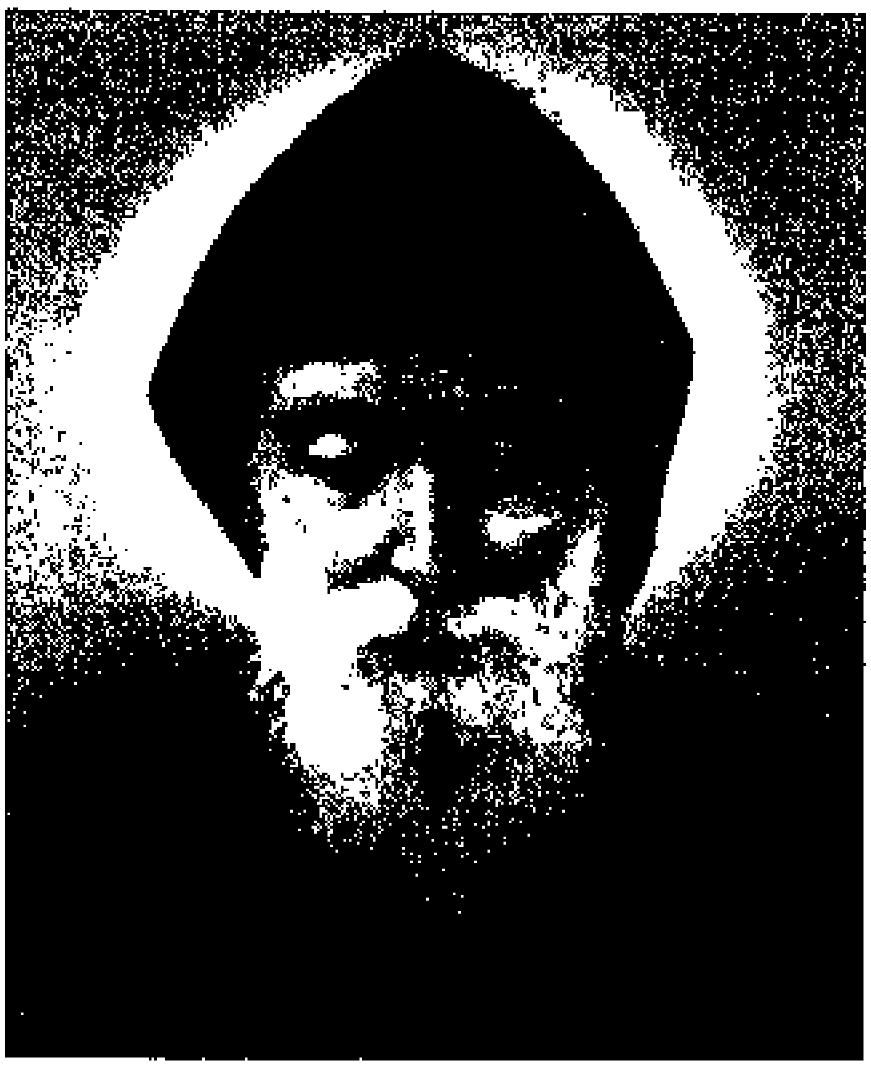

القديس شربل مخلوف

وبعد ان تأسّست الرهبانية اللبنانية بفرعيها الحلبي واللبناني، في نهاية القرن السابع عشر، لم تقفل معها أبواب الصوامع والمحابس في لبنان، لا بل تنظّمت هذه الحياة، فسنّت لها القوانين والرسوم، وعادت فعمرت المحابس مرة أخرى بالزهّاد والمتوحدّين، قرب أديرة مار أنطونيوس قزحيّا، ومار مارون عنّايا، ومار أنطونيوس حوب، وسيدة ميفوق، ومار شليطا القطارة، ومار بطرس كرم التين، وسيدة مشموشة، وسيدة طاميش. وقد بلغ عدد هؤلاء الحبساء في الرهبانية اللبنانية المارونية وحدها، العشرات، وكان من أبرزهم أسماً، وأرفعهم شأناً، وأعطرهم شهرة وقداسة، الحبيس البار القدّيس **شربل مخلوف**، مثال الحياة النسكيّة الأعلى في العصر الحديث، كما كان القدّيس مارون في القديم. وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥، طوّب قداسة البابا يوحنا بولس الثاني **الأخت رفقا**، الراهبة المحصنة في دير مار يوسف جربتا، وقدّمها مثالاً للحياة المكرّسة لله، في عطاء كامل، وسط أشد العذابات والآلام الجسدية.

وفي هذه السنوات الأخيرة، ترك الأب أنطونيوس شينا رئاسة دير مار أنطونيوس قزحيّا ليدخل محبسة مار بولا أول الحبساء، المطلّة على الوادي المقدّس. فهو يكمّل اليوم حلقات سلسلة النسّاك الموارنة الذين عاشوا على مرّ الاجيال في الكنيسة المارونية.

١٦. الموارنة في العالم

الطوباوية الأخت رفقا

وبعد هذه المحطّات التاريخيّة التي توقّفنا عندها في بحثنا هذا، نفيد بأن عدد الموارنة المقيمين في لبنان يتجاوز المليون والمائتين ألف، وهم موزّعون على تسع أبرشيات:

عرف عن الماروني تمسكه بالحرّية والكرامة مهما غلت التضحيات، وتوالت النكبات، وتفاقمت الصعاب. كما عرف عنه ميله إلى حبّ المغامرة والطموح في الوصول إلى أعلى مستوى ثقافي واجتماعي وسياسي. وعلى صعيد الاقتصاد والتجارة عرف عنه كفاحه المستمرّ في سبيل كسب عيش حرّ وكريم. فلم يعبأ الموارنة بشظف العيش بعد نزوحهم عن سهول سورية الخصبة، ولجوئهم إلى جبال لبنان الجرداء، فطحنوا صخوره الصلدة وحوّلوها إلى جنائن غنّاء. فحيث نزلوا عمّروا وأعلوا البنيان، وفجّروا ينابيع المياه من بطون الأرض، وأجروها في الجلالي الملتوية، دفقاً مستمراً لمواسم الخير والبركة، حتى كاد يكون جبلهم مخصباً كالسهول التي تركوها في سورية.

ولمّا ضاق بهم المجال في لبنان، مع توالي الايام والسنين، وخاصة بعد الحرب العالميّة الأولى، وعلى أثر المجاعة العامّة، تطلّعوا إلى الآفاق البعيدة، إلى ما وراء البحار؛ فتغرّبوا عن وطنهم الأم إلى بلدان العالمَ وقارّات الأرض. هاجروا، أولاً، إلى مصر حيث أسّسوا نهضة علميّة رائدة، ومن ثمّ إلى أوروبا وإلى الأميركيتين ومنها إلى أفريقيا وكندا وأوستراليا. وفي كل بلد أو قارّة استقرّوا فيها، أسهموا إسهاماً فعّالاً في تعميرها وازدهار اقتصادها وإنماء مصالحها الحيويّة وأراضيها الواسعة. فكان منهم رجل الاعمال النشيط، والتاجر الحكيم، والشاعر الملهم، والأديب الكبير، والعالم العلاّمة، والسياسي المحنّك، والطبيب البارع، والمحامي اللامع، والمهندس الناجح. ودخلوا المعترك السياسي، ففازوا برئاسة الولايات والانتخابات النيابيّة، وأُسندت إلى العديد منهم الحقائب الوزاريّة، وتوصّل بعضهم إلى رئاسة الدولة.

ولمّا كثر عدد أبناء الكنيسة المارونية في دنيا الاغتراب، حتى كاد يفوق العشرة ملايين، بحسب الاحصاءات الأخيرة، لجأ الكرسي الرسولي في الثلاثين سنة الماضية، نزولاً عند رغبة مجمع الاساقفة، إلى إنشاء أربع أبرشيات في بلدان لاغتراب، وتعيين أساقفة موارنة لها. فغدا عدد الابرشيات، إضافةً إلى أبرشيات حلب والقاهرة واللاذقية، الموجودة خارج لبنان، يضاهي عدد الابرشيات الموجودة في داخله. وبات الموارنة المتحدّرون من أصل لبناني والموجودون تحت سماء البلدان والقارات في دنيا الاغتراب، يفوقون أضعاف الاضعاف عدد اخوانهم المقيمين في لبنان.

فالتقديرات الأخيرة للاحصاء، الذي أجراه المركز الكاثوليكي للاعلام للموارنة المتحدّرين من أصل لبناني في القارات الخمس، أعطت ما يفوق العشرة ملايين مارونياً، نظراً إلى الاجيال المتعاقبة التي راحت تنصهر مع الوقت في المجتمعات المقيمين فيها. فحيث لا يوجد كاهن أو أسقف ماروني يجمع شمل مؤمنيه، ويوحّد صفوفهم، ويعزّز تماسكهم الديني والوطني، تنقطع علاقة هؤلاء مع الوطن الام، .وينضمّون إلى المجتمعات المسيحية

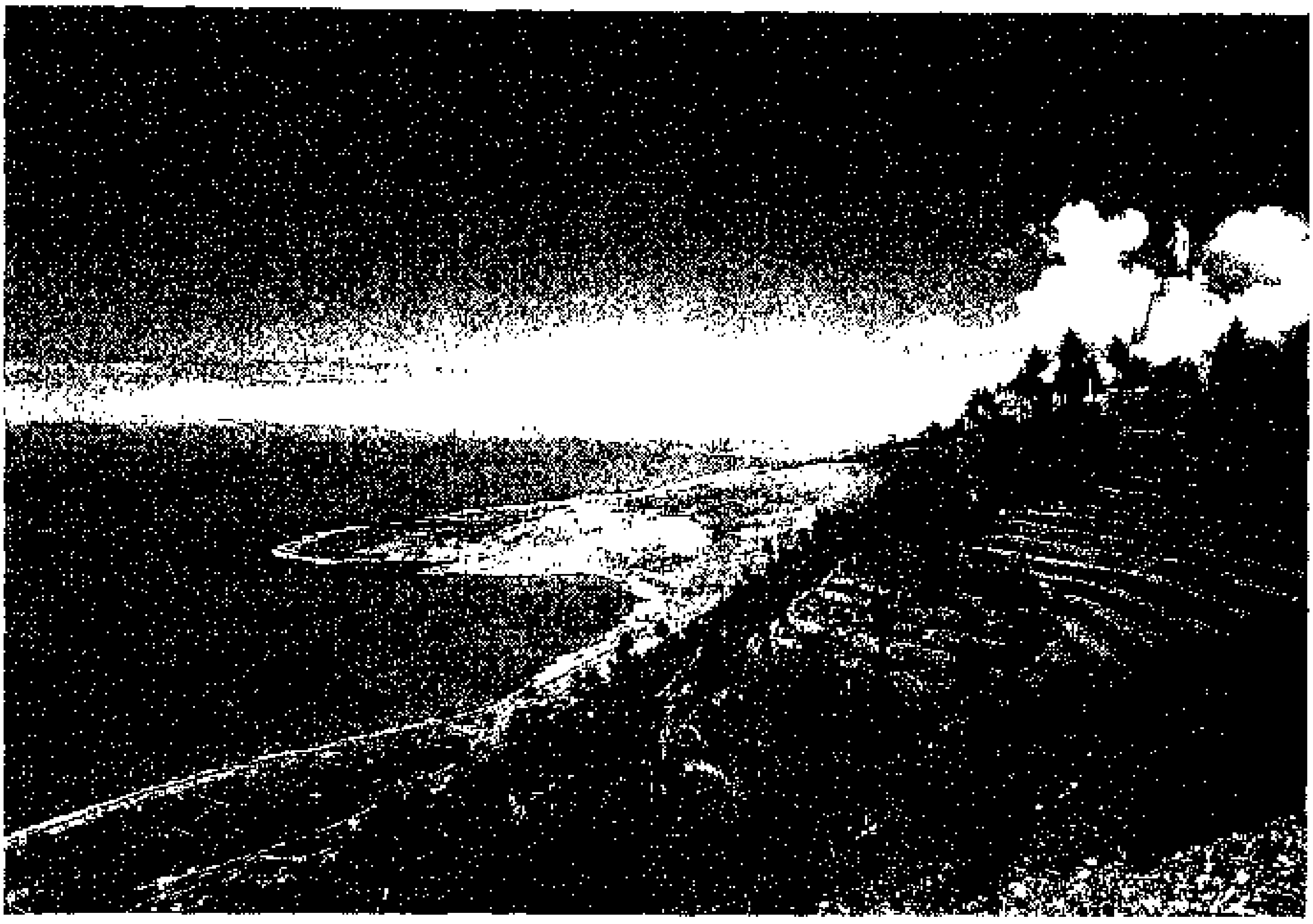

سيدة لبنان في حريصا

اللاتينية، ويصبح أولادهم وأحفادهم أبناء تلك الكنائس المحلّية.

خاتمة

بعد هذه اللمحة التاريخية عن دور الكنيسة المارونية في لبنان والعالم، يبدو واضحاً أن للموارنة تراثاً جليلاً لا يمكنهم التنازل عنه، وهو العيش بحريّة المعتقد وكرامة الشخص البشري؛ والانفتاح على الآخرين لتكوين كيان سياسي وقوميّة اجتماعية، والكفاح المستمرّ للثبات بوجه الغزاة والمستعمرين، والالتفاف حول زعمائهم المدنيين والتعلّق برؤسائهم الروحيين للحفاظ على القطرة المارونية ووحدة الصف وتقرير المصير. وان ما يطلب منهم اليوم هو استمرارية لما سعى إليه الآباء والأجداد

ملحق

بقلم المطران يوسف ضرغام*

بالأمس.

مقدّمة

هناك عاملان أساسيان طبّعا الحياة الروحية المارونية وهما النظام الرهباني الذي كان في أساس قيام الكنيسة المارونية، والصعوبات والاضطهادات التي قاساها شعب مارون طوال تاريخه. تأثير هذين العاملين نجده في الروحانية والطقوس والفن.

١٧. الروحانية

قامت الكنيسة المارونية حول أديرة الرهبان فجاءت كنيسة مصلّية. وكانت تعرف ان «ليس لنا هنا مدينة ثابتة» فراحت ترنو إلى «المدينة العتيدة». من هنا أهميّة التوبة والانسحاق أمام المصلوب والتطلّع الدائم إلى حسن الجزاء في الحياة الثانية. إنّها كنيسة المصلوب المتألّمة التي تتأمّل بآلام سيّدها وتبكي خطاياها وخطايا العالم، إذ تعتبر ذاتها مسؤولة عنها. تاريخها أسبوع آلام مستمرّ بدءًا باضطهاد أتباع الطبيعة الواحدة إلى الخليفة المأمون وظلمه إلى اضطهاد المماليك ثم العثمانيين... تاريخ طويل من العذاب والألم وعيش صعب في جبال وعرة قاحلة وخوف دائم من عدو متربّص بهم وهرب من الظلم والاضطهاد، بحيث ان بطريركهم لم يكن يستقرّ به المقام في مكان واحد معيّن.

هذا الوضع حمل الموارنة على الصلاة والصوم والتقشّف والصمود والصبر والرجاء.

لكنهم كانوا يعرفون انّ الصلب هو الطريق إلى القيامة فالحياة. فكانت فضيلة الرجاء تنير طريقهم الوعر وتعزّيهم في بلاياهم. فهم أهل صليب وأهل رجاء في آن معاً، ينادون سيّدهم، مع صاحب الرؤيا «ماراناثا»: «إنّنا ننتظر مجيئك».

إلى روحانية الزهد والتقشّف أضافوا

* مطران مصر وأفريقيا.

تكريم العذراء أم الله التي أصبحت المحامية والشفيعة والعون في التجارب والمصاعب. فكل مراكز بطاركتهم تأسّست على اسم أم الفادي: سيدة يانوح وميفوق وقنّوبين والديمان وبكركي... وهي في قراهم ومدنهم سيدة البزاز والزروع والبيدر والحقلة والنجاة والمعونات والتعزية... ومع استيطانهم لبنان، أصبحت سيدة لبنان. روحانية هي وليدة إيمان وحياة. إيمان صلب وحياة قاسية تتطلّب جهداً وصموداً في وجه الشيطان وتجاربه. مثالهم الراهب المتعبّد الزاهد، من مارون إلى شربل مروراً بكل النسّاك الذين كانت المغاور والكهوف تمتلئ بيخور صلواتهم والوديان تردّد صدى ترانيمهم.

١٨. الليترجية

يتميّز الطقس الماروني بالبساطة والصفاء ومشاركة المؤمنين. يجد جذوره في الطقس الانطاكي السرياني، وإن تأثّر بعض الشيء بالطقس الأورشليمي. كما انه، منذ زمن الصليبيّة وخصوصاً بعد تأسيس مدرسة رومة في أواخر القرن السادس عشر، دخلت عليه عناصر لاتينية جمّة كادت تخفي العناصر الأصيلة.

لكن هناك حركة إصلاح طقسي بدأت تباشيرها في القرن السابع عشر مع العلاّمة الدويهي ثم مع المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦. لكنّ هذه التباشير لم تؤتِ ثمرها قبل هذا القرن حيث عيّنت لجان لدرس التراث وتنقية الطقس من العناصر الدخيلة والعودة إلى الاصالة مع الأخذ بالاعتبار أهمية التجديد حيث تقضي الحال. وككل نهضة تكثر المحاولات فيتعيّن على المسؤولين وأهل الاختصاص عملية الغربلة والضبط.

السنة الطقسيّة المارونية تبدأ في الأحد الأوّل من تشرين الثاني (نوفمبر) وتنتهي في الأحد الأخير من تشرين الأول (أكتوبر). وهي تتمحور حول شخص المسيح وحياته على الأرض حيث تظهر الأعياد السيّدية كمحطات تسمى أزمنة: الميلاد والدنح (الظهور) والصيام والآلام والموت والقيامة والصعود ثم حلول الروح القدس على التلاميذ وارتفاع الصليب.

وفي الطقس الماروني أوقات مقدّسة تتطلّب الاستعداد بالصوم والصلاة. فعيد القيامة يسبقه الصوم الخمسيني وعيد الرسولين بطرس وبولس يسبقه صوم الرسل في شهر حزيران (يونيو) وعيد انتقال العذراء يسبقه صوم آخر في شهر آب (أغسطس). كما ان هناك صوماً يسبق عيد الميلاد المجيد. كما ان الانقطاع عن أكل اللحم مطلوب يومي الأربعاء والجمعة. هذا في الأصل، لكن تعديلات عديدة دخلت على هذه التقاليد وبدّلت فيها ولا سيّما بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني.

صلوات الطقس الماروني مأخوذة من الكتاب المقدّس أو هي شرح له وتأمّل فيه. كما ان هناك صلوات عديدة وترانيم تعود إلى آباء الكنيسة السريانية كالقدّيس افرام والقدّيس يعقوب السروجي وغيرهما.

شعب يصلي مع رهبانه الفرض الرهباني كل مساء، وحتى الأمس القريب، حيث حدّت متطلّبات المدنيّة العصرية من هذه

تزال قائمة كشهر القدّيس يوسف (آذار – مارس) وشهر العذراء (أيار – مايو) وشهر قلب يسوع (حزيران – يونيو)... وتبلغ الليترجية ذروتها في القدّاس الإلهي الذي يشارك الشعب كله فيه بترانيمه وصلواته. وتظهر التقوى بنوع ملحوظ في مناسبات الاعياد الهامّة كاحتفالات أسبوع الآلام حيث يصلّي المؤمنون ساعات حول «القرّاية» وحيث تقام الرياضات الروحية في الرعايا استعداداً للاعتراف والمناولة الفصحيّة.

١٩. الفن الكنسي

والفن هو أيضاً وليد الظروف التي ذكرنا. هندسة الكنيسة المارونية وهندسة أي بيت ماروني هي هي. ما يميّز الكنيسة عن سواها، في وسط بيوت الرعيّة، هو علوّها ونسقها والقبّة التي تحمل الجرس (بعد أن سمح للموارنة باستعمال الجرس). لا كاتدرائية فخمة ولا بازيليك ملوكيّة. بل بناية بسيطة مستطيلة سقفها معقود بالحجر الكلسي الابيض أو الاسمر مغطّى بالتراب.

داخل الكنيسة فناء ينتهي بالمذبح إلى الجهة الشرقية منه. ولبعض الكنائس فناءان أو ثلاثة. وراء المذبح حنية تسمح بالمرور من ورائها. في الحائط بعض طاقات صغيرة. أمّا الباب الرئيسي فهو واطئ لمنع دخول الاعداء على أحصنتهم إلى الكنيسة. داخل الكنيسة جرن عماد ومنبر للقراءات والوعظ. مذبح صغير (أو أكثر من مذبح حيث للكنيسة أكثر من فناء) يعلوه صليب من الخشب أو من النحاس.

على جانبي الفناء، قرب الخورس، مائدتان توضع عليهما الكتب الطقسية يجتمع حولها المصلّون لإقامة صلاة الخورس بين جوقين. كما تجد بعض الآنية البسيطة الرخيصة الثمن من خشب أو معدن لوضع الشمع والبخور والقربان وسواه من مستلزمات العبادة.

على المذبح، في وسطه، خشبة صغيرة أو حجر حفر عليه صليب، يدعى «طبليت»، كرّسه السيّد البطريرك أو الأسقف، توضع فوقه القرابين. قد تجد في بعض الكنائس القليلة، بعضاً من الفسيفساء على الجدران أو في أرض المعبد.

الكتب الطقسية العديدة كُتبت أكثرها باليد باللغة السريانية أو بالعربية والخط الكرشوني، وهي كتب القراءات والقدّاس والجنازات وساعات الفرض والزياحات وغيرها.

الانطباع العام من زيارة إحدى هذه الكنائس هو ان الكنيسة، قبل ان تكون حجراً، هي شعب يصلّي، شعب يعيش إيمانه محبة ورجاء، شعب متعلّق بتراثه فخور به على تواضعه وفقره، شعب يعرف انه حامل رسالة لن يتنازل عنها.

كنيسة أثيوبيا الكاثوليكيّة

بقلم الأب صلاح أبو جوده اليسوعيّ*

* باحث.

١. نبذة تاريخيّة

انتشار المسيحيّة

ترتقي المسيحيّة في إثيوبيا إلى القرن الرّابع فقط. فروايات التقليد الشعبي، ولا سيّما منها الواردة في كتاب «مجد الملوك (Kebra nagast)»، التي تتحدّث، انطلاقًا من مراجع كتابيّة(١)، عن تحوّل مبكّر إلى اليهوديّة ومن بعد إلى المسيحيّة، هي مجرّد أساطير لا تقوم على براهين تاريخيّة قاطعة. فالمؤرّخ اللاتّيني روفينس (٣٤٥-٤١٠)(٢) يروي قصّة اهتداء أسرة أكسوم الملكيّة إلى المسيحيّة، بفضل مسيحيّين من مدينة صور يدعيان فرومنتيوس (Frumentius) وايديسيوس (Aedesius)، اللّذان أُسرا بعد غرق سفينتهما قبالة شواطئ إثيوبيا. ويروي أيضًا أنّ فرومنتيوس رُسم أسقفًا عن يد القدّيس أثناسيوس، بطريرك الإسكندريّة (٢٩٥-٣٧٣)، وعاد ثانية إلى أكسوم، ناقلاً معه إليها ليترجيّة كنيسة الإسكندريّة ونظامها، وهذا ما يفسّر وجود الروابط الوثيقة التي طالما قامت بين الكنيسة القبطيّة في الإسكندريّة وكنيسة إثيوبيا.

وفي حوالى سنة ٤٨٠، شهدت المسيحيّة في إثيوبيا، إبّان عهد الملك أميدا (Ameda)، نهضة مهمّة بفضل نشاط «القدّيسين التسعة» السّريان، وفقًا للتقليد الإثيوبيّ. قدم هؤلاء الزهّاد من سورية وروما وآسية الصّغرى أو القسطنطينيّة. ولكنّ عقيدتهم كانت لا تزال موضع نقاش، إذ لا يُعرف بعد هل هم من أنصار عقيدة المونوفيزيّة القائلة بوحدة الطبيعة في المسيح، أم من المؤمنين الأرثوذكسيّين. ومن جهة أخرى، يرجع التقليد إلى القدّيسين التسعة

(١) من هذه المراجع: ١ مل ١٠/١-١٣، و٢ اخ ٩/١-١٢ من العهد القديم، ورسل ٨/٢٦-٣٩ من العهد الجديد.

(٢) روفينس، التاريخ الكنسي، ج ١، ص ٩.

الفضل في نقل عدد من الأعمال اللاهوتيّة إلى الجعز (ge'ez)، إحدى لغات الإثيوبيّين العاميّة القديمة. ويروى أنّهم نقلوا إلى تلك اللّغة أيضاً قوانين القدّيس باخوميوس الخاصّة بالحياة الديريّة، وحياة القدّيس أنطونيوس التي كتبها القدّيس أثناسيوس، بالإضافة إلى مجموعة من كتابات آباء الكنيسة.

لا شك أنّ الرّوايات الشعبيّة التي تتحدّث عن اعتناق مبكر لليهوديّة ومن ثم للمسيحيّة قد تأثّرت ببعض الحقائق التاريخيّة، وأهمها هي التالية:

١. إنّ اللغة الإثيوبيّة التقليديّة، الجعز، هي لغة ساميّة، تشبه الآرامية والعبريّة.

٢. وجود جماعة يهوديّة في إثيوبيا تدعى «الفلاشا» (Falāshā)، جماعة تجهل أصلها التاريخيّ.

٣. تمسّك المسيحيّين الإثيوبيّين بعادات وتقاليد من العهد القديم، أهمها: الختان، والحجّ إلى أورشليم، واحترام راحة السبت (عند بعضهم)، الخ.

٤. بعض المراجع الكتابيّة، من العهدين القديم والجديد، التي تأتي على ذكر بلاد الحبشة.

ولكنّ هذه الحقائق التاريخيّة لا تجيز استنتاج ما يعتقده التقليد الشعبيّ الإثيوبيّ المشار إليه أعلاه.

وما لبثت الحياة الرهبانيّة أن شهدت انتشاراً في سائر أنحاء البلاد، ولا سيّما ابتداءً من القرن السّادس، وأمست الأديرة مراكز فكريّة وروحيّة استقطبت العديد من الشبّان الإثيوبيّين

بحسب رواية كتاب «مجد الملوك» (Kebra) (nagart، كانت ملكة سبأ سيّدة إثيوبيا (في حين أن سبأ التي يشير إليها الكتاب المقدّس هي اليمن)، وقد أنجبت ولداً من الملك سليمان، سمّته مينيلك (Mēnilek). وعندما بلغ هذا الولد سنّ الشّباب، عقد العزم على الذّهاب من إثيوبيا إلى أورشليم ليتعرّف إلى أبيه. فأعجب اليهود به، لا سيّما أنّه كان شبيهاً بأبيه، وأراد سليمان استبقاءه لكي يخلفه على العرش. إلاّ أنّ الشّاب أبى وآثر العودة إلى إثيوبيا. فأذن له أبوه، فرحل ومعه جميع أبكار إسرائيل. وبمؤازرة بعض الكهنة الذين تبعوه، استطاع اختلاس تابوت العهد وجاء به إلى إثيوبيا حيث هو مستقرّ إلى الآن، كما يؤمن بذلك كثيرون، في كنيسة صهيون بأكسوم. وبحسب رواية الكتاب نفسه أيضاً، اعتنق الإثيوبيّون اليهوديّة منذ ذلك العهد، واهتدوا إلى المسيحيّة بفضل عماد ملكة الحبش عن يد فيليبّس، على ما جاء في أعمال الرّسل ٢٦/٨-٣٩.

الّذين تركوا العالم واجتهدوا في حياة زهديّة بقيادة مرشد روحيّ.

توسّع مملكة أكسوم وانحصارها

وفي سنة ٥٢٣، قاد الملك كالب إللا أصبيحة (Kalēb Ella Aṣbeḥa) حملة عسكريّة على المملكة الحِميرية في اليمن بعد أن قام ملكها، الذي اعتنق اليهوديّة، باضطهاد المسيحيّين. فاستطاع كالب، بمساعدة

الأسطول البيزنطي، أن يعبر البحر الأحمر ويقهر الحميريين. ثمّ بنى عدداً من الكنائس في أنحاء اليمن. وتمكّن الإثيوبيّون، مع الوقت، من توسيع رقعة انتشارهم في شبه الجزيرة العربيّة، حتى مطلع القرن السابع، عندما وضع الاجتياح الفارسيّ حدّاً لسيطرتهم في هذه المنطقة.

ومن مكان آخر، حافظت الكنيسة الإثيوبيّة على علاقات وطيدة مع شعوب البحر المتوسّط، من خلال تبعيّتها لبطريركيّة الإسكندريّة، ورحلات الحجّ المتواصلة التي كان أبناؤها يقومون بها إلى الأراضي المقدّسة.

وكان لظهور الإسلام وانتشاره تأثير كبير في مملكة أكسوم، التي أخذت قوّتها البحريّة والتجاريّة تضعف. فانحسرت بقعة سيطرتها الجغرافيّة، وسادتها فترة تقلّبات سياسيّة بسبب كثرة الثورات، الأمر الذي آل إلى إتلاف ملفّات السلالات التي حكمت قبل القرن الثالث عشر. ولم تعرف المملكة استقراراً إلّا عند وصول السلالة السليمانيّة إلى الحكم سنة ١٢٧٠. فاستطاع الملك يكونو أملاك (Yekuno ʼAmlāk) أن يعزّز السلطة المركزيّة، ويحيي التجارة، ويساعد الكنيسة على التقدّم.

ووصل ازدهار الكنيسة الإثيوبيّة إلى أوجه في عهد الملك زرعا يعقوب (Zarʼa Yāʻeqob) (١٤٣٤–١٤٦٨)، الّذي نجح في توحيد كنيسة بلاده عن طريق التوصّل إلى تسوية بين الإفسطاثيّين، الذين أرادوا مراعاة سبت اليهود إلى جانب الأحد المسيحيّ، وباقي المسيحيّين المتقيّدين بسلطة بطريرك الإسكندريّة. ولم يقف نشاط الملك عند هذا الحدّ، بل شجّع ترجمة

القديس مرقس الإنجيلي

الكتب اللاهوتيّة وكتب الشرع الكنسيّ وتأليفها، ولعلّ أبرز تلك الكتب كتاب «مصحفه برهان» (Maṣḥafa berhān)، أو «كتاب النّور». أمّا حرص الملك على وحدة الكنيسة، فلم يقتصر على كنيسة بلاده، بل تعدّاها إلى الكنيسة الجامعة، عندما أرسل مندوبين ليشاركوا في مجمع فلورنسا (١٤٣٨–١٤٤٥). وفضلاً عن ذلك، حارب الملك المذكور بدعتين ظهرتا في القرن الرابع عشر. البدعة الأولى، وعرف أنصارها باسم الميخائيليّين (Mikaélites)، هي إحدى البدع الغنوصيّة. أمّا الثانية، فلقّب أنصارها بالإسطفانيّين (Stéphanites) الذين رفضوا

تكريم الصّليب والقدّيسة مريم. ولكن، على الرّغم من الاضطهاد، فقد دامت هاتان البدعتان ناشطتين في بعض الأديرة المنعزلة حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر.

التأثير الغربيّ

نجح بعض المرسلين الفرنسسكان الدومنيكان، في القرن الرابع عشر، وبعد جهد جهيد، في الدخول إلى إثيوبيا. وفي سنة ١٤٠٤، زارت مجموعة إثيوبيّين رومة. وابتداءً من سنة ١٤٨٦، أخذت البعثات البرتغاليّة تزور إثيوبيا لضمان الطرق البحريّة إلى الهند، عن طريق إنشاء قلاع على شواطئ البحر الأحمر. ولكنّ ملوك إثيوبيا لم يظهروا إلاّ القليل من الحماسة لتطوير علاقاتهم الخجولة بالأوروبيّين.

غير أنّ موقفهم هذا سرعان ما تبدّل عندما استنجد الملك لِبنا دنغل (Lebna Dengel) بالبرتغاليين ليوقف زحف أمير هرار، أحمد بن إبراهيم الغازي، الذي أخذ يهاجم إثيوبيا ابتداءً من سنة ١٥٢٥، وتوصّل في سنة ١٥٣١ إلى السيطرة على معظم أراضيها. استجابت البرتغال لطلب الملك وأرسلت قوّات لها تمكّنت، بعد أكثر من موقعة، من قتل أمير هرار وتشتيت قوّاته. فكان ذلك بمثابة عصر جديد من الانفتاح الإثيوبي على أوروبا. فالمرسلون اليسوعيّون اقتفوا أثر القوّات البرتغاليّة، وبدأوا عملهم لدى السلطات الإثيوبيّة لتوحيد كنيستهم بالكرسي الرسوليّ في رومة. فاستطاع الأب بيرو بايز (Pero Paez) أن يقنع الملك سوسينيوس (Susenyos) سنة ١٦١٤، بالموافقة على الوحدة. ولكن، بعد وفاة الأب بايز سنة ١٦٢٢، تعالت أصوات معارضي الوحدة، ولا سيّما الأديار، فإنّ رهبانها اعترضوا على استبدال الطقوس الإثيوبيّة القديمة بالليترجيّة اللاتينيّة. فكان بنتيجة ذلك أن أعاد الملك فاسيلادس (Fāsilādes)، خليفة سوسينيوس، علاقات كنيسة بلاده ببطريركيّة الأقباط في الإسكندريّة إلى سابق عهدها، وأبعد المرسلين اليسوعيّين عن إثيوبيا.

ولكن تجدر الإشارة في هذا الشأن إلى إنجازين مهمّين لهؤلاء المرسلين: الأوّل، هو أنّهم ساهموا في تنوير الغرب عن تاريخ إثيوبيا وعروقها البشريّة وديانتها. والثاني هو نجاحهم في تبنّي اللغة الشائعة، الأمهريّة (amhariat)، في الكتابات الدّينيّة، بدلاً من لغة الجعز (Ge'ez) الميتة.

التّاريخ الحديث

لم تتوقّف المجادلات اللاهوتيّة في إثيوبيا مع رحيل المرسلين الأوروبيّين عنها، بل تجدّدت في القرن السابع عشر على أثر ظهور تيّار لاهوتيّ في أوساط إفسطاثيّة قال بأنّ وحدة الطبيعتين – الإلهيّة والإنسانيّة – في المسيح لم تتمّ إلاّ بعد مسحة العماد. وآلت هذه المجادلة إلى إثارة مجادلة أخرى بعد أن أخذ بعضهم يتكلّم على ولادات ثلاث في التجسّد (سوست ليدَت) (Sost Ledat): الكلمة المولود من الآب، والمسيح المولود من مريم العذراء، وابن مريم، ابن الله الآب بالتبنّي. وقد أدّت هاتان المجادلتان إلى انقسامات في قلب الكنيسة الإثيوبيّة، وإلى اضطهادات في بعض الأحيان.

حرَمَ الملك يوحنّا الرّابع (١٨٧٢–١٨٨٩)، الذي أظهر حماسةً لا تخلو من قلّة التسامح، بدعة «وِلادات المسيح الثلاث»، واهتمّ، من مكان آخر، بدعم الدير الإثيوبيّ في أورشليم حيث شرع في بناء كنيسة خارج أسوار المدينة القديمة. وفي سنة ١٨٨٩، لاقى هذا الملك حتفه في ميدان إحدى المعارك ضدّ المهديّين، أنصار إحدى شيع الإسلام المتعصّبة في السّودان.

كان للكنيسة الإثيوبيّة، إبّان عهد الملك يوحنّس الرابع، رئيس أساقفة وثلاثة أساقفة جميعهم من المصريّين رسمهم بطريرك الأقباط في الإسكندريّة.

وخلف يوحنّس الرابع الملك منيلك (Mēnilek) الثاني الشاويّ (Le Šawā) (١٨٨٩–١٩١٣). وتميّز هذا الملك بلباقته الدبلوماسيّة وحسن إدارته ورغبته في تحديث بلاده. فأسّس عاصمة جديدة في وسط شاوا سمّاها «أديس أبابا»، أي «الزّهرة الجديدة»، وشجّع المرسلين على فتح المدارس العصريّة والقيام بالأعمال الخيريّة. توفّي منيلك سنة ١٩١٣، فخلفه لج إياسو (Lejj ʼIyāsu) الذي لم يتوّج ملكًا، بل حرمته الكنيسة وتخلّى عن الحكم سنة ١٩١٦، لما أظهر من تعاطف مع الإسلام وتركيا والمانيا، الأمر الذي أثار ريبة الإثيوبيّين فتوجّت زوديتو (Zawditu)، إحدى بنات منيلك الثاني، ملكةً. ولكنّ أحد أبناء عمّ أبيها، رأس تفرّي مكونين (Rā's Tafarri Makounen)، أخذ يزاحمها على السلطة. كانت الملكة مسيحيّة متفانية، وحامية للكنيسة شديدة التزمّت.

«المسيح»: كنيسة بيت مرقوريوس في كبيلا

وإبّان عهدها، سنة ١٩٢٦، توفّي رئيس أساقفة البلاد، فأخذ الإثيوبيّون يطالبون بخليفة من بينهم. فتمّ التوصّل إلى تسوية، في سنة ١٩٢٩، قضت بتعيين رئيس أساقفة مصريّ، أبونا كيرلّس، ورسامة أربع أساقفة إثيوبيّين.

وفي ١ نيسان ١٩٣٠، تمكّن رأس تفرّي من التغلّب على جيش الملكة في موقعة عسكريّة، فأعلن نفسه امبراطورا باسم «هيلاسيلاسي»، أي «قوّة الثالوث»، وهو اسمه في العماد. ولكنّ العقد الأوّل من عهده كان في غاية الاضطراب بسبب حربه ضدّ الإيطاليّين (١٩٣٥–١٩٣٦)، واحتلال هؤلاء بلاده حتى سنة ١٩٤١.

في ظلّ الاحتلال الإيطالي، طرد رجال الدّين الإثيوبيّون كيرلّس وانتخبوا أحدهم،

أبونا إبراهيم، رئيس أساقفة. وبعد وفاة إبراهيم، خلفه أبونا يوحنّا. إلاّ أنّ كيرلّس عاد إلى إثيوبيا سنة ١٩٤١، بعيد الاحتلال الإنكليزيّ. فتمّ التوصّل إلى اتّفاق سنة ١٩٤٩، يعيّن بموجبه بطريرك الإسكندريّة رئيس أساقفة إثيوبيّ. ولم تتحرّر الكنيسة الإثيوبيّة من وصاية بطريركيّة الإسكندريّة إلاّ في سنة ١٩٥٩، إذ أصبح لها، منذ ذلك التاريخ، بطريركها الخاصّ. إلاّ أنّ تحرّر الكنيسة الوطنيّة هذا كان من عواقبه خضوعها المتزايد للسّلطة السياسيّة التي أمست مركزيّة.

ثورة ١٩٧٤ ونتائجها

وفي ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤، أطاح الجيش بالإمبراطور هيلاسيلاسي بعد تردّي الأوضاع الاجتماعيّة وانتشار المجاعة في البلاد. وما لبث الانقلابيّون أن أعلنوا قيام الجمهوريّة الاشتراكيّة الإثيوبيّة. ولكنّ الثورة لم تقف عند هذا الحدّ، بل بدأت تنتهج سياسة تأميم المؤسّسات، في ظلّ حكم الكولونيل مانغستو هايلا مريم، بطريقة حاسمة. ففي مطلع ١٩٧٥، أمّمت المصارف والشركات، ولاحقًا، في السنة نفسها، أمّمت الملكيّات الخاصّة في المدن. وفي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٧٦، أصبحت البلاد جمهوريّة شعبيّة ذات نهج ماركسيّ لينينيّ متشدّد.

وفي ما يختصّ بالكنيسة، فهي لم تسلّم من سياسات الانقلاب، إذ صودر جزء كبير من ممتلكاتها في سنة ١٩٧٥. وفي شباط (فبراير) ١٩٧٦، أوقفت الحكومة العسكريّة البطريرك توفلوس (Tewoflos)، ووضعته في الاقامة الجبريّة حتى تموز ١٩٧٩. ومذ ذاك التّاريخ فقد له كلّ أثر.

عقد سينودس في ٧ تموز (يوليو) ١٩٧٦ انتخب بطريركًا بديلاً هو «أبونا تكلا حايمانوت» (Abuna Takla Hāymānout). وفي السّنة التّالية أُعلنت التغيرات في تشكيل مجمع الاساقفة، الأمر الذي أحدث صدمة، إذ أُحيل ثمانية أساقفة، رُسموا في عهد الإمبراطور، إلى التقاعد.

وبعد وفاة البطريرك تكلا حايمانوت، في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٨، انتخب «أبونا مارقوريوس» (Mārqorewos) خليفة له.

٢. الكنيسة الكاثوليكيّة في إثيوبيا

بعد أن أفلح اليسوعيّون في الدّخول إلى البلاد، إبّان القرن السّابع عشر، أغتيل مرسلان كبّوشيّان سنة ١٦٣٨. فكان أن انقطع عمل المرسلين في أعقاب ذلك، إلى سنة ١٨٣٨، عندما أقدم الأب اللّعازاري سبيتو (Sapeto) على تأسيس منزل في أدوا (Aduwa). ومن ثمّ، قام الأب غوستينو دي جاكوبس (Giustino de Jacobis) بعمل رسوليّ فعّال في أدوا وتغره (Tigré)، فوصل عدد الكاثوليك إلى خمسة آلاف. كما أنشأ الأب نفسه إكليريكيّة، كان الهدف منها تحضير شبّان من السكّان الأصليّين للكهنوت، ورسم منهم، سنة ١٨٥٢، خمسة عشر كاهنًا كاثوليكيًّا. وفي أثناء الاضطهاد الذي أثاره ملك الحبشة، ثيودورس، قتل أوّل كاهن

كاثوليكيّ إثيوبيّ، الأبّا غبري ميخائيل (Abba Ghebré Michael)، سنة ١٨٥٥.

أمّا الكبّوشيّون، فقد باشروا رسالة في النّيابة الرّسوليّة بغالا (Galla)، سنة ١٨٤٦، وافتتحوا إكليريكيّة في كافّا (Kaffa). وفي سنة ١٨٨١، افتتح الأب توران شاني (Tourin Chagne) مؤسّسة خيريّة في هرار. وأسّس الأب ماري برنارد، سنة ١٩١٥، جمعيّة راهبات إثيوبيّات.

وفي سنة ١٩٣٧، أُنشئت قصادة رسوليّة في أديس أبابا، قوامها تسع إرساليّات، وثلاث نيابات رسوليّة (في أديس أبابا وجمّة وهرار)، وأربع مدبّريّات رسوليّة (في دِسّيه (Dessie) وغندار ونغِلّيه (Neghelli) وتيغره)، أُلحقت بها سنة ١٩٤٠ أنديِر (Endeber) وهوزانّة (Hozanna).

أمّا في سنة ١٩٦١، فأصبحت الكنيسة الكاثوليكيّة مقسّمة إلى ثماني مقاطعات: مديريّتان رسوليّتان في هوزانّة (Hozanna) ونغِلّيه (Neghelli) (طقس لاتينيّ)، وثلاث نيابات رسوليّة في أسمره وجمّة وهرار (طقس لاتينيّ)، وأبرشيّتان في أديكرات وأسمره (طقس إثيوبيّ)، وأبرشيّة رئيس أساقفة في أديس أبابا.

وقد بلغ عدد الكاثوليك في أديس أبابا، سنة ١٩٦٣، ٢٤ ألفًا من أصل سبعة ملايين نسمة ألّفوا حينذاك مجموع سكان العاصمة. وكان الكاثوليك موزّعين على ١٣ رعيّة يخدمها ١٨ كاهنًا أبرشيًّا، إضافة إلى وجود ٣٣ كاهنًا ينتمون إلى جمعيّات مختلفة، وخمسة أديرة رهبان، شغلها ٤٥ راهبًا، وتسعة أديرة نسائيّة، ضمّت ٤٧ راهبة. أمّا أديكرات، الّتي كان عدد سكّانها سنة ١٩٦٣ ثلاثة ملايين نسمة، فقد بلغ عدد الكاثوليك فيها سبعة آلاف، موزّعين على ١٦ رعيّة يخدمها ١٦ كاهنًا أبرشيًّا. وتشير إحصاءات سنة ١٩٦٢، إلى أنّ عدد الكاثوليك في أسمره بلغ ٣٧ ألفًا، من أصل مجموع السكّان البالغ حينذاك مليون نسمة، وقد وصل عدد الرّعايا فيها إلى ٨٤، يخدمها ١١١ كاهنًا أبرشيًّا و٤٠ من كهنة الجمعيّات.

إلى ذلك، فقد كرّس البابا بيوس الحادي عشر، في ١٢ شباط ١٩٣٠، الكليّة الإثيوبيّة في الفاتيكان، الّتي كان قد أسّسها البابا بندكتس الخامس عشر، كليّة حبريّة سنة ١٩١٩، وعهد بإدارتها إلى الآباء الكبّوشيّين.

٣ ـ عقيدة الكنيسة الإثيوبيّة

المونوفيزيّة الإثيوبيّة

تعترف الكنيسة الإثيوبيّة، على غرار الكنيسة القبطيّة، بالمجامع المسكونيّة الثلاثة الأولى: مجمع نيقيا (٣٢٥)، الذي حرم آريوس ودحض معتقده القائل بأنّ الكلمة ليس بإله، بل خليقة ثانويّة أو خاضعة، ومجمع القسطنطينيّة (٣٨١)، الذي أصدر قانون إيمان سُمّي القانون النيقاويّ القسطنطينيّ، وأنهى المناظرات الأريوسيّة، وحرم البدعة المقدونيّة التي كانت تشكّ في ألوهة الروح القدس؛ ومجمع أفسس (٤٣١)، الذي حكم على

تعليم نسطور القائل بوجود شخصين في المسيح والرّافض إطلاق لقب «والدة الله» على مريم العذراء.

وبالمقابل، لا تعترف الكنيسة الإثيوبيّة بالمجمع الخلقيدوني (٤٥١)، الذي أدان أوطيخا صاحب المذهب القائل بوحدة طبيعة المخلّص وبعدم التساوي في الجوهر بين جسد المسيح وجسد الإنسان، والذي عزل ديوسقورس بطريرك الإسكندريّة.

بيد أننا لا نستطيع تحديد تاريخ اعتناق المونوفيزيّة في إثيوبيا لقلّة الوثائق التاريخيّة. ولكن من الأرجح أن يكون ذلك قد حدث في أعقاب موقف كنيسة الإسكندريّة من المجمع الخلقيدوني (٤٥١). إلاّ أنّ كنيسة إثيوبيا لا تستعمل كلمة «مونوفيزيّة» لتعرّف نفسها، بل «تواحيدو=توحيد» (Unification: tawāhedo). فهي: «الكنيسة الأرثوذكسيّة التوحيديّة الإثيوبيّة» 1 (Eglise orthodoxe unifiée de l'Ethiopie). وفي كلمة «توحيد» إشارة إلى وحدة الطبيعتين الإلهيّة والإنسانيّة في المسيح. غير أنّ عزلة إثيوبيا الجغرافيّة حالت دون تأثّر البلاد بالمناظرات اللاهوتيّة التي أعقبت المجمع الخلقيدوني، واستنفرت الكنائس الشرقيّة، وسبّبت اضطهادات كثيرة.

الأدب الديني

١. الكتاب المقدّس

تعتبر الكنيسة الإثيوبيّة، على غرار الكنيسة القبطيّة، أنّ الكتاب المقدّس هو القاعدة والمرجع لكلّ ما يتعلّق بمسائل الإيمان. ومن المرجّح أنّ أوّل نصّ كتابيّ نُقل إلى الجعز هو الإنجيل، وربّما تمّ ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس، الذي شهد انتشاراً واسعاً للمسيحيّة. وبحسب التقاليد، أُنجزت الترجمة الكاملة للكتاب المقدّس مع ترجمة سفر الجامعة سنة ٦٧٨. وقد خضعت الترجمة الكاملة هذه لأكثر من مراجعة كان آخرها في مجرى القرن الرابع عشر. وتجدر الإشارة، في هذ الباب، إلى أنّ الكنيسة الإثيوبيّة لا تعترف بسفري المكابيين، ولكنّها، من جهة أخرى، تدخل في لائحة أسفارها المقدّسة عدداً من الكتب المنحولة، مثل: أخبار باروك، وصعود أشعياء، وكتاب أخنوخ، وكتاب اليوبيلات، وكتاب الرّاعي، وغيرها.

٢. آباء الكنيسة

أمّا في ما يختصّ بتفسير الكتاب المقدّس، فالإثيوبيّون يؤثرون الاستعانة بآباء الكنيسة، لا سيّما منهم القدّيس باسيليوس، والقدّيس غريغوريوس النازيانزيّ، والقدّيس النيصيّ، والقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم والقدّيس كيرلّس الإسكندري، فضلاً عن بعض الآباء السّريان والرّومانيّين. ويعتبر كتاب «هيمانوته أباو» (Haymānota 'Abbāw)، أي «إيمان الآباء»، عملاً نموذجيًّا في هذا الصدد، إذ يشتمل على مختارات في أصول العقيدة والدفاع عن الإيمان، للاهوتيّين تقليديّين يقارب عددهم الخمسين. وقد نقل هذا الكتاب عن العربيّة إلى الجعز إبّان عهد الملك الاسكندر (١٤٧٨-١٤٩٤)، وفي وقت لاحق، سنة ١٩٦٧، إلى الأمهريّة (amharique).

٣. الأدب الجدليّ والكتابات العقائديّة

اختلفت مواضيع الأدب الجدليّ وأسلوبه باختلاف العصور ومقتضياتها، ولكنّ غايته بقيت واحدة، ألا وهي إظهار الإيمان المسيحيّ، سواء أكان ذلك إزاء الوثنيّة أم الإسلام أم الهرطقات، مع التشديد على المونوفيزيّة.

ثمّة كتاب ظهر سنة ١٤٢٤ بعنوان «مَصْحَفَة مستير» (Mashafa Mestir)، أي «كتاب السرّ»، وفيه دحض للهرطقات المسيحانيّة والثالوثيّة، ولمعتقدات آريوس وصابيليوس ونسطور وأوطيخا وأوريجانيس ولتعاليم المجمع الخلقيدونيّ.

وفي عهد الملك زرعا يعقوب، أُلّفت عدّة كتب أهمّها: «مَصْحَفَة برهان»، أي «كتاب النور» والمقصود به هو المسيح، و«مصحفة ميلاد» (Mashafa Milad)، أي «كتاب ميلاد ربّنا». وقد أُلّفت هذه الكتب للردّ على عبادة الأصنام، وممارسة السحر والشعوذة، والهرطقات، لا سيّما منها الإسطفانيّون والميخائيليّون(٣).

أمّا في عصر الاجتياح الإسلامي لإثيوبيا ووصول المرسلين الأوروبيّين، فالكتب التي ظهرت اهتمّت بالدفاع عن المسيحيّة في وجه الإسلام، وعن المونوفيزيّة في وجه إيمان الكنيسة الرومانيّة. ومن الكتب المهمّة في هذا

«الصلب»: رسم جداري في كنيسة بيت مريم

الصدد، كتاب «أنقستا أمين» (Anqasta Amin)، أي «باب الإيمان»، بقلم أحد رؤساء الأديار، وفيه ذكر لآيات قرآنيّة وبراهين عن صحّة المسيحيّة وشموليّتها. كما ظهر كتاب بعنوان «مازغبا حيمنوت» (Mazgaba Hāymānot)، وهو قراءة تاريخيّة للمجامع المسكونيّة الأربعة الأولى، ويهدف إلى دحض ادّعاءات المرسلين. أمّا تاريخ ظهوره، فيعود إلى أواسط القرن السادس عشر.

ونذكر أخيراً كتاب «أمستْ أعمدا مسْطِر» (ʼAmest ʼaʻemeda mestir)، أي «أعمدة السرّ الخمسة»، وهو كتاب التعليم الدينيّ في إثيوبيا، وكان قد نقل عن الجعز إلى الأمهريّة سنة ١٩٥٢.

(٣) كان للميخائيليّين عدد من المؤلّفات منها «همارا نفس» (Hamara Nafs)، أي «سفينة الروح»؛ و«مرس أمين» (Mars Amin)، أي «المرفأ الأمين». ويستحسن أن نذكر في هذا السياق كتاب أحد المنشقّين عن هذه البدعة؛ واسم الكتاب «فكّاري ملكوت» (Fekkaré Malakot)، أي «تفسير الألوهيّة». ولا يخلو هذا الكتاب، الذي يمتاز بأسلوبه الأدبيّ الأنيق، من الأفكار الغنوصيّة.

٤ . اللاهوت الروحيّ والأخلاقيّ

إنّ الأعمال الكتابيّة في الحقل الروحيّ والأخلاقيّ هي ترجمات لنصوص آبائيّة وسريانيّة، وهي تعتبر أساسيّة في الحياة الروحيّة، ولا سيّما في تكوين الرّهبان.

في ما يختصّ بالنصوص الآبائيّة أوّلاً، فعددها كبير ومصادرها متنوّعة. فهنالك ترجمات لعظات القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ، وعلى الأخصّ «شرحه للرسالة إلى العبرانيّين»، وترجمة لـ «شرح الأناجيل»، لديونيسيوس برصليبي. وتجدر الإشارة إلى طابع هذه المؤلّفات العقائدي إلى جانب فحواها الروحيّ.

أمّا الأعمال السريانيّة الأصل، فقد نُقلت عن العربيّة إبّان عهد الملك لِبنادنغل، ويبلغ عددها ثلاثة. يتناول العمل الأوّل منها، وعنوانه «فيلكسيوس» (Filkesyus)، أي «فيلوكسين»، وينسب إلى فيلوكسين المنبجيّ (توفّي سنة ٥٢٣)، حياة آباء البريّة المتوحّدين، على شكل أسئلة وأجوبة. أمّا العمل الثاني فيعرف باسم «الشيخ الرّوحاني»، وهو مجموعة مؤلّفات ترويضيّة ليوحنا سابا، تتضمّن دروساً في الاخلاق والحياة الروحيّة، وبعض رسائل سابا. وأمّا العمل الثالث، والأخير، فهو «رسالة في ترويض النّفس» لاسحاق النينويّ (توفّي في نهاية القرن السّابع). وقد نُقلت هذه الرسالة إلى الأمهريّة سنة ١٩٢٣.

مسيحانيّة الكنيسة الإثيوبيّة

تؤمن الكنيسة الإثيوبيّة بأنّ طبيعة المسيح الإلهيّة قد توحّدت مع طبيعته البشريّة لحظة حَبَل مريم العذراء به. ولكن، في الوقت نفسه، لا تذوب طبيعة في أخرى. فلاهوت المسيح وناسوته لم يلحقهما أيّ تغيير. فالطبيعتان تتّحدان الواحدة بالأخرى، كما يتّحد الرّوح والجسد في الانسان ليؤلّفا طبيعة واحدة. إلاّ أنّه ما من ثنائيّة في هذه الوحدة، إذ لا يمكن الفصل بين الطبيعتين.

من جهة أخرى، فالله الآب ولد الكلمة قبل أن يكون العالم. وبعد خلق العالم، ولد الكلمة من العذراء مريم، ولذا من الحقّ أن تدعى مريم «أمّ الله»، وأن يكون الكلمة قد وُلد مرّتين.

المجادلات اللاهوتيّة

١ . الإفسطاتيّون (Les Eustathiens)

إنّ مؤسّس هذه البدعة هو الأبا إفستاتيوس (ʼAbbā ʼEwostātewos) (حوالى ١٢٧٣–١٣٥٢)، الذي نادى بضرورة احترام «السبتين»، أي سبت العهد القديم أو سبت اليهود، والأحد المسيحيّ. فخرج بذلك على تعاليم كنيسة الإسكندريّة التي ألحّت على إلغاء السبت اليهوديّ واحترام يوم الأحد. فكان أن آلف الإفسطاتيّون بدعة انتشرت على وجه الخصوص في بعض الأديرة بجنوب البلاد، وبقيت مستقلّة عن الكنيسة المحليّة، إلى أن توصّل الملك زرعا يعقوب إلى تسوية أجازت للإفسطاتيّين احترام السبتين من دون خروجهم على الكنيسة.

٢. الميخائيليّون (Les Mikaélites)

ظهرت هذه البدعة في مجرى القرن الرابع عشر. وقد استمدّ أتباعها معتقداتهم من كتب متأثّرة بالفكر الغنوصيّ. ومن هذه الكتب: «حياة القدّيسة حنّة» و«الاسكندر (الكبير) بطل الطهارة»، و«كتاب الأسرار». ويقوم مذهبهم على الاعتقاد بأنّه لا يمكن لإنسان أن يتقدّم في معرفة الله إلاّ بالتدريج، وبفضل معلّمين أسبغ الروح القدس عليهم. وقد استندوا في حججهم إلى بعض المراجع الكتابيّة مثل يوحنّا ١٨/١: «إنّ الله ما رآه أحدٌ قطّ»، و١ يوحنا ١٢/٤ «إنّ الله ما عاينه أحد قطّ»، و١ طيموتاوس ١٦/٦، الخ. ولقد اضطهد الملك زرعا يعقوب هذه البدعة التي دامت، بالرغم من ذلك، حتى القرن السادس عشر.

٣. الإسطفانيّون (Les Stéphanites)

لُقّب أتباع هذه البدعة بالإسطفانيّين نسبةً إلى مؤسّسهم الراهب إسطفانس (توفّي حوالي ١٤٥٠). مارس رهبان هذه البدعة ترويضا للنفس، وأظهروا تعصّباً شديداً لمعتقدهم الذي نصّ على احترام السبتين، ورفض إكرام العذراء مريم والصّليب. حاربهم الملك زرعا يعقوب في القرن الخامس عشر، وبنتيجة ذلك أخذت البدعة تضعف تدريجيّاً حتى انتهت في القرن التالي.

٤. جدل حول «المِسحة»

لم تنته المجادلات اللاهوتيّة فصولاً مع انتهاء بدعة الإسطفانيّين، فقد شهد القرن السابع عشر قيام جدل جديد حول «المسحة». ذلك بأنّ أوساطاً رهبانيّة إفسطاتيّة أخذت تروّج نظريّة لاهوتيّة تقول بأنّ الاتحاد التامّ بين طبيعتي المسيح إنّما حصل بعد مَسحة عماد يسوع في الأردنّ، فالمسيح منذ تلك اللحظة فقط أصبح ابن الله. فكان من أمر هذه النظريّة أن انتقصت من لاهوت يسوع جاعلة منه، على مثال بدعة التبنّية adoptianisme، إنساناً عاديّاً نال بنوّة الله. فنتج من ذلك انعقاد عدّة مجامع وطنيّة في محاولة لإيجاد حلّ بين أنصار هذه البدعة وباقي الكنيسة الإثيوبيّة التي أصرّت على أزليّة الابن. إلاّ أنّ هذه المساعي باءت بالفشل، فقد استمرّت المجادلة، وساهم في إعمارها مواقف الملوك المتعاقبين بين مؤيّد لبدعة المسحة ومعارض لها. فكان أن اتّخذ الجدل بعداً لاهوتيّاً جديداً، مع تبنّي بعضهم نظريّة ولادات المسيح الثلاث (سوست ليدت) (Sost Ledat).

٥. جدل حول ولادات المسيح الثلاث

قال أصحاب نظريّة ولادات المسيح الثلاث بأنّ وحدة الطبيعة في المسيح هي خاصّة جداً، وما ذلك إلاّ عمل الله الآب. فوحدة الطبيعة في المسيح لم تتمّ إبّان مسحته، بل في ولادته، إذ تبنّاه الله. وهذا ما حدا أنصار هذه البدعة على الاعتراف بولادات ثلاث في حدث التجسّد: الكلمة المولود من الآب قبل كلّ الدهور، والمسيح المولود من مريم العذراء، وأخيراً، المسيح المولود بسمة الروح القدس. وقد دامت هذه البدعة فاعلة في الكنيسة الإثيوبيّة إلى حين وصول الملك يوحنّس الرابع (١٨٧٢–١٨٨٩) إلى العرش. فقد اضطهد يوحنّس أنصار هذه البدعة وأيّد عقيدة الكنيسة المحليّة.

باستثناء مسألة انبثاق الروح القدس (ذلك بأنّ الكنيسة الإثيوبيّة تتبع التعاليم البيزنطيّة في هذه النقطة)، وناسوت المسيح، تعترف الكنيسة الإثيوبيّة بباقي العقائد الإيمانيّة التي تسلّم بها الكنيسة الكاثوليكيّة، ولكن مع بعض التفاصيل الناتجة عن الكتب المنحولة والتقاليد الشعبيّة. فيسوع، على سبيل المثال، قد تعمّد يوم الثلاثاء في ١٩ كانون الثاني (يناير) من العام ٥٥٣١ بعد خلق العالم، وله من العمر ٣٠ سنة و١٣ يوماً...

أمّا عن مريم، فقد وُلدت سنة ٥٤٨٥ بعد خلق العالم ليواكيم وحنّة اللذان كرّسا ابنتهما لله. وعندما كان لها من العمر ثلاث سنوات، صعد الملاك فانوئيل بها إلى السماء، وأعطاها لتأكل وتشرب، ثمّ عاد بها إلى أرضها حيث كان باستقبالها الشعب والكهنة. فقرّروا استبقاءها في الهيكل، فبقيت فيه وكانت الملائكة تخدمها. وعندما أصبح لها خمسة عشر عاماً، اختار لها الله يوسف، ابن داود، من عشيرة يهوذا، ليهتمّ بها...

٤. الحياة الطقسيّة

الأسرار

يتمسّك الإثيوبيّون ببعض التقاليد الشعبيّة التي منها ما يعود إلى تعاليم العهد القديم، وإن كانت الكنيسة الوطنيّة لا توصي بها صراحة. فالإثيوبيّون يختنون ذكورهم بعد انقضاء أسبوع على ولادتهم، ومنهم من يختنون إناثهم أيضاً. وختان الذكور، في نظرهم، هو علامة عهد الله مع إبراهيم، على ما ورد في سفر التكوين ١٠/٧ و٤/٢١. أمّا من الناحية القانونيّة، فالكنيسة الإثيوبيّة تعترف بالأسرار السبعة التي تمارسها الكنيسة الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة.

١. العماد والتثبيت

يُمنح سرّ العماد للذكر بعد ٤٠ يوماً على ولادته، وللأنثى بعد ٨٠ يوماً. ويتمّ العماد عن طريق تغطيس الجسم ثلاث مرّات في الماء. كما يُمسح المعتمد بالميرون، إشارةً إلى هبة الروح القدس. ومن عادة الإثيوبيّين أن يحتفلوا بالإفخارستيّا بعد منح سرّ العماد، ويشترك المعمّد أثناءها في المناولة، أسوة بالكنائس الأرثوذكسيّة.

أمّا سرّ التثبيت، فيمنحه الكاهن بعد العماد بفترة، وهو غالباً ما يُلغى، كما في سائر الكنائس المونوفيزيّة.

٢. الإفخارستيّا

يُقسم القدّاس الإثيوبيّ إلى قسمين رئيسيّين، قسم ما قبل النافور وفيه يشترك الموعوظون، وقسم النافور ويقتصر على المعمّدين فقط. أمّا القسم الأوّل، فهو يتألّف من تبخير المذبح وتحضيره، وتبريك الخبز والخمر وتقديمها، إضافةً إلى صلوات الشكر والطلبات والتريصاجيون، وأربع قراءات تؤخذ من رسائل القدّيس بولس والرسائل الجامعة وأعمال الرسل والإنجيل. ويختتم هذا القسم بتلاوة قانون الإيمان بعد صرف الموعوظين.

أمّا القسم الثاني، أو النافور، فهو مركز النقل في الليترجية وله اسمان: فري قدّاسي (ferē qeddāsē)، أي ثمرة الليترجية،

نوافير القدّاس الإثيوبيّ

تُعدّ الكنيسة الإثيوبيّة واحدة من الكنائس الغنيّة بالنوافير، إذ يبلغ عددها سبعة عشر نافوراً. ويعيد التقليد هذه النوافير، مثلما هي الحال في سائر الكنائس الشرقيّة، إلى الرسل وآباء الكنيسة وبعض القدّيسين. أمّا النوافير فهي: نافور ربّنا يسوع المسيح (الذي، بحسب التقليد، تعلّمه الرسل من يسوع نفسه بعد قيامته)؛ ونافور القدّيسة مريم (وينسب إلى القدّيس قرياقس (Cyriaque) المصريّ)؛ ونافور القدّيس يوحنّا الإنجيليّ؛ ونافور القدّيس يعقوب أخي الربّ؛ ونافور القدّيس مرقس الإنجيليّ؛ ونافور الآباء ٣١٨ (أي الآباء الذين اشتركوا في مجمع نيقية في سنة ٣٢٥)؛ ونافور القدّيس أثناسيوس؛ ونافور القدّيس باسيليوس القيصريّ؛ ونافور القدّيس غريغوريوس النيصيّ؛ ونافور القدّيس أيفانيوس (أسقف سلامين قبرص في القرن الرابع)؛ ونافور القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم؛ ونافور القدّيس كيرلّس الإسكندريّ؛ ونافور القدّيس يعقوب السروجي (أسقف بطنان بالقرب من الرّها. توفّي سنة ٥٢١)؛ ونافور القدّيس ديوسقورس (بطريرك الإسكندريّة ٤٤٤-٤٥١)؛ ونافور القدّيس غريغوريوس المنوّر (رسول أرمينية). ويضاف إلى هذه النوافير الخمسة عشر، نافور ثانٍ للسيّدة العذراء ينسب إلى القدّيس مرقس الإنجيليّ؛ ونافور ثانٍ ينسب إلى القدّيس كيرلّس الإسكندريّ.

وأكوتيت قُرْبان ('akotēt qurbān)، أي ذبيحة الشكران. وهو يتضمّن عدداً كبيراً من الصلوات، منها أدعية من أجل السلام، والمجد لله وقبلة السلام، والقدّوس، والتكريس، وكسر الخبز، والصلاة الربّيّة، والتناول. وتسبق التناول عادةً صلاة توبة طويلة، مع ترداد جملة «ارحمنا أيها السيد المسيح» واحد وأربعين مرّة.

ويمتاز القدّاس الإثيوبيّ بوفرة نافوراته، إذ يبلغ عددها سبعة عشر. إلاّ أنّ أكثرها استعمالاً هو نافور الرسل.

يُحتفل بالقدّاس أيام الآحاد والأعياد، ويومي الأربعاء والجمعة في الرعايا الكبيرة والأديار. ويفترض عادةً وجود كاهنين وثلاثة شمامسة. ويتناول المؤمنون الأسرار تحت شكلي الخبز والخمر.

٣. سرّ التوبة

لا يبدو سرّ التوبة إلزامياً للمؤمن في أوقات معيّنة، إلاّ أنّ السرّ يمنح عادةً، مع اعتراف المؤمن بخطاياه، للمنازعين. والغفران في الواقع هو صلاة استرحام.

٤. سرّ الزواج

تتمسّك الكنيسة الإثيوبيّة بطابع الزواج غير القابل للفسخ. وهذا ما يحدو الكثيرين إلى عقد قرانهم خارج الكنيسة، عن طريق عقد اتفاقات تأخذ أشكالاً مختلفة أكثرها مؤقّت. ولذا يجد الكثيرون أنفسهم في حالة حرم، فلا يتقدّمون من الأسرار إلاّ بعد منحهم الحلّ، وخضوعهم لقوانين الكنيسة.

أمّا في ما يختصّ بالكهنة، فلا يجوز لهم

الزواج غير مرّة واحدة. وفي حال وفاة الزوجة، على الكاهن أن يلتحق بأحد الأديار، إلاّ في حال عدم توفّر من يرعى شؤون الأولاد.

٥. مسحة المرضى والدرَجة

إنّ الكنيسة الإثيوبيّة، وإن كانت تعترف بسرّ مسحة المرضى على ما ورد في رسالة يعقوب ٥/١٤-١٦، فممارستها له نادرة جداً.

أمّا سرّ الدرجة، فيمنحه المتروبوليت للكاهن والشمّاس بحسب الطقس القبطيّ. وبما أنّ دور الشمّاس مهمّ في الإفخارستيّا والصلوات الليترجيّة، فإن درجة الشماسيّة تمنح لعدد كبير من الصبيان.

٥. الفنّ الإثيوبيّ المسيحيّ

فنّ عِمارة الكنائس

إنّ الكنائس الإثيوبيّة القديمة العهد، لا سيّما التي شيدت في شمال البلاد، لها شكل مستطيل. ويرقى هذا الشكل الهندسيّ، الذي يشبه الباسيليكات السريانيّة القديمة، إلى الفنّ المعماريّ الأكسوميّ. وكان المذبح في هذه الكنائس ظاهراً للمؤمنين. وفيما بعد، حجب القبّا(٤)، المستطيل الشكل دوماً، عن نظر الجمهور بواسطة حائط، هو بمثابة الإيقونسطاس(٥) المعروف في الكنائس الشرقيّة. وبعد القرن الرابع عشر. أُقفل على المذبح نهائيًّا بما يشبه قدس الأقداس، وأصبح الولوج إليه مقتصراً على الكهنة والشمامسة.

غير أنّ أكثريّة هذه الكنائس القديمة قد زالت مع الأسف، إمّا بسبب الحروب المتعاقبة، أو بسبب الإهمال. فلم يبق من الكنائس المستطيلة الأربع، التي تعود إلى القرون الوسطى، إلاّ كنيسة واحدة، هي كنيسة دير دبرا دامو (Dabrā Dāmo).

إلى جانب الكنائس المستطيلة، عرف فنّ عمارة الكنائس الإثيوبيّ الشكل المستدير، وهو الشكل الأكثر انتشاراً في الوقت الحاضر، ولا سيّما في وسط البلاد وجنوبها. تشبه هذه الكنائس الأكواخ المستديرة المعروفة في الأرياف الإثيوبيّة، حيث يتألّف سقف الكنائس من القش أو الصفيح المتموّج. ولعلّ هذا الشكل الهندسيّ قد اعتمد بعد التدمير الهائل الذي لحق بالكنائس القديمة إبّان حب جران.

وبقي أن نشير في هذا الباب إلى الكنائس الصخريّة، التي تعتبر من الآثارات المسيحيّة المهمّة في إثيوبيا، وحتى في الشرق المسيحيّ. وهذه الكنائس هي ثلاثة أنواع: المغاور التي حوّلت إلى كنائس، ولها واجهات ظاهرة على مثال آثار البتراء والكنائس الأحاديّة الحجر

---

(٤) القبا: في بعض الكنائس، طرف مستدير، في شكل محارة، موجّه عموماً نحو الشرق، يقع وراء المذبح والخورس (عن معجم الإيمان المسيحيّ).

(٥) الإيقونسطاس: حجاب مرتفع، توضع عليه الأيقونات، ويفصل بين صحن الكنيسة والقدس. وله ثلاثة أبواب (عن معجم الإيمان المسيحيّ).

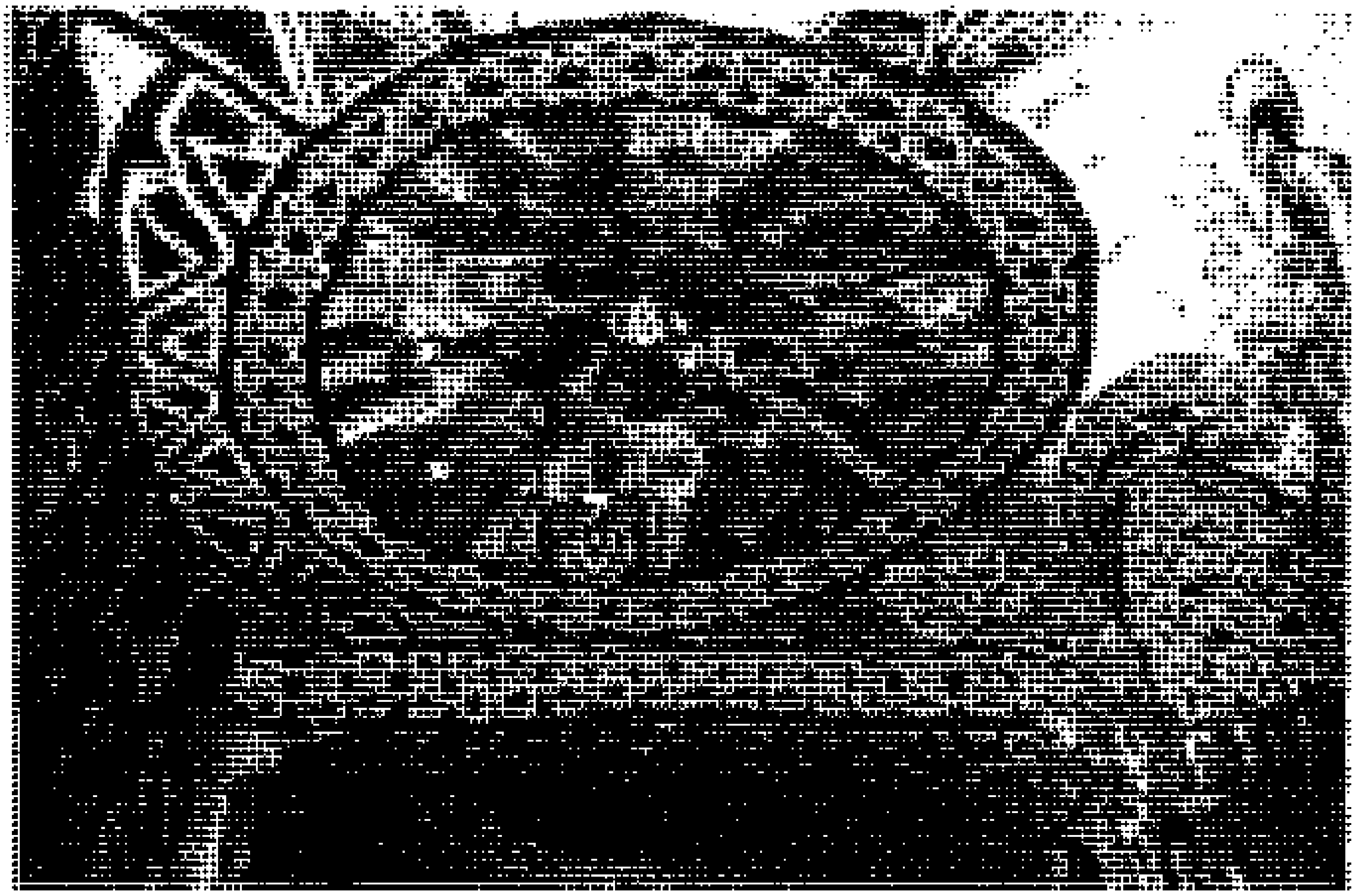

«رسل»: جزء من قبّة كنيسة غوط

(monolithes)، والكنائس المبنيّة تحت الأرض، وهي حفرت في الصخور أو الأجراف، وأخفيت ملامحها الخارجيّة.

عرف هذا الخط المعماريّ انتشاراً في إثيوبيا الوسطى والجنوبيّة، وبوجه خاصّ في عهد أسرة زاغوي (Zāgwē) الحاكمة (القرن ١١ و١٢م). وتعدّ مجموعة الكنائس في مكان لاليبلا (Lālibēlē) من منطقة لاستا (Lāstā) (إثيوبيا الوسطى)، من أجمل الكنائس الصخريّة وأكثرها عدداً.

فنّ الرّسم

لم تعرف الكنيسة الإثيوبيّة فن رسم الأيقونات إلاّ ابتداءً من القرن الخامس عشر، إذ أخذ بعضهم يرسم الأيقونات على ألواح خشبيّة. أمّا قبل ذلك العهد، فكانت الرسوم الجداريّة المائيّة في الكنائس هي الفنّ الشائع. وقد مثّلت، في معظمها، مشاهد إنجيليّة أو حياة قدّيسين. كما عرفت الكنيسة الإثيوبيّة بعض المخطوطات المزوّقة.

إنّ الإيقونوغرافية الإثيوبيّة قد تأثّرت، على مرّ العصور، بالمنتجات الفنّية البيزنطيّة والفارسيّة والأرمنيّة وحتى الهنديّة، وابتداءً من القرن الخامس عشر، على وجه خاصّ، بالمنتجات الأوروبيّة. وهذا ما أفقدها طابعها الإثيوبيّ الأفريقي الخاصّ.

وفضلاً عن ذلك، يُعبّر في الإيقونوغرافية الإثيوبيّة، كما الحال هي في إيقونوغرافية الشرق المسيحيّ، عن معتقدات الإيمان الأرثوذكسيّ. ولذا نجد أنّ المقاييس الطبيعيّة لا

تراعى في الرسم، فالهدف الأساسيّ هو جعل المفاهيم اللاهوتيّة منظورة وحسب.

ومن ناحية أخرى، اكتسب الإثيوبيّون شهرة في صناعة السجّاد والجدرانيّات والمطرّزات المزخرفة بالرسوم الدينيّة، إلى جانب صناعة الأدوات الليترجيّة من كؤوس وصلبان الخ.

٦. بنية الكنيسة الإثيوبيّة

الكنيسة والسلطة السياسيّة

كان للملوك دور بالغ الأهميّة في شؤون الكنيسة، ولا سيّما عند نشأتها في القرنين الرابع والخامس. ذلك بأنّ نموذج الإمبراطوريّة البيزنطيّة، التي تدخّل أباطرتها في أمور كنسيّة ومسائل لاهوتيّة، كان غالبًا آنذاك. فكان يجوز للملوك الدخول إلى قدس الأقداس في الكنائس، أسوةً بالكهنة والشمامسة، والدعوة إلى عقد المجامع. وطالما اعتبر الإثيوبيّون ملوكهم روّادًا في الدعوة إلى اعتناق الإيمان المسيحيّ والدفاع عنه. وقد قام الكثير من الملوك، في الواقع، بدعم الكنيسة وتعزيزها كما رأينا في القسم التاريخيّ.

احتفظ البلاط الملكيّ الإثيوبيّ بكهنة لم تشملهم سلطة المتروبوليت، بل كان لهم رئيسهم الخاص. وقد أدّى هذا الوضع، في فترة من فترات عهد هيلاسيلاسي، إلى خلق توتّر بين البطريركيّة ذات النزعة المحافظة، ورئيس كهنة البلاط حبتا ماريام ورقنه (Habta Māryām Warqnah)، الذي أقدم على تأسيس مدرسة لاهوتيّة ومكتبة حديثة وجريدة، إضافةً إلى عدد من منظّمات للشبيبة.

ولكن ما لبثت هذه المؤسّسات أن حُلّت، وأُلغي دور كهنة البلاط في آب (أغسطس) ١٩٧٤، بعد الثورة.

السلطة الكنسيّة

بعد الاتفاق الذي عُقد بين بطريركيّة الإسكندريّة وكنيسة إثيوبيا سنة ١٩٤٩، رسم متروبوليت إثيوبيا القبطيّ جرلُس (Gerlos) أساقفةً إثيوبيّين. وبعد وفاته سنة ١٩٥١، حلّ محلّه المتروبوليت باسيليوس، وهو إثيوبيّ ورئيس للرهبان والراهبات آنذاك. رسم هذا المتروبوليت خمسة عشر أسقفًا وزّعهم على أقاليم البلاد الأربعة عشر، وعلى أورشليم. وفي سنة ١٩٥٩، أصبح المتروبوليت باسيليوس أوّل بطريرك في الكنيسة الإثيوبيّة.

في ما يختصّ بالكهنة، فعددهم في إثيوبيا لافت للنظر، إذ وصل إلى ٦٩٧٢ كاهنًا سنة ١٩٧٠. والكهنوت غالبًا ما يستمرّ في البيت الواحد، فيصبح الابن كاهنًا على غرار أبيه. ويحاط الكهنة باحترام كبير، ويتمتّعون بامتيازات كثيرة، ويقومون بدور اجتماعيّ مهمّ. إلاّ أنهم، بوجه عامّ، يفتقرون إلى تكوين لاهوتيّ وفكريّ متين.

وعت السلطات الإثيوبيّة الحاجة إلى ضرورة توفير تكوين لاهوتيّ معاصر للكهنة، فطلبت، في سنة ١٩٤٤، من بطريركيّة الإسكندريّة إنشاء مدرسة لاهوتيّة حديثة في إثيوبيا. إلاّ أنّ الطلب لم يلبَّ. فوجب الانتظار حتى سنة ١٩٦٠ ليتمّ تأسيس معهد الثالوث

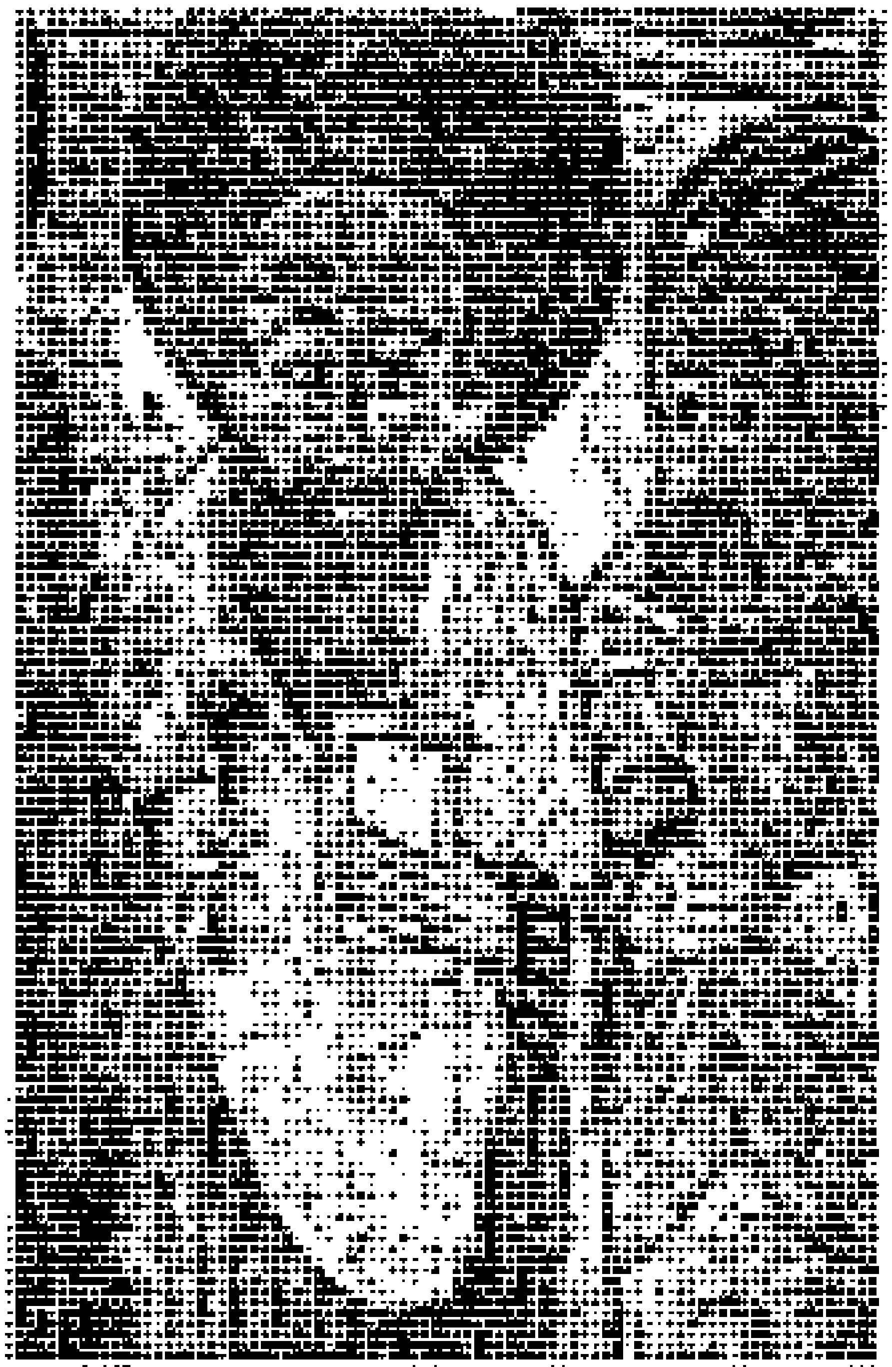

«راهبان»: رسم جداري في كنيسة غوط

الأقدس في العاصمة أديس أبابا، ذلك المعهد الذي أغلق زعماء الثورة أبوابه سنة ١٩٧٤. فحاولت السلطات الكنسيّة أن تستعيض عنه عن طريق إنشاء عدد من الإكليريكيّات والمدارس الحديثة، غير أن مستواها بقي دون مستوى المعهد السالف الذكر.

الدَّبْترا (Dabtarā)

إلى جانب الكهنوت والشمّاسيّة، هناك في الكنيسة الإثيوبيّة ما يُسمّى بالدَّبترا، وهي وظيفة ذات شقّين: الترتيل والتعليم. ولهذا السبب، يستفيد المرشّحون لهذه الوثبة من تكوين أشمل من تكوين الكهنة وأكثر إتقاناً منه. فيخرطون في مدارس كنسيّة متخصّصة ليدرسوا الموسيقى الدينيّة والتراتيل والتفسير التقليديّ للكتاب المقدّس، إضافة إلى آباء الكنيسة واللاهوت الأخلاقيّ وقواعد اللغة. وتدوم فترة تكوينهم غالباً عشر سنوات. وفضلاً عن دورهم المهمّ في العبادة، فهم يتطوّعون للتدريس في المناطق التي تفتقر إلى مدارس.

يصل عدد الدبترا في بعض الرعايا إلى المئات، وفي كنائس الأرياف إلى ستّة على الأقل.

التوحّد

مع بداية المسيحيّة في إثيوبيا، إبّان القرن الرابع، شهدت الحياة التوحدّية نموّاً سريعاً وانتشاراً شمل مختلف أنحاء البلاد. وقد كان للمتوحّدين دور أساسيّ في تبشير المناطق الوثنيّة، ولا سيّما في وسط إثيوبيا وجنوبها. فاحتلّت الحياة التوحدّية مقاماً اجتماعيّاً ودينيّاً مميّزاً، أخذ يترسّخ مع الوقت. وفي نهاية القرن الثالث عشر، قام الأبّا إياسوس مأو (ʼIyāsus Mo'ā)، رئيس دير القدّيس إسطفانس في حيق (Hayq)، بدور مهمّ لصالح الملك يكونو أملاك (Yekuno ʼAmlāk). فاعترف الملك، بالمقابل، بسيادة رئيس ذلك الدير على الإكليرس العلمانيّ. ثمّ انتقلت هذه السيادة، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، إلى رئيس دير دبره ليبانوس (Dabra Libānos) في شوا (Choa).

فأصبحت الحياة التوحدّية، منذ ذاك

العصر، خاضعة لنظام تسلسليّ، على رأسه رئيس ينتخبه مجمع دير ديره ليانوس، ويعيّنه الملك. تعزّز هذا الواقع مكانة الرهبان الاجتماعيّة والوطنيّة، لا سيّما وأنّ المتروبوليت كان، حتى سنة ١٩٥١، لا يزال مصريًّا.

وإلى جانب الأديار التوحديّة والرجاليّة، تأسّست جماعات نسائيّة تخضع قانونيًّا وروحيًّا للأديار الرجاليّة. ومن مكان آخر، عرفت الكنيسة الإثيوبيّة، على مرّ العصور، نسوة اعتزلن العالم، وأمضين حياتهنّ بالصوم والصلاة والتأمّل في الكتاب المقدّس.

يمضي الرهبان والراهبات أوقاتهم في الأديار في الصلاة وأعمال تقشّف قاسية، إضافةً إلى انصرافهم إلى الزراعة والبناء وأعمال الصيانة الداخليّة. ومنهم من ينصرف إلى الدراسة ونقل المخطوطات. ولذا يعتبر الرّهبان حماة التراث الأدبيّ والفنّي. وتتميّز الأديار عامّة بكرم الضيافة.

يصل عدد الأديار الرجالية حاليًّا إلى ٨٠٠ ديرًا، يمكن أن يُحصى في مقابلها عدد مماثل من الأديرة النسائيّة. وتتركّز أكثريّة هذه الأديار في مقاطعات غُجّم (Gojjam) وتِغري (Tegrē) وغُنْدَر (Gondar).

وتجدر الإشارة أخيرًا إلى أنّ مهمّة رئيس الحياة التوحديّة، أو الإيشغي (’ēčagē)، قد أُسندت، ابتداءً من سنة ١٩٥١، إلى رئيس الكنيسة الإثيوبيّة.

المراجع

- Walbert BüHLMANN, *Visage de l'Église d'Afrique*, Desclée, Paris, 1967.
- *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*, t. XV, Paris, 1963; article: «Éthiopie», col. 1176-1181.
- *New Catholic Encyclopedia*, vol. V, Washington, 1967; article: «Éthiopie», p. 583-590.
- Habie Sellassie SERGEW, *Ancient and Medieval Éthiopian History to 1270*, Addis Ababa, 1972.
- Kristen STOFFREGEN-PEDERSEN, *Les Éthiopiens*, coll. «Fils d'Abraham», Editions Brepols, Belgique, 1990.

أنجزت المطبعة الكاثوليكيّة في عاريّا – لبنان
طباعة هذا الكتاب في الخامس عشر من
تشرين الثاني ١٩٩٧

١٩٩٧/١١/١٥ – ٣ – ٠١٩٧٠١